



مَجْلَدُ مَجْمَعِ الْفِيءِ الْأِسْلَامِيِّ

الدَّوْرَةُ الْبَيْتِيَّةُ

الْعَدَدُ السَّابِعُ

الْجُزْءُ الرَّابِعُ

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

مَجْمَعُ الْفَقْهَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

الْعَدَدُ السَّابِعُ



مَجْلَمُ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ

الدَّورَةُ السَّبْعِيَّةُ

مَوْزُونُ مَجْلَمِ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ

الْعَدَدُ السَّابِعُ

الْجُزْءُ الرَّابِعُ

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

أحقوق الدّولة

البحوث

- بحث الشيخ محمد علي التسخيري .
- بحث سماحة الدكتور عبد العزيز الخياط .
- بحث الدكتور محمد الدسوقي .
- بحث الدكتور محمد رأفت سعيد .
- المناقشة .
- القرار .

أحقوق الدّولية في الإسلام

إعداد

فضيلة الشيخ محمد علي السخيري

عضو مجمع الفقه الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحكام الحرب والأسرى في الإسلام بين الرحمة والمصلحة

مقدمة:

الإسلام دين واقعي، بالمعنى الإيجابي للواقعية، ذلك أنها قد تعني التسليم الكامل للواقع، والرضوخ لمقتضياته دونما فاعلية، وهذا معنى سلبي.

وقد تعني الاعتراف بالواقع، وأخذُه بعين الاعتبار، مع الطموح للارتفاع به إلى المثل الأعلى، وهو ما كنا نعنيه عندما أطلقنا هذه الصفة على الإسلام.

بل يمكننا أن نَدعي - بكل اطمئنان - أن هذه الصفة هي أعمّ الصفات التي يتصف بها الإسلام. وربما كانت باقي الصفات مظاهر لها: كالشمولية والإيجابية، والخلود، والمرونة، والترابط، وغير ذلك.

بل هي تعبير آخر عن فطرية الإسلام بمعنى أنه جاء منسجماً - تماماً - مع إمكانات الفطرة وأهدافها، عاملاً على إثارة دوافعها وطاقتها، وهدايتها - على أفضل سبيل - لأفضل الأهداف الممكنة.

ولسنا نحاول - هنا - شرح أبعاد هذه الصفة، بقدر ما نريد أن ننفذ - من خلالها - إلى تجلّي هذه الصفة، في التخطيط التشريعي الإسلامي للحياة. فأنت تجد هذه الصفة في كل نظام، سواءً في المجال الحقوقي، أو الاقتصادي أو المجال السياسي، أو المجال المعرفي، أو أيّ مجال آخر.

ومن مظاهر الواقعية والمرونة الإسلامية؛ أنها عالجت الجانب المتأثر
بمتغيرات الحياة علاجاً مرناً إلى حدّ كبير .

(ومن الجدير بالذكر أننا نفرّق — تماماً — بين المرونة والميوعة، فإن هذه
— أي الميوعة — تعني تقريباً عدم وجود أي نظام يوضح المعالم. في حين أن
المرونة تعني وجود نظم مركزية وأضواء هادية. إلا أن هذه النظم لها القابليّة
المناسبة على الامتداد والتقلّص، بمقتضى مقتضيات الواقع والمثل التي يجب أن
يسمو إليها).

ونحن نعتبر أن كل الموارد التي يتم تسليم الأمر فيها إلى (وليّ الأمر
الشرعي) إنّما هي من هذا القبيل. فعندما يتمّ إيكال أمر تنظيم التوازن الاقتصادي
إلى وليّ الأمر، وعندما تتمّ إيكال بعض العقوبات إلى ولاة الأمور، وعندما
يوكل أمر المباحات — عموماً — إلى وليّ الأمر لينطلق فيها من منطلق المصالح
الإسلامية العليا؛ فإن ذلك يقوم — أساساً — على هذا المبنى الواقعيّ.

وإذا أردنا أن نركّز على مثال هو من صميم موضوعنا، أمكننا ملاحظة
موضوع (الرق وموقف الإسلام منه) لنكتشف هذه المرونة وضرورتها، بشكل
واضح، وسنجد في هذا أن الإسلام راعي التوازن المطلوب بين (الرحمة) وهي
النزعة الإنسانية الأصيلة، و(المصلحة) وهي ما يحقّق المثل التي يطمح إليها
الإسلام، ويحافظ على عنصر تحقيقها، من قبيل السلطة الإسلامية، ووجود الأمة
الإسلامية، وهيبة القانون الإسلامي.

الموقف من قضية الرق :

كان الاستعباد سنّة عالمية تعمل بها البشريّة كلها، وتقرّها كلّ المبادئ
والأديان السائدة، بما فيها المسيحيّة واليهوديّة.

وكان العبيد يشكّلون العصب الحساس للمجتمع، وطبقة لها نفوذ لا بأس
به في المجالات الحيوية، وكانت الطرق التي يتكوّن منها أفراد هذه الطبقة كثيرة،
أهمّها ما يلي :

- ١ - استرقاق العدو المحارب ومن ثم الأولاد.
 - ٢ - استرقاق الولي الظالم لمن هم تحت ولايته، ومثله استرقاق كل متغلب على من هم تحت سيطرته.
 - ٣ - تبعية الطفل للأم الرقيقة ولو كان الأب حراً.
 - ٤ - الهروب من الجيش والامتناع عن دفع الضرائب.
 - ٥ - الأشخاص الذين يعملون ضد الدولة، ويهربون إلى دولة أخرى فستلهم لدولهم.
 - ٦ - ارتكاب جرائم القتل.
 - ٧ - الغش في المعاملة.
 - ٨ - الفقر الذي يدعو الإنسان لبيع نفسه.
- هذه بعض أسباب الرق.

وجاء الإسلام، ونظر إلى الأمر نظرة واقعية، غير متسرفة، واستهدف أن يحقق الحرية ويلغي نظام الرق - كما يبدو من تصرفاته - طبعاً مع عدم الإخلال بالنظام الاجتماعي المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعبودية - أولاً - وعدم الإخلال بالقانون العسكري الذي كان يقوم على استرقاق الطرف الآخر - ثانياً - وهكذا نظر للأمر نظرة واقعية.

أما الأمور التي اتبعتها الإسلام من أجل المعالجة الواقعية لهذه الظاهرة فهي:

أولاً - انفتاح طريق التكامل المعنوي للجميع على حد سواء:

وهذه الفكرة إسلامية واضحة، وضحتها الآية القرآنية الشريفة: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالتقوى هي تقدير السموّ والمنزلة في الإسلام، والعمل الصالح يؤثر في رفع درجات الإنسان، أياً كان لونه ومقامه وجنسه:

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧].

ولقد رأينا أن المجتمع الإسلامي قدّر أشخاصاً كانوا عبيداً، وجعلهم قادة، واقتدى بالكثير من سلوكهم وحكمهم. وبتعبير مختصر، فقد ألمات الإسلام تلك النظرة السخيفة إلى العبد كمخلوق حقير، وكحيوان لا أكثر، بعد أن كانت شائعة بين الناس، وركّز على أن لا فضل لأبيضكم على أسودكم، كما لا فضل لعربيّ على عجميّ.

ثانياً – الدعوة إلى جعل الخول كالإخوان، والمعاملة الحسنة:

فقد ورد عن النبي ﷺ قوله:

«إخوانكم خولكم»^(١).

وهو تعبير جميل عن الأخوة الإسلامية، وأسلوب المعاملة التي يجب أن يتبعها الناس تجاه العبيد، ولا يترفعوا عليهم، وقد جاءت بعض الروايات التي تبين حسن الاستيهاب من العبد، وأن المال المعطى – في قبال ذلك – يجب أن يبقى في ملكه.

ففي الخبر عن الصادق (ع) كما رواه الصدوق عن إسحاق بن عمار:

(قلت لأبي عبد الله (ع): ما تقول في رجل يهب لعبد ألف درهم أو أقل أو أكثر، فيقول: حلّلتني من ضربتي إياك من كلّ ما كان مني إليك... ثم إنّ المولى بعد أن أصاب الدرهم التي أعطاه في موضع قد وضعها فيه العبد فأخذها المولى، أحلال هي؟ فقال (ع): لا، فقلت له: أليس العبد وماله لمولاه؟ فقال (ع): ليس هذا ذلك، ثم قال (ع): قل له فليردّها عليه، فإنّه لا يحل له، فإنه افتدى بها نفسه من العبد مخافة العقوبة والقصاص يوم القيامة)^(٢).

(١) نهج الفصاحة: ص ٢٠، ح ١١٣.

(٢) وسائل الشيعة: ٣٥/١٣، ٣٦.

والكتب التاريخية طافحة بما كان يعامل به القادة عبيدهم، فقد روى الكليني في (الكافي) عن رجل من أهل بلخ قال: (كنت مع الرضا (ع) في سفره إلى خراسان فدعا يوماً بمائدة له فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقلت له: جعلت فداك، لو عزلت لهؤلاء مائدة، فقال: «مه إن الرب – تبارك وتعالى – واحد، والأم واحدة، والأب واحد، والجزء بالأعمال»^(١).

وقال نادر الخادم: كان أبو الحسن (ع) إذا أكل أحدنا لا يستخدمه حتى يفرغ من طعامه^(٢).

ثالثاً – إغلاق كلّ المنافذ إلّا منفذ الحرب بشروط معينة:

فقد رأينا أن العبيد كانوا يكترون عن طرق عديدة، ولكن الإسلام أغلق كل الطرق إلّا طريق الحرب. فالأسير في الغنيمة يقبل تطبيق أحد الأحكام التالية: إمّا العفو، وإمّا الإطلاق بفدية، وإمّا الاسترقاق، ولا معنى للاعتراض على الاسترقاق إذا عرفنا الحقائق التالية:

١ – إن ولي الأمر مسؤول عن تطبيق أفضل الحالات على الأسير، وأرفقها بالمصلحة العامة، كما صرّح بذلك الفاضل والشهيد الثاني وغيرهما.

٢ – إن الحرب في سبيل حمل الدعوة إلى بلاد الكفر لم يسمح بها الإسلام سماحاً عاماً، وإنما سمح بها في ظرف وجود قائد عادل واشترط البعض العصمة^(٣).

٣ – إن العدو – آنذاك – كان يتبع هذه الطريقة نفسها مع المسلمين فلا اعتراض أو نقد في معاملته بالمثل.

٤ – إن البديل عن الاسترقاق – في حالة لزومه – ليس إلّا القتل أو السجن. والأول لا نتصور من يفضّله على حياة الرق على الشكل الإسلامي،

(١) البحار: ١٠١/٤٩.

(٢) البحار: ١٠٢/٤٩.

(٣) اقتصادنا: ص ٢٧٥، ٢٧٦.

كما لا نتصور أن الإسلام يهدر دم الإنسان هكذا بمجرد وجود بارقة من الأمل في نجاته .

أما السجين فيعني إهدار الكثير من الطاقات التي يتمتع بها الأسرى، بل وصرف الكثير من الأموال في سبيل الحفاظ على مثل هذه الطاقات المهدورة .

أما والمجتمع حاضر لأن يتكفل بهذه المهمة فإن الاسترقاق سيبقى هو الطريقة الأنجح في علاج هؤلاء، لضمان مراقبتهم أولاً، وللاستفادة من طاقاتهم الاجتماعية ثانياً، ولكي يختلطوا مع المجتمع المسلم، فيتشبعوا شيئاً فشيئاً بالتعاليم الإسلامية، مما يمهد لهم طريق الهداية . وعلى أي حال فقد كانت هناك ضرورة لهذا المنبع ولذلك المقدار من العبيد .

رابعاً – التصرف الواسع للعبيد والتحرير السريع لهم :
وفي قبال هذا الباب فتح الإسلام الأبواب على مصراعها للتحرير .

التحرير المستحب :

وقد جعل الإسلام هذا من أعظم المستحبات . فتحري رقة يعني رفعاً للعقبة في طريق الجنة . وما أكثر الروايات الواردة في هذا السبيل، ونحن نذكر بعضها :

قال رسول الله ﷺ :

«من أعتق مسلماً أعتق الله العزيز الجبار بكلّ عضو منه عضواً من النار»^(١) .

وفي الخبر الصحيح الذي رواه الشيخ عن الإمام الصادق (ع) أنه قال في الرجل يعتق المملوك :

(يعتق الله – عز وجل – بكلّ عضو منه عضواً من النار)^(٢) .

(١) وسائل الشريعة : ٣/١٦ .

(٢) ن . م . : ص ٣ .

وفي خبر آخر عن الصادق (ع):

(ولقد أعتق عليّ (ع) ألف مملوك لوجه الله - عز وجل - دبرت فيهم يداه)^(١).

والأخبار كثيرة في شراء العبيد وإعتاقهم.

وقد جعلت بعض الروايات لتأكيد استحباب العتق أوقاتاً خاصة.

ففي الخبر الصحيح عن الصادق (ع):

(يستحبُّ للرجل أن يتقرَّب إلى الله عشيَّة عرفة ويوم عرفة بالعتق والصدقة)^(٢).

كما يستحبُّ عتق العبد إن خدم سبع سنين، ويستحبُّ إعطاؤه ما يكتسب به^(٣).

التحرير الواجب:

فلم يكتف الإسلام بالدعوة إلى تحرير العبيد، وخصوصاً الذين اعتنقوا المبدأ الإسلامي، وأصبحوا من المؤمنين.

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:

(من أعتق رقبة مؤمنة كان له بكل عضو فكاك عضو منه من النار)^(٤).

لم يكتف الإسلام بذلك، وإنما أدخل ذلك في صميم النظام، كواجب يترتب على الإنسان أن يقوم به في ظروف خاصّة، وهذه بعض المنافذ التي فتحتها الإسلام للتحرير، وهي:

(١) ن. م. : ص ٣.

(٢) ن. م. : ص ٥.

(٣) ن. م. : ص ٣٦.

(٤) ن. م. : ص ٤.

- ١ - عتق الكفارة: فقد ورد لزوم تحرير العبد في الموارد التالية: الظهار والإيلاء (أي الحلف على عدم وطء الزوجة الدائمة أبداً، أو أكثر من أربعة أشهر)، والإفطار، وخلف النذر، والعهد، واليمين، والجزع المحرم في المصاب، والقتل.
- ٢ - عتق المرضى: لحالات الإقعاد، العمى، والجذام. قال الصادق (ع): (إذا عمي المملوك فقد عتق)^(١).
- ٣ - عتق الاستيلاء: فإن أم الولد تتحرر بموت المولى ولا يجوز له بيعها.
- ٤ - عتق السراية: فلو عتق بعضه سرى العتق إلى الكل.
- ٥ - إسلام المملوك في دار الحرب قبل مولاه.
- ٦ - عتق التنكيل.
- ٧ - العتق لتملك الذكر أحد العمودين أو المحارم من النساء.
- ٨ - العتق لتملك الأنثى أحد العمودين.
- ٩ - تبعية أشرف الأبوين.
- ١٠ - عتق التدبير: وهو تعليق عتق بعض عبده أو كلّه بوفاته.
- ١١ - عتق المكاتب: المشروط والمطلقة.
- ١٢ - وهناك قوانين أخرى لشراء العبيد وإعتاقهم. فالزكاة يشتري بها الأرقاء وهو قوله - عز وجل - : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].
وغير ذلك.

(١) الكافي: ١٨٩/٦.

التوازن بين الرحمة والمصلحة :

الإسلام دين التوازن الحكيم^(١)، في مختلف المجالات، ولكننا نستطيع القول - كما أسلفنا - بأن التوازن بين (الواقع) و (المثال) هو من أشملها جميعاً.

و (الواقع) في موضوعنا يتمثل في توفير كلِّ المظاهر الإنسانية، والحقوق البشرية، من (الكرامة، والحرية، والحياة المستقلة) لا بل يتجاوز ذلك إلى مجالات الإيثار واللطف العميم. إلا أن (المثال) - هنا - يتطلب تحقيق المصلحة الإسلامية العليا، لكي نضمن للمنطلق الإسلامي وجوده القوي المتكامل الفاعل، على طريق تغيير الحياة الإنسانية كلها إلى حياة عابدة، مخلصة، تعبد ربها لا تشرك به شيئاً، آمنة مطمئنة. ويعني ذلك أن تقتلع كل الأشواك، وتحذف كل العقبات، وتصادر كل الموانع التي تقف عثرة أمام تحقق هذا الهدف الكبير.

وأين يتم التعارض بين هذا الواقع، الذي نعبر عنه فيما يلي بـ (الرحمة)، وهذا المثال الذي نعبر عنه بـ (المصلحة)؟

إنه يتمُّ عندما يدفع الجهل، والتعصب، والطاغوت؛ أناساً لمحاربة النبئة الإسلامية، والمسيرة الصاعدة، للقضاء عليها، ومصادرة الأمل الكبير، ربما دون وعي لما يفعلون، ويحقدون بالوجود، وبالتالي يحقدون بالخطر بالمثال كله، أمام واقع مرير، جاهل طاغ، فماذا العمل؟

هنا ندعي أن الإسلام - رغم اهتمامه الكبير بـ (المصلحة) - لم ينس مطلقاً الواقع الإنساني، والحقوق البشرية (الرحمة)، وإنما حاول - بكل ما في وسعه - أن يحقق التوازن بينهما، وإن كان الأهم هو المقدم بلا ريب، وهذا هو حكم منطق الوجدان.

(١) راجع الكتاب (التوازن في الإسلام)، للمؤلف، لملاحظة معنى التوازن، وضرورة قيد الحكمة فيه.

والآن:

لنعد إلى أحكام الحرب والأسرى لنجد تطبيق هذا التوازن . . التطبيق الذي لم تشهد البشرية له من سابقة، وحتى إنها لم تستطع أن تصل إليه في عصورنا الحاضرة التي تدعي التمدن.

وهذا ما يمكن أن نلاحظه في كثير من أحكامه ونصوصه، ونحن نقتطف منها ما يلي كأثلة فقط على ما نقوله:

١ - التعليمات الحربية المسبقة:

فقد كانت عادة الرسول ﷺ والقادة المسلمين أنهم إذا بعثوا سرية أو كتيبة حربية خصّوها بالتعليمات اللازمة. فرسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية دعا أميرها فأجلسه إلى جنبه، وأجلس أصحابه بين يديه ثم قال:

(سيروا باسم الله، وبالله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، لا تغلّوا، ولا تمثّلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطّروا إليها، وأيما رجل من أذى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى رجل من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله، فإن تبعكم فأخوكم في الدين، وإن أبى فابلغوه مأمته، واستعينوا بالله عليه)^(١).

وكان أمير المؤمنين علي (ع) يوصي أصحابه إذا صافوا العدو قائلاً:

(عباد الله! اتقوا الله، وغيظوا الأبصار، وأخفضوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجاوله، والمبارزه والمنابذه، والمعانقه والمكارمه، وأنبيوا إلى ربكم، واذكروا الله لعلكم تفلحون.

إن الله - تعالى - دلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، وتسمى بكم

(١) انظر تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي: ١٣٩/٦؛ والكافي، للكليبي: ٢٧/٥؛ ومحاسن البرقي: ص ٤٥٥؛ وكنز العمال: ٢٣٣/٤ - ٣٠٤؛ والكافي لأبي الصلاح: ص ٣٦؛ ونيل الأوطار للشوكاني: ٧٢/٨ و ٧٤.

إلى الخير، الإيمان بالله والجهاد في سبيله، وجعل ثوابه مغفرة الذنب، ومساكن طيبة في جنات عدن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بَنِينَ مَرْصُورًا﴾ فسوّوا صفوفكم كالبنيان، وقدموا الدراع، وأخروا الحاسر، وعضّوا على النواجذ، فإنه أنبى للسيوف، والتتوا على أطراف الرماح، فإنه أمراً للأسنة، وعضوا الأبصار، فإنه أربط للحجّاش وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات؛ فإنه أطرّد للفشل وأولى بالوقار، ولا تميلوا براياتكم، ولا تجعلوها إلّا مع شجعانكم، ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتكم إلى رجال القوم فلا تهتكوا سترأ، ولا تكشفوا عورة، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم، إلّا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسبين أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول.

رحم الله امرأً واسى أخاه بنفسه، ولم يكل قرنه إلى أخيه، فيجتمع عليه قرنه وقرن أخيه، فيكتسب بذلك اللائمة، ويأتي بدناءة... (١).

٢ - الدعوة والتوعية أولاً، وعدم الهجوم المباغت دونما تثبيت:

- كان النبي ﷺ يأمر بانتظار المجموعات التي يحاربها، فإذا سمع الأذان منها امتنع، وإلّا حمل عليها.

وكان يحمل عند صلاة الصبح، ليعرف هل يصلّونها أم لا، وإذا حاصر انتظر حتى الصباح (٢).

- وقال عليّ (ع):

(بمعني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: يا علي! لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وإيم الله، لأنّ يهدي الله - عزّ وجل - على يديك رجلاً خيراً لك ممّا طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي) (٣).

(١) الكافي في الفقه، لأبي الصلاح الحلبي، فصل في سيرة الجهاد.

(٢) سنن الدرّامي: ٢/٢١٧؛ والسنن الكبرى: ٩/١٠٨؛ ونيل الأوطار: ٨/٦٩.

(٣) وسائل الشيعية: ٣٠/١١.

— وقد روي أن علياً (ع) كان يقول في كل موطن يتم فيه لقاء العدو :

(لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فإنكم — بحمد الله — على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل)^(١).

وهذا وقد تضافرت الروايات التي تؤكد هذه الحقيقة^(٢). وقد جيء لرسول الله ﷺ ببعض الأسرى، وعلم إنهم أسروا قبل الدعوة فأمر بإطلاق سراحهم^(٣).

كما أن كتب الفقه كلها — تقريباً — تشير إلى ضرورة الدعوة والتوعية والانتظار حتى تتم الحجة، نذكر مثلاً :

— قول الحلبي في (الكافي) :

(ولا تبدأ العدو بالحرب بعد الإعدار، حتى يكونوا هم الذين يبدؤون به، لتحق الحجة، ويتقلدوا البغي)^(٤).

— ويقول الشيخ الطوسي في (النهاية) :

(ولا يجوز قتال أحد من الكفار، إلا بعد دعائهم إلى الإسلام، وإظهار الشهادتين، والإقرار بالتوحيد والعدل، والتزام جميع شرائع الإسلام، فمتى دُعوا إلى ذلك فلم يجيبوا حلّ قتالهم، ومتى لم يدعوا لم يجز قتالهم، والداعي يجب أن يكون الإمام أو من يأمره الإمام)^(٥).

— ويقول الصهرشتي في (إصباح الشريعة) :

(١) الوسائل : ٦٩/١١ .

(٢) يراجع مثلاً : مصابيح السنة : ١٤٩/٢ ؛ ومسند ابن أبي شيبة : ٢٦٤/١٤ ؛ والسنن الكبرى : ١٧٩/٨ .

(٣) البداية والنهاية : ٣١٥/٤ ؛ وكنز العمال : ٢٧١/٤ .

(٤) اللينابيع الفقهية، نقلاً عنه : ص ٣٦ .

(٥) ن . م . : ص ٥١ .

(وكيفيته: أن يؤخّر لقاء العدو، إلى أن تزول الشمس وتصلى الصلاتان، وأن يقدّم قبل الحرب الإعذار والإنذار، والاجتهاد وفي الدعاء إلى الحق، وأن يمسك عن الحرب — بعد ذلك — حتى يبدأ بها العدو، لتحقّ الحجّة عليه ويتقلد بذلك البغي^(١)).

— ويقول القاضي الطرابلسي في (المهذب):

(ومن لم تبلغه الدعوة فلا يجوز له قتاله، إلّا بعد الإنذار والتعريف بما تتضمّنه الدعوة)^(٢).

— ويقول الراوندي في (فقه القرآن):

(وإذا قوتل البغاة فلا يُندوون بالقتال، إلّا بعد أن يدعوا إلى ما ينكرون من أركان الإسلام)^(٣).

— ويقول حمزة بن علي الحلبي في (غنيمة النزوع):

(وأن يقدم قبل الحرب الإعذار والإنذار والاجتهاد في الدعاء إلى الحق)^(٤).

ولا نستطيع أن نستقضي الآراء، فالإجماع قائم على ذلك، وهي صفة حميدة تجعل الطرفين على بينة، وتتم الحجّة والمنطقية في البين، وعلى هذا الأساس منعوا من التبييت (وهو الهجوم ليلاً) ولما فيه من فزع.

٣- وسائل الحرب وأساليبها:

ويختار من بين هذه الوسائل والأساليب ما يحقق الغرض، ويتجنب إصابة الأبرياء والضعفاء — مهما أمكن — .

(١) ن. م. : ص ٧١.

(٢) ن. م. : ص ٩١.

(٣) ن. م. : ص ١٤٣.

(٤) ن. م. : ص ١٥٩.

فقد جاء المنع عن استعمال المواد الكيميائية السامة، إلى حدّ يتصور معه المرء أنها ممنوعة مطلقاً، أي حتى في حالات الاضطرار، وحينئذ فإذا أضيفت لها معاهدات دولية تمنع منها على أيّ حال فإن المنع سوف يكون أشد وأقوى .

— عن الصادق (ع) عن الباقر (ع) عن علي (ع):

(إن النبي ﷺ نهى أن يلقى السم في بلاد المشركين)^(١).

وهكذا نهى الفقهاء عن اللجوء إلى وسائل من قبيل: الغارة، وفتح الماء لإغراق العدو، ما دامت هناك وسائل أخرى:

— يقول الشيخ الطوسي في (النهاية).

(ويجوز قتال الكفار بسائر أنواع القتل وأسبابه، إلّا السم؛ فإنه لا يجوز أن يلقى في بلادهم السم، ومتى استعصى على المسلمين موضع منهم كان لهم أن يرموهم بالمنجنيق والنيران، وغير ذلك مما يكون فيه فتح لهم)^(٢).

— ويقول ابن أبي المجد الحلبي في (إشارة السبق):

(وكلما يرجى به فتح يجوز قتال الأعداء به إلّا إلقاء السم في ديارهم)^(٣).

— ويقول ابن إدريس في (السرائر):

(ويجوز قتال الكفار بسائر أنواع القتل، إلّا تغريق المساكن، ورميهم بالنيران، وإلقاء السم في بلادهم؛ فإنه لا يجوز أن يلقى في بلادهم السم)^(٤).

والنصوص في هذا الباب كثيرة.

وربما منعوا — على هذا الأساس — من التبييت، وهو الغارة الليلية:

(١) جامع الأحاديث: ١٥٣/٣، نقلًا عن الكافي؛ والتهذيب: ١٤٣/٦؛ والجعفریات: ص ٨٨.

(٢) ن. م. : ص ٥١.

(٣) ن. م. : ص ١٨٦.

(٤) ن. م. : ص ١٦٨.

— يقول ابن البراج:

(وإذا كان المسلمون مستظهرين على المشركين كره تبييتهم ليلاً والإغارة عليهم)^(١).

— ويقول ابن إدريس في (السرائر):

(وروى أصحابنا كراهية تبييت العدو حتى يصبح)^(٢).

— ويقول العلامة الحلبي في القواعد:

(ويكره التبييت والقتال قبل الزوال لغير حاجة)^(٣).

وهناك نصوص أخرى تنهى عن مثل هذه الأساليب:

فعن أبي هريرة أنه قال:

(بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار. ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما)^(٤).

بل روي أن إحراق جسد الحيوان غير جائز:

ففي حديث المناهي:

(ونهى — أي رسول الله ﷺ — أن يحرق شيء من الحيوان بالنار)^(٥).

— وذكر ابن قدامة في (المغني) ما يدل على منع إحراق العدو بالنار بعد

النصر، بل وقبل النصر، إن كانت هناك وسيلة أخرى، لأنها قد تحرق النساء والأطفال)^(٦).

(١) الينابيع الفقهية: ص ١٤٣.

(٢) ن. م. : ص ١٦٨.

(٣) ن. م. : ص ٢٤٧.

(٤) صحيح البخاري: ٧٥/٤؛ والسنن الكبرى: ٧١/٩؛ وسنن سعيد بن منصور: ٢٤٣/٢.

(٥) وسائل الشريعة: ٢٢٠/١٢.

(٦) المغني، لابن قدامة: ٢١١/١٠.

ومما منعت منه النصوص، وتابعتها الفقهاء؛ مسألة (التخريب) وقد ذكرنا بعض النصوص فيما يخص ذلك:

– يقول أبو الصلاح الحلبي في (الكافي):

(ولا يجوز قتل الشيخ الفاني، إلا أن يكون من أهل الرأي كدريد بن الصمّة، ولا المرأة، ولا الصبي، ولا المريض المدنف، ولا الزمن، ولا الأعمى، ولا المؤوف العقل، ولا المتبتّل في شاهق؛ إلا أن يقاتلوا فيحلّ قتلهم... ولا يجوز حرق الزرع، ولا قطع شجرة الثمر، ولا قتل البهائم، ولا خراب المنازل، ولا التهكُّ بالقتلى)^(١).

كل هذا مع الإمكان – طبعاً – وإذا توقف الفتح على ذلك فللضرورات أحكامها – كما سيأتي إن شاء الله تعالى – .

وكما رأينا، فإن قتل الضعفاء – ومنهم النساء – منهي عنه، بل حتى لو قاتلن فإنه يمسك عنهن، ما لم يحدث خلل .

فقد روي عن الإمام الصادق قوله في رواية:

(لأن رسول الله ﷺ نهى عن قتل النساء والولدان في دار الحرب، إلا أن يقاتلن، وإن قاتلت – أيضاً – فأمسك عنها ما أمكنك ولم تخف خلالاً)^(٢).

وقد استثنى الفقهاء – على خلاف كثير – من ذلك:

– ما لو أقدمت امرأة على قتل مسلم .

– وما لو اشتركن في الحرب وأعنت على المسلمين .

وربما أفتى بعض العلماء بعدم جواز القتل مطلقاً، بل حرم المنجنيق لأن فيه ذلك^(٣).

(١) الينابيع الفقهية: ص ٣٧ .

(٢) تهذيب الأحكام: ١٥٦/٦ .

(٣) أحكام الأسرى في الإسلام، مخطوط للعلامة الأحمدي .

– يقول الشيخ الطوسي في (النهاية):

(ولا يجوز قتل النساء، فإن قاتلن المسلمين، وعاونَ أزواجهن ورجالهن أمسك عنهن، فإن اضطروا إلى قتلهن جاز حينئذٍ قتلهن، ولم يكن به بأس^(١)).

– ويقول العلامة الحلبي في (القواعد):

(لا يجوز قتل المجانين، ولا الصبيان، ولا النساء منهم، وإن أعنَّ إلاَّ مع الحاجة)^(٢).

٤ – أحكام الأسرى وحقوقهم:

وهو باب واسع الأبعاد، إلاَّ أننا نختار منه بعض اللقطات، بما يحق لنا الغرض من هذا البحث، ونركز على الجوانب التالية:

(أ) الموارد التي يجوز فيها التأسير.

(ب) كيفية الاستئثار.

(ج) إطلاق سراح الأسرى.

(د) حقوق الأسرى.

(أ) الموارد التي يجوز فيها الاستئثار:

ويذكر الفقهاء – عادة – نوعين من المحاربين: الكافرين، والبغاة.

الكافرون:

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّىٰ يَشْرِكَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَوْ لَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ – ٦٩].

ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَسْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِإِذَا مَا مَأْتُوا بِكُمْ بَدَّ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

(١) الينابيع الفقهية: ص ٥١.

(٢) ن. م: ص ٢٤٧.

والآيتان واضحتان في حكم واقعي هو التفريق بين حالتين:

الحالة الأولى: فيما لو لم يتم الإثخان والتمكن في الأرض فإنه تقتضي المصلحة؛ القضاء على كل عنصر يمكنه أن يقلب الموازين لصالح العدو، ولا معنى - حينئذٍ - للتأسير، وإذا كانت الآية الكريمة تلوم المسلمين على تأسير بعض الكفار في هذه الحالة فهي تشير إلى المصلحة الآتية، والتي لا يعدلها رجاء الفدية التي تتوقع بعد الأسر، وهي عرض دنيوي لا قيمة له في قبال النصر.

الحالة الثانية: وهي ما لو تم التمكن، وبدرت بوادر النصر، (حتى قبل انتهاء الحرب) فحينئذٍ يجوز الأسر بشد الوثاق، لثلا يهربوا. وحينئذٍ يختلف الفقهاء في موضوع الأسير بعد أسره والحرب قائمة فيرجح بعضهم أن الإمام مخير فيهم بين الفداء أو المن فقط، في حين يجيز بعضهم الآخر له القتل - أيضاً - إذا رأى المصلحة في ذلك، استناداً للآيات الأمرة بقتل المشركين^(١).

والحقيقة؛ أن الأمر في ذلك يتبع الخطر المحدق بالجيش الإسلامي، وليس هناك ما يمنع من قتله إذا كان فيه الخطر على المسلمين.

أما إذا تم الأسر بعد الحرب (فإن الإمام مخير في المنّ عليه، أو أخذ الفداء، أو الاستفادة من عمله. ولا يجوز - في هذه الحالة - قتل الأسير)^(٢).

(١) تراجع الكتب التالية: التذكرة: ٤٢٥/١؛ والمنتهى: ص ٩٢٧؛ والميزان: ١٨/٢٤٢؛ ومسالك الإقهاء: ٣٣٥/٢؛ وكنز العرفان: ١/٣٦٥؛ وأحكام القرآن، للجصاص: ٥/٢٤٥؛ والتبيان في تفسير القرآن: ١/٢٩١.

(٢) يراجع: المبسوط: ١٢/٢ - ٢٠؛ والتذكرة: ١/٤٢٤؛ والنهاية: ص ٥٣؛ والجمل والعقود: ٥/٦٢؛ والإصباح: ص ٧٣؛ والمهذب: ص ١٠٠؛ والسرائر: ص ١٧١؛ وإشارة السبق: ص ١٨٧؛ والشرائع: ص ٢٠٧؛ والمختصر النافع: ص ٢٢٨؛ والجامع، لابن سعيد: ص ٢٣٦؛ والقواعد: ص ٢٤٨؛ واللمعة الدمشقية: ص ٢٧٤؛ والمسالك: ١/١٥٢؛ والمنتهى: ٢/٩٢٧؛ والتحرير: ١/١٤٠؛ والخلاف: ٢/٣٣٢؛ والمختلف: ١/٣٣١؛ والغنية: ص ١٥٨، و ١٦٠؛ وفقه القرآن: ص ١٣١.

وفي الرواية عن الصادق (ع):

(كان أبي يقول: ... إذا وضعت الحرب أوزارها، وأتخن أهلها، فكل أسير أخذ على تلك الحال فكان في أيديهم فالإمام فيه بالخيار؛ إن شاء منّ عليهم، وإن شاء فاداهم بأنفسهم، وإن شاء استعبدهم فصاروا عبيداً^(١)).

البغاة:

والملاحظ هنا أن الأحكام تختلف - تماماً - مع البغاة، باعتبارهم مسلمين خارجين على الإمام، فرغم أنهم يهدّدون كيان الدولة الإسلامية كله، إلّا أن قبولهم (ولو لفظاً) للإسلام يغيّر الحكم عليهم، وخصوصاً في مجال الأسر. فهؤلاء البغاة لا يمكن قتالهم إلّا بشروط:

منها: أن يعتصموا بقلعة وأمثالها، مما لا يتيسر معه تفريقهم، إلّا بإرسال قطعات حربية إليهم.

وقد أشار صاحب الجواهر إلى هذا الشرط - بعد ذكر بعض النصوص - قائلاً: (ولعله لهذه النصوص ونحوها قال الشيخ وابنا إدريس وحمزة - فيما حكى عنهم - أنه يعتبر في جريان الحكم كونهم في منعة، وكثرة، لا يمكن كفهم، وتفريق جمعهم، إلّا بالاتفاق، وتجهيز الجيوش والقتال. فأما إن كانوا نفرأ يسيراً - كالواحد والاثنين والعشرة - وكيدهم ضعيف، لم يجر عليهم حكم أهل البغي، وهو المحكي عن الشافعي، مستدلين بأن ابن ملجم لما جرح علياً - (ع) - وقُض عليه، أوصى أمير المؤمنين - (ع) - بالإحسان إليه، وقال: (إن برئت فأنا أولى بأمرى، وإن مئّ فلا تمثلوا به) ولكن عن بعض الجمهور جريان حكم البغاة حتى على الواحد، إذا خرج بالسيف، بل في المنتهى والتذكرة أنه قوي، بل قيل إنه مقتضى إطلاق المتن (شرائع الإسلام والقواعد والإرشاد) وغيرها. وإن كان قد يناقش بانسباق غير ذلك من الإطلاق المزبور، خصوصاً بعد ذكرهم الفئة ونحوها، مما يظهر منه الاجتماع المعتدّ به، ولا أقل من الشك،

(١) تهذيب الأحكام: ١٤٣/٦.

فيبقى الأصل – حينئذٍ – بحاله . نعم يجري عليه حكم المحارب لو فرض إشهاره
للسلاح أو غيره مما يندرج فيه^(١).

ومن هذا النص يظهر أنه يرى فعلية هذا الشرط، رغم ما نسب إلى الآخرين
من الخلاف فيه .

ومنها: أن لا يكونوا تحت سيطرة الإمام، وإلا لم يعودوا من البغاة،
واستند في ذلك إلى رواية جاء فيها:

(إن علياً (ع) كان يخطب، فقال رجل يباب المسجد: لا حكم إلا لله،
– تعريضاً بعليّ (ع) أنه حكم في دين الله الرجال – فقال عليّ (ع): كلمة حق
أريد بها باطل، لكم علينا ثلاث:

– لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا اسم الله فيها،

– ولا نمنعكم الفياء ما دامت أيديكم معنا،

– ولا نبداكم بقتال^(٢).

ورغم تشكيك صاحب جواهر الكلام في حجية هذه الرواية، إلا أنه يقول:

(قد يقال: إن حكم البغاة لم يعلم إلا من فعله (ع) كما اعترف به الشافعي

وغيره، ولم يثبت لنا شيء من فعله، فيما عدا الفرق الثلاث وقد كانوا
كذلك)^(٣).

ومنها: أن يكونوا ينطلقون – في انفصالهم عن السلطة الإسلامية – من

معتقد يعتقدونه:

(١) جواهر الكلام: ٣٣١/٢١، ٣٣٢ .

(٢) أحكام القرآن، للخصاص: ٢٨٢/٥؛ وجامع أحاديث الشيعة: ٨٧/١٣؛ والسنن الكبرى:

١٨٤/٨؛ والمبسوط، للسرخسي: ١٠/١٢٥؛ وابن أبي شيبة في المسند: ٣٢٧/١٥؛

ومجمع الزوائد: ٢٤٢/٦؛ وأنساب الأشراف: ٣٥٢/٢؛ والمبسوط، للشيخ الطوسي:

٢٦٥/٧؛ وتاريخ بغداد: ٣٦٥/١٤ .

(٣) جواهر الكلام: ٣٣٣/٢١ .

وربما استند في هذا إلى نصوص منها قول علي - (ع) - في نهج
البلاغة:

(لا تقتلوا الخوارج بعدي؛ فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب
الباطل فأدرکه)^(١).

وعلى أي حال، فإن البلاغة إن رجعوا إلى طاعة الإمام، ووضعوا
أسلحتهم، أو هزموا، ولم ينحازوا إلى فئة مناوئة أخرى، لم يجز قتالهم،
ولم يتعقب الفارّ منهم، ولا يقتل أسيرهم، ويداوى الجرحى منهم، والعلماء
يجمعون على ذلك. وبدون ذلك، فالأمر يعود للإمام ليقوم فيهم بما يراه مصلحة
للمسلمين.

وهنا ننبه إلى أن أحكام البلاغة مأخوذة من سيرة عليّ في الباغين، وها نحن
نذكر طرفاً من ذلك:

— يقول عبد الرحمن بن الحجاج سمعت أبا عبد الله (ع) يقول:

(كان في قتال عليّ (ع) أهل قبله بركة، ولو لم يقاتلهم علي (ع) لم يدر
أحد بعده كيف يسير فيهم)^(٢).

— روى أبو أمامة أنه شهد صفين، فلم ير جريحاً يقتل، ولا مولى يُقتل،
ولا قتيلاً يُسلب^(٣).

— سأل أحد أصحاب أمير المؤمنين (ع) الإمام عما هو فاعل بأهل الجمل
فقال (ع): بالمن كما سار رسول الله ﷺ في أهل مكة^(٤).

(١) نهج البلاغة، د. صبحي الصالح: ٩٤/٦١.

(٢) وسائل الشيعة: ٦٠/١١.

(٣) السنن الكبرى: ١٨٢/٨؛ ومسنَد ابن أبي شيبة: ٤٢٤/١٢؛ والطبقات الكبرى:

٤١١/٧.

(٤) وسائل الشيعة: ٥٨/١١.

— وأتي عليٌّ بأسير يوم صفين، فبايعه، فقال عليٌّ: (لا أقتلك إني أحاف الله ربَّ العالمين) فخلى سبيله، وأعطاه سلبه الذي جاء به^(١).

— وعن أبي حمزة الثمالي قال: قلت لعلي بن الحسين (ع): إن علياً (ع) سار في أهل القبلة بخلاف سيرة رسول الله ﷺ في أهل الشرك، قال فغضب، ثم جلس، ثم قال: (سار والله فيهم بسيرة رسول الله ﷺ يوم الفتح؛ إن علياً (ع) كتب إلى مالك — وهو على مقدمته في يوم البصرة — بأن لا يطعن في غير مقبل، ولا يقتل مدبراً، ولا يجيز (يجهز) على جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن)^(٢).

والروايات هنا مفصلة.

والواقع، أن سيرة علي — (ع) — رسمت أروع صورة للحاكم المسلم الذي يقيم ذلك التوازن المشار إليه في بحثنا بين الرحمة والمصلحة العليا.

وربما أمكننا — بالاستناد إلى الرواية التي ذكرناها للتوّ — القول إن الإمام يتعامل في حربه مع الكفار والبغاة على ضوء هذا التوازن، إلا أن الحرب مع الكفار فيها الخطر الكامن لإفناء الوجود الإسلامي كله، فتصعب الإجراءات، ولكن حينما ينتفي الخطر — كما في فتح مكة — يأتي المنّ العظيم. ولكن إذا كان البغاة يفرون إلى تجمع آخر لهم فخطرهم كبير، لذلك فهم يتابعون بكلّ شدة.

(ب) كيفية الاستئثار:

تشير الآية الكريمة إلى شدّ الوثاق، وليس المراد إلّا التأكد منه، لثلا يفرّ، وقد كانت هناك أساليب أخرى تستخدم لضمان عدم فرار الأسير؛ كأن يُقسّموا بين المسلمين، أو يوثقوا إلى أسطوانات المسجد، وما إلى ذلك.

(١) ن. م: ٥٤/١١، نقلًا عن التهذيب؛ والجامع: ١٧٦/١٣.

(٢) وسائل الشيعة: ٥٥/١١، نقلًا عن الكافي والتهذيب؛ وبحار الأنوار: ٢١٠/٣٢، نقلًا عن الكافي.

ومع ذلك نجد الرسول العظيم ﷺ - أحياناً - يتألم، لأن أحد أسراه - وهو عمُّه العباس - موثق يئن^(١).

(ج) إطلاق سراح الأسرى:

وتتفق كتب الأحاديث، والتاريخ، والمغازي، على أنه ﷺ كان يمتنُّ على الأسرى، فيطلقهم دونما فدية، أو مع فدية، ويبادلهم بأسرى المسلمين:

- فمن المشهورات قولته ﷺ لأهل مكة: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)^(٢).

- وهبط ثمانون من أهل مكة، من جبال التنعيم - صباحاً - على النبي ﷺ ليقتلوه، ولكنه أسرهم دون حرب، ثم أطلق سراحهم^(٣).

وروي أنه ﷺ كان يطلق كل الأسرى عند حلول شهر رمضان^(٤).

- وقد أرسل رجالاً إلى نجد، وعادوا إليه بأسير من بني حذيفة، يدعى ثمامة بن أثال، وأوثقوه إلى المسجد فأطلقه رسول الله ﷺ^(٥).

- وقد أطلق سراح مجموعة من أسرى بدر، شريطة أن يعلم كل منهم مسلماً القراءة والكتابة^(٦).

- ومن على أسرى هوازن في حنين - بعد القسمة - وطلب من المسلمين أن يطلقوا سراح أسراهم^(٧).

(١) البداية والنهاية: ٢٩٨/٣.

(٢) الطبري: ٦١/٣.

(٣) نيل الأوطار: ١٤٠/٨، ١٤١؛ ومشكاة المصابيح: ص ٢٤٥ فما بعدها؛ ومناقب ابن شهر آشوب: ٧٣/١؛ وحياة الصحابة: ٣٧/٢.

(٤) وسائل الشيعة: ٢٢٩/٧.

(٥) السنن الكبرى: ٨٨/٩؛ وصحيح البخاري: ١٢٥/١؛ ومشكاة المصابيح: ص ٣٤٢؛ ومسند أبي عوانة: ١٥٧/٤.

(٦) المستدرک، للحاكم: ٢٣/٣؛ ونيل الأوطار: ١٤٤/٨؛ ومصنف عبد الرزاق: ٣٥٢/٥.

(٧) نصب الراية: ٤٠٦/٣؛ ومشكاة المصابيح: ص ٣٤٥؛ والطبري: ٨٧/٣ - ٨٩؛ وصحيح البخاري: ١٩٣/٣، و ٨٩/٩ منه.

والنصوص في هذا الباب كثيرة جداً.

هذا بالنسبة لأسرى الكفار. أما بالنسبة لأسرى البغاة فالأمر فيهم أكثر حناناً، ولطفاً.

وقد قال أصحاب علي (ع) له بعد معركة الجمل: اقم بيننا أهل البصرة فنجعلهم رقيقاً، فقال: لا، فقالوا: كيف تحل لنا دماؤهم وتحرم علينا سيهم؟ فقال (ع): (كيف يحل لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام، أما ما أوجب به القوم في معسكرهم عليكم فهو لكم مغنم، وأما ما وارت الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله، ولا نصيب لكم في شيء منه)^(١). وهذا من أروع النصوص الدالة على رحمة الإسلام.

(د) حقوق الأسرى^(٢):

يمكننا أن نلخص أهم هذه الحقوق بالنقاط التالية:

أولاً – العطف والرحمة بالأسير:

– ذلك أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى من بدر فرّقهم بين أصحابه، وقال ﷺ: (استوصوا بهم خيراً).

– وكان أبو عزيز بن عمير، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، في الأسارى، قال أبو عزيز: (مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى، فقال: شد يدك به، فإن أمّه ذات متاع، لعلها تفديك. قال أبو عزيز: فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلاّ نفحتني بها، فأستحيي فأردها فيردها عليّ ما يمّسها)^(٣).

(١) شرح ابن أبي الحديد: ٢٥٠/١.

(٢) حقوق الأسرى مفصلة، ونحن هنا نعتد – إجمالاً – على تحقيق مخطوط لسماحة العلامة الشيخ الأحمدى الميانجى – حفظه الله –.

(٣) البداية والنهاية: ٣/٣٠٦؛ والطبري: ٤/٤٦٠؛ وآثار الحرب: ص ٤٠٥.

— وقال أبو العاص بن الربيع: كنت مستأسراً مع رهط من الأنصار — جزاهم الله خيراً — كنا إذا تعشنا أو تغدينا آثرونا بالخبز وأكلوا التمر، والخبز عندهم قليل، والتمر زادهم، حتى أن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد، قال: وكانوا يحملوننا ويمشون^(١).

— وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يبعث الأسارى من المشركين ليُحفظوا، وليُقام بحقهم^(٢).

وقد عاتب رسول الله ﷺ بلالاً لأنه مرَّ بأسيرات يهوديات على أجساد أعزائهن، قائلاً له: «أُتِرِعْتَ منك الرحمة يا بلال حتى تمرَّ بامرأتين على قتلى رجالهن»^(٣).

ثانياً — إطعام الأسير وسقيه:

— فعن أبي بصير قال: سألت الصادق (ع) عن قول الله — عز وجل — : ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْبٍ، وَشَكِيئًا وَبَيْتًا وَأَيْبًا﴾ فقال (ع): هو الأسير وقال: الأسير يطعم، وإن كان يقدّم للقتل. وقال: إن علياً كان يطعم من خلد في السجن من بيت مال المسلمين^(٤).

ثالثاً — وجوب تأمين الظل للأسير:

— روى زرارة عن الصادق (ع) قوله: إطعام الأسير حق على من أسره، وإن كان يريد من الغد قتله فإنه ينبغي أن يطعم، ويسقى، (ويظلل)، ويفرق به كافرأ كان أو غيره^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ١٨٩/١٣.

(٢) الإمام الرازي في تفسيره: ٢٤٥/٣٠.

(٣) بحار الأنوار: ٥٠/١، والكمال: ٢٢١/٢، والطبري: ١٤/٣؛ وسيرة ابن هشام:

٣٥١/٣؛ والبداية والنهاية: ١٩٧/٤.

(٤) وسائل الشيعة: ٦٩/١١.

(٥) وسائل الشيعة: ٦٨/١١، إلا أنه ليس فيها (ويظلل).

ويستفيد الشيخ الأحمدي من ذلك تأمين كل ضروريات الحياة .

— وقد ورد عنه عليه السلام أنه عندما رأى أسرى بني قريظة في يوم حاز أمر برشهم بالماء، لئلا يجتمع عليهم حرُّ السلاح وحرُّ الصيف^(١).

رابعاً — توفير اللباس اللائق بالأسير:

وهو ما يستفاد من عموم الإحسان بهم وما طبقه رسول الله صلى الله عليه وآله بالنسبة للعباس، حيث جلب الأصحاب له ثوب عبد الله بن أبي^(٢).

خامساً — احترام الأسير ذي المرتبة ومراعاة كرامته ومنزلته:

وهذا ما نرى رسول الله صلى الله عليه وآله قد فعله مع ابنة حاتم طي^(٣) وكما تعامل المسلمون مع نساء يزيد جرد ملك فارس^(٤).

سادساً — توفير الدواء والعلاج اللازم:

وذلك بمقتضى عموم الإحسان:

وقد نُقل أنه صلى الله عليه وآله أمر بالمنّ على جرحى الكفار وإطلاق سراحهم^(٥)، كما ذُكر أن علياً أمر بمعالجة أربعين رجلاً من جرحى النهروان في الكوفة، ثم فسح لهم المجال ليذهبوا أينما يشاءون أو سلمهم إلى قبائلهم^(٦).

سابعاً — هدايته إلى الحق:

يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَمَّا فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَسْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَعْفُوكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ [الأنفال: ٧٠].

بالإضافة لعمومات الهداية والتعليم.

(١) آثار الحرب: ص ٤٠٥، نقلًا عن شرح السيد الكبير: ٢/٢٦٤.

(٢) جامع الأحاديث: ٨/٥١١ — ٥١٦؛ وأبو داود: ٣/١٧٩؛ وأعيان الشيعة: ١/٦٢٩.

(٣) الطبري: ٣/١١٢، ١١٣؛ والبداية والنهاية: ٥/٦٤.

(٤) بحار الأنوار: ٣٢/٣٥٧، نقلًا عن نصر بن مزاحم في صفين.

(٥) كشف الأستار: ٢/٢٨٨.

(٦) أنساب الأشراف، للبلاذري: ٢/٤٨٦؛ وكشف الأستار: ٢/٢٨٨.

ثامناً - تحريم قتل النساء والأطفال :

وقد مرَّ بنا تحريم قتل النساء والأطفال والضعفاء .

تاسعاً - عدم قتل الأسير من البغاة :

كما مرَّ بنا أنه لا يجوز قتل الأسير الباغي عند انكساره، وعدم عودته إلى فئة، بل يمكن للإمام أن يعفو عن له فئة .

عاشراً - أخذ البيعة من الأسير القوي :

وإن كان الأسير الباغي قوياً جلدأ وأهلاً للقتال تُطلب منه البيعة، فإن بايع قبل انتهاء الحرب أطلق سراحه^(١) .

وإن لم يبايع يُسجن، فإن انتهت الحرب وتاب العدو وألقى سلاحه، أو لم يلجأ هو إلى فئة يُطلق سراحه .

حادي عشر - عدم معاملة أسرى البغاة بالمثل :

لا معنى للمعاملة بالمثل بالنسبة لأسرى البغاة، فلو أنهم قتلوا أسرى المسلمين، فإنه لا يجوز قتل أسراهم .

ثاني عشر - عدم قتل الأسير إن أسلم قبل النصر :

إذا أسلم الأسير قبل النصر لم يُجزَّ قتله بالإجماع، بلا فرق بين كون إسلامه عن خوف أو رغبة .

وقد قال ﷺ :

«أمرت أن أقاتل المشركين حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وصلُّوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبائحنا؛ فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها»^(٢) .

(١) المبسوط: ٢٧١/٧؛ والمنتهى: ٩٨٧/٢؛ والمغني: ٦١/١٠ .

(٢) انظر: السنن الكبرى، للبيهقي: ٤٩/٩، و ٤٠٣/٧؛ وكنز العمال: ٧٦/١ - ٧٧؛ وسنن

الدرامي: ٢١٨/٣؛ وسنن ابن ماجه: ١٢٩٥/٢؛ وصحيح مسلم: ٥٣/١؛ والأموال،

لأبي عبيد: ص ٢٧، ٢٨؛ ومسنند أحمد: ٤٣٥/٢ و ٤٣٩ و ٤٧٥ و ٤٨٢ و ٥٠٢ . . .

وصحيح البخاري: ١/١٢٠ و ١٠٩؛ وبحار الأنوار: ٢٤٣/٦٨ .

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث، لا بد من الإشارة لبعض النقاط، لكي يمكن أن تكتمل الصورة - إلى حد ما - في الأذهان:

النقطة الأولى:

إننا نلاحظ أن الموقف - في النهاية - يعود إلى قائد الأمة الإسلامية، والمفروض به أنه يمتلك أسى درجات الالتزام بالشريعة الإسلامية، وهي شريعة الرحمة واليسر، لكي يقرر أفضل الحالات المطروحة أمامه، موازناً بين عنصري الرحمة والمصلحة العليا، فيرفض أي تعذيب أو تخريب، أو تفريق بين الأم وولدها، أو تبييت للإغارة وأمثال ذلك، وليغتنم كل الفرص لتقوية الجبهة الإسلامية، ويسد كل ثغرات الضعف فيها، محققاً الهدف الكبير وهو؛ خدمة مصالح الأمة الإسلامية العليا، والحفاظ على وجودها، محترماً للعهود والمواثيق، وملاحظاً مدى تطبيقها، مائلاً إلى السلام والصلح - مهما أمكن - وإلى الاحتفاظ بالطاقات النافعة لمستقبل الإسلام، متجنباً أي تفريط بها، مهتماً بالإسلام، وهداية الآخرين، بل ويكفيه الإسلام الظاهري لأنه سبيل للتعرف على حقيقته، وأخيراً مهتماً بتعميق أهداف الحرب في قلب الجندي المسلم - كما رأينا في مطلع البحث - .

النقطة الثانية:

الملاحظ: أن الفقهاء - على اختلاف مشاربهم - حاولوا أن يستنبطوا كثيراً من الأحكام، على ضوء تقرير أو تعامل خاص قام به الرسول أو أحد القادة الإسلاميين، تجاه موقف معين، والحقيقة هي: أن هناك خطراً يسميه المرحوم الإمام الصدر (خطر التجريد في دليل التقرير) ويتلخص في تجريد السلوك

المعاصر لعهد التشريع عن خصائصه وقرائنه، واستنباط موقف إسلامي عام (مع) أن من الضروري - لكي يكون الاستدلال بدليل التقرير موضوعياً - أن ندخل في حسابنا كل حالة من المحتمل تأثيرها في موقف الإسلام من ذلك السلوك، فحين تتغير بعض تلك الحالات والظروف يصبح الاستدلال بدليل التقرير عقيماً، فإذا قيل لك مثلاً: إن شرب الفقاع في الإسلام جائز، بدليل أن فلاناً - حين مرض على عهد النبي ﷺ - شرب الفقاع، ولم ينه النبي ﷺ عن ذلك، كان لك أن تقول: إن دليل التقرير هذا - وحده - لا يكفي دليلاً على سماح الإسلام بشرب الفقاع لكل فرد، ولو كان سليماً، لأن من الممكن أن تكون بعض الأمراض مجوزة لشربه بصورة استثنائية، فمن الخطأ أن نعزل السلوك المعاصر لعهد التشريع عن ظروفه وخصائصه^(١).

والحقيقة؟ إننا نستطيع أن نعبّر بهذه الحقيقة: عن مجال دليل التقرير إلى مجال الأوامر الإدارية والعسكرية بكل وضوح، بل ربما أمكننا القول بأن العبور هنا أولى؛ باعتبار أن الأوامر الولائية موقته تماماً، يلاحظ فيها ولي الأمر المصلحة المطلوبة، اللهم إلا أن يصرح بقاعدة عامة يمكنها أن تشكل قانوناً عاماً، وللبحث هذا تفاصيله.

ومن هنا نرى أن الكثير من الموارد التي استند إليها الفقهاء لا يمكنها أن تشكل - بنفسها - أدلة مقنعة، إلا أن هناك حقيقة أخرى هي؛ أننا نستطيع من خلال استقراء المواقف المتنوعة (حتى ولو كانت ولائية) أن نستنبط حكماً يقينياً، أو - على الأقل - نكتشف (مورد إضاءة) وحكماً يقدم إلى ولي الأمر ليلاحظه، ويأخذه بعين الاعتبار، في تعامله مع المواقف المشابهة.

فالأمر - إذن - يتوقف على تعدد الحالات ووضوحها، ليكشف لنا - يقيناً - عن موقف عام تتبناه الشريعة، بعد إلغاء الخصوصيات التي نظمنا بعدم دخلها في الموضوع.

(١) اقتصادنا: ٣٧٤/٢.

والذي نريد أن نخلص إليه هو؛ أننا نعتقد أن منطق التوازن بين النزعة الإنسانية والمصلحة العليا هو الروح السائدة التي يمكن أن نستنبطها من مجمل ما مر من نصوص وأحكام، وهي التي يجب أن يلحظها الإمام في تعامله مع المواقف المتنوعة، ومنها المواقف التي تنتجها الحرب.

النقطة الثالثة:

إنه كثيراً ما يبدو التزاحم بين النزعتين آنفتي الذكر، وحيثُذ فالذي تشير إليه النصوص هو؛ ترجيح النزعة الإنسانية مهما أمكن، إلا أن يتوجه خطر كبير للمصلحة العليا، وحيثُذ فهي المقدمة.

فمن الأحكام المشهورة والمسلم بها، أن الأسير إذا عجز عن المشي ولم تكن هناك وسيلة لحمله أطلق سراحه، لأنه لا يعلم رأي الإمام فيه.

وقد روي عن الإمام علي بن الحسين السجاد قوله:

(وإذا أخذت أسيراً فعجز عن المشي، ولم يك معك محمل، فأرسله ولا تقتله، فإنك لا تدري ما حكم الإمام فيه، والأسير إذا أسلم فقد حقن دمه وصار فيئاً)^(١).

وقد صرح به الكثير من الفقهاء؛ كالطوسي في (المبسوط) و (النهاية)، والحلي في (السرائر) و (المختصر النافع)، وابن قدامة في (المغني)^(٢).

والملاحظ هنا؛ أن هناك تزامناً بين الجانب الإنساني (الرحمة)، والجانب المصلحي (وهو الاحتفاظ بالأسير)، بعد أن لم يمكن الجمع بينهما، وتم تغليب جانب الرحمة وإطلاق الأسير، وعلى هذا الغرار نلاحظ مسألة الامتناع عن قتل النساء، حتى ولو عاون أزواجهن، إلا أننا نجد - في قبال ذلك - أحكاماً أخرى:

(١) الكافي: ٣٥/٥؛ وتهذيب الأحكام: ١٥٣/٦.

(٢) التذكرة: ٤٢٥/١؛ والمغني: ٢٩٩/١٠، وغيرهما.

منها: أنه لا يقبل الاستئثار قبل أن تتم السيطرة الإسلامية على الموقف، خوفاً من تغير الموقف لصالح العدو.

ومنها: أنه لو تترس الكفار بالمسلمين الأسرى، أو حتى لو تترسوا بالنساء والأطفال، وتوقف الفتح النهائي — تماماً — على اقتحام هذه العقبة، وجب الإقدام — مهما كانت النتائج — إذعاناً للمصلحة العليا:

— يقول الشيخ الطوسي في (النهاية):

(ومتى استعصى على المسلمين موضع منهم؛ كان لهم أن يرموهم بالمناجيق، والثيران، وغير ذلك مما يكون فيه فتح لهم، وإن كان في جملتهم قوم من المسلمين النازلين عليهم، ومتى هلك المسلمون فيما بينهم، أو هلك لهم من أموالهم شيء لم يلزم المسلمين ولا غيرهم غرامتهم من الدية والأرش، وكان ضائعاً)^(١).

— ويقول القاضي عبد العزيز بن البراج في (المهذب):

(وإذا تترس المشركون بأسارى المسلمين، وكانت الحرب ملتحمة لم يقصد الأسير بالرمي، فإن أصيب لم يكن على من رماه شيء، وإن لم تكن الحرب ملتحمة يجوز رميه، فإن رماه — ولم يقصده — فإن أصابه كان ذلك خطأ وعليه ديته)^(٢).

— ويقول ابن إدريس في (السرائر):

(وإذا تترس المشركون بأطفالهم، فإن كان ذلك حال التحام القتال جاز رميهم، ولا يقصد الطفل، بل يقصد من خلفه، لأنه لو لم يفعل ذلك لأدى إلى بطلان الجهاد، وكذلك الحكم إذا تترسوا بأسارى المسلمين، وكذلك إذا تترسوا بالنساء...)^(٣).

(١) الينابيع الفقهية: ص ٥١.

(٢) ن. م: ص ٩٠.

(٣) الينابيع الفقهية: ص ١٦٨.

والملاحظ هنا تقديم المصلحة العليا على النزعة الإنسانية ولكن هذه نظرة ابتدائية.

ذلك أن المصلحة العليا للمسلمين هي مصلحة الإنسانية جمعاء - كما يراها الإسلام - وإن الإسلام هو صوت العدالة الإنسانية كلها، وبه يمكن إنقاذها من برائن الوثنية، والضياع، والكفر. فكل عمل لصالح الإسلام هو لصالح الإنسانية - في الحقيقة - فلا يمكن التفريط بهذه المصلحة الإنسانية العليا لصالح رحمة موقته.

النقطة الرابعة:

ونقصد هنا أن ننبه إلى أن اختلاف بعض الأحكام في مجال الحرب ضد الكفر، عنها في مجال مكافحة البغي، ربما أمكن تعليله بأن حاكمية الكفر أشد خطراً - بلا ريب - من حاكمية البغي، رغم ما فيه من انحراف وأخطار جسيمة.

النقطة الخامسة:

من الطبيعي أن نشير هنا - أيضاً - إلى تركيز الإسلام على عنصر العقد والعهد، كمنع أساسي للالتزام.

فإذا افترضنا أن الدولة الإسلامية دخلت مع المجتمع الدولي - أو مع دولة أخرى - في معاهدة دولية أو ثنائية، أو وقَّعت بروتوكولاً معيناً فهي - في الواقع - تضيف إلى تعهداتها الأصلية تعهدات قانونية، عليها الالتزام بها، على أي وجه كان، حتى أنه يمكن القول بأن للمعاهدة نفسها موضوعيتها، دون النظر إلى مقتضيات المصلحة العامة.

والحمد لله رب العالمين.

المخالصة

وخلاصة ما قلناه حول أحكام الحرب والأسرى في الإسلام هي:

أنا تحدثنا في المقدمة عن واقعية الإسلام ومرونته وضرربنا لذلك مثلاً موقفه من قضية (الرقيق) واستعرضنا بإجمال خطواته لإلغائها ولكن دون الإخلال بالنظام الاجتماعي والقانون العسكري.

ثم انتقلنا إلى صميم الموضوع لنجد أن عملية التوازن بين خطي (الرحمة) و (المصلحة) يمكنها أن توطر كل أحكام الإسلام في قضية الحرب والأسرى بل أننا نستطيع أن نمتد بهذا الأصل ليشمل مجمل الأحكام الإسلامية وللتدليل على هذا الأصل استعرضنا ما يلي:

١ - التعليمات الحربية المسبقة للرسول الأكرم والقادة الإسلاميين وكلها تؤكد هذه الحقيقة.

٢ - التأكيد على عنصر الدعوة والتوعية أولاً وعدم الهجوم المباغت دون تثبت.

٣ - ملاحظة وسائل الحرب وأساليبها الإنسانية كما يجيزها الإسلام حيث نهى الفقهاء - مثلاً - عن اللجوء إلى وسائل من قبيل: الغارة وفتح الماء لإغراق العدو ما دامت هناك وسائل أخرى.

٤ - ملاحظة أحكام الأسرى وحقوقهم وقد شملت هذه الملاحظة بيان:
(أ) الموارد التي يجوز فيها الأسر.
(ب) كيفية الأسر.

(ج) أساليب إطلاق سراح الأسرى .

(د) حقوق الأسرى .

وهذه الحقوق يمكن تلخيصها بما يلي :

- ١ - العطف والرحمة بالأسير .
- ٢ - إطعام الأسير وسقيه .
- ٣ - تأمين الظل للأسير .
- ٤ - توفير اللباس اللائق به .
- ٥ - احترام الأسير ذي المرتبة ومراعاة كرامته ومنزلته .
- ٦ - توفير الدواء والعلاج اللازم .
- ٧ - هدايته إلى الحق .
- ٨ - تحريم قتل النساء والأطفال .
- ٩ - عدم قتل الأسير من السفلة .
- ١٠ - أخذ البيعة من الأسير القوي .
- ١١ - عدم معاملة البغاة بالمثل .
- ١٢ - عدم قتل الأسير إن أسلم قبل النصر .

وفي خاتمة البحث لاحظنا النقاط التالية :

الأولى : أن الموقف يعود في النهاية إلى قائد الزحف الإسلامي والمفروض

أنه يمتلك أسمى درجات الالتزام بالشريعة الرحيمة الميسرة لكي يقرر أفضل الحالات المطروحة أمامه .

الثانية : أن الكثير من الموارد التي استند إليها الفقهاء لا يمكنها أن تشكل

بنفسها أدلة مقنعة لأنها اعتمدت على دليل التقرير مع فقدان بعض شرائطه .

الثالثة : عند التعارض بين حالي المصلحة والرحمة نجد الإسلام يرجح

الجانب الإنساني مهما أمكن كما إذا عجز الأسير عن المشي ولم تكن هناك وسيلة لحمله فإنه يطلق سراحه لأنه لا يعلم رأي الإمام فيه .

الرابعة: ملاحظة اختلاف بعض الأحكام في مجال الحرب ضد الكفار عنها في مجال محاربة البغاة.

الخامسة: ملاحظة أن الإسلام ركز تماماً على عنصر العهد كأساس للالتزام فإذا دخلت الدولة الإسلامية مع المجتمع الدولي أو مع دولة أخرى في عقد كان عليها الالتزام بذلك على أي وجه كان.

أبي محمد علي السخيري

المعاهدات والاتفاقات
من
العلاقات الدولية في أثناء السلم
إعداد
سمامة الدكتور عبد العزيز الخياط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخير المعلمين المبعوث رحمة للعالمين وبعد:

فهذا بحث في موضوع من موضوعات «العلاقات الدولية في الإسلام» وهو مع مقدمته «العلاقات الدولية في أثناء السلم – المعاهدات والاتفاقات».

وأدعو الله – سبحانه وتعالى – أن يوفق لما فيه الخير، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأرجو أن يجد لدى أخوتنا الأساتذة الفضلاء في مجمع الفقه الإسلامي قبولاً حسناً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة :

المقصود بالعلاقات الدولية^(١) ما يكون بين الدول من روابط تقوم على أساس من قواعد عامة، وضوابط تحكم تعاملها فيما بينها باعتبارها مستقلة ذات سيادة .

والعلاقات الدولية تتناول:

(أ) حالات السلم .

(ب) حالات الحرب .

أما حالات السلم، فنتناول ما يلي:

١ - السيادة الداخلية للدولة، وتشمل: حكم الإسلام لبلاد المسلمين، أي تدبير شؤون الدولة لرعاياها المسلمين وغير المسلمين في رقعة الأرض التي تحكم بالإسلام، ولذلك كان مفهوم السياسة عند المسلمين واضحاً كل الوضوح، سواء ضيقنا مشمولاتها ومضامينها، أو وسعناها، فهي تتناول قواعد الحكم الإسلامي، وقوانينه، وتنظيماته وشؤون الخلافة والوزارة، والقضاء وإقامة الحدود، وتنظيم المعاملات والفصل بين الخصومات، وعلاقة الدولة مع الناس، والحسبة والطاعة، والمراقبة الأمنية، ويجمعها شؤون الحكم والتنفيذ وشؤون التشريع وشؤون القضاء .

كما تشمل تعامل الدولة مع غير المسلمين (أهل الذمة).

(١) الدولية: نسبة إلى الدولة، لا إلى الدول ولذلك تكون بفتح الدال، وتسكين الواو. لا بضمها فالنسبة تكون إلى الفرد لا إلى الجمع .

٢ - السياسة الخارجية: وتشمل مظاهر السياسة في المجال الدولي وعلاقة الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى في التجارة، والمعاهدات، والتمثيل الدبلوماسي، ونظرة الإسلام في تسمية بلاده بدار الإسلام، وتسمية البلدان الأخرى التي تحكمها دول لا تحكم بالإسلام بدار الحرب أو دار الكفر، أو دار العهد. كما تتناول العلاقات الإنسانية.

وسنقتصر في هذا البحث على ما يتعلق بالمعاهدات والاتفاقات.

وأما حالات الحرب فتشمل موضوع الجهاد وأحكامه، وهو ما يطلق عليه الفقهاء «أحكام السير أو أحكام المغازي».

كما يشمل توضيح الفرق بين معنى الجهاد ومعنى الحرب، ويتناول موضوع الصلح والهدنة والمعاهدات الحربية، ومعنى الجزية والغنائم والفيء والخراج، وآداب الحرب، ومعاملة المدنيين، وأحكام الأسرى.

القواعد الإسلامية العامة التي تحكم القواعد الدولية:

للإسلام قواعد عامة تقوم عليها العلاقات الدولية في الإسلام نذكرها فيما يلي:

١ - كل الناس سواسية في الحقوق الإنسانية بغض النظر عن اختلاف الدين أو القومية، أو الجنس وليس في الإسلام نظرة عرقية ولا تمييز شعب قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (١).

وقال النبي ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» (٢).

٢ - العدالة، ففي وقت السلم تحترم كل الحقوق التي تكتسبها الدول الأخرى ويكتسبها رعاياها، وأما في الحرب فلا يجوز تعدي ضرورات الحرب

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) رواه أحمد بن حنبل في المسند.

سواء في صدّ العدوان أو الهجوم، فلا يجوز التمثيل بالجثث ولا قتل الأسرى ولا سفك دماء المدنيين ولا تخريب العمار أو قتل الحيوان إلاّ لمنع تمويل العدو، كما لا يجوز التعرض لغير المقاتلين.

٣ - احترام المعاهدات بين الدولة الإسلامية وغيرها فهي عقود ملزمة يجب الوفاء بها.

٤ - لا يجوز إعلان الحرب فجأة قبل توجيه الإنذار للعدو، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا خِطَابٌ مِّن قَوْمٍ عِثَانَةٌ فَاُذِّنُوا لَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ (١).

٥ - عدم السماح بإنشاء تكتلات حزبية أو عسكرية ضد دولة أخرى، أولصالح دولة أخرى، في داخل الدولة الإسلامية، لقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبْرَهُمْ وَيُقْسِمُوا بِالنَّبِيِّمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِمِينَ﴾ (٢) ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تُولَّوهُمْ وَمَن يَتَّخِذْهُم ظِلْمًا فَمَا ظَلَمُوا﴾ (٣).

٦ - المعاقبة بالمثل، قال تعالى: ﴿فَمَن أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥).

٧ - الدوران مع مصلحة الأمة الإسلامية القائمة على تحقيق الدعوة

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(٢) سورة الممتحنة: الآيتان ٨، ٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

الإسلامية، وعلى ذلك فللإمام أن يطالب إعادة حالة السلام مع الأعداء، أو عقد هدنة إذا رأى ذلك أكثر تحقيقاً للمصلحة الإسلامية من حالة استمرار القتال.

٨ - حقوق العباد مقدمة على حقوق الله، فلا تشترك المرأة في القتال مثلاً إلا بإذن الزوج، أو الولي إلا في حالة النفي العام.

٩ - يختار أخف الضررين في المجال الدولي، فإذا تقدم الأعداء ضد المسلمين متترسين بأفراد مسلمين، فلقائد الجيش الإسلامي أن يطلق النار على الأعداء ولو أصابت المسلمين.

١٠ - حجر الرحي في العلاقات الدولية هو الدعوة الإسلامية لأن الدولة الإسلامية مهمتها أن تحمل الدعوة الإسلامية للناس كافة، والرسالة الإسلامية رسالة إنسانية عامة شاملة للناس أجمعين، لكل الناس في كل زمان، وكل مكان، بما فيها من ثبات الأصول وحركة الفروع، وقدرة على مواجهة التطور وحلول المشكلات المستجدة.

وعلى ضوء هذه الرسالة يكون عمل الأمة في الداخل والخارج وتكون علاقاتها مع الدول أو الشعوب، ومن خلالها تنظر إلى الناس أجمع وتعالج المسائل الدولية والمحلية. وهذا مستوحى من سياسة الرسول ﷺ وتوجيهه الرسائل المتعددة إلى دولتي الفرس والروم والدول العربية والقبائل العربية المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام.

١١ - التزام القيم الإسلامية العليا، وأعلها رضوان الله - عز وجل - فأى عمل يقوم به المسلم إنما يبتغي به مرضاة الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾^(٢).

أي ذلك الرضوان لمن خشي ربه. وعن هذا الرضوان تنشأ قيم الطمأنينة والأمن والتحرر من الخوف والاستقرار، وطلب الشهادة في سبيل الله، ثم القيم

(١) سورة القصص: الآية ٧٧.

(٢) سورة البينة: الآية ٨.

الأخرى كالحرص على الحياة والأولاد والمال وغيرها، وهي تتبع القيمة العليا، ويضحى بها من أجل القيمة العليا وهي رضوان الله. قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْكُمْ فَذَرِكُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١).

١٢ - أساس العلاقات الدولية في الإسلام (السلم)، والحرب أمر طارئ على البشرية. وهذا هو رأي جمهور الفقهاء ومنهم الثوري والأوزاعي وأبو حنيفة والشافعي، وأحمد بن حنبل وقد كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثاً أو سرية قال لهم: «تألفوا الناس، وتأثروا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل مدر ولا بر، إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم» (٢).

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمُ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ عَصَرْتُمْ فَلَمْ يَفْزِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَا جَمَلٌ لَكُمْ عَلَيْهِمْ

سَكِينًا ﴾ (٥).

١٣ - الحرب مشروعة في الإسلام وهي جهاد في سبيل الله، لنشر دعوة الإسلام، ودفع الظلم وإقامة الحق والعدل، وحفظ التوازن، وتمكين أرباب

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤.

(٢) النظم الإسلامية، للدكتور صبحي الصالح، نقلاً عن شرح السير الكبير، لمحمد بن سهل السرخسي: ص ٥٩. ومعنى المدر: الطين اللزج المتماسك، ويكنى بأهل المدر أي سكان البيوت المبنية خلاف البدو سكان الوبر (أي سكان الخيام المصنوعة من صوف الإبل ونحوها).

(٣) سورة الأنفال: الآية ٦١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

(٥) سورة النساء: الآية ٩٠.

العقائد والعبادات من أداء عباداتهم والبقاء على عقيدة التوحيد، وهذا الذي أخذ من قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلُوكٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِقَابَةُ الْأُمُورِ ﴿١١١﴾ (١).

فهذه الآية صريحة في أن الجهاد له غاية وأن سنة الله في الكون درء الظلم ومنع الفساد ونشر العقيدة السمحة، والفضيلة، ولا يتم ذلك إلا بالجهاد قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا﴾ (٢).

وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَفَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٣).

فهذه الآية واضحة في أن الجهاد والقتال مشروع لغاية هي دفع الفتنة ونشر الدين الحق، وتمكين الحرية الدينية للأخرين وأنا لا نقاتل معتدين ولا ظالمين (٤)، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمُ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (٥).

ولقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَاسَفُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْسِلَةِ كَأَقْطَبٍ﴾ (٦).
ولقوله تعالى: ﴿فَإِنْ اعْتَرَفْتُمُوهُمْ فَامَرُّوا بِهِمْ سَوِيًّا﴾ (٧).

(١) سورة الحج: الآيات ٣٩، ٤١. والصوامع: معابد الرهبان، والبيع: كنائس النصارى، والصلوات كنائس اليهود.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٣.
(٤) القرآن والقتال، للشيخ محمود شلتوت: ص ٣٠.
(٥) سورة الأنفال: الآية ٦١.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.
(٧) سورة النساء: الآية ٩٠.

العلاقات في أثناء السلم :

يرى بعض الفقهاء أن الأصل في العلاقات الدولية هو الحرب أي أن الإسلام ذو نزعة حربية باعتبار أن الجهاد مشروع لأنه طريق الدعوة إلى الإسلام، ما لم يطرأ ما يوجب السلم والأمان، واستندوا إلى قوله تعالى: ﴿ وَفَنَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْنَلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾^(١).

لأن هذه الآية متضمنة رفع العهود والذمم التي كانت بين النبي والمشركين^(٢).

ولذلك سميت بآية السيف، وإلى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٣).

وإلى قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدِهِمْ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾^(٤).

ويستفاد من هذه الآيات وغيرها ومما قرره الفقهاء أن الجهاد فرض كفاية على المسلمين لنشر الدعوة ابتداء من غير انتظار لبدء العدو بالحرب لأننا مأمورون بنشر الدعوة وحملها إلى الناس كافة، ولأن الجهاد شرعاً هو الدعاء إلى دين الحق وقتال من لم يقبله^(٥).

أو هو بذل الوسع في القتال في سبيل الله مباشرة أو معاونة بمال أو تكثير سواد أو غير ذلك^(٦).

(١) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٢) أحكام القرآن، للجصاص: ١٣٧/٣.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥.

(٤) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٥) رد المحتار على الدر المختار: ٢٣٦/٣.

(٦) شرح الكمال بن الهمام على الهداية: ١٨٩/٥.

وقد قرر هؤلاء الفقهاء أن قتال الكفار واجب وإن لم يبدأوا للعمومات^(١) في الآيات الواردة في قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٢).

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾^(٣).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»^(٤).

ويرى فقهاء آخرون أن الأصل في العلاقات الدولية هو السلم وأنه لا يُجرح للحرب إلا في حالة الضرورة والدفاع عن النفس وحماية الدولة والنظام، وأنه لا يبيح للمسلمين قتال مخالفيهم في الدين وإنما يسمح بقتالهم، إذا اعتدوا على المسلمين فحينئذ يصبح الجهاد فرض عين دعفاً للعدوان، وكذلك إذا وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية وحالوا دون نشرها وإقناع الناس واعتبروا أن حالة السلم تجعل موضوع التعاون وتبادل المنافع والمصالح والتجارة مع الدول الأخرى قائماً، واحتجوا بالنصوص من القرآن والسنة، ومعظمها يبين السبب الذي من أجله فرض القتال، إما لدفع ظلم، أو لحماية الدعوة وقطع الفتنة، لا سيما وأن الكفار في عهد رسول الله ﷺ مشركون وأهل كتاب – أمعنوا في إيذاء المسلمين، بألوان من العذاب، وقاطعوه وأخرجوهم من ديارهم وصادروا ممتلكاتهم، وغايتهم إخماد الدعوة ومنع انتشارها وإقامة دولتها^(٥).

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٦) الَّذِينَ

(١) شرح الهداية، للمرغيناني: ١٠٠/٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٣.

(٤) شروح الهداية: ١٨٧/٥، وروى الحديث البخاري ومسلم، وراجع السياسة الشرعية، لعبد الوهاب خلاف: ص ٦٣ – ٦٦؛ ومبادئ نظام الحكم في الإسلام، لعبد الحميد متولي: ص ٧٢٨.

والحديث صحيح رواه البخاري وأصحاب السنن.

(٥) السياسة الشرعية، لعبد الوهاب خلاف: ص ٧٠.

أَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ بَعِيرٍ حَتَّىٰ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هَلَكَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٤).

ويقول عز وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٥).

ويقول تعالى: ﴿فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ (٦).

ويقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٧).

ويقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (٨).

ويقول: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلْتِمَّ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٩).

(١) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٤) سورة النساء: الآية ٧٥.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٩١.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

(٨) سورة الأنفال: الآية ٦١.

(٩) سورة النساء: الآية ٩٠.

ويفهم من هذه الآيات جميعاً ما ذهب إليه أصحاب الرأي بأن السلم هو الأصل في العلاقات الدولية بأن آيات القتال منسجمة مع هذا الأصل، فقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ متصل بقوله: ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾، فنحن نقاتلهم كما يقاتلوننا فإن كفوا عن قتالنا كافة، كفنا عن قتالهم بالمقابل، وقوله: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ... ﴾ الآية، وهذا أمر بقتال أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر... إلخ» فمن لم يؤمن برسول الله ﷺ لا يكون له إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به، وإنما يتبعون أهواءهم وآراءهم^(١). وهذا لا يتنافى مع أصل السلم لأن قتالهم هو قتال من أجل تحقيق السلم وتوحيد الناس وجعلهم مع المسلمين أمة واحدة، لقوله تعالى: ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ومعناها في قول: حتى يدفعوا الجزية (أي مقابل الزكاة) إذا لم يسلموا ويخضعوا لأحكام الإسلام^(٢). وهذا ينسحب على بقية الآيات التي تأمر بالقتال، فالقتال لمنع الفتنة، والقتال لدعوة الإيمان، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وحماية الدعوة لا يتنافى مع أصل السلم في العلاقات الدولية، فإذا أقروا بذلك كانوا مسلمين، وإلا كانوا أهل ذمة أو معاهدين، وهذا استقرار وسلام، والذمة بمعنى العهد والأمان فتشمل المواطنين الذين يقيمون مع المسلمين في سلام في بلاد المسلمين، وتشمل المستأمنين، وهم أصحاب الأمان المؤقت الذي يعطى للحريين لكي يتمكنوا من الدخول إلى دار الإسلام لتجارة أو زيارة أو أي حاجة مشروعة، وذلك بشروط خاصة^(٣).

والآيات المطلقة في القتال تحمل على المقيدة له وهو القتال في حال

(١) تفسير ابن كثير: ٣٤٧/٢.

(٢) تفسير الألوسي: ٢٩٤/٣، وقال الشافعي رحمه الله: (إن الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم).

(٣) شروح الهداية: ١٩٦/٥ - ٢١٠.

الاعتداء أو إزالة العقبات في وجه دعوة الإسلام^(١). كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٢) وَإِنْ جَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْزَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(٣).

يقول الدكتور محمد البهي: (ولأن جماعة المسلمين جماعة مستقلة، في هدفها وغايتها وفي منهجها في الحياة، وفي ترابط أفرادها بعضهم ببعض، ولأنه مطلوب منها أن تحرص على استقلالها، برد العدوان عليها، وعدم التهاون في ذلك - كان من المترقب لهذه الجماعة أن يحتك بها غيرها من الجماعات الإنسانية التي تطمع في التوسع، أو تتعصب لفكرتها ومبدأها في الحياة لذلك طلب الإسلام من «الجماعة الإسلامية» أن تكون دائماً على حذر، واستعداد مادي وروحي معاً، لمقاومة من يحتك بها، قاصداً إضعافها وإذهاستقلالها، ولكن هذه التعبئة المادية والروحية التي يطلبها الإسلام من المؤمنين به يضعها دائماً في خدمة السلام لا للغزو والاعتداء)^(٤).

ويقول أصحاب هذا الرأي أن آية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ^(٥)﴾^(٤)، لم تنسخها آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهِدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظْ عَلَيْهِمْ^(٥)﴾^(٥)، لاتفاق جمهور العلماء على إحكام هذه الآية، فقد حكى ابن تيمية اتفاق العلماء على أن آية الإكراه، ليست منسوخة، ولا منصوصة وإنما النص عام فلا تكراه أحداً على الدين، والقتال لمن حاربنا^(٦).

ويقول الإمام الرازي في تفسيره الكبير بعد أن ذكر أن الله تعالى بين دلائل

(١) العلاقات الدولية في الإسلام، للدكتور وهبة الزحيلي: ص ٩٦.

(٢) سورة الأنفال: الآيات ٦٠، ٦١.

(٣) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٢٣٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٥) سورة التوبة: الآية ٧٣.

(٦) رسالة القتال في مجموعة رسائل ابن تيمية: ص ١٢٣.

التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للمعذرة: (إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للكافر في الإقامة على كفره إلا أن يُفسر على الإيمان ويجبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(١).

وقال في سورة أخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وقال في سورة الشعراء: ﴿لَمَّا كَفَرَ بَشْرُ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣) ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَعْنَاقَهُمْ لَمَّا خَضَعِينَ﴾^(٤).

ويستشهدون للسلم بالحديث الذي ذكرناه في أول البحث وهو أن النبي ﷺ كلما بعث بعثاً أو أرسل سرية قال: «تألفوا الناس، وتأتوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت من مدر ولا وبر إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إليّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم»^(٤).

والذي اختاره هو أن الإسلام يجعل العلاقة الدولية بينه وبين الدول الأخرى وشعوبها هو السلم لكن على أساس أن يدعوهم إلى الإسلام، وعلى أساس أن لا يحولوا بين شعوبهم وبين رؤية الإسلام الحق مطبقاً، فإذا حالوا بين شعوبهم وبين الإسلام، وعملوا على تشويه صورته وإيذاء دعاته، ومنعهم من

(١) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٢) سورة يونس: الآية ٩٩.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ٣، ٤. تفسير الرازي: ٣١٩/٢، ويؤكد هذا المعنى ابن كثير في تفسيره: ٣٣١/٣.

وانظر: كذلك النظم الإسلامية، للدكتور صبحي الصالح: ص ٥١٨. وعنه نقلت نص الرازي.

(٤) شرح السير الكبير: ٥٩/١.

الوصول إلى الشعوب، كان الجهاد والقتال، ومن هنا كان حض الإسلام على الجهاد والقتال في سبيل الله في الآيات والأحاديث الكثيرة، وهذا نص الآيتين الكريمتين: قال تعالى في سورة النساء: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَلَيْسَ بِكُمْ فَكْرًا فَجَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (١).

وقال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْرَظُواكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُواهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (٢).

يقول الشيخ محمد الصادق عرجون (فهو قتال مأمور به لرد الاعتداء، والدفاع عن النفس، ومقاومة الظلم، والقضاء على عوامل الفتنة ورد المؤمنين عن دينهم، وتخليص المستضعفين من النساء والولدان وعجزة الشيوخ من الرجال، والمرضى والضعفاء، وإنقاذهم من وطأة الاستبداد والظلم وتحريرهم من نير الطغيان، وربقة الفجور، وتأمين الطريق أمام كلمة الحق والهدى، وهي تسري إلى العقول والقلوب دون أن يعوق سيرها بإقامة العقاب بين يديها.

وإذا لم يكن بدء قتال من المشركين للمؤمنين.

وإذا لم يكن منهم اعتداء عليهم.

وإذا لم يكن منهم ظلم لهم.

وإذا لم تكن فتنة للمؤمنين عن دينهم بالإيذاء والتعذيب.

وإذا لم يكن تعويق لسير الدعوة إلى الله تعالى.

وإذا لم يكن صد عن الحق والهدى والخير والنور.

وإذا ترك المستضعفون في أرض الله يتنسمون نسائم الحرية في تفكيرهم وعقائدهم وما يختارون لأنفسهم من عقيدة ودين لا تمتحن في ظلهم العقول الإنسانية.

وإذا كف أعداء الله وأعداء دينه أيديهم عن قتال المؤمنين وألقوا إليهم السلم، وكان الدين كله لله.

(١) سورة النساء: الآية ٩٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٩١.

وجب على المؤمنين حينئذ أن يكفوا أيديهم عن القتال وأن يدخلوا في السلم ويشغلوا أنفسهم بطاعة الله وذكوره، والدعوة إلى دينه بالحجة النيرة والبرهان الواضح والموعظة الحسنة^(١).

على أن من يتابع تطورات الدول قديمها وحديثها، وتطور علاقاتها، يرى أنها تركز على ظاهرة النزاعات المسلحة، أكثر من ارتكازها على السلم، وأن التقدم السياسي والاجتماعي والاقتصادي زاد من التناقضات بين الدول، فتوسعت رقعة المنازعات، وسخر الإنسان كل طاقاته لتمكين نفسه من خوض الحروب وتدمير الشعوب^(٢).

ولكننا في الإسلام على غير هذا، فالأصل السلام، والمنازعات ينبغي أن تُفُضَّ بالطرق السلمية وإلا فالحرب آخر الدواء.

(١) الموسوعة في سماحة الإسلام، للشيخ محمد الصادق عرجون: ٢/ ٨٣٤.

(٢) العلاقات الدولية، للدكتور كاظم هاشم نعمة: ص ١٨٥، طبعة فرنسا عام ١٩٧٩م.

المعاهدات والاتفاقات

المعاهدات: جمع معاهدة: والمعاهدة لغة: من عاهد، إذا أعطى عهداً أي ميثاقاً فيكون معنى المعاهدة لغة: الميثاق يكون بين اثنين أو جماعتين.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾^(١).

أي إذا كان بينكم وبينهم معاهدة وميثاق.

وهي اصطلاحاً: (اتفاق دولتين أو أكثر لتنظيم علاقات بينهما، أو هي: الاتفاق الذي يعقد بين دولتين أو أكثر لتنظيم علاقات قانونية أو دولية وتحديد القواعد التي تخضع لها)^(٢).

أو هي: (اتفاق دولي يبرم بين دول في صياغة مكتوبة، ويحكمه القانون الدولي سواء احتوته وثيقة واحدة أو أكثر وأيا كان مسماه)^(٣).

والأصل في القانون الدولي أن المعاهدات تكون سياسية، أما إذا كانت غير سياسية فتسمى: «اتفاقاً أو اتفاقية».

والمعاهدات كانت قبل الإسلام في صورة أحلاف كحلف الفضول بين بني هاشم، وبني عبد المطلب وزهرة وتميم، وهو حلف تعاهدوا فيه على نصره بعضهم بعضاً في الحق ونصرة المظلوم.

(١) سورة النحل: الآية ٩١.

وانظر: المعجم الوسيط، مادة عهد.

(٢) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، لعلي علي منصور: ص ٣٧٠.

(٣) كما عرفتها اتفاقية فينا للمعاهدات. انظر: كتاب قانون السلام في الإسلام، للدكتور

محمد طلعت الغنيمي: ص ٤٥٨؛ وكتاب مبادئ القانون الدولي العام، للدكتور إبراهيم

أحمد شلبي: ص ٢٥٦.

أو في صورة اتحادات بين القبائل، أو في صورة مساندة في أعمال الغزو والحرب، أو في صورة موادة وهي وفاق يتعهد فيه الطرفان بعدم الاعتداء أو الاستشارة بعضهم على بعض.

مشروعية المعاهدات :

المعاهدات في الإسلام مشروعة مع الأعداء التي ليس بيننا وبينها حرب، لقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَعُدُّوهُمْ وَأَقْسُواهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَاجَدُوا مِنْهُمْ وَلَا يَصِيرُوا ۗ إِنَّمَا الَّذِينَ يُصَلُّونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءَ وَكُم مَّحْصِرَةٌ صُودُوهُمْ أَن يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقْتَلُوا قَوْمَهُمْ ۗ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَاهِدًا إِلَىٰ مَدَّتْهُمُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۗ ﴾ (٢).

ولقوله: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۗ ﴾ (٣).

فهذه الآيات وأمثالها تدل على جواز عقد المعاهدات بين الدولة الإسلامية وغيرها، وعلى ضرورة الوفاء بها والالتزام بما تضمنته من موضوعات وتعهدات. ولما روي أنه ﷺ عاهد أهل مكة عام الحديبية على أن توضع الحرب عشر سنين، جاء في سنن أبي داود عن المسود بن مخزوم أن النبي ﷺ خرج عام الحديبية، وذكر الحديث بطوله وفيه: (هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو: على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض) (٤). قال الصنعاني: (الحديث دليل على جواز المهادنة بين المسلمين

(١) سورة النساء: الآيتان ٨٩، ٩٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ٧.

(٤) شرح سبل السلام على بلوغ المرام: ١٠١/٤.

وأعدائهم من المشركين مدة معلومة لمصلحة يراها الإمام^(١)، وقال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يُرَخَّ رائحة الجنة، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»^(٢)، وقال ﷺ «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»^(٣).

وسواء أكانت معاهدات أو اتفاقيات أو أماناً، أو صلحاً، فهذه الأدلة تشملها وتقع تحت عموم قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِحْ لَهُ ﴾.

يضاف إلى ذلك قوله ﷺ في الأمان: «ويسعى بدمتهم أذناهم»^(٤)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أيما رجل من أقصاكم أو أدناكم، من أحراركم أو عبيدكم، أعطى رجلاً منهم أماناً أو أشار إليه بيده، فأقبل بإشارته، فله الأمان حتى يسمع كلام الله، فإن قبل فأخوكم في الدين، وإن أبى فردوه إلى مأمنه واستعينوا بالله»^(٥). والإجماع قائم على جواز المعاهدات، وطبيعة الحياة ومنطق العقل السليم يقر اللجوء إليها تمكيناً للدعوة من الوصول إلى معانديها، أو حقناً للدماء، أو نشراً للسلام وإعطاء الفرصة للمسلمين لأخذ الحيطة والاستعداد.

الوفاء بالعهد:

إذا عقد الصلح أو أبرمت المعاهدة، أو أعطي الأمان أو غيره، فالالتزام بمضمون المعاهدات واجب والوفاء فرض، ولا يجوز نقض العهد إلا بسبب من خيانه، أو غدر أو مظاهرة علينا بمال أو سلاح أو برأي وتدبير، فإن العهد يفقد حرمة ويصبح المسلمون في حل من ذلك دون إنذار أو إعلان كما فعل النبي ﷺ في صلح الحديبية حين نقضت قريش معاهدة الصلح بإعانتها على حلفاء رسول الله ﷺ فتوجه إلى فتح مكة دون إنذار وفتحها بفضل الله، وذلك

(١) المصدر نفسه: ١٠١/٤.

(٢) أخرجه البخاري، وروى مثله أبو داود والنسائي والترمذي.

(٣) رواه أبو داود والبيهقي.

(٤) رواه البخاري.

(٥) الروض النضير: ٢٣٩/٤.

لقوله - تعالى - : ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾^(١).

فإن الآية تدل بمفهومها على أن المسلمين في حل من مهاجمة الكافرين إذا نقضوا العهد بمخالفة بنوده أو المظاهرة عليهم^(٢)، قال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾^(٣).

وقال : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٤).

وقال سبحانه : ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾^(٥).

وقال : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ يَهْتَدُونَ إِذَا عَاهَدُوا﴾^(٦).

وقال رسول الله ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له »^(٧). وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى كل مدينة صالح أهلها ولم يستطع صد الروم عنهم، وفاء منه لما عاهدهم عليه (إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وأنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم)^(٨).

(١) سورة التوبة: الآية ٤ .

(٢) النظم الإسلامية، لأبي محمد أحمد موسى : ١٧٣/٢ .

(٣) سورة النحل: الآية ٩١ .

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٤ .

(٥) سورة التوبة: الآية ٧ .

(٦) سورة البقرة: الآية ١٧٧ .

(٧) رواه أحمد وابن حبان . وصححه ورواه السيوطي في الجامع الصغير .

(٨) كتاب الخراج، لأبي يوسف: ص ١٥٠ .

انواع المعاهدات:

١ - المعاهدات:

تتنوع المعاهدات بحسب موضوعاتها وأهدافها، وكما يقول الدكتور وهبة الزحيلي: (فقد يكون الغرض منها تنظيم التجارة أو نشر الإسلام والثقافة أو لأغراض اجتماعية وإنسانية كتبادل الأسرى، ومعالجة المرضى، أو لتقرير السلم والأمن، وتثييب دعائمه أو لدعم روابط الجوار والتعاون مع المجاورين)^(١).

فمنها:

(أ) المعاهدات التجارية:

وهي تنظيم التجارة الخارجية، أي لتأمين التبادل التجاري بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى في حرية التجارة وعدم التعرض لها بالمصادرة أو السلب أو النهب أو القرصنة. وهذا مما يجيزه الإسلام. وقد تسمى هذه المعاهدات معاهدات الصداقة. وقد أوجب الإسلام على التجار المسلمين التقيد بأحكام الإسلام في عقود التجارة من حيث شروط الصحة وأنواع التجارة، فلا يجري فيها الربا ولا بيع الخمر والخنزير ولا يفرض عليهم العشر، لقول الرسول ﷺ: «في العهود وفاء لا غدر، لا أحل لكم شيئاً من أموال المعاهدين إلاّ بحق»^(٢). أما إذا كانوا أجنب أي غير مسلمين فيتقيدون كذلك بما يتقيد به تجار المسلمين ويؤخذ منهم ضريبة على تجارتهم معاملة بالمثل مع المسلمين^(٣).

(ب) المعاهدات السياسية:

وأعني بها المعاهدات ذات الأجل الطويل كصلح الحديبية الذي حدد بعشر سنوات، أو الدائمة، وهي جائزة أخذاً من عموم قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الزَّيْتُ﴾^(٤).

(١) العلاقات الدولية في الإسلام: ص ١٥٠.

(٢) المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون العام، للدكتور محمود الديك: ص ١٤٣.

(٣) فتح القدير: ٣/ ٢٢٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

ومن فعل النبي ﷺ في المعاهدات التي أبرمها مع عدد من الدول منها: معاهدته مع اليهود في المدينة وكانت معاهدة دائمة غير موقوتة ومنها معاهدته مع أهل أيلة وفيها «هذه أمّنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليُحَنَّهُ بن رؤبة وأهل أيلة: سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس. وأنه لا يحل أن يُمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحر^(١)»، ومعاهدته مع أهل جرباء وأذرح، وأهل مَقْنَا^(٢)، ومعاهداته مع نصارى نجران^(٣). وأخذاً من فعل الصحابة - رضوان الله عليهم - في المعاهدات - لتجديد أبي بكر العهد للنجرانيين ومعاهدة عمر بن الخطاب مع نصارى المدائن وفارس. ومعاهدة حذيفة بن اليمان مع أهل ماه دينار (بفارس) ومعاهدة النعمان بن مقرن مع أهل ماه بهراذان (بفارس) ومعاهدة عبد الله بن قيس مع أهل أصفهان (بفارس)، وغيرها من المعاهدات^(٤). ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: «ولقد ادعى بعضهم لهذا أن الصلح الدائم لا يجوز في الشرع الإسلامي، وما جاء به من النصوص يسوّغ هذا الصلح بإطلاق قد نسخ وغير حكمه النبي ﷺ، فقد جاء في شرح السير الكبير للسرخسي عند الكلام في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقْبَلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِكُرْهِهِمْ سَبِيلًا﴾^(٥).

«واختلف المفسرون، فقال بعضهم: الآية منسوخة، وقال قوم إنها غير منسوخة وقد اعتبر الذين قالوا إنّ آية منع قتال المسالمين غير منسوخة هم الأكثرية»^(٥)، وجاء في الهداية: «ولا يقتصر الحكم على المدة المروية»^(٦)

(١) مجموعة الوثائق السياسية، لحמיד الله: ص ٣٤، طبع القاهرة سنة ١٩٤١.

(٢) جرباء وأذرح في جنوب الأردن من محافظة معان، ومقنا بلدة كانت جنوب العقبة.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية: ص ٨٠.

(٤) يراجع كتاب الوثائق السياسية، لحמיד الله.

(٥) مقدمة طبعة جامعة القاهرة، لكتاب السير الكبير: ص ٥.

(٦) أي مدة السنين العشر في صلح الحديبية.

لتعدي المعنى إلى ما زاد عليها^(١)، قال الكمال ابن الهمام في شرحه على الهداية: «وبهذا يندفع ما نقل عن بعض العلماء من منعه أكثر من عشر سنين وإن كان الإمام غير مستظهر وهو قول الشافعي، ولقد كان في صلح الحديبية مصالح عظيمة، فإن الناس لما تقاربوا انكشف ما سن الإسلام للذين كانوا متباعدين لا يعقلونها من المسلمين لما قاربوهم وتخالطوا بهم»^(٢).

والخلاف بين من يقول بجواز الصلح الدائم، ومن يقول بعدهم جوازه، هو الخلاف في أساس العلاقات الدولية في الإسلام، هل هو السلم أو الحرب، فمن قال هو السلم أجاز المعاهدة الدائمة، ومن قال هو الحرب منع المعاهدة الدائمة. علماً بأن قوماً قالوا بعدم جواز المعاهدة أصلاً مستشهدين بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

وهذا مدفوع بما ذكرناه من آيات السلم وفعل النبي ﷺ والأوضاع الدولية في أيامنا هذه، واختلاف الزمان والأحوال يجعلنا نميل إلى اعتبار السلم هو أساس العلاقات الدولية وإلى جواز المعاهدات الدائمة ما كانت خيراً للإسلام والمسلمين.

ويشترط للمعاهدة الدائمة أن تكون مع مشركي العرب فإنه لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، بقوله تعالى: ﴿نُقَلِّبُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾^(٤).
وقوله: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٥).

أما أهل الكتاب فالمعاهدة معهم جائزة على أساس دفع الجزية، ويلحق بهم المجوس «والفرق بين مشركي العرب ومشركي العجم أن مشركي العجم

(١) الهداية، للمرغيناني: ١٠٣/٢.

(٢) شرح فتح القدير: ٢٠٥/٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٩. وانظر: كتاب الشريعة الإسلامية، والقانون الدولي لعلي علي منصور: ص ٣٧٨.

(٤) سورة الفتح: الآية ١٦.

(٥) سورة التوبة: الآية ٥.

(ومثلهم أهل الكتاب) إنما تركوا بالذمة وقبول الجزية لا لرغبة في أن يؤخذ منهم أو طمع في ذلك، بل الدعوة إلى الإسلام، ليخالطوا المسلمين فيتأملوا في محاسن الإسلام وشرائعه، وينظروا فيها فيروها مؤسمة على ما تحتمله العقول وتقبله فيدعوهم ذلك إلى الإسلام، فيرغبون فيه، فكان عقد الذمة لرجاء الإسلام، وهذا المعنى لا يحصل بعقد الذمة لمشركي العرب^(١) ونقول بأن هذا الشرط لا معنى له في أيامنا هذه، وقد انتهى الشرك من جزيرة العرب، ومن العرب، وإن كان حلّ محله الإلحاد، ولذلك نقول: لا معاهدة مع عرب ملاحدة، ولا يقبل منهم إلاّ الإسلام، أو السيف، لما مرّ معنا من الآيات.

ومنها:

(ج) المعاهدات العسكرية:

سبق أن بينا أن المعاهدة في الإسلام هي: عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمها كل منهم^(٢). وأنها في القانون اتفاق مكتوب بين شخصين أو أكثر من الأشخاص الدولية من شأنه أن ينشئ حقوقاً والتزامات متبادلة في ظل القانون الدولي^(٣)، أو أنها اتفاقات تعقدها الدول بغرض إيجاد علاقات قانونية بينها أو تعديلها، أو إنهاؤها^(٤)، وأن هذه المعاهدات قد تكون تجارية أو غيرها.

غير أن من هذه المعاهدات ما هو عسكري، تعقد بين دولتين أو أكثر لغايات عسكرية كالدفاع عن أرض دولة أو مهاجمة دولة أخرى، أو لحماية الدولة من اعتداءات آخرين أو لدفع أذى إحدى هاتين الدولتين أو لأي مصلحة أخرى.

وهذه المعاهدات إذا كانت لصالح المسلمين وتحت راية المسلمين، فهي جائزة، وإن كان الأصل أن يكون المسلمون في دولة واحدة وخلافة واحدة،

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لأبي بكر علاء الدين الكاساني: ٤٣٢٩/٩.

(٢) شرح السير الكبير: ١٥٤/٤.

(٣) القانون الدولي العام، للدكتور محمد عزيز شكري: ص ٣٦٩.

(٤) القانون الدولي العام، لعلي صادق أبو هيف: ص ٥٢٦.

لكن عند انقسامات تحصل بين المسلمين كما حصل في دول الأمراء والسلاطين في ظل الخلافة العباسية أو عندما تعددت الخلافات الإسلامية إلى ثلاث: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في مصر، والخلافة الأموية في الأندلس، أو في تعدد الممالك الإسلامية كدولة المماليك في مصر، ودولة المغول في شرق آسيا والهند، وكدولة الصفويين في فارس، ودولة العثمانيين في تركيا، إن كانت المعاهدات العسكرية بين دول الإسلام لدفع العدوان أو للجهاد في سبيل الله فمثل هذه المعاهدات جائزة شرعياً لأنها تعاون على البر والتقوى ولتقوية المسلمين، وإن كانت للتعاون مع الأجنبي ضد المسلمين أو أي دولة من دول الإسلام. فالمعاهدة غير جائزة لقوله ﷺ: «لا تستضيئوا بنار المشركين»، والمعاهدات أو الاتفاقات في الإسلام يجب أن تخضع لأحكام الإسلام فإذا خالفتها، فليس لها إلزام على المسلمين بخلاف المعاهدات الدولية بين الدول الأخرى، فإنها تخضع لمبادئ القانون الدولي وأعرافه^(١)، ومن هنا فإن الاتفاقات العسكرية التي تعقد بين المسلمين وغير المسلمين تنقسم إلى قسمين:

(أ) المعاهدات التي تعقد بين المسلمين وبين غير المسلمين لدرء خطر متوقع أو اتقاء ضرر محتمل ولا يمكن أن يدفع ذلك إلاً بمعاهدة مع غير المسلمين، فيجوز ذلك شريطة أن لا يكون المسلمون تحت راية الكفر، أو أن يقاتلوا مع الكفار، أخوة لهم من المسلمين والدليل على ذلك عقد النبي ﷺ المعاهدة مع بني قريظة لاتقاء شر هجوم قريش الكافرة، وذهب إلى هذا الرأي الحنفية والشافعية، بشرط أن تكون الاستعانة على قتال المشركين لا البغاة وقالوا إن ما ورد عن عائشة - رضي الله عنها - من رد النبي ﷺ لمشرك كان ذا جرأة ونجدة أراد أن يحارب مع النبي ﷺ يوم بدر، وقال له: «ارجع فلن نستعين بمشرك» منسوخ، بدليل استعانته ببني قينقاع، وقسم لهم من الغنيمة. واستعانته بصفوان بن أمية في حرب هوازن.

(١) يراجع كتاب الوثائق السياسية، لحميد الله.

(ب) المعاهدات العسكرية التي تقضي على قوة المسلمين، أو تجعلهم يخضعون لحكم الأعداء، أو يقاتلون من أجل مصلحة الأعداء، أو لقتال المسلمين، الآخرين فهذه معاهدات غير جائزة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ لَمْ يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ لَمَّا كَانَ اللَّهُ الَّذِي عَلَيْهِ الْقَوْلُ عَلَىٰ نَجْمٍ ﴿١٠١﴾ ﴿١٠٢﴾﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَوْلِيَاءَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرُ أَوْلِيَاءُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (٢).

وقد ورد النهي عن القتال تحت راية الكفار، قال رسول الله ﷺ: «لا تستضيئوا بنار المشركين» (٣)، والنار كناية عن الحرب. وقال: «أنا بريء من كل مسلم مع مشرك»، فقيل: «لم يارسول الله، فقال: لا تراءى نارهما» (٤).

والنهي ينصب على الاستعانة بالكفار دولة وكياناً، أما الاستعانة بالأفراد فجائزة، فقد قاتل قزمان من مشركي الأنصار مع النبي ﷺ في معركة أحد، أما عدم الاستعانة بأهل الكتاب، فلما ورد أن النبي ﷺ خرج يوم أحد فإذا كتيبة حسناء، فقال الرسول ﷺ: «من هؤلاء»، قال أبو خشناء: (أحد الصحابة): يهود كذا وكذا، «فقال عليه الصلاة والسلام: «لا نستعين بالكفار»، وعن أبي حميد الساعدي. فقال: خرج ﷺ حتى إذا كان خلف ثنية الوداع إذا كتيبة، قال: «من هؤلاء» قالوا: بنو قينقاع رهط عبد الله بن سلام: «قال أوتسلموا! قالوا: لا»، فأمرهم أن يرجعوا، وقال: «إننا لا نستعين بالمشركين على المشركين» (٥).

والأحلاف العسكرية تدخل في حكم المعاهدات والاتفاقات العسكرية، من حيث الجواز وعدم الجواز.

(١) سورة المائدة: الآية ٥١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٧.

(٣) رواه أحمد والنسائي عن أنس بن مالك، وانظر جمع الجوامع: ١/ ٨٩٢.

(٤) أحكام القرآن للجصاص، ١٠/٢، ومعنى تراءى نارهما: أي لا ينزل بالموقع الذي إذا

أوقعت فيه ناره تظهر لنار المشرك، إذا أوقدها، ولكنه ينزل مع المسلمين دارهم.

(٥) رواه أحمد بن حنبل والبخاري في كتاب التاريخ.

على أن من الفقهاء من يرى الاستعانة بالمشركين من غير اتفاق أو معاهدة أو حلف أي إذا خرجوا طوعاً مع المسلمين، قال الشافعي: «فلا بأس أن يستعان بالمشركين على قتال المشركين إذا خرجوا طوعاً»^(١).

شروط المعاهدات:

يشترط في المعاهدات لصحتها من وجهة نظر الإسلام ما يلي:

١ - الأهلية:

إن من يملك عقد المعاهدات، هو الإمام أي رأس الدولة الإسلامية، أو من ينيه، جاء في المغني: «ولا يجوز عقد الهدنة إلا من الإمام أو نائبه لأنه عقد مع جملة الكفار، وليس ذلك لغيره، ولأنه يتعلق بنظر الإمام، وما يراه من المصلحة»^(٢)، وجاء في الشرح الصغير «وجاز للإمام أو نائبه للكافرين»^(٣) وهذا عند جميع المذاهب. أما في الاتفاقات الجزئية فقد يبرمها قائد الجيش أو مع الأفراد كما سيأتي في موضوع «الأمان» لقوله ﷺ: «ويسعى بذمتهم أدناهم». ويشترط أن يرد ذلك إلى الإمام فإن كان صحيحاً أمضاه وإلاً لم يصح، إذ قد يكون فيه شرط يتعارض مع تعاليم الإسلام لقوله ﷺ: «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل»^(٤)، كأن يشترط نزع سلاح المسلمين أو التنازل عن إقليم من أقاليم بلاد المسلمين، أو اشتراط بسط السيادة على إقليم من بلاد المسلمين.

إلاً أنه عند الضرورة القصوى يجوز أن يدفع المسلمون مالا للعدو إذا خافوا على أنفسهم أو الخطر على بلد من بلادهم أو مقابل انسحاب العدو من أرض المسلمين، أو مقابل اقتداء الأسرى^(٥).

(١) الأم، للشافعي، طبعة دار الشعب: ١٧٧/٤.

(٢) المغني، لابن قدامة: ٩٨/٩.

(٣) الشرح الصغير على أقرب المسالك، للشيخ الدردير: ٢٨٣/٣.

(٤) انظر بدائع الصنائع: ٤٣٢٤/٩؛ والمبسوط، للسرخسي: ٨٧/١٠؛ وروضة الطالبين:

٤٣٥/١٠؛ والشرح الصغير: ٣٠٨/٣؛ وانظر كتاب المعاهدات: ص ١٩٧.

(٥) المعاهدات، للدكتور محمود الديك: ص ١٧٣.

وشرط العاقد أن يكون مسلماً مميزاً أو بالغاً.

٢ - الرضا:

أن يتم عقد المعاهدة بالرضا، لا بالإكراه، وهو ارتياح النفس وانسائها عن العمل ترغب فيه وتستحسنه^(١)، وعادة ما يكون عقد المعاهدات بعد تحضير ذلك من المختصين وعرضه على الإمام وإن كان هناك مجلس شورى، أو مجلس نواب، فتعرض عليهم ثم يبرمها الإمام أو نائبه، أو مجلس الوزراء إن وجد.

ومنها:

(د) الأمان:

الأمان عقد يفيد ترك القتال مع الحربيين، أو هو رفع استباحة دم الحربى، ورقه وماله حين قتاله أو العزم عليه مع استقراره تحت حكم الإسلام مدة ما^(٢).
والأمان: من الأمن، وهو نوعان: - باعتبار من يعطي الأمان - : خاص، وعام.

(أ) فالأمان الخاص: بفرد من الحربيين يجوز لآحاد المسلمين أن يؤمنوا أحاداً من المحاربين الكفار بشرط أن لا يتعطل الجهاد بأمانهم في ناحية كالواحد والعشرة والمائة، وأهل حصن. لقوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم»^(٣)، ويصح من كل مسلم مكلف مختار يستوي فيه الحر والعبد والغني والفقير والرجل والمرأة، لقوله عليه السلام لأم هانئ: «قد أجرنا من أجرنا يا أم هانئ»^(٤)، ولأن زينب بنت النبي ﷺ آمنت زوجها أبا العاص، وأجازه الرسول الله ﷺ. وقال ﷺ: «ذمة المسلمين واحدة يسعى بها

(١) نفس المصدر.

(٢) مغني المحتاج: ٤/٢٧٦؛ ومواهب الجليل، شرح مختصر خليل: ٣/٣٦٠.

(٣) حديث حسن، أخرجه أبو داود.

(٤) أخرجه البخاري تحت عنوان «باب أمان النساء وجوارهن»، ورواه مسلم، ومالك في الموطأ، وأبو داود، وانظر البدائع: ٩/٤٣٢٠.

أذناهم فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(١)، وقالت عائشة - رضي الله عنها - : «إن كانت المرأة لتجير على المسلمين فيجوز» ويروى أن عبداً مسلماً أعطى أماناً لأهل حصن تحصنوا به فأرسل أمير الجيش إلى عمر يستعينه، فكتب إليه عمر: «إن عبد المسلمين من المسلمين ذمته ذمتهم»^(٢).

(ب) الأمان العام: وهو عقد مع العدو الذي لا يُحصَر، وهذا الأمان لا يكون إلا من الدولة، من الإمام أو من نائبه، مع أن الإمام له أن يعطي الأمان للجميع وللأحاد، لأن ولايته على الأمة جميعها. قال محمد بن الحسن في كتابه (السير الكبير): «لو حاصر المسلمون حصناً فليس ينبغي لأحد منهم أن يؤمن أهل الحصن إلا بإذن الإمام، لأنهم أحاطوا بالحصن فعلاً، ولأن كل مسلم تحت طاعة الأمير... ولأن ما يكون رجعة إلى عامة المسلمين في النفع والضرر، فالإمام هو المنصوب للنظر فيه»^(٣)، ومع ذلك، فلو أعطى أحد المسلمين الأمان العام بغير إذن الإمام فهو جائز لأن عليه صحة الأمان، وهو حق لكل مسلم لكن لضرورة التنظيم، ولضبط الأمور، ولتقدير الموقف العام للدولة، لا بد من الرجوع للإمام، وقد أعطي الحق للمسلم لعموم قوله ﷺ: «ويسعى بدمتهم أذناهم».

وركن الأمان: اللفظ الدال على الأمان مثل أجرتك وأمنتك، ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾^(٤).

ولقوله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»^(٥).

وتعتبر الإشارة كالعبارة، لما ورد عن عمر - رضي الله عنه - قوله: (أيما

(١) نيل الأوطار: ٢٨/٨.

(٢) النظم الإسلامية، لأبي الحمد موسى: ٢٠٨/٢.

(٣) انظر: كتاب الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام: ص ٣٤٨.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦.

(٥) شرح المواهب اللدنية للزرقاني: ٣١٣/٢، المطبعة الأزهرية: سنة ١٣٢٥هـ.

رجل دعا رجلاً من المشركين وأشار إلى السماء فقد أمنه، وإنما نزل بعهد الله وميثاقه، وقوله: (لو أن أحدكم أشار بأصبعه إلى مشرك فنزل بأمانه فقتله لقتلته به)^(١).

وحكم الأمان: ثبوت الأمن للحربي غير مسلم^(٢). وهذا خلاف ما عليه القانون الدولي العام، وما عليه الدول المعاصرة من قطع العلاقات السلمية بين الدولتين المتحاربتين إذ يحظر كل اتصال بينهما إلا لمصلحة ضرورية مثل تأمين الأطباء، والمرضى لإغاثة الجرحى^(٣)، والسبب في هذا الاختلاف، أن دولة الإسلام في حربها هي للدعوة الإسلامية فدخول الحربي بأمان إلى بلاد المسلمين واختلاطه بهم قد يؤدي به إلى اعتناق الإسلام، ولا يخشى على المسلمين من تجسسهم فعيونهم يقظة وتماسكهم وحرصهم على مصلحة الإسلام تمنع المتجسس من اختراق المسلمين ومعرفة أسرارهم الحربية.

وصفة الأمان: أنه عقد غير لازم فلو رأى الإمام المصلحة في النقض نقضه^(٤)، لكن لا بد أن يخبر الحربي بذلك حتى لا يكون غدر في عهد الأمان. وإذا كان الأمان بوقت معلوم فصفته أن يستمر إلى نهاية المدة.

ومدة الأمان للمستأمن، غير محدودة إلا أن بعض الأئمة حددها بمدة أقصاها سنة، فإن تجاوزها أصبح ذمياً متى قبل الجزية.

وواجب المستأمن: أن يحافظ على الأمن والنظام العام وأن يتقيد بأحكام الإسلام، وأن لا يكون عيناً أو جاسوساً علينا وإلا فيعاقب على ذلك بما يوازي جريمته^(٥).

(١) الشرح الصغير على أقرب المسالك للدردير: ٢/٢٨٨؛ ومنتهى الإيرادات: ١/٣٢٥.

(٢) بدائع الصنائع: ٩/٤٣٢٠.

(٣) المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، للدكتور محمود الديك: ص ١٥٣.

(٤) بدائع الصنائع: ٩/٤٣٢١.

(٥) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام: ص ٣٤٩.

والأمان قد يكون مؤقتاً وغير مؤقت، فالأمان غير مؤقت هو عقد الذمة، وغير المؤقت هو الأمان الذي يعطى للحربي (ويدخل فيه المعاهد)، لفترة من الوقت، لغرض من الأغراض التجارية أو لزيارة الأقارب، أو المطالبة بحق معين. وقد أصبح له الآن إجراءات أمنية كإعطاء تأشيرة الدخول من السفارات والإذن بالإقامة ومراجعة الشرطة، والإقامة المؤقتة، ويعتبر هذا الأمان أماناً سلمياً.

وهناك أمان غير سلمى يعطى للمحاربين في أثناء الحرب للجند المحصورين للتسليم والأمان غير الموادة والهدنة^(١).

الموادة:

الموادة لغة: من وادع بمعنى صالح وسالم، وهي من ودَعَ يدع ودعا سكن واستقر أي صار إلى الدعة، وهي السكون. يقال توادع الفريقان، أي تعاهدا على أن لا يغزوا أحدهما الآخر.

والموادة شرعاً هي المعاهدة، والصلح على ترك القتال، وهي نوع من أنواع الأمان والمعاهدة، فهي أعم من الأمان المؤقت، وأخص من المعاهدة لأن المعاهدة تشمل أنواعاً أخرى من المعاهدة، ونستطيع أن نقول: إن الموادة هي: «معاهدة صلح بين الفريقين المتحاربين على ترك القتال».

والموادة لها ركن، وشرط وحكم وصفة:

أما ركنها: فهو لفظ الموادة أو ما في معناها كالمسالمة أو المصالحة.
وأما شرطها: فالضرورة، لأن ترك الجهاد وهو فرض لا يجوز إلا في حال أن يقع وسيلة إلى استئناف الجهاد، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

وقد وادع رسول الله ﷺ أهل مكة. ولا يشترط إذن الإمام بالموادة. ولا بأس أن يأخذ المسلمون جُعللاً مقابل الموادة، والجعل، المال.

(١) الشرح الصغير، للدردير، التعليق: ٢٨٣/٢.

وحكم المودعة: الأمان على أنفس المودعين وأموالهم وذرياتهم ونسائهم وبلدانهم حتى لو خرجوا إلى بلد أخرى غير بلدتهم، فيبقى حكم المودعة سارياً عليهم، ولو دخل إلى دارهم رجل آمن بأمانهم فهو آمن منا بمودعتنا لهم.

وأما صفة المودعة: فهو عقد غير لازم محتمل للنقض، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةَ فَأَيْدٍ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾^(١).

فيقاتلون بعد ذلك. هذا إذا كان النبذ منا، وإذا كان النبذ من الأعداء فيقاتلون كذلك.

وإذا وادعهم الإمام على مال ثم بدا له أن ينقضه أرجعه إليهم بحصة ما بقي من المدة.

وإذا كانت المودعة على أن يجري عليهم أحكام الإسلام فالعقد لازم لا يحتمل النقض كما وادع النبي ﷺ أهل جرباء وأذرح والعقبة^(٢).

ونقول: هل المودعة هُدنة، لأن معنى الهدنة الصلح المؤقت وتستمر حالة الحرب بين الطرفين المتحاربين حتى تعقد معاهدة دائمة، أو يستأنف القتال، والمودعة هي المعاهدة على ترك القتال لفترة معينة أو لمدة أطول. ورأيي أن المودعة هدنة لاتفاقهما في المعنى.

والمودعة قد تكون محددة بمدة وقد لا تكون:

والمدة عند الشافعية، تكون أربعة أشهر إلى أقل من سنة، إذا كان بالمسلمين قوة، لقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣) فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ عَدُوٌّ مُبْتَدِلٌ غَيْرُ مُبْتَدِلٍ وَاللَّهُ مُخْرِجُ الْكُفْرِينَ^(٤).

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(٢) بدائع الصنائع: ٤/٣٢٤؛ والاختيار: ٤/١٢٠؛ والمبسوط: ١٠/٨٦؛ والأم، للشافعي: ٤/١٩٠، وأغلب العبارات للكاساني صاحب البدائع.

(٣) سورة التوبة: الآيتان ١، ٢.

ولأن الرسول ﷺ هادن صفوان بن أمية أربعة أشهر عام الفتح ولأن الجزية تجب سنوياً. فقد رأى الشافعي أن مدة المودعة على سنة^(١).

وأما غير الشافعية من الجمهور، فإنهم لم يحددوا للمودعة مدة إنما تركوا لاجتهاد الإمام وبقدر الحاجة، والحاجة تقدر بقدرها. علماً بأنه لا يجوز أن تكون المودعة مطلقة إلى الأبد إلا إذا كانت المودعة على الأموال، فتكون أبدية عند الشافعية، جاء في الفتاوى الهندية (العالمكيرية): «وتجوز مدة المودعة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة»^(٢).

وجاء في الاختيار لتعليل المختار، قوله: «وتجوز المودعة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة لأن تحقيق المصلحة والخير لا يوقت بمدة دون مدة»^(٣)، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٤).

والأصل في المودعة أن لا تكون إذا كان بالمسلمين قوة، إلا لمصلحة يراها الإمام أو الدولة أما إذا لم يكن بالمسلمين قوة فالمودعة جائزة، وذلك لضعف يعجزون معه عن القتال أو لكي يتفرغوا لأعداء آخرين، أو لقمع فتنة بين المسلمين، أو خشية من ضياع جزء من بلاد المسلمين، أو أي مصلحة معتبرة شرعاً^(٥).

والله سبحانه وتعالى والموفق الهادي إلى سواء السبيل.

الدكتور عبد العزيز الحياط

(١) الأم، للشافعي: ١٩٠/٤.

(٢) الفتاوى الهندية: ١٩٧/٢.

(٣) الاختيار، للمودودي: ١٢١/٤.

(٤) سورة النساء: الآية ٩٠.

(٥) المعاهدات، للدكتور محمود الديك: ص ٢٩٨.

قائمة المراجع بحسب ورودها في البحث

- ١ - النظم الإسلامية، للدكتور صبحي الصالح.
- ٢ - القرآن والقتال، للشيخ محمود شلتوت، طبع دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥١.
- ٣ - أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد علي، الرازي الجصاص، طبع المطبعة البهية بمصر سنة ١٣٤٧هـ.
- ٤ - رد المحتار على الدر المختار، لمحمد أمين المعروف بابن عابدين، المطبعة الأميرية، سنة ١٣٢٦هـ.
- ٥ - شرح فتح القدير، لكamal الدين المعروف بابن الهمام، طبع دار إحياء التراث العربي، بالقاهرة.
- ٦ - الهداية شرح بداية المبتدي لأبي الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني، مطبعة الحلبي، سنة ١٩٣٦.
- ٧ - السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف - المطبعة السلفية، بالقاهرة.
- ٨ - مبادئ نظام الحكم في الإسلام، لعبد الحميد متولي، طبع دار المعارف سنة ١٩٦٦م.
- ٩ - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير القرشي، طبع دار إحياء الكتب العربية.
- ١٠ - تفسير روح البيان، للألوسي.
- ١١ - العلاقات الدولية في الإسلام، للدكتور وهبة الزحيلي، مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٨١.

- ١٢ - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، للدكتور محمد البهي، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، الطبعة الرابعة.
- ١٣ - مجموعة رسائل ابن تيمية.
- ١٤ - تفسير الرازي.
- ١٥ - شرح السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني.
- ١٦ - الموسوعة في سماحة الإسلام، للشيخ محمد الصادق عرجون، نشر المؤسسة سجل العرب بالقاهرة، سنة ١٩٧٢م.
- ١٧ - العلاقات الدولية، للدكتور كاظم هاشم نعمة. طبع فرنسا، عام ١٩٧٩م.
- ١٨ - المعجم الوسيط.
- ١٩ - الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، لعلي علي منصور، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، سنة ١٩٦٥م.
- ٢٠ - دولة الإسلام والعالم، لمحمد حميد الله، طبع القاهرة، سنة ١٩٦٢.
- ٢١ - قانون السلام في الإسلام، للدكتور محمد طلعت الغنيمي، طبع الإسكندرية، سنة ١٩٨٩.
- ٢٢ - مبادئ القانون الدولي العام، للدكتور إبراهيم أحمد شلبي، نشر الدار الجامعية بالقاهرة، سنة ١٩٨٦.
- ٢٣ - سبل السلام شرح بلوغ المرام، للصنعاني، طبع المكتبة التجارية الكبرى، بالقاهرة سنة ١٣٥٧هـ.
- ٢٤ - الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير، لشرف الدين السياغي، مكتبة المؤيد بالطائف.
- ٢٥ - النظم الإسلامي، للشيخ أبو الحمد موسى، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.
- ٢٦ - المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، للدكتور محمود الديك، طبع مطابع البيان، بدبي، سنة ١٩٨٣م.

- ٢٧ - كتاب الخراج لأبي يوسف، طبع المطبعة السلفية. سنة ١٣٩٢هـ.
- ٢٨ - مجموعة الوثائق السياسية، لحمد الله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٤١م.
- ٢٩ - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للكاساني، نشر زكريا يوسف، سنة ١٩٧٢م.
- ٣٠ - القانون الدولي العام، للدكتور محمد عزيز شكري.
- ٣١ - الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي، للدكتور فتحي عبد الكريم مكتبة وهبي بالقاهرة.
- ٣٢ - المغني، لابن قدامة.
- ٣٣ - الأم، للشافعي، طبعة دار الشعب.
- ٣٤ - الشرح الصغير على أقرب المسالك، للشيخ الدردير، طبع دار المعارف، بمصر سنة ١٣٩٢هـ.
- ٣٥ - المبسوط، للسرخسي.
- ٣٦ - مواهب الجليل شرح مختصر خليل.
- ٣٧ - مغني المحتاج.
- ٣٨ - الاختيار شرح المختار، للمودودي.
- ٣٩ - الفتاوى الهندية.

أَصُولُ الْعِلَاقَاتِ الدَّوَلِيَّةِ
بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالتَّشْرِيعَاتِ الْوَضْعِيَّةِ

إِعْدَاد

الدكتور محمد الدسوقي

أستاذ الفقه والأصول بكلية الشريعة
جامعة قطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد:

يختلف الإسلام عن سائر الأديان السماوية بأنه دعوة عالمية، بعث بها محمد ﷺ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

وقد وردت في الكتاب العزيز آيات كثيرة، ونقل الرواة الثقة أحاديث عدة، وكل هذه الأحاديث وتلك الآيات بيان صريح عن عالمية الإسلام، وأنه رسالة عامة خالدة، جاءت لتخاطب في الإنسان فطرة الله التي فطر الناس عليها، ومن ثم كانت صالحة للتطبيق الدائم إلى يوم الدين.

وفضلاً عما ورد في القرآن الكريم من آيات تتحدث عن عالمية الإسلام وأيضاً عما اشتملت عليه كتب السنة من أحاديث تبين أن محمداً ﷺ خاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين، فإن هناك مسألتين تؤكدان عموم رسالة الإسلام، وأنها آخر الرسالات الإلهية، وهما:

أولاً: طبيعة المعجزة التي جاء بها محمد ﷺ.

ثانياً: تعاليم الإسلام.

أما المسألة الأولى فإن معجزة محمد ﷺ التي تحدى بها العرب هي القرآن الكريم، وقد اقتضت مشيئة الله أن يكون لكل نبي معجزة تثبت أنه رسول صادق فيما يدعوه إليه، وليس دعياً أو متنبئاً، وكانت معجزات الأنبياء الذين بعثوا قبل محمد ﷺ حسية مادية، كما أنها معجزات شخصية بمعنى أن وجودها وبقائها مرتبطت بشخصية الرسول، فإذا توفاه الله أصبحت هذه المعجزة خبراً يروى، وأثراً ينقل كمعجزات عيسى وموسى وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء عليهم جميعاً

صلوات الله وسلامه، ولكن معجزة القرآن ليست كذلك، فهي عقلية غير حسية، وهي أيضاً غير شخصية، فهي باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والناس بعد محمد ﷺ يرون معجزته كمن شاهدوا محمداً وخاطبوه^(١). فهي من ثم معجزة الدهر وصوت الحق إلى الخلق، حتى يقوم الناس لرب العالمين.

وتؤكد تعاليم الإسلام عالمية هذا الدين، فهذه التعاليم تخاطب الفطرة الإنسانية، وتنظر إلى الإنسان نظرة واقعية، وتحترم العقل البشري، وتسوي بين الناس كافة في الحقوق والواجبات، لهذا لا تعرف الإقليمية أو العنصرية، فهي إنسانية عامة، تلبي حاجة كل المجتمعات على اختلاف الأزمان والبلدان.

إن بقاء معجزة الإسلام، وحفظها من التحريف والتبديل، واشتمالها على تلك التعاليم التي صلح عليها أمر الدنيا والآخرة، لدليل واضح على أن دعوة الإسلام دعوة عالمية، وأنها خاتمة الرسالات الإلهية، ومهيمنة عليها ولا ينكر هذا، أو يماري فيه إلا كل من ألغى عقله، أو سيطر التعصب عليه، وبغى علواً في الأرض وفساداً.

وما دام الإسلام دعوة عالمية ورسالة الله الخاتمة إلى الناس جميعاً فإنه في أحكامه لا يعرف حدوداً مكانية أو زمانية، ولكن لأن هذا الدين القويم لا يعرف الإكراه في الإيمان به اقتضت الظروف أن يكون الإسلام إقليمياً من حيث التطبيق، وإن كان في الأساس عالمياً لا يخص قوماً دون قوم، ولا عصرًا دون عصر، فالعالم كله مخاطب به، وهكذا يصبح الإسلام رسالة عالمية إذا نظرنا إليه من الوجهة العلمية، وإقليمياً إذا نظرنا إليه من الوجهة العملية^(٢).

على أن إقليمية الإسلام من الوجهة العملية لا تأثير لها عليه من الوجهة العلمية؛ لأن لهذا الدين مبادئه العادلة التي تحكم علاقته بغير المؤمنين به سواء

(١) انظر القرآن المعجزة الكبرى، للشيخ محمد أبو زهرة: ص ١٥، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة.

(٢) انظر التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالتشريع الوضعي، للأستاذ عبد القادر عودة: ٢٧٥/١، طبعة دار التراث، القاهرة.

أكانوا مقيمين في دياره أم كانوا مقيمين في ديار خاصة بهم، وهذه المبادئ التي أصبحت تعرف في العصر الحديث بالقانون الدولي، تؤكد عالمية الإسلام، وأنه أقوم منهاج لحياة الإنسان في كل مكان، وأن الفكر البشري مهما يبدع من آراء ونظريات فإنه لن يبلغ مبلغ مبادئ الإسلام وتعاليمه: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَخَضَعُوا لَهُمْ عِبَادٌ خَاشِعُونَ﴾^(١).

وعن تلك المبادئ التي تحكم علاقة المسلمين بغيرهم تعرض هذه الدراسة في إيجاز مع الاهتمام بالأصول الكلية والقواعد العامة دون تشقيق القول في الفروع والجزئيات.

ويقوم منهج هذه الدراسة على ما يلي:

أولاً: أصول القانون الدولي في التشريعات الوضعية.

ثانياً: أصول القانون الدولي في الإسلام.

ثالثاً: الموازنة بين الإسلام وتلك التشريعات حول هذه الأصول

وأخيراً خاتمة تحتوي على أهم نتائج الدراسة وبعض ما ترشد إليه من توصيات.

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

أولاً:

أصول القانون الدولي في التشريعات الوضعية

يراد بالقانون الدولي التشريعات التي تنظم علاقة الدول بعضها ببعض، كما تنظم علاقة الأفراد المختلفي الجنسية في دولة من الدول، ومن هنا ينقسم هذا القانون قسمين: القانون العام، والقانون الدولي الخاص، ولكل منهما عدة تعريفات تختلف من حيث الصياغة، بيد أنها لا تختلف غالباً من حيث المضمون.

ومن التعريفات التي وضعت للقانون الدولي العام أنه «مجموعة القواعد التي تنظم العلاقات بين الدول، وتحدد حقوق كل منها وواجباتها في حالتي السلم والحرب»^(١).

وهذا التعريف وإن امتاز بعدم النص على مسائل هي محل جدل بين فقهاء القانون وشراحه، ومنها وصف تلك القواعد بأنها ملزمة للدول، وأنها عرفية أو اتفاقية، وأن الدول التي تأخذ بها هي المتمدنة^(٢)، دون غيرها، أغفل الإشارة إلى الهيئات الدولية التي تتولى الإشراف على تنفيذ مبادئه، ولذلك عرفه بعض فقهاء بأنه القانون الذي يحتوي من ناحية على القواعد والمبادئ التي تحكم التزامات الدول في علاقاتها المتبادلة، وهو يبين لنا من جهة أخرى القواعد الخاصة بالتنظيم الدولي؛ أي بنظام وكيفية سير الهيئات التي أنشئت لمصلحة الجماعة الدولية، وحدد سلطاتها واختصاصاتها، وذلك مثل هيئة الأمم

(١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، للأستاذ علي علي منصور: ص ٨٠، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

(٢) انظر المصدر السابق.

ومكتب العمل الدولي^(١).

وأما القانون الدولي الخاص فمن التعريفات الجامعة لهذا القانون أنه «مجموع القواعد القانونية التي يطبقها القضاة بأمر صريح أو ضمني من المشرع لتحديد اختصاص محاكم الدولة إزاء محاكم الدول الأخرى بالحكم في القضايا المدنية ذات العنصر الأجنبي التي تقع بين الأفراد، وإسنادها إلى القانون الذي يجب أن يحكم فيها بمقتضاه»^(٢).

من تاريخ القانون الدولي في التشريعات الوضعية :

يجدر بنا قبل الحديث عن أصول القانون الدولي بقسميه الإشارة إلى طرف من تاريخ هذا القانون، وكيف تطور عبر التاريخ حتى وصل إلى ما وصل إليه في العصر الحديث.

مما لا جدال فيه أن الدول تقوم بينها علاقات مختلفة منذ أقدم العصور وأن هذه العلاقات كانت تخضع لبعض القواعد والضوابط بصرف النظر عن مصدرها، أو عدم الأخذ بها في أغلب الأحيان.

وقد سجل التاريخ في عهد الفراعنة معاهدة صلح بين رمسيس الثاني فرعون مصر، وبين أمير الحيثيين في آسيا الصغرى بعد حرب طاحنة بين الدولتين، ويمكن أن تكون شروط هذه المعاهدة أقدم ما عرف من القواعد الدولية التي أخذت بها الدول في بعض علاقاتها^(٣).

ولم تعرف أوروبا حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي قانوناً دولياً ينظم العلاقات بين الدول، وذلك أن الحاجة إلى هذا القانون لم تظهر إلا بعد انهيار الإمبراطورية الجرمانية الرومانية، وانتهائها بوفاة آخر أباطرتها فردريك

(١) مبادئ القانون الدولي العام، للدكتور محمد حافظ غانم: ص ٢٣، طبعة ثانية، القاهرة.

(٢) انظر القانون الدولي الخاص، للدكتور علي الزيني: ص ٤٤، طبعة الاعتماد، القاهرة.

(٣) انظر نصوص المعاهدة في كتاب «مصر القديمة»، للدكتور سليم حسن: ص ٢٨٧، طبعة القاهرة.

الثالث سنة ١٤٩٣م، فقد تفرقت أوروبا بعد انتهاء هذه الإمبراطورية التي ظلت زهاء خمسمائة عام إلى دول كثيرة مستقلة، وقامت بين هذه الدول الناشئة علاقات وخلافات متباينة بسبب الحدود والحروب، ومن ثم ظهرت الحاجة ملحة إلى قانون دولي ينظم هذه العلاقات.

واتجه العلماء نحو القانون الروماني يستوحونه، ونشأت حركة علمية - شجعتهها ملابسات عصر النهضة وحركة الإصلاح الديني - غرضها بيان ما يجب على الدول وعلى رؤسائها اتباعه من قواعد في شأن قيام العلاقات بينهم، وتزعم هذه الحركة الرعيل الأول من علماء القانون الدولي^(١)، ويذكر في مقدمة هؤلاء ميكافيلي الإيطالي، وجروتوس الهولندي، لأثرهما الكبير في تطور القانون الدولي الوضعي.

أما ميكافيلي فقد ظهر له كتاب «الأمير» في سنة ١٥١٣م، وجاءت فيه عبارته الشهيرة «لا محل للأخذ بقواعد الأخلاق في أمور الدول»، وهذه العبارة اتخذت قاعدة لدى الأمراء والقواد فاسمته العلاقات بين الدول بالقسوة والهمجية في حالة الحرب، والخداع والوقعة في حالة السلم.

ومع أن ميكافيلي توفي سنة ١٥٢٧م فقد ظلت نظرياته وتعاليمه تحظى باهتمام من حكام أوروبا؛ استجابة لمآربهم الشخصية، وقد نجم من ذلك وقوع حروب كثيرة أثارت الفرع والفوضى بين الناس، بيد أنها مع هذا أثارت المفكرين والعلماء لمقاومة تلك التعاليم والنظريات، محاولين إخراج العلاقات الدولية من الفوضى التي كانت تحيط بها.

وتبلورت تلك النزعة المضادة لكتاب ميكافيلي في كتاب «في قانون الحرب والسلم» للعالم الهولندي جروتوس، وقد ظهر هذا الكتاب في سنة ١٦٢٥م وتضمن تنظيمًا يكاد يكون كاملاً لما قد يقوم بين الدول من روابط وعلاقات وامتاز بالدراسة المنطقية المنظمة، وبالنظريات التي لاقت احتراماً وتقديراً من

(١) أصول القانون الدولي، للدكتور حامد سلطان، وعبد الله العريان: ص ٢٣، طبعة القاهرة.

المفكرين في ذلك العصر. وقد هاجم مؤلفه آراء ميكافيلي ونظرية الرئاسة العليا في الشؤون الدينية التي كانت للبابا.

ولأهمية هذا الكتاب وأثره في العلاقات الدولية التزمته الدول دستوراً لعلاقاتها الخارجية مدى قرنين من الزمان، واعتبر مؤلفه أب القانون الدولي، وارتبط اسم جروتوس بنشأة هذا العلم لدى فقهاء هذا القانون الغربيين.

وفي سنة ١٦٤٨م وقعت معاهدة وستغاليا التي يؤرخ الأوروبيون فيها بدء العصر الحديث للقانون الدولي، لأنها وضعت آراء جروتوس موضع التنفيذ الفعلي بين الدول، ولكن ظروفأشتى جدت بعد هذه المعاهدة ساعدت على نمو القانون الدولي، وانفصاح مجاله، فذاعت مبادئه وتأكدت ضرورة وجوده، ورسخت في حكم علاقات الدول قواعده^(١)، ومن ذلك ظهور عدة دول جديدة بعد الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩م بسبب انتشار الحركات القومية، واستقلال كثير من الشعوب الأوروبية خلال القرن التاسع عشر، وقد ترتب على ذلك أن أصبحت العائلة الدولية تنظم عدداً كثيراً من الدول المستقلة المتساوية، لكل منها سيادتها وجيوشها وأساطيلها مما دعا إلى ازدياد الشعور بالحاجة إلى إيجاد قواعد خاصة بتنظيم علاقات الدول في وقت السلم والحرب.

وأدت كثرة استقلال الدول والحاجة إلى قانون ينظم علاقاتها إلى عقد مؤتمرات دولية من أجل تنظيم قواعد قانونية وتدوينها في اتفاقيات دولية كما حدث في مؤتمر جنيف في سنة ١٨٦٤م الذي وضع قواعد الحرب البرية، وفي مؤتمر لاهاي المنعقد في ستي ١٨٨٩م، ١٩٠٧م الذي توصل إلى وضع ست عشرة اتفاقية دولية في مختلف المسائل ومنها حقوق الأسرى، هذا بالإضافة إلى بعض المعاهدات التي نظمت حقوق المحايدون وواجباتهم مثل معاهدة باريس المنعقدة في سنة ١٨٥٦م^(٢).

(١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي: ص ٤٩، وانظر القانون الدولي العام، للدكتور سامي جنيته: ص ٦٣، طبعة الاعتماد، القاهرة.

(٢) القانون الدولي العام، للدكتور سامي جنيته: ص ٦٨.

ولما كانت النهضة الصناعية في أوروبا قد أتاحت للدول ألواناً جديدة من الأسلحة الحربية، وهيات لبعضها فرصة احتلال الشعوب الضعيفة واستغلالها، ولما كانت الدول القوية قد حدث بينها صراع حول مناطق النفوذ والاحتكار، بحيث يمكن القول بأن الحروب العديدة التي عرفها العصر الحديث العالمية منها والمحلية تكمن أسبابها الجوهرية كلها وراء نزعات الاستعمار وبسط النفوذ، ونهب خيرات الشعوب وثرواتها وبخاصة المتخلفة منها في آسيا وأفريقيا، لما كان كل ذلك، لجأت الدول القوية إلى عقد اتفاقات ومعاهدات دولية جديدة تتلاءم مع ظروف العصر، وأهمها معاهدة فرساي المنعقدة في سنة ١٩١٩م عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، وقد تمخضت هذه المعاهدة عن إنشاء أول تجمع دولي أطلق عليه عصبة الأمم.

وحاولت الجمعية العامة لهذه العصبة تدوين القانون الدولي فشكلت لجنة لهذه الغاية، وقدمت للجنة تقريرها إلى العصبة في سنة ١٩٢٧م. وتضمن التقرير موضوعات مختلفة ذكرت للجنة أنها صالحة للتدوين وهي: الجنسية، المياه الإقليمية، مسؤولية الدولة عن الأضرار التي تلحق بأشخاص الأجانب وأموالهم في إقليمها، والامتيازات والحصانة الدبلوماسية، وإجراءات المؤتمرات الدولية، وإجراء عقد المعاهدات وصياغتها، واستغلال منتجات البحار^(١).

وقرر مجلس العصبة وجوب الدعوة إلى مؤتمر يعقد في لاهاي تكون مهمته تدوين الموضوعات الثلاثة الأولى الواردة في تقرير اللجنة، وعقد هذا المؤتمر في سنة ١٩٣٠م ولكنه لم يصل إلى اتفاق بشأن المياه الإقليمية ومسؤولية الدولة عن الأجانب في إقليمها.

وبعد الحرب العالمية الثانية عقدت اتفاقية سان فرانسيسكو في سنة ١٩٤٥م وبمقتضاها أنشئت هيئة الأمم المتحدة التي حلت محل عصبة الأمم، وقد نصت المادة: ١٣ في الفقرة الأولى من ميثاق الأمم المتحدة على ما يأتي: تنشئ

(١) أصول القانون الدولي: ص ٢٥.

الجمعية العامة دراسات وتشير بتوصيات بقصد إنماء التعاون الدولي في الميدان السياسي، وتشجيع التقدم المطرد للقانون الدولي وتدوينه، ولذلك عهدت الجمعية العامة إلى لجنة القانون الدولي ببحث موضوعات شتى تتعلق بالشؤون الدولية.

ويبدو أن اشتباك مصالح الدول وتعارضها في عصر الذرة والصواريخ العابرة للقارات، وما يسمى بحرب النجوم جعل الأحداث الدولية تتوالى بسرعة، وتتناقض تناقضاً بيناً متلاحقاً، بالإضافة إلى وجود قوتين عالميتين تتنازعان السيطرة على العالم فكرياً واقتصادياً ونفوذاً، وهذا كله جعل من العسير إن لم يكن من المستحيل وضع قانون دولي عام ملزم لجميع الدول قبل أن يكون هناك قوة دولية كوسيلة لإلزام من يخرق القانون باحترامه، وتنفيذ كل ما يصدر عن الهيئات الدولية من قرارات وأحكام^(١).

أصول القانون الدولي العام:

بعد هذه اللمحة التاريخية عن نشأة القانون الدولي في الفكر الإنساني وتطوره، ما هي أصوله التي انتهى إليها فقهاؤه، والتي يرون أنها تحمي الحقوق، وتمنع الاعتداء وتصون السلام؟

وقبل الإجابة عن هذا أود الإشارة إلى أن هؤلاء الفقهاء يختلفون من حيث الأسس التي تقوم عليها أصول هذا القانون، ولذلك جدت نظريات متباينة، فكل فقيه نظر إلى الموضوع من زاوية خاصة، فهناك نظرية قواعد الأخلاق، ونظرية المجاملات الدولية، ونظرية الرضا العام الفردي، والرضا العام الجماعي، ونظرية القانون الطبيعي، ومذهب القانون الوضعي الناشئ عن شروط المعاهدات المكتوبة، ونظرية القومية والجنسية التي تمخضت عن حق تقرير المصير، ونظرية الديانة المسيحية^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي: ص ٧٤.

ومع تباين آراء الفقهاء في هذا يكاد ينعقد الإجماع^(١) بينهم على أن العرف والمعاهدات هما المصدران المهمان للقانون الدولي العام، وذلك لأن القاعدة القانونية تنشأ وليدة الحاجة، فإن ثبت وجودها عن طريق تكرر استعمالها أصبح العرف مصدرها، وإن ثبت وجودها عن طريق تدينها في اتفاق أو معاهدة فإنه يكون مصدرها في هذه الحالة.

وقد دعت لجنة القانون الدولي التابعة لهيئة الأمم المتحدة في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٧م إلى إعداد مشروع إعلان حقوق الدول وواجباتها؛ ليصبح القانون الذي تأخذ به الدول في علاقاتها في أوقات السلم والحرب.

وقدمت هذه اللجنة مشروعها إلى الجمعية العامة سنة ١٩٤٨م فقررت صلاحيته، وأحالته إلى الدول الأعضاء، لتبدي كل منها رأيها فيه، وضربت لذلك موعداً غايته شهر يوليو سنة ١٩٥٠م، ولكن الدول جميعها أمسكت عن الرد عليه.

ولأن هذا المشروع يمثل أحدث ما وصل إليه الفكر القانوني الدولي في تنظيم العلاقات بين الدول، وتحديد حقوقها وواجباتها رأيت الاكتفاء به في بيان الأصول الوضعية للقانون الدولي العام.

لقد بين المشروع حقوق الدول في أربع مواد، على حين خصص عشر مواد للحديث عن واجبات الدول، وكأنه بهذا يؤكد أن السلام الدولي يفرض واجبات كثيرة، وأن على الدول أن تبذل وتضحى من أجل أمن المجتمع الدولي واستقراره.

والمواد التي تضمنت حقوق الدول هي:

مادة (١) : لكل دولة الحق في الاستقلال وفي ممارسة اختصاصاتها، ومنها اختيار شكل حكوماتها بمنتهاى الحرية.

(١) انظر أصول القوانين، لأحمد كامل مرسي وسيد مصطفى: ص ٩٢، المطبعة الرحمانية، القاهرة.

مادة (٢) : لكل دولة الحق في ممارسة قضائها على كل ما على إقليمها من أشخاص وأشياء .

مادة (٥) : لكل دولة حق المساواة القانونية مع الدول الأخرى .

مادة (١٢) : لكل دولة حق الدفاع الشرعي الفردي والجماعي ضد كل اعتداء مسلح^(١) .

فهذه المواد تقرر لكل دولة حق الاستقلال، وحق ولاية القضاء في إقليمها، وحق المساواة مع الدول الأخرى، وحق الدفاع الشرعي، حماية لاستقلالها وسيادتها، ودفعاً لكل اعتداء يقع عليها، وهذه الحقوق الأربعة هي المجمع عليها بين علماء القانون الدولي سواء أكانوا طبيعيين أم وضعيين^(٢) .

وأما المواد التي حددت واجبات الدول فهي :

مادة (٣) : مراعاة الدولة لأحكام القانون الدولي في علاقاتها مع الدول الأخرى .

مادة (٤) : فض الخلافات الدولية بالوسائل السلمية، وطبقاً لأحكام القانون الدولي .

مادة (٦) : الامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية أو الخارجية للدول الأخرى .

مادة (٧) : الامتناع عن مساعدة أية دولة تلجأ إلى الحرب، أو استخدام آخر غير مشروع للقوة، وكذلك أية دولة تتخذ الأمم المتحدة ضدها إجراءات القسر أو الإكراه .

مادة (٨) : الامتناع عن الاعتراف بأية زيادات إقليمية قد تحصل عليها إحدى الدول، نتيجة للحرب، أو أي استخدام غير مشروع للقوة .

(١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي: ص ١٧٢ .

(٢) أصول القانون الدولي: ص ٥٧٦ .

مادة (٩) : الامتناع عن تشجيع الثورات الأهلية في أقاليم الدول الأخرى .

مادة (١٠) : ضمان أن تكون الأحوال في إقليمها على نحو لا يهدد السلام والنظام الدوليين .

مادة (١١) : جميع الأشخاص الخاضعين لولايتها على أساس احترام حقوق الإنسان والحريات الرئيسية لهم جميعاً دون تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين، وبدون تفريق بين الرجال والنساء .

مادة (١٣) : تنفيذ الدولة بحسن نية لالتزاماتها الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي .

مادة (١٤) : عدم اللجوء للحرب أو أي استخدام غير مشروع للقوة^(١) .

ويلاحظ أن هذه المواد تركز على أمرين هما :

أولاً: رفض اتخاذ الحرب وسيلة للسيطرة أو التوسع، والدعوة إلى حل المشكلات الدولية بالطرق السلمية .

ثانياً: احترام سيادة كل دولة، واحترام الإنسان دون نظر إلى جنسيته أو عقيدته .

ولا مرء في أن تنفيذ هذه المبادئ بإخلاص وإيمان صادق بها يجنب البشرية كثيراً من المشكلات والأخطار، ويقضي على كل ألوان الاستغلال والامتهان لكرامة الإنسان فلماذا مسكت الدول عن الإعراب عن رأيها فيه، وكأن هذا رفض منها له، وبخاصة أنها كانت حديثة العهد بحرب طاحنة كلفت البشرية الملايين من الأنفس والأموال .

(١) المصدر السابق: ص ٥٧٥ .

إن موقف الدول من هذا المشروع يدل على أن الرغبة الصادقة في السلام الدولي العادل لا تتوافر لدى بعض الدول، ولا سيما الدول الكبرى؛ لأنها لو شاءت قبوله لقادت الدول الصغرى إلى الموافقة عليه.

على أن ذلك المشروع في نضه على عدم استخدام القوة في المنازعات الدولية إنما يحاول وضع ميثاق الأمم المتحدة موضع التنفيذ، فقد جاء الميثاق بمبادئ جديدة كل الجدة في العلاقات الدولية، كمبدأ عدم استخدام القوة، ومبدأ الأمن الجماعي^(١).

وقد نصت الفقرة الرابعة من المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة، على ما يلي:

يتمنع أعضاء الهيئة جميعاً في علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضي، أو الاستقلال السياسي لأية دولة أو على أي وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة.

كذلك نصت الفقرة الأولى من المادة الأولى من هذا الميثاق على ما يلي:

والغرض الأول من مقاصد الأمم المتحدة هو: حفظ السلام والأمن الدوليين وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التي تهدد السلم وإزالتها، وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الإخلال بالسلم، وتندرع بالوسائل السلمية، وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولي لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها^(٢).

وهذا يعني أن الحرب التي كانت مشروعة في القانون قبل الحرب العالمية الثانية قد أصبحت محظورة بعد هذه الحرب من الناحية القانونية، ولكن البشرية ما زالت تصطلي بنار الحروب العدوانية في مختلف بقاع العالم، وما زال منطلق

(١) القانون الدولي العام، للدكتور حسن الجلبي: ص ١٦٥، طبعة بغداد.

(٢) انظر النسخة العربية من ميثاق الأمم المتحدة.

القوة هو السائد في فض المنازعات بين الدول، وما زالت الدول الضعيفة أو الصغيرة تتعرض للإرهاب والضغط، وما زال الخوف من نشوب حرب عالمية ثالثة لا تدع حيواناً ولا نباتاً إلا أنت عليه يسيطر على الجميع، ومرد هذا كله إلى الحضارة المادية المعاصرة التي جعلت الحياة صراعاً بين الدول من أجل الاستغلال والنفوذ، وإلى أن القوانين الوضعية مبتوتة الصلة بضمائر الساسة والقادة ولا تلقى منهم احتراماً أو تقديراً، ولا ينزلون على أحكامها إلا إذا اقتضت مصلحتهم ذلك.

القانون الدولي الخاص :

وأما القانون الدولي الخاص فهو كما أسلفت في تعريفه يتناول القضايا ذات العنصر الأجنبي، وهي التي يتصل أحد عناصرها بأي شكل من الأشكال ببلد أجنبي كأن يتخاصم مصريان مثلاً على مال موجود في إيطاليا، أو مصري وأجنبي أو أجنبيان من جنسية واحدة، أو من جنسيتين مختلفتين أمام محكمة مصرية^(١).

وهناك خلاف بين العلماء حول نوعية القضايا التي تخضع للقانون الدولي الخاص، فيرى البعض أنه خاص بالمسائل المدنية دون الجنائية؛ لأن هذه من اختصاص القانون الدولي العام، ويرى غيرهم أن هذه المسائل تدخل في نطاق القانون الدولي الخاص^(٢).

وهناك خلاف أيضاً حول النظرة إلى هذا القانون واعتباره علماً مستقلاً بذاته، فيذهب بعض الفقهاء إلى أن القانون الدولي الخاص علم مستقل بذاته، على حين يذهب آخرون إلى غير ذلك، فالإنجليز مثلاً لا يرون أنه يوجد قانون دولي خاص واحد مشترك لكل الدول، ولهذا فهو لديهم معتبر من القوانين الداخلية.

(١) انظر مقدمة القانون، للأستاذ أحمد صفوت: ص ٩٥، طبعة القاهرة.

(٢) انظر القانون الدولي الخاص: ص ٧٢.

وهذا القانون حديث العهد، وإن كانت له جذور قديمة ترجع في رأي بعض فقهاء إلى العصر الروماني وإلى العصور الوسطى.

وقد ازدادت أهمية القانون الدولي الخاص في العصر الحديث، بسبب سهولة المواصلات، واتساع نطاق التجارة بين الأمم، وكذلك السياحة، وهجرة العقول والأيدي العاملة.

وكل قواعد أو أصول هذا القانون تدور في نطاق شخصية القوانين ومحليتها، بمعنى أن القانون في سريانه هل يطبق بالنسبة للأشخاص الخاضعين له دون سواهم كأن يطبق القانون المصري مثلاً على المصريين وليس على الأجانب الذين يقيمون في مصر، أو أن تطبيق القانون مرتبط أولاً بالمكان الذي ينتمي إليه القانون دون نظر إلى الأشخاص الذين يقيمون فيه، فالقانون المصري يطبق على جميع الموجودين في مصر سواء كانوا مصريين أو غير مصريين.

وهناك سوى نظرية شخصية القوانين ومحليتها مسائل يهتم بها هذا القانون مثل الجنسية وطرق الحصول عليها، والمواطن وأنواعه، إلى غير ذلك مما لا مجال هنا لتفصيل القول فيه^(١).

ولكن قواعد هذا القانون وموضوعاته ما زالت حتى الآن موضع خلاف بين الفقهاء على العكس من قواعد القانون الدولي العام.

(١) انظر المصدر السابق.

ثانياً:

أصول القانون الدولي في الإسلام

أومات في مستهل هذه الدراسة إلى عالمية الإسلام، وأن هذه العالمية تشبها المعجزة القرآنية، والأحكام التي اشتملت عليها هذه المعجزة.

وقد أسلفت أيضاً أن الإسلام يقرر الحرية الدينية، وأنه يرفض مبدأ الإكراه في اعتناقه، وقد تمخض عن هذا إن كان الإسلام إقليمياً في تطبيق أحكامه، وإن كان عالمياً من حيث أصوله وتعاليمه، وذلك أن المسلمين الأوائل لإيمانهم الصادق بعموم دينهم ومسؤوليتهم عن تبليغه إلى الناس قاطبة حملوا أرواحهم على أكفهم وانساحوا في الأرض لا يخشون إلا الله، لقد جاهدوا في الله حق جهاده، فنصرهم الله نصراً عزيزاً، وفتح عليهم بلاداً كثيرة، ولهذا انتشر الإسلام في فترة زمنية وجيزة في بقعة شاسعة من العالم، ومع هذا ظلت هناك شعوب وجماعات وأفراد لا ترتضي الإسلام ديناً.

وقد نجم عن هذا الانتشار السريع للإسلام، وبقاء أمم وأفراد أبت أن تؤمن به مشكلات مختلفة تتعلق بالعلاقة بين هؤلاء الذين رفضوا الإسلام ديناً وبين المؤمنين به.

وإذا كانت هذه المشكلات تختلف من حيث الزمان والمكان فإن أصول معالجتها كما قررها الإسلام واحدة. ويقتضي بيان هذه الأصول الحديث في إيجاز عما يلي:

(أ) الحرب في الإسلام.

(ب) أنواع الديار.

(ج) أصول العلاقات الدولية الإسلامية.

الحرب في الإسلام:

إذا كان الإسلام دعوة عالمية، وكان مع هذا ينهى عن الإكراه في الدين، فلماذا أباح الحرب، وحض على الجهاد، وأعد في سبيله الأجر الجزيل، والنعيم المقيم؟

إن الحرب في الإسلام ليست أصلاً من أصوله، ولا يمكن أن تكون وسيلة لحمل الناس على الإيمان به، لأن الاقتناع الصادق القائم على الوجدان والبرهان عماد اليقين الراسخ، ولا يتسنى لأية قوة في الأرض أن تفرض على إنسان عقيدة يأبأها قلبه وينفر منها عقله، فما هي الغاية إذن من الحرب في الإسلام؟

إن من رحمة الله بعباده أنه لا يسألهم عما كتبه عليهم إلا بعد الإنذار إليهم: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾^(١).

وقد بلغ محمد ﷺ رسالة ربه إلى قومه، كما بلغها إلى الأمراء والملوك في عصره عن طريق رسله وكتبه، وفي هذا تأكيد لمبدأ عالمية الإسلام، وأنه رسالة الله الخاتمة إلى الناس كافة. وتوفي عليه الصلاة والسلام بعد أن ترك قومه على المحجة البيضاء، وكان على هؤلاء العرب الذين اصطفى الله منهم خاتم رسله أن يحملوا هذا الدين إلى غيرهم من الأمم، فالشرائع لا تلزم إلا بعد السماع^(٢)، ومن ثم فإن غير العرب إذا لم تصل إليهم دعوة الإسلام فلا حجة عليهم، وإنما تقع الحجة على الذين بلغتهم هذه الدعوة، ثم قصروا في تبليغها إلى سواهم.

فمن أجل تبليغ الإسلام إلى الناس في كل زمان ومكان، وحماية الدعوة إليه من القاسطين والمفسدين فرض الجهاد، وكان ماضياً إلى يوم القيامة، إنه جهاد من أجل حماية التبليغ، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فقد برهنت أحداث التاريخ على أن الطغاة لا يتركون الناس أحراراً فيما يدينون به،

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

(٢) انظر شرح السير الكبير، للسرخسي: ٢٩١/٤، طبعة الهند.

أو يسمعون له، وفي حياة الرسول ﷺ المثل الحي على ذلك فقد دعا قومه إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام فأذوه واضطهدوه، وعذبوا من صدقه واتبعه، ثم أخرجوه وأصحابه من مكة .

إن مشركي مكة أرادوا الحجر على القلوب والعقول، وأبوا أن يدعوا للناس الحرية في التفكير والاختيار، فهم بهذا يحمون مبدأ الإكراه في الدين، فلو ترك هؤلاء الكفار وشأنهم لطغى الباطل على الحق، ولطمس النور الظلام، فكان الإذن بالقتال وإعداد القوة لدفع هذا الظلم الذي تعرض له المؤمنون، لأنهم قالوا ربنا الله: ﴿أَنْ لِّلَّذِينَ يَبْتُلُونَكُمْ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣١) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ سَوَاعِقُ الْوَعِيدِ وَصَلَواتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيْسَنَّ رَبُّكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٠١﴾ (١).

فغاية الحرب الأولى في الإسلام تنحصر في تحرير الناس من الطغاة، وحماية الضعفاء من الأقوياء، حتى لا يكون في الأرض سلطان غير سلطان الحق تبارك وتعالى، فلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولأن غاية الحرب في الإسلام هي تحقيق الحرية الدينية، وإنقاذ المستضعفين من برائن المتجبرين فإن هذا الدين قد لطف من حديثها وجعل لها قانوناً عادلاً ونظاماً محكماً وآداباً لم تعرفها البشرية في تاريخها الطويل، وأكبر ما يسجل له من أمرها أنه لم يشرعها لنيل المغانم وفرض المغارم، ولكنه جعلها وسيلة عند الضرورة لتبليغ كلمة الله ونشرها بين الأمم، كما جعلها وسيلة لرد الاعتداء، والدفاع عن عقيدة الأمة وحريتها، وعزة المؤمنين واستقلال وسلامة أوطانهم .

وما دامت الحرب ليست أصلاً من أصول الإسلام، وليست غاية في ذاتها فإن أول ما يجب على المسلمين إذا ساروا إلى غيرهم هو البدء بالدعاء إلى

(١) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠ .

الإسلام، وهذا الدعاء قد يكون^(١) موجهاً لقوم لم تبلغهم الدعوة فيجب إعلامهم حتى يكونوا على بينة من أمرهم، وقد يكون موجهاً لقوم بلغتهم الدعوة، ودعاؤهم مرة ثانية أمر مطلوب، ففيه مبالغة في الإنذار بما ينفع، وإشارة إلى أن الإسلام يؤثر السلم على الحرب في تبليغ دعوته، فإذا استجاب هؤلاء طوعاً واختياراً لما دعاهم إليه المسلمون فهم إخواننا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإن أبوا ولم يستجيبوا فإن على المسلمين أن يدعوهم إلى الدخول معهم في عهد وميثاق؛ ليصبحوا أهل ذمة لا يتعرض لهم في عقائدهم الدينية، ويتمتعون بكل حقوق الحماية والرعاية في مقابل ضريبة مالية يسيرة لا تجب إلاً على الرجال البالغين الأصحاء القادرين مادياً، وذلك لغاية واحدة، وهو أن يأمن المسلمون لهؤلاء، فلا يظاهروا غير المسلمين على المسلمين، فإن أبوا أن يدخلوا مع المسلمين في عهد وميثاق فقد جاهروا بهذا الرفض بالعداء، وأعلنوا وقوفهم ضد رسالة التبليغ، فكان قتالهم في هذه الحالة لتحرير الناس من التسلط والقهر، ولتأمين طريق الدعوة إلى الله. روي عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم... فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وإن أبوا فاستعن بالله عليهم وقتلهم...)^(٢).

وجاء في شرح السير الكبير للإمام السرخسي: (إن الكفر وإن كان من أعظم الجنایات فهو بين العبد وربّه جل وعلا، وجزاء مثل هذه الجنایة يؤخر إلى دار الجزاء، فأما ما عجل في الدنيا - وهو قتال الكفار - فهو مشروع لمنفعة

(١) انظر المبسوط، للسرخسي: ٦/١٠.

(٢) رواه مسلم وابن ماجه والترمذي، وانظر نيل الأوطار، للشوكاني: ٥١/٨، طبعة الدمشقي.

تعود إلى العباد)^(١).

وما قاله الإمام السرخسي يشير إلى أن القتال في الإسلام ليس للإكراه في الدين ولكن لتحقيق مصالح العباد بإنقاذهم من الطغاة المستبدين؛ حتى يكون الطريق أمام دعوة الله خالياً من الأشواك والعقبات يسلكه من يشاء، ويعرض عنه من أبقى.

وإذا كان القتال في الإسلام لدفع فتنة الكفر وشر الكفار فإنه لا يجوز قتال إلا هؤلاء الذين يمثلون الفتنة، ويمكنون للشر بالفعل أو بالقول، ولهذا لا ينبغي قتل النساء والأطفال والمجانين والذين لا يخالطون الناس وترهبوا في الأديرة وكذلك الشيوخ الفانين، لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ كُفْرًا﴾.

وهؤلاء لا يقاتلون، فإذا شارك أحد منهم برأيه أو فعله في الحرب فقد أصبح مقاتلاً يجوز قتاله وقتله فيما عدا المعتوه ونحوه فإن على المسلمين أخذه ومنعه من المشاركة في الحرب^(٢).

وكما جاء النهي عن قتل غير المحاربين جاء النهي أيضاً عن الغدر والمثلة وحمل الرؤوس وقطع الأشجار وتخريب الديار، وذبح المواشي إلا لضرورة إطعام الجند.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لجيش أسامة: (لا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)^(٣).

(١) شرح السير الكبير: ١٨٢/٣.

(٢) شرح السير الكبير: ١٩٤/٣ - ١٩٧.

(٣) انظر من روائع حضارتنا، للدكتور مصطفى السباعي: ص ٩٨، طبعة المكتب الإسلامي.

إن وصية الخليفة الأول تعبير عن مبادئ الإسلام وآدابه في الحرب، الحرب الإنسانية الخالصة لله، الحرب التي لا تعرف ظلاماً ولا قسوةً ولا دماراً، ولا غدرًا ولا غلواً، الحرب التي تكفل حرية العقيدة للناس جميعاً، وتحمي أماكن العبادة لكل الديانات، إنها حرب العدل والرحمة والوفاء^(١).

والحرب إذا وضعت أوزارها وانتهت فإنها تنتهي بأحد أمرين: إما الصلح^(٢)، وإما النصر، أما الصلح فالعهود فيه محترمة، والوفاء بما تضمنته واجب، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْفَالاً﴾^(٣).

وأما النصر فهو انتصار الجماعة التي غضبت للحق، واستشهدت في سبيله فلن تفعل حين انتصارها إلا ما يوطد أركان الحق في الأرض، ويمنع البغي والفساد بين الناس: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَحْسَنُوا الْمَكَانَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾^(٤).

إن الانتصار نعمة تقابل بالشكر عليها، وذلك بإقامة شرع الله في دنيا الناس، شرع الطاعة الموصولة، والتعاون على البر والخير، ومكافحة الفساد والشر، وكفالة العدالة للجميع.

ومن إقامة شرع الله في الأرض احترام آدمية الإنسان، ومن ثم لا يلقي المهزوم عنتاً وإهداراً لكرامته، فالفاز لا يتبع، والجريح لا يذف عن يده بل يعالج ولا تساء معاملته، والأسير لا يقتل، ولا يكره بوسائل غير مشروعة للاعتراف بما لديه من معلومات عن العدو، ويخير ولي الأمر فيه بما يراه أوفق لمصلحة المسلمين^(٥)، وأكثر انسجاماً مع العرف الدولي في شأن الأسرى، ما دام هذا

(١) المصدر السابق.

(٢) قد يكون الصلح موادة أو هدنة مؤقتة أو دائمة أو عقد ذمة.

(٣) سورة النحل: الآية ٩١.

(٤) سورة الحج: الآية ٤١.

(٥) انظر الفقه الإسلامي وأدلته، للدكتور وهبة الزحيلي: ٦/٤٧١، طبعة دار الفكر، دمشق.

العرف لا يتعارض مع المقررات الإسلامية في رعاية المصلحة العامة، وحماية العزة والكرامة، وتحقيق الوثام والسلام بين الناس.

وبهذا يتضح أن الحرب في الإسلام ضرورة، وأنها تخضع لقانون العدل والإنصاف واحترام آدمية الإنسان، وليست لإكراه الناس على الإيمان، وما يذهب إليه جمهور المستشرقين ومن سلك سبيلهم من الباحثين من أن الإسلام دين انتشر بالسيف زعم باطل يرده انتشار الإسلام في بلاد كثيرة لم تدخلها الجيوش الإسلامية، ثم انتشاره في العصر الحاضر في كل دول العالم.

إن الحرب في الإسلام حرب تعمیر لا تدمير، وهي في جوهرها ترسي دعائم السلم الدائم بين الناس، لأنها تنقذهم من تجار الحروب، والطامعين في خيرات الشعوب، وأولئك الذين يكرهون سواهم على ما لا يبتغون.

(ب) أنواع الديار:

تواضع الفقهاء على تقسيم الديار ثلاثة أقسام^(١): دار الإسلام، ودار العهد، ودار الحرب، وهذا التقسيم هو بحكم الواقع لا بحكم الشرع؛ لأن الإسلام لم يقيد الدولة الإسلامية بحدود جغرافية أو مكانية، فهو كما ذكرت من قبل دعوة عالمية، ولكن تطبيق أحكامه مرتبط بسلطان المسلمين، فكلما اتسعت دار الإسلام اتسع تطبيق أحكام هذا الدين، ومن هنا اقتضت الظروف أن يكون الإسلام إقليمياً حتى تعم دار الإسلام العالم بأسره^(٢).

والذي لا خلاف عليه بين الفقهاء أن الدار التي تحكم بسلطان المسلمين،

(١) انظر نظرية الحرب في الإسلام للشيخ محمد أبو زهرة: ص ٣٠، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ويضيف بعض الفقهاء داراً رابعة وهي دار البغي يكون الأمر فيها للبيعة، وهم الخارجون على الإمام الحق بغير الحق؛ وانظر تبيين الحقائق، للزيلعي: ٢٩٣/٣.

(٢) انظر من الفقه الجنائي المقارن للمستشار أحمد موافي: ص ٩٠، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة.

وهم حمايتها وأهل المنعة فيها هي دار الإسلام، وأن دار العهد هي غير دار المسلمين الذين ارتبطوا مع المسلمين بعهد^(١).

وأما تعريف دار الحرب فقد اختلف فيه الفقهاء على رأيين: أحدهما أن دار الحرب هي الدار التي لا يكون فيها السلطان للحاكم المسلم، ولا تنفذ فيها أحكام الإسلام، وليس بين المسلمين وأهلها عهد، وهذا رأي الصاحبين وجمهور الفقهاء.

والرأي الثاني يذهب إلى أن كون السلطان لغير المسلمين لا يجعل الدار دار حرب، بل لا بدّ من تحقيق شروط ثلاثة مجتمعة لتصير الدار دار حرب وهي:

أولاً: ظهور الأحكام غير الإسلامية.

ثانياً: أن يكون الإقليم متاخماً للديار الإسلامية بحيث يتوقع منه الاعتداء على دار الإسلام^(٢).

ثالثاً: ألا يأمن المسلم ولا الذمي فيها بحكم الإسلام، بل يأمن فيها بعهد، وهذا رأي أبي حنيفة والزيدية وبعض الفقهاء^(٣).

ويرى بعض المعاصرين^(٤) أن رأي الإمام أبي حنيفة أرجح من رأي الصاحبين وجمهور الفقهاء؛ لأنه ناط الحكم على الدار بأنها دار حرب بزوال أمن المسلمين فيها وتوقع الاعتداء عليهم منها، وهذا يوافق الأصل في فكرة

(١) نظرية الحرب في الإسلام: ص ٣٠؛ والعلاقات الدولية في الإسلام، للشيخ محمد أبو زهرة: ص ٥٣، طبع بالقاهرة.

(٢) إن اشتراط المتاخمة لتوقع الاعتداء أصبح في عصرنا غير ذي موضوع، فقد تطورت أسلحة الحروب، ولم يعد القتال في حاجة إلى متاخمة؛ وجاء تفسير المنار: ٤٠٩/٦، أن دار الحرب في بلاد غير المسلمين وإن لم يحاربوا، وكان القاعدة أن كل من لم يعاهدنا على السلم يعد محارباً.

(٣) انظر العلاقات الدولية في الإسلام: ص ٥٤.

(٤) المصدر السابق.

الحرب الإسلامية وأنها لدفع الاعتداء، وحماية الضعفاء ونشر الأمن والسلام.

ويبدو من ذلك التقسيم أن الدار تكون دار إسلام بسيطرة المسلمين عليها وظهور أحكام دينهم فيها، فلا تحكم بغير ما شرعه الله، ولا يكون لغير المسلمين سبيل عليها، فإذا لم يتوافر لها الاستقلال والحكم بما أنزل الله فإنها لا تكون دار إسلام بالمعنى الصحيح.

ولا فرق بين دار العهد ودار الحرب إلا من حيث إن الأولى بينها وبين المسلمين معاهدة سلام، على حين لا يوجد هذا بالنسبة للثانية فكانت دار الحرب يتوقع منها الاعتداء في أي وقت، وهما عدا هذا دار واحدة تقابل دار الإسلام، فهما لا يعترفان بهذا الدين، ولا عبرة بما يكون من تفاوت في العقائد بين أهل دار العهد ودار الحرب، فهذا لا يؤثر في أنهما دار واحدة غير إسلامية.

وإذا كان الإسلام يحمي الحرية الدينية، ولا يكره أحداً على الإيمان به فإن دار الإسلام قد تضم غير مسلمين، وهؤلاء قد يقيمون في هذه الدار إقامة دائمة، وقد يقيمون فيها إقامة مؤقتة.

والذين يقيمون إقامة دائمة في دار الإسلام هم أهل الذمة، وهم يتمتعون بهذه الإقامة؛ طوعاً لعقد يتم بناءً على توافق إرادتي ولي الأمر، ومن يرغب في الإقامة مع المسلمين، وبمقتضاه يحصل الذمي على جنسية الدولة الإسلامية، ويصبح رعية إسلامية له كل حقوق المواطنة في هذه الدولة وعليه من مقابل ذلك بعض الالتزامات والواجبات، ويجمعها الشرطان التاليان:

أولهما: أن يلتزم الذميون إعطاء التكاليف المالية على القادرين؛ لكي يسهموا في بناء الدولة، ويشاركوا في تكوين ميزانها المالي.

ثانيهما: أن يلتزموا أحكام الإسلام في المعاملات المالية، وفي الخضوع للعقوبات الإسلامية، ليكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين^(١).

(١) العلاقات الدولية في الإسلام: ص ٦٢.

قال السرخسي: (الذمي ملتزم أحكام الإسلام فيما يرجع إلى المعاملات)^(١)، وجاء في مقدمة ابن رشد الجد: (ولا يجوز بين المسلم والذمي في التعامل إلا ما يجوز بين المسلمين)^(٢).

فأهل الذمة إذن يخضعون للأحكام الإسلامية في الحدود والمعاملات المالية، وما سوى هذا لا يسألون عنه مثل الشعائر الدينية الخاصة بهم وأحكام النكاح فيما بينهم. وما دام أهل الذمة رعية إسلامية، أو جزء من المجتمع الإسلامي^(٣)، ولهم ما للمسلمين من حقوق الرعاية والحماية والإنصاف مع ضمان الحرية الدينية لهم، فإنهم لهذا خارجون عن نطاق المعاملات الدولية بمفهومها الخاص والعام.

أما الذين يقيمون في دار الإسلام إقامة مؤقتة فهم المستأمنون الذين يدخلون البلاد الإسلامية على غير نية الإقامة المستمرة فيها، ويسمح لهم بذلك لمدة معلومة يجوز تجديدها، فالقاعدة هي عدم الإقامة الدائمة، وإلا تحول المستأمن إلى ذمي، وأصبح رعية إسلامية^(٤).

والإسلام وهو دين الإخاء الإنساني، ودين العدل والحرية والسلام، عامل المستأمن الوافد على دياره معاملة كريمة لا تعرفها القوانين الوضعية، فهو ما دام محافظاً على عقد الأمان، أو شروط الإذن بالإقامة لمدة محددة في دار الإسلام له الحرية الكاملة في التنقل ومباشرة نشاطه الذي وفد من أجله كالتجارة أو السياحة أو الدراسة، وهو آمن على نفسه وماله حتى ولو كان ينتمي إلى دولة نشب القتال بينها وبين المسلمين.

(١) المبسوط: ٨٤/١٠.

(٢) مقدمات ابن رشد: ١٥٩/٢، تحقيق سيد أحمد غراب، طبعة دار الغرب الإسلامي.

(٣) الذمي وإن كان مواطناً يحمل جنسية الدولة الإسلامية لا يطالب بالجهاد مع المسلمين، ولكنه ليس محظوراً عليه، أو ممنوعاً منه، فهو اختياري بالنسبة له، ولولي الأمر الحق في أن يشرك الذميين في صفوف الجيش إذا رأى في ذلك مصلحة للأمة.

(٤) انظر العلاقات الدولية في الإسلام: ص ٦٨.

ويذهب جمهور الفقهاء إلى أكثر من هذا فيرون أن مال المستأمن الذي اكتسبه في دار الإسلام يبقى على ملكه، ولا تزول عنه ملكيته، ولو عاد إلى دار الحرب وقاتل المسلمين^(١).

قال ابن قدامة في المغني: (وإذا دخل حربي دار الإسلام بأمان فأودع ماله مسلماً أو ذمياً أو أقرضهما إياه، ثم عاد إلى دار الحرب، نظرنا فإن دخل تاجراً أو رسولاً أو متنزهاً أو لحاجة يقضيها ثم يعود إلى دار الإسلام فهو على أمانة في نفسه وماله؛ لأنه لم يخرج بذلك عن نية الإقامة في دار الإسلام فأشبهه الذمي لذلك، وإن دخل مستوطناً بطل الأمان في نفسه وبقي في ماله؛ لأنه بدخوله دار الإسلام بأمان ثبت الأمان في ماله الذي معه، فإذا بطل الأمان في نفسه بدخوله دار الحرب بقي في ماله، لاختصاص المبطل بنفسه فيختص البطلان به)^(٢).

وإذا كان هذا هو موقف الفقه الإسلامي من المستأمن وماله فإن التشريعات الدولية الوضعية كانت قبل القرن الثامن عشر تبيح للدول اعتقال رعايا العدو الموجودين في إقليمها بمجرد قيام الحرب، وتحجزهم كأسرى حرب، كما كانت تصدر أموالهم، ثم جنحت تلك التشريعات إلى منع أسر رعايا العدو، وكذلك إلى منع مصادرة أموالهم، ولكن ظل القانون الدولي يجيز طرد رعايا العدو من إقليم الدولة بمجرد نشوب الحرب، وإن لم تكن هناك جريمة منهم^(٣).

والمستأمن الذي يتمتع بحريته في التنقل في دار الإسلام، وممارسة نشاطه الذي وفد من أجله، كما يتمتع بحرمة ماله يخضع لأحكام الشريعة فيما يتعلق بالمعاملات المالية، سواء جرت هذه المعاملات بينه وبين مسلم أو بينه وبين ذمي، أو مستأمن مثله، وهذا لا خلاف فيه بين الفقهاء.

(١) انظر العلاقات الدولية في الإسلام: ص ٦٨.

(٢) المغني: ٤٣٧/١٠، طبعة المنار.

(٣) انظر آثار الحرب في الفقه الإسلامي، للدكتور وهبة الزحيلي: ص ٥٠٧ - ٥١٠، طبعة

دمشق.

أما ما يتعلق بالحدود فقد اختلف فيه الفقهاء، فيرى بعضهم إقامة جميع الحدود عليه^(١)، ويذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه لا يقام من الحدود على المستأمن إلا ما فيه من حق العباد، وذلك لأننا ندبنا إلى معاملته معاملة تحمله على الدخول في دارنا ليرى محاسن الإسلام فيسلم، وهو بالأمان التزم حقوق العباد، فالترم أن ينصفهم كما ينصف وأن لا يؤدي أحداً كما لا يؤدي.

وأما حقوق الله فلا تلزم، لأنه لم يلتزمها، ألا ترى أنه لم يضرب عليه الجزية، ولم يمنع من رجوعه إلى دار الحرب^(٢).

والرأي الذي أخذ به جمهور الفقهاء هو عدم التفريق بين حقوق الله وحقوق العباد وأن المستأمن يخضع لأحكام الشريعة في جميع الحدود، وهذا الرأي أكثر اتساقاً مع المبادئ الإسلامية، لأنه يتفق مع ما ينبغي أن تكون أمور الدولة من منع الفساد وكمال السيادة على كل من يقيم في ربوعها^(٣).

على أن رأي أبي حنيفة في عدم تطبيق الحدود الشرعية على المستأمن والمستأمنة إلا حد القذف كان سنداً للامتيازات الخاصة للأجانب في عصر الاحتلال، وكم جرّت هذه الامتيازات على المسلمين من نكبات^(٤).

ومن المستأمنين طائفة تتمتع ببعض المزايا الخاصة التي تكفل لها القيام بمهمتها التي وفدت من أجلها، وهي طائفة الممثلين السياسيين، أو ما كان يطلق عليهم قديماً الرسل.

هذه الطائفة أعطها القانون الدولي المعاصر حصانة في أمور ثلاثة:

أولها: الحصانة لشخص الممثل فلا يتعرض له، ولا يعتدى عليه، حتى

(١) انظر الأم، للشافعي: ٣٢٥/٧، ٣٢٦، طبعة مصورة عن طبعة بولاق.

(٢) انظر تبيين الحقائق، للزيعلي: ١٨٢/٣، طبعة القاهرة.

(٣) انظر العلاقات الدولية في الإسلام: ص ٧١.

(٤) انظر التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالتشريع الوضعي، للأستاذ عبد القادر عودة: ٢٨٥/١، طبعة التراث بالقاهرة.

يستطيع أداء عمله السياسي من غير حرج، ولا يتعرض لسكنه أو أمتعته الشخصية.

ثانيها: حصانة تتعلق بالمال فيعفى من الضرائب والرسوم في حدود معينة.

ثالثها: الحصانة القضائية، ومن شأنها حماية البعث من الملاحقات الجنائية ومن الملاحقات المدنية الخاصة بعمله الرسمي^(١).

فهل هذه الأمور الثلاثة التي أعطاها القانون الدولي المعاصر للممثلين السياسيين يقبلها الإسلام أو يرفضها؟

إن تقرير العرف في الشرع في استنباط الأحكام يقضي بأن كل ما يتعارف عليه المجتمع الدولي من وسائل التعاون والتآلف لا يرفضها الفكر القانوني الإسلامي ما لم تعارض نصاً أو قاعدة، فالحصانة الشخصية والمالية ما دامت تقوم على أساس المعاملة بالمثل ولا يوجد من أحكام الشريعة ما يعارضها فإن تطبيقها على الممثلين السياسيين لا حرج فيه.

ولكن الحصانة القضائية ليست كالحصانة الشخصية والمالية، فكل من يرتكب حداً في دار الإسلام ينبغي أن يعاقب، وفقاً للأحكام الشرعية، ولا يجوز أن يحاكم على أساس قانون آخر، ففي هذا تعطيل لأحكام الله في أرض الإسلام.

أما الذين يرتكبون ما يوجب عقوبة تعزيرية، وهي العقوبة غير المقدرة في الكتاب والسنة، ويتولى ولي الأمر تقدير العقاب فيها، أو يترك تقديرها للقاضي المختص، فهذه العقوبة في نظر بعض المعاصرين يصح أن تدخل في ضمن حصانة الممثلين السياسيين، وحجته أن تقديرها من حق ولي الأمر، فيجوز له أن يدع العقاب عليها لدولة الممثل أو الرسول. ولكن ما الذي يضمن أن تطبق دولة الممثل هذه العقوبة، وهل تطبيقها سيكون وفقاً لأحكام الله؟.

(١) انظر العلاقات الدولية في الإسلام: ص ٧٢.

إن التفاوت بين القوانين وكذلك التفاوت في النظر إلى أنواع الجرائم والعقوبات يمكن أن يجعل ما هو جريمة في دار الإسلام ليس بجريمة في غير هذه الدار، وأن يكون العقاب مختلفاً في حالة وحدة الجريمة في الإسلام والقوانين الوضعية، ولهذا أرجح الرأي الذي يذهب إلى أن الحصانة القضائية لا ينبغي أن تكون على حساب شرع الله، وأن العرف الدولي لا ينبغي أن يكون حاكماً على هذا الشرع، وإنما يجب أن يكون محكوماً به^(١).

ويبدو من الحديث عن غير المسلمين في دار الإسلام أنهم جميعاً سواء لا فرق بين ذمي ومستأمن في وجوب تطبيق أحكام الشريعة عليهم فيما يتعلق بالمعاملات المالية والحدود، والفرق بينهما أن الذمي أمانه مؤبد أو يحمل جنسية الدولة الإسلامية على حين أن المستأمن أمانه مؤقت وليس رعية إسلامية، وبديهي أن هذا كالذمي في التمتع بالحرية الكاملة فيما يدين به دون أن يكون في هذا فتنه للمسلمين.

هذا ما يتعلق بالعلاقات الإسلامية بالنسبة لغير المسلمين في دار الإسلام.

أما دار العهد أو المودعة فإن أول فقيه إسلامي تحدّث عنها هو الإمام محمد بن الحسن الشيباني (ت : ١٨٩هـ) الذي كتب في العلاقات الدولية الإسلامية كتابة علمية جامعة لم يُسبق بها، وذلك أن كل من كتب قبله من الفقهاء في موضوع السّير كانوا يتحدثون عن دار الإسلام ودار الحرب فقط، وكانت العهود تبرم إما بين المسلمين وأهل الذمة الخاضعين لهم، أو بينهم وبين الحربيين المستأمنين، ولكن الإمام الشيباني تحدّث^(٢) عن دار لا تخضع لحكم المسلمين فأهلها إذن ليسوا بأهل ذمة، ثم هم دخلوا مع المسلمين في عهود مودعة ومسالمة فخرجوا بهذا عن أن يكونوا حربيين.

وإذا كان بين الفقهاء اختلاف حول الأسباب التي تدعوا إلى مودعة غير

(١) انظر العلاقات الدولية في الإسلام: ص ٧٣.

(٢) انظر المبسوط: ١٠/٨٥؛ وشرح السير الكبير: ١/٤، وما بعدها.

المسلمين فإنه مهما تكن الظروف التي تدفع بالمسلمين إلى مسالمة سواهم فإن العلاقة بينهم وبين أهل دار المودعة تقوم على احترام العهود المكتوبة وغير المكتوبة إلى أقصى حد، وعدم الغدر والخيانة مطلقاً، والتعاون المتبادل في كل شيء إلا فيما يكون سبباً لتقوية غير المسلمين من السلاح ونحوه فإن على المسلمين ألا يمكنوا غيرهم مودعين أو حربيين من الحصول على ما يزيدهم قوة وبأساً^(١).

والكلام في وجوب احترام العهود والتحرز عن الغدر مع المودعين ذو شجون، وتكفي الإشارة إلى أن الفكر الإسلامي الدولي قد شقق القول في هذا الموضوع على نحو إنساني^(٢) بديع أبرز سمو النظرة الإسلامية في معاملة غير المسلمين، وأن هذه النظرة تفردت بقيم الأخوة والمساواة والعدالة والفضيلة.

وأما غير المودعين الذين ليست بينهم وبين المسلمين حرب فعلية ولا تربطهم بالمسلمين رابطة ما فإنهم ما داموا لا يؤذون المسلمين ولا يحرضون على إيذائهم فإن العلاقة التي تربط المسلمين بهم تقوم على نفس الأسس التي تقوم عليها العلاقة بين المسلمين والمودعين من الإحسان إليهم والبر بهم، وتبادل المنافع معهم إلا فيما يكسبهم قوة ومنعة، وإذا أردنا السير إليهم لتبليغهم دعوة الإسلام فلا بدّ من إعلامهم وعدم الاعتداء عليهم أو الغدر بهم وأخذهم على غرة^(٣). وقد بينت في الكلام عن الحرب في الإسلام ما يجب على المسلمين من القيام به نحو هؤلاء الذين ساروا إليهم قبل أن يشهروا السلاح عليهم، ويدخلوا معهم في قتال وجهاد.

(١) انظر شرح السير الكبير: ٣/٧٥، ١٧٧، ٢٧٦.

(٢) المصدر السابق: ٧/٤.

(٣) المصدر السابق: ٣/١٠٩، و ٤/١٦، ٢٣.

(ج) أصول العلاقات الدولية الإسلامية :

يتضح بجلاء من الحديث عن الحرب في الإسلام وأنواع الديار أن نظرة الإسلام إلى غير المسلمين لا تعرف العداة والتعصب والاستعلاء، وإنما تقوم على التسامح والتعاون والإخاء واحترام العهود والوفاء بها مهما تكن الظروف والأسباب وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَا يَتَّهَكُّمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الَّذِينَ وَلَدْتُمْ بِمَنْ دِينَكُمْ أَنْ تَزُومُوا وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَتَّهَكُّمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلْتُمْ فِي الَّذِينَ وَأَخْرَجْتُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمْتُمْ عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ (١).

فهاتان الآيتان تلخصان الدستور الإسلامي في العلاقات الدولية. وهو دستور يقوم على السلم ويؤثر المودة على العداة، حتى مع من عادوه ما ضمن كفههم من الاعتداء، استحياء للمودة الإنسانية، وتوثيقاً للروابط البشرية، فقبل الآيتين قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧).

والحاصل أن أصول العلاقات الدولية الإسلامية تقوم على ما يلي :

أولاً - المساواة بين الناس :

يقرر الإسلام أن الناس جميعاً أمة واحدة وأن المساواة بينهم في الكرامة الإنسانية وفي المسؤولية، مصدرها وحدة النسأة ووحدة المصير: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١) (٢).

وما دامت المساواة حقيقة لا مرء فيها لأنها ترجع إلى هذا المصدر الواحد، (فكلكم لآدم وآدم من تراب).

(١) سورة الممتحنة: الآيتان ٨ و ٩.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

فإن كل الأبحاث والدراسات التي يقوم بها علماء الاجتماع والأجناس وغيرهم ممن يصنفون الناس تصنيفاً عرقياً، وما يتمخض عن هذا التصنيف من أن يكون لبعض الناس من الامتيازات ما ليس لغيرهم، ليست عملاً علمياً صحيحاً؛ لأنه غفل عن الأصل الذي يرجع إليه الجميع، وأن ما بينهم من تفاوت أياً كان لونه لا يعني على الإطلاق تقسيماً عرقياً يجعل منهم طبقات يستعبد بعضها بعضاً.

إن النزاعات العرقية، أو ما يسمى بالتفرقة العنصرية قد جلبت على البشرية في الماضي والحاضر الويلات والمشكلات، والإسلام بمبادئه التي تقرر المساواة في الإنسانية بين الناس جاء لإنقاذ البشرية من تلك النزاعات الفاسدة، وبين أن التفاوت في الألوان والألسن والطاقات ليس سبيلاً لاستعلاء الأقوياء، وامتهان الضعفاء، فهذا التفاوت آية من آيات الله في خلقه، ومظهر من مظاهر حكمته في كونه، ووسيلة من وسائل الابتلاء لعباده، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْأَسْمَاءَ عَلَيْكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

ثانياً – السلم أصل العلاقة بين الناس:

يتفرع على تقرير مبدأ المساواة، وأنه لا طائفية ولا عنصرية ولا مفاضلة بالألوان والأجناس والأوطان وإنما بتقوى الله والعمل الصالح، قيام العلاقة بين الناس على المحبة والمودة والسلام والوئام، لأن معنى المساواة يفقد مدلوله إذا لم يبلغ كل أسباب الاستغلال والامتهان لكرامة الإنسانية.

إن خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل من أجل أن يتعارفوا ويتعاطفوا ويتعاونوا، ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقْوٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢).

وبذلك كان السلم هو العلاقة الطبيعية بين الشعوب، ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾^(٣).

(١) سورة الروم: الآية ٢٢.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

ثالثاً - الحرب من أجل السلام:

إذا كان الإسلام قد قرر أن أصل العلاقة بين الناس السلم، فإن هذا لا يتعارض مع إذنه بالحرب وحضه على الجهاد، فالجهد التي أباحها أو التي شرعها هي في جوهرها حماية للسلم وتمكين له في دنيا الناس، إنها حرب إنسانية لا تقر إذلال الشعوب، ولا تسعى لنهب الأموال، لأنها حرب في سبيل الله، حرب تدافع عن العقيدة والحرية والسلم. وبون شاسع بين حرب تنصر الحق، وتقاوم الشر، وبين حرب تبغي الفساد في الأرض، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَفْعَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُفْعَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (١).

ولأن الحرب الإسلامية حرب حق وخير كانت لها قيمها ومبادئها التي تلتقي مع مهمتها في تحقيق السلام والذود عنه.

رابعاً - العدالة:

يحرم الإسلام الظلم في كل صورته وأشكاله ويأمر بالعدل مع الأصدقاء والأعداء في كل الأحوال، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (٢).

فالعدل في الإسلام حق لكل إنسان بوصفه إنساناً دون تفرقة بين مؤمن وكافر وصديق وعدو وقريب وغير قريب ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (٣).

فالقرباة قد تضعف الإنسان حين يقف موقف الشاهد أو القاضي فلا يعدل في قوله أو حكمه، ولذا ينبه القرآن إلى هذا مؤكداً دعوته إلى قول الحق والعدل ومراقبة الله وحده، فهو أقرب إلى المرء من جبل الوريد.

وإذا كان من العدل أن نرد الاعتداء بمثله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ

(١) سورة النساء: الآية ٧٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ ﴿١﴾.

فإن الإسلام كما تنص الآية الكريمة لا يجعل رد الاعتداء بمثله أمراً مطلقاً، بل يقرن به تقوى الله، ومن هنا يكون العدل في الإسلام عدلاً إنسانياً رحيماً لا يعرف التشفي، ولا يمتحن الكرامة والفضيلة، ولا ينزل إلى مستوى الهمجية والوحشية، ولو كان غيرنا قد هبط إلى هذا المستوى، ومن أجل ذلك كان الإسلام دين القوة، قوة الإيمان والأبدان والإنتاج والإعداد للجهد حتى نهرب أعداء الله، وأعداء الحياة ونكون دائماً أباة حماة، أذلة على أنفسنا أعزة على غيرنا.

خامساً - احترام العهود والوفاء بها:

للعهود والمواثيق في الإسلام حرمة مقدسة، يجب احترامها وعدم التفريط فيها، والنصوص في ذلك كثيرة يمكن الاجتزاء منها بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبْنَا تَنْخَدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِِهِ، وَلِيَبْلِيَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٢﴾.

هذا النص القرآني الكريم يحتم الوفاء بالعهد وعدم نقضه، ويحذر من الخديعة والدخل في المواثيق، أي اتخاذها ذريعة للغش والغدر والمكر، ويشبه الذين يعقدون العهد ثم يتقضونه بالحمقاء التي تغزل غزلاً محكماً وبعد ذلك تنقضه، وفي هذا إشارة إلى أن نقض العهد لا يفعله إلا الحمقى ويومئ النص إلى أن الرغبة في زيادة الأرض أو القوة لا يصح أن يكون شيء من هذا سبباً لنقض العهد، فالعدالة الإسلامية لا تجعل مصلحة الدولة سبباً لنقض العهد ما دامت شروطه مصنونة من قبل الأعداء، ولذلك يحذر القرآن الكريم من نقض

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

(٢) سورة النحل: الآيتان ٩١ و ٩٢.

العهد حين يستنصر المسلمون إخوانهم ليجاهدوا معهم في الدين فإن عليهم أن يحترموا ما بينهم وبين غيرهم من موثيق، ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾^(١).

ولم تكن هذه المبادئ القويمة في رعاية العهود مثلاً نظرية، وإنما كانت سلوكاً واقعياً في حياة المسلمين وفي صلاتهم الدولية، ومن ذلك ما جاء عن حذيفة بن اليمان قال: (ما منعني أن أشهد بدرأ إلا أنني خرجت أنا وأبو الحسيل، فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا ما نريده وما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننتقل إلى المدينة ولا نقاتل مع محمد فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر فقال: انصرفا... نفي بعهودهم ونستعين بالله عليهم).

قال أبو رافع مولى رسول الله: (بعثتني قريش إلى النبي، فلما رأيت النبي وقع في قلبي الإسلام فقلت، يا رسول الله لا أرجع إليهم، قال: إني لا أخيس العهد ولا أحبس البرد ولكن أرجع إليهم فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع)^(٢).

وبعد، فهذه في إجمال أصول العلاقات الدولية في الإسلام، وهي أصول لحمتها وسداها الإخاء الإنساني، والسلام العالمي، والتعاون الدولي وهي وحدها التي تكفل للبشرية الحياة الآمنة المطمئنة، الحياة التي تجدر بالإنسان الذي كرمه خالقه، وجعله خليفة في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

(٢) انظر مجلة «المسلمون» شوال سنة ١٣٧٢هـ: ص ٢٣.

ثالثاً

بين الإسلام والتشريعات الوضعية

إن الموازنة العلمية بين أصول العلاقات الدولية في الإسلام والتشريعات الوضعية من خلال الحديث عنها فيما سبق يمكن أن تعطي النتائج التالية:

أولاً: إن أصول هذه العلاقات في الإسلام بعيدة كل البعد عن الطائفية والعنصرية وتحترم الإنسان لذاته لا لجنسه أو لغته أو عقيدته، فالناس جميعاً أمة واحدة، متساوون في الحقوق والواجبات، وواجب القوي نحو الضعيف المعاونة والمساعدة لا التحكم والإذلال، ومن ثم كانت أصولاً تحقق السلام العالمي بين البشر تحقيقاً عادلاً لا يعرف المحاباة وعدم الإنصاف.

أما قواعد القانون الدولي في صورته الراهنة – على الرغم من تطور الفكر القانوني، وتطلعه نحو أفق رحب من الإنسانية والعالمية – فإنها لا تستجيب لمبادئ المساواة بين مختلف البشر من غير تمييز بين أديانها وأجناسها وألوانها.

ويلاحظ أن انقسام العالم انقساماً سياسياً بين المذاهب الرأسمالية والشيوعية والحيادية قد ساعد من جديد على ظهور الطائفية في نطاق القانون الدولي، وبدأت ظواهر هذه الطائفية في التكتلات الدولية الحديثة^(١).

ثانياً: أصل العلاقة بين الناس هو الأخوة والسلم والألفة والمودة والتعاون على البر والتقوى، هذا ما قرره الإسلام ودعا إليه وحذر من التفريط فيه. وإذا كان هذا الدين قد أباح الحرب فإنه أباحها فقط لدفع الظلم ورد العدوان وتأمين

(١) انظر القانون الدولي في وقت السلم، للدكتور حامد سلطان: ص ٤٢.

البلاغ إلى الله، فهي لذلك حرب إنسانية لا تعرف الهمجية أو الوحشية ولا تقوم من أجل استغلال الشعوب وامتهان كرامتها.

أما قواعد القانون الدولي فقد انتهى أخيراً إلى نبذ الحرب في فض المنازعات الدولية وقد كان هذا بسبب الدمار المروع الذي تعرضت له البشرية في الحرب العالمية الثانية، ومع هذا فإن ما انتهى إليه القانون لا يعبأ به ولا يلقى من الدول الرعاية والتقدير، وما زالت الحرب القانون الذي يلجأ إليه في المشكلات الدولية، وما زالت القاعدة التي تعيش عليها وهي: القوة، تخلق الحق وتحميه وتضع حداً لكل نزاع هي المعول عليها في إنهاء الخلافات بين الأمم على الرغم من وجود المنظمة الدولية وجمعيتها العامة، وما تصدره من قرارات.

ثالثاً: ترتبط أصول العلاقات الدولية الإسلامية ارتباطاً وثيقاً، فهي جزء منها لا يكمل الإيمان إلا بها، ومن هنا تلقى من الدولة والأفراد في المجتمع الإسلامي كل الاحترام والإقناع الذاتي بها.

أما القوانين الوضعية – ومنها القانون الدولي – فإنها مبتوتة الصلة بعقائد الأفراد والدول، ولا تلقى الاحترام غالباً بدافع ذاتي، ويزداد الأمر بالنسبة للقانون الدولي أنه غير ملزم في رأي بعض الفقهاء^(١)، وأنه يحول بين أطماع الدول السياسية والاقتصادية، وهي أطماع لا يردعها غير القوة الحربية، وليس ما يجري في العالم في العصر الحاضر من عدوان على الضعفاء إلا دليلاً ملموساً على أن القانون الدولي لا يلقى – مع قصوره – الاحترام والصدق في تطبيق قواعده.

وإذا نظرنا إلى المعاهدات بين الدول فإننا نجد أن الإسلام يدعو إلى الوفاء بها ورعاية شروطها، ويحذر أبلغ الحذر من الغدر والدخل فيها، وينهى عن الأخذ بمبدأ مصلحة الدولة في نكث العهود، وذلك كله تحقيقاً لمبادئ العدالة ونشر السلام بين الناس.

(١) انظر آثار الحرب في الفقه الإسلامي، للدكتور وهبة الزحيلي: ص ١٠.

ولكن الأمر بالنسبة للعرف الدولي يختلف كل الاختلاف، فالمعاهدات لدى هذا العرف وسيلة القوي ينال بها من الضعيف، وهي لا تعدو أن تكون قصاصة ورق يمكن نكثها قبل أن يجف مداها، ففي مطلع القرن الميلادي الحالي اتفقت بعض الدول على حياد بلجيكا، وأرادت ألمانيا أن تمر بجيوشها من الأراضي البلجيكية حتى تحارب فرنسا، ورفضت بلجيكا ذلك، واحتجت إنجلترا على تصرف ألمانيا وأندرتها بالحرب إذا لم تعدل عن خرق حياد بلجيكا، وقال المستشار الألماني في رده على إنجلترا: (إنه من الهول ما تنويه حكومة جلالة الملك البريطاني، ومما يعز علي أن أتصور جلالته قابلاً دخول حرب مراعاة لقصاصة ورق يسمونها معاهدة، واتفقا على حياد أرض)^(١).

فالمعاهدات قصاصات ورق لا قيمة لها إذا تعارضت مع مصلحة الدولة والمصلحة هنا تشمل الغزو والاحتلال، وهذا يؤكد أن قواعد القانون الدولي - وهي تحض على المحافظة على المعاهدات - مبتوتة الصلة بضمائر الأفراد والجماعات.

رابعاً: إن أصول العلاقات الدولية في الإسلام تعرف ما يسمى اليوم بشخصية القانون، فغير المسلم في دار الحرب يلتزم بأحكام الشريعة الإسلامية في المعاملات والحدود دون غيرها مما يتصل بعقيدة الدينية فلا يخضع فيها لأحكام الإسلام وهذا باب الحرية الدينية التي كفلها الإسلام للجميع.

ويتحدث فقهاء القانون الدولي الخاص عن وجوب مراعاة شخصية القانون في بعض الحالات، ولكن الدول حتى الآن لم تتفق على وجوب هذا، وقد استغلت الدول الاستعمارية نظرية شخصية القانون فتحولت إلى امتيازات باسم القانون تسلب الدولة سيادتها وكرامتها كما حدث في عهد الاحتلال الإنجليزي بمصر.

خامساً: سبق الإسلام القانوني الدولي في تقريره لأصول العلاقات الدولية

(١) انظر نظام الحرب في الإسلام، للأستاذ جمال الدين عياد: ص ٣٧، طبعة القاهرة.

فما عرفت البشرية هذا القانون إلا حديثاً. وإن كانت له بعض الجذور القديمة، بيد أنها لا تمثل في الواقع تفكيراً قانونياً صحيحاً.

لقد ظهر الإسلام والناس فوضى لا يحتكمون إلى قانون، وكانت في وقت ظهور الإسلام – وبقيت بعده فترة طويلة – تعيش في ظلمات الفكر والتشريعات والسياسة فكان الإسلام المنهج الإلهي الذي أعاد للبشرية كرامتها وحريتها وأمنها واستقرارها وسعادتها في الدارين.

ومن هذه الموازنة الموجزة يبدو الفارق جلياً بين تشريع الله وقانون البشر، وأن هذا التشريع دون سواه هو الصراط المستقيم للناس في كل زمان ومكان، وأنهم إن حادوا عنه ضلوا طريق الحياة الإنسانية واكتفتهم الأخطار من كل جانب، وعاشوا في صراع نفسي ومادي يسلبهم السلام والأمن: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

خاتمة

وأخيراً ما أهم ما انتهت إليه هذه الدراسة الموجزة من نتائج، وماذا ترشد إليه من توجيهات؟

إن أهم هذه النتائج ما يلي:

١ - إذا الإنسان في تفكيره ما لم يكن محكوماً بشرع إلهي يسد خطاه فإنه يزل ويضل، ولا يكون لما يصل إليه من آراء - وإن جاءت صحيحة - جدوى في مجال التطبيق العملي.

٢ - وهذا بيّن في مجال الفكر القانوني الدولي، فقد تعثر هذا الفكر عبر رحلته التاريخية الطويلة، لأنه فقد الغاية المقدسة، ولهذا لم ينته إلى تشريع يدرأ الظلم، ويحمي العدل، ويحقق الأمن والرخاء، وما زالت البشرية حتى الآن تعيش في دياجير القلق والاضطراب والأطماع الدولية المختلفة.

٣ - إن الإسلام - وهو منهج إلهي متكامل - جاء بالتشريعات في كل المجالات، وهذه التشريعات دون سواها تصون الحياة من عبث الطغاة وترسي دعائم السلام على أسس من الأخوة والمساواة، وستظل البشرية تعاني مما تعاني منه ما لم تعتصم بتلك التشريعات وتستجيب لحكم الله في كل شيء ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾^(١).

٤ - إذا كان الأوروبيون يعدون جروتوس الهولندي مؤسس القانون الدولي فإن هذا خطأ علمي تاريخي، لأن الإمام محمد بن الحسن الشيباني وقد سبق جروتوس بأكثر من ثمانمائة عام قد كتب في القانون الدولي الإسلامي في تفصيل وشمول لم يسبق به، ومن ثم يعد هذا الإمام مؤسساً للقانون الدولي في العالم كله.

(١) سورة المائدة: الآية ٥٠.

على أن هناك من الباحثين^(١) من يرى أن جيروتوس قرأ ما كتبه الشيباني في كتابه «السير الصغير» و «السير الكبير» ونقل منهما ما عزاه إلى نفسه .

٥ - وليس فضل الشيباني في أنه أول من كتب في العلاقات الدولية فحسب وإنما يظهر فضله أيضاً في مجال الفكر القانوني أن القانون الدولي المعاصر لم يأت بجديد بالنسبة لما كتبه الإمام محمد .

٦ - وقد تنبه إلى هذه الحقيقة العلمية والتاريخية فقهاء فرنسا، فأنشأوا في سنة ١٩٣٢م جمعية الشيباني للقانون الدولي، ثم حذا حذوهم فقهاء ألمانيا، فأسست في غوتنجن جمعية شيباني للقانون الدولي، وضمت هذه الجمعية علماء القانون الدولي والمشتغلين به في مختلف أنحاء العالم وانتخب رئيساً لها الفقيه المصري، أحد أعلام القانون الدولي المعاصرين الأستاذ عبد الحميد بدوي (ت: ١٩٦٥م) رحمه الله .

وأما ما ترشد إليه الدراسة من توجيهات فيتلخص في أن كل فكر مهما يكن صالحاً للحياة وأولى من سواه في التطبيق إذا لم يكن له حماة يؤمنون به ويدودون عنه فإنه يظل كصرخة في واد. والمسلمون أصحاب عقيدة وشريعة وفكر لا نظير له، ولكن يبقى ما لدى المسلمين من مبادئ وقيم وفكر بعيداً عن التأثير الفعلي في واقع الحياة ما دام أهل لا يلتزمون به التزاماً كاملاً أولاً، وما داموا ثانياً لا يملكون القدرة على التمكين له والدفاع عنه، ولهذا كانت دعوة الإسلام إلى إعداد القوة بمفهومها الشامل، فهذا الإعداد هو السبيل لأن يصبح الفكر النظري واقعاً مطبقاً. ففوة المسلمين عقيدة وإعداداً هي مناط إرهاب أعداء الله وتطبيق شرعه وإعلاء كلمته، فالضعف دائماً يقود إلى الهزيمة المعنوية والمادية .

الدكتور محمد الدسوقي

(١) انظر مجلة منبر الإسلام ربيع الآخر سنة ١٣٨٦ : ص ٥ .

السّلم، والحرب، والعلاقات الدّوليّة
في الإسلام

إعداد

الدكتور محمد رأفت سعيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة :

نحمدك اللهم ونستعينك ونستهديك، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائك
ورسلك سيدنا محمد، وبعد.

فإن موضوع السلم والحرب والعلاقات الدولية في الإسلام من
الموضوعات الجديرة بالاعتناء والدراسة، لإبراز الحقائق التي تعمّد خصوم
الإسلام إخفاءها في هذا الموضوع، حتى ألبسوا الباطل ثوب الحق، وقدموا
الإسلام في المجال الدولي على أنه دعوة إلى الإرهاب وسفك الدماء، وأن
المسلمين لا يستريحون في إقامة علاقات دولية سامية مع غيرهم، لأنهم دعاة
حرب وعصية.

فكان لا بدّ من تناول هذا الموضوع تناولاً علمياً موثقاً يقدم الحق مدعماً
بدليله ليدحض الشبهات والمفتريات التي لا أساس لها، ولبيان حاجة البشرية إلى
السلام لما تجنيه من آثار الحروب المدمرة، ولأن التقدم البشري مرتبط بأمن
الإنسان وسلامه، كما أن سلامه النفسي مرتبط بسلامه الاجتماعي والاقتصادي،
وكل ذلك يمثل في عالمنا المعاصر وحدة مترابطة في التأثير والتأثر ومن إحقاق
الحق فإن الإسلام — كما يعرفه المنصفون، وكما سنتبينه بالدليل في المباحث
الآتية — هو السبيل الوحيد لتحقيق السلم الدولي في عالمنا المعاصر.

إنه شرع الله لخلقه، ورحمة الله للعالمين، به تحمي مقومات الحياة فلا
يمس الدين أو النسل أو العقل أو النفس أو المال في ظل توجيهاته وتشريعه.

واتخاذ الإسلام بعقائده وأخلاقه وعبادته ومعاملاته وتوجيهاته جميعاً،

سبيلاً لتحقيق السلم الدولي له ما يميزه عن قرارات المنظمات الدولية في أن الاستجابة لأوامره تكون ديناً ملزماً لا مجال فيه للتحايل في التطبيق، ولا المخادعة لأن الله شهيد على عباده، ولأن أحكامه تهدف خير عباده جميعاً دون ميل أو هوى، فعند التطبيق الصحيح يجد الجميع السلم والأمن المؤسستين على الحق والعدل والمساواة بين الجميع.

ولذلك فإننا سنلتزم في موضوعنا ما يجلي حقيقة الإسلام في نصوصه التي تمس سلم الناس وحربهم وعلاقاتهم الدولية في ستة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: السلام في الإسلام.

وستتناول فيه - إن شاء الله تعالى - مفهوم السلام، وتقرير مبدأ السلام في الكتاب والسنة واعتباره الأصل، وآراء علماء السلف في حقيقة السلام، وتطبيقات الخلفاء والقادة لمفهوم السلام من واقع التاريخ الإسلامي، وضمانات الإسلام لتحقيق السلام.

الفصل الثاني: الجهاد في الإسلام.

وستتناول فيه - إن شاء الله تعالى - مدلولي الجهاد والحرب، وحكم الجهاد ومراحل تشريعه، وبواعثه وأهدافه، وفضله، ومنهج الإسلام في حقن الدماء، والدعوة أولاً، والإعداد للجهاد (مادياً ومعنوياً).

الفصل الثالث: خلق الجهاد في الإسلام.

وستتناول فيه - إن شاء الله تعالى - نظام الإسلام الخلقي الذي يتناول السلم والحرب، وأخلاق القائد من الرفق بالجند والنصح لهم والمشاورة، وأخلاق الجند من الطاعة للقائد في المعروف.

وخلق الصبر والمصابرة والثبات وعدم الفرار.

والظهور بالقوة مع عدم الغرور، والرحمة ومظاهرها والوفاء بالعهود والمواثيق، والشكر مع النصر، وعدم اليأس عند الهزيمة ومحاسبة النفس، والطاعة لله سبحانه ورسوله ﷺ والتزهر عن المعاصي.

الفصل الرابع : الآثار المترتبة على الجهاد .

وستتناول فيه — إن شاء الله تعالى — المصطلحات الآتية وما يتعلق بها : دار الإسلام — دار الحرب — المعاهدون : حقوقهم وما يجب عليهم ، الهدنة والآمان ، والصلح ، والغنائم وأحكامها (الأموال المنقولة — الأسارى — الأرض) . وتوجيهات الإسلام في حالة وقوع الهزيمة بالمسلمين .

الفصل الخامس : العلاقات الدولية في الإسلام .

وستتناول فيه — إن شاء الله تعالى — ضرورة الاتصال بين الأفراد والدول ، وأن الإسلام أقام العلاقات الداخلية بين أفراد الأمة على المودة والرحمة ، الأسس التي تقوم عليها علاقة الدولة المسلمة بالدول الأخرى .

السبيل العملي في بيان العلاقتين — الكتاب الذي وادع فيه الرسول ﷺ اليهود وعاهدهم — موقف الإسلام من المنظمات الدولية .

الفصل السادس : شبهات في موضوع السلم والحرب في الإسلام .

وستتناول فيه — إن شاء الله تعالى — :

- الغرض من إثارة الشبهات — الرد الموضوعي على الشبهات .
- شبهة الإكراه في الدين ونشره بالسيف .
- شبهة الجزية وما يتعلق بها .
- شبهة اعتبار الرق غاية من الجهاد .

الخاتمة :

وسنبرز فيها — إن شاء الله أهم النتائج التي نتوصل إليها من تناولنا لهذه المباحث .

والله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الفصل الأول السلام في الإسلام

مفهوم السلام:

السلام مبدأ من المبادئ التي عنى بها الإسلام عناية واضحة في اسمه الدال عليه. وفي مضمونه وما يدعو إليه، فالإسلام والسلام يشتركان في مادة «سلم» وهي مادة تعني في اللغة الخلوص والنجاة من الآفات، وتعني الصلح^(١)، وهذه المادة مثل مادة «أمن» وزناً ومعنى، وما يتضمن هذا من سكون القلب^(٢)، والطمأنينة والسكينة.

من أجل هذا وجدنا احتفاء الإسلام بالسلام وما يشيعه في النفس الإنسانية وفي الأسرة البشرية من معاني المودة والرحمة، ووجدنا تعميق الإسلام لهذا المبدأ المحقق لهذه المعاني في توجيهات القرآن الكريم وفيما وجه إليه النبي ﷺ واعتبار هذا المبدأ أصل العلاقات البشرية فعليه تقوم، وإن ابتعدت عنه تصارعت، ولا بدّ من إزالة أسباب الصراع للعودة إليه تحقيقاً للأمن وإرساء للطمأنينة، وهذا معنى الصلح الذي تدل عليه المادة «سلم».

فأما تقرير السلام لهذا المبدأ وتعميقه وإزالة ما يعكر صفوه فنجده في الكتاب والسنة على ما يلي:

أولاً: الدين الذي ارتضاه الله لنا جعل عنوانه من مادة السلام فسماه الإسلام قال تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَسْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ

(١) انظر المصباح المنير: ص ٢٨٧؛ ومختار الصحاح: ص ٣١١.

(٢) انظر المصباح: ص ٢٤.

لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿١﴾.

ثانياً: والله سبحانه الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً – من أسمائه الحسنى السلام. قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢).

ثالثاً: وإذا كان السلام – كما مر بنا في بيان مفهومه – قرين الأمن والسكينة والطمأنينة، وأن هذه المعاني قرينة الرحمة فإن رسول الله ﷺ يوصف بأنه للعالمين رحمة مهداة فيقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٣).

ويقول الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لِنَتْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِن حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنَّهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَسَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٤).

رابعاً: وإذا كانت هذه صفة الرسول ﷺ مع أمته فإن الله تعالى جعل مفتاح المعاملات بين الناس، وبداية العلاقات واللقاءات فيما بينهم في لفظة السلام فتحية الإسلام السلام.

خامساً: الذين يعيشون مستجيبين لهدي ربه في حياتهم الدنيا فيتحقق لهم الأمن والسلام سيحظون يوم القيامة بتحية الله لهم وهي السلام، قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ (٥).

وسيحظون كذلك بتحية الملائكة لهم في الآخرة وهي السلام قال تعالى:

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٤٤.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۗ﴾ (١)

سادساً: سُمي الله الدار التي ينعم فيها المؤمنون المستجيبون لله وللرسول بدار السلام وهي الجنة، قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (٢).

سابعاً: وأحلى ما يسمع أهل الجنة في دار السلام كلمة السلام، قال جل شأنه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْنِيماً ۖ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا ۗ﴾ (٣).

ثامناً: ولترغيب المؤمنين للدخول في السلم دعاهم ربهم إلى دار السلام، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ (٤).

تاسعاً: ويجعل النبي ﷺ ارتباط دخول دار السلام بإفشاء السلام فيما بين المؤمنين فيقول ﷺ: «لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم» (٥).

عاشراً: ويجعل الإسلام لكلمة السلام قوة لا تدع في النفس مجالاً للظن أو الوهم، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾ (٦).

وبذلك تكون كلمة السلام التي أرسى دعائمها الإسلام للمسلمين وينال من خيرها كذلك غيرهم، وهكذا نرى تضافر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في إفشاء روح السلام بين العالمين، وأن هذا ما ينبغي أن تكون عليه الحياة وأول من يستجيب لهذا الروح بين المؤمنون، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٧).

(١) سورة الرعد: الآيات ٢٣ و ٢٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٧.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٢٦.

(٤) سورة يونس: الآية ٢٥.

(٥) رواه مسلم وأخرجه أبو داود والترمذي، وانظر رياض الصالحين كتاب السلام: ص ٣٦٦.

(٦) سورة النساء: الآية ٩٤.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

وإن أصيبت هذه الروح بما يعكر صفوها بنزاع أو قتال وجد الناس خطره وذاقوا مرارته وبدأ فيهم ميل للعودة إلى الأصل وهو السلام فإن المؤمنين أسرع الناس استجابة إلى هذا حتى ولو كان الميل ميل مخادعة فإن الله حسبهم ويكفيهم شر خداعهم، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ (١)

بهذه الروح الواعية لمبدأ السلام والمحقة له في حياة الناس انطلق قادة الفتوح الإسلامية فمع مواجهتهم لأقوام استعبدوا الناس بالباطل، وطغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد كان تطبيقهم العملي في ميادين الجهاد محافظ على مبدأ السلام وآثاره في حياة الناس ونستطيع أن نقدم دليلاً على ذلك من واقع التاريخ الإسلامي ومن تطبيقات الخلفاء الراشدين وهم خير سلف هذه الأمة وأصفاهم فهما لحقيقة ما قرره الإسلام من مبادئ.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو خليفة الرسول ﷺ وقف في جيش أسامة خطيباً فقال: «أيها الناس، أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم شيئاً بعد الشيء فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا... اندفعوا باسم الله» (٢).

والاستشهاد بأقوال القادة وقت الحرب خير دليل على فهم هؤلاء القادة

(١) سورة الأنفال: الآيات ٦١ و ٦٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٦٣/٢، وقادة فتح الشام ومصر محمود شيت خطاب: ص ٤٢.

لمفهوم السلام، فقد يكون التعبير عن مفهوم السلام من غير وقت اللقاء مع الأعداء مشوباً بكثير من الادعاء والظهور في صورة مثالية، أما الوصية من القائد إلى جنده عن اللقاء، وامثال الجند لمجموعة من المبادئ والقيم التي تمثل مفهوم السلم في أحلى صورته فإنه دليل على عمق هذا المفهوم وتأصله في النفوس. ومن هنا نقول أن القادة المسلمين يجعلون مبادئ السلام وثيقة الارتباط بدينهم فلا تنازل عنها في أي وقت من الأوقات، وأن القتال في الإسلام – كما سينجلي لنا في مباحثه – ليس إلاً تدعيماً لهذا الأصل العظيم الذي أسس الإسلام حياة الناس عليه. فالقاتحون دعاة إلى الله يستهدفون هداية الناس إلى الحق ويزيحون العوائق من طريق الشعوب، ويخرجون الناس من عبادة الحكام إلى عبادة الرحمن، ومن ظلم الحكام إلى عدل الإسلام، ويبدلون في سبيل ذلك أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ولذلك فإن صلاحهم مستمر في لقائهم مع عدوهم فلا خيانة ولا غلول ولا غدر، ولا يقاتلون إلاً المقاتلة فلا قتل لطفل صغير ولا لشيخ كبير ولا امرأة. وإذا قوتل المقاتلة فلا تمثيل. وفتحهم للعمارة والنماء فلا عقر لنخل ولا إحراقه ولا قطع لشجرة مثمرة ولا ذبح لشاة ولا بقرة ولا بعير إلاً للأكل. وهكذا يتجلى في توجيهات أبي بكر رضي الله عنه لجيش أسامة رضي الله عنه امتداد مفهوم السلم ليكون مستمراً في جميع الأحوال وأن هذا المعنى إذا كان يحقق عند لقاء العدو فإنما لكونه مرتبطاً بعبادة المسلم الذي ينطلق في أمره كله باسم الله سبحانه واستجابة لأمره ونهيه. وأما لدى غير المسلمين فإن أوقات الحروب تستباح فيها الأنفس ويمتنع معها كل معنى كريم.

ويمتد هذا المعنى للسلام ليجد التطبيق لدى القادة المسلمين قديماً وحديثاً وإذا كنا أعطينا مثلاً لتوجيهات أول الخلفاء الراشدين فهذا – كذلك – القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي يحقق هذا المفهوم بعد أن استعاد بيت المقدس من أيدي الصليبيين بعد تسعين سنة من مجزرة الصليبيين الذين استولوا على بيت المقدس في ١٠٩٩/٧/١٥م فذبحوا سبعين ألف مسلم ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء في مذبحة استمرت ثلاثة أيام، ولم تنته إلاً بعد إجهادهم

من القتل، وحطموا رؤوس الصبيان على الجدران، وألقوا الأطفال الرضع من أسوار المعازل والحصون، وشووا الرجال على النار، وبقروا بطون الحوامل ليروا هل ابتلع أهلها الذهب؟

— بعد هذه المجزرة لم يعامل صلاح الدين الصليبيين بالمثل . فلما سلمت له الحامية النصرانية أمنهم على حياتهم، وكانوا أكثر من مائة ألف وأعطاهم مهلة للخروج في سلام، لم يقتل أحداً منهم بعد أن بذل لهم وعده بالأمان، ولم يفعل كما فعل «ريكاردوس» الإنجليزي الذي قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف سلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دماهم^(١).

ضمانات الإسلام لتحقيق السلام :

وليجعل الإسلام مفهوم السلام واقعاً يعيشه الناس ويجنون ثماره ويستمتعون من وضع الإسلام أمام الناس بمجموعة من التدابير والضمانات التي تكفل تحقيق السلام في حياة الناس، ويمكن أن نقسم هذه الضمانات والتدابير إلى قسمين :

الأول : ضمانات نفسية .

الثاني : معالجة الصراع إذا وقع بين البشر معالجة موضوعية .

فأما الضمانات النفسية فقد بسط القرآن الكريم أمام الناس قصة الصراع بين آدم لتجنب الأسباب التي أدت إليه، فحكى لنا القرآن الكريم ما حدث بين ابني آدم حيث تفوق أحدهما بتقواه وحظى بقبول عمله، وأما الآخر فبدلاً من أن يشغل نفسه بإصلاح شأنها ليقبل عمله مثل أخيه شغل نفسه بالحقد عليه، والحسد له، وتهديده بالقتل، وطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله، وبيصرنا القرآن الكريم بأثر هذا الصنيع من الندم الذي أصاب القاتل، والمظلمة الشديدة التي

(١) انظر محاضرة الأستاذ الدكتور عبد المجيد محمود عن تعامل المسلمين مع مخالفهم في الدين، مطبوعات قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية : ص ٣ و ٤ .

وقع فيها بهذه الخباثات النفسية وبتزيين الشيطان للإنسان عمل السوء ومقارفة المظالم، كما يضع الناس بعد هذه القصة أمام القاعدة المستخلصة منها في أن من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيها فكأنما أحيأ الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿ وَأْتَلُ عَلَيْهِم نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٠١﴾ لَئِن سَطَّتِ إِلَيْكَ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴿١٠٢﴾ إِلَيَّ أَرْبُدْ أَن تَبْؤَأَ بِإِئْتِي وَإِيَّكَ فَتَكُونَ مِنَ الصَّاحِبِينَ ﴿١٠٣﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٤﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّتُكَ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَثِي سَوْءَةَ أَحِيٍّ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿١٠٥﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴿١﴾

فمن هذه البداية التي نضع أيدينا عليها وما تبعها من صراعات. نستطيع أن نستخلص أهم العوامل المؤثرة على السلم في حياة الناس، والتي يهتم بها كثير من الباحثين، والتي تتصل بالعامل النفسي، والذي نبرزه أوضح مظهره فيما يأتي:

- (أ) حب الاستعلاء في الأرض بالتسلط على الآخرين.
- (ب) استغلال ثروات الآخرين.
- (ج) سرور النفس بالشعب مع وجود الجوع عند الآخرين.
- (د) ترتيب الناس ورفع بعضهم على بعض باعتبارات لا صلة لهم فيها.
- (هـ) استيفاء النفس لحظوظها ولو كان ذلك على حساب الآخرين.
- (و) إهمال النفس الإنسانية في التهذيب الصحيح والتقويم المستمر.

هذه مجموعة العوامل النفسية وراء الصراعات الفردية التي بدأت بابني آدم، والصراعات الدولية التي تصحب بدم بشري دافق يصرخ في وجه الإنسانية يطلب

(١) سورة المائدة: الآيات ٢٧ - ٣٢.

الإيقاف ليسري في عروق بانية، وليؤدي وظيفته في بشرية سوية ترفرف عليها
رايات الحب والسلام.

وأما الضمان الثاني: والذي يتمثل في معالجة الصراع إذا وقع بين البشر
فإن الإسلام يعالج قضايا الصراع معالجة موضوعية متكاملة تأخذ بالمنهج
المتكامل الذي يعالج المشكلة من جذورها فيبدأ بمعالجة الأهواء النفسية التي
أشرنا إليها من قبل.

كما يعالج الأسس التي تقوم عليها العلاقات الإنسانية ويتمثل ذلك فيما يلي:

(أ) النظرة الصحيحة إلى الإنسان باعتباره مخلوقاً لله سبحانه وقد كرمه
الله وفضله على كثير ممن خلق وجعله مسؤولاً ومحاسباً ومجزياً عن عمله، وأقام
الإسلام كيان الإنسان على حسن الصلة بخالقه وواهب النعم له، وتنمية مكوناته
الروحية والبدنية والعقلية، وصيانة نفسه ودينه وعقله وماله وعرضه.

(ب) النظرة الصحيحة إلى العلاقات الإنسانية وإقامتها على الأسس التالية:

- ١ - المساواة الإنسانية.
- ٢ - العدل.
- ٣ - التكافل الإنساني.
- ٤ - الأساس المتصف للتفاصيل بين الناس والذي يدفع بالإنسانية إلى
الخير والتنافس في مجالاته.
- ٥ - السلم النفسي والسلم العالمي.

ومجموع هذه الضمانات تؤمن الفرد والجماعات وتحول بينهم وبين
الصراعات الدموية، فإذا ما تغلبت نوازع السوء ودفع الصراع فإن المعالجة تأخذ
بالمشكلة من جذورها فإن لم يستجب الأفراد والجماعات لهذه الضمانات
السابقة، فإن للإسلام نظرتة في اتخاذ الجهاد سبيلاً لتحقيق هذا السلم الذي يعده
أصلاً في حياة الناس، وهذا ما سنتناوله إن شاء الله - في الفصل الثاني - .

الفصل الثالث الجهاد في الإسلام

مدلول الجهاد والحرب :

وإذا كانت كلمة الحرب تحمل ظلالاً قاتمة من المعاني التي تثير الإنسان وينفعل بها الأدياء شعراً ونشراً قديماً وحديثاً، لما تحدثه من مظاهر التدمير والتخريب والقتل، وفي هذا نجد قول زهير بن أبي سلمى :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريرتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحي بثفالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتسم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفظم

إذا كانت الحرب - كذلك - في سواتها فإن القرآن الكريم يذكر الحرب بهذه الآثار الثقيلة في مثل قوله تعالى: ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾^(١).

ولما كانت الحرب بين الناس تقوم على أسس باطلة - سبق الإشارة إليها - ويتعرض الناس مع الحرب لظلم الظالمين المحاربين، ووقوف المعاندين في وجه الحق وتسلبهم على غيرهم والوقوف في طريق دعوتهم إلى الحق والخير كان الإذن من الله سبحانه بمقاتلة هؤلاء الظالمين والوعد من الله بنصرهم قال تعالى: ﴿ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾^(٢) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾^(٢).

(١) سورة محمد: الآية ٤ .

(٢) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠ .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَاصْلَوْا لِلَّهِ يَوْمَ يُدْعَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

ولكي يبقى معنى القتال الذي أذن فيه واضحاً في أهدافه، وفي أبعاده، وفيما يلتزم فيه من مبادئ وقيم، وجدنا في الإسلام مصطلحات أخرى لتؤدي المعنى المراد مصحوباً بالمفاهيم الإسلامية كمصطلح الجهاد وكذلك المغازي والسيرة فالجهاد: مصدر جاهد جهاداً ومجاهدة، وجاهد: فاعل، من جهد: إذا بلغ في قتل عدوه وغيره، ويقال: جهده المرض وأجهده، إذا بلغ من المشقة، وجهدت الفرس وأجهدته: إذا استخرجت جهده، والجهد بالفتح: المشقة، وبالضم: الطاقة: وقيل: يقال: بالضم وبالفتح في كل واحد منهما. فمادة «ج. هـ. د.» حيث وجدت، ففيها معنى المبالغة. وهو في الشرع: عبارة عن قتال الكفار خاصة^(٢)، بالوجه الذي سنبينه في هذا الموضوع. والمعنى اللغوي للجهاد من استفراغ الوسع وبذل الطاقة وتحمل المشاق في مقاتلة العدو ومدافعتة هو ما يعبر عنه بالحرب في العرف الحديث فالحرب هي القتال المسلح بين دولتين فأكثر^(٣) وإذا كان البشر قد خاضوا الحروب ظلماً واستعلاء في الأرض فإن الإسلام قد جعل الجهاد لوقف هذا الظلم والاستعلاء فالجهاد كما سيتضح من مفهومه في الإسلام لتحقيق السلام والوقوف في وجه كارهي هذا السلام، والعجيب أن تجد المفهوم المخرب للحريات لدى من يتنسب إلى دين عبث به نفوسهم الشريرة فحرفوا وبدلوا ووضعوا ما لم يأذن به الله في العلاقات بين خلقه فنجد في أسفار التوراة التي يتداولها اليهود تقرير شريعة الحرب والقتال في أشنع صورة من صور التخريب والتدمير والإهلاك والسببي فقد جاء في سفر التثنية . . .

(١) سورة الحج: الآية ٤٠.

(٢) المطلع على أبواب المقنع، للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلبي، مجموعة المبدع: ٢٠٩/١١؛ والروض الندي شرح كافي المبتدي، لأحمد ابن عبد الله البعلبي: ص ١٩٨.

(٣) أنظر فقه السنة، للأستاذ سيد سابق: ٦١٨/٢.

في الإصحاح العشرين عدد ١٠ وما بعده: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير، وسيتعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء، والأطفال، والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً — الحثيين والأموريين، والكنعانيين، والفرزيين، والجويين، واليوسيين، كما أمرك الرب إلهك».

وفي إنجيل متى المتداول بأيدي النصارى في الإصحاح العاشر عدد ٢٤ وما بعده يقول: «لا تظنوا إني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً، بل سيفاً، فإنني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها، والكنة ضد حمايتها، وأعداء الإنسان أهل بيته من أحب أباً أو أمّاً أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني، ومن وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها»^(١).

فهكذا يكون التسلط البشري المخرب الذي يلبس ثوب دين فضله الهوى للتخريب والاستعلاء في الأرض بغير الحق.

ولكن المسلم الذي يلتزم مفهوم الجهاد في الإسلام يبذل الوسع والطاقة في سبيل الله بالنفس واليد واللسان^(٢)، ويتضمن هذا المعنى عناصر الجهاد في المقاتل من جهة إعداده معنوياً ومادياً والعدد وما يبذل فيها والخطط وما يرسم

(١) انظر فقه السنة، للأستاذ سيد سابق: ص ٦١٨، و ٦١٩.

(٢) انظر نيل الأوطار، للشوكاني: ٢٠٨/٧. وانظر الحرب والسلام في الفقه الدولي الإسلامي، د. محمد كمال إمام: ص ٤٢.

لها من أفكار وغير ذلك مما يرتبط بهذه العناصر والتي تقتضي جهاد النفس في مدافعة الجبن والبخل والتربية على الشجاعة والإقدام وحسن التدريب، والسهر لمعرفة ما يكون لدى العدو حتى لا يكون المؤمن دونه.

وأما المغازي والسير فإنها ترتبط كذلك بالمعاني السابقة في معنى الجهاد واستعملت بهذا المفهوم جاء في الحديث: «الغزو غزوان: فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام وأنفق الكريمة واجتنب الفساد فإن نومه ونبهته أجر كله، وأما من غزا رياء وسمعة وعصى الإمام وأفسد في الأرض فإنه لم يرجع بالكفاف»^(١).

ولذلك ارتبطت المغازي بالمعارك التي خاضها رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لإعلاء كلمة الله. واستعملت كتب التفسير والحديث والفقه مصطلحات الجهاد والمغازي والسير لمعالجة ما يتصل بالقتال والحرب، بل ألفت كتب تحمل هذه العناوين مثال ذلك:

– المغازي والسير لابن عبد البر.

– السير للأوزاعي.

– والمغازي للواقدي.

ولذلك وجدنا الفقهاء يتناولون موضوع الجهاد فيتكلمون عن حكمه وفضله، ومراحل تشريعه، وبواعثه وأهدافه، ومنهج الإسلام في حقن الدماء، والدعوة قبل الدخول فيه، والإعداد له مادياً ومعنوياً. وستتناول في هذا الفصل – إن شاء الله – هذه المباحث.

حكم الجهاد ومراحل تشريعه:

يتفق علماء الأمة على أن الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن باقيهم ولم يأثموا بتركه^(٢).

(١) رواه أبو داود والدارمي، والموطأ. وأنظر شريعة الإسلام في الجهات والعلاقات الدولية، للمودودي: ص ١٨٥.

(٢) انظر الإفصاح، لابن هبيرة: ٢٧٣/٢.

وقال صاحب المجموع: (والجهاد فرض والدليل عليه قوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ .

وهو فرض على الكفاية إذا قام به من فيه كفاية سقط الفرض عن الباقيين لقوله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَدْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

ولو كان فرضاً على الجميع لما فاضل بين من فعل وبين من ترك، ولأنه وعد الجميع بالحسنى فدل على أنه ليس بفرض على الجميع، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني لحيان وقال: ليخرج من كل رجلين رجل ثم قال للقاعدين: أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج، ولأنه لو جعل فرضاً على الأعيان لاشتغل الناس به عن العمارة وطلب المعاش فيؤدي ذلك إلى خراب الأرض وهلاك الخلق)^(١).

ولكن يتعين الجهاد أي يصبح فرض عين في حالات تضطر فيها الأمة كلها إلى مواجهة العدو ذكر منها ابن قدامة ثلاثة مواضع:

أحدها: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف وتعين عليه المقام لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ .

وقوله: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ . وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدُهُمْ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

(١) كتاب المجموع شرح مهذب الشيرازي: ٤٣/١٨، ٤٤ و .

الثاني: إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم.

الثالث: إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير معه لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالًا كَثِيرًا إِذَا قِيلَ لَكَرُّوا فَرُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قَاتِلُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ . . .﴾ الآية والتي بعدها.

وقال النبي ﷺ: «إذا استنفرتم فانفروا»^(١).

وأما ابن عبد البر في كتابه الكافي في فقه أهل المدينة المالكي فيقسم الجهاد تقسيماً آخر يشمل ما ذكر من الفرضية بنوعيهما (فرض الكفاية وفرض العين) ولكنه يضيف إلى الفرضية فرضاً آخر يجعله على الإمام، ويذكر في تقسيمه كذلك جهاد النافلة فيقول: (الغزو غزوان: غزو فرض، وغزو نافلة)، والفرض في الجهاد ينقسم أيضاً قسمين:

أحدهما: فرض عام متعين على كل أحد ممن يستطيع المدافعة والقتال وحمل السلاح من البالغين الأحرار وذلك أن يحل العدو بدار الإسلام محارباً لهم فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقلاً وشباباً وشيوخاً ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكثر، وإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعددهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا قلوباً أو كثروا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعهم، وكذلك كل من علم بضعفهم عن عددهم وعلم أنه يذكرهم ويمكنه غيائهم لزمه أيضاً الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم حتى إذا قام بدفع العدو أهل البلد التي نزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين، ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضاً الخروج إليه.

والقسم الثاني: من واجب الجهاد فرض أيضاً على الإمام إغراء طائفة إلى العدو، وكل سنة مرة يخرج معهم بنفسه أو يخرج من يثق به ليدعوهم إلى

(١) المغني، لابن قدامة: ٣٤٦/٨، و ٣٤٧.

الإسلام ويرغبهم ويكف أذاهم ويظهر دين الله عليهم ويقاتلهم حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية فإن أعطوها قبلها منهم وإن أبوا قاتلهم وفرض على الناس بأموالهم وأنفسهم الخروج المذكور حتى يعلم أن في الخارجين من فيه كفاية بالعدد، وقام به، فإذا كان ذلك سقط الفرض عن الباقيين وكان الفضل للقائمين على القاعدين أجراً عظيماً وليس عليهم أن ينفروا كافة^(١).

وابن عبد البر يتفق مع جمهور العلماء في حكم الجهاد الفرض بقسميه ولكنه يقرر هذه الفرضية بوصف عملي ينظر فيه إلى الأمة المسلمة باعتبارها أمة واحدة في عزتها ومنعتها، وكذلك ينظر في قوله إلى وجود الإمام للأمة والذي يحمل على كنفه مسؤولية الدعوة وتبليغها للعالمين وإنقاذ الناس من الشرك ومظاهرة، ومن الظلم وآثاره، وهو يذكر واجب الإمام في هذا يطبق معه كذلك حكم الجهاد العيني وجهاد الكفاية. ليذكر بعد ذلك النوع الثاني من الغزو وهو غزو النافلة فيقول: وأما النافلة من الجهاد: فأخراج طائفة بعد طائفة وبعث الرايات في أوقات العزة وعند إمكان الفرصة والإرصاء لهم بالرباط في مواضع الخوف، وسأل العمري العابد وهو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الله، أيضاً التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله - عز وجل - وحكم بغيرها؟ فقال مالك: الأمر في ذلك إلى الكثرة والقلة، قال أبو عمر: جواب مالك هذا - وإن كان في جهاد غير المشركين - فإنه يشمل المشركين ويجمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كأنه يقول: من علم أنه إذا بارز العدو قتلوه ولم ينل منهم شيئاً جاز له الانصراف عنهم إلى فئة من المسلمين ولم يجز له إباحة دمه لمن لا يقوى عليه ولا يمكنه ولا ينفع المسلمين بما يحاوله فيه. وقول مالك هذا يشبه عندي ما رواه سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن عطاء عن ابن عباس قال: من فرّ من رجلين فقد فر ومن فر من ثلاثة فلم يفر يعني في القتال. قال سفيان: فحدثت به ابن شبرمة فقال: هكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال ابن وهب: سمعت مالكا

(١) كتاب الكافي، لابن عبد البر: ١/٣٩٥، و ٣٩٦.

يسأل عن القوم يلقون العدو أو يكونون في محرس يحرسون فيأتيهم العدو وهم يسير أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم؟ قال: إن كانوا يقوون على قتالهم قاتلوهم وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فأذنوهم^(١).

فهذا هو حكم الجهاد لدى جمهور العلماء فرض كفاية إلا إذا تعين بأسباب تجعله على كل مستطيع نفساً ومالاً وقد ذكر ابن عبد البر تطبيق هذا الحكم عملياً على الأمة كلها بإمامها وارتباط حكم الجهاد بالقوة والضعف والقلّة والكثرة على ما ذكر^(٢).

ويقول مجد الدين أبو البركات في المحرر: (وأقل ما يفعل مرة في كل عام، إلا أن تدعو الحاجة إلى تأخيره لضعف المسلمين... وللإمام تأخيره — أيضاً — مع القوة والاستظهار لمصلحة رجاء إسلام العدو ونحوها^(٣)).

ومعنى ذلك أن الحكم مرتبط كذلك بغايات الجهاد التي تجعل اللجوء إلى القتال ضرورة وصولاً إلى الحق وتحقيقاً للعدل ودفعاً للفساد وتبليغاً لكل ما يحقق في الناس هذه القيم وهو الإسلام الذي ينقذ العالمين.

وقد نبه علماؤنا إلى هذا وقضوا عليه وهم يذكرون حكم الجهاد فيقول صاحب كتاب اللباب في شرح الكتاب الشيخ عبد الغني الميداني الدمشقي: (الجهاد فرض على الكفاية لأنه لم يفرض لعينه إذ هو فساد في نفسه وإنما فرض لإعزاز دين الله ودفع الفساد عن العباد وكل ما هو كذلك فهو فرض كفاية إذا حصل المقصود بالبعض وإلا ففرض عين)^(٤).

(١) الكافي، لابن عبد البر: ٣٩٦/١.

(٢) انظر تفصيل هذا في الروض الندي بشرح كافي المبتدي، لأحمد بن عبد الله البجلي: ص ١٩٨؛ والمقنع، لابن قدامة: ٤٨٣/١؛ والمبلع في شرح المقنع، لابن مفلح: ٣٠٧/٣، و ٣٠٨؛ وموسوعة فقه عمر بن الخطاب، د. محمد قلعة: ص ٢٣٠؛ وبداية المجتهد، لمحمد بن رشد القرطبي: ٣٨٠/١، و ٣٨١؛ وأحكام القرآن، للإمام الشافعي: ٢٩/٢ وما بعدها؛ والوجيز في فقه الشافعي، للغزالي: ١١٣/٢.

(٣) المحرر في الفقه، لمجد الدين أبو البركات: ١٧٠/٢.

(٤) كتاب اللباب في شرح الكتاب في فقه الحنفية، لعبد الغني الميداني الدمشقي: ص ٣٦٧.

ويتضح هذا المعنى لدى الباحثين المعاصرين - أيضاً - في اعتبار الحرب في الإسلام شراً ولكن لا بد منه لدفع الفساد فيقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب: (إن الحرب في الإسلام شر وبلاء، فلا يدخل المسلمون الحرب إلاّ دفعاً للشر والعدوان، وعندئذ يكون هذا الشر خيراً، ويصبح البلاء عافية... وفي هذا يقول الشاعر:

والشر إن تلقه بالخير ضيقت به ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم
ويقول الآخر:

وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

إن الشر الذي يدفع به الشر، هو في غايته خير، إذ لو ترك الشر دون أن يؤخذ على يد فاعليه، لاستشرى، ولأتى على كل خير في هذه الحياة والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ (١).

فمن فضل الله تعالى على الناس، ورحمته بهم أنه أقام من عباده الصالحين المحسنين من يتصدى للشر وأهله، حتى يقضي على هذا البلاء، الذي لو ترك لأهلك الحرث والنسل ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَلَكْتُمْ سَوَاعِجٌ وَيَبِغٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢).

مراحل تشريعه:

ويرتبط حكم الجهاد كذلك بمسيرة الدعوة حيث عاش المسلمون فترتها الأولى يواجهون تحديات شتى ويفتنون في أبدانهم وأموالهم ويقابلون هذا بالصبر

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

(٢) سورة الحج: الآية ٤٠، انظر الحرب والسلام في الإسلام، للأستاذ عبد الكريم الخطيب:

الجميل والرد الفردي عند الاستطاعة ممن كانت له قوة أو يأوى إلى ركن شديد، وكذلك بالتحرك بعيداً عن مواطن الفتنة بالهجرة إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة المنورة، ثم أذن للمسلمين بالقتال وأبيح لهم رداً للعدوان مع عدم الاعتداء، ثم فرض القتال تحقيقاً للغايات التي سنفصل القول فيها - إن شا الله بعد ذلك - .

وقد أجاد الشافعي - رحمه الله - في وصف هذه المراحل بأدلتها في كتابه أحكام القرآن فقال رحمه الله: (ففرض عليه إبلاغهم، وعبادته، ولم يفرض عليه قتالهم، وأبان ذلك في غير آية من كتابه، ولم يأمره بعزلتهم، وأنزل عليه: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ . . . ﴿٣﴾ .

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلٰغُ الْمُبِينُ ﴿١١١﴾﴾ .

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلٰغُ﴾، مع أشياء ذكرت في القرآن في غير موضع في مثل هذا المعنى .

وأمرهم الله عز وجل بأن لا يسبوا أندادهم فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ . . .﴾ الآية، مع ما يشبهها .

ثم أنزل جل ثناؤه - بعد هذا - في الحال الذي فرض فيها عزلة المشركين فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آءِآئِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

وأبان لمن تبعه ما فرض عليهم بما فرض عليه قال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰبِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ آءِآتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ . . . ﴿الآية (١١)﴾ .

ثم يقول الشافعي: (وكان المسلمون مستضعفين بمكة زماناً لم يؤذن لهم

(١) أحكام القرآن، للشافعي: ٩/٢ - ١١ .

فيه بالهجرة منها، ثم أذن الله لهم بالهجرة، وجعل لهم مخرجاً فيقال: نزلت: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ .

فأعلمهم رسول الله ﷺ أن قد جعل الله لهم بالهجرة مخرجاً قال: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ وأمرهم ببلاد الحبشة فهاجرت إليها منهم طائفة .

ثم دخل أهل المدينة في الإسلام فأمر رسول الله ﷺ طائفة فهاجرت إليهم - غير محرّم على من بقى ترك الهجرة. وذكر الله عز وجل أهل الهجرة فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْآخِرُونَ الْآخِرُونَ﴾ .

وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ .

وقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولَ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ .

قال: ثم أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة منها فهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة .

ولم يحرم في هذا على من بقى بمكة المقام بها - وهي دار شرك - وإن قلوا بأن يفتنوا ولم يأذن لهم بجهاد .

ثم أذن الله عز وجل لهم بالجهاد، ثم فرض بعد هذا عليهم أن يهاجروا من دار الشرك .

ثم يقول رحمه الله: (فأذن لهم بأحد الجهادين: بالهجرة، قبل أن يؤذن لهم بأن يبتدئوا مشركاً بقتال) .

ثم أذن لهم بأن يبتدئوا المشركين بقتال قال الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ .

وأباح لهم القتال بمعنى أبانه في كتابه فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْسِدِينَ﴾ وأقتلواهم حيث تقتلواهم .

إلى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَرَاءُ الْكٰفِرِينَ﴾.

قال الشافعي رحمه الله: يقال: (نزل هذا في أهل مكة وهم كانوا أشد العدو على المسلمين – ففرض عليهم في قتالهم ما ذكر الله عز وجل).

ثم يقال: نسخ هذا كله، والنهي عن القتال حتى يقاتلوا، والنهي عن القتال في الشهر الحرام – بقول الله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ونزول هذه الآية بعد فرض الجهاد.

ثم يقول: (ولما فرض الله عز وجل الجهاد على رسوله ﷺ: جهاد المشركين، بعد إذ كان أباحه، وأثنى رسول الله ﷺ في أهل مكة ورأوا كثرة من دخل في دين الله عز وجل – اشتدوا على من أسلم منهم ففتنهم عن دينهم..).

فعدر الله عز وجل من لم يقدر على الهجرة من المفتونين فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ...﴾.

ثم يقول: (ولما مضت لرسول الله ﷺ مدة من هجرته، أنعم الله فيها على جماعات باتباعه – حدثت لهم بها مع عون الله عز وجل قوة بالعدد لم يكن قبلها، ففرض الله عز وجل عليهم الجهاد بعد إذ كان أباحه لا فرضاً فقال تبارك وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ...﴾^(١) الآية.

وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةِ﴾.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ عَلَيْهِمُ﴾.

وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فُضِّبَ الْإِقَابِ حَتَّى إِذَا أَخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾.

(١) وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة.

وقال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ إلى ﴿ وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾^(١).

وهكذا تتبع الإمام الشافعي رحمه الله بهذه الأدلة القرآنية أصل فرض الجهاد ومراحل تشريعه حتى استقرت فرضيته بالصورة التي ذكرت، وارتبط حكمه ببواعثه وأهدافه والتي أشير إليها في كلامنا السابق والذي نبرزه في النقاط الآتية:

بواعثه وأهدافه:

إن الهدف الأسمى من الجهاد الذي يقره الإسلام هو الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، لأن تحقيق هذا الهدف يحقق للناس سلمهم الحقيقي ويضمن لهم سلامة أنفسهم وصيانة أعراضهم وحفظ أموالهم، ولذلك فإن هذه الغاية هي التي تجعل الجهاد في سبيل الله، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر – والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ .

فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله العليا، فهو في سبيل الله» .

وإذا قلنا إن إعلاء كلمة الله هو هدف المؤمن والأمة المؤمنة فإن الذي يبعث الأمة على الجهاد هو كل سبيل يحقق هذا الهدف، وإزاحة كل معوق في هذا السبيل. ومن هذه السبل:

– إخراج المؤمنين من الفتنة ونصرة المستضعفين قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَبَهُمْ فَلَا عُذْرَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٢).

(١) أحكام القرآن، للشافعي: ١١/٢ – ١٩ .

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٣ .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ (١).

— ومن هذه الصور الباعثة على الجهاد رد الاعتداء الذي يقع من الظالمين الذين يقفون في طريق الدعاة فإن الأمة المسلمة أمة تحمل رسالة ربها وتدعو الناس أجمعين إليها فقيام الأمة بواجب الدعوة أمر لا بد منه، فإذا تعرض أحد المخالفين للدعاة إلى الله على بصيرة ووقف في سبيل الدعوة فعذب الداعي أو من آمن وصدته عن الدخول فيها فإن هذه الصور أنواع من الاعتداء على الناس يجب دفعه حتى يرتفع الظلم والإكراه من الظالمين وتكون كلمة الله هي العليا.

وهذه الصور هي التي تجعل الباحثين يقررون أن الجهاد في مثل هذه الحالات جهاد دفاعي لرد الاعتداء. قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْسِدُوا إِتَّكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْسِدِينَ ﴿١٩١﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿١٩٢﴾ (٢).

— ومن هذه الصور الدفاعية كذلك رد العدوان على الديار والعرض والنفس والمال. قال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا ﴿٣﴾.

وقد روى أبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد» (٤).

(١) سورة النساء: الآية ٧٥.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٩٠ - ١٩١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤٦.

(٤) (رواه أيضاً ابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. الترتيب: ٣٣٩/٢، وانظر =

والذي يؤكد ما قررناه من أن بواعث الجهاد تمثل صوراً دفاعية لا يكون معها اعتداء أن المعتدي إذا أوقف اعتدائه وجب وقف قتاله قال تعالى: ﴿ فَإِن أَعْتَرَلُوكُمْ فَلَمَّ يَفْقِنُوكُمْ وَأَلْفَوْا لِيَكُومَ الْإِسْلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِكُوفِهِمْ سَبِيلًا ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

والذي يضبط هذا ما ذكرناه من هدف الجهاد في سبيل الله وهو إعلاء كلمة الله تعالى فيها يتحقق السلم والأمن ويقاوم الفساد في الأرض.

والذي يدعم ما ذهبنا إليه من ذكر أهداف الجهاد وبواعثه التطبيق العملي الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، ولذلك فإن البواعث والأهداف - كما قلنا - ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمراحل تشريع الجهاد. وإذا كانت البواعث والأهداف بهذا النبل والسمو في تحقيق السلم الدولي الصحيح فإن لهذا الجهاد فضله الذي يقدره الإسلام على النحو التالي:

فضل الجهاد:

لقد تنوعت الأساليب القرآنية الكريمة في بيان فضل الجهاد في سبيل الله ففي استفهام يغري ويحث على الطلب يأتي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَرٍ تُجْرِكُونَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ جَزَاءُ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يَقْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَسْكِنُونَ فِيهَا بُيُوتًا يُبْنَوْنَ فِيهَا بِحَبْلٍ غَمْدًا مِنْ ثَمَرٍ أَلْفَوْا الْعَظِيمِ ﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

فالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس من المنجيات من العذاب الأليم ومن أسباب مغفرة الذنوب ودخول الجنات والمسكن الطيبة في جنات عدن وهذا فوز

= جمع الفوائد: ١٦/٢.

(١) سورة النساء: الآية ٩٠.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٦١، و ٦٢.

(٣) سورة الصف: الآيتان ١٠ - ١٣.

عظيم في الأخرى . وبالجهاد في سبيل الله يتحقق نصر الله والفتح القريب والبشرى للمؤمنين ، قال تعالى :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّنَ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُعْطِيَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١١﴾ ﴾^(١).

وفي عدم التسوية بين الجهاد وغيره من الأعمال وبيان أن الجهاد في سبيل الله أعظم يقول الله تعالى : ﴿ أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْمَآءِ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾^(٢).

وفي تهديد ووعيد لمن يسوي بين حب الله ورسوله مع الجهاد في سبيله وأقرب الناس إلى الإنسان من الآباء والأبناء والإخوة والأزواج والأقارب والأموال قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِئْرَةٌ أَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢١﴾ ﴾^(٣).

فإذا ما صحب هذا الجهاد بحصول الشهادة كان بيان الفضل من الله على الشهداء في أنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأن الله سبحانه اشترى منهم أنفسهم وأموالهم ومنحهم الجنة قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَعْمَالَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٥ .

(٢) سورة التوبة: الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٣) سورة التوبة: الآية ٢٤ .

(٤) سورة آل عمران: الآيتان ١٦٩ - ١٧١ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتِكُمْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِيَعِّبِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

فهذا بعض ما ورد من فضل الجهاد في سبيل الله في كتاب الله تعالى، وأما ما ورد في حديث النبي ﷺ فإنه كما يقول الإمام الشوكاني رحمه الله في نيل الأوطار: (والأحاديث في فضل الجهاد كثيرة جداً لا يتسع لسطها إلا مؤلف مستقل) (٢).

ولكن يكفي أن نذكر بعضها على سبيل المثال:

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» متفق عليه (٣).

وعن أبي عيسى الحارثي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار» [رواه أحمد والبخاري والنسائي والترمذي] (٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قاتل في سبيل الله فوق ناقة وجبت له الجنة» [رواه أحمد والترمذي].

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظللال السيوف» رواه أحمد ومسلم والترمذي وعن سهل بن سعد قال رسول الله ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها» متفق عليه (٥).

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٢) نيل الأوطار: ٢٨/٨.

(٣) نيل الأوطار: ٢٤/٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

والأحاديث في فضل الجهاد - كما ذكر - كثيرة تبين ما ذكره القرآن الكريم من فضل الجهاد والمجاهدين في سبيل الله، ويرتبط هذا الفضل بأهمية الجهاد في سبيل الله في حماية الدين الذي هو عاصمة أمر الإنسان والأمة وسبب نهضتها وسعادتها وسبب الأمن والسلم والرخاء العالمي، وهو الطريق إلى إرساء مبادئ الحق والعدل في العالمين.

منهج الإسلام في حقن الدماء:

إن الإسلام يصون النفس الإنسانية ويحرم الاعتداء عليها إلا إذا استوجبت هذه النفس عقوبة تستحقها، كما يعد الإسلام الاعتداء على النفس اعتداء على الناس جميعاً تبشيعاً وتفكيراً ومن باب بيان خطورة سفك دم نفس واحدة والذي يؤدي إلى مزيد من سفك الدماء قال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلٌ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١).

وفي تفصيل نبوي كريم يحدد الرسول ﷺ بعض هذه الموجبات لقتل النفس والتي تمثل اعتداء من هذه النفس على غيرها كالقتل أو ارتكاب جريمة الزنا أو الردة ومفارقة الجماعة التي تمثل معنى الخيانة العظمى قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

فإذا علم ذلك رأينا حرص الإسلام على عدم سفك الدماء وبذل كل السبل التي تحول بين المجاهد في سبيل الله وسفك دماء العدو وذلك يتمثل فيما يلي:

أولاً: يطلب الإسلام من أتباعه أن يعدوا ما استطاعوا من القوة (مادياً ومعنوياً) لإلقاء الرعب في قلوب الأعداء فلا يجروء على المقاتلة. والنص على الغاية من الإعداد وأنه لتحقيق هذه الرهبة بيان لحرص الإسلام على عدم الدخول في حرب تسفك فيها الدماء فإن الرهبة ستمنع العدو من الهجوم والدخول في

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

القتال قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ. عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (١).

وعلى ذلك فإن الخطوة الأولى يستطيعها المؤمنون، ويحققون بها جانباً من منهج الإسلام في حقن الدماء.

ثانياً: إن كان العدو قد بلغت به الجرأة إلى الهجوم والاعتداء فإن الإسلام يحجم الحرب حتى لا يتوسع في سفك الدماء فيكون الرد على قدر العدوان فحسب ولا يتمادى في إيقاع المزيد عليه قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ يَمْثِلُ مَا أَعَدَّكُمْ وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ وَاعِلْمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

ومن مظاهر هذا التحجيم كذلك قصر القتال على المقاتلة فحسب وعدم التوسع ليشمل غيرهم فجاء النهي عن قتل النساء إلا إذا باشرن القتال وكذلك النهي عن قتل الشيخ الفاني الذي لا يقوى على القتال ولا يقوى على المشورة والكيد والتدبير كما جاء النهي عن قتل الصبيان والرهبان ومعنى ذلك أن القتل قاصر على من يباشر القتال ويخشى شره. وقد عالج الشوكاني رحمه الله هذا النهي معالجة موضوعية ذكر فيها ما ورد من النصوص عن النهي والإباحة وخرج بما قرئناه - هنا - في هذه المسألة - وذلك في باب الكف عن قصد النساء والصبيان والرهبان والشيخ الفاني بالقتل. فذكر رواية ابن عمر قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان، رواه الجماعة إلا النسائي. وعن رباح بن ربيع أنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاها وعلى مقدمة خالد بن الوليد فمر رباح وأصحاب رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون إليها يعني وهم يتعجبون من خلقها حتى لحقهم رسول الله ﷺ على راحلته فأفرجوا عنها فوقف عليها رسول الله ﷺ فقال: «ما كانت هذه لتقاتل فقال لأحدهم الحق خالداً فقل له

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

لا تقتلوا ذرية ولا عسيفاً^(١) رواه أحمد وأبو داود وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ﷺ لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا وضحوا غنائمكم واصلحوا واحسنوا إن الله يحب المحسنين» [رواه أبو داود].

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «اخرجوا باسم الله تعالى تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع».

وعن ابن كعب بن مالك عن عمه: (أن النبي ﷺ حين بعث إلى ابن أبي الحقيق بخير عن قتل النساء والصبيان) وعن الأسود بن سريع قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوا الذرية في الحرب فقالوا يا رسول الله أو ليس هم أولاد المشركين. قال: أو ليس خياركم أولاد المشركين» [رواه أحمد]^(٢).

وبعد ذكر الشوكاني لهذه الروايات يذكر ما يخالفها ثم يوجه الروايات ويستخلص ما يتفق مع ما ذكرناه فيذكر رواية سمرة عن أحمد والترمذي وصححه بلفظ: (اقتلوا شيخ المشركين واستحيوا شرخهم) ويقول الشوكاني: وأحاديث الباب تدل على أنه لا يجوز قتل النساء والصبيان وإلى ذلك ذهب مالك والأوزاعي فلا يجوز ذلك عندهما بحال من الأحوال حتى لو ترس أهل الحرب بالنساء والصبيان أو تحصنوا بحصن أو سفينة وجعلوا معهم النساء والصبيان لم يجز رميهم ولا تحريقهم. ذهب الشافعي والكوفيون إلى الجمع بين الأحاديث المذكورة فقالوا: إذا قاتلت المرأة جاز قتلها، وقال ابن حبيب من المالكية: لا يجوز القصد إلى قتلها إذا قاتلت إلا إذا باشرت القتل أو قصدت إليه ويدل على هذا ما رواه أبو داود في المراسيل عن عكرمة أن النبي ﷺ مرَّ بامرأة مقتولة يوم حنين فقال من قتل هذه؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله غنمتها فأردفتها خلفي

(١) العسيف: الأجير.

(٢) نيل الأوطار، للشوكاني: ٧١/٨، و ٧٢.

فلما رأَت الهزيمةَ فينا أهوت إلى قائم سيفي لتقتلني فقتلتها فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ ووصله الطبراني في الكبير وفيه حجاج بن أرطاة وأرسله ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن يحيى الأنصاري، ونقل ابن بطلال أنه اتفق الجميع على المنع من القصد إلى قتل النساء والولدان، إما النساء فلضعفهن وأما الولدان فلقصورهم عن فعل الكبار، ولما في استبقائهم جميعاً من الانتفاع إما بالرق أو الفداء فيمن يجوز أن يفادي به، قال في الفتح: وقد حكى الحازمي قولاً بجواز قتل النساء والصبيان على ظاهر^(١) حديث الصعب وزعم أنه ناسخ لأحاديث النهي وهو غريب. كما يذكر الشوكاني رحمه الله ما يستخلص من ذكر العسيف في الأحاديث أنه لا يجوز قتل من كان مع القوم أجير أو نحوه لأنه من المستضعفين^(٢). ولكن إذا سلك الأعداء في هذه الأيام مسلك استيجار المرتزقة للقتال فإنهم - دون شك - يخرجون عن هذا الحكم لأنهم يستأجرون لمباشرة القتال.

ويقول الشوكاني: قوله: لا تقتلوا شيخاً فانياً ظاهره أنه لا يجوز قتل شيوخ المشركين، ويعارضه حديث اقتلوا شيوخ المشركين الذي ذكرناه وقد جمع بين الحديثين بأن الشيخ المنهي عن قتله في الحديث الأول هو الفاني الذي لم يبق فيه نفع للكفار ولا مضرة على المسلمين وقد وقع التصريح بهذا الوصف بقوله «شيخاً فانياً» والشيخ المأجور بقتله في الحديث الثاني هو من بقي فيه نفع للكفار ولو بالرأي كما في دريد ابن الصمة فإن النبي ﷺ لما فرغ من حنين بعث أبا عامر على جيش أوطاس فلقي دريد بن الصمة وقد كان نيف على المائة وقد أحضروه ليدبر لهم الحرب فقتله أبو عامر ولم ينكر النبي ﷺ ذلك عليه كما ثبت ذلك في في الصحيحين من حديث أبي موسى...

قال أحمد بن حنبل في تعليقه أمره ﷺ بقتل الشيوخ: إن الشيخ لا يكاد يسلم والصغير أقرب إلى الإسلام. وفي كلام الشوكاني عن أصحاب الصوامع

(١) نيل الأوطار: ٧٣/٨.

(٢) المرجع السابق.

يقول: فيه دليل على أنه لا يجوز قتل من كان متخلياً للعبادة من الكفار كالرهبان لإعراضه عن ضر المسلمين، والحديث وإن كان فيه مقال لكنه معتضد بالقياس على الصبيان والنساء بجامع عدم النفع والضرر وهو المناط ولهذا لم ينكر ﷺ على قاتل المرأة التي أرادت قتله، ويقاس على المنصوص عليهم بذلك الجامع من كان مقعداً أو أعمى أو نحوهما ممن كان لا يرجى نفعه ولا ضرره على الدوام^(١).

وعلى ذلك يكون حرص الإسلام على تحجيم سفك الدماء وقصر هذا على الفئة المباشرة للقتال فحسب، وإذا جنحت للسلم جنح المسلمون وتوقف القتال - كما سبق ذكره .

ثالثاً: ومن باب تحجيم سفك الدماء كذلك وحقق الدماء ما اشترطه الإسلام من توجيه الدعوة أولاً قبل القتال فإن استجابوا جميعاً أو استجاب بعضهم فقد عصم دمه ولذلك يذكر ابن رشد القرطبي شرط الحرب وأنه بلوغ الدعوة، ويحكي الاتفاق على هذا، ويفسر ذلك بقوله: (أعني أنه لا يجوز حرابتهم حتى يكونوا قد بلغتهم الدعوة، وذلك شيء مجتمع عليه بين المسلمين لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مَعَدِّينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾^(٢).

ودليل ذلك رواية ابن عباس قال: (ما قاتل رسول الله ﷺ قوماً قط إلاّ دعاهم) [رواه أحمد].

وكذلك رواية سليمان بن بريدة عن أبيه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين

(١) نيل الأوطار: ٧٤/٨. وانظر: وصية عمر رضي الله عنه في ذلك في الأموال: ص ٣٧؛

والمعني: ٤٧٧/٨. وقوله في الفلاحين: (اتقوا الله في الفلاحين فلا تقتلوهم إلا أن

ينصبوا لكم الحرب)، سنن البيهقي: ٩١/٩. وانظر موسوعة فقه عمر: ص ٢٣٦ .

(٢) بداية المجتهد: ٣٨٦/١ .

فادعهم إلى ثلاث خصال: أو خلال، فأيهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم الذي يجري على المسلمين ولا يكون لهم في الفئء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإنه هم أبوا فلهم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وإن أبوا فاستعن بالله عليهم، وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيّه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيّه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذمتكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن وأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟ [رواه أحمد ومسلم وابن ماجه والترمذي وصححه^(١)].

ولقد حقق أصحاب رسول الله ﷺ هذا المعنى في سيرهم العملي أخذاً عن رسول الله ﷺ فهذا عمر رضي الله عنه يقول لسلمة بن قيس: (سر باسم الله، فقاتل في سبيل الله من كفر بالله، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة، وليس لهم من فئء المسلمين نصيب، فإن اختاروا أن يكونوا معكم - أي في عداد المجاهدين - فلهم مثل الذي لكم - أي من العطاء - وعليهم مثل الذي عليكم، فإن أبوا - أي الدخول في الإسلام - فادعوهم إلى إعطاء الجزية، فإن أقرؤوا بالجزية فقاتلوا عدوهم من ورائهم، وفرغوهم لخراجهم، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم، فإن أبوا - أي دفع الجزية - فقاتلوهم، فإن الله ناصرهم عليهم، وإن تحصنوا منكم في الحصن فسألوكم أن ينزلوا على حكم الله ورسوله فلا تنزلوهم على حكم الله ولا حكم رسوله، فإنكم لا تدرون

(١) نيل الأوطار: ٥١/٨، و ٥٢.

ما حكم الله ورسوله فيهم، وإن سألوكم أن تنزلوهم على ذمة الله وذمة رسوله فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله، واعظوهم ذمم أنفسكم، فإن قاتلوكم فلا تغدروا، ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا^(١).

وأما ما ذكر من رواية نافع عن ابن عمر (أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون) فإنه جعل في المسألة ثلاثة مذاهب يحسن الإشارة إليها:

الأولى: أنه يجب تقديم الدعاء للكفار إلى الإسلام من غير فرق بين من بلغته الدعوة منهم ومن لم تبلغه، وبه قال مالك وغيره، وظاهر الحديث معهم.

المذهب الثاني: أنه لا يجب مطلقاً يستدل أصحاب هذا المذهب بحديث نافع عن ابن عمر وغيره^(٢).

المذهب الثالث: أنه يجب لمن لم تبلغهم الدعوة ولا يجب إن بلغتهم لكن يستحب، قال ابن المنذر وهو قول جمهور أهل العلم وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على معناه وبه يجمع بين ما ظاهره الاختلاف من الأحاديث^(٣).

وعلى كل حال فإن تقديم الدعوة أولاً سواء على جهة الوجوب لمن لم تبلغه أو الاستحباب لمن بلغته يدل على حرص الإسلام على تجنب سفك الدماء بالقتال.

رابعاً: فإن لم يستجب الأعداء إلى الدعوة وأصروا على القتال فإن الإسلام في هذه الحالة يحجم سفك الدماء بما يشرعه من كتمان الأمر والتورية وغير ذلك من الأمور التي تحقق المفاجأة للعدو ومسلم أمره بلا إسراف في سفك الدماء لهذا جاء عن كعب بن مالك عن النبي ﷺ (أنه كان إذا أراد غزوة ورى غيرها: [متفق عليه وهو لأبي داود وزاد والحرب خدعة].

(١) الخراج، لأبي يوسف: ص ٢٣٠. وانظر موسوعة فقه عمر بن الخطاب د. محمد رواس قلعجي: ص ٢٣٣.

(٢) راجع نيل الأوطار: ٥٥/٨، و ٥٦.

(٣) المرجع السابق: ص ٥٣. وانظر بداية المجتهد: ٣٨٧/١.

وعن جابر قال: (قال رسول الله ﷺ الحرب خدعة) وعن أبي هريرة قال: (سمى النبي ﷺ الحرب خدعة) وعن جابر قال: (قال رسول الله ﷺ: من يأتيني بخير القوم يوم الأحزاب؟ فقال الزبير: أنا، ثم قال: من يأتيني بخير القوم؟ قال الزبير: أنا، فقال النبي ﷺ: لكل نبي حواري وحواري الزبير، متفق عليه.

وعن أنس قال: (بعث رسول الله ﷺ بسبباً^(١) عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان فجاء فحدثه فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا فجعل رجال يستأذنون في ظهرهم في علو المدينة فقال: لا إلاً من كان ظهره حاضراً فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا ركب المشركين إلى بدر) [رواه أحمد ومسلم].

ولقد أخذ ابن المنير من هذه الأحاديث هذا المعنى فقال: معنى الحرب خدعة أي الحرب الجيدة لصاحبها الكاملة في مقصودها إنما هي المخادعة لا المواجهة وذلك لخطر المواجهة ولحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر^(٢).

وبهذه العناصر وغيرها يحقق الإسلام غايته في حقن الدماء فلا سفك منها إلاً ما يضطر إليه إحقاقاً للحق وإعلاءً لكلمة الله سبحانه.

(١) انظر نيل الأوطار: ٥٨/٨.

(٢) نيل الأوطار: ٥٧/٨، و ٥٨.

الفصل الثالث خلق الجهاد في الإسلام

ولقد أقام الإسلام نظامه الخلقي الذي يتناول السلم والحرب حيث جعل التخلق بمكارم الأخلاق غاية من الغايات التي بعث من أجلها رسول الله ﷺ في مثل قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فليست الأخلاق في الإسلام أمراً ثانوياً بل هي أساس من أسس هذا الدين كما أن الإسلام لم يربط التخلق بمكارم الأخلاق بحصول المنفعة منها بل التحلي بها واجب في كل وقت وعلى كل حال ثم حث الإسلام على الترقى في درجات الكمال الخلقي حتى يحسن المسلم الاقتداء برسول الله ﷺ فيها والذي وصف بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وتتجلى في الجهاد مجموعة من الصور الخلقية التي يحتاجها الموقف ومنها ما يتعلق بالقادة ومنها ما يتعلق بالجنود وهذه الصور تنسجم مع نظرة الإسلام للجهاد واعتبار المجاهدين يقومون بأشرف الأعمال وأعظمها ويقدمون في سبيلها أنفسهم وأموالهم.

فمن هذه الصور الخلقية التي تتعلق بالقادة:

— رفق القائد بجنده ونصحه لهم ومشاورته لجيشه. وهذه الأخلاق تجعل القائد قريباً من جنده يحبهم ويحبونه ويأمرهم ويطيعونه، كما تعطي صورة حقيقة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم في الدعوة التي جاء المجاهدون لإعلانها وهذا يغري الأعداء بالتفكير في شأن هذا الدين والإقبال عليه ولقد كان رسول الله ﷺ معلماً بتوجيهاته وسنته العملية في هذا الخلق فعن أنس أن النبي ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض عنه فقام

سعد بن عبادة فقال: (إيانا تريد يا رسول الله والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا قال: فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا) [رواه أحمد ومسلم].

وعن أبي هريرة قال: (ما رأيت أحداً قط أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ) [رواه أحمد والشافعي].

ففي هذا تعلم من الرسول الكريم للقادة في المشاورة وعملاً بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

وعن معقل بن يسار قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) [متفق عليه].

فهذا تحذير من رذيلة خلقية وهي الغش للرعية ليكون محلها النصح للرعية.

وفي لفظه: (ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجتهد لهم ولا ينصح لهم إلا لم يدخل الجنة) [رواه مسلم].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فأرفق به) [رواه أحمد ومسلم].

وفي هذا الدعاء من الرسول ﷺ ترغيب وترهيب في رفق القائد بالأمة وبعده عن المشقة عليهم.

وفي السيرة العملية للرسول القائد ﷺ يأتي ما رواه جابر رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم) [رواه أبو داود].

وعن سهل بن معاذ عن أبيه قال: (غزونا مع النبي ﷺ غزوة كذا وكذا

فضيق الناس الطريق فبعث رسول الله ﷺ منادياً فنادى من ضيق منزلاً، أو قطع طريقاً فلا جهاد له) [رواه أحمد أبو داود]^(١).

ومن حرص القائد على جنده أن يحافظ عليهم وألاً يوردهم موارد الهلكة وأن يتخذ لكل أمر عدته حتى لا يزج بجيشه فيما يغلب فيه الهلاك.

فعن أنس أن عمر سأله: إذا حاصرتم المدينة كيف تصنعون؟ قال: (نبعث الرجل إلى المدينة، ونصنع له هيئة من جلود، قال: رأيت إن رمى بحجر؟ قال: إذن يقتل، قال: فلا تعقلوا فوالذي نفسي بيده ما يسرنى أن تفتحوا مدينة فيها أربعة آلاف مقاتل بتضييع رجل مسلم)^(٢).

وروى زيد بن وهب قال: خرج عمر ويدها في أذنيه وهو يقول: يا لييكاه.. يا لييكاه. قال الناس: ماله؟ قال: جاءه بريد من بعض امرائه أن نهراً حال بينهم وبين العبور، ولم يجدوا سفناً، فقال: أميرهم: اطلبوا لنا رجلاً يعلم غور الماء فأتى شيخ فقال: إني أخاف البرد - وذلك في البرد - فأكرهه فأدخله الماء، فلم يلبثه البرد فجعل ينادي: يا عمراه يا عمراه... فغرق، فكتب عمر، إلى القائد فأقبل، فمكث أياماً معرضاً عنه، وكان إذا وجد على أحد عرض عنه، ثم قال: ما فعل الرجل الذي قتلته؟ قال: يا أمير المؤمنين - ما تعمدت قتله، لم نجد شيئاً نعبر فيه، وأردنا أن نعلم غور الماء ففتحنا كذا... وكذا... وأصبنا كذا وكذا... فقال عمر: (لرجل مسلم أحب إلي من كل شيء جئت به)^(٣).

— ومن رفق القائد بجنده ألاً يجبس جندياً عن أهله أكثر من أربعة أشهر ولقد اتخذ عمر هذا الموقف لما سمع امرأة ذات ليلة تنشد:

تطاول هذا الليل وازورّ جانبه وليس إلى جنبي خليل الأعبه

(١) نيل الأوطار، للشوكاني: ٤٥/٨ - ٤٨.

(٢) سنن البيهقي: ٤٢/٩.

(٣) المرجع السابق: ٣٢٣/٨.

فوالله لولا الله لا شيء غيره لززعزع من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يكفني وإكرام بعلي أن تنال مراكبه
فسأل عمر النساء كم تصبر المرأة عن الزوج؟ فقلن: شهرين، وفي الثالث
يقول الصبر، وفي الرابع ينفد الصبر فكتب إلى أمراء الأجناد: لا تحبسوا رجلاً عن
امرأته أكثر من أربعة أشهر^(١).

وإذا كان القائد على هذا المستوى من النصح والرفق والمشورة فإن مما
يرتبط بهذا ارتباطاً وثيقاً ما يتعلق بخلق الجند فيما يلي:

— الطاعة للقائد: وطاعة الجند خلق لا بد منه فيما يحب الجندي وفيما
يكره، إلا إذا أمر بمعصية، فإن القاعدة لا تتخلف فلا طاعة لمخلوق في معصية
الخالق سبحانه.

وفي تدعيم هذا الخلق جاء حديث معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال:
[الغزو غزوان، فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وباسر
الشريك واجتنب الفساد فإن نومه ونبهه أجر كله وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة
وعصى الإمام وأفسد في الأرض فإنه لن يرجع بالكفاف] [رواه أحمد وأبو داود
والنسائي].

وفي تعظيم خلق الطاعة للأمير والقائد يجعل الرسول الله ﷺ هذا الخلق
من طاعته فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد
أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص
الأمير فقد عصاني» متفق عليه.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

قال: (نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بعثه رسول الله ﷺ في
سرية) [رواه أحمد والنسائي].

(١) المغني: ٣٠١/٧؛ وسيرة عمر، لابن الجوزي: ص ٧١؛ وموسوعة فقه عمر: ص ٢٣٦.

وعن علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا فعصوه في شيء فقال: اجمعوا لي حطباً فجمعوا ثم قال: اوقدوا ناراً فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال فادخلوها فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه، وطفئت النار، فلما رجعوا، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: لو دخلوها لم يخرجوا منها أبداً وقال: لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف [متفق عليه] (١).

— الصبر والمصابرة والثبات وعدم الفرار:

وهذه من الأخلاق التي لا غنى عنها لدى المجاهدين لأنهم يواجهون عدواً قد يكون أكثر عدداً وأقوى من أجل ذلك كان الأمر الصريح بهذه الأخلاق في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢).

بل إن الإسلام يعد نفاذ الصبر والتولي يوم الزحف من الموبقات التي يحذر منها فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَادِقُونَ يَعْلَمُوا بِأَثْنَيْنِ﴾، فكتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين، ثم نزلت: ﴿أَلَنْ حَقَّقَ اللَّهُ عَنَّكُمْ...﴾ الآية فكتب أن لا تفر مائة من مائتين [رواه البخاري وأبو داود].

(١) نيل الأوطار، للشوكاني: ٤٩/٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

وعن ابن عمر قال: (كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فصاص الناس صبيصة^(١)) وكنت ممن صاص فقلنا: كيف تصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لودخلنا المدينة فبتنا، ثم قلنا: لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلاً ذهبنا، فأتيه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: من الفرارون؟ فقلنا: نحن الفرارون قال: بل أنتم العكارون^(٢). أنا فتتكم وفئة المسلمين، قال: (فأتيناه حتى قبلنا يده) [رواه أحمد وأبو داود]^(٣).

وهذا الشعور من هؤلاء يدل على أن خلق الثبات والصبر وعدم الفرار صار من أخلاق المجاهدين من أصحاب النبي رضوان الله عليهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصي بالصبر والمصابرة فكتب إليه أبو عبيدة بن الجراح يذكر له جموعاً من الروم، وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد: فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجاً، وأنه لن يغلب عسر يسرين، وأن الله يقول في كتابه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِيرُوا وَصَابِرُوا وَرَدَّ يَطُوا وَأَنْقُوا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤).

وقال عمر: (إذا لقيتم فلا تفروا)^(٤).

وكتب إلى عامل له: ثلاث من الكبائر: الجمع بين الصلاتين إلا من عذر، والفرار من الزحف، والنهي^(٥).

ولكن لا يعد من الفرار التحيز إلى فئة، والذي ذكر في قول النبي ﷺ: أنا

(١) أي حادوا حيدة.

(٢) إذا حاد الإنسان عن الحرب، ثم عاد إليها يقال قد عكر، وهو عاكر وعكار - انظر:

القاموس مادة عكر؛ ونيل الأوطار: ٨٠/٨.

(٣) الموطأ: ٤٤٦/٢.

(٤) المحلى: ٢٩٤/٧؛ وموسوعة فقه عمر: ص ٢٣٤.

(٥) سنن البيهقي: ١٦٩/٣.

فتنكم، فإذا وجد القائد أو المجاهد أن الانسحاب إلى مكان آخر لمعاودة القتال بصورة أحسن وأقوى فليس هذا من الفرار، وهذا يمثل الاستثناء المذكور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ ﴿١٦﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَلِّمُهُمْ دُبْرَهُمْ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحَرِّيًا إِلَيْنَا فَتَوَّافَقُوا فَكَيْفَ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيدُ ﴿١٧﴾﴾ (١).

وقد استعمل عمر رضي الله عنه أبا عبيد الثقفي على جيش، فحاض معركة غير متكافئة مع العدو، وظن أن انسحابه منها هو الفرار من الزحف، فاستمر فيها، فقتل هو وجيشه في أرض فارس، فقال عمر: رحم الله أبا عبيد، لو كان تحيز إليّ لكنت له فئة (٢) وقبل ذلك فعل خالد بن الوليد يوم مؤتة فلم يعده الرسول الله ﷺ فاراً من الزحف.

— الظهور بالقوة مع عدم الغرور: وذلك لإرهاب أعداء الله:

فعن جابر بن عتيك أن النبي ﷺ قال: «إن من الغيرة ما يحب الله ومن الغيرة ما يبغض الله، وإن من الخيلاء ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة في الريية، وأما الغيرة التي يبغض الله فالغيرة في غير الريية، والخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال، واختياله عند الصدقة، والخيلاء التي يبغض الله فاختيال الرجل في الفخر والبغي» [رواه أحمد وأبو داود والنسائي] (٣).

فإذا كان الاختيال لتحقيق الرهبة، عند العدو وتنشيط المجاهدين فهذا من الخلق المطلوب في الجهاد، ومنه يقول النبي ﷺ لأبي دجانة رضي الله عنه لما رآه يختال عند القتال: «إن هذه مشية يبغضها الله ورسوله إلا في هذا الموطن» (٤).

(١) سورة الأنفال: الآيات ١٥، ١٦.

(٢) مصطفى عبد الرزاق: ٥/٢٥١؛ والمغني: ٨/٤٨٥؛ وموسوعة فقه عمر: ص ٢٣٥.

(٣) نيل الأوطار: ٨/٦٨.

(٤) المرجع السابق: ٨/٦٨.

— الرحمة ومظاهرها:

والمجاهد الذي خرج لإعلاء كلمة الله تتجلى أخلاقه في كل وقت، وخاصة في أوقات الشدة التي ترتكب فيها الحرمات، فإذا كان القتال مصحوباً بسفك الدماء، فإن خلق المجاهد في سبيل الله الرحمة لأنه لا يحب سفك الدماء — كما سبق — بل يضطر إليه اضطراراً للحفاظ على حياة الآخرين في أمن وسلام. ولذلك لا يتخلى عن الرحمة التي تمثل خلقاً عاماً له في وقت الحرب، ومن مظاهر هذه الرحمة عدم المثلة والتحريق، وقطع الشجر، وهدم العمران إلأى لحاجة.

فعن صفوان بن عسال قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فقال: سيروا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، ولا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً) [رواه أحمد وابن ماجه].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: إن وجدتم فلاناً وفلاناً لرجلين فاحرقوهما بالنار، ثم قال حين أردنا الخروج: إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وأن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما) [رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي وصححه].

وعن يحيى بن سعيد أن أبا بكر بعث جيوشاً إلى الشام فخرج جيش مع يزيد بن أبي سفيان، وكان يزيد أمير ربيع من تلك الأرباع فقال: إني موصيك بعشر خلال: لا تقتل امرأة ولا صبياً، ولا كبيراً هرمًا، ولا تقطع شجراً مثمرًا، ولا تخرب عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بغيرًا، إلا لمأكلة، ولا تعقرن نخلاً ولا تحرقه لا تغلل، ولا تجبن [رواه مالك في الموطأ عنه]^(١).

— الوفاء بالعهود والمواثيق:

وإذا أبدى العدو رغبته في الصلح فعلى المجاهدين أن يقبلوا الصلح — كما أشرنا — وعليهم الوفاء بما تم التعاقد عليه، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا

(١) نيل الأوطار: ٧٤/٨.

عَهْدُهُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ ﴿١﴾.

وإذا خاف المجاهدون من عدوهم خيانة فلا ينقضون عهدهم بل عليهم أن يخبروهم بانتهاك العهد الذي بينهم وبين عدوهم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قُوْمٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذُوا لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾ ﴿٢﴾.

— الشكر مع النصر وعدم اليأس عند الهزيمة ومحاسبة النفس فالمجاهد يعلم أن النصر من عند الله عندما يجعل المجاهد نفسه على المستوى الذي يؤهله لنصر الله استجابة لأمره وطاعة له واستغاثة به، وإعلاء لكلمته، وإخلاصاً في توجيهه، فإذا نصره الله شكر ولم يتكبر، وراقب نفسه وحاسبها حتى تظل على نقائها.

وإذا ابتلي بالهزيمة لتقصير وقع فيه، فإنه يحاسب نفسه أيضاً، ويستدرك أمره، ويثوب إلى رشده، ويجمع شمله ويتوكل على الله في جولة أخرى.

فهكذا يكون خلق المجاهد في الحالتين، وعلى هذا كان أصحاب رسول الله ﷺ وتقدم دليلاً على ذلك ما حدث في بدر وأحد.

ففي بدر كانت النتيجة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٣﴾.

ومع النصر ومع الشكر كان التوجيه القرآني الكريم الذي يعينهم على محاسبة النفس فكشف القرآن الكريم لهم ما كانوا يودونه من الحصول على أموالهم التي أخذها المشركون في مكة قبل الهجرة والأولى أن يجردوا خروجهم لكي يكون إعلاء لكلمة الله فحسب، وإحقاق الحق، وقطع دابر الكافرين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَبْعُدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّوكَ أَنَّ عِبْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ

(١) سورة النحل: الآية ٩١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٢٣.

تَكُونُ لَكُمْ وَرِيدُ اللَّهِ أَنْ مِيقَ الْحَقِّ يَكَلِّمَنِيهِ. وَيَقَطَعُ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾.

وكان التوجيه لهم كذلك بعد المعركة في تقسيم الأنفال، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بداراً فالتقى الناس، فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون وأكبت طائفة على الغنم يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها، وليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم أحق بها منا. نحن نحينا منها العدو وهزمناه وقال الذين أحدقوا برسول الله: خفنا أن يصيب العدو منه عشرة فاشتغلنا به فأنزل الله:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾، فقسمها رسول الله بين المسلمين (٢).

وفي الموقف من الأسرى استشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا رسول الله! هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان! وأنا أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر ولكن أرى أن تمكنتي من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب، فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوية للمشركين، وهؤلاء صنائديهم وأئمتهم وقادتهم.

(١) سورة الأنفال: الآية ٧.

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد والحاكم، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وانظر فقه السيرة، للأستاذ الغزالي: ص ٢٥٢.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر وهما يبكيان! فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تابكيت لبكائكما! فقال رسول الله ﷺ: للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء قد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة - وأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٧ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٨ ﴾ (١).

فكانت المحاسبة التي تدعو إلى معاقبة هؤلاء الكفار على أنهم مجرمو حرب لهم من الجرائم ما يستوجب القتل، وليس الفداء.

وأما أحد فإن حدوث الإنكار نتيجة المخالفة من الرماة مع ما كان من موقف المنافقين جعل المحاسبة مع التماسك النفسي يؤدي إلى معالجة الأمر والنهوض من الكبوة، وعالج القرآن الكريم كذلك هذه الكبوة بما يعينهم على النهوض والانتفاع مما وقع بهم فكان قوله تعالى في ذلك: ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْلِغَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ١١٧ ﴾ (٢).

وكان ذلك بياناً لما وقع من الرماة.

وقال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ١٢١ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٢٢ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٢٣ ﴾ (٣).

(١) سورة الأنفال: الآيات ٦٧، و ٦٨ والحديث صحيح أخرجه مسلم وأحمد والبيهقي من حديث عمر - وانظر فقه السيرة، للغزالي: ص ٢٥٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

(٣) سورة آل عمران: الآيات ١٣٧ - ١٣٩.

فكان مسحاً للأحزان ودفعاً إلى الأمام .

وقال تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذِيرٌ لِّهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (١).

ولما عجب المسلمون للكارثة وقد كانوا متقومين كان التنبيه على ما بدر من بعضهم: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قَلَّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

ولذلك بعد أن حدث ما حدث من انكسار رأى رسول الله ﷺ أن يعيد تنظيم رجاله على عجل وأن يتحامل الجريح مع السليم على تكوين جيش جديد يخرج في أعقاب قريش ليطاردها ويمنع ما قد يجد من تكرار عدوانها فكانت معركة أحد في يوم السبت لخمسـة عشر من شوال، وكان خروج هذا الجيش في الأحد لسته عشر منه، وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا «حمراء الأسد» .

وعسكر المسلمون بحمراء الأسد وفكر المشركون في القتال ولكنهم أثروا النجاة بأنفسهم وعادوا إلى مكة، وعاد المسلمون إلى المدينة ليدخلوها أرفع رؤوساً وأعز جانباً (٣).

ونزلت الآيات الكريمة: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٤) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِيَارِهِمْ فَأَتَى الْفِيلَ أَلْحَبُ وَقَامُوا بِهِم بِطِرَاحِ شَهْرِ رَبِيعٍ فَأُجِزُوا فَأَخَذُوا الْفِيلَ ﴿١٧٣﴾ لَمَّا يَمَسُّنَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ الضَّرْبَ وَاللَّهُ دُؤُوبُ فَضَلَّ عَظِيمٌ﴾ (٤).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٠ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٥ .

(٣) انظر تفصيل ذلك في فقه السيرة، للغزالي: ٢٩١، و ٢٩٢ .

(٤) سورة آل عمران: الآيات ١٧٢ - ١٧٤ .

– ومن الأخلاق الجامعة التي لا غنى للمجاهد عنها الطاعة الكاملة لله ورسوله والتزوه عن المعاصي التي تكون سبباً في سخط الله وغضبه. وقد تنبه القادة المسلمون إلى أهمية هذا الخلق فأوصوا به جيوشهم فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد فيقول: (أما بعد: فإني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيذة في الحرب، وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم الله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عدونا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوتنا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً، أسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم أسأل الله ذلك لنا ولكم^(١).

الجهاد والإرهاب:

وإذا كان الجهاد في الإسلام ملتزماً بهذا الخلق الكريم في الطاعة والرحمة بمظاهرها من عدم المثلة والكف عن المرأة والصبي والراهب ومن لا يباشر القتال، والمحافظة على العمران، وإذا كانت غايته إعلاء كلمة الله التي يتحقق بها الأمن والسلام الحقيقي لجميع البشر فكيف يقرن

(١) فقه السنة، للأستاذ سيد سابق: ٢/٦٤٢.

الجهاد بالإرهاب بالمعنى الذي يكون معه من التخريب والإفساد في الأرض؟! إن الإرهاب المذكور مع إعداد القوة هو - كما بيّنا - إرهاب أعداء الله المفسدين في الأرض، وليس الإرهاب الذي يعيث في الأرض فساداً، ويهلك الحرث والنسل، فإن الله سبحانه لا يحب الفساد، وما شرع الجهاد إلاّ لدفع الفساد.

الفصل الرابع الآثار المترتبة على الجهاد

وإذا وضعت الحرب أوزارها فإنها تنتج مجموعة من الآثار التي تتصل بالمجاهدين والمحاربين، وسيراً على قواعد الحق والعدل التي أرساها الإسلام وجدنا فقهاءنا وعلماءنا قد وضعوا لها المصطلحات المناسبة وعالجوا فيها ما لنا وما علينا، ولذلك سنذكر من هذه الآثار ما يتعلق بالمصطلحات الآتية:

دار الإسلام، ودار الحرب.

والمعاهدون وما يجب عليهم من واجبات ليستمتعوا بما لهم من حقوق.

والهدنة والأمان الحربي والصلح، والغنائم وأحكامها (الأموال المنقولة – الأسارى الأرض)، وتوجيهات الإسلام في حالة وقوع الهزيمة بالمسلمين.

دار الإسلام ودار الحرب:

الدنيا كلها – كما يذكر الإمام الشافعي رحمه الله – بحسب الأصل دار واحدة^(١). وأرض الله الواسعة لخلق الله جميعاً واحدة، لا يحظر على أحد مكان منها إلا بسبب يوجب ذلك – على ما فصل في أبواب الفقه.

فالكفر من الأسباب التي تجعل من بلاد الإسلام تجاه الكفار ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الحرم فلا يدخله الكافر ذمياً كان أو مستأماً ودليل ذلك قوله

(١) انظر تأسيس النظر، للدبوسي: ص ٥٨. وانظر العلاقات الدولية في الإسلام، د. وهبة الزحيلي: ص ١٠٤.

تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(١).

وبه قال الشافعي، وأحمد، ومالك. وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم بإذن الإمام أو الخليفة أو نائبه في الحكم، ويقيم فيه مقام المسافر ولا يستوطنه.

ويجوز عند أبي حنيفة دخول الواحد منهم الكعبة - أيضاً - [فقه السنة ٢/٦٧٠ و ٦٧١ وانظر المغني لابن قدامة ٨/٥٣١].

القسم الثاني: الحجاز: ولا يجوز لأحد منهم سكن الحجاز وبهذا قال مالك والشافعي إلا أن مالكا قال: أرى أن يجلووا من أرض العرب كلها لأن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب».

وروى أبو داود بإسناده عن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلماً» قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

وعن ابن عباس قال: أوصى رسول الله ﷺ بثلاثة أشياء قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم وسكت عن الثالث [رواه أبو داود].

وجزيرة العرب ما بين الوادي إلى أقصى اليمن قاله سعيد بن عبد العزيز وقال الأصمعي وأبو عبيد: هي من ريف العراق إلى عدن طولاً، ومن تهامة وما وراءها إلى أطراف الشام عرضاً، وقال أبو عبيدة: هي من حضر أبي موسى إلى اليمن طولاً ومن رمل برين إلى منقطع السماوة عرضاً.

قال الخليل: إنما قيل لها جزيرة: لأن بحر الجيش وبحر فارس والفرات قد أحاطت بها ونسبت إلى العرب لأنها أرضها ومسكنها ومعناها.

(١) سورة التوبة: الآية ٢٨.

وقال أحمد: جزيرة العرب المدينة وما والاها. يعني أن الممنوع من سكني الكفار المدينة وما والاها. وهو مكة واليمامة وخيبر والينبع وتذك ومخاليقها. وما والاها، وهذا قول الشافعي لأنهم لم يجلو من تيماء ولا من اليمن، وقد روي عن أبي عبيدة بن الجراح أنه قال: إن آخر ما تكلم به النبي ﷺ أنه قال: «أخرجوا اليهود من الحجاز» فأما إخراج أهل نجران منه فلأن النبي ﷺ صالحهم على ترك الربا فنقضوا عهده، فكان جزيرة العرب في تلك الأحاديث أريد بها الحجاز، وإنما سمي حجازاً لأنه حجز بين تهامة ونجد ولا يعمنون - أيضاً - من أطراف الحجاز كتيماء وفيد ونحوهما، لأن عمر لم يمنعهم من ذلك.

ويجوز لهم دخول الحجاز للتجارة لأن النصارى كانوا يتجرون إلى المدينة في زمن عمر رضي الله عنه، وأتاه شيخ بالمدينة فقال: أنا الشيخ النصراني، وإن عاملك عشرين مرتين فقال عمر: وأنا الشيخ الحنيف وكتب له عمر أن لا يعشروا في السنة إلا مرة، ولا يأذن لهم في الإقامة أكثر من ثلاثة أيام على ما روي عن عمر رضي الله عنه ثم ينتقل عنه وقال القاضي: يقيم أربعة أيام حد ما يتم المسافر الصلاة والحكم في دخولهم إلى الحجاز في اعتبار الإذن كالحكم في دخول أهل الحرب دار الإسلام، وإذا مرض بالحجاز جازت له الإقامة لأنه يشق الانتقال على المريض وتجوز الإقامة لمن يمرضه لأنه لا يستغنى عنه، وإن كان له دين على أحد وكان حالاً أجبر غريمه على وفائه فإن تعذر وفائه لمطل أو تغيب عنه فينبغي أن يمكن من الإقامة ليستوفى دينه، لأن التعدي من غيره، وفي إخراجه ذهاب ماله، وإن كان الدين مؤجلاً لم يمكن من الإقامة، ويوكل من يستوفيه له، لأن التفريط منه، وإن دعت الحاجة إلى الإقامة لبيع بضاعته، احتمال أن يجوز لأن في تكليفه تركها أو حملها معه ضياع ماله، وذلك مما يمنع من الدخول بالبضائع إلى الحجاز ففتوت مصلحتهم وتلحقهم المضرة بانقطاع الجلب عنهم، ويحتمل أن يمنع من الإقامة لأن له من الإقامة بدأ، فإن أراد الانتقال إلى مكان آخر من الحجاز جاز، ويقيم فيه أيضاً ثلاثة أيام أو أربعة الخلاف فيه، وكذلك إذا انتقل فيه إلى مكان آخر جاز ولو حصلت الإقامة في الجميع شهراً وإذا مات

بالحجاز دفن به لأنه يشق نقله، وإذا جازت الإقامة للمريض فدفن الميت أولى [المغني لابن قدامة ٥٢٩/٨ و ٥٣١].

ولا يخفى ما في هذه الأحكام من سماحة وحرص على تحقيق المصالح، وتأكيده لإقرار الإسلام لمبادئ الحق في العلاقات بين الناس.

القسم الثالث: سائر بلاد الإسلام، ويجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة، ولكن لا يدخلون المساجد إلا بإذن مسلم عند الشافعي، وقال أبو حنيفة: يجوز دخولها لهم من غير إذن.

وقال مالك وأحمد: لا يجوز لهم الدخول بحال^(١).

ومن هذه الأسباب قيام الحرب، وما يتبناها من آثار فيحظر على المسلم أن يقيم في دار فيها القتال بينهم وبين المسلمين لما يترتب على ذلك من تعريضهم للمخاطر والقتل، فعن جرير بن عبد الله (أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم العقل فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل، وقال: أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين قالوا يا رسول الله: ولم؟ قال: «لا تتراءى ناراهما»). [رواه أبو داود والترمذي وأخرجه أيضاً ابن ماجه ورجال إسناده ثقات ولكن صحح البخاري وأبو حاتم وأبو داود والترمذي والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم ورواه الطبراني موصولاً].

ومعنى «لا تتراءى ناراهما» يعني لا ينبغي أن يكونا بموضع بحيث تكون نار كل واحد منهما في مقابلة الأخرى على وجه لو كانت متمكنة من الأبصار لأبصرت الأخرى^(٢).

فإذا كان وجود المسلم في دار يكون مستضعفاً فيها أو معرضاً للفتنة، أو معرضاً للقتل حظرت عليه هذه الدار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي

(١) انظر فقه السنة: ٢/٦٧٢.

(٢) نيل الأوطار: ٨/١٧٦، و ١٧٧.

أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا . . . الآية .

فهذا في حق من أسلم في دار الكفر وقدر على الخروج منها . إلا أن الماوردي رحمه الله يرى أنه إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام فالإقامة فيها أفضل من الرحلة عنها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام^(١) .

فالماوردي نظر إلى المقيم على أنه من الدعاة وعلى ذلك لم يره مخالفاً للنهي عن الإقامة في دار الكفر .

وعلى هذا نجد تقسيم العلماء للأرض على القسمين : دار الإسلام ودار الحرب – نشأ من الآثار المترتبة على وقوع الحرب .

فأما دار الإسلام فيقصد بها البلاد التي تحكم بالإسلام وتظهر فيها شعائره ويأمن فيها المسلمون .

ومثل هذه الدار يحافظ عليها ويرد العدوان عنها بالجهاد باعتباره فرض كفاية أو فرض عين^(٢) .

وأما دار الحرب فهي البلاد التي لا تحكم بالإسلام ولا تظهر فيها شعائره فالسلطان فيها لغير المسلمين .

وينشأ كذلك من آثار الحرب وجود دار ثالثة تسمى بدار العهد : وهي الدار التي لم يظهر عليها المسلمون حتى تطبق فيها أحكام الإسلام ولكن أهلها دخلوا في عقد المسلمين وعهدهم على شرائط تشترط وقواعد تعين فهذه تسمى بدار العهد^(٣) .

(١) المرجع السابق : ١٨/٨ .

(٢) انظر العلاقات الدولية في الإسلام ، د . وهبة الزحيلي : ص ١٠٤ ، و ١٠٥ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٠٧ .

وهي دليل على ما قرناه - من أن الإسلام لا يكره أحداً على اعتناقه وأن الجهاد لإزالة المعوقات التي تقف في طريق نشر الدعوة أمام العالمين وتبليغها.

والذي ينظر فيما اتجه إليه الإسلام في معاملة المعاهدين يتأكد من هذا المعنى لقد فصل الإسلام في الحقوق والواجبات التي تتعلق بالمعاهدين على النحو التالي:

أولاً: التحذير من نقض العهود بصورة عامة.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَصْعَلُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (٢).

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به» [متفق عليه].

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدرة، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة» [رواه أحمد ومسلم].

يقول الشوكاني معلقاً على الحديثين: «وفي حديث أنس وحديث أبي سعيد دليل على تحريم الغدر وغلظه لا سيما من صاحب الولاية العامة لأن غدرة يتعدى ضرره إلى خلق كثير، ولأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء، قال القاضي عياض: المشهور أن هذا الحديث ورد في ذم الإمام إذا غدر في عهده لرعيته أو لمقابلته أو للإمامة التي تقلدها والتزم القيام بها فمن حاف فيها أو ترك الرفق فقد غدر بعهده...» (٣) فالغدر ونقض العهد من الأخلاق المذمومة والتي حذر الإسلام منها بصورة عامة.

(١) سورة النحل: الآية ٩١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(٣) نيل الأوطار: ١٨٠/٨ و ١٨١.

ثانياً: المعاهدون الذين قبلوا شروط المسلمين ودخلوا في الطاعة قبل الحرب أو أثناء الحرب يعاملون طبقاً لشروط الصلح التي أبرمت معهم يقول النبي ﷺ: «لعلكم تقاتلون قوماً فتظاهرون عليهم فيفتونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم».

وفي حديث آخر: «فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم»^(١).

ويقول النبي ﷺ: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة» [رواه أبو داود]^(٢).

وكما يذكر الأستاذ المودودي تعليقاً على الحديثين: «واللفاظ هذين الحديثين ألفاظ عامة تستنبط منها حكم عام وهو: لا يجوز أبداً الإخلال بأية شروط تم الاتفاق عليها في المعاهدة المبرمة مع أي معاهد ذمي، ولا يمكن زيادة الضرائب عليه أو الاستيلاء على أرضه، أو سلب داره، ولا يمكن تطبيق قوانين عسكرية عليه، أو التدخل في دينه، أو المساس بشرفه ولا يمكن ارتكاب أي عمل يدخل في حدود الظلم كالانتقاص من قدره أو تحميله ما لا يطاق»^(٣).

وهذه نماذج من المعاهدات التي تبين ما للمعاهدين وما عليهم، فهذه معاهدة نجران وقعت حين دخل العرب جميعاً في الإسلام، وخشي أهل نجران على أنفسهم فأرسلوا سيدهم يطلب الصلح فعقدت معه تلك المعاهدة، وجاء فيها بعد أن حدد الرسول ﷺ مقدار الخراج:

«ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم، وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وغيرهم وبعثهم وأمثلتهم (الصلبان

(١) أبو داود كتاب الجهاد، انظر شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، للمودودي: ص ٢١٣ و ٢١٤.

(٢) الخراج: ص ٣٥؛ والمرجع السابق: ص ٢١٤.

(٣) انظر شريعة الإسلام في الجهاد، للمودودي: ص ٢١٤.

والصور وغيرها مما هو موضوع في الكنائس) لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حقاً من حقوقهم وأمثلتهم، لا يفتن أسقف عن أسقفية ولا راهب عن رهبانته ولا دهقان عن دهقانيته على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطاء أرضهم جيش من سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين بنجران ومن أكل منهم الربا من ذي قبل فدمتي منه بريئة ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر، ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبداً حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم»^(١).

وهذه المعاهدة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه عقدها خالد بن الوليد رضي الله عنه مع أهل الحيرة قرر فيها خراجاً سنوياً قدره ستون ألف درهم على جميع السكان، تصرف على المحتاجين والفقراء، ثم عشرة دراهم على كل شخص من بقية السكان، وفي مقابل ذلك تتعهد الحكومة الإسلامية بما يلي:

«لا تهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصر من قصورهم التي كانوا يتحصنون فيها إذا نزل بهم عدو لهم، ولا يمنعون من ضرب النواقيس ولا من إخراج الصلبان في يوم عيدهم»^(٢)، ويقول الإمام أبو يوسف إن عمر رضي الله عنه قد نفذ هذه المعاهدة^(٣).

وهذه المعاهدة أبرمها عمر رضي الله عنه مع أهل القدس «أعظاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريها وسائر ملتها أن لا يسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبيهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم».

وهذا نص المعاهدة التي أبرمها عمر رضي الله عنه مع أهل دمشق:

(١) شريعة الإسلام في الجهاد، للمودودي: ص ٢١٥.

(٢) انظر شريعة الإسلام في الجهاد، للمودودي: ص ٢١٦.

(٣) المرجع السابق، وانظر الخراج: ص ٨٤.

«أعطاهم أماناً على أنفسهم وعلى أموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم، ولهم بذلك عهد الله وذمة رسوله... لا يعرض لهم إلاً بخير إذا أعطوا الجزية». وهذه معاهدة أخرى عقدها خالد بن الوليد مع أهل عاتات: «لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلاً في أوقات الصلاة، وعلى أن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم».

والمعاهدة التي عقدها أبو عبيدة مع أهل بعلبك جاء فيها: «هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى أرحامهم... من أسلم فله ما لنا وعليه ما علينا ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى من أقام منهم الجزية والخراج».

وكتب حبيب بن مسلمة في معاهدة الصلح مع أهل ديبيل: «هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لنصارى أهل ديبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم أنني أمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعتكم وسور مدينتكم فأنتم آمنون وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وقيتم وأديتم الجزية والخراج».

وكتب حذيفة بن اليمان في معاهدة الصلح مع أهل أذربيجان: (الأمان على أنفسهم وأموالهم وملكهم وشرائعهم).

وكتب حذيفة كذلك - في معاهدة الصلح مع أهل جرجان: مد لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وملكهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك»^(١).

فهذه المعاهدات تتطبق بما ألزم الإسلام به أتباعه من الوفاء بالعهد وأن ما يشترط في المعاهدات هو الحق والعدل والمساواة وليس فيها إلاً ما يغري من عقل باتباع الحق والدخول في دين الله يغمر الجميع بعدله وسماحته. ونستطيع أن نجعل ما جعله الإسلام من حقوق المعاهدين إذا نصحوا ووفوا والتزموا فيما يلي:

(١) انظر المعاهدات في شريعة الإسلام في الجهاد، للمودودي: ص ٢١٦ و ٢١٧.

١ - حماية النفس والمال والعرض من أي اعتداء سواء من المسلم أو غيره، ووفاء الخليفة المسلم بذلك فهذا عمر كان بالجائية وأتاه رجل من أهل الذمة يخبره أن الناس قد أسرعوا في عنبه فخرج عمر حتى لقي رجلاً من أصحابه يحمل ترساً عليه عنب، فقال عمر: وأنت أيضاً؟! فقال: يا أمير المؤمنين أصابتنا مجاعة، فانصرف عمر، فأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه^(١).

٢ - إذا غزا العدو بلاد المسلمين فغنم شيئاً من أموال أهل الذمة ثم أظهر الله المسلمين على عدوهم واستردوا هذه الأموال فعليهم إعادتها إلى أصحابها من أهل الذمة دون مقابل^(٢).

٣ - لهم الحق في المحافظة على عقائدهم الدينية وممارسة عباداتهم، وعلاقاتهم الشخصية بينهم كالزواج وغيره حسب دياناتهم^(٣).

٤ - لهم أن يمارسوا من عاداتهم ما لا يتعارض مع آداب الإسلام العامة فعن عبد الله بن قيس قال: كنت فيمن تلقى عمر مقدمه من الشام، فبينما عمر يسير إذ لقيه المقلسون - وهم الذين يلعبون بلعبة لهم بين يدي الأمراء إذا قدموا إليهم - من أهل أذرعات بالسيوف والريحان، فقال عمر: صه، ردوهم وامنعوهم، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سنة العجم، وإنك إن تمنعهم منا يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم، فقال عمر: دعوهم^(٤).

ويظل لهم الوفاء بما كلفه الإسلام من هذه المعاملة الكريمة ما لم ينقضوا عهدهم بأمر من الأمور التي تدل على تمرد ونكوص عن أداء ما يجب عليهم من

(١) الأموال: ص ١٥١ .

(٢) موسوعة فقه عمر، دكتور محمد رواس قلجعي: ص ٣٢٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) الأموال: ص ١٥٢ ؛ والمرجع السابق: ص ٣٢٤ .

حق مالي للدولة، أو تنفذ ما يحكم به الحاكم، أو الاجتماع على قتال المسلمين منهم، أو بالظاهر مع أهل الحرب، أو الغدر، أو انتهاك حرمة أحد من المسلمين، أو الطعن على المسلمين في دينهم أو رسولهم ﷺ أو كتابهم أو ربهم سبحانه، قيل لابن عمر رضي الله عنه: (إن راهباً يشتم النبي ﷺ فقال: لو سمعته لقتلته، إننا لم نعطه الأمان على هذا)^(١).

الهدنة:

ومن الآثار المترتبة على الجهاد كذلك أن يطلب الأعداء ترك القتال فترة من الفترات قد تنتهي إلى صلح، وهذا يسمى بعقد الهدنة والموادعة إذا تم الاتفاق عليه، بل يضعها الإسلام موضع الوجوب في حالين يدلان على حرص الإسلام على إرساء السلم الدولي - كما أشرنا من قبل - .

أما الحالة الأولى فتكون مع طلب العدو فيجب أن يجاب إلى طلبه عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾^(٢).

وقد هادن الرسول ﷺ مشركي مكة ووادعهم مدة عشر سنين في غزوة الحديبية وكان ذلك حقناً للدماء ورغبة في السلم^(٣)، فعن البراء رضي الله عنه قال: (لما أحصر النبي ﷺ عن البيت صالحه أهل مكة على أن يدخلها فيقيم ثلاثاً، ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح، السيف وجرابه^(٤))، ولا يخرج بأحد معه من أهلها، ولا يمنع أحداً يمكث بها ممن كان معه).

(١) فقه السنة: ٢/ ٦٧٠.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٦١ و ٦٢.

(٣) فقه السنة: ٢/ ٦٥٩.

(٤) بيان لجلبان السلاح.

قال (الرسول ﷺ) لعلي: أكتب الشرط بيننا: بسم الله الرحمن الرحيم^(١): «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال له المشركون: «لو نعلم أنك رسول الله تابعناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فأمر علياً أن يمحوها فقال: «لا والله لا أمحوها» فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها» فأراه مكانها فمحاها وكتب ابن عبد الله، فأقام بها ثلاثة أيام.

فلما كان اليوم الثالث، قالوا لعلي:

هذا آخر يوم من شرط صاحبك، فمره فليخرج فأخبره بذلك، فقال: «نعم» فخرج.

وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنه، أنهم اصطلحوا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، وعلى أن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال^(٢).

والحالة الثانية التي تجب فيها المهادنة: الأشهر الحرم فلا يحل فيها البدء بالقتال إلا إذا بدأ فيها العدو بالقتال، فإنه يكون دافعاً للاعتداء، أو جاء وقت الأشهر الحرم وكان القتال مستمراً ولم يستجب العدو لقبول المهادنة فيها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كَتَبِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ الْقِيَمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٣).

الأمان:

ومن الآثار المرتبة على الجهاد – كذلك – أن يطلب فرد من الأعداء

(١) وفي رواية: ما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن أكتب ما نعرف: باسمك اللهم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود، والعيبة دعاء الثياب، ومكفوفة مربوطة محكمة، ولا أسلال ولا أغلال: أي لا سرقة ولا خيانة – انظر فقه السنة: ٢/٦٦٠.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٦.

المحاربين الأمان وعندئذ يقبل منه ويصير آمناً، لا يجوز الاعتداء عليه في أي صورة من صور الاعتداء.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا أَمَرَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

فطالب الأمان قد يطلبه لأغراض شتى يحسن أن نتعرف عليها وكيف عوامل فيها، فقد يطلب الأمان ليتعرف على الإسلام، وهذا يبذل له الأمان ويدخل بلاد المسلمين، ويطلع على الإسلام، وإن شاء دخل فيه وأقام في بلاد المسلمين، وإن شاء بقي على دينه وأقام في بلاد المسلمين إقامة دائمة - إن وافق إمام المسلمين على ذلك، وعندئذ يعقد له عقد الذمة، الذي سبقت الإشارة إليه - ويدفع الجزية، وإن أراد العودة إلى بلاده سهل له ذلك، عملاً بالآية الكريمة السابقة (٢).

- وقد يطلب الأمان ليتمكن من الدخول إلى بلاد المسلمين للتجارة. وهذا متروك الإذن فيه لأمر المؤمنين فإن شاء سمح له بذلك، وعندئذ يلزم بدفع العشر إلى الدولة الإسلامية، كما تحدد مدة إقامته فيها، وقد مر بنا ما قاله شيخ نصراني لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب وهو بالمدينة المنورة، فقال له: أنا الشيخ النصراني، وإن عاملك عشرين مرتين، فقال عمر: وأنا الشيخ الحنيف، وكتب إليه عمر أن لا يعشروا في السنة إلا مرة، ولا يؤذن لهم في الإقامة أكثر من ثلاثة أيام. أي في الإقامة في الحجاز.

- وقد يطلب الأمان ليلبغ أمير المؤمنين رسالة يحملها إليه من أمير بلاده، وهذا يعامل معاملة الرسل وقد حدث أن أرسل مسيلمة الكذاب برسولين إلى رسول الله ﷺ يحملان كتاباً منه جاء فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد: فإني قد أشركت بالأمر معك، وإن لنا نصف

(١) سورة التوبة: الآية ٦.

(٢) انظر موسوعة فقه عمر: ص ١٢٠؛ وانظر فقه السنة: ٦٩٤/٢.

الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون فقال رسول الله للرسولين حين قرأ الكتاب: فما تقولان أنتما؟ قالوا: نقول كما قال. فقال رسول الله: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما [أخرجه أحمد وأبو داود من حديث نعيم بن مسعود].

وأوفدت قريش أبا رافع إلى رسول الله ﷺ فوقع الإيمان في قلبه فقال: يا رسول الله لا أرجع إليهم، وأبقى معكم مسلماً. فقال الرسول ﷺ: «إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد فأرجع إليهم آمناً، فإن وجدت بعد ذلك في قلبك ما فيه - الآن - فأرجع إلينا» [أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان وصححه].

- وقد يطلب الأمان ليحفظ دمه. فإن أعطى الأمان في صورة من هذه الصور وغيرها فقد عصم دمه من أن يراق، وحفظ ماله من أن يسلب، وشخصه من أن ينال بأذى، ودينه من أن يكره على تركه، فإن تعرض له أحد بشيء من ذلك عوقب.

فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه بلغه أن بعض المجاهدين قال لمحارب من الفرس: (لا تخف، ثم قتله، فكتب رضي الله عنه إلى قائد الجيش: أنه بلغني أن رجلاً منكم يطلبون العليج حي إذا اشتد في الجبل وامتنع يقول له: (لا تخف) فإذا أدركه قتله! وإني والذي نفسي بيده لا يبلغني أن أحداً فعل ذلك إلاً قطعنت عنقه).

وروى البخاري في التاريخ، والنسائي عن النبي ﷺ قال: «من أمن رجلاً على دمه فقتله، فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً».

وروى البخاري ومسلم وأحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة».

وهذا الأمان الفردي أعطاه الإسلام للرجال والنساء فمن حق أي فرد أن

يؤمن أي فرد من الأعداء يطلب الأمان باستثناء الصبيان والمجانين. روى أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، وهم يد على من سواهم» وروى البخاري وأبو داود والترمذي عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها أنها قالت: قلت يا رسول الله! زعم ابن أم علي أنه قاتل رجلاً قد أجرته فلان (ابن هبيرة)، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجزت يا أم هانئ»^(١).

وأما الأمان الذي يعطى للجماعة فإنه من شأن أمير المؤمنين لتحري المصلحة ولو جعل ذلك لآحاد الناس لصار ذريعة إلى إبطال الجهاد^(٢). ويتقرر الأمان صورة بأي من الصور التي تدل عليه بالعبارة، أو الإشارة، فلما حاصر المسلمون «تستر» ونزل الهرمزان على حكم عمر بعث به أبو موسى الأشعري على وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس إلى عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا هرمزان، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله، فقال: يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية، كان الله قد خلى بيننا وبينكم، فغلبناكم، إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا، فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفترقنا... ثم قال: ما عندك وما حجتك في إنقاضك مرة بعد مرة؟ فقال أخاف أن تقتلني قبل أن أخيرك، قال: لا تخف ذلك، فاستقى الهرمزان ماء - فأتي به في قده غليظ، فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في هذا، فأتي به في قده آخر يرضاه، فلما أخذه جعلت يدها ترتعد، وقال: إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه، فقال عمر: أعيدوه عليه، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش، فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأنس، فقال له عمر: إني قاتلك، فقال: إنك أمتني، قال: كذبت، فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ويحك يا أنس، أنا أؤمن من قتل معجزة والبراء؟! قال: قلت لا بأس عليك حتى تخبرني، وقلت

(١) فقه السنة: ٦٩٤/٢ و ٦٩٥.

(٢) الروضة الندية: ص ٤٠٨؛ وانظر فقه السنة: ٦٩٦/٢.

لا بأس عليك حتى تشرب، وقال له من حوله مثل ذلك، فامتنع عمر عن قتله ثم أسلم الهرمزان^(١).

ويبقى المستأمن مستحقاً بحقه في الأمن ما دام محافظاً على الأمن والنظام العام ولم يخرج عليهما بأن يكون عيناً أو جاسوساً، وتطبق عليه القوانين الإسلامية في المعاملات المالية، وكذلك العقوبات^(٢).

وإذا عاد إلى دار الحرب فإنه يبطل الأمان بالنسبة لنفسه ويبقى بالنسبة لماله قال ابن قدامة في المغني: (إذا دخل حربي دار الإسلام بأمان فأودع ماله مسلماً أو ذمياً أو أقرضهما إياه، ثم عاد إلى دار الحرب نظرنا فإن دخل تاجراً، أو رسولاً، أو متنزهاً أو لحاجة يقضيها، ثم يعود إلى دار الإسلام، فهو على أمانه في نفسه، وماله، لأنه لم يخرج بذلك عن نية الإقامة في دار الإسلام، فأشبه الذمي لذلك، وإن دخل دار الحرب مستوطناً، بطل الأمان في نفسه وبقي في ماله، لأنه بدخوله في دار الإسلام بأمان، ثبت الأمان لماله، فإذا بطل الأمان في نفسه بدخوله دار الحرب، بقي في ماله، لاختصاص المبطل بنفسه فيختص البطلان به)^(٣).

وبعد أن تناولنا المعاهدين، والهدنة والأمان باعتبارها من آثار الجهاد نشير إلى أنه قد انعقد الصلح بين المسلمين وبين أقوام دون حصار، كما صالح عمر بني تغلب، فقد قال له عبادة بن النعمان التغلبي، أو أبوه، يا أمير المؤمنين، إن بني تغلب قد علمت شوكتهم، وأنهم بإزاء العدو، فإن ظاهرنا عليك العدو اشتدت مؤونتهم، فإن رأيت أن تعطيتهم شيئاً فافعل، فصالحهم عمر على ألا يغمسوا أولادهم في النصرانية، ويضاعف عليهم الصدقة^(٤).

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٨٧/٧؛ والأموال: ص ١١٣؛ والمغني: ٤٨٩/٨ و ٣٩٨؛

وسنن البيهقي: ٩٦/٩؛ وانظر موسوعة فقه عمر: ص ١٢١.

(٢) فقه السنة: ٦٩٨/٢.

(٣) المغني: ٤٠٠/٨ و ٤٠١.

(٤) موسوعة فقه عمر: ص ٣١٨.

كما يجوز أن يتضمن عقد الصلح أموراً أخرى يتم الاتفاق عليها بين الطرفين.

الغنائم:

ومن الآثار المترتبة على الجهاد كذلك ما يتعلق بالغنائم.

والغنائم جمع غنيمة، وهي في اللغة ما يناله الإنسان بسعي، قال الشاعر:
وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
وشرعاً تطلق الغنيمة على المال المأخوذ من أعداء الإسلام عن طريق الحرب والقتال وتشمل الأنواع الآتية:

١ - الأموال المنقولة.

٢ - الأسرى.

٣ - الأرض.

وتسمى - كذلك - الأنفال - جمع نفل - لأنها زيادة في أموال المسلمين^(١).

والمال المأخوذ من الأعداء كان يقسم من قبل الإسلام على المحاربين على الطريقة التي ذكرها أحد الشعراء بقوله مخاطباً رئيس القوم:

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول
فإن المرباع وهو الربع من الغنيمة، وما يستحسنه ويصطفيه
لنفسه (الصفايا)، وما يحكم به وما يقع في أيدي المقاتلين قبل الموقعة
(النشيطه)، وما يفضل بعد القسمة (الفضول).

ولكن بعد أن من الله على الناس بالإسلام وأصبح الجهاد محكوماً بأسسه
ووسائله وغاياته التي فصلنا القول فيها - لإحقاق الحق وإرساء قواعد العدل

(١) فقه السنة: ٦٧٣/٢.

وإحلال السلام - وخاصة أن مرحلة الجهاد الفرض كانت قد سبقت بمصادرة أموال المسلمين في مكة قبل المشركين وحوربوا اقتصادياً بالمقاطعة والمغلاة في الأسعار - أحل الله لهذه الأمة الغنائم، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وروى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأیما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وبعثت إلى الناس عامة».

كما إن الإسلام جعل من توزيعها ما يحقق النفع للأمة جميعاً، ففي أول تجربة مع الغنائم بعد غزوة بدر وقد ترك المشركون المنهزمون وراءهم أموالاً كثيرة تساءل المسلمون كيف تكون قسمة هذه الأموال وكانت إجابة القرآن الكريم في أن تقسيم الغنائم يرجع إلى الله سبحانه وإلى رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٢).

وقال تعالى في بيان هذه القسمة: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُمُ وَاللرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَقُّ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).

فخمس الغنيمة يصرف على المصارف التي ذكرت في الآية الكريمة وهي: الله ورسوله وذو القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

فذكر الله سبحانه وتعالى في بيان المصارف تنبيه إلى أن ما يخص رسول الله ﷺ سيكون له ولغيره من الأمة فإن الرسول ﷺ يؤثر أمته - دائماً - ويتضح هذا المعنى من حديث النبي ﷺ والذي رواه أبو داود والنسائي عن عمرو بن عبسة قال:

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٩.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(صلى بنا الرسول ﷺ إلى بعير من المغنم، ولما سلم أخذ وبرة من جنب البعير)، ثم قال:

«لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلاّ الخمس، والخمس مردود فيكم». ومعنى الرد فيهم أن ينفق منه على الفقراء وفي الإعداد للجهاد. فهذا مصير الخمس في الأصناف المذكورة. وأما الأربعة الأحماس الباقية فتعطى للجيش.

ويشترك في العطاء الجميع القوي منهم والضعيف، روى أحمد رحمه الله عن سعد بن مالك قال: (قلت: يا رسول الله، الرجل يكون حامياً القوم، ويكون سهمه وسهم غيره سواء؟ قال: ثكلتك أمك ابن أم سعيد، وهل ترزقون وتنصرون إلاّ بضعفاً لكم).

ولكن يبقى للأمير أن يقدر من بذل جهداً أكبر فالنبي ﷺ كان يسهم للفارس وفرسه ثلاثة أسهم، وللراجل أي الذي قاتل على رجله سهماً^(١).

كما أن من غيبه الأمير في مصلحة كالبريد وغيره وإن لم يحضر الواقعة يستوي مع الحاضرين. فعن ابن عمر رضي الله عنهما: (أن النبي ﷺ قام يعني يوم بدر فقال: إن عثمان انطلق في حاجة الله وحاجة رسوله وأنا أبايع له فضرب له رسول الله ﷺ بسهم ولم يضرب لأحد غاب غيره) [رواه أبو داود].

وعن ابن عمر قال: (لما تغيب عثمان عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له النبي ﷺ: إن لك أجر رجل وسهم) [رواه أحمد والبخاري والترمذي وصححه]^(٢).

كما يجوز للإمام أن ينقل بعض الجيش ببعض الغنيمة إذا كان له من العناية والمقاتلة ما لم يكن لغيره^(٣).

(١) انظر فقه السنة: ٦٧٨/٢؛ وانظر نيل الأوطار للشوكاني: ١١٥/٨.

(٢) نيل الأوطار: ١١٩/٨.

(٣) المرجع السابق: ١٠٦/٨.

فمن سعد بن أبي وقاص قال: (جئت إلى النبي ﷺ يوم بدر بسيف، فقلت: يا رسول الله إن الله قد شفى صدري اليوم من العدو فهب لي هذا السيف، فقال: إن هذا السيف ليس لي ولا لك فذهبت وأنا أقول يعطاه اليوم من لم يبل بلائي فبينما أنا إذ جئني رسول رسول الله ﷺ فقال: أجب، فظننت أنه نزل في شيء بكلامي فجئت فقال لي النبي ﷺ: إنك سألتني هذا السيف وليس هو لي ولا لك وإن الله قد جعله لي فهو لك ثم قرأ: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ إلى آخر الآية. [رواه أحمد وأبو داود] (١).

وفي الوقت الذي تكون الغنيمة بهذا التقسيم العادل والذي يسع الجميع يأتي التحذير من الغلول وهو السرقة من الغنيمة قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٢).

وروى البخاري عن عبد الله بن عمرو قال: (كان على ثقل - أي متاع - النبي ﷺ رجل يقال له كركرة، فمات، فقال النبي ﷺ: «هو في النار» فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها» (٣).

الأسارى:

من الغنائم التي تكون كذلك بعد الحرب أن يقع في يد المجاهدين أسرى من المقاتلين أحياء.

وقد يكون من هؤلاء الأسرى النساء والصبيان.

فأما الرجال المقاتلون فإن الحاكم له الحق في أن يتصرف معهم بما يكون أولى بالحق وأنفع، فله أن يمن أو الفداء أو القتل والمن أن يطلق سراحهم بلا مقابل. والفداء يكون بالمقابل، وقد يكون المقابل مالاً وقد يكون تبادلاً بالأسرى المسلمين.

(١) نيل الأوطار: ١٠٥/٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦١.

(٣) نيل الأوطار: ١٣٦/٨.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمِرُكُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِيمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءَةٌ حَتَّىٰ تَصْعَقَ الْمَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنصِرَنَّ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ (١).

وقد من الرسول ﷺ على أهل مكة يوم الفتح وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وروى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ أطلق سراح الذين أخذهم أسرى، وكان عددهم ثمانين، وكانوا قد هبطوا عليه وعلى أصحابه من جبال التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم وفي هذا نزل قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ (٢).

وقد راعى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يقدمه بعض الأسرى من أعمال نافعة ومفيدة فعندما بعث أبا موسى الأشعري في بعض الغزوات فأصاب سبياً قال عمر: (خلوا سبيل كل أكار وزراع) (٣).

وأما شواهد الفداء العملية، فقد (فدى رسول الله ﷺ في بدر رجلين من أصحابه برجل من المشركين من بني عقيل) [رواه أحمد والترمذي وصححه].
ومعنى ذلك أن الفداء قد يكون بالمال وقد يكون بغيره — أيضاً — .

وأما القتل فإنه من حق الحاكم باعتبار القتل عقوبة يستحقها مجرمو الحروب الذين لا يناسبهم المن ولا الفداء وقد قتل النضر بن الحارث وعقبة بن معيط يوم بدر، وقتل أبو عزة الجمحي يوم أحد (٤) وفي هذا يقول الله سبحانه: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُنَجِّبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ

(١) سورة محمد: الآية ٤ .

(٢) الفتح: ٢٤ . وانظر نيل الأوطار: ١٤٠/٨ .

(٣) الأموال: ص ١٣٦ . وانظر موسوعة فقه عمر: ص ٧٤ .

(٤) انظر فقه السنة: ٦٨٦/٢ .

الْآخِرَةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ (١)

هذا ما يخص الرجال المقاتلين وأما النساء والصبيان فليس عليهم القتل الذي يمكن أن يكون وجهاً من الوجوه مع مجرمي الحرب. فقد جاء في الصحاح في شأن أسرى غزوة بني المصطلق - وكان من بينهم جويرية بنت الحارث - أن أباه الحارث بن أبي ضرار حضر إلى المدينة ومعه كثير من الإبل ليفتدي بها ابنته، وفي وادي العقيق، قبل المدينة بأميال، أخفى اثنين من الجمال أعجبه في شعب بالجبل، فلما دخل على النبي ﷺ قال له: يا محمد أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها فقال عليه الصلاة والسلام: «فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا؟» فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله. وأسلم الحارث وابنان له، وأسلمت ابنته أيضاً، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها وتزوجها، فقال الناس: لقد أصبح هؤلاء الأسرى الذين بأيدينا أصهار رسول الله ﷺ فمناوا عليهم بغير فداء.

وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها معلقة على هذا الموقف:

(فما أعلم أن امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية، إذ بتزوج الرسول ﷺ إياها أعتق مائة من أهل بيت بني المصطلق).

كما يعلق الأستاذ سيد سابق على هذا بقوله:

(ولمثل هذا تزوج النبي ﷺ من جويرية، لا لشهوة يقضيها، بل لمصلحة شرعية يبتغيها، ولو كان يبغى الشهوة لأخذها أسيرة حرب بملك اليمين)^(٢).

وإذا كانت الحروب تتمخض عن وقوع أسرى لدى كل فريق من المتحاربين فإننا رأينا كيف تكون المعاملة الرقيقة الإنسانية الحانية من الإسلام نحو الأساري رجالاً ونساء وذرية، وينص على ذلك في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله ﷺ قال تعالى مبيناً على من يكرمهم: ﴿وَيُطْعَمُونَ عَلَىٰ حَيْثُ وَسَّكِنَا

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ و ٦٨.

(٢) فقه السنة: ٢/٦٨٧.

وَيَسِيرًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَلَةً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ (١)

وروى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فكوا العاني (والعاني هو الأسير) وأجيبوا الداعي، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ قال: عندي يا محمد خير إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاکر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاکر وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فتركه رسول الله ﷺ حتى كان الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاکر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فقال رسول الله ﷺ: أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله يا محمد والله ما كان على الأرض أبغض علي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله ما كان من دين إليّ أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى، فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت، فقال: لا، ولكنني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا تأتیکم من یمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ) [متفق عليه] (٢).

(١) الدهر: ٩.

(٢) نيل الأوطار: ٨/١٤٠ و ١٤١.

الأرض :

وأما القسم الثالث من الغنائم والذي يتمثل في الأرض التي تؤخذ نتيجة الحرب والقتال فإن الإمام مخير فيها بين أمرين :

الأول: أن يقسمها على المجاهدين .

الثاني: أن تصبح وفقاً على المسلمين .

وإذا اختار الحالة الثانية فإنه يضرب على الأرض خراجاً مستمراً يؤخذ ممن هي في يده سواء أكان مسلماً أم ذمياً، ويؤخذ هذا الخراج (الأجرة) كل عام ويقدر الخراج اجتهاداً بما يناسب المكان والزمان .

وأصل الأمرين السابقين ما كان من فعل النبي ﷺ في خيبر حيث قسمت بين المجاهدين بعد أحد ضمها لله وله^(١) عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُمُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِنِ السَّبِيلِ ﴾ . فهذه آية الغنيمة .

وما كان من فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عملاً بقوله تعالى: ﴿ مَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَضْرُوبُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أَوْلِيَّتِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَدْيِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ . . . ﴿ وهذه آية الفبيء .

ولذلك فإن عمر تناول الآية حين ذكر الأموال وأصنافها فقال: استوعبت هذه الآية الناس .

(١) سيرة ابن هشام: ٣٤٩/٢ .

روى أبو عبيدة في الأموال أن عمر بن الخطاب قدم الجابية فأراد قسمة الأرض بين المسلمين فقال له معاذ: والله ليكونن ما تكره، إنك لو قسمتها اليوم صار الريع العظيم في أيدي القوم، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد والمرأة، ثم يأتي بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسدداً، وهم لا يجدون شيئاً، فانظروا أمراً يسع أولهم وآخرهم، فصار عمر إلى قول معاذ^(١).

وذكر أبو يوسف في الخراج أن الذي أشار على عمر بترك قسمة أراضي العراق والشام هو عبد الرحمن بن عوف^(٢).

ولا يمنع أن يكون الصحابيyan قد أشارا بهذا الرأي السديد والمفيد وأخذ بقوليهما عمر، وهذا دليل على اجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم وتحريمهم ما ينفع المسلمين في كل عصر، وقد دربهم الرسول الكريم وعلمهم ذلك.

وكتب عمر بذلك إلى سعد بن أبي وقاص: انظر ما جلب عليك إلى العسكر من كرائم أو مال فأقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرضين والأنهار لعمالها فيكون ذلك من أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء^(٣). ووقف عمر جميع الأراضي التي فتحت عنوة، الشام والعراق، ومصر، وسائر ما فتحه، وقال: (لولا آخر الناس لقسمت الأراضي كما قسم رسول الله ﷺ خيبر^(٤)).

واجتهاد عمر والصحابة - في هذا الموقف - قائم على مراعاة المصلحة وتغيير بعض الظروف، وظل مراعيماً لهدي رسول الله ﷺ وسنته فقد ثبت أنه جمع مع هذا الموقف استجابة نفوس القائمين باعتبار أن هذا حقهم - كما فعل الرسول ﷺ في خيبر - .

(١) الأموال: ص ٥٩؛ والمغني: ٧١٦/٢؛ وموسوعة فقه عمر: ص ٦٢.

(٢) خراج أبي يوسف: ص ٢٦.

(٣) خراج يحيى: ص ٤٨؛ وسنن البيهقي: ١٣٤/٩؛ وموسوعة فقه عمر: ص ٦٢.

(٤) المغني: ٧١٨/٢؛ وسنن البيهقي: ١٣٨/٩؛ وموسوعة فقه عمر: ص ٦٣.

وقد ذهب إلى هذا جماعة منهم ابن حزم فقالوا: إن عمر لم يوقف هذه الأرض إلا بعد أن استطاب نفوس القائمين وأرضاهم، واستدلوا على ذلك بأن جرير بن عبد الله البجلي لما قدم على عمر من قومه يريد الشام وجهه عمر إلى الكوفة بعد مقتل أبي عبيدة، وقال له: هل لك في الكوفة، وانفلك الثلث بعد الخمس، من كل أرض أو شيء؟ قال: نعم، فبعته^(١).

وكانت بجيلة ربع الناس يوم القادسية، فجعل عمر لهم ربع السواد، فأخذه سنتين أو ثلاثاً — فوفد عمّار بن ياسر إلى عمر، ومعه جرير بن عبد الله البجلي فقال عمر لجرير: يا جرير، لولا أنني قاسم مسؤول لكنتم على ما جعل لكم، وأرى الناس قد كثروا فأرى أن ترده عليهم، ففعل جرير ذلك، فأجازه عمر بثمانين ديناراً^(٢).

وقالت أم كرز البجلية: يا أمير المؤمنين إن أبي هلك وسهمه ثابت في السواد، وإني لن أسلم، فقال لها عمر: يا أم كرز إن قومك قد صنعوا ما قد علمت فقالت: إن كانوا صنعوا — أي سلموا أراضيهم — فإني لست أسلم حتى تحملني على ناقة ذلول عليها قطيفة حمراء، وتملاً كفي ذهباً، ففعل عمر، فكان الذهب الذي أعطاها نحواً من ثمانين ديناراً^(٣).

قال ابن حزم: فهذا أصبح ما جاء عن عمر في ذلك، وهو قولنا، فإنه لم يوقف حتى استطاب نفوس القائمين وورثة من مات منهم^(٤).

وعلى ذلك يكون عمر قد جمع بين الدليلين، ولا يهتم بمخالفته لهدى رسول الله ﷺ.

(١) الأموال: ٦٢؛ والمحلى: ٣٤١/٧؛ والمغني: ٣٧٩/٨؛ وموسوعة فقه عمر: ص ٦٣.

(٢) أموال أبي عبيد: ص ٦١؛ وخراج يحيى: ص ٤٥؛ والمحلى: ٣٤٤/٧؛ وسنن البيهقي: ١٣٥/٩.

(٣) الأموال: ص ٦١؛ وسنن البيهقي: ١٩٥/٩؛ وموسوعة فقه عمر: ص ٦٤.

(٤) المحلى: ٣٤٤/٧.

بل روى الإمام أحمد في مسنده وذكر ابن حزم في المحلى رجوع عمر بن الخطاب عن هذا التصرف - وهو إيقاف الأراضى - وأنه قال: لو عشت إلى هذا العام المقبل، لا تفتح للناس قرية إلا قسمتها بينهم كما قسم رسول الله ﷺ خير^(١).

فهذا ما كان من الحكم في الأرض التي تؤخذ أثناء الحرب أو بعده، وأما ما يتبع الآن استرشاداً بما ذكر من أحكام فإن المجاهدين يحصلون في البلدان الإسلامية على رواتب ثابتة سواء حاربوا أم لم يحاربوا، وعلى ذلك فإن الغنيمة تدخل بيت المال لتجد طريقها إلى الإنفاق العام على الأمة كلها.

وهذه الأحكام التي تتعلق بالآثار المترتبة على الجهاد وفي حالة انتصار المسلمين، أما إذا حدث تقصير من قبل المجاهدين في جانب من الجوانب وأصابهم القرح وحدثت فيهم الهزيمة فإن الإسلام يوجه أتباعه بتوجيهات سبق ذكرها في خلق الجهاد من الثبات والصبر وعدم اليأس ومحاسبة النفس وتدارك التقصير، وجمع الشمل ومواصلة الجهاد.

وأما الجديد الذي يمكن أن يحدث فقد يقع في يد العدو أسرى من المسلمين، وفي هذه الحالة ينبغي أن يبذل الإمام كل الجهد في تخليص الأسرى حتى لا يفتنوا في دينهم، وحتى لا يتعرضوا للأذى وهم في قبضة عدوهم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن أستنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار أحب إليّ من جزيرة العرب^(٢).

وقد يكون ذلك الإنقاذ بتبادل الأسرى، أو بالفداء، فإن اقتداه بالمال كان فداؤه من بيت مال المسلمين، لأنه كان يدافع عنهم، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كل أسير في أيدي المشركين من المسلمين ففكاكه من بيت المال المسلمين^(٣).

(١) مسند أحمد: ٣١/١؛ والمحلى: ٣٤٣/٧.

(٢) خراج أبي يوسف: ص ٢٣٣.

(٣) خراج أبي يوسف: ص ٢٣٣؛ وموسوعة فقه عمر: ص ٧٦.

الفصل الخامس العلاقات الدولية في الإسلام

إذا كان الإنسان اجتماعياً بفطرته لا يستطيع العيش وحده، فإن الجماعات البشرية التي تأخذ مسميات تدل على حجم كل جماعة من بطن وعشيرة وقبيلة ودولة – لا تستطيع كذلك العيش دون روابط تلتقي بها وتتبادل المنافع فيما بينها، فهذه سنة الله في خلقه، ولترشيد هذه العلاقات بين الأفراد والجماعات كانت التوجيهات والأحكام المفصلة في وحي الله لتكون الروابط قوية ولتتكامل المنافع في أحسن صورة.

ولهذا وجدنا عناية الإسلام بالأمة التي استجابت لوحي ربها، وأسلمت وجهها له تصل بالأمة إلى تحقيق الوحدة العضوية التي عبر عنها رسول الله ﷺ أصدق تعبير في قوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»^(١).

وقامت هذه الوحدة العضوية على الأسس الآتية:

– الأخوة في الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وهي أخوة أقوى من أخوة النسب.

– ما يصحب هذه الأخوة من حقوق ومظاهر منها الحب في الله، ومنها

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم وعند البخاري بلفظ: «ترى المؤمنين...». أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم: ٤٣٨/١٠؛ ومسلم في كتاب البر والصلة والأدب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

التراحم والتكافل والتكامل الذي يحقق وحدة الأمة في أحسن صورها: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (١).

وكما جاء في وصفها: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٢).

وعلى ذلك نقول: (إن الأسس التي جعلها الله تعالى في العلاقة بين الإنسان وغيره لا تمثل كما يزعم المغرضون «تكوين عنصرية جديدة تقوم على أساس العقيدة» ولكن تحقيق مفهوم الوحدة الحقيقية بين المؤمنين يأتي ثمرة طبيعية لاستجابة المؤمنين وليست تكويناً عنصرياً، وتتجه الأمة المؤمنة نحو غيرها من الجماعات البشرية الأخرى لتحقيق معها علاقات يؤسسها الإسلام على ما يلي: (أسس العلاقات بين الجماعات البشرية).

١ - التذكير بالأصل الواحد الذي يرجع إليه البشر جميعاً، فعلى الرغم من وجود هذه الحقيقة إلا أن الناس تغطي عليهم نزعات كثيرة نفعية تنسيهم هذا الأصل، ويتعاملون بمنطق العداوة والبغضاء، ولذلك فإن الإسلام يذكر الناس بأنهم لآدم: «كلكم بنو آدم وآدم من تراب» (٣).

ويأتي هذا التذكير مقروناً بما يجعله تذكراً مؤثراً إيجابياً فيصحب بالأمر بتقوى الله التي هي جماع كل خير فيقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٤).

فالخطاب - هنا - للناس جميعاً أن يتقوا الله، وتكرار التقوى مع ما يتبع

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٢، والمؤمنون: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٣) أخرجه البزار في مسنده كتاب الأدب باب التفاخر - كشف الأستار للهيتمي: ٤٣٤/٢

و ٤٣٥.

(٤) سورة النساء: الآية ١.

الأمر بها في الموضوعين له دلالة أخرى في أنه لن يستطيع هذا الإنسان أن يفيد من هذا التذكير بالانتماء إلى الأصل الواحد إلا إذا حقق هذه القيمة في نفسه واستجاب لهدي ربه :

فالتذكير الأول بالخلق بنفس واحدة، ومنها ليس بعيداً عنها كان الخلق لزوجها، تأكيداً لوحدة الأصل، منهما كان البعث والانتشار. ولما كان هذا الانتشار نقيض التفرق المكاني في أرض الله الواسعة كان الأمر الثاني والذي سبق أيضاً بتقوى الله أن تبقى الناس قطيعة الأرحام، ويجعل الإسلام صلة الرحم من الفرائض التي لا غنى للمجتمع عنها فيبشر الواصلين لأرحامهم بالوصل من الله لهم، ويحذر من القطيعة ويعدّها فساداً في الأرض قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ٢٢ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ (١).

٢ - الحق: فيقيم الإسلام هذه العلاقة على هذا المبدأ العظيم الذي يقوم عليه أمر هذه العلاقة، فلا يسمح للباطل أن يتسرب إليها لأن الباطل يتبعه مفسد أخرى في علاقة الإنسان بغيره.

فالتصورات الباطلة، والعقيدة الفاسدة تقسم الناس على معايير ظالمة لا أساس لها من الحق والواقع، فمن هذه المعايير الباطلة: أن يميز الفكر البشري إنساناً على آخر على أساس جنسه - مثلاً - كما حدث في الفكر الروماني الذي نظر إلى الجنس الروماني على أنه جنس مقدس، وما عداه فليسوا إلا عبيداً له، وكذلك الحال مع الجنس الآري، وامتد هذا الباطل وهذا الفساد لنجد له صدى لدى ورثة الفكر الروماني واليوناني من الأوروبيين والأمريكيين حيث تقسم الجنسيات تقسيماً يتفق مع التقسيم السابق في درجات الجنسيات، ولم تسلم من هذه النظرة الباطلة الديانات التي عبث فيها أيدي البشر، فاليهود - مثلاً - في مقولاتهم التي ابتدعوها بهذا المنطق الباطل يرون أنهم أبناء الله

(١) سورة محمد: الآيتان ٢٢ و ٢٣.

وأحباؤه وأنهم شعبه المختار، وما عداهم فإنهم من الأميين الذين يستباحون في كل شيء.

ومن العناصر الباطلة كذلك أن يقسم الناس على أساس بيئي أو قومي، فالذي ينتمي إلى أئتنا - مثلاً - انتماء أصيلاً كان يمثل العنصر السيد، ومن ينتمي إليها انتماء يقل عن ذلك يعد من الأجانب الذين لا يتمتعون بحقوق الطبقة الأولى.

ومنها اعتبار اللون أساساً لهذا التقسيم الباطل فلا يسند هذا التقسيم واقع تشريعي، ولا نتائج لبحوث تفيد أن اللون يكسب الإنسان خصائص معينة... وعلى هذا الأساس الباطل وجدنا من آثار الفكر البشري الوضعي التفرقة بين البيض والسود، بل بين البيض والملونين - قديماً وحديثاً - إلى صورة مزرية، يسقط فيها الفكر البشري عندما يغلف بالباطل هذا التقسيم، فيقول «منتسكيو»: (حاشا لله أن يجعل في هذا البدن الأسود ذي الأنف الأفتس روحاً).

ومن هذه العناصر الظالمة التي لا سند لها - كذلك - من عقل - نجد أرسطوا الذي لقب بالمعلم من قبل الفلاسفة يبرر تقسيم البشر تبريراً يدل على اتباع الهوى في هذا الفكر فيرى: إن الله خلق الناس من فصيلتين، فصيلة مزودة بالعقل والإرادة، وفصيلة مزودة بالأجساد، ومقتضى هذا التقسيم أن الفصيلة الأولى تفكر، والفصيلة الثانية تنفذ، وامتد هذا الفكر السقيم لنجد أثره لدى الأوروبيين الذين يقسمون العالم هذا التقسيم بين عالم متقدم يمثل عالمه، وعالم متخلف، وقد يلقب تواضعاً بالعالم النامي. فالعالم المتقدم هو الذي يفكر ويرسم السياسات، ويضع البرامج الاقتصادية، بل يفصل القيم الخلقية، وعلى العالم الآخر أن يستجيب وأن ينفذ وليس له أن يفكر، فضلاً عن أن يصدر فكراً، وهذا النظر الباطل يفسر لنا ظاهرة الإعراض العام من قبل هؤلاء عن التفكير في المبادئ التي يحملها أبناء هذا العالم المتخلف على الرغم من أنها وحي الله تعالى، ولا دخل فيها للبشر.

٣ - العدل: وهو من الأسس التي جعلها الإسلام ركيزة العلاقات بين

الناس، لأن الظلم سبيل الشحنة والبغضاء وتمزيق هذه العلاقات . . . وهذا العدل واجب التحقيق في التصور الإسلامي مهما اختلفت الجنسيات أو تباعدت الأماكن أو اختلفت العقائد، وهذا ما يميز هذا التصور الإسلامي عن غيره من الأفكار البشرية التي تتورط في هذا الظلم نتيجة الوقوع في الباطل الذي سبق ذكره، فإن الظلم نتيجة حتمية للتصورات الباطلة، وتشقى البشرية عندما تصلى نار هذا الظلم ففي البيئة الجاهلية وجدنا شاعرها زهير بن أبي سلمى يصور هذه القاعدة من الظلم في العلاقات في قوله: (ومن لا يظلم الناس يظلم).

ولذلك تبع هذا الظلم كثير من التجاوزات نحو الضعفاء والفقراء ومن لا ينتمي إلى عصبية تدفع عنه هذا الظلم، والبيئات الأخرى ليست بأسعد حالاً من البيئة العربية في جاهليتها، فالتقسيمات السابقة في المجتمع اليوناني، والمجتمع الروماني أوقعت هذا الظلم الفادح على طبقة المستضعفين، وقسمت الناس إلى سادة وعبيد، ووصل الأمر إلى حد التحريض من أرسطو على إحكام قبضة السادة على العبيد وألا تأخذهم الرأفة في إطلاق سراحهم إلا إذا حلت الآلة محلهم، كما لا يخفى أن الإنسان الذي يستعبد بسبب لونه أو بسبب انتمائه إلى جنس معين أو بيئة معينة قد وقع عليه ظلم كبير إذ لا حيلة له في اختيار لونه أو جنسيته أو بيئته التي ولد فيها فكيف يكون هذا أساساً للتمايز بين البشر؟! .

٤ - أساس التفاضل في الإسلام: وأما أساس التفاضل في الإسلام فهو أساس عادل يتمثل فيما يستطيعه الإنسان من أعمال تسعده وتقدمه في حياته، فالإسلام واقعي في نظرته إلى الأشياء لأنه وحي الله فلا يلقي وجود التفاضل والتمايز بين الناس، فالناس في الواقع ليسوا سواء ولكن لا يجعل التفضيل قائماً على الأسس السابقة الظالمة التي لا دخل للإنسان فيها، وإنما يجعله في قيمة جامعة لكل خصال الخير والبر ظاهراً وباطناً، وهي قيمة التقوى، فيقول جل شأنه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾^(١).

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

فمن أراد أن يكون فاضلاً فإن فضله ورقبه وقربه من ربه بمقدار ما يحصل من معاني التقوى، ولا شك أن هذا الأساس يدفع البشرية إلى التسابق في الخيرات وترك المنكرات، وهذا في صالحها، وفي الوقت الذي يدعم فيه الإسلام هذه القيمة يرد على الادعاءات الباطلة في التفاضل الظالم مثال ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾^(١).

ومن مجموعة هذه الأسس وغيرها يتضح لنا كيف يهدف الإسلام في علاقة الإنسان بغيره إلى تحقيق الأمن والسلم والحياة الطيبة للأفراد والجماعات فيُحيل المجتمعات البشرية من العداوة والبغضاء إلى أن يكونوا بنعمة الله إخواناً.

السيبل العملي في بيان علاقة الدولة المسلمة بغيرها :

ولقد سلك رسول الله ﷺ السبيل العملي في بيان علاقة الدولة المسلمة بغيرها من الدول المخالفة في الدين ليتضح أمام العالمين أن دولة الإسلام تتسع لعلاقات سلمية مع الدول المخالفة، بل وتتسع الدولة الإسلامية نفسها للتعايش مع المخالفين في الدين ما داموا مسالمين قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِيلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢).

وقد كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهوداً وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم، وهذا نص الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم^(٣) بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم

(١) سورة النساء: الآية ١٢٣.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ٨.

(٣) أسيرهم.

يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين لا يتركون مقرحاً^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن لا يحالف مؤمن قول مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة^(٢) ظلم أو إثم، أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافرأ على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء عدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وأن المؤمنين

(١) المقرح المثقل بالدين والكثير العيال .

(٢) اللديعة، العظيمة .

بنبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مאלاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط^(١) مؤمناً قتلاً عن بنيه فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم القيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم، وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ^(٢) إلا نفسه، وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن حفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وأن لبني الشظبية مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته، إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا^(٣)، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب هذا الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار

(١) قتل بلا جناية.

(٢) يوتغ: يهلك.

(٣) يعني على الرضا به.

كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلاً بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصلحهم ويصلحونهم فيصالحونهم ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلاً من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وأن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحصن من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن هشام: ويقال: مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن إسحاق: (وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلاً على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد بالمدينة، إلاً من ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ)^(١).

فهذه الصحيفة التي كتبت عند قدومه ﷺ إلى المدينة المنورة وثيقة تحكم العلاقات بين جمع أفراد الأمة من ناحية، وبين الأمة المسلمة ورعاياها المقيمين داخل الدولة المسلمة، وبين الدولة المسلمة والدول الأخرى من المخالفين في الدين من ناحية أخرى.

لقد حددت الصحيفة عناصر قيام الأمة، وعناصر قيام الدولة، وبينت طبيعة الروابط التي يمكن أن تقوم بينها، وطبيعة العلاقة بين المسلمين وغيرهم ممن يعيشون معهم في المدينة وهم اليهود. كما اهتمت بتنظيم عنصر السلطة والسيادة في الدولة الناشئة وحددت معالم هذه السيادة^(٢).

كما حددت الصحيفة في وقت مبكر العلاقات التي يجب أن تكون بين أهل

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ١٠٦/٢ - ١٠٨.

(٢) انظر وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة، إعداد د. جعفر عبد السلام علي: ص ٤.

الصحيفة وبين الوحدات الأخرى ذات الطبيعة الدولية وأن هذه العلاقات علاقات سلم ما عدا الأعداء من قريش لما كان منهم من محاربة وعداء وإصرار على فتنة المؤمنين عن دينهم، وسلب أموالهم، ولذلك منعت الصحيفة التعامل معهم، أو إجارتهم في المدينة.

لقد بينت الصحيفة - باعتبارها أول وثيقة لتحديد صورة العلاقات بين عناصر الدولة المسلمة في داخلها وعلاقتها بالدول الأخرى - المكانة التي يتمتع بها المخالفون في الدين داخل الدولة المسلمة، وبعبارة أخرى مكانة الأقليات داخل المجتمعات المسلمة، فإن نصوص الصحيفة تذكر المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب وتذكر معهم من تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم وأنهم أمة واحدة من دون الناس. ويفهم من هذا النص أن اللحاق والتبعية تفي الدخول في الإسلام، وتتسع كذلك لتشمل من يلحق بهم ويتبعهم وإن لم يسلم، والدليل على ذلك ما جاء في الصحيفة - أيضاً - من أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. وفصلت النصوص التالية لهذا التقرير المساواة بين فرق اليهود المذكورة ويهود بني عوف في كافة الحقوق.

فالتوائف التي تعيش بالمدينة تلحق بالأمة المسلمة ولها حقوقها وعليها واجباتها فمما ذكر في الصحيفة:

- من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

- لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو أثم، وأنه من خرج من المدينة آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم.

- أن بينهم النصر على من دهم بيثرب، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

فهذه النصوص تدل بصراحة على اتساع الدولة المسلمة للمخالفين لها بهذا

البيان السابق ما داموا مسالمين وليسوا ناقضين لما يتفق عليه مما لهم ومما عليهم. ويبقى هذا الكلام مع ديار الإسلام جميعاً مع مراعاة التفصيل الذي ذكرناه في حكم مكة والمدينة^(١).

وإلى هذه النتيجة التي نقرها يصل الأستاذ عبد المجيد محمود في محاضرة قيمة ألقاها بقسم الثقافة الإسلامية تحت عنوان: تعامل المسلمين مع مخالفيهم في الدين فيقول: (ومن هذا نرى أن الطوائف غير المسلمة تتمتع في الدولة الإسلامية، بما يتمتع المسلمون فيها من الحقوق المدنية، والدينية، يساسون بالعدل والرحمة ما وفوا بعهودهم، ولا تحول مخالفتهم في الدين دون العدل معهم والرحمة بهم، ومنحهم حريتهم الدينية والشخصية).

وقد روى البخاري أن النبي ﷺ عامل يهود خيبر على أن يزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها، فأرسل إليهم عبد الله بن رواحة ليخرض النخل، ويقدر الأسواق الواجبة عليهم، فأراد اليهود أن يعطوا عبد الله بن رواحة هدية أو رشوة ليخفف عنهم، ويقلل ما يأخذه من خراج أرضهم فقال عبد الله مستنكراً صنيعهم: تطعمونني السحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ - يعني رسول الله ﷺ - ولا أنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم على ألا أن أعدل فيكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض^(٢).

ويقول: (ومن هذا يتبين أن الذمي مواطن في الدولة الإسلامية تكفل له الدولة حفظ ماله ونفسه، وتضمن له حريته الدينية والشخصية، وسلامة أماكن العبادة التي يتعبد فيها).

وبلغ من الاهتمام بالمحافظة على حريته الدينية والشخصية أن تقررت بين الفقهاء قاعدة تقول: «أمرنا أن نتركهم وما يدينون» . . .

كما بلغ من عناية الإسلام بحريتهم الدينية أن ترك لهم نظام الأسرة من

(١) وانظر ما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال: ص ٢٣٧.

(٢) المحاضرة ١٢، للأستاذ الدكتور عبد المجيد محمود.

زواج وطلاق وميراث يتبعون فيه ما يعتقدونه ديناً لهم، ولو كان مخالفاً لأحكام الإسلام في نظام الأسرة.

لقد كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري مستفتياً: (ما بال الخلفاء الراشدين تركوا أهل الذمة وما هم عليه من نكاح المحارم واقتناء الخمر والخنازير؟) فأجابه الحسن البصري: (إنما بذلوا الجزية ليرتكبوا وما يعتقدونه، وإنما أنت متبع لا مبتدع).

وهذه الميزات التي يتمتع بها الذمي في دولة الإسلام لا يوجد لها نظير في قوانين العالم الحديث فضلاً عن القديم، فالمسلم المقيم في فرنسا أو إنجلترا أو روسيا أو غيرها ويتجنس بجنسيتها، يخضع في الأحوال الشخصية للقانون المحلي - هناك - فإن تزوج مسلم أكثر من واحدة فزواجه باطل، وقد يحاكم على ذلك كمجرم. والدول المعاصرة جميعاً لا تجعل لأي طائفة من طوائفها ميزة خاصة في تعاملها، وخصوصاً في نظام الأسرة، لأن نظم الأسرة فيها تتعلق بالنظام العام، لا يجوز الاتفاق على ما يخالفها، ولكن الدول الإسلامية لا تزال تعطي رعاياها حق التقاضي على مقتضى دينهم بالنسبة للأسرة، وهذه الميزة لا توجد إلا في البلاد الإسلامية والقوانين الإسلامية، ولا تعامل الدولة الإسلامية غيرها بالمثل في هذا الشأن، لأن نظامها ينبع من تعاليم الدين وسماحته لا من نزوات النفوس وحماسة العصبية^(١).

وأما علاقة الدولة المسلمة بالدول الأخرى فإنها كذلك علاقات تقوم على أساس السلم، وتشهد الصحيفة على ذلك وأما ما ذكر من العداة لقريش فباعتبارها عدواً للمسلمين حاربتهم وصادرت أموالهم وتصر على دوام المحاربة، من أجل هذا كان النص في الصحيفة وأنه «لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا يحول دونه على مؤمن».

وأما النص الذي في الصحيفة وفيه دلالة على ما نقول لهو: (. . .) وإذا

(١) المحاضرة السابقة: ص ١١١.

دعوا إلى صلح يصالحوه وتلبسونه فإنهم يصالحوه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين).

ومعنى ذلك أن المسلمين عليهم أن يقبلوا التحالف مع اليهود وقبائل من غير المسلمين إذا ما وافق اليهود على محالفة حلفاء المسلمين من غير المسلمين، ولا يكون هذا التحالف إلا إذا كان الإسلام يجيز التعامل مع غير المسلمين ممن لا يقيمون في الدولة الإسلامية^(١).

وقد قبل الرسول ﷺ هدايا من أمراء الدول الكافرة، وبادل المسلمون والكفار الهدايا، فقد روى أحمد والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: (أهدى كسرى لرسول الله ﷺ فقبل منه، وأهدى له قيصر فقبل، وأهدت له الملوك فقبل منها).

وقال النبي ﷺ لبلال فيما رواه أبو داود: «ألم تر إلى الركائب المناخات الأربع، فإن لك رقابهن وما عليهن، فإن عليهن كسوة وطعاماً، أهداهن إليّ عظيم فذك فاقبضهن واقض دينك».

وأهدى صاحب أيلة إلى النبي ﷺ بغلة بيضاء. وأهدى أمير القبط إلى النبي ﷺ جاريتين وبغلة، فكان يركب البغلة بالمدينة، وأخذ إحدى الجاريتين لنفسه فولدت له إبراهيم، ووهب الأخرى لحسان.

وكذلك تبادل المسلمون والكفار الهدايا.

فقد رأى عمر حلة من حرير تباع، فقال للنبي ﷺ، ابتع هذه الحلة تلبسها يوم الجمعة، وإذا جاءك الوفد فقال: إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة. ثم أتى رسول الله ﷺ بحلل فأرسل إلى عمر منها بحلة فقال عمر: كيف ألبسها وقد قلت فيها ما قلت؟ قال: إني لم أؤسكها لتلبسها، تبيعها أو تكسوها. فأرسل عمر بها إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم. [رواه البخاري].

(١) انظر وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة، د. جعفر عبد السلام: ص ٣٦.

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: (أتتني أمي راغبة، في عهد قريش، وهي مشركة، فسألت النبي ﷺ: أصلها؟ قال: نعم) متفق عليه.

وجاء في روايات أخرى أن أم أسماء قدمت بهدايا من أقط وخباب، وأن أسماء توقفت عن قبولها حتى تستأذن النبي ﷺ فأذن لها^(١).

فهذا موقف الإسلام من العلاقات الدولية بين الدول المسلمة وغيرها، إنه يجعلها علاقات قائمة على السلم ومحقة للعدل والمساواة لأن الإسلام ينظر إلى المخالفين على أنهم في حاجة إلى هداية وإرشاد وتوجيه، وخير سبيل لهذا التوجيه والإرشاد والدعوة أن تكون العلاقات آمنة وأن يكون السلم قائماً.

موقف الإسلام من المنظمات الدولية:

وإذا كان الإسلام يؤسس العلاقات الدولية على الأسس العادلة السابقة فإنه يرحب ويشجع كل ما يحقق للمجتمعات البشرية أمنها وسلمها الحقيقي فإذا أدرك الناس خطورة الحرب فيما بينهم ووجدوا أن السبيل إلى تحجمها في تكوين منظمات تضم مجموعة الدول التي تترضي فيما بينها ما يحقق قواعد العدل والحق والمساواة فإن الإسلام يربط على أيديهم ويعينهم على ذلك بمنهجه الرشيد وكماله الذي لا يشوبه الهوى.

ونطلق في تقريرنا لهذه القاعدة من موقف الرسول الله ﷺ أمام تجمع تحقق قبل الإسلام ليحقق أغراضاً يقرها الإسلام في نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم، وشارك فيه الرسول الله ﷺ، وبيّن أنه لو دعي إليه في الإسلام لأجاب، قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً، ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»^(٢).

ويشترط لمثل هذه المنظمات أن تكون في أسس قيامها، وفيما ترتضيه من

(١) انظر محاضرة، الأستاذ الدكتور عبد المجيد محمود: ص ٨، و ٩.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: ١/١٢٣، و ١٢٤.

مبادئ وقيم تسيير عليها موافقة لما جاء به الإسلام من مبادئ الحق والعدل والمساواة وما يحقق الأمن الحقيقي والسلم في حياة الناس دون استثناء.

ولهذا فكل عمل تلتقي فيه الجهود لتحقيق السلام العادل والتقدم المتوازن والسعادة للبشرية فإن الإسلام يمد يده إليه ويزيده ترشيداً بما يحقق الخير في الدنيا والآخرة.

منظمة الأمم المتحدة:

وإذا كان حلف الفضول نتيجة بما تفسى في العصر الجاهلي من ظلم الأقبياء للضعفاء وشارك فيه رسول الله ﷺ قبل البعثة فإن الحروب التي صلى الناس نارها في العصر الحديث ومنها الحربان العالميتان جعلت الدول تفكر في إنشاء منظمة دولية عالمية تعمل على حفظ السلم والأمن الدولي، وإنما العلاقات الودية بين الأمم، وتحقيق التعاون الدولي في جميع المجالات، وجعل الأمم المتحدة مركزاً لتنسيق أعمال الأمم. فكانت هذه هي الأهداف التي أنشئت من أجلها منظمة الأمم المتحدة، وبدأ هذا التنظيم من التصريح الذي تم توقيعه في ١٢ يونيو ١٩٤١م في لندن بالمملكة المتحدة وفي أواخر عام ١٩٤١م أصدرت الولايات المتحدة الأميركية تصريحاً يحمل اسم تصريح الأمم المتحدة في صورة اتفاق دولي قامت بتوقيعه ١٩٤٢م ست وعشرون دولة، وفي ٣١ أكتوبر ١٩٤٧م قررت الجمعية العامة اعتبار ٢٤ أكتوبر من كل عام العيد السنوي لميلاد الأمم المتحدة باسم يوم الأمم المتحدة^(١).

فإذا كانت نشأة الأمم المتحدة مقترنة بالحروب الدامية، وقامت لتحقيق الأهداف السابقة فإنها تجد من الإسلام التأييد والموافقة مع ترشيد عملها، وبيان

(١) انظر التنظيم الدولي - النظرية العامة للأمم المتحدة، د. بطرس غالي ود. إبراهيم محمد العناني: ص ١٧٤ - ١٧٧.

منهجه الذي يزيد على ذلك - كما أشرنا - في أن الأخذ به يحقق خيري الدنيا والآخرة.

كما أن الإسلام يحذر من أن تكون المبادئ والأهداف المعلنة منفصلة عن التطبيق العملي فإذا كان من المبادئ المعلنة:

- المساواة في السيادة بين الدول.

- التسوية السلمية للمنازعات الدولية.

- خطر استخدام القوة في العلاقات الدولية.

- معاونة الأعضاء للأمم المتحدة.

- عدم التدخل في الشؤون التي تكون من السلطان الداخلي للدول الأعضاء^(١) إذا كانت هذه المبادئ النظرية فإن الإسلام لا يفصل بين النظرية والتطبيق.

ولما كان واقع الدول البعيدة عن هداية الإسلام تغليب المصالح الخاصة وجدنا قصوراً في تطبيق في كثير من القضايا التي تتعلق بتحرر الشعوب الضعيفة والفقيرة من سيطرة الدول المستعمرة مما جعل منظمات دولية أخرى تنشأ لتحقيق مصالح تخص هذه المنظمات.

فمن هذه المنظمات:

١ - منظمة المؤتمر الإسلامي.

٢ - منظمة الوحدة الأفريقية.

منظمة المؤتمر الإسلامي:

ولقد نشأ التفكير في إنشاء منظمة تجمع الدول الإسلامية وسط المحاولات الجادة والمعرضة في احتواء العالم الإسلامي وتكبيله وجعله تابعاً للقوى الكبرى في عالمنا المعاصر، فكانت الأهداف - التي جعلت التفكير ينمو حتى تم إنشاء المنظمة يتلخص فيما يلي:

(١) التنظيم الدولي، د. بطرس غالي: ص ١٨١.

- تعزيز التعاون بين الدول الأعضاء في المجالات المختلفة، والتشاور بين الدول الأعضاء في المنظمات الدولية.
- العمل على محو التفرقة العنصرية والقضاء على الاستعمار في جميع أشكاله.
- اتخاذ التدابير اللازمة لدعم السلام والأمن الدوليين القائمين على العدل.
- تنسيق العمل من أجل الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة وتحريرها ودعم كفاح الشعب الفلسطيني ومساعدته على استرجاع حقوقه وتحرير أراضيه.
- دعم كفاح جميع الشعوب الإنسانية.
- إيجاد المناخ لتعزيز التعاون والتفاهم بين الدول الأعضاء والدول الأخرى^(١).
- وَأما المبادئ التي قامت عليها منظمة المؤتمر الإسلامي فتمثل فيما يلي:
- المساواة التامة بين الدول الأعضاء.
- احترام حق تقرير المصير وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء.
- احترام سيادة واستقلال ووحدة أراضي كل دولة عضو في المنظمة.
- حل ما قد ينشأ من منازعات فيما بين الدول الأعضاء في المنظمة بحلول سلمية.
- إقناع الدول الأعضاء في علاقتها عن استخدام القوة ضد وحدة وسلامة الأراضي أو الاستقلال السياسي لأية دولة عضو.

(١) انظر المنظمات الدولية المتخصصة والإقليمية، د. مصطفى عبد الرحمن: ص ٢٦،

فهذه الأهداف مع تلك المبادئ تتفق مع توجيهات الإسلام وينقصها الجمع بين النظرية والتطبيق.

وإذا كانت هذه المنظمة قد جمعت الدول الإسلامية على أساس أنها تلتقي جميعاً على الإسلام فكما رأينا ليست الغاية تحقيق عنصرية أو عصبية، ولكن كان من بين الأهداف تعزيز العلاقات بين الدول الإسلامية الأعضاء والدول الأخرى، وأن العلاقة تقوم على أصل السلم وهذا ما يتفق مع ما قرناه من منهج الإسلام في العلاقات الدولية.

منظمة الوحدة الأفريقية:

وهناك منظمة أخرى تقوم على الرابطة الجغرافية إذ إنها تربط بين دول تقع كلها في قارة واحدة وهي قارة أفريقيا.

وتعود فكرة إنشاء هذه المنظمة إلى كون القارة الأفريقية قد وقعت فريسة للسيطرة الاستعمارية التي طمعت في ثرواتها وفرقت شعوبها، وكان من أهداف هذه المنظمة:

- دعم تضامن الشعوب الأفريقية والتشجيع على وحدة الدول الأفريقية .
- دعم وتشجيع التعاون في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . . .
- الحفاظ على استقلال الدول أعضاء المنظمة وسلامة أراضيها .
- التعاون مع الدول غير الأفريقية والمنظمات الدولية الأخرى وبخاصة الأمم المتحدة^(١).

(١) المنظمات الدولية الإقليمية والمتخصصة، د. مصطفى عبد الرحمن: ص ٣٩.

وأما المبادئ التي قامت عليها المنظمة فتتلخص فيما يلي:

- المساواة بين الدول الأعضاء.
- احترام سيادة كل دولة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء.
- حل المنازعات بين الأعضاء بالطرق السلمية.
- دعم الجهود لاستقلال الدول الأفريقية.
- رفض أعمال الاغتيال السياسي وصور النشاط الهدام^(١).

وهكذا نجد أن أي تجمع يحقق مبادئ سليمة ويهدف إلى غايات فيها الخير للإنسان يلقي من الإسلام الموافقة مع ترشيده واكتمال منهجه، وهو يؤيد دائماً — العمل الجماعي فيد الله مع الجماعة وثمرات العمل الجماعي أعظم وأبقى، ولهذا اتجهت إليها أنظار الناس فقامت لهذا — أيضاً — جامعة الدول العربية.

كما نشأت المنظمات الدولية المتخصصة بمقتضى اتفاقيات بين الدول بقصد رعاية مصالح مشتركة دائمة بينها في مجال متخصص ومنها منظمة العمل الدولية لتحسين أحوال العمل ورفع مستوى معيشة العمال واستقرار أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية.

(١) المنظمات الدولية الإقليمية والمتخصصة، د. مصطفى عبد الرحمن: ص ٤٣ و ٤٤.

الفصل السادس

شبهات في موضوع السلم والحرب في الإسلام

الحقائق في سرعة انتشار الإسلام:

لقد تناولنا في الفصول السابقة ما يبين حقيقة الإسلام في السلام وكيف يجعله أصلاً في حياة الناس، وكيف يقاوم من أراد تكبير صفو الناس مع سلمهم وأمنهم، ولو كان ذلك يبذل النفس والمال جهاداً في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، فإذا ما اضطر أبناء الإسلام إلى القتال لتحقيق هذه الغاية فإنهم يحرصون على أداء هذا الواجب بقدره وحجمه فإذا عاد المحاربون إلى الصواب أسرع المجاهد إلى قاعدة السلام وتوكل على الله. والمجاهد يحرص أثناء القتال على الالتزام بما ألزمه الإسلام من عدم قتل النساء والأطفال والشيوخ، والحرص على العمران والأشجار، فإذا ما انتصر كان لله شاكراً وللعدل محققاً، وعاش الناس في ظل سيادة الإسلام آمين.

من دخل في الإسلام، ومن بقي على ما كان عليه ليفكر في هدوء ويصل إلى القناعة الكاملة في أن الإسلام هو الحق الذي يتبع، وهذا المسلك في دعوة الناس إلى الإسلام أثار في نفوس الحاقدين ضغنتهم على الإسلام والمسلمين، وعدوا هذا المسلك نوعاً من المكر والدهاء يقول الدكتور حسين مؤنس في وصف هذه الحالة: (لقد كان العرب^(١) يفتحون البلد من البلاد ويعرضون الإسلام على أهله ثم يدعونهم وشأنهم حتى يقتنعوا بفضائله الإنسانية على هيئة، حتى لقد ذهب بعض الشائنين للعرب إلى أنهم لم يكونوا يهتمون بنشر دينهم،

(١) الأولى استعمال «المسلمون» بل هو الواقع والصواب.

وأن الجزية كانت أحب إليهم من الإسلام وما إلى ذلك مما نجده مسطوراً في كتب أعداء الملة. وما كان ذلك عن عدم حرص من العرب على نشر الإسلام، وإنما كان سيراً على أسلوب الدعوة في عهدها الأول: أسلوب عرض الدين على الناس وتركهم بعد ذلك أحراراً إلى أن يهدي الله منهم من يشاء. ومن غريب ما حدث في بلاد مثل مصر والأندلس أن كان مسلك العرب هذا ادعى إلى دخول الناس في الإسلام، لأنهم تعودوا ممن يتغلب على بلادهم أن يكون شديد الحرص على إدخالهم في دينه، فما بال أولئك العرب لا يلحون على الناس في الدخول في الإسلام، ولا يستخدمون القوة في ذلك كما كان رجال دولتي الرومان والروم يفعلون؟ قال «يولوج» الراهب القرطبي المبغض للإسلام: (فكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنهم لا يهتمون بدخول الناس في الإسلام، فتطلعت نفوس الناس إلى ذلك الإسلام وودوا لو يتعرفون عليه لعلمهم يعرفون السبب في اختصاص العرب أنفسهم به وضمنهم به على غيرهم، فما زالوا يفعلون ذلك ويسألون عن الإسلام ويستفسرون حتى وجدوا أنفسهم مسلمين دون أن يدروا). ولقد قال الراهب القبطي «يوحنا النقبوس» شيئاً من ذلك، وكان متأسفاً لأن العرب لم يلجأوا إلى القوة في فرض الإسلام، إذ لو أنهم فعلوا ذلك لزاد تمسك الأقباط بعقيدتهم - على مذهب العقاد - وإباء كل ما يفرضه بالقوة، ولما وجد الإسلام هذا الطريق السهل الميسر إلى القلوب في مصر والأندلس وإنك لتحاول أن تدرس كيف أسلم أقباط مصر، وكانوا من أشد الناس استمساكاً بعقيدتهم لقد استشهدت في سبيلها منهم جماعات بعد جماعات على أيدي عتاة الرومان من أمثال «دقلديانوس» وطغاة الروم من أمثال «قرس»، فلا تجد على تساؤلك جواباً، لأن التحول إلى الإسلام في هذين البلدين - مصر والأندلس - تم في هدوء وسكون: انسابت العقيدة في قلوب الناس كما ينساب الماء في أرض الزرع فتخضر وتزهو وتثمر بإذن ربها.

وفي بلاد المغرب أسلمت قبائل البربر مبهورة بما رأت من روعة إيمان عقبة بن نافع وأصحابه، فهذا الرجل الفريد في بابه، الذي وهب نفسه للإسلام

كان يلقي رئيس القبيلة ويحدثه ثم يدعو إلى الإسلام فيسارع إلى الإيمان ليكون من قوم عقبة، ثم يتبعه بعد ذلك قومه .

إن مداخل الإسلام إلى القلوب هي سماحته ويسره وإنسانيته، أنه يقدم للمؤمن به الاطمئنان وهدوء البال، ويفتح له إلى الله سبحانه باباً واسعاً للمغفرة والأمل وثواب الآخرة، وكل ذلك دون مقابل . في أديان أخرى تعرض عليه أموال وهدايا وقرايبين، ويلزم بطاعة رهبان وقساوسة، ويراقب ويعاقب ويحرم من نعمة الله بقرار من رئيس الكنيسة لا شيء من هذا في الإسلام – من هنا كان مدخله إلى النفوس سهلاً ذلولاً^(١).

شبهة الإكراه والحزبية :

وعلى الرغم من وضوح هذه الحقائق نجد الشائنين على الإسلام يثيرون شبهاتهم أمام من لا يعرف هذه الحقائق ويلبسون ما يثيرونه أثواباً من الخداع الذي يصور الباطل وكأنه شيء، فمن هذه الشبهات التي أثيرت قولهم إن الإسلام انتشر بحد السيف ويقدمون لتبرير دعواهم قائمة بالحروب التي ذكرت أسماؤها حتى ليخيل للقارئ أو السامع أن الإسلام محب لسفك الدماء وأنه لا يستطيع الانتشار بغير القهر والإكراه .

وهذه الدعوى وتلك الشبهة مردودة بما تنطق به نصوص الإسلام أولاً .
ف ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ .

ثم من التطبيق العملي في مسيرة الدعوة فلا يستطيع هؤلاء أن يقدموا لنا أسماء من أكرهوا على دخول الإسلام، ولم يسجل لنا التاريخ حالة واحدة تسندهم في دعواهم بل، كان العكس هو الذي يقع أن يلقي المسلمون العنت من الكافرين عندما يعلنون إسلامهم، ويواجهون بالفتنة في الأبدان والأموال ويواجهون السخرية والاستهزاء والمساومة والإغراء . وأما ما دار من حروب فقد عرفنا في الصفحات السابقة أهدافها وأخلاق المجاهدين .

(١) الإسلام الفاتح، د. حسين مؤنس: ص ١٥ و ١٦ .

ثم إن نتيجة هذه الحروب تكذب هؤلاء الشائنين في دعواهم فقد رأينا كيف يكون التعامل مع الأسرى، فإذا كان الإسلام - كما يزعمون - يفرض بالسيف فما كان النص القرآني الحكيم في شأن الأسرى يقول: ﴿... فَأَمَّا مَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا﴾. فالمن أو الفداء رد عليهم^(١).

كما أن وجود أهل الديانات الأخرى واستمرارهم في البلد المفتوحة رد واقعي عليهم كذلك.

ويذكر ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾:

أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بَيَّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً، وقال ابن جرير: حدثنا ابن يسار حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا تدع أبناءنا فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وقد رواه أبو داود والنسائي جميعاً عن بندار به ومن وجوه آخر عن شعبة به نحوه، وقد رواه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه من حديث شعبة به وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم أنها نزلت في ذلك، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد الجرجسي عن زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد عن ابن عباس قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال:

(١) انظر الإسلام والمستشرقون - مجلة البعث الإسلامي المجلد السابع والعشرين:

نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصيني كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلاً مسلماً فقال النبي ﷺ: ألا استكرههما فإنها قد أبايا إلا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك، [رواه ابن جرير].

وروى السدي نحو ذلك، وزاد: وكانا قد تنصرا على أيدي تجار قدموا من الشام يحملون زيبياً فلما عزموا على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث في آثارهما فنزلت هذه الآية. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عوف أخبرنا شريك عن أبي هلال عن أسبق قال: كنت في دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب فكان يعرض علي الإسلام فأبى فيقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ويقول: يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك في بعض أمور المسلمين... (١).

وأشار ابن كثير إلى ما ذهب إليه طائفة كثيرة من العلماء من أن هذه محمولة على أهل الكتاب، وذكر القرطبي في معنى الآية الكريمة ستة أقوال (٢) يرجح فيها ما رواه أبو داود عن ابن عباس في أنها نزلت في الأنصار، كانت تكون المرأة مقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار قالوا: لا ندع أبناءنا! فأنزل الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

قال أبو داود: والمقلات التي لا يعيش لها ولد. في رواية: إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنكرهم عليه فنزلت: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ من شاء التحق بهم ومن شاء دخل في الإسلام. وهذا قول سعيد بن جبير والشعبي ومجاهد إلا أنه قال: كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع.

ودليل ترجيح القرطبي لقول ابن عباس رضي الله عنهما إيراده لقول

(١) تفسير ابن كثير: ٣١٠/١ و ٣١١.

(٢) انظر تفسير القرطبي: ٢٨٠/٣ و ٢٨١.

النحاس: (قول ابن عباس في هذه الآية أولى الأقوال لصحة إسناده، وأن مثله لا يؤخذ بالرأي)^(١).

ويذهب إلى هذا - أيضاً - ابن جرير وكذلك الزمخشري في تفسيره والرازي.

ويرتبط بشبهة الإكراه ما قيل في أمر الجزية، ولقد سبق الكلام عنها، ولكن نضع في هذا المقام النقاط على الحروف دفعا لما أثير فيها من دعاوي.

ليس القدر المالي الذي يؤخذ ممن يتمتع بحقوق الرعوية مع المسلمين الفاتحين مغرباً حتى يكون الغاية من الفتوحات الإسلامية، فمقاديرها ضئيلة ولا تقارن بما يؤخذ من أموال المسلمين من الزكاة.

كما أن هذا القدر الضئيل يراعى فيه قدرة من سيدفع ولذلك فهي على مستويات: أعلاها ٤٨ درهماً في السنة على الأغنياء مهما بلغت ثرواتهم^(٢) وقدردت بـ ٢٤٠ قرش مصري تقريباً. وأوسطها ٢٤ درهماً في السنة على المتوسطين من تجار وزراع.

وأدناها ١٢ درهماً في السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملاً. كما يعفى من دفع الجزية تماماً الفقير والصبي والمرأة والراهب المنقطع للعبادة والأعمى والمقعّد وذوو العاهات^(٣)، جاء في عهد خالد لصاحب قس الناطف: (إني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد، القوي على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله)، ويدفع هذا القدر اليسير مع المقدرة عليه ليجد الدافع الحماية في ماله وعقيدته وعرضه وكرامته فقد جاء في عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف: (إني عاهدتكم على الجزية والمنعة... فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمعنكم)^(٤).

(١) المرجع السابق: ٢٨٠/٣.

(٢) انظر هذا هو الإسلام د. مصطفى السباعي: ص ٣٥؛ وانظر موسوعة فقه عمر: ص ١٨٣.

(٣) المرجع السابق؛ وانظر موسوعة فقه عمر: ص ١٨٦.

(٤) هذا هو الإسلام د. مصطفى السباعي: ص ٣٤؛ وتاريخ البلاذري.

ولذلك رد خالد بن الوليد على أهل حمص، وأبو عبيدة على أهل دمشق، وبقية القادة المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطر المسلمون إلى مغادرتها قبل معركة اليرموك، لأن الجزية أخذت منهم على المنعة والحماية فإذا لم تتحقق ردت الأموال.

فإذا قيل: ولماذا لا يكلفون بحماية أنفسهم؟ قلنا: إنه من الإكراه لهم أن نطلب منهم أن يتظموا في صفوف جيش يدافع عن مبادئهم لم يؤمن هذا الإنسان بها.

أما إذا رضي أن يتطوع في الجيش الإسلامي قبل ذلك منه وسقطت عنه الجزية^(١).

كما أن ما يدفعه الواحد منهم من الجزية يعود عليه عند حاجته فقد جاء في عهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة: (أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وأعييل من بيت مال المسلمين وعياله^(٢)).

مرّ عمر بباب قوم وعليه سائل، شيخ كبير ضرير البصر، يسأل فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، قال: فما ألجأك إلي ما أرى؟ قال: أسألك الجزية والحاجة والسّن. قال: فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم^(٣).

كما يجوز للإمام أن يعفى عن الجزية جميعاً، كما فعل أبو عبيدة رضي الله عنه حين أسقط الجزية عن أهل السامرة بالأردن وفلسطين^(٤) وكما أسقط عمر

(١) المرجع السابق: ص ٣٧.

(٢) الخراج، لأبي يوسف: ص ١٤٤.

(٣) خراج أبي يوسف: ص ١٥٠؛ وانظر موسوعة فقه عمر: ص ١٨٥.

(٤) هذا هو الإسلام د. مصطفى السباعي: ص ٣٨؛ وانظر: فتوح البلدان، للبلاذري.

رضي الله عنه الجزية على ملك شهربراز وجماعته لقاء اتفاهه معهم على قتال العدو، وكما أسقط معاوية رضي الله عنه الجزية عن سكان أرمينية ثلاث سنوات.

ويحسن أن نذكر في هذه النقاط المتعلقة بأمر الجزية الفهم الذي يناسب التطبيق العملي الذي تم في أخذ الجزية، فقد فهم أن الجزية تحمل معنى الإذلال في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(١).

ولكن الفهم الذي ينسجم مع ما ذكر من حقيقة التطبيق الصحيح لأخذ الجزية هو أن تفسير «يد» في الآية الكريمة يعني ما جاء في عهد خالد رضي الله عنه لصاحب قس الناطف والذي ذكر منذ قليل: (إني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد، القوي على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله). فاليد — هنا — تعني القدرة.

وأن تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٢).

فإن الصغار — هنا — بمعنى الخضوع وليس الذلة والمهانة وقد ذكر الشافعي — رحمه الله — في قوله عز وجل: ﴿عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ﴾^(٣):

أي يجري عليهم حكم المسلمين^(١). فهو يفسرها — إذن — بمعنى الخضوع لحكم المسلمين. ويذهب إلى هذا الدكتور مصطفى السباعي — رحمه الله — فيقول: (يتحتم تفسير الصغار هنا بالخضوع لا بالذلة والمهانة، ومن معاني الصغار في اللغة الخضوع، ومنه أطلق «الصغير» على الطفل لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه، والمراد بالخضوع حينئذ الخضوع لسultan الدولة، بحيث يكون في دفع الجزية معنى الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم، وليس في الخضوع لقوانين الدولة وسلطانها غضاضة على المواطنين مهما اختلفت عقائدهم^(٢)).

(١) انظر لسان العرب، لابن منظور: ٤٥٩/٤.

(٢) هذا هو الإسلام: ص ٤٣.

وإذا حدث نوع من التجاوز في زمن من الأزمان في التطبيق فإن ملاسبات التطبيق على مر العصور والتصرفات الخاصة من بعض المنفذين لا تحسب على الإسلام في نظامه العادل، وإنما تحسب على فاعليها.

شبهة الرق:

وإذا وصلنا إلى تقرير أن الجزية ليست غاية من الجهاد فإننا نقرر كذلك حقيقة أخرى هي أن الرق ليس غاية من الجهاد في الإسلام كما يدعى المبطلون، بل إن هذا القول دليل على عدم الفهم لحقيقة الإسلام وغاياته ووسائله في الوصول على هذه الغايات.

فإن الإسلام هو الذي يقرر كرامة الإنسان وحرية فلا يعرف العبودية إلا لله سبحانه، وقد جاء الإسلام وكان الرق نظاماً متبعاً في العالم كله، ويعامل الرقيق معاملة لا تليق بالإنسان وتكريم الله له فقدم الإسلام للناس ما يعيد صوابهم في نظرهم إلى الإنسان ليجتث الداء ويعالج المشكلة معالجة واقعية وموضوعية فقدم ما يحقق المساواة بين الناس «بعضكم من بعض» جاء ليقول: (من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه، ومن أخصى عبده أخصيناه)، جاء ليقرر وحدة الأصل والمنشأ والمصير: (أنتم بنو آدم، وآدم من تراب) وأنه لا فضل لسيد على عبد لمجرد أن هذا سيد وهذا عبد وإنما الفضل للتعوى: (ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى). جاء ليأمر السادة أمراً أن يحسنوا معاملتهم للرقيق: ﴿وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَيِذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾^(١). وليقرر أن العلاقة بين السادة والرقيق ليست علاقة الاستعلاء والاستعباد أو التسخير أو التحقير، وإنما هي علاقة القربي والأخوة، فالسادة (أهل الجارية) يستأذنون في زواجها: ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِن نِّسَائِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ

(١) سورة النساء: الآية ٣٦.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴿١١﴾ .

وهم إخوة للسادة: «إخوانكم خولكم... فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم». وزيادة في رعاية مشاعر الرقيق يقول الرسول الكريم: «لا يقل أحدكم: هذا عبدي وهذه أمتي وليقل: فتاي وفتاتي». ويستند على ذلك أبو هريرة فيقول لرجل ركب وخلفه عبده يجري: (احمله خلفك، فإنه أخوك، وروحه مثل روحك)^(٢) والإسلام بهذه التوجيهات والتشريعات قد قدم التهيئة الواقعية للتحرير العملي الصحيح.

ثم دعا وشجع على العتق والمكاتبه فأصبح العتق من كفارات الذنوب وإذا طلب الرقيق منح الحرية مقابل ما يتفق عليه من مال منح ذلك.

وسلك الرسول ﷺ المسلك العملي مع أصحابه في تنفيذ ما سبق أخذاً بيد الناس إلى التحرر الكامل الصحيح فكان يؤاخي بين بعض الموالى وبعض الأحرار من سادة العرب فأخى بين بلال بن رباح وخالد بن رويحة الخثعمي، وبين مولاه زيد وعمه حمزة، وبين خارجة بن زيد وأبي بكر. وزوج بنت عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد، وأرسل مولاه زيداً على رأس جيش فيه الأنصار والمهاجرون من سادات العرب فلما استشهد وليّ ابنه أسامة بن زيد قيادة الجيش وفيه أبو بكر وعمر فلم يعطه المولى مجرد المساواة الإنسانية بل أعطاه حق القيادة والرئاسة على «الأحرار»^(٣).

وهو الذي قال: (اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبه ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى) وعمر بن الخطاب يقول وهو يستخلف: (لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته).

(١) سورة النساء: الآية ٢٥.

(٢) انظر شبهات حول الإسلام أ. محمد قطب: ص ٣٧ و ٣٨.

(٣) شبهات حول الإسلام: ص ٤٨.

وهكذا كانت الواقعية في التحرير الصحيح الذي تربى فيه نفوس الأرقاء وتهذب فيه نفوس السادة ليكون الجميع بهذه التربية إخواناً.

والإسلام الذي سلك هذا المسلك حرّم كل الصور التي تمثل مصادر الرق، ولكن بقي مصدر يضطر إليه المسلمون اضطراراً لا يتعلق بهم وحدهم وهو الحرب وما يكون من أسرى الحرب وقد كان الأسرى المسلمون يسترقون عند أعداء الإسلام فتسلب حرياتهم ويعامل الرجال منهم بالعسف والظلم الذي كان يجري يومئذ على الرقيق، وتتهدك أعراض النساء لكل طالب، يشترك في المرأة الواحدة الرجل وأولاده وأصدقاؤه ممن يبغى الاستمتاع منهم بلا ضابط ولا نظام ولا احترام لإنسانية أولئك النساء أكاراً كنّ أو غير أكار. أما الأطفال – إن وقعوا أسرى – فكانوا ينشأون في ذل العبودية البغيض^(١).

فكان من باب المعاملة بالمثل أن يظل هذا الباب مفتوحاً ولكن مع فارق المعاملة على ما قدمنا في الصفحات السابقة من معاملة الإسلام للأسرى.

والذي ينبغي أن ننبه إليه مع ما سبق من أن الآية الكريمة التي تعرضت لأسرى الحرب قد ذكرت المن والفداء، ولم تذكر الاسترقاق للأسرى، حتى لا يكون هذا تشريعاً دائماً للبشرية، وعلى ذلك يكون أخذ المسلمين بمبدأ الاسترقاق في الحروب خضوعاً لضرورة قاهرة لا فكاك فيها.

فالجهد في سبيل الله سبحانه – لم يكن رغبة في استعباد الناس أو أخذ أموالهم، أو التوسع والسيطرة العاشمة –، إنما كان جهاداً لتكون كلمة الله هي العليا، لأن تحقيق هذه الغاية يضمن للمجتمعات البشرية أمنها وسلمها وحريتها وكرامتها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

(١) شبهات حول الإسلام: ص ٥١.

الخاتمة

وبعد أن عشنا في مباحث هذا الموضوع الخطير نبرز أهم نتائجه فيما يلي :

— لقد وقفنا على حاجة البشرية إلى تحقيق السلام في حياتها لما تحدثه الحروب من آثار مدمرة لا تستقيم حياة الإنسان بها، وقدمنا الأدلة على حرص الإسلام وضماناته لحفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال. وأن الإسلام يتميز على قوانين البشر في ذلك بأنه يربي الناس على احترام القوانين احتراماً ذاتياً دون حاجة إلى رقيب بشري، لأن المسلم ينطلق في أعماله كلها من قاعدة الإخلاص لله سبحانه في كل شؤونه.

— كما تناولنا مفهوم السلام في الإسلام وأنه مبدأ من مبادئ التي برزت عناية الإسلام بها في اسمه الدال عليه، وفي مضمونه، وما يدعو إليه. وأنه يشيع هذا المبدأ ليشيع في النفس الإنسانية وفي الأسرة البشرية معاني المودة والرحمة. وقد جعل الإسلام السلام أصل العلاقات البشرية، وإن ابتعدت عنه تصارعت، وأنه لا بدّ من إزالة أسباب الصراع لتتحقق العودة إليه تحقيقاً للأمن وإرساء للطمأنينة.

ولقد وعى سلف هذه الأمة هذه الحقائق فانطلق قادة الفتوح الإسلامية يطبقون هذه المبادئ تطبيقاً عملياً في ميادين الجهاد، وأن الوثائق التاريخية تشهد لهم بذلك.

— كما تناولنا ضمانات الإسلام لتحقيق السلام وجعله واقعاً يعيشه الناس ويجنون ثماره، وهي مجموعة التدابير التي تكفل هذا ووجدناها تنقسم إلى قسمين: ضمانات نفسية، ومعالجة الصراع إذا وقع بين البشر معالجة موضوعية.

فوضع الإسلام أيدينا على بداية الصراع في حياة البشر، وأهم العوامل المؤثرة على السلم في حياة الناس، وتتصل بالعامل النفسي كحب الاستعلاء في الأرض، واستغلال ثروات الآخرين، والنظرات العنصرية، والأثرة، وضعف التربية على الوازع الديني. وأما العلاج فإن الإسلام يتناوله بمنهج متكامل يعالج المشكلة من جذورها فيعالج الأهواء النفسية، كما يعالج الأسس التي تقوم عليها العلاقات الإنسانية في: النظرة الصحيحة إلى الإنسان، وإقامة العلاقات الإنسانية على المساواة الإنسانية، والعدل، والتكافل الإنساني، والأساس المنصف للتفاصيل بين الناس والذي يدفع بالإنسانية إلى الخير والتنافس في مجالاته.

فهذه الضمانات تؤمن الفرد والجماعات وتحول بينهم وبين الصراعات الدموية، فإذا تغلبت نوازع السوء ووقع الصراع فإن الإسلام يتخذ الجهاد سبيلاً لتحقيق هذا السلم الذي يعده أصلاً في حياة الناس.

— كما تناولنا مدلولي الجهاد والحرب. وكيف يكون مصطلح الجهاد معبراً عن المعنى الذي يريده الإسلام من القتال، وأن كتب التراث استعملت مصطلح الجهاد وكذلك المغازي والسير.

— ثم تناولنا حكم الجهاد ومراحل تشريعه، فهو فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن باقيهم، ولم يأثموا بتركه، ويتعين الجهاد في حالات تضطر فيها الأمة كلها إلى مواجهة العدو، إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان، وإذا نزل الكفار ببلد، وإذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير.

كما وجدنا ابن عبد البر يتفق مع جمهور العلماء في حكم الجهاد والفرض بقسميه ولكنه يقرر هذه الفرضية بوصف عملي ينظر فيه إلى الأمة المسلمة باعتبارها أمة واحدة في عزتها ومنعتها، وكذلك ينظر في قوله إلى وجود الإمام للأمة والذي يحمل على كنفه مسؤولية الدعوة وتبليغها للعاملين وإنقاذ الناس من الشرك ومظاهره ومن الظلم وآثاره، فيذكر غزواً آخر يسميه غزو النافلة، ويتمثل في إخراج طائفة بعد طائفة، وبعث الرايات في أوقات العزة.

ووجدنا أن الحكم الذي ذكره العلماء للجهاد مرتبط بغايات الجهاد التي تجعل اللجوء إلى القتال ضرورة وصولاً إلى الحق وتحقيقاً للعدل ودفعاً للفساد وتبليغاً لكل ما يحقق في الناس هذه القيم وهو الإسلام الذي ينقذ العالمين.

— كما رأينا كذلك أن حكم الجهاد مرتبط بمسيرة الدعوة حيث عاش المسلمون فترتها الأولى يواجهون تحديات شتى ويفتنون في أبدانهم وأموالهم، ويقابلون هذا بالصبر الجميل والدفع الفردي عند الاستطاعة وبالتحرك عن مواطن الفتنة بالهجرة، ثم الإذن بالقتال وأبيح لهم رداً للعدوان مع عدم الاعتداء، ثم فرض القتال تحقيقاً لغاياته.

— كما وجدنا ارتباط حكم الجهاد ببواعثه وأهدافه، فالهدف الأسمى من الجهاد والذي يقره الإسلام هو الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، لأن تحقيق هذا الهدف يحقق للناس سلمهم الحقيقي ويضمن لهم سلامة أنفسهم وصيانة أعراضهم وحفظ أموالهم، كما أن الجهاد لرد الاعتداء الذي يقع من الظالمين الذين يقفون في طريق الدعوة.

وكذلك لرد العدوان على الديار والعرض والنفوس والمال. فإذا أوقف المعتدي اعتداءه وجب وقف قتاله.

— وبعد أن وجدنا هذا السمو في البواعث والأهداف عرضنا لبيان فضل الجهاد وطلبه فهو تجارة منجية من عذاب الله، وهو من أسباب مغفرة الذنوب، ودخول الجنان والمسكن الطيبة في جنات عدن، وهو الفوز العظيم، وبه يتحقق النصر والفتح القريب، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وقد اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

— كما تناولنا منهج الإسلام في حقن الدماء، فهو يصون النفس الإنسانية ويحرم الاعتداء عليها إلا إذا استوجبت هذه النفس عقوبة تستحقها، كما يعد الإسلام الاعتداء على النفس اعتداء على الناس جميعاً.

ومن حرص الإسلام على سفك الدماء وجدنا توجيهات الإسلام في إعداد

ما استطاع المسلمون من قوة لإلقاء الرعب في قلوب الأعداء فلا تحدث مقاتلة .
كما يجعل الإسلام الرد على العدوان بقدره ولا يتمادى في إيقاع المزيد عليه .

كما يقصر القتال على المقاتلة فلا قتل للنساء، أو الشيخ الفاني أو الصبي أو الرهبان .

ومن باب تحجيم سفك الدماء كذلك – ما اشترطه الإسلام من توجيه الدعوة أولاً قبل القتال .

فإن أصر الأعداء على القتال فإن الإسلام يشرع كتمان الأمر والتورية لتحقيق المفاجأة التي تدعوا العدو إلى التسليم دون سفك الدماء . وقد وجدنا التطبيق العملي في حروب المسلمين لهذه الضوابط .

– وتناولنا بعد ذلك خلق الجهاد في الإسلام، وكيف جعل الإسلام نظامه الخلقي يتناول السلم والحرب حيث جعل التخلق بمكارم الأخلاق من الغايات التي بعث بها رسول الله ﷺ . وكيف تتجلى الصور الخلقية في القادة من رفق القائد بجنده ونصحه لهم ومشاورته لجيشه، وما يتعلق بالجنود من الطاعة للقائد في المعروف .

ومن الصور الخلقية للمجاهدين جميعاً الصبر والمصابرة والثبات وعدم الفرار .

ومنها الظهور بالقوة مع عدم الغرور وذلك لإرهاب أعداء الله وتحجيم سفك الدماء .

ومنها الرحمة وما يتبعها من عدم المثلة والتحريق وقطع الأشجار وهدم العمران ومنها الوفاء بالعهود والمواثيق .

ومنها الشكر مع النصر وعدم اليأس عند الهزيمة ومحاسبة النفس ورأينا تطبيقات عملية لهذه الأخلاق في الغزوات .

ومن هذه الأخلاق الجامعة الطاعة لله سبحانه ورسوله ﷺ، والتزّه عن المعاصي التي تكون سبباً في سخط الله وغبه.

وإذا كان الجهاد في الإسلام ملتزماً بهذه الأخلاق الكريمة فكيف يقرن بالإرهاب!؟

— كما تناولنا الآثار المترتبة على الجهاد. ووجدنا أن الحرب إذا وضعت أوزارها فإنها تنتج مجموعة، من الآثار التي تتصل بالمجاهدين والمحاربين، وتناولنا من هذه الآثار ما يتعلق بدار الإسلام، ودار الحرب، والمعاهدين وما يجب عليهم من واجبات ليستمتعوا بما لهم من حقوق، والهدنة، والأمان الحربي، والصلح، والغنائم وأحكامها (الأموال المنقولة — الأسارى — الأرض) وتوجيهات الإسلام في حالة وقوع الهزيمة بالمسلمين.

وقد وجدنا أن الدنيا كلها — بحسب الأصل — دار واحدة، وأرض الله الواسعة لخلق الله جميعاً واحدة، لا يحظر على أحد مكان منها إلا بسبب يوجب ذلك.

ومن هذه الأسباب قيام الحرب وما يتبعها من آثار فيحظر على المسلم أن يقيم في دار يقوم فيها القتال بينهم وبين المسلمين لما يترتب على ذلك من تعريضهم للمخاطر والقتل.

وتقسيم العلماء للأرض على قسمين نشأ من الآثار المترتبة على وقوع الحرب.

فيقصد من دار الإسلام البلاد التي تحكم بالإسلام تظهر فيها شعائره ويأمن فيها المسلمون.

وأما دار الحرب فهي البلاد التي لا تحكم بالإسلام ولا تظهر فيها شعائره فالسلطان فيها لغير المسلمين.

كما ينشأ من آثار الحرب دار ثالثة تسمى بدار العهد وهي التي لم يظهر

عليها المسلمون ولكن أهلها دخلوا في عقد المسلمين وعهدهم على شرائط
تتشرط وقواعد تعين فهذه تسمى بدار العهد وهي دليل على الإسلام لا يكره أحداً
على اعتناقه .

وفي بيان ما للمعاهدين وما عليهم وجدنا :

التحذير من نقض العهود بصورة عامة ، كما يعامل المعاهدون الذين قبلوا
شروط المسلمين ودخلوا في الطاعة قبل الحرب أو أثناء الحرب ، يعاملون طبقاً
لشروط الصلح التي أبرمت معهم كما قدمنا نماذج من هذه المعاهدات .

فإذا ما نصح المعاهدون ووفوا والتزموا فلهم :

١ — حماية النفس والعرض من أي اعتداء سواء من المسلم أو غيره .

٢ — إذا غزا العدو بلاد المسلمين فغنم شيئاً من أموال أهل الذمة ثم أظهر
الله المسلمين على عدوهم واستردوا هذه الأموال فعليهم إعادتها إلى
أصحابها من أهل الذمة دون مقابل .

٣ — لهم المحافظة على عقائدهم وعباداتهم ، وعلاقاتهم الشخصية .

٤ — لهم أن يمارسوا من عاداتهم ما لا يتعارض مع آداب الإسلام العامة .

— كما رأينا من الآثار المترتبة على الجهاد كذلك الهدنة وهي أن يطلب
الأعداء ترك القتال فترة من الفترات قد تنتهي إلى الصلح وهذا يسمى بعقد الهدنة
والموادعة . إذا تم الاتفاق عليه فإذا طلب العدو ذلك فيجب أن يجاب إلى طلبه .
وكذلك إذا كانت الأشهر الحرم فلا يحل فيها البدء بالقتال إلا إذا بدأ فيها
العدو بالقتال .

— وأما الأمان فهو كذلك من الآثار المترتبة على الجهاد — كذلك — وهو
أن يطلب فرد من الأعداء المحاربين الأمان وعندئذٍ تقبل منه ولا يجوز الاعتداء
عليه .

وطالب الأمان يطلبه لأغراض شتى ويعامل على حسب حاله وهذا الأمان

الفردى أعطاه الإسلام للرجال والنساء، فمن حق أى فرد أن يؤمن من الأعداء يطلب الأمان باستثناء الصبيان والمجانين.

وأما الأمان الذى يعطى للجماعة فإنه من شأن أمير المؤمنين لتحرى المصلحة.

ويبقى المستامن مستمتعاً بحقه فى الأمان ما دام محافظاً على الأمان والنظام العام ولم يخرج عليهما بأن يكون عيناً أو جاسوساً، وتطبق عليه القوانين الإسلامية فى المعاملات المالية والعقوبات.

— كما أنه قد يعقد الصلح بين المسلمين وبين أقوام دون حصار.

— ومن الآثار — كذلك — الغنائم وهى المال المأخوذ من أعداء الإسلام عن طريق الحرب وتشمل:

١ — الأموال المنقولة.

٢ — الأسارى.

٣ — الأرض.

وتسمى كذلك الأنفال.

وقد أحل الله لهذه الأمة الغنائم، ووزعت توزيعاً يحقق النفع للأمة جميعاً. وعرضنا للتجربة الأولى فى تقسيم الغنائم فى بدر. ومع تحقيق العدل فى التقسيم يأتى التحذير من الغلول.

ومن هذه الغنائم الأسارى وهم المقاتلون الذين يقعون فى أيدي المجاهدين أحياء، وقد يكون من الأسرى النساء والصبيان، فأما الرجال المقاتلون فللحاكم المسلم أن يتصرف معهم بما هو أنفع وأولى بالحق من المن أو الفداء، أو القتل لمجرمي الحرب.

وأما النساء والصبيان فليس عليهم القتل.

وإذا كانت الحروب تتمخض عن وقوع أسرى لدى كل فريق من

المتحاربين فإننا رأينا كيف تكون المعاملة الرقيقة الإنسانية الحانية من الإسلام نحو الأسارى رجالاً ونساءً وذريةً.

— وأما ما يتعلق بالأرض فإن الإمام مخير فيها بين أمرين:

الأول: أن يقسمها على المجاهدين.

الثاني: أن تصيح وقفاً على المسلمين.

وإذا اختار الحالة الثانية فإنه يضرب على الأرض خراجاً مستمراً، ويقدر الخراج اجتهاداً بما يناسب المكان والزمان.

هذا من جانب الآثار المترتبة على الجهاد في حالة انتصار المسلمين، أما إذا حدث تقصير من قبل المجاهدين في جانب من الجوانب وأصابهم القرح، وحدثت الهزيمة فإن الإسلام يوجه اتباعه إلى ما سبق ذكره من أخلاق المجاهدين، وإذا وقع في يد العدو أسرى من المسلمين ينبغي أن يبذل الإمام كل الجهد في تخليص الأسرى حتى لا يفتنوا في دينهم وحتى لا يتعرضوا للأذى وهم في قبضة العدو.

— وتناولنا في العلاقات الدولية في الإسلام ضرورة الاتصال بين الأفراد والدول وأن الإسلام أقام العلاقات الداخلية بين أفراد الأمة على المودة والرحمة لتتحقق معهم الوحدة العضوية والتي قامت على الأخوة في الله سبحانه، وما يصحب الأخوة من حقوق ومظاهر منها الحب في الله، ومنها التراحم والتكافل والتكامل.

والأسس التي جعلها الله سبحانه في العلاقة بين الإنسان وغيره لا تمثل — كما يزعم المغرضون — تكوين عنصرية جديدة تقوم على أساس العقيدة، ولكن تحقيق مفهوم الوحدة الحقيقية بين المؤمنين يأتي ثمرة طبيعية لاستجابة المؤمنين، وليست تكويناً عنصرياً، وتنتج الأمة المؤمنة نحو غيرها من الجماعات البشرية الأخرى لتحقق معها علاقات يؤسسها الإسلام على:

١ — التذكير بالأصل الواحد.

٢ - الحق .

٣ - العدل .

٤ - أساس التفاضل في الإسلام فيما يستطيعه الإنسان من أعمال تسعده وتقدمه في حياته .

واتضح لنا من تناول هذه الأسس أن الإسلام يهدف في بيان علاقة الإنسان بغيره إلى تحقيق الأمن والسلم والحياة الطيبة للأفراد والجماعات .

ورأينا أن الرسول ﷺ سلك السبيل العملي في بيان علاقة الدولة المسلمة بغيرها من الدول المخالفة في الكتاب الذي كتبه عند قدومه المدينة بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم، وبين العلاقة بين الدول المسلمة، والمخالفين في الدين خارج الدولة، مما يبرهن على أن دولة الإسلام تتسع لعلاقات سليمة مع الدول المخالفة، بل وتتسع الدولة الإسلامية نفسها للتعايش مع المخالفين في الدين ما داموا مسالمين .

— كما تناولنا موقف الإسلام من المنظمات الدولية، ووجدنا أنه يرحب ويشجع كل ما يحقق للمجتمعات البشرية أمنها وسلمها الحقيقي فإذا أدرك الناس خطورة الحرب بينهم ووجدوا أن السبيل إلى تحجيمها في تكوين منظمات تضم مجموعة من الدول التي ترضى فيما بينها ما يحقق قواعد العدل والحق والمساواة فإن الإسلام يربط على أيديهم ويعينهم على ذلك بمنهجه الرشيد وكماله الذي لا يشوبه الهوى .

وقد أشاد الرسول الكريم بحلف الفضول وآثاره وأنه لو دعي به في الإسلام لأجاب .

وقد قدمنا الظروف الدولية التي دعت إلى إنشاء المنظمة الدولية العالمية لتعمل على حفظ السلم والأمن الدولي، وإنماء العلاقات الودية بين الأمم، وتحقيق التعاون الدولي في جميع المجالات . وجعل الأمم المتحدة مركزاً لتنسيق أعمال الأمم، كما ذكرنا المبادئ المعلنة لها، وكيف يحذر الإسلام في مبادئه من الفصل بين المبادئ النظرية والتطبيق العملي .

كما بينا الدوافع التي جعلت منظمات دولية أخرى تنشأ لتحقيق مصالح تخص هذه المنظمات، ومنها منظمة المؤتمر الإسلامي، ومنظمة الوحدة الأفريقية، والمبادئ والأهداف لهذه المنظمات.

— كما تناولنا الشبهات في موضوع السلم والحرب في الإسلام وقد بينا كيف كان العرض السابق لمباحث هذا الموضوع هو الرد الموضوعي لما أثير من شبهات مغرضة لا تستند إلى واقع بل هي من أوهام المشككين وحقد المغرضين على الإسلام والمسلمين.

وذكرنا من هذه الشبهات شبهة الإكراه في الدين ونشره بالسيف وكيف إنها متهافة بتصريح النصوص في أنه «لا إكراه في الدين». ومن الواقع العملي في مسيرة الدعوة والفتوحات، واستمرار وجود المعاهدين وأهل الديانات الأخرى إلى الآن في البلدان المفتوحة.

— كما تناولنا ما يتصل بهذه الشبهة من شبهة الجزية والرد عليها وهي القدر المالي الذي يؤخذ ممن يتمتع بحقوق الرعاية من المسلمين الفاتحين ولم يكن مغرباً حتى يكون الغاية — كما يزعمون — من الفتوحات فأعلاها ٤٨ درهماً وأدناها ١٢ درهماً وأوسطها ٢٤ درهماً ويعفى منها الفقير والصبوي والمرأة والراهب المنقطع للعبادة والأعمى والمقعّد وذوو العاهات.

ويدفع هذه القدر اليسير مع القدرة عليه ليدافع عنه في ماله وعقيدته وعرضه وكرامته. وإن لم يستطع الفاتحون تحقيق هذا لسبب من الأسباب ردوا هذا القدر اليسير إليهم وما يدفعه الواحد منهم يعود عليه عند حاجته.

وقد ناقشنا ما معنى الإذلال في إعطاء الجزية وأنه ينصرف إلى معنى الخضوع للنظام وأن تكون عن قدرة.

— كما تناولنا شبهة أخرى في اعتبار الرق غاية من الجهاد في الإسلام، وكيف أن هؤلاء لم يفهموا حقيقة الإسلام الذي يقرر كرامة الإنسان وحرية فلا يعرف العبودية إلاً لله سبحانه، وكيف عالج الإسلام الرق الذي كان شائعاً معالجة

موضوعية صحيحة فقدم ما يحقق المساواة بين الناس وما بين النفوس على القيم والمبادئ التي تحقق للإنسان الشعور بكرامته ثم أغلق جميع المصادر للرق، ووسع طرق العتق، مع استمرار المعاملة الكريمة، معاملة الأخوة بين السادة وإخوانهم، كما آخى بين بعض الأحرار من سادة العرب وبين بعض الموالي ومنحهم الرسول مراكز قيادية لجدارتهم، وأمر بطاعتهم.

وأما المصدر الذي يضطر المسلمون اضطراراً فهو يتعلق بغيرهم من الأعداء الذين يسترقون الأسرى من المسلمين فيسلبونهم حريتهم ويعاملونهم بالعسف والظلم، ولذلك فإن هذا الباب ظل مفتوحاً مع فارق المعاملة.

كما أن الآية الكريمة التي تحدثت عن الأسرى قد ذكرت المن والفداء فقط حتى لا يكون الاسترقاق للأسرى تشريعاً دائماً للبشرية.

وعلى ذلك يكون أخذ المسلمين بمبدأ الاسترقاق في الحروب خضوعاً لضرورة قاهرة لا فكاك منها.

فالجهاد في سبيل الله سبحانه لم يكن رغبة في استعباد الناس أو أخذ أموالهم، أو التوسع والسيطرة الغاشمة، إنما كان جهاداً لتكون كلمة الله هي العليا، لأن تحقيق هذه الغاية يضمن للمجتمعات البشرية أمنها وسلمها وحريتها وكرامتها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

الدكتور محمد رأفت سعيد

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - أحكام القرآن، للإمام أبي عبد الله بن إدريس الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ، جمعه الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي صاحب السنن الكبرى المتوفى سنة ٤٥٨هـ، عرف الكتاب الشيخ محمد زاهد الكوثري، كتب هوامشه الشيخ عبد الغني عبد الخالق، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ٣ - الإسلام الفاتح، للدكتور حسين مؤنس، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد ٤ سنة ١٤٠١هـ.
- ٤ - الإسلام والمستشرقون، مقال، للدكتور محمود محمد الطنطاوي في مجلة البعث الإسلامي ندوة العلماء (الهند) عدد ممتاز ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٥ - الإفصاح عن معاني الصحاح، لأبي المظفر يحيى بن هبيرة المتوفى سنة ٥٦٠هـ، المؤسسة السعيدية بالرياض، توزيع مكتبة الحرمين بالرياض.
- ٦ - كتاب الأموال، للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ، تحقيق دكتور محمد خليل هراس، قام بطبعه ونشره الشيخ عبد الله الأنصاري إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر.
- ٧ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد، للإمام محمد بن رشد القرطبي ٥٢٠ - ٥٩٥هـ، طبعة سابق ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٨ - البداية والنهاية في التاريخ، للإمام ابن كثير المتوفى ٧٧٤هـ، مطبعة المتوسط، بيروت.
- ٩ - تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة أولى، المطبعة الحسينية المصرية.

- ١٠ - تأسيس النظر، لأبي زيد الدبوسي، طبعة أولى بالمطبعة الأدبية بمصر.
- ١١ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، للحافظ المنذري ٥٨١ - ٦٥٦هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة أولى ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- ١٢ - تفسير القرآن الكريم، للحافظ بن كثير، المتوفى ٧٧٤هـ، دار المعرفة، بيروت.
- ١٣ - التنظيم الدولي، دكتور بطرس غالي، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ١٤ - الجامع لأحكام القرآن الكريم، لأبي عبد الله القرطبي، مصورة من مطبعة دار الكتب، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- ١٥ - جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد، للإمام محمد بن محمد بن سليمان، طبعة السيد عبد الله هاشم اليماني المدني بالمدينة المنورة.
- ١٦ - الحرب والسلام في الإسلام، للأستاذ عبد الكريم الخطيب، دار نجد للنشر والتوزيع، طبعة أولى ١٣٠١هـ - ١٩٨١م.
- ١٧ - الحرب والسلام في الفقه الدولي الإسلامي، د. محمد كمال الدين إمام، طبعة أولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ١٨ - الخراج، لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، (ضمن موسوعة الخراج)، طبعة دار المعرفة - بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ١٩ - الخراج، ليحيى بن آدم القرشي، تحقيق الشيخ أحمد شاکر (ضمن موسوعة الخراج).
- ٢٠ - الروض الندي شرح كافي المبتدي في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيباني، للإمام أحمد بن عبد الله البعلبي، منشورات المؤسسة السعودية بالرياض، أشرف على تصحيحه الشيخ عبد الرحمن حسن محمود.
- ٢١ - رياض الصالحين، للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ٦٣١ - ٦٧٦هـ، تحقيق عبد العزيز رياح وأحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للطباعة، طبعة رابعة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٢٢ - سنن البيهقي لأحمد حسين، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، طبعة الهند ١٣٥٥هـ.

- ٢٣ - السيرة النبوية لابن هشام المتوفى ٢١٣هـ، تعليق طبعة عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية.
- ٢٤ - شبهات حول الإسلام، للأستاذ محمد قطب، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ٢٥ - شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، للأستاذ أبي الأعلى المودودي، طبعة أولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م، دار الصحوة، القاهرة.
- ٢٦ - صحيح البخاري (بحاشية السندي)، للإمام البخاري، دار إحياء الكتب العربية، مكتبة زهران.
- ٢٧ - صحيح مسلم بشرح النووي، للإمام مسلم، تحقيق وإشراف عبد الله أحمد أبو زينة، من كتاب الشعب.
- ٢٨ - العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث، للدكتور وهبة الزحيلي، طبعة أولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، مؤسسة الرسالة.
- ٢٩ - فقه السنة، للأستاذ سيد سابق، دار الكتاب العربي، طبعة ثالثة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- ٣٠ - فقه السيرة، للأستاذ محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، طبعة ثامنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٣١ - قادة فتح الشام ومصر، اللواء الركن محمود شيت خطاب، دار الفكر.
- ٣٢ - القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، بيروت، المؤسسة العربية للطباعة والنشر.
- ٣٣ - الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، للحافظ أبو عمر بن عبد البر، المتوفى سنة ٤٦٣هـ، تحقيق د. محمد بن محمد أحمد الموريتاني ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٣٤ - اللباب في شرح الكتاب. على كتاب الإمام أبي الحسن القدوري في فقه السادة الحنيفية، للعلامة الشيخ عبد الغني الميداني الدمشقي، طبعة ١٣٤٦هـ، سنة ١٩٢٧م.

- ٣٥ - لسان العرب، للإمام ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- ٣٦ - المبدع في شرح المقنع، لأبي إسحاق ابن مفلح الحنبلي، المتوفى سنة ٨٨٤هـ، المكتب الإسلامي ١٩٨٠م.
- ٣٧ - المجموع شرح مذهب الشيرازي، تحقيق وتكلمة محمد نجيب المطيعي، طبعة أولى، توزيع المكتبة العالمية بالفجالة.
- ٣٨ - مجموعة المبدع: المطلع على أبواب المقنع ومعه معجم ألفاظ الفقه الحنبلي، للإمام أبي عبد الله محمد أبي الفتح البعلي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٠٩هـ، صنع محمد بشير الأدلبي، المكتب الإسلامي ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٣٩ - محاضرة: تعامل المسلمين مع مخالفهم في الدين، للأستاذ الدكتور عبد المجيد محمود، قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤٠٠هـ.
- ٤٠ - المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، للإمام مجد الدين أبي البركات، المتوفى سنة ٦٥٢هـ، طبعة ثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ٤١ - المحلى، لابن حزم، المتوفى سنة ٤٥٦هـ، المطبعة المنيرية ١٣٥٢هـ.
- ٤٢ - المسند، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٩م.
- ٤٣ - المصنف، للحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المتوفى سنة ٢١١هـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، طبعة ثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٤٤ - المغني، لابن قدامة، المتوفى سنة ٦٢٠هـ، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.
- ٤٥ - المقنع في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيباني، رضي الله عنه، لابن قدامة، طبعة ثانية، منشورات المؤسسة السعيدية.
- ٤٦ - المنظمات الدولية المتخصصة والإقليمية، د. مصطفى سيد عبد الرحمن، كلية الحقوق، جامعة القاهرة.

- ٤٧ - موسوعة فقه عمر بن الخطاب، للدكتور محمد رواس قلعجي، مكتبة الفلاح، طبعة أولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٤٨ - الموطأ، للإمام مالك رواية محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار القلم، طبعة أولى.
- ٤٩ - نيل الأوطار شرح متقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، للإمام محمد بن علي الشوكاني، المتوفى ١٢٥٥هـ.
- ٥٠ - هذا هو الإسلام، سلسلة رسائل للدكتور مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، طبعة أولى ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م.
- ٥١ - وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة (بحث) مقدم لمؤتمر السنة والسيرة بالقاهرة، إعداد د. جعفر عبد السلام علي، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر.
- ٥٢ - الوجيز في فقه الإمام الشافعي، للإمام الغزالي، مطبعة حوش قدم.

المناقشة

الحقوق الدولية في نظر الإسلام

الرئيس:

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحقوق الدولية في نظر الإسلام هي موضوع البحث في هذه الجلسة الصباحية. والعارض له الشيخ محمد علي التسخيري، والمقرر الأستاذ محمد الدسوقي. هل الشيخ محمد رأفت موجود؟ إذن هو المقرر. تفضل يا شيخ علي. حجة الإسلام محمد علي التسخيري:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد وآله الطاهرين وصحبه أجمعين. اللهم إننا نرغب إليك في مستقبل كريم تعز به الإسلام وأهله، وتذل به النفاق وأهله، وتجعلنا فيه من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا به كرامة الدنيا والآخرة، وبعد.

فقد قدمت في موضوع العلاقات الدولية في الإسلام تسعة بحوث تفاوتت في الطول والقصر إلا أنها والحمد لله بحوث قيمة ومفيدة، أحاول هنا أن أستعرضها بإيجاز شديد متبعاً المنهج المطروح في ورقة العمل.

فالشيخ محمد علي عبد الله ذكر في بحثه عن حقوق الدولة في الإسلام مقدمة استعرض فيها بعض خصائص قادة الأمة في صدر الإسلام، ثم أعطى المفهوم الإسلامي عن الدولة وأنماطها التطبيقية، وانتقل للحديث عن حقوق الدولة وواجباتها على ضوء القانون الدولي ثم على ضوء النظرة الإسلامية، فذكر منها حقوق المساواة، والبقاء، والصيانة، والأمن، والاستقلال، شارحاً إياها

مؤكداً على أن هذه الأمور لم تتحقق دولياً، وإنما نادى بها الإسلام بكل صدق وسعى لتطبيقها، وقد امتاز بحثه بذكر بعض المصاديق الحاضرة وتبرير ما حدث أخيراً من أحداث في المنطقة.

أما الدكتور محمد الدسوقي في بحثه عن أصول العلاقات الدولية بين الإسلام والتشريعات الوضعية بعد أن قدم مقدمة تحدث فيها عن الصفة الواقعية للإسلام عرض تعريفاً للقانون الدولي العام الذي ينظم العلاقات بين الدول، وآخر للقانون الدولي الخاص والذي يحدد اختصاص محاكم الدولة إزاء محاكم الدول الأخرى، وعرض فكرة تاريخية عن تطور القانون الدولي، ثم أكد على أن كلاً من العرف والمعاهدات هما المصدران المهمان للقانون الدولي العام، ثم استعرض أهم مواد مشروع إعلان حقوق الدول وواجباتها الذي قدم إلى الجمعية العمومية للأمم المتحدة سنة ١٩٤٨م فقررت صلاحيته وأحالته إلى الدول الأعضاء لتبدي رأيها فيه، إلا أن الدول جميعها أمسكت عن الرد عليه، ومن ثم انتقل إلى أصول القانون الدولي في الإسلام وقدم لها بالحديث عن الحرب في الإسلام وأنواع الديار وذكر بعض أحكامها. أما الأصول التي ذكرها فهي المساواة بين الناس، السلام أصل العلاقة بينهم، الحرب من أجل السلام، العدالة، احترام العهود. وأخيراً قارن بين الإسلام والتشريعات الوضعية مبيناً التفوق الإسلامي في هذا المجال.

أما الأستاذ الدكتور الخياط ذكر بدوره القواعد الإسلامية التي تحكم العلاقات الدولية بما يشمل المساواة، والعدالة، واحترام العهود، والإنذار قبل الحرب، وعدم السماح بإنشاء تكتلات ضد الدول، والمعاقبة بالمثل، وملاحظة مصلحة الأمة، وتقديم حقوق العباد على حقوق الله، واختيار أخف الضررين، والتركيز على الدعوة والتزام القيم الإسلامية العليا، وأن السلام أساس العلاقات، وأن الحرب مشروعة في الإسلام. ثم راح يتحدث عن العلاقات أثناء السلم راداً على من أكد أصالة الحرب بذكر الآيات الدالة على جعل السلام هو الأصل شريطة أن يسمح للدعوة الإسلامية أن تطرح رؤيتها بحرية. ثم انتقل حفظه الله

إلى المعاهدات والاتفاقيات فيبين تعريفها، ومشروعيتها، ولزوم الوفاء بها، وأنواعها فهي تجارية وسياسية وعسكرية، وما يترتب على ذلك من أحكام إسلامية مشترطاً أمرين: الأهلية، فلا يملك عقد المعاهدات إلا الإمام أو نائبه إلاً لضرورة، ثم الرضا. وتعرض إلى عقد الأمان الخاص الصادر من أحد المسلمين، والعام الذي تعطيه الدولة وكنههما وحكمهما وصفتهما ومدتهما وما يترتب عليهما. ومن أنواع الأمان التي تعرض لها: المودعة وركنها اللفظ وشرطها الضرورة وحكمها الأمان على النفوس والأموال والذراري والبلدان.

أما الاستاذ الشيخ رجب التميمي - حفظه الله - ركز في بحثه على أن الإنسانية أمة واحدة دعاها الإسلام إلى التعاون والتسامح والحرية والتمسك بالفضيلة والعدالة والسلام والوفاء بالعهد، أما المصالح الإنسانية العليا فتكمن في المحافظة على الدين والنفس والنسل والعقل والمال. وقد استعرض الشيخ الآراء الإسلامية في مجالات السلم والحرب وذكر الديار التي عرفها الإسلام. كما تعرض لأحكام الذمة والاستئمان.

وفي مجال العلاقة بين المسلمين وغيرهم كتب الأستاذ محمد الحاج الناصر بحثه المفصل مقدماً بذكر نبذة عن كلمات الدولة والأمة والشعب لينتقل لبيان معالم العلاقات السلمية بين المسلمين وغيرهم، وتمثل في:

أولاً: التمييز في التعامل بين حقوق المواطنة وبين مسألة الركون القلبي وله فيه بحث علمي مفصل.

ثانياً: ضبط قواعد ومبيحات للتعامل مع من لا يتعايش معهم مواطنناً أو جاراً. وقد حدد الفرق بين المواطن والمجاور وما يترتب عليه من أحكام مع الإشارة إلى الوثيقة التي واثق بها رسول الله ﷺ غداة هجرته إلى المدينة بين سكانها وأخذت منها أحكام أهل الذمة. وقد تم خلال ذلك البحث التمييز بين المهادنة والمعاهدة والمواثقة. كما جاء الحديث عن قضية الحرب وأنها مما لا يلجأ إليه إلاً لرد الاعتداء، وكذلك الحديث عن الديار التي يعرفها الإسلام

والعلاقات بين المسلمين وغيرهم. وقد ذكر الأستاذ أن هذا البحث مقدمة لبحث أكثر تفصيلاً له في المستقبل مكانه.

أما الأستاذ الدكتور محمد رأفت سعيد تحدث أولاً عن قضية السلام في الإسلام واعتبره أصلاً مع ذكر آراء علماء السلف، وتطبيقات القادة، ثم ركز على عنصر الجهاد ومراحله وبواعثه وأهدافه، ماراً بأخلاق الجهاد ومنتهاً إلى الآثار المترتبة عليه، ومنتقلاً بعد هذا إلى موضوع العلاقات الدولية إذ أكد ضرورة الاتصال بين الأفراد والدول وأن الإسلام أقام العلاقات الداخلية على المودة والرحمة، كما وضع أسساً للعلاقة بين الدولة المسلمة والدول الأخرى. وأخيراً كتب بحثاً يرد فيه شبهات الإكراه في الدين والجزية والرق.

هذا وقد جاء بحث الأستاذ الشيخ محمد عبده عمر أيضاً مركزاً على العلاقات بين المسلمين وغيرهم أثناء السلام ومؤكداً على أن السلام في الإسلام هو الأصل، ومبيناً أهداف الإسلام من الحرب والنظرة الإسلامية للمعاهدات على أنها عهد يجب الوفاء به، ومؤكداً - أيضاً - على أن الحرب إنما شرعت لدفع الاعتداء وتأمين الدعوة الإسلامية، ومستعرضاً بعض المبادئ والأحكام التي تحكم عملية الحرب هذه ثم أحكام الأسرى بما فيها من جوانب للرحمة.

وهكذا بين الشيخ آدم عبد الله علي أيضاً، أحكام الأسرى كموضوع قتل الأسير وبعض تطبيقاته في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام حيث لم يقتل من الأسرى إلا من أحدث أمراً خطيراً قبل أسره في إيذاء المسلمين، وموضوع المنّ على الأسير دون مقابل، وتطبيقاته أيضاً، وحكم الفداء، وحكم الاسترقاق، وحكم من ادعى الإسلام من الأسرى، وحكم التفريق بين الأم وولدها، والأسير المتزوج، ثم التعامل مع الأسرى.

أما بحثي المتواضع، فقد ركز على هذا الجانب بالخصوص مؤكداً على التوازن الحكيم الذي راعاه الإسلام بين عنصري الرحمة والمصلحة الإسلامية من خلال بيان نوع التعليمات الحربية قبل القتال والتركيز على عنصر الدعوة وعدم الهجوم المباغت ونوع الوسائل التي يختارها والموارد التي يجوز فيها التأسير،

وكيفية وعملية إطلاق سراح الأسرى وحقوقهم التي تشمل العطف بهم وإطعامهم وسقيهم وتوفير البستهم واحترام مراتبهم وتوفير الدواء لهم والعمل على هدايتهم إلى الحق وعدم قتل الأسير من البغاة وأخذ البيعة من الأسير القوي ثم إطلاق سراحه، وعدم معاملة أسرى البغاة بالمثل، وعدم قتل الأسير إن أسلم قبل النصر. وقد أكدت في الختام على أن الموقف في النهاية يعود إلى قائد الدولة الإسلامية، وهو يتصف فرضاً بأسمى درجات الالتزام بالشريعة. كما لاحظت أن بعض الأحكام التي استنبطها الفقهاء - رحمهم الله - ربما لم يراع فيها نوعية الظروف التي جرت الحادثة فيها، وأكدت على حقيقة هامة هي أنه متى تم التزاحم بين نزعتي الرحمة والمصلحة فالذي تشير إليه النصوص الإسلامية هو ترجيح النزعة الإنسانية مهما أمكن إلا أن يتوجه خطر كبير للمصلحة العليا وحينئذٍ فهي المقدمة.

هذا استعراض سريع للبحوث. وختاماً أود أن أبدي الملاحظتين التاليتين متبعاً ذلك باقتراح عام:

أولاً: إن هذه البحوث رغم قيمتها العلمية لم تستوف في رأيي جوانب هذا الموضوع المهم، وربما كان ذلك لسعته في نفسه بحيث لا يمكن أن يستوعبه مقام حتى ولو كان ذلك بشكل مفهرس، فموضوع مبدأ تأليف القلوب هذا المبدأ له أثر كبير في العلاقات الدولية، ومبدأ التعامل بالمثل إلا قليلاً أشير إليه، ومبدأ تعبئة كل الطاقات ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ...﴾، ومبدأ الموقف الإسلامي الموحد من القضايا الدولية، لم تجد مكانها اللائق في البحوث.

ثانياً: إنها لم تتحدث بشكل نظري عن المفروض في الصورة الإسلامية ثم الواقع القائم حيث تفترض في الأرض دوائر ثلاث هي: دار الحرب، ودار العهد، ودار الإسلام، ثم تنظم العلاقات العامة بينها وبشكل ينطبق والتعبيرات الحديثة والمستجدات ثم ينتقل بعد هذا إلى الواقع القائم الممزق في عالمنا الإسلامي لتنظم العلاقات بين الحكومات فيه كواقع استثنائي وهي علاقات متفاوت عن غيرها.

وهنا اقترح تشكيل لجنة تضع لائحة للحقوق الدولية كما يتصورها الإسلام خلال العام الآتي لعرضها على الدورة القادمة بعد أن نرسم لها هنا الخطوط العريضة لعملها أو تقام ندوة متخصصة لذلك، فإذا أمكننا أن نقدم صورة متكاملة كان من الممكن أن نطرحها في مؤتمرات دولية ذلك أن الأمم المتحدة اعتبرت السنوات العشر الأواخر من القرن العشرين عشر العلاقات والحقوق الدولية لعلنا نعوض عن النقص الذي عانينا منه طويلاً نتيجة عدم اشتراكنا في تنظيم هذه الحقوق المعمول بها اليوم كأمة إسلامية ونظرية إسلامية إنسانية لها خصائصها. والله الموفق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدكتور معروف الدواليبي:

بسم الله الرحمن الرحيم.

سيدي الرئيس، إخواني السادة العلماء،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الذي أنزل عليه القرآن رحمة للعالمين، وبعد:

فإنه ليسرني أن تتدبني الرئاسة الموقرة لأكون العارض الثاني بعد العرض الأول الهام الجامع الشامل من قبل فضيلة الأستاذ الجليل محمد علي التسخيري حول الحقوق الدولية في الإسلام، وأرجو أن يكون عرضي متمماً لعرضه الأول، وذلك لأنني ألقت فيه النظر إلى الندوة التي أقيمت في الشهر الماضي في واشنطن تحت عنوان «أمريكا والإسلام وتحديات التسعينيات» والتي أردت أن يطلع عليها مؤتمركم الآن لأن الحدث كان في الشهر الماضي وهو خطير جداً وإلحكم تلخيصه.

ففي هذه الندوة التي أقيمت في الشهر الماضي في واشنطن تحت عنوان «أمريكا والإسلام وتحديات التسعينيات» والتي نظمها معهد دراسات الشرق الأوسط الأمريكي في واشنطن، وقد جاء فيها توصيات أعدتها لهذه الندوة لجنة

العمل الأمريكية الإسرائيلية باسم (EPC) وهي أعظم منظمة إسرائيلية تهاجم الإسلام والمسلمين في كل مكان. وقد اعتبرت - كما نشرت الصحافة هذه التوصيات وفي هذا الوقت بالذات الذي يدعو العالم إلى نظام عالمي جديد - اعتبرت تلك التوصيات تصعيداً جديداً مقصوداً لتشويه حقائق الإسلام العالمية الإنسانية، وذلك بالزعم بأن الإسلام يهدد الحضارة الغربية وأن الإسلام قد أصبح بعد سقوط الشيوعية هو العدو الأول بل التحدي الوحيد للغرب وليس هذا من عندي وإنما أنقل ما جاء في هذه الأخبار، وكما رفعت نسخة عن هذه النشرة الدولية إلى مقام الرئاسة، ولذلك لست أتكلم من عندي وإنما أنقل ما جاء بالحرف حيث قالوا: إن الإسلام قد أصبح بعد سقوط الشيوعية هو العدو الأول بل التحدي الوحيد للغرب. وقالوا: إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى المسلمين كأعداء وأنهم شعوب غير متحضرة وأنهم دمويون وأنهم غير منطقيين، كما نقلت كل ذلك جريدة الشرق الأوسط العربية الدولية بتاريخ الأحد الأسبق تماماً في الأسبوع الماضي وذلك في اليوم السادس من الشهر الخامس الميلادي (مايو) ١٩٩٢م، وقد جاء في هذه التوصيات الصراحة بالدعوة إلى مواجهة الدعاة المصممين على الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية، والمصممين على أن الإسلام دين ودولة، وأضافت أيضاً بأنه يجب أن نساند الحركة العلمانية في هذه البلاد. ولذلك فقد سارعت فور وصولي إلى جدة وما كنت أريد أن أتكلم في هذا الموضوع وإنما أكون مستمعاً ورفعت نسخة إلى الأمانة العامة الموقرة عما جاء في الأخبار العالمية عن هذه الندوة الأمريكية في واشنطن من تشويه حقائق الإسلام وشريعته الدولية، الإنسانية، العقلانية الخطاب والعلمية الحوار ليتخذ المجمع في دورته هذه ما يراه مناسباً وحكيماً تجاه تلك التشويهات والتوصيات المشوهة لحقائق الإسلام، وذلك لا بالرد الصحفي والإعلامي المثير للأحقاد، فالإسلام داعية للسلام وإنما أرى بدعوة معهد الدراسات المذكور الذي أقام هذه الندوة وكذلك بعض الشخصيات الكبرى التي ساهمت في هذا التشويه للإسلام وذلك بدعوتهم جميعاً إلى حوار علني ودي ضمن أدب الحوار القرآني الإسلامي من أجل السلام العالمي الذي أمرنا به الله

سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حيث قال: ﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

وحيث قال أيضاً: ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

وذلك - ياسيدي - من أجل التعارف الذي دعا إليه القرآن الكريم بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ .

وبقوله: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّوَدُّنِ ﴾ .

وهذه الآية بالذات إنما نزلت بعد صلح الحديبية عندما وجد المسلمون بعد صلح الحديبية أنفسهم مع من سلبوا أموالهم وطردهم، فكان في قلبهم شيء من الحقد على من أوجب عليهم أن يلتقوا بهم فنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا ﴾ .

فانظروا هذا الجديد في الإسلام أعداء مشركون ولكن بعد إقامة الصلح قال: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ - لا يحملنكم - شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّوَدُّنِ ﴾ .

هذا شيء جديد لم يكن قبل الإسلام وحتى الآن غير موجود فيما بين الأديان والأقوام، وندعوهم - أيضاً - من أجل التعريف بحقائق الإسلام السامية ورسالته العالمية الإنسانية العقلانية الخطاب والعلمية في الحوار والداعية لجميع الأمم والشعوب قبل أربعة عشر قرناً إلى نظام عالمي جديد إنساني يقوم على التعاون والتكافل في شؤون الحياة الكريمة فيما بين جميع بني الإنسان على اختلاف الأعراق والأجناس والأوطان والأديان وكل ذلك جديد لم تعرفه الحقوق الدولية العالمية لا من قبل ولا حتى الآن. وعلى أساس أن الخلق كلهم عيال الله وأن أحبهم إليه أنفسهم لعيله، كما أعلنه رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ما لم يقاتلونا في الدين أو يخرجونا من ديارنا. ويسرنا أن نعلن أن كل ما عدا ذلك هو جهل بحقائق الإسلام بل افتئات عليه وداع إلى الإفساد في الأرض وإننا

بدعوة معهد دراسات الشرق الأوسط في واشنطن لهذا الحوار لمنتظرون إن كانوا لخير الأسرة البشرية عائدين: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ أَلْمُنَافِسُونَ﴾ .

ويسرني في هذا المقام أن أنوه بالمنهج الذي انتهجته المملكة العربية السعودية وعلمائها في مثل هذه الحملات أن أذكر بما قد كان من استجابتهم عام ١٩٧٤م، في وفد علمي رأسه المرحوم الشيخ محمد الحركان بعضوية الشيخ محمد بن جبير والشيخ راشد بن خنين وأحد كبار العلماء لا يحضرني الآن اسمه فقد شرفت بمرافقتهم في باريس وجنيف وروما والفاتيكان والمجلس الوزاري الأوروبي فس سراسبو للحوار العلمي الهادئ الذي كان له أطيب الأثر في أوروبا كلها حينذاك. ولقد استجاب وفد العلماء لبيان الحقائق حول جميع ما كان لدى الأوروبيين من معلومات خاطئة ومشوهة للإسلام، كما يسرني في هذه الكلمة أن أوجز هنا حقيقة الإسلام وشريعته الإنسانية العالمية العقلانية والعلمية وأنها في جملة نقلة من قومية الأديان المتناحرة سابقاً في كل أدوار التاريخ إلى عالمية الإسلام في شريعته التي قامت على دعوة إيمانية وفق مبادئها الإنسانية كما لخصتها صحيفة المدينة النبوية الدستورية والتي جاء فيها: الدعوة الصريحة، وهذه صحيفة المدينة بحق أول دستور مكتوب ظهر في العالم لم يكن له مثل من قبل ولم يلحق به فيما بعد. ظهرت الدعوة في هذه الصحيفة إلى التعايش السلمي والتعاون الإنساني ما بين مختلف الأعراق والأجناس والأديان على أساس كلمة سواء ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً وعلى أساس أنه لا إكراه في الدين وعلى أساس البر بمن يخالفنا في الدين ما لم يقاتلونا في الدين أو يخرجونا من ديارنا، وعلى أساس التعاون على البر والتقوى ما بين الجميع، وعلى أساس أنهم كلهم عيال الله وأن أحبهم إليه أنفعهم لعيله وأن الله كرم بني آدم جميعهم من غير فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود وكان الإسلام بذلك وحده الذي أقام السلام في الأرض عملاً بمنهاجه ونظامه العالمي الجديد وشريعته التي احترمت حرية العقيدة لجميع من هم تحت راية الإسلام ولا ننسى في صحيفة المدينة حيث جاء في هذه الصحيفة في هذا الموضوع: المسلمون من قريش والمسلمون من أهل يثرب ومن قاتل مع أهل يثرب قاتلهم

وجاهد جهادهم وعددهم وكانوا تسع طوائف من اليهود فقال لليهود دينهم ولنا ديننا ولهم النصف والمساواة بالمسلمين ولا أحد يلتفت إلى معنى النصف هذه الكلمة كانت معروفة في ذلك الوقت - وقت البعثة النبوية - باعتبار أنني من جملة ما لخصت فيه بعض الدراسات الاختصاصية في الجامعات الغربية حول الحقوق الكنسية التي تتطلب من الدارس التعمق في دراسة الإنجيل والتوراة وتاريخ التشريع الكنسي مدى الأدوار حتى الآن فكان علي وأنا المسلم ورغبت أن أدرس، فعندما رجعت إلى هذا التشريع فوجدت عجباً، ففي إنجيل متى ونصه العالمي حيث جاء عن المسيح عليه الصلاة والسلام عندما كان يقوم بدعوته لبني إسرائيل وقد كفروا به رغم ما قام به من معجزات لم يشف المرضى بل أحيا أحياناً الموتى فلحقته امرأة كنعانية عربية وتقول له - كما جاء في إنجيل متى - إن ابنها يموت وما عندها غيره وتبكي وتطلب منه أن يأتي ويساعدها وينقذ ابنها فلم يرد عليها المسيح - كما جاء في الإنجيل لا نقول كما هو الواقع، لا ندرى - فلم يرد عليها والحواريون وراءه فرقت قلوب الحواريين فأخذوا يستنجدون بالمسيح عليه الصلاة والسلام ويقولون يا سيدنا أجبها، وإذا بالمسيح - كما يقولون والعهد عليهم فيما نقلوه - يقول: إنما أرسلت لخراف بني إسرائيل الضالة، وإليه الإشارة في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أُمَّةٍ لَإِخْلَافِيهَا نَذِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَمًا﴾.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

أما الإسلام فقد جاء فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

ولأول مرة تخرج الدعوة في الدين من نطاق قوميتها التي قال عنها المسيح كما نقلوا عنه: إنما أرسلت لخراف بني إسرائيل الضالة، ثم نقلوا عنه الكلمة التالية: إننا لا نعطي خبزاً لأولاد الكلاب.

هذه هي الشرائع القومية الدينية المنتشرة حتى الآن وكلنا نعرف الآن

المذابح ما بين الهندوس والمسلمين من أجل هدم المسجد البابري وكذلك اليهودية من أجل هدم المسجد الأقصى بينما الإسلام لأول مرة في تاريخ الأديان جاء في نص القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّ سَوَاطِعُ رَبِّيعٍ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ﴾.

لأول مرة ينتصب الإسلام على أساس حرية الأديان ليدافع عن الكنائس وتعلمون عهدة النبي ﷺ لنصارى نجران بالمحافظة على كنيستهم وذلك بعد المحرقة التي عملتها اليهود كما اطلعت عليها في دراستي لتاريخ الكنيسة قامت في نجران وحرقوا ثلاثين ألف شخص فقام العالم المسيحي في الدولة الرومانية عندئذٍ بطبيعة الحال لم تكن لهذه الأخبار سرعة الفاكس والتلكس اليوم فأخذت سنوات حتى عرفت روما ما فعله اليهود الذين هودوا بعض ملوك اليمن فقتلوا فرقة كانت تؤمن بشرية المسيح وبأنه رسول الله هاربة من نظام الكسلكة فحرقوا ولكن روما أرادت أن تنتصر لهم بأنهم مسيحيون ولم تكن تعرف الطريق من فلسطين إلى اليمن والمساحات الشاسعة في الصحراء فانتدبت - وكان أيضاً في مصر الدولة الرومانية - الحبشة فقامت الحبشة ودخلت اليمن وقتلت اليهود ولكن العرب لم يكونوا كلهم يهوداً فقاموا وتعاونوا ضد الحبشة فعرفت أن لهم معبداً وهو في مكة وأرادت أن تهدمه وإليه الإشارة في سورة الفيل بعد الإشارة الأولى في سورة البروج عن تلك المحرقة: ﴿وَالنَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ﴿١٠﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿١١﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُورٍ ﴿١٢﴾ قِيلَ أَمْحَبُّ الْأَخْذُودِ ﴿١٣﴾ الآية .

فالإشارة الأولى إلى المحرقة المذكورة في القرآن والإشارة الثانية نتيجة هذه الحرب الدولية اشتركت فيها روما مع الحبشة ضد اليهود فعندئذٍ جاءوا إلى مكة لهدم الكعبة وردوا عنها بمعجزة أشار إليها في سورة الفيل ولكن روما لم تفقد فعندئذٍ افتتحت الحرب ما بين روما وما بين فارس التي انتصرت حينذاك لليهود فقامت الحرب ما بين الروم وبين فارس وإليه الإشارة: ﴿عَلَيْتِ الرُّومُ ﴿١﴾ فِي آذَانِ الْأَرْضِ وَهُمْ يَرُؤْنَ بَعْدَ عِلْيَتِهِمْ سَيْغِلِيُوتَ ﴿٢﴾﴾ .

فكان أول ما فعل اليهود بعد محرقتهم التي حرقوا فيها المسيحيين في

نجران فجميع اليهود الذين كانوا في فلسطين وصلتهم الأخبار قبل أن تصل للحكومة الرومانية فإذا بهم يهربون قبل نحو قرن ونصف من مجيء الرسول ﷺ إلى المدينة ليعتصموا فيها خشية من أن ينتقم منهم بالحريق، لذلك لما دخل الرسول ﷺ وقال: المسلمون من قريش والمسلمون من أهل يثرب ومن قاتل قتال أهل يثرب وعددهم تسعة قبائل بالأسماء من اليهود، وقال لليهود دينهم ولنا ديننا ولهم المناصرة والمساواة بالمسلمين، أفيدونا متى كان مثل هذا الاعتقاد في حرية الأديان على المستوى الدولي والإنساني والعالمي من قبل ومن بعد؟ هذه أشرت إليها في دراساتي ولو لم أكن درست حياً بالاطلاع على الشرائع المسيحية والعداء القائم بين المسيحية واليهود لما اطلعت على هذه القصة ولما استطعت أن أجد لها التفسير - كلمة المناصرة - المناصرة على من؟ وإذا بهم هاربون من فلسطين خشية أن ينتقم منهم، وهكذا كان الإسلام في ذلك وحده الذي أقام السلام في الأرض عملاً بمنهاجه ونظامه العالمي الحديث وشريعته التي احترمت حرية العقيدة لجميع من هم تحت راية الإسلام وضمنت لهم المساواة بالمسلمين في الحياة الكريمة فقد حمى نصارى نجران عندما خاف أن تتكرر عليهم المذبحة من اليهود ولكنهم من قبل حمى اليهود أيضاً من غزو الدولة الرومانية إلى المدينة وتقتيلهم، كما قد كان أعلنه رسول الله ﷺ لليهود اللاجئين إلى المدينة هرباً من مذابح دولة الرومان النصرانية في فلسطين حينذاك إذ قال لهم: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ولليهود المناصرة والمساواة بالمسلمين، وهكذا يكون الإسلام هو أول نظام عالمي إنساني يقوم على الإيمان وضمن حقوق الإنسان.

واسمحو لي أن أختتم بكلمة خادم الحرمين الشريفين الذي توجه وأكرر على مسامعكم الكلمة القيمة التي وجهها إلى مجمعكم الكريم حيث قال بجرأة المسؤول والمؤمن الصادق: إن الإسلام يغزى اليوم في كل ميدان - هذه الكلمة جاءت بعدما انتشرت هذه الأخبار في الهجوم على الإسلام في قلب واشنطن إن الإسلام يغزى اليوم في كل ميدان سياسياً واقتصادياً وفكرياً وعداوة أعدائه له عداوة شرسة دائمة لن تنقضي إلى يوم الدين مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا

بِرَّالْوَن يُقْبِلُونَكُمْ حَتَّى رُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَظَلُّوْا ﴿١٠﴾، ثم يضيف - حفظه الله - فلا بد من حشد جميع القوى والطاقات لمواجهة أعداء المسلمين الحقيقيين لا إزهاقها في خلافات جانبية أو فتح جبهات في الصف الإسلامي تذهله عن معركته الكبرى وتغشي بصره عن عدوه الحقيقي الذي لا تغفو عيناه لحظة واحدة. وإلى أن قال: ونخشى أن تشتد ضراوة المسلمين بعضهم على بعض وأن يقسو بأسهم فيما بينهم إذا اختلفوا في رأي أو فتيا بل في أمر ثانوي ليس من أسس العقيدة أو أركانها ونسمع عندئذٍ صيحات التكفير والتفسيق والتجهيل والتضليل والقتل والتبديع. وكما أشار إلى مثل ذلك أيضاً منذ شهر تقريباً سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز عندما أشار بهذه المناسبة وأذاع بيان ودعا المسلمين إلى أن لا تؤدي السرعة في اختلافات الاجتهاد إلى التكفير والتضليل. وإلى أن ختم خادم الحرمين كلمته: وإنا ندعو على بصيرة إلى ما فيه توحيد الأمة الإسلامية لا تفريق كلمتها وتشتيت رأيها وصدع صفها وندع الكلام فيما اختلف فيه ما دام ليس من جوهر العقيدة ونركز على مواطن الاتفاق أخذاً بقاعدة أولويات الدعوة، نحترم آراء الأئمة الكبار المشهود لهم منذ قرون الإسلام الأولى غير مغلقين باب الاجتهاد متى ما استوفيت شروطه ومؤهلاته. فإلى خادم الحرمين الشريفين الشكر على هذه الكلمة لأننا لا ننسى أن اختلاف المسلمين في القضايا الثانوية قد كانت نقطة ارتكاز لمهاجمي الإسلام وهذا ما يجب أن يأخذ ويلفت النظر إليه مجتمعكم الكريم كما أشار إليه خادم الحرمين الشريفين، واغفروا لي إن أطلت عليكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرئيس:

وعليكم السلام ورحمة الله. شكراً، أحب أسأل الشيخ معروف هل الأسس التي تفضلتم بها تضمنت الإيمان بنسخ الإسلام لجميع الأديان وأن الإسلام هو آخرها كما أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل؟

الدكتور معروف الدواليبي:

نعم، حرية الأديان تركت ولكن قلت دعوة إيمانية إلى الإسلام، دعوة

الإيمان على أساس حرية العقيدة، لا نكره أحداً.

الرئيس:

المهم هو خير إن شاء الله تعالى.

الدكتور محمد عطا السيد:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وأهل بيته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أريد أن أعبر عن أمر اختلج في نفسي ولا زال يختلج ويهز وجداني كما أراه يهز وجدان كل مسلم مخلص لربه ولدينه ولأمته، ولعل هذه الفرصة المناسبة للتعبير عن ذلك.

تعلمون يا سيادة الرئيس ويا أيها الإخوة العلماء ما حصل من محنة أليمة قاسية في خليجنا العربي أصابت أمتنا في الصميم وانتكست محاولات جادة طويلة بذلت من قبل لتوحيد هذه الأمة وجمع شتاتها، هذه الحادثة الأليمة وما تبعها من فرقة وانقسام أحدثت في نفوسنا أثراً سلبية مؤلمة للغاية. كانت الحوادث سريعة وخطيرة للغاية جزعت لها النفوس وتحيرت إزائها الأفكار واختلطت بالمقاييس والمنطلقات والمعايير التي توزن بها الأمور، وهذا التشتت في الأفكار والمواقف أمر طبيعي متوقع إزاء مثل هذه الحوادث الخطيرة لما نعلم من قصور البشر وانفعالاتهم واختلاف أفهامهم ومنطلقاتهم: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا﴾.

إن الوضع الذي تعيشه أمتنا اليوم وضع انقسامي لا يرضي الله بحال من الأحوال، ولم يستفد منه إلا أعداء الله تعالى وهم أعداء هذه الأمة ودينها الذين حذر الله منهم في كتابه الكريم، وذكرهم سمو الأمير ماجد بن عبد العزيز - حفظه الله تعالى - في خطابه عندما قال: هم الذين لا تنام أعينهم لحظة واحدة عن الكيد للمسلمين.

بعد هذه الحادثة المفجعة هان أمرنا عند الأعداء وزالت هيبتها من نفوسهم زوالاً كاملاً وأصبحوا لا يترددون ولا يتخوفون من الكيد لنا بما شاءوا، وصاروا الآن يتناولوننا أمة بعد أمة، دولة بعد دولة، يدعون العالم للكيد لنا والقطيعة. هذا الذي نعيشه اليوم يا سيادة الرئيس ويا أيها الإخوة، أمر محرم من أكبر المحرمات مخالف لما دعانا الله إليه حيث قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَإِنَّكَ وَالرَّيْضُ وَالنَّجْمُ وَالسَّيْلُ وَالْمُرْتَجِ وَالْحَيَّةُ وَالْغُرَابُ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

ونهانا عن ذلك رسول الله ﷺ: «إياكم فساد ذات البين». وهي الوحدة التي من الله تعالى بها نبيه محمد عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هذا الأمر، يا سيادة الرئيس، أخطر بكثير جداً من المسائل التي تكلمنا فيها وناقشناها باستفاضة من خيارات وأسواق مالية والتداوي وما إلى ذلك. ولذلك أرى أنه ليس جديراً بهذا المجمع أن يخرج من دورته هذه دون أن يبدي رأيه إزاء هذه المحنة ويدعو حکام المسلمين لما هو أحسن، لا أريد أن نلوم أحداً بخطئه ولا نثني على من أصاب ولكن أريد أن يخرج هذا المجمع بعبارة جامعة شاملة تدعو حکام المسلمين إلى نبذ هذا الخلاف وراءهم وأن يبدأوا فوراً في توحيد الصف ورأب هذا الصدع الكبير وأن يفوتوا الفرصة على أعداء الله، أعداء الأمة.

ولذلك أقترح على هذا الجمع الكريم أن يكون لجنة عالية للخروج بصيغة هامة في هذا الأمر كما ذكرت وهذا يكون من صميم واجباتنا وهو تقديم النصح الهادئ وكذلك تنوير الناس بحكم الله تعالى فيما يجد من مثل هذه النوازل وفيما نحن فيه من فتنة ومحنة، ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَنَّهُمْ قُلُوبٌ نَّازِعَةٌ وَلَا يَخْرُجُوا مِنْ دَارِهِمْ لِيُقَرَّبُوا إِلَيْهِمْ إِلَّا يَكُنْ لَهُمْ جُنُودٌ مُقَاتِلَةٌ﴾.

كما أرجو من إخواني العلماء عند مناقشتهم ومدخلاتهم في هذا الأمر أن يضعوا وحدة الأمة وما يرضي الله تعالى نصب أعينهم وأن ينبذوا كل دواعي الهوى والخلاف والأحقاد. ونحن، يا سيادة الرئيس، مع هذا الذي حصل، وحدة المسلمين بعد الذي حصل ليست مستحيلة، فهذه هي أوروبا التي تدعي اليوم أنها قد اتحدت مرت بأسوأ الحروب وأشنع الحروب في تاريخ البشرية والقرون الوسطى تشهد بأشنع الفعائل وأشنع الحروب فهذه الكنيسة تشن حملة وحروب مئات السنين على الدولة ويتحاربون بينهم قبائل وجماعات حروباً تخزي منها جبين البشرية. ولذلك بعد ذلك أمعنوا الفكر والعقل واستطاعوا أن يحققوا درجة من الوحدة.

لذلك، يا سيادة الرئيس، أنا لا أرى أن هذا الذي حصل وأن الوحدة بعده وتماسك المسلمين واتحادهم ليس مستحيلاً، ولذلك أدعو هذا المجمع وأرى أن هذا من واجبنا أن نخرج بصيغة تدعو حكام المسلمين إلى الاجتماع وإلى التشاور وإلى التفكير في هذا الأمر لأننا نحن كأمة مسلمة نتألم الآن أشد الألم وشعوبنا متألمة أشد الألم وتحيط بنا مخاطر لا حد لها.

يا سيادة الرئيس، هذه هي مثال ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية أعداء أشد العداوة وفي حرب شديدة عسكرية وفكرية سنحت لهم الفرصة فإذا بهم يتحدوا ويحققون الوحدة، ما كانت تخطر ببال أحد من الناس. أنا، يا سيادة الرئيس، أقول هذا الحديث وأشهد الله تعالى أن هذا الأمر الذي تكلمت فيه لم تمله علي دولة ولا أحد من الناس ولا جماعة من الجماعات إنما أعبر عنه برأيي كمسلم من المسلمين يحس ما يحسون وأدعو إلى ما يدعون إليه، ولنذكر قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾﴾.

وبالله التوفيق الهداية. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدكتور عبد العزيز الخياط:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

شكراً فضيلة الرئيس ، وبهذه المناسبة فقد قدمت بحثاً عرضه فضيلة أخي الشيخ محمد علي التسخيري مع البحوث الأخرى عرضاً وافياً يشكر عليه ولكنني قبل أن أتساءل عن بعض الأسئلة التي لا بد أن أتساءل عنها في هذا المقام ونحن نبحث الحقوق الدولية أرجو أن يأذن لي فضيلة الرئيس وقد أثار دولة الرئيس الأستاذ معروف الدواليبي والأستاذ محمد عطا السيد أثاراً في نفسي كوامن وكوامن وبعثاً في من العواطف ما لا أستطيع كتمانها، نعم إننا نحن هنا في مجتمع فقهي ولكن الفقه في الإسلام والفقه الأكبر يقتضي منا أن نستجيب لدعوة الأستاذ محمد عطا فنوافق على أن نشكل لجنة ، وبهذه المناسبة ونحن نبحث في الحقوق الدولية في الإسلام والحقوق الدولية الأخرى فأولى بنا أن نبحث في حقوقنا كأمة في وحدة الصف والكلمة واليد وأن نتأسى بما فعله المسلمون فيما مضى فقد اختلفوا ثم اتحدوا وكانوا في وجه العدو يداً واحدة ولا سيما في أيام الحروب الصليبية التي اتحدت فيها كلمة المسلمين وقاد فيها نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي قادا فيها الأمة الإسلامية إلى إنقاذ المسجد الأقصى المبارك.

وهذا يدعوني، أيضاً، إلى أن أطلب أن تكون كلمة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد - حفظه الله - ، والتي ألقاها في هذا المجمع نيابة عنه سمو الأمير ماجد، وثيقة لهذا المجمع يحتفظ بها كوثيقة لما فيها من الدعوة الكاملة إلى التناصر وأن نكون يداً واحدة وأن نقف صفاً واحداً أمام الغزو الجديد، أو في ثوبه الجديد، للإسلام كما علمنا وعرفنا وأكد هذا ما ذكره دولة الأستاذ معروف الدواليبي من الندوة التي عقدت في واشنطن وصرحوا فيها في مؤتمر وندوة دولية عامة صرحوا فيها بعداوتهم ضد الإسلام وبتجديد الحرب ضد الإسلام، فأطلب وأقترح أن تكون وثيقة لهذا المجمع الفقهي لما فيها من معنى الفقه والفهم الأكبر للإسلام.

والأمر الثاني وقد أثار عواطفني وأثلج صدري أن يبادر خادم الحرمين الشريفين إلى تعميم قبة الصخرة، وقبة الصخرة مع المسجد الأقصى هي ثالث الحرمين الشريفين مسرى النبي ﷺ ومعراجه إلى السماء العليا، فالمبادرة في

إعمار قبة الصخرة في هذا الوقت الذي نذكر فيه حديث النبي ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى». وقد كانت مآثره الكبرى في توسعة الحرمين الشريفين فأضيفت إليها هذا المآثر أيضاً إلى إعمار قبة الصخرة فينضم مع الرعيل العظيم الذي قاموا بإعمارها أولاً ثم بترميمها وتجديدها بعد الحروب الصليبية ثم كذلك في إعمارها في أيام الانتداب البريطاني وفي أيام وحدة الضفة الغربية مع الشرقية، ولذلك تعتبر هذه مآثره كريمة تمسح عن هلال المسجد الأقصى دمة الأسي في الشقوق والتصدعات التي أصابت هذه القبة العظيمة درة الدنيا في البناء والمعمار ولأنها قبله المسلمين الأولى نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين دائماً إلى الخير.

ثم بعد ذلك، أرجو وقد عرض الإخوة البحوث وهي بحوث وافية وإن لم تستوف - كما قال الأستاذ التسخيري - جميع أنواع البحث في هذا الأمر إلا أنني وقد تحدثت عن أن الأصل في الإسلام في العلاقات الدولية السلم لا يعني هذا أن الجهاد غير قائم وأن الجهاد مطلوب، فنحن مطلوب منا أن نظل نجاهد وأن نبذل كل غال ونفيس في سبيل الله عز وجل وفي سبيل مقاومة العدوان المتكرر الجديد ولا يزال من ورائه الصهيونية العالمية ولا يمكن أن ننسى كما ذكر الإخوة فيما مضى في البحوث الماضية ما يفعل بالمسلمين في أنحاء العالم لكننا لا يمكن أن ننسى أطفال المسلمين في فلسطين وفي القدس وفي المسجد الأقصى والاعتداء عليهم كما تعلمون بالتكسير والتهشيم والاعتقال والضرب والأذى ومصادرة الأموال وغير ذلك. هذا لا يمكن أن ننساه واليهود من طبيعة دينهم الموجود في كتبهم ولا أقول الديانة الأولى هي قتل الشعوب واستعبادها وأنهم شعب الله المختار، ومن يقرأ التوراة ثم شروح التوراة في التلمود يجد الكثير والكثير في اعتبارهم المتميزين وأن جميع الشعوب هم عبيد لهم وأنه تستباح أموالهم ونسائهم وأطفالهم وأراضيهم وكل ذلك، ولا سيما عندما يكره الإنسان التوجيهات التي وجهت إلى يوشع في التوراة وهي ليست طبعاً من

دين الله في التوراة عندما أبيع قتل الناس بقتل الأطفال بقتل الرجال بقتل النساء وباستبعادهم وبأسرهم وبتحريق بيوتهم وبتحريق مركباتهم إلى آخر ذلك. ولذلك ونحن نذكر هذا أيضاً نؤكد أن الإسلام يدعو إلى الجهاد ولكن العلاقات الدولية تقوم على أساس السلام: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾.

غير أنني ولا أحب أن أطيل على الإخوة، فالبحوث بين أيديهم، أتساءل وقد تحدثت عن المعاهدات والاتفاقيات والأمان والموادعة، والموادعة تشمل الهدنة كذلك. أحببت أن أسأل عدة أسئلة لعلنا نخرج أيضاً برأي فقهي فيها أو نؤجلها إلى موعد آخر أو جلسة أخرى أو ندوة أخرى، وقد تحدثنا أقول: هل يجب أن تحدد للمعاهدة أيّاً كان نوعها مدة معينة؟ صلح الحديبية حدد بعشر سنوات لكن الفقهاء اختلفوا في تحديد المدة وبعضهم أشار وذكر كذلك ما يتعلق بالنسبة إلى دوام المعاهدات والصلح الدائم فيها ما فعله النبي ﷺ مع يهود بني قريظة وبني قينقاع وكذلك بني النضير في أنه لم يحدد في عهودهم معهم مدة معينة، ثم كذلك صلح النبي ﷺ مع أهل أيلة العقبة وأهل حربة جرباء وأذرع ومقنة في جنوب الأردن أو في جنوب بلاد الشام وكذلك معاهدته مع نصارى نجران وكذلك تجديد العهد من سيدنا أبي بكر رضي الله عنه للنجرانيين، لم يكن هناك مدة معينة للصلح والفقهاء — كما ذكرت في البحث وربما ذكر غيري أيضاً في هذا كما قرأت لبعضهم — قالوا بجواز ذلك وبجواز أن تكون المدة غير محددة. هذا السؤال الأول. وذهب إلى عدم تحديد المدة عدد كبير من العلماء منهم الميرغاني في كتب الحنفية، ومن المحدثين الشيخ محمد أبو زهرة رحمهم الله جميعاً.

السؤال الثاني: هل تكون معاهدة أو صلح مع من اغتصب أرض المسلمین وأزالهم عنها وشردهم وأخذ أموالهم كاليهود، هل يكون معهم صلح؟ أنا أقول هنا الرأي الفقهي ولا أريد أن نخوض في أمر سياسي كما هو حاصل الآن وإن كان هذا ربما يكون للإنسان رأي يستند فيه إلى أدلة، فصالح الدين الأيوبي — مثلاً — وليس دليلاً وإنما يستأنس به عمل صلحاً مع ريتشارد قلب الأسد وقد

احتل في الحملة الصليبية الثالثة عدداً كبيراً من مدن فلسطين وعمل صلحاً معه على أن يتنازل له عن عكا ويأخذ بدل عكا اللد، وهكذا كان رحمة الله عليه قد دمر عسقلان حتى لا يأخذها ريتشارد تدميراً كاملاً وأرسل أهلها إلى مصر والسودان وكان عددهم ينوف عن خمسين ألفاً من السكان كما أنه غَوَّر المياه في طريقه إلى القدس حتى لا يستولي عليها الأعداء ومع ذلك كان رأيه هو عدم الصلح لكن القادة والفقهاء في ذلك الوقت رأوا الصلح لتعب المسلمين وعدم قدرتهم على مواجهة هذه الحملة. على كل حال هذا استثناس لكن نريد رأياً في هذا الأمر، هل إذا اغتصبت أراضينا وذهبت أموالنا وشرد أهلنا واستولى اليهود على أرض فلسطين وأقاموا فيها دولة — كما تعلمون — هل يجوز الصلح معهم أم لا؟ هل يجوز الصلح لمدة مؤقتة؟ أنا أعتقد أنه ليس هناك سلم دائم أبداً حتى ولو عقدت معاهدات دائمة مع الناس لأن الدنيا تتغير والأحوال تتبدل: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

والله سبحانه وتعالى أخبرنا من طريق نبينا محمد عليه الصلاة والسلام حتى في نص القرآن في فهم بعض آيات القرآن أننا سنقاتل اليهود وأنا سندمر اليهود ولكن متى؟ وأين؟ وكيف؟ هذا علمه عند الله سبحانه وتعالى، بعد أن نرجع إلى ديننا والعمل بالجهاد في سبيل الله ومن أجل استرداد المسجد الأقصى.

السؤال الثالث: هل يجوز أن تعقد اتفاقات مع الدول الأجنبية ضد دولة إسلامية أي بمعنى دولة تطبق الإسلام أما إذا كانت دولة تتظاهر بالإسلام أو لا تطبق الإسلام فالأمر والشأن فيها شأن آخر. السؤال هنا هل يجوز أن تعقد اتفاقات يعني هل يجوز أن نستضيء بنار المشركين ضد المسلمين؟ هل يجوز أن نستعين بهم؟ هذا تعرضت له في بحثي بعض التعرض وفصلت بعض التفصيل في هذا الأمر وإن كانت القاعدة أننا إذا اعتدي على أراضينا وكنا أمة إسلامية واحدة فينبغي أن نتعاون ضد العدو ولكن نرد العدوان بعضنا عن بعض ولا نقبل بالأذى والعدوان من دولة أو من شعب أو من فئة في بلد من بلاد المسلمين على فئة أخرى لغايات ومصالح ليست هذه المصالح مما دعا إليه الإسلام أو أدى إليه

الإسلام. هذا هو السؤال الثالث، ويتبعه هل إذا كانت الدولة الإسلامية معتدية يجيز ذلك عقد المعاهدات العسكرية مع الدولة الأجنبية لدفع الاعتداء؟ هذا أيضاً سؤال ينبغي أن نخرج فيه أيضاً برأي واضح وألا نتحرج من ذكر الآراء فنحن في مجمع فقهي وكلكم علماء بارك الله فيكم ولكن النظرة الإسلامية والفقهيّة في هذا الأمر. أشكر فضيلة الرئيس وأشكركم على حسن استماعكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ محمد علي عبد الله:

بسم الله الرحمن الرحيم. الصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم. اللهم يسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي.

أيها الجمع الكريم. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

لأول مرة أخذ الكلمة وأشكر سيادة الرئيس لإعطائي هذه الفرصة والمشاركة في هذه الندوة الكريمة. الموضوع المعروض علينا هو موضوع «الحقوق الدولية في الإسلام»، وشخصياً اعتبرت أن هذه الحقوق لا تكتفي فقط في النظر الإسلامي لأن الإسلام حالياً في هذه المدة الأخيرة يتعرض إلى تهديدات عالمية وهجمات من الدول غير الإسلامية يهودية ومسيحية حتى الوثنية، ولهذا أردت في بحثي أن أبلوره في نظر القانون الدولي اعتماداً على الأصول الإسلامية. ولقد طلب المجمع الكريم يبحث هذا الموضوع منذ سنتين وهذا يدل على قوة النظر في المجمع الكريم لأننا لم نكن ننتظر أن هناك حوادث مؤثرة خلال هاتين السنتين. ولقد هز العالم عدة حوادث تتمثل في المعركة التي درت بين دولتين إسلاميتين إحداهما الحرب الإيرانية العراقية، وقد خرجت إيران من طغيان عدوان الإمبرالية وعدوان القوة المضادة للإسلام خرجت وهي ضعيفة مما وقع عليها من اعتداء من طرف دولة إسلامية أخرى. وسيكون جوابي على السؤال الذي طرحه المتحدث السابق وذلك ما يخص الاتفاقات مع دولة إسلامية، بقول الله عز وجل: ﴿مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

فدستورنا السماوي كاف وكل ما نحتاج إليه نجده في كتاب الله العزيز وفي سنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، يقول الرسول ﷺ: «أمتي، أمتي»، ولا شك أنه يقول إلى الآن أمتي، أمتي. فإذا كان رسول الله ﷺ يخاف علينا فما بالنا فنحن المسلمون، لا ننسى، نحن المسلمون أمة واحدة وإخوة كأسنان المشط وكالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، فإذا اختل سن المشط اختلت العزيمة والتوازن.

أقول إننا مررنا بقضيتين هما قضية إيران وقضية الكويت ثم مسألة تحرير أفغانستان، لهذا تعرضت في بحثي لمسألة الحرب، وأرى أنه من واجب الدول الإسلامية أولاً فيما يخص الحقوق وحاولت الإبقاء على الاستقلال، الاستقلال لا يتم إلا بأشياء عديدة منها: ألا تكون السياسة الخارجية تحت أي ضغط كان، وأن تكون معاملتنا للشعوب وفقاً لما جاء في خطبة الوداع والتي تعتبر أول دستور وتشريع لحقوق الإنسان في الإسلام وأظن أن الدول الأوروبية اقتبست من هذا. ولهذا لا بد أن نشعر بالعزة لأننا أول أمة تنادي بحقوق الإنسان. ولهذا المسلم دائماً لا بد أن يعتز بما أعطاه الله وبما أعطاه إيانا هذا الدين الحنيف من قوة. أقول إن من واجب المسلمين قبل أن تتودد إلى الكفار – صحيح أنها دول عظيمة نحتاج إليها من الناحية الاقتصادية ولكن عملاً بما جاء في القرآن الكريم – لا بد أن تساعد الدول الإسلامية حتى ولو كانت ضعيفة لأن الاتحاد قوة، لا مانع أن نحاول إيجاد ما يجعلنا أن نتحد في منظمة إسلامية حتى نقوم نحن بحل مشاكلنا الإسلامية لا عن طريق الدول غير الإسلامية والتي لا تعرف شيئاً عن شؤوننا أو أنها تتجاهل ذلك وبالعكس فإنها تحاول وضع العقوبات لكي لا نصل إلى حل لأن هذا يسعدها، وسمعنا ما قيل في هذا الموضوع وما قاله الشيخ الآن من أن أمريكا رغم مساعدتها للدول العربية فإنها لم تتردد ولا دققة واحدة في إعلان الحرب صريحاً على الإسلام.

ثانياً: أقول لا بد للدول الإسلامية من أن تحاول عدم الاعتداء – وهذا واجب لأن القرآن صريح في هذا الشأن – على الدول الإسلامية الأخرى لأن لنا

أعداء من الكفار كثيرون فكيف يكون الاعتداء بيننا؟ ولهذا لا بد أولاً من التسليم بهذه القاعدة فإذا كان هناك مشاكل بين دولتين إسلاميتين فنجد أن الإسلام أعطانا الشورى فعندنا مجلس شورى وعندنا منظمة المؤتمر الإسلامي لكي يتم الاحتكام إليها. فإذا لا بد من تتبع العقبات الناشئة قبل وصول إعلان الحرب.

الدكتور طه جابر العلواني:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله، نستغفره ونستعينه ونستهديه ونصلي ونسلم على سيدنا محمد خاتم رسل الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد.

في بداية حديثي هذا أود أن أنوه بطريقة عرض البحوث فلأول مرة يشهد المجمع عارضاً يلخص أبحاث جميع الباحثين ويدرج بحثه ضمن أبحاثهم ويكون عارضاً أميناً وهو الشيخ التسخيري - جزاه الله خيراً - وكنقطة نظام أرجو أو أترح على مقام الرئاسة أن تنبه سائر العارضين لأن يأخذوا بهذا المنهج فلا يحمل الباحثين الآخرين على أن يقرأوا أبحاثهم كتعليقات لأنهم يشعرون بأن بحوثهم قد غنبت.

الأمر الثاني: عرض دولة الدكتور الدواليبي اشتمل على خبر واقتراح وتعليق وملخص محاضرة ولي عليه عودة. أما الكلمة الطيبة التي تفضل بها الدكتور محمد عطا السيد فهي كلمة طيبة تستحق الالتفات وكذلك الأمنية والأسئلة الثلاثة التي تقدم بها معالي الدكتور الخياط.

الذي أود أن أشير إليه هنا في نقاط: أن المؤتمر الذي أشار إليه دولة الدكتور الدواليبي هو واحد من سلسلة مؤتمرات تعقد أحياناً سنوياً وتعقد أحياناً كل ستة أشهر ويحضرها عدد كبير من أبناء العالم الإسلامي وأساتذة الجامعات فيه، وتقوم المناقشات في الغالب على بحوث ودراسات تعد محاورها مسبقاً من قبل أساتذة وخبراء من الموجودين في الجامعات الأمريكية والمستضافين من الخارج. والغربيون لا تنقصهم معرفة الإسلام والمسلمين إطلاقاً فهم يعرفوننا أكثر بكثير مما نعرف أنفسنا، وأذكر أن الرئيس الأمريكي كارتر حين سمع إلى

تعليق من أحد القيادات الإسلامية المشهورة بأن أمريكا تحتاج إلى توبة وما لم تتب أمريكا فإن العالم الإسلامي لن يستطيع الصفع عنها، دعا مجموعة من علماء المسلمين وأساتذة الدراسات الإسلامية في الجامعات الأمريكية ليقضي معهم يوماً كاملاً يشرحون له فيه مفهوم التوبة في الإسلام، ما هي التوبة؟ ما شروطها؟ كيف تتم؟ ما هو الذنب؟ إلى غير ذلك. فهم من هذه الناحية ليسوا بحاجة إلى محاضرات نقدمها عن الإسلام وفضائل الإسلام وحقوق الإنسان في الإسلام وغير ذلك، هم يعرفوننا معرفة دقيقة جيدة بقدر ما نجهلهم. فيعرفون أن الإسلام دين عالمي لا يمكن أن يحده إقليم، ولا يمكن أن ينحصر في دائرة ضيقة، وأنه عقيدة وشريعة، وأن عقيدته نابذة لشركهم كله وضعيه والسماوي الذي حرفوه وخلطوه، ويدركون هذا حق الإدراك وحين يقول لهم عالم مسلم أو باحث شيئاً غير ذلك يستهينون به ويعتبرونه إنساناً مجاملاً يحاول أن يقدم لهم كلمة مجاملة لا أكثر ولا أقل.

ثانياً: بالنسبة للشريعة الإسلامية هم يعرفون أنها شريعة ناسخة لغيرها من الشرائع وأنها شريعة مهيمنة لا تقبل غير الهيمنة وأنها ديانة مهيمنة على ما سبقها من الديانات وأن الإسلام قد احتضن الديانات الإبراهيمية وحافظ على أصلتها واعترف بسائر النبوات قبله وحافظ على نقائها وتوحيدها وهو يريد أن يقدمها من خلال الإسلام الذي لا يقبل سواه التقديم الصحيح. هذه أمور تعتبر بديهية ومدركة إدراكاً تاماً، فإما أن نخاطبهم بمنطق من يجهلهم ويجهل أنهم يعرفون ونقدم لهم كلمات مجاملة لن تعدو أن تجعلهم يستهينون بنا أكثر ويدركون أننا إنما نتحدث من حالة ضعف ولأننا في حالة ضعف نحاول أن نتحدث بهذا، وهم لديهم بحوث ودراسات في هذا المؤتمر وفي غيره، درسوا قضية ديار الحرب وديار الإسلام، كيف يقسم الفقهاء المسلمون الدار إلى دارين: دار حرب، ودار إسلام، ودار عهد، وهل لدى المسلمين استعداد لأن يتنازلوا عن هذه القسمة ويعترفوا بالنظام العالمي الجديد؟.

ثالثاً: الشريعة الإسلامية في نظرهم تنافي حقوق الإنسان، هي شريعة فيها

حدود وفيها تعازير، وهذه الحدود والتعازير تعتبر مهينة في نظرهم للإنسان المعاصر. هل لدى المسلمين استعداد لأن يتنازلوا عن الشريعة ويعلنوا ذلك صراحة؟ وقد طالبوهم فعلاً بهذا وقد أجابهم بعض من لا خلاق له بأن الإسلام على استعداد لأن يتفاهم حول هذه القضايا كلها وأنه يمكن أن تعاد قراءة الإسلام قراءة جديدة وتقرأ نصوصه قراءة جديدة ويعاد تفسيرها بشكل يجعل المسلمين قادرين على أن ينضموا إلى النظام العالمي الجديد، النظام العالمي الجديد ليس نظامنا إنه نظام الحضارة الغربية المهيمنة المسيطرة التي تريد أن تضم كل شيء تحت جناحيها وتريد أن تنفي كل ثقافة غير ثقافتها وأن تنبذ كل فكر غير فكرها فهي لا تقبل عملية مهادنة ولا تعترف لسواها إلاً بأن يكون تابعاً تستفيد منه كما تستفيد من سائر الحضارات والتراث والفلكلور الشعبي، هذه حقيقة لا بد من الوعي عليها لكي نتعامل مع الغربيين حين نريد التعامل معهم من منطلقات واضحة مفهومة.

رابعاً: طبيعة الحضارة الغربية هي طبيعة صراعية تنازدية تقوم على ثنائيات متقابلة لا تفهم إلاً الطرد والنبذ للآخر، وإن هي احتوته فإنما تحتويه فرداً، هي على أتم استعداد لأن تتقبل دعائنا يذرعون أمريكا طولاً وعرضاً بل تدعوهم في بعض الأحيان لإلقاء محاضرات عن الإسلام في السجون الأمريكية وفي غيرها وتوعية هؤلاء الذين أدمنوا المخدرات وسواهم على القيم الإسلامية ولا مانع لديها أيضاً بأن يسلموا أو يدخلوا الإسلام، ولكن في هذا الإطار، الإطار الذي يغير من أخلاقهم ومن طبيعتهم بحيث يوظف الإسلام توظيفاً في إطار حضاري شامل يشمل كل وسائل التربية بما فيها الإسلام فإذا اغترنا بهذا وشعرنا بأن هذا يعني أننا سوف نحول أمريكا بعد سنوات أو عقود إلى دولة إسلامية كما يحلم البعض فإن ذلك تجاهل لأبسط خصائص الحضارات ولأبسط خصائص الأمم.

إن عالمية الغرب المعاصرة لها جذور تاريخية لا يمكن أن نتخلص منها، أهمها: أنها بنيت على الحضارتين الهلينية والرومانية، الهلينية قد استوعبت كافة حضارات الشرق التقليدية الإقليمية وشمال المتوسط منذ غزوات الإسكندر

المقدوني عام ٣٥٦ إلى ٣٢٢ قبل الميلاد، ثم ورثتها العالمية الرومانية إن صح التعبير والتي بلغ توسعها حوض البحر الأبيض المتوسط وسيطرت على الشرق كله. الحضارتان الهيلينية والرومانية تراثهما الديني تراث وثني غير سماوي وما دخل إليهم من تراث سماوي حرقوه وطوعوه وحولوه إلى جزء من الوثنية، وهذا النظام العالمي الجديد بحضارته الفكرية وتراثه هو عبارة عن وريث لتلك الحضارات ومشمتمل عليها ويقوم على أساس منها، هم قد بدأوا بناء عالميتهم المعاصرة منذ سقوط عالميتنا الإسلامية سواء في بغداد إثر الاجتياح المغولي عام ٦٥٦م، أو في الأندلس إثر الاجتياح الأروبي لها أو ما تلا ذلك من حروب ونزاعات بيننا وبينهم حتى فرضوا هيمنتهم الجديدة على أرض الإسلام كلها ما بين المحيطين - الأطلسي غرباً والهادي شرقاً - وانتشروا إلى ما وراء ذلك وسادوا العالم بأكمله فأصبحت الحضارة الغربية المعاصرة ذات الجذور الوثنية الرومانية من بعد الهيلينية هي عالمية العالم الجديد، تكاد تستوعبه في تفاصيله الحياتية والعقائدية، إنها تريده عالماً على صورتها - صورتها الفكرية وصورتها العقائدية وصورتها التنظيمية - وهي تعرف الإسلام وما فيه وتحاول أن تطوّعه عقيدة وفكراً وثقافة وحضارة وشريعة ونظماً لكي يصبح المسلمون بعد كل ذلك التحوّل أو لنسميها الرّدة ليتمكن أن يصبحوا جزءاً مما يسمى بهذا النظام العالمي الجديد.

فأحبذ أن يكون لدينا نوع من الوعي على أن المسألة ليست مسألة حوار نقوله ولا مسألة مديح نكيله إلى الإسلام وإنما مسألة وعي على الآخر. إن هناك آلاف المستشرقين الذين درسوا كل شيء يتعلق بنا، فكرنا، ديننا، معتقداتنا، عاداتنا، تقاليدنا في كل شيء وخبروا كل شيء فينا وعرفوا كيف يخاطبوننا، لكن لا نجد في العالم الإسلامي كله مستغرباً واحداً خبر الغرب وعرفه وعرف نواياه واطلع على خططه ويعرف كيف يتعامل معه أو كيف يتخاطب معه في هذه الحالة. إننا في حاجة إلى إدراك لهذا إلى أن يكون عندنا جمع من الخبراء من العلماء الذين يعرفون الخلفية التاريخية والواقع المعاصر وأهداف هذه الحضارة،

وأساليبها، وكيف تتعامل مع كل جزئية. إنها بالفعل اليوم لم يعد لها من خصم إلا الإسلام ولم يعد لها من هدف إلا المسلمون، وهي ماضية في طريق تجريدهم من إسلامهم وإيجاد فصام بينهم وبين الإسلام كامل، وهم يعتمدون في ذلك شتى الوسائل ولديهم هذه الأجهزة العملاقة، هم من خلال الغزو الإعلامي الذي ينتهجونه والذي سوف يدخل إلى بيت كل ممثلاً تسعين قناة تلفزيونية تبث كل شيء كالإذاعات التي نستمع إليها في الراديو، سوف يحولون ويغيرون كل أجهزة التربية والتعليم وهم ماضون في محاولة إقناع الجميع بقبول برامجهم ونموذجهم في الحياة والتربية والتعليم هم أحياناً يعقدون ندوة ويتنادون لمؤتمر فقط لأنهم شاهدوا فتاة قد ارتدت غطاء رأس في حارة من حواري أية مدينة إسلامية قد يتنادون إلى ندوة لمجرد أنهم رأوا شاباً جامعياً قد أطلق لحيته في أي ركن من أركان الأرض، لماذا؟ لأنهم أُناس يعرفون من هو العدو ويعرفون حقيقة هذا المنافس الخطر الذي يؤمن كل واحد من حملته بأن الله قد حتم ظهوره على الدين كله، فالله — سبحانه وتعالى — صحيح قد طمأننا في آيات ثلاث إلى حتمية ظهور هذا الدين لكن أن يشرفنا بالجندية لتحقيق هذا الأمر هو ما ينبغي السعي إليه. إن رسول الله ﷺ قد وعد — وهو الصادق المصدوق — في عشرة أحاديث صحاح بظهور هذا الدين على الدين كله تأييداً لما في القرآن الكريم وتوضيحاً له، وهذا أمر مسلم لا بد منه ويعرفه الغربيون كذلك ويعرفون أننا نؤمن به ويريدون أن يحطموا هذا الشعور فينا أو هذا الإيمان فينا، ولكن نحن مطالبون بشيء أكثر من هذا، مطالبون بدراسات متعمقة، مطالبون بمراكز أبحاث كثيرة لو أحصينا ما في ثلاثة آلاف جامعة أمريكية في طول أمريكا وعرضها مخصصة في الدراسات الإسلامية لوجدنا أن هناك ما يزيد عن مائتي مركز دراسات إسلامية متخصصة في هذا. فنحن نحتاج إلى هذا النوع من الوعي لكي نتمكن من مواجهة هذا التيار وليست المسألة مسألة حوار وليست المسألة مسألة محاضرات أو شيء نقدمه لهم، إنهم على وعي كامل فينا فعلينا أن نكون على وعي وإدراك لأنفسنا ولهم. والله سبحانه وتعالى هو مولانا، نعم المولى ونعم النصير.

الرئيس:

بسم الله الرحمن الرحيم .

مع تقديري البالغ للمداولات التي حصلت لكن منها ما يتعلق بأكمله في موضوع الغزو الفكري وسيكون الموضوع المسائي – إن شاء الله تعالى – ومنها ما هي أحاسيس وهي متبادلة لدينا جميعاً والله الحمد، لكن الذي أرجوه أن يكون طلب الكلمة يتعلق في الموضوع ذاته .

الشيخ البيهقي:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أيها الإخوة في الإسلام:

نحن في الحقيقة نتحدث عن العلاقات الدولية في الإسلام، ونحن ننظر إلى عالمنا – عالم اليوم – وأنا شخصياً حسب ما ألاحظه أن في هذا العالم ليست فيه علاقات قائمة على القانون ولكن فيما يخص العالم الإسلامي، كل العلاقات الموجهة إلى العالم الإسلامي علاقات قوة وجبروت وقد رأينا دولة كبرى الآن هي التي ترى أنها تسيطر على العالم تقوم بتصرفات لا أظن أن أحداً في العالم ولا في التاريخ يمكن أن يربطها بالقانون، وقد رأينا في سنة ١٩٨٨م أو في هذه السنة رأيناها قد هاجمت على دولة عربية إسلامية فقتلت الأبرياء وقتلت حتى الأطفال لأنها ادعت أن هذه الدولة وراء تفجير مكان ما في ألمانيا وفيها جنودهم، ثم اتضح بعد ذلك أن هذه الدولة لا علاقة لها بهذه الحادثة التي مات ضحيتها كثير من أبناء تلك الدولة العظيمة، ثم نراها في هذه الأيام تعيد الكرة بنفس الدولة وتحاصرها وتهدها والشيء الذي يحزنني في هذا الأمر كله أننا نحن المسلمين نرى الأمور كلها وتفرج عليها وكان الأمر لا يعيننا .

تحدث السيد الرئيس بأن التعليقات التي جرت الآن هي متعلقة بالغزو الثقافي وهذا في اعتقادي صحيح، ولكن أريد أن أقول شيء واحد وهو أن بيننا

وبين الغرب صراع حضاري وهذا الصراع الحضاري لا يقصد دولة معينة وإنما يقصدها باستراتيجية، يريد أن يقضي عليها ثم بعدما تنتهي الضجة يأتي إلى دولة أخرى أيضاً ويقضي عليها. الهدف منها القضاء على العالم الإسلامي. الصراع القائم الآن خصوصاً بعد سقوط الشيوعية وما لها من ضلالات الآن من موسكو إلى واشنطن كل هؤلاء ضد الإسلام، وهذا كل ما أريد أن نتنبه له، وأنا أثنى على الاقتراح الذي قدمه الأخ محمد عطا السيد من أنه ينبغي تكوين لجنة دائمة للمتابعة، والمسألة في غاية الخطورة، وينبغي عليكم أنتم علماء الإسلام أن تنهوا المسلمين بما يواجههم من الخطر وهذا الخطر لا يعني دولة واحدة ولا مجموعة دول ولكن يعني كل المسلمين جميعاً. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ الشيباني:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أشكر الباحثين على بحوثهم القيمة، كما أشكر رئيس الندوة على حسن إدارته لهذه الجلسات، فجزى الله الجميع خيراً.

موضوع مداخلتني لا أدري هل يدور حول هذا الموضوع وهو أن العلاقات ربما تكون علاقات مسيحية إسلامية. إن هناك حواراً يقع بين رجال الكنيسة النصرانية وبين رجال المسلمين، وحسب ما علمت أن هذا الحوار لم يستفد منه المسلمون أي نتيجة، إذ لم يبلغنا أن أي أحد من رجال الكنيسة اعتنق الإسلام إثر هذا الحوار بعدما أوضح لهم المسلمون أن الدين الذي ينبغي البشرية ويسعدها في الدنيا والآخرة إنما هو دين الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

وإن الكتاب الذي أنزل على سيدنا عيسى (عليه السلام) الذي تعتقد النصرانية أنهم على ملته أخبرهم أن سيدنا عيسى (عليه السلام) مبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، فهم يعلمون ذلك وإن كانوا قد بدلوا وحرفوا، ولا يزيدهم الحوار إلاّ تمسكاً بالنصرانية وبغضاً للإسلام، والإسلام ذكر ذلك. ذكره الله

عز وجل فقال عز وجل: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾.

وهذا الحوار قد تستفيد منه النصرانية للتغلغل في بلاد المسلمين لنشر أفكارهم مستعملين جميع الوسائل المادية فيأتون بأموال سخية لم لا يتم محاربتهم بنفس الطريقة؟ فيطلب من الدول الإسلامية أن تتخذ أموالاً سخية لهذا الغرض فالتغلغل النصراني أو التبشير النصراني كما يسمونه هم أصبح خطراً عظيماً يهدد الأمة الإسلامية، ونرجو الله تعالى أن ينجي المسلمين من هذه الكارثة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ محمد الحاج الناصر:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أود بادئ الأمر أن أشكر الصديق العزيز الأخ الغالي فضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي التسخيري على المنهج الذي رسمه لمن سيأتي بعده في الدورات المقبلة للمجمع الذي نأمل له عمراً طويلاً حافلاً بالإنجازات ليقنتدي به ويهتدي، فذلك الذي صنعه اليوم هو العرض وما كان يصنع من قبل ليس بعرض، فحبذا لو تعلمنا المنهجية ونحن نعمل في عمل علمي وليس في عمل إعلامي. ومن هذه المنهجية أننا إذ نعقب نعقب في الموضوع لا خارج الموضوع ونعقب ما يقتضيه العلم لا بما يريده الإعلام، إذا كنت أحسن الفهم فهذا مجمع الفقه الإسلامي، والفقه علم وليس إعلاماً، وكم نوفر من وقت لو استطعنا أن نقف عند حدود ما نعقب عليه أو نعقب به. ثم كم نوفر علينا من متاعب عاطفية لو تذكرنا أننا جميعاً شركاء في أشجان وشجون لكن ما كان ينبغي ونحن نواجه واقعاً يثير أشجاناً ماضية تنكأ قروحاً في القلب ما تزال تثغب دماً دون أن يكون من نكثها ما يفيد في الواقع أو في المستقبل.

أشياء كثيرة ينبغي أن ننساها أو نناساها على الأقل، ونواجه مستقبلنا إخوة متضامنين متعاونين، فإن لم نعمل فسنفشل وتذهب ريحنا. وأخرى حيث المجمع

مجمع فقهي وموضوع اليوم موضوع العلاقات الدولية في الإسلام أو الإسلام والحقوق الدولية. ومسائل قد تكون قريبة من هذه العلاقات أو الحدود مما تناوله الفقهاء والمجتهدون من قبل بل وفيه نصوص قرآنية وحديثية لكن ليس من الحكمة أن تثار في هذا الواقع فلماذا نحاول إثارتها وقد جاءت فيها نصوص صريحة حاسمة لا تقبل الاجتهاد وليست بحاجة إلى متفقه؟ فإن يكن قد وقع بعض التجاوز فما كان ينبغي أن يتخذ ذريعة إلى إثارة أشجان، إنما هو السماح، إنما هو العفو بين الإخوة وإلا فلن تعود الوحدة. ثم إن الذي نريد أن نبثه اليوم هو كيف نواجه بواقعا الراهن التوفيق بين مقتضيات الأحكام الإسلامية في العلاقات الدولية ومقتضيات ما تقوم عليه العلاقات بين الدول اليوم؟ ينبغي أن ندرك أننا في حالة ضعف صنعناها لأنفسنا لأننا لم نقف حيث يريد الله أن نقف، إنما اندفعنا وراء المحاكاة والتقليد وحسبنا الإسلام هوية سياسية ونسينا أنه صبغة الله، وشتان بين الصبغة والهوية. نحن إذن في حالة ضعف وعلينا أن نواجه وضعاً دولياً خطيراً صنعناه بأنفسنا، فعلينا أن نواجه أخطأنا وأن نحاول أن نجد من تعاليم الإسلام ما يكيّف مسارنا المتطور مع هذه العلاقات أو الأوضاع إلى أن نتبوأ المقام الذي يريده الله إن نصرناه فنصرنا، ولن ينصرنا إن لم نصره، ليس من نصرنا له أن نخلط الوثنية بالله فإن جاهدنا في سبيل الله حقاً نصرنا وإن خلطنا بسبيله سبلاً أخرى فالله أغنى الشركاء عن الشركة. أوضاعنا الضعيفة في الفقه الإسلامي القديم ما يواجهها أو ما يوجد فيه معلم لما نريد أن نتخذه اليوم لمواجهةها.

لقد أباح بعض الفقهاء أن يعطي إمام المسلمين مالاً كالجزية لمن غلبه إذا كان لا مناص من ذلك، بيد أن عليه أن يستعد ويعمل إلى أن يتحرر من هذه الرقة وأن يصبح ندأ ثم أن يعمل بسلم أو بحرب على هيمنة الإسلام. فنحن اليوم في مثل هذه الحالة، لا نعطي الدنية من أنفسنا ولا نرضي الدنية في ديننا، لكن ألم يوقع رسول الله ﷺ اتفاقية الحديبية وفيها الكثير مما جعل مثل عمر - رضي الله عنه - يوشك أن يرتاب لولا أن ردّه أبو بكر - رضي الله عنه - إلى

صوابه؟ إن اتفاقية الحديبية جاءت بالنصر على الإسلام والمسلمين، فلنا فيها العبرة لنواجه اليوم ما نواجه ونحن في مثل الوضع الذي كان عليه المسلمون محاصرين في الحديبية أو في الخندق حين أراد رسول الله ﷺ أن يعطي نصف تمر المدينة لبعض القبائل، لنواجه اليوم مثل ذلك الموقف، فعلينا أيضاً أن نفتدي برسول الله ﷺ فيما فعل بعد ذلك الموقف والافتداء به عملاً وليس قولاً. رسول الله ﷺ كان ينشئ الصحابة ويقويهم ولم يكن يبث الدعايات وحدها هنا وهناك عند خصومه من المشركين، بل كان العمل الأول هو صناعة المسلم القوي الذي يستطيع أن يواجه به، أما الدعوة إلى الإسلام فكانت منطلقة من صناعة المسلم القوي الذي إذا بعثه سفيراً له كان بسلوكة داعية أكثر منه بلسانه. إن الذي يجب أن نعمله اليوم هو أن نصنع أنفسنا، قلوباً وأرواحاً وتقنية، يجب أن نتعلم كل ما نستطيع وأن نستعين بكل إخواننا المسلمين في كل مكان أياً كانت علاقتنا سابقاً بهم وأياً كان رأينا سابقاً بهم، ما كانت لديهم معارف نحن بحاجة إليها، وأن نعمل بقدر ما يمكننا أن نعمل وأن ننتهز الفرص ونتحين المناسبات لكن دون أن نعطي الدنية. إن نصالح اليهود اضطراراً فهم ليسوا بإخوة لنا ولا بني عمومة، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

وإن نصانع غيرهم مخالفة أو معاهدة أو تعاوناً فاضطراراً إن كانوا ممن أخرجونا من ديارنا أو ظاهروا على إخراجنا اضطراراً إلى أن نستطيع، أما أن نبرهم ونقسط إليهم بقلوبنا وأن نركن إليهم ونسكن إليهم فذلك ما يجعلنا منهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ بَعْضُهُمْ فَيَنبَغِ عَلَيْهِمْ كَذِبٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَوَلَّوْا أُولَٰئِكَ مَنَعَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ .

لا مناص من المواجهة نقولها صريحة جاهرة ساطعة شاذخة لبعض القلوب والنفوس، لا مناص من المواجهة من الإسلام وبين الصليبية والوثنية وللواجهة ألوان منها السيف أو ما في مقام السيف ومنها الدعوة القوية المنطلقة من السلوك ثم من الإقناع. فلنسلك السبيل التي تتيسر، ولنتهياً لتتيسر تلك التي لم تتيسر

لكن دون خنوع أو خضوع، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلَهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَيَلْعَلُمَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَلِيُخَيِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

أيها الأخوة، هذا منطلقنا إلى علاقات بين المسلمين وغيرهم في هذا الوضع الذي نحن فيه ويسر الله لنا أوضاعاً أحسن إن انطلقنا من كتابه وسنة نبيه. هذه واحدة. وأخرى أرتد بها قليلاً إلى الوراء، ما كان أكثر ما نقوله اعتماداً على خرافة (الضرورة والإضطرار)، واعتماداً على خرافة (عموم البلوى)، وما كان أكثر ما نعتمد فيما نستنبط على مقاولات بشر، وكان حقاً علينا ولزاماً ألا نعتمد إلا على قول الله وقول رسوله وعلى فعل رسول الله وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى السلام، أما مقولات البشر أياً كانوا فستأنس بها ولا نتخذها منطلق الاستنباط. وحكاية الضرورة والاضطرار، وخرافة ما يعتمد عليه البعض من مقولة (الضرورة تبيح المحظورة)، فقد بينها الله سبحانه وتعالى: ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفِي لِإِثْمِهِ﴾، ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بِلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وللضرورة حدود ولها أسباب تنطلق منها حتى لقد منعوا التقصير، منع بعض الفقهاء التقصير في السفر والإفطار في السفر والتقوت بالميتة أو الدم أو لحم الخنزير عند الاضطرار على من سافر في معصية، فكيف نلجأ في أقل الأشياء إلى دعوى الضرورة فكيف بدعوى الحاجة؟.

أيها الناس، إننا هنا مسؤولون على كل كلمة نقولها وعلى كل قرار نقرره، فاتقوا الله أن تأتي الأجيال المقبلة فتقرأ ما نتركه أو نقرره وتتخذة أيضاً كما اتخذناه نحن أساساً للاستنباط فتتحمل وزراً ما كان أغنانا عنه، أخشى أن ينطبق علينا قوله، سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

أيها السادة تذكروا ثقل المسؤولية واتقوا الله في أنفسكم وأجيالكم، وفقنا الله إلى كل خير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ محمد الأمين الإسماعيلي:

بسم الله الرحمن الرحيم .

عندما ننظر إلى نوع العلاقات الدولية التي ينظمها الإسلام أو القوانين المسنّة في ضوء الشريعة الإسلامية نجد قرارات هيئة الأمم المتحدة وأماننا ونجد النظام الذي أسسه العالم ووافق عليه في اجتماعات هيئة الأمم المتحدة، ونجد نظاماً متكاملًا متميزاً الذي هو التشريع الإسلامي كذلك في الطرف الآخر، ولكننا نجد قواسم مشتركة ما بين ما وافق عليه هذا العالم وما بين ما هو مثبت في شريعتنا، وإذا نظرنا إلى الأسس الأربعة التي هي أساس التجمع الغربي وما قام عليها أساس تشريعه ونظرنا إلى أساس التشريع في الشريعة الإسلامية نجد في الطرف الآخر أركان أربعة: الأرض، الجنس، اللغة، الآمال المشتركة. هذه الأسس الأربعة ننظر إليها شريعتنا ولكن تجعل من أساس وحيد هو لب تشريعها وهو العقيدة الإسلامية. عقيدتنا الإسلامية عندما ننظر إلى هذه الأسس الأربعة لا تجافيا ولكنها تنظمها فهي تعترف بالأرض وتعترف بالجنس وتعترف باللغة وتعترف بالآمال المشتركة ولكنها عندما تتحول هذه القضايا الأربع إلى حدود وتتحول هذه الأسس الأربعة إلى سدود آنذاك تتدخل العقيدة الإسلامية لتقف موقفها بالنسبة لهذه القضايا. إذن معنى هذا أن هناك أساساً وحيداً في شريعتنا الذي هو العقيدة الإسلامية. هذه العقيدة التي هي أساس تكوين الأمة المسلمة وأساس تجمعها وهي الأساس الذي ننظر به من وراء الحدود وتتعامل مع الناس به .

إذن هناك أهل الكتاب ومن يدور في فلکهم وهناك العقيدة الإسلامية الصافية البعيدة عن الشوائب التي تركز على الكتاب والسنة وترتكز على السماحة وترتكز على القدرات التي أسسها عليها الوحي . إذن نحن أساس تجمعنا الشرعي هو العقيدة الإسلامية وحدها، هو الأساس الذي يجتمع عليه الطرف الآخر هي القواعد الأربع . إذن نحن عندما ننظر إليها ننظر إليها بهذا المنظار، وهذا المنظار هو وحده الذي يمكن أن يساعدنا في وجود تشريعات تقوم عليها علاقتنا مع

النظام العالمي الجديد والذي يمكننا أن نتعامل معه بناءً على هذه السماحة العقيدية. وقد يمأ كان علماء الغرب الإسلامي عندما يكتبون في الفقه يبدأونه بباب التوحيد (باب العقيدة) فكأنهم يريدون أن يقولوا للعالم: إن هذه التشريعات ما لم تخالف هذه العقيدة فهي سليمة وإذا خالفتها فليست سليمة. إذن معنى هذا ينبغي أن ننظر إلى تشريعنا وأن ننظر إلى النظام الدولي من خلال هذه العقيدة وإذا نظرنا إليه من خلال هذه العقيدة فسوف نجد القواسم المشتركة التي تساعدنا على التفاهم بناءً على النظام العالمي الجديد. وشكراً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ عابد السفيناني:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ما تحدث به كثير من الإخوة الفضلاء كان حديثاً جيداً، ولي تعليق على بعض البحوث لكنني لا أحدد منها شيئاً وإنما أذكر بعض المسائل التي تحتاج إلى تنبيه.

وهذا الموضوع تختلط كثير من أموره بموضوع الغزو الفكري، وذلك ما تحدث به سعادة الدكتور طه جابر العلواني هو في الحقيقة من صميم الموضوع لأن الغزو الفكري قد دخل إلى قضية العلاقات وأفسد جانباً من التصور الإسلامي الصحيح في هذا الأمر. لعلنا - إن شاء الله - نخرج في هذه المرحلة الجديدة بالتعاون مع ما يسمى بالنظام العالمي الجديد على الأصول الثابتة العلمية ولذلك ستكون كلمتي مهتمة بالتقعيد الذي ذكره الفقهاء في هذا الباب، ولست أحجز نفسي في الواقع المعاصر فإننا إذا اجتمع أهل العلم والفكر فإنهم إنما يتحدثون عن ثوابت الإسلام وأصوله، لأننا نتحدث عن تصحيح مسار هذه الأمة، وأما الحالات الاستثنائية فهي موضع نظر وبحث ولكنها ليست هي الأصل. والحديث عن الحالات الاستثنائية لا يجيز لنا بحال من الأحوال أن نغفل الأصول التي هي الطريق الوحيد لتصحيح مسارنا. المرحلة السابقة وصل

الكلام فيها في حرية الأديان — كما هو معلوم — وفي التقارب بينها وتمكن من ذلك الغزو الفكري حتى صرح كثير من المشتغلين بالدراسات الإسلامية، كما صرح جمال الدين الأفغاني بأن الأديان يكمل بعضها بعضاً مع أن المعلوم من إجماع علماء المسلمين في جميع القرون أن الأديان لا يكمل بعضها بعضاً وإنما فيها شيء منسوخ ومنها شيء مبدلٌ محرّف، والغزو الفكري قد تمكن من هذا الباب، ولذلك نحن بحاجة إلى وعي بالغ في هذه القضية حتى نضع للمسائل الاستثنائية حكمها ونثبت القواعد دون تغيير لعل الأجيال القادمة تأتي وتجد قواعد ثابتة لا يحكم علينا فيها بتزييف أو تضييع لها.

نريد أن نقول دائماً — ومن حقنا أن نقول — إن الإسلام أو نقول: لا إكراه في الدين، ومن حقنا أن نقول: إنما القتال هو لرفع البغي والظلم، ومن حقنا أن نتحدث عن الجهاد وأهدافه السامية، لكن ليس من حقنا أن نتحدث في خارج الأطر الثابتة الشرعية التي قررها علماء الإسلام.

القانون الدولي وتحقيق مقاصده العامة كما يراها الذين وضعوه مع الناحية الواقعية التطبيقية لا يحتاج إلى كثير من الكلام، ومقاصد القانون الدولي الوضعي — أيضاً — لا يحتاج إلى كثير من الكلام فقد صرح أحد الكبار وهو (جب) في كتابه: (وجهة الإسلام) فقال: المقصد من الغزو الفكري هو إبعاد سلطان الدين عن النفوس. والغزو الفكري قد اختلط بالقانون الدولي والقوانين الوضعية.

أما مقاصد الشريعة الإسلامية فهي معلومة لدى الجميع، لكن ما هو المدخل الصحيح لدراساتها؟.

دراسة منهج الفقهاء وهو موضوع هذه الجلسة يحتاج أن ندخل له أولاً بتحديد صحة النقل عنهم. الأمر الثاني: الاستقلال في الانطلاقة وعدم الالتزام أو الخضوع للواقع المرير. الأمر الثالث: ملاحظة مقاصد الإسلام جميعاً دون تفریق.

في هذه الأطر والثوابت نستطيع أن نتحدث ونخرج الصورة الصحيحة. من هذه الأطر — وأشير إليها بإيجاز.

أولاً: لا ولاء بين الكفار والمسلمين ولا مودة، وهذه قضية أشار لها بعض الإخوان لكنها تختلط عند بعضهم في بعض البحوث فيخلطون المودة بما جاز في الشرع من البر والقسط والتعامل. والفرق بين المودة واضح وبين البر والقسط والتعامل. ولذلك أشار الأستاذ محمد الناصر إلى ملاحظة جيدة في هذا الباب وبينها وبين أنه لا مودة في نصوص الإسلام ولا يمكن أن تكون هناك - كما يقال - أمور نفسية أو شيء من المودة أو المودة كما تطلق في بعض الأحيان ولا يمكن أن يختلط هذا المصطلح بمصطلح البر والقسط والتعامل. فالبر والقسط والتعامل مع الكفار شيء آخر غير المودة وغير الآمال المشتركة.

الأمر الثاني: الإطار الذي بنى عليه الصحابة الفقهاء والأئمة والتابعون ومن بعدهم من أئمة الإسلام أن الجهاد مع كل بر وفاجر خلافاً للقول بأن الجهاد إنما يكون مع العادل أو إنما يكون مع الإمام المعصوم.

الأمر الثالث: أن مقصد الجهاد كما ذكر أيضاً الشيخ محمد الناصر في بحثه وهو كلام الفقهاء وإنما أشرنا إليه لأنه نبّه إلى ذلك، مقصد الجهاد هو إخضاع دور الكفار للإسلام، وقد يتعجب الناس من هذا القول ويقولون: تتكلم في أي واقع أنت؟! فنقول إن الإسلام تحدث عن عالميته وهو شعاب مكة وتحدث عن قضاياها الأصلية الصحيحة دون تلبيس وكان ذلك أمراً واضحاً ثم يستطيع المسلمون بمشيئة الله بما يبذلونه من جهد وصدق لتحقيق أصول الإسلام وشرائعه.

من المقاصد التي نص عليها الفقهاء وهي من خصوص بحثنا - في الجهاد - قولهم كما نص علماء الحنفية أن الجهاد المقصود به إخلاء العالم من الفساد يساوي قولهم: رفع الفتنة، وقولهم: إن الدين كله لله.

الأمر الرابع: الذي ينبغي التنبيه إليه هو أن القرآن من أوله إلى آخره والسنة النبوية ونصوص الفقهاء دالة على أن الأصل والقاعدة أن تقوم هذه الأمة بنصرة الدين وتحكيم الشريعة ونصرة العقيدة وتخيير الكفار عند القدرة في ثلاثة خصال: الإسلام، أو الجزية وهي الخضوع لسلطان الإسلام، أو القتال.

الأمر الخامس: الفقهاء تحدثوا عن المهادنة وجعلوا لها شروطاً، وجملة شروطهم تعود أنه لا يجوز أن يكون العهد والمهادنة موجب أو يعود على الجهاد بالإبطال، ونصوص الفقهاء واضحة في هذا ولا يمكن أن يضرب بعضها ببعض. ولذلك لم يقولوا بشرط دوام المدة، والقول بعدم تحديد العهد لا يعني دوام المدة، فإن العهد إذا لم يكن محدداً حققت شروطه فلا يعني أنه مؤبد. دع عنك مسائل السلام والتطبيع وغير ذلك.

الأمر السادس: وهو إطار مهم جداً ونحن نتحدث عن الإسلام والمسلمين ونتحدث للأجيال القادمة أن تقسيم الدور الأصلية ثابت عند الفقهاء ومحل إجماع وليس له علاقة بقضية الحرب والسلام حتى يمكن أن تتغير الأوصاف فإن الأوصاف التي تتغير من الحرب إلى السلم هي الأوصاف التبعية أما الأوصاف الأصلية وهي دار الإسلام ودار الكفر، فلا تزال ما دام هناك مسلمون وهناك كفار. فلا يجوز أن تخلط هذه المفاهيم بعضها ببعض ولا مكان لما يسمى بالنظام العالمي الجديد أمام هذه القسمة الثابتة التي تجعل للمسلمين دارهم وشريعتهم وولاءهم وتميزهم وتوجههم.

وأما الحديث عن العمومات من الآمال المشتركة ومعروف أن ضحية ذلك هم المسلمون، والواقع المرير لا يمكن أن نتحدث عنه في هذه العجالة، فالمسلمون هم الضحية، كما أشار الدكتور طه العلواني في مقدمة ضافية ووعي واضح جداً أن المسلمين هم الضحية الوحيدة لمسألة ما يقال بالنظام العالمي الجديد. من الأسباب التي أدت إلى اختلاط المصطلحات بعد الغزو الفكري وما أشرنا إليه من ترك المنهجية العلمية الثابتة في هذا الباب وقد استفاد من المنهجية العلمية كثير من الباحثين وثبت هذه الأمور.

من الأسباب الأخرى الخلط بين كلام الفقهاء في العلة في الجهاد والعلة في القتل، ولذلك لا يجوز أن نضع مكان الجهاد الحرب لأن الحرب جزء من الجهاد فينبغي أن تكون القاعدة هي الجهاد. والجهاد بالثلاثة الأمور التي يخير فيها، وأما الخلط بين قضية مقصد الجهاد عند الفقهاء ومقصد القتل أو العلة في

القتل هذا خلط كبير أدى ضياع الصورة الصحيحة ونحن نتحدث ونقل كلام أهل العلم في هذا الباب، فإن العلة في الجهاد هي مقاصد الجهاد التي سبق ذكرها والتي أشرت إليها وقد أشير أيضاً في نهاية حديثي عن شيء منها لم أشر إليه من قبل. وأما تحديد العلة في القتل فهي المقاتلة فنقلت العلة في القتل إلى العلة في الجهاد أو العلة في القتال، وفرق بين العلة في الجهاد ومقاصد الجهاد وبين العلة في القتل لأنه لا يقتل إلا من قاتل وعلى ذلك تخرج نصوص الفقهاء في هذا المجال. ومما ينبغي التنبيه إليه أن هناك رسالة اعتمد عليها بعض الباحثين منسوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية اعتمد عليها الدكتور عبد العزيز الخياط، وهذه الرسالة من أولها إلى آخرها مبنية على الفرق بين العلة في القتال والعلة في القتل والتسوية عدم إدراك الفرق بينها والتسوية بين هذا وهذا حتى قالوا: إن العلة في القتل هي المقاتلة ونقلوا هذه العلة إلى مسألة الجهاد، وبنيت هذه الرسالة على هذا الأساس ومقارنتها بكتب شيخ الإسلام مجتمعة تدل على أن هذه الرسالة لا يصح نسبتها إليه. ولذلك العلة في الجهاد عند شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المقاصد الكبرى التي تحدث فيها كثير من الإخوان، وهذه الرسالة بحثها بعض الباحثين وأثبت عدم نسبتها وهو الشيخ سليمان بن حمدان.

من الأمور المهمة أيضاً ونحن نتحدث عن العلاقات بين المسلمين والكفار أن نستنقذ المسلمين إلى المفاهيم الصحيحة، لأن هذا هو الحل وهذا هو الصحيح. سنعيش فترة معينة لا ندري كم تطول في حالة التيه والغناء الذي نحن فيه، لكن لا بد من إبراز الصورة الصحيحة للإسلام والمفاهيم الإسلامية لعنا — إن شاء الله — نستطيع أن نخرج من هذا الذي نحن فيه ونسلم للأجيال القادمة تراجم للعلماء الذين يتحدثون عن قضايا الإسلام في هذا العصر الآن فيجدون تراجمهم وهم يتحدثون عن الإسلام بصورته الصحيحة.

لا بد من حديث مختصر عن مقاصد الشريعة والكليات الإسلامية والعقيدة الصحيحة لنعيش بالحق وللحق وهو مقصود الإسلام الذي نعيش وله وبه.

من الأمور المهمة في دراستنا للعلاقات الدولية وفي نظرنا أيضاً إلى أمورنا

الداخلية، أولاً: أن نثبت المقاصد المشار إليها في العلاقات بين المسلمين وغيرهم. وقد سبق شيء منها.

والأمر الثاني: وهو مهم أيضاً: تبغيض عبادة غير الله للناس عامة.

الحديث عن الآمال المشتركة أو — كما تفضل الدكتور طه العلواني — عدم فهمنا لأعدائنا وما يريدونه منا لا يجعلنا نوقف المسلمين على الإسلام الصحيح. تبغيض عبادة غير الله سواء من الأديان المبدلة أو من المظاهر المنحرفة عن الشريعة الإسلامية، ومعلوم أن الأديان منسوخة وأن الموجود الآن في العالم إما قديم منسوخ وإما قديم مبدل وإما جديد شرع من دون الله، والتشريع من دون الله هو أفة البشرية، فإن التشريع من دون الله هو الذي جعلهم يختارون غير الإسلام أو يبدلون الذي اختار الإسلام يبدل في داخل الإسلام حتى يكون تبديله قد غير حقيقة الإسلام. وخطر التشريع من دون الله يكفي فيه قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَكُؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾.

وهي قضية تتصل بالأمور الاجماعية عند العلماء وهو أنه لا يجوز نقل الحكم المحرّم عن صورته المشروع للممنوع ولا الممنوع للمشروع، وشأن التشريع من دون الله هو نقل المشروع ليكون ممنوعاً والممنوع ليكون مشروعاً في جميع المجالات أو في أكثر المجالات سواء ما يتعلق بالأمور الضرورية أو الحاجية أو التحسينية.

الأمر الثالث: وهو مهم جداً، الدعوة إلى تمييز المسلمين عن غيرهم وهذا أمر لا غبار على المسلمين أن يطلبوه وليست مهمتنا هي إدخال هذه الأمة في الأمم الأخرى حتى كما هو الحال، فالشريعة الإسلامية بدلها القوانين الوضعية، والولاء لله ولرسوله والمسلمين واعتصامهم بحبل الله المتين بدله — والعياذ بالله — الولاء للكفار والدخول في مناهجهم. ليست مهمتنا هي إدخال هذه الأمة في الأمم الأخرى وإنما مهمتنا هو تثبيت هذه الأمة على أساسياتها العقائدية والتشريعية ثم بعد ذلك الانتقال لدعوة الأمم الأخرى. والدعوة إلى تمييز المسلمين عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

تمييزهم بشريعتهم وولائهم واجتماعهم على ذلك وأخذ حقوقهم وجمعهم على شريعة الله واستقلال توجههم واجتماعهم على كلمة سواء هو الأمر الذي ينبغي أن يعتني به المسلمون ويدرسون من خلاله التأصيل الصحيح للعلاقات الدولية ويكون للمسائل الاستثنائية كلامها الخاص الذي لا يعود على الأمور الأصلية بالتشويش أو الإبطال.

المناهج الموجودة في العالم مناهج محاذاة لله ورسوله، فلا يمكن أن يطوع المسلمون ليتعايشوا مع هذه المناهج أو تكون بينهم وبين هذه المناهج آمال مشتركة.

لا أطيل في هذا الموضوع ولكنني أعود فأقول: إن المنهجية العلمية وهي التي ينبغي أن تحكم دراستنا لقضايا الإسلام وهي التي ينبغي أن نقدم بها قضايا الإسلام، كما هي واضحة جلية ويكون للأصل حكمه وللإستثناء حكمه ونقدم الإسلام بصورته من خلال مقاصد الشريعة مجتمعة لتصحيح الاعتقاد وإقامة الشريعة وجمع المسلمين على ذلك وتقديم الصورة الصحيحة للإسلام في جميع المجالات سواء في العلاقات الدولية أو غيرها، وألا نكون نهبا لمبادئ الكفر ونحلهم وضلالاتهم وخططهم التي ما جنى المسلمون منها إلا الشر والفساد.

أقول قولي هذا وأستغفر الله وأتوب إليه وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمد الزباني:

بسم الله الرحمن الرحيم. أحمدك ربي وأصلي وأسلم على خير خلقك محمد وعلى آله وصحبه.

أبدأ بأن أؤكد على ذلك الاقتراح القيم الذي تقدم به الأخ من السودان الشقيق وأتمنى وآمل من الله العلي الكريم أن يشرف مجمع الفقه الإسلامي بأن يكون الباديء في هذه الخطوة الكبيرة التي نراها بداية الطريق لتضميد جراح العالم الإسلامي الذي أصبح يعاني الآن من حالة فقدان.

أيها الأخوة، كان بودي ونحن نتحدث عن الحقوق الدولية في الإسلام أن نستشعر هذه الخطوة التي سار عليها المجمع في طرح هذه القضايا وهذا يدل — كما أعتقد — على وعي كبير بأهمية هذه القضايا وعلى تقدير لها وعلى حرص المجمع على أن يناقش قضايا العالم الإسلامي في مختلف مستوياتها. كان بودي أن نؤكد على هذا التوجه لهذا المجمع وفي هذا الإطار أشكر كل الشكر القائمين على هذا المجمع لما أثاروا هاتين القضيتين: قضية الغزو الفكري، وقضية الحقوق الدولية في الإسلام.

أما ما يخص قضية الحقوق الدولية في الإسلام فإني أقول: إن هناك الكثير مما يجب أن يقال ولكني شخصياً، حرصاً على مهابة هذا المجمع، وحرصاً على توجهاته، فإني سأختصر مداخلتني في بعض النقاط البسيطة. هذه النقاط تتوجه نحو البحوث، والسؤال على أي شكل وبأي منهج تم بحث الحقوق الدولية في الإسلام في هذا الوقت؟ أهو من خلال ما تفضل به الشيخ التسخيري من خلال المفترض أم من خلال الواقع؟ أهو من خلال التراث أم من خلال الواقع المعاش؟.

أعتقد أن معظم الأبحاث قد توجهت إلى معالجة هذا الموضوع من خلال التراث، من خلال ما هو موجود في النظام الإسلامي حول الحقوق الدولية أو العلاقات الدولية في الإسلام. وأعتقد — كما أنتم أعلم — أن هذا الموضوع يمثل أنصع نقطة في نظامنا الإسلامي ذلك أن الإسلام شهد مرحلة حياة مزدهرة أدت إلى وجود نظام للعلاقات الدولية يمكن لنا نحن المسلمين أن نفتخر به وأن نقول إننا نملك النظام الأمثل في هذه العلاقات. والصور الكثيرة في التاريخ الإسلامي التي تدل على نصاعة وقوة وعظمة هذا النظام أنتم أعلم بها ولا أريد أن أشوش وقتكم أو آخذ من وقتكم في ذكرها، لكن المشكلة هي أن هذا النظام ظل طوال هذا الوقت رهين مجتمعاتنا الإسلامية وحتى إن تناولته ندواتنا أو مجامعنا أو مؤسساتنا فإنما تناوله من خلال تقديم ورقات تحاول أن تعيد ما اشتملت عليه الكتب والندوات والأبحاث من علوم ومعارف تفسر هذا النظام

ولكن المشكلة لم تتوجه بهذا التراث الناصح الجيد، وبهذا النظام القوي إلى الغرب، لم نحاول أن نترجم ما عندنا ليفهم الغرب ما هو موجود في النظام الإسلامي. وهنا أود أن أشير إلى نقطة اختلف معها مع الدكتور طه جابر العلواني في المعرفة الإسلامية للغرب. صحيح أن الغرب يعرف الإسلام أكثر من المسلمين أنفسهم ولكن هناك مستويين من المعرفة: المستوى الرسمي والمستوى الشعبي، أما المستوى الرسمي فقد سخرت له كل الظروف وكل الإمكانيات من أجل معرفة أشياء دقيقة قد لا تتصورون أن يكون هناك البحث فيها خاصة إذا جئنا للتوجهات البحثية عند النظام الصهيوني لو كشف لنا ما عندهم من توجهات بحثية لرأينا عجباً أن هناك قضايا دقيقة وجزئية يبحثها هؤلاء حول الإسلام ولا نغير لها اهتماماً. أما المستوى الآخر من المعرفة الغربية للإسلام وهو المستوى الشعبي فأنا أؤكد وأعتقد جازماً أن الغرب في مستوياته الشعبية لا يعرف عن الإسلام إلا كل شر لأن الآلة الإعلامية الغربية قد سخرت لتقديم المسلم في صور متعددة أتم أعلم بها، ولو وجد إعلام إسلامي بمعنى الكلمة لاستطاع أن يقنع الغربيين في مستوياتهم الشعبية بما هو الإسلام؟ ما هي عظمة الإسلام؟ وفي هذا الإطار يحضرني مثال واحد. فيلم واحد عن جهاد شيخ مجاهد من مجاهدي الإسلام شد أنظار الغربيين لأشهر متعددة وهم يتدافعون حول دور العرض من أجل مشاهدة هذا الفيلم وأثره حتى في أطفالهم، فماذا لو نحن امتلكتنا آلة إعلامية غربية تحاول أن تقدم كتاباً أو فيلماً عن نظام الحقوق في الإسلام، الحقوق الدولية في الإسلام ما هي؟ حقوق الفرد، حقوق المجتمع، حقوق الدولة ما هي؟ الغرب يجهل كل شيء في مستوياته الشعبية. أما المستوى الرسمي فهم صحيح أنهم يعلمون كل شيء. وفي هذا المجال أود أن يقترح على المجمع أن يتبنى فكرة ترجمة كتاب عن الحقوق الدولية في الإسلام، عن حقوق الفرد، عن حقوق المجتمع، عن حقوق الدول في الإسلام وفي تعاملها وفي هذا الإطار أيضاً أرجو أن يتوجه المجمع لنقطة لم تتناولها البحوث على الرغم من أهميتها وهي حقوق الأقليات في النظام الدولي الإسلامي، حقوق الأقليات في المجتمعات الإسلامية تلکم القضية التي أعتقد أنها هي القنبلة الموقوتة التي

سيكون محاربة الإسلام من خلالها في الأشهر القليلة القادمة وستعلمون ذلك إن شاء الله، هذه الأقليات ستستخدم ضد الإسلام والمسلمين، وما أحوجنا إلى أن نوجه أنظار العالم إلى أن المجتمع الإسلامي له أمثل النظم في معاملة الأقليات في مجتمعاته الإسلامية.

أما على صعيد ما توجهت إليه الأبحاث من ناحية الواقع - ذلك من خلال التراث - أما من خلال الواقع فلا أعتقد أن الأبحاث قد تناولت ذلك باستفاضة ولعلي ربما لم أطلع عليها ولكنني سمعتها من خلال العرض الذي تفضل به الشيخ محمد علي السخيري. هل هناك حقوق دولية معاصرة الآن؟ هذا سؤال يجب أن نتوقف عنده. ومن وضع هذه الحقوق الدولية؟ وهل نحن المسلمون لنا مساهمة في وضع هذه القوانين؟ من الذي يمثل هذا القانون الدولي؟ هل هي الأمم المتحدة أم مجلس الأمن، أم من؟ بمعنى ما هو الإطار الذي نجد فيه الحقوق الدولية في المجتمع المعاصر وخاصة في ظل هذا الوضع الذي نحن فيه الآن، في ظل انهيار الشيوعية وانحسار الحكم في العالم إلى قطبية أحادية نتج عنها شرعية دولية تغيرت فيها المفاهيم وتغيرت فيها الأوضاع رأساً على عقب وأصبحنا نحن المسلمين - كما تفضل بعض الإخوان - بأننا المستهدف الوحيد في النظام العالمي الجديد؟ ثم هل ترك النظام العالمي الجديد إمكانية لأن نتحدث نحن المسلمين على الأقل على حقوق دولية؟ هذه بعض أسئلتني كان بودي لو تناولها الباحثون وفي هذا المجال وكنت أود وكنت حريصاً جداً على ألا أثير أي قضية تتعلق ببلدي ولكني ومن خلال ما سمعت من آراء برز في ذهني الآن تساؤل وفق الحقوق الدولية في الإسلام ووفق المعاصرة للحقوق الدولية وفق الشرعية الدولية الجديدة، نطالب الآن بتسليم مسلمين اتهمنا على فرض أنهما أذنبنا، فهل يجوز لنا شرعاً أن نقدم هذين المسلمين إلى بلد كافر ليحاكما فيه وفق قانون بعيد عن شريعتنا؟ طولبنا - وهذا كلام بعيد عن أزمة الخليج هو معاصر - طولبنا بأن ندمر أسلحتنا فهل هذا مشروع لنا وفق حقوقنا الدولية في الإسلام؟ هل هذا يتوافق مع قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ

رَبَاطِ الْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

هل يصح لنا شرعاً أن ندمر أسلحتنا؟. هذه بعض الملاحظات وددت أن أتوجه بها إلى الباحث لا إلى المجمع. ولكم الشكر كل الشكر وللمجمع كل التقدير.

الشيخ محمد المختار السلامي:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

لعل جلستنا اليوم كانت جلسة متميزة كما أحس كلنا بذلك إذ أنها تناولت قضايا يحس بها كل واحد منا إحساساً ذاتياً، إحساساً خاصاً، وتناولت جلستنا هذه مواضيع وبحوثاً مؤصلة ومركزة ليست شخصية وإنما هي أصلية. وكلمتي مع تقديري لكل ما استمعت هي موجهة للأمانة العامة ثم لرئاسة المجلس هو أن هذا المجلس نتكلم فيه بكل حرية في كل ما يختلج في نفوسنا ولكنه من ناحية أخرى هو مضبوط بقواعد وبأطر وبأسس في إنشائه وفي أهدافه ويحدد له غاياته ووسائل بلوغ تلك الغايات، ولذا فإنني أريد فقط بالنسبة للذين سيتولون صياغة القرارات أو التوصيات أن يلائموا دوماً بين هذه المبادئ التي قام عليها المجمع والتي هي خط لا يجوز الخروج عنه وبين القرارات المتخذة. وشكراً.

الرئيس:

بسم الله الرحمن الرحيم.

نظراً لانتهاؤ الوقت بل لتجاوزه نأتي على اختتام هذه الجلسة ونقول: إنه في الدورة الخامسة لهذا المجمع صدر قرار بشأن النظام للجنة الإسلامية للقانون الدولي الإسلامي وأنه يكون من مهام هذا المجمع حسب ما أحالته إليه المؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية. وقد ترون مناسباً أن تتألف لجنة من كل من: الشيخ طه العلواني، الشيخ عابد السفيناني، الشيخ معروف الدواليبي، الشيخ محمد علي التسخيري، والمقرر الشيخ رأفت سعيد لصياغة قرار ويكون من مشمولاته أن يعهد للأمانة العامة لمجمع الفقه الإسلامي بأن تؤلف لجنة على مستوى

الإدراك والفقہ والعلم والتخصص في مجال الحقوق الدولية لتضع صياغة معينة ومحاور رئيسة تعدها إعداداً وصياغة للحقوق الدولية في الإسلام ثم تعرض على المؤتمر في دورة لاحقة – إن شاء الله تعالى – موافقون؟

وبهذا ترفع الجلسة والشيخ الحبيب له كلمة .

الدكتور محمد عطا السيد :

سيدي الرئيس أنا تقدمت باقتراح لتكوين لجنة معينة وأظن ثني هذا الاقتراح ولا أدري لماذا تجاهلت الرئاسة هذا الاقتراح؟

الرئيس :

ليس اقتراحك هو الوحيد وإنما هناك مجموعة اقتراحات والمقرر يكتب يا شيخ عطا جميع الاقتراحات ولجنة الصياغة تعد – إن شاء الله تعالى – ما يمكن التوصل إليه .

القرار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين
وعلى آله وصحبه.

قرار رقم: ٧/٦/٧٠

بشأن

الحقوق الدولية في نظر الإسلام

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره السابع بجدة في
المملكة العربية السعودية من ٧ إلى ١٢ ذو القعدة ١٤١٢هـ الموافق ٩ - ١٤
مايو ١٩٩٢م.

بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع:
«الحقوق الدولية في نظر الإسلام».

وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حوله، رأى ما يلي:

أولاً:

يشي المجلس على الجهود المشكورة التي بذلت في البحوث التي قدمت
ونوقشت في دورته السابعة حول هذا الموضوع، وقد رأى أن الموضوع من
الأهمية والسعة بحيث يدعو إلى مزيد من البحث والدراسة في الجوانب المتعددة
التي ما زال الموضوع في حاجة إليها.

ثانياً:

يقترح المجلس تشكيل لجنة تحضيرية لإعداد ورقة عمل لندوة متخصصة

تعقد لمعالجة تفاصيل هذا الموضوع والخروج بمشروع لائحة للحقوق الدولية في الإسلام تعرض على المجلس في دورته القادمة.

ثالثاً:

يقترح المجلس أيضاً أن يكون من محاور ورقة العمل ما يلي:

- ١ - مصادر القانون الدولي الإسلامي والعلاقات الدولية وهي: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والتطبيقات العملية عند الخلفاء الراشدين، كما يستفاد من اجتهادات الفقهاء في هذا.
- ٢ - المقاصد والخصائص العامة للشريعة الإسلامية، والتي تترك أثرها العملي على المواقف كلها:
 - (أ) المقاصد الشرعية.
 - (ب) الخصائص العامة.
- ٣ - مفهوم الأمة ووحدتها في الإسلام.
- ٤ - مذاهب الفقهاء في أقسام الديار.
- ٥ - الجذور التاريخية للحالة القائمة في العالم الإسلامي.
- ٦ - علاقات الدولة الإسلامية في داخلها (الشعب والأقليات).
- ٧ - علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى.
- ٨ - موقف الدولة الإسلامية من الموائيق والمعاهدات والمنظمات الدولية.

رابعاً:

يقترح المجلس على اللجنة التحضيرية أن تقوم بوضع أوراق شارحة يسترشد بها الباحثون في تفصيل هذه المحاور وأن يكون ذلك في خلال الأشهر القادمة.

والله ولي التوفيق.

الغزو الفكري

البحوث

- بحث معالي الدكتور محمد معروف الدواليبي .
- بحث الدكتور عبد السلام داود العبادي .
- بحث الدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرفور .
- بحث الشيخ محمد علي التسخيري .
- بحث الدكتور أبو بكر دكوري .
- بحث الدكتور محمد نبيل غنايم .
- بحث الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح .
- بحث الشيخ القاسم البيهقي المختار .
- بحث الدكتور عمر يوسف حمزة .
- المناقشة .
- القرار .

رسالة

معالي الدكتور محمد معروف الدواليبي

حوّل

الغزو الفكريّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى معالي الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي في منظمة المؤتمر الإسلامي ،
سيادة الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة ، حفظه الله :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . وبعد :

فإنني حين استجبت لدعوتكم الكريمة لحضور هذه الدورة السابعة لمجلس مجمع الفقه الإسلامي في جدة، لم أكن أنوي أن أقدم كلمة لي في أحد موضوعات هذه الدورة . . . غير أنني في الأسبوع الماضي، وبتاريخ ٣/٥/١٩٩٢م حين كنت أعد الحجز للقدوم إليكم، حملت إلينا الأخبار العالمية خبر ندوة «أمريكا والإسلام وتحديات التسعينات»، التي قد نظمتها قبل أيام «معهد دراسات الشرق الأوسط الأمريكي في واشنطن»، وما قد جاء فيها من توصيات أعدتها لهذه الندوة «لجنة العمل الأمريكية الإسرائيلية المعروفة - إيباك -»، والتي اعتبرت في هذا الوقت تصعيداً جديداً مقصوداً لتشويه حقائق الإسلام، والزعم بأنه يهدد الحضارة الغربية!! وأن الإسلام قد أصبح بعد سقوط الشيوعية هو العدو الأول، والتحدي الوحيد للغرب!! كما قد نشرته جريدة الشرق الأوسط العربية الدولية بتاريخ ٣/٥/١٩٩٢م على الصفحة (١٦) منها.

ويؤسفنا جداً أن هذه التوصيات الإسرائيلية قد جاءت اليوم ونحن في مرحلة يسعى فيها العالم إلى إقامة نظام عالمي جديد يدعو إلى التعايش فيه بين جميع الأمم والشعوب في أجواء تسود فيها الدعوة إلى التعاون والعمل المشترك لخير المجتمع الإنساني كله، بعيداً عن الأحقاد والعصبيات والصراعات العقائدية والإيديولوجية . .

كما يؤسفنا أن هذه المخاوف قد عبّرت عنها اليوم عدة مراجع وشخصيات عالمية سياسية في الغرب من قبل ومن بعد. ومنها «مجلة الشؤون الدولية» بتاريخ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٠م، التي تصدر من كمبرج في إنكلترا، وهي من أهم المجلات الأكاديمية المتخصصة. وكذلك فعل الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون في كتابه «الفرصة السانحة»، وخاصة ما قد جاء فيه من أن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى المسلمين كأعداء، وإنهم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين!!! وكذلك ما قد جاء فيه من الدعوة إلى مواجهة «الأصولية الإسلامية» المصممة على العمل لتطبيق الشريعة الإسلامية!! وعلى أن الإسلام دين ودولة. مع شكواه أخيراً من أن بعض زعماء المسلمين يسيطرون بالمصادفة على ثلثي البترول في العالم. ويضاف إلى ذلك كله أيضاً ما قد نشرته أخيراً مجلة «نيوزويك» الأمريكية في عدد ٢ يوليو (تموز) ١٩٩٠ من حديث لوزير خارجية إيطاليا «جيانني ديمنس»، وكان حينذاك يشغل رئاسة المجلس الأوروبي للمجموعة الأوروبية، حيث قال: بلزوم «بقاء الحلف الأطلسي» بعد انهيار الشيوعية، وذلك: «لأن المواجهة بعد الشيوعية يمكن أن تكون مع العالم الإسلامي».

ولذلك كله، فقد رأيت أن أسارع إلى لفت نظر السادة أعضاء «مجلس مجمع الفقه الإسلامي» في جدة إلى تلك التوصيات الإسرائيلية الخطيرة الصادرة من ندوة «معهد دراسات الشرق الأوسط الأمريكي في واشنطن». وكذلك أيضاً إلى تلك التشويهات لحقائق الإسلام الإنسانية من قبل شخصيات سياسية كنا نجلهم أن يقعوا فيها، راجياً من مجمع الفقه الإسلامي الكريم أن يتخذ ما يراه مناسباً وحكيمياً تجاه تلك التشويهات والتوصيات، لا بالرد الصحفي والإعلامي المثير، وإنما فيما أرى بدعوة «معهد الدراسات» المذكور، وكذلك تلك الشخصيات الكبرى إلى حوار علني ودي لديهم ضمن أدب الحوار القرآني الإسلامي من أجل السلام العالمي الذي أمر به الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِيهِمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وحيث قال: ﴿أَدْفَعْ بِآيَاتِي هِيَ

أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُمُ وَلِيُّ حَمِيمٍ ﴿٦٢﴾ . وذلك من أجل التعارف الذي أمر به الله فيما بين الشعوب . ومن أجل التعريف بحقائق الإسلام السلمية ، ورسالته العالمية الإنسانية : العقلانية الخطاب ، والعلمية في الحوار ، والداعية لجميع الأمم والشعوب قبل أربعة عشر قرناً : إلى نظام عالمي جديد إنساني ، يقوم على التعاون والتكافل في شؤون الحياة الكريمة فيما بين جميع بني الإنسان : على اختلاف الأعراق ، والأجناس والأوطان ، والأديان ، وعلى أساس : «إن الخلق كلهم عيال الله ، وإن أحبهم إليه أنفعهم لعياله» كما أعلنه رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ، ما لم يقاتلونا في الدين أو يخرجونا من ديارنا . . ويسرنا أن نعلن أن كل ما عدا ذلك هو جهل بحقائق الإسلام ، بل افتتات عليه ، وداع إلى الإفساد في الأرض ، وإننا لدعوة «معهد دراسات الشرق الأوسط في واشنطن» للحوار لمنتظرون ، إن كانوا لخير الأسرة البشرية عاملين وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . .

الدكتور محمد معروف الدواليبي

دراسة حول الغزو والتقايف للعالم الإسلامي

بداياته، دوافعه، أبعاده، سبل مواجهته

إعداد

الدكتور عبد السلام داود العبادي

ممثل المملكة الأردنية الهاشمية
في مجلس مجمع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على رسوله الكريم وبعد. . فهذه دراسة عامة حول الغزو الثقافي للعالم الإسلامي تعرض بإيجاز لبداياته ودوافعه وأبعاده والنتائج التي حققها في بلاد المسلمين مع عرض موجز لسبل مواجهته، أقدمها للدورة السابعة لمجمع الفقه الإسلامي راجياً أن ينفع بها وأن تساعد في تكوين تصور شامل للخطة اللازمة لمواجهة هذا الغزو ليس في العالم الإسلامي فحسب إنما في كشف تجنيه على الإسلام وعمله على تشويه مبادئه وقيمه في جميع أنحاء العالم. وفاء بواجب الدعوة إلى هذا الدين الذي شاء الله سبحانه أن يكون خاتمة الرسالات الإلهية وللناس كافة وحرصاً على إحقاق الحق ووضع الأمور في نصابها العلمي الصحيح وبخاصة أن عصرنا هذا يدعي بأنه عصر الموضوعية والأمانة في مجالات العلوم والمعرفة. .

والواقع أن المواجهة الفكرية التي يتعرض لها الإسلام مواجهة شاملة وشرسة تتطلب الإعداد والتخطيط وبذل للجهد الواسعة المضنية في مجالات التأليف والبحث والنشر والإعلام والاستفادة من كل وسيلة متاحة لعرض المواقف الإسلامية بأمانة وموضوعية ورد كل الشبهات والمطاعن التي افتعلها ويفتعلها أعداء الإسلام حوله.

وإني أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون في هذه الدراسة مشاركة في هذا الواجب الكبير.

بدايات الغزو الثقافي:

بدأت ملامح الغزو الثقافي تظهر بوضوح عقب الاتصال الذي تم بين

الإسلام والغرب في الأندلس. فهناك اطلع الغرب على حقيقة الإسلام فأخذ ينتشر بينهم في أوروبا انتشاراً سريعاً فأراد المستنقدون فيه من حكام ورجال دين أن يوقفوا انتشاره، فندبوا الكثيرين لدراسة الإسلام: دراسة المفتعل للمطاعن والمدعي لها هادفين شرحه إلى قومهم شرحاً منحرفاً وذلك حتى يوقفوا انتشاره الذي أخذ يكتسح أوروبا اكتساحاً يسهل عليه ذلك ما كانت تعيشه أوروبا من اضطهادات من الكنيسة ورجالها ومن الحكام وأعاونهم^(١)، يقول سيرت أرنولد: (ولقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحيي إسبانيا مبلغاً عظيماً حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته، وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم، كما وجدوا في الفروسية العربية الرفيعة مجالاً فسيحاً لإظهار بأسهم وما تكشف عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم.. أضيف إلى ذلك أن علوم المسيحيين وأدابهم لا بد أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة إذا ما قيست بعلوم المسلمين وأدابهم التي لا يبعد أن تكون دراستها في حد ذاتها باعثاً على الدخول في دينهم) ويقول أيضاً: (ولما كان أشهر رجال الدين قد تأثروا تأثراً عميقاً من جراء اتصالهم بالمسلمين جاز لنا أن نحكم بأن تأثير الإسلام في مسيحيي أوروبا كان عظيماً وليس أدل على صحة هذا القول من التفكير في عقد ذلك المجمع بمدينة طليطلة سنة ٩٣٦م للبحث في أحسن الوسائل التي تحول دون أن تفسد هذه العلاقات من صفاء الدين المسيحي ونقائه (هكذا!!).

ويقول: (من ذلك نستطيع أن ندرك بسهولة كيف أن عوامل التأثير في الآراء وإقامة الشعائر الإسلامية بالإضافة إلى هذه الجهود الواضحة التي بذلت في سبيل تحول هؤلاء المسيحيين قد أدت إلى ما هو أكثر من مجرد التقارب والاتصال بل إنها سرعان ما عملت على زيادة الداخلين في الإسلام)^(٢).

فالإسلام دين النطرة والعقل تتقبله العقول السليمة البعيدة عن التعصب

(١) يراجع في ذلك كتاب الدعوة إلى الإسلام: ص ١١٦ وما بعدها.

(٢) الدعوة إلى الإسلام: ص ١٢٣ - ١٢٤.

بكل يسر وهو دين السهولة والبعد عن الخرافات والتعقيد، وهو الدين المنظم لكل مناحي الحياة الإنسانية. فحقيقة الإسلام وأنظمتها هي التي يسرت له هذا الانتشار السريع في كل مكان يقول الفيلسوف الإنكليزي الشهير كارليل: (وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدل النصرانية وكل ما لم يكن بحق كان حطباً ميتاً أكلته نار الإسلام)^(١).

ويرى المستشرق الألماني كارل بكر أن السبب في الحروب الصليبية هو أن الإسلام لما انبسط في العصور الوسطى أقام سداً في وجه انتشار النصرانية ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها^(٢).

لذلك اقتنع رجال الكنيسة وملوك أوروبا بأن مد الإسلام يهددهم في عقر دارهم فسلكوا في مواجهته سبيلين: سبيل الحرب العادية، وسبيل الحرب الفكرية المتجنبة، وكثيراً ما تلاقى هذان السبيلان.

سبيل الحرب العادية:

فالسبيل الأول فشلت فيه أوروبا كثيراً، فلقد استطاع الإسلام في سنتين أن يثبت أقدامه في أوروبا لمدة ثمانية قرون، هذا في غرب أوروبا، وفي شرقها استطاع أن يستولى على مركز الكنيسة الشرقية في القسطنطينية. واستطاع الإسلام أيضاً أن يقضي على الحملات الصليبية الأولى قضاء مبرماً وهو في هذه الأيام يقضي على الحملات الصليبية الثانية الواحدة تلو الأخرى.

فهو حطم صليبية فرنسا في الشمال الأفريقي وغيره من المناطق، وصليبية بريطانيا في دول إسلامية عديدة، وهاهو قد بدأ يعود إلى صفوف اتباعه كلهم روحاً دافعة تعيدهم إلى رحاب الحق وتشر بهم كل خير. وإن وصف هذه الاحتلالات الاستعمارية الحديثة بالصليبية ليس تجنياً من غير دليل بل يكفي دليلاً على ذلك:

(١) عن كتاب آراء مشاهير كتاب الغرب في الإسلام: ص ٢٢.

(٢) التبشير والاستعمار: ص ٣٦.

- القول المشهور الذي قاله الجنرال الفرنسي غورو قائد القوات الفرنسية التي دخلت دمشق بعد الحرب العالمية الأولى عندما زار قبر صلاح الدين الأيوبي (ها قد عدنا يا صلاح الدين)^(١).
- قول الجنرال اللنبي عندما دخل القدس في فترة الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م (اليوم انتهت الحروب الصليبية)^(٢).
- ما قاله جورج بيدو الذي تولى وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٦٣م: (أنه لن يترك الهلال يتغلب على الصليب)^(٣).
- ما اعترف به الفرنسيون من أن الإسلام هو الذي يخيفهم في أفريقيا مثل قول (غي موليه رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق): (إن الحركة الإسلامية التي تتسع في أفريقيا هي التي تهدد الأمبراطورية الفرنسية في المغرب)^(٤).
- ما فعله هؤلاء المحتلون من اضطهادات للمسلمين ومحاربة للإسلام في جميع المناطق التي احتلوها وذلك ليسهل عليهم البقاء فيها.
- يقول زاير: (إن شعوبنا هي الوحيدة التي أرادت أن تحمل إلى الشرق عقائدنا وآراءنا كما تحمل إليه تجارتنا فكأننا نريد أن نستعمره في كل شيء)^(٥).
- تشجيع هؤلاء المحتلين للمبشرين تشجيعاً كبيراً مما هو معروف على مستوى العالم الإسلامي، بل ظل تشجيعهم حتى بعد أن استقلت البلاد الإسلامية بحجج الثقافة ونشر العلوم والمساعدة في الإغاثة وعون المحتاجين وعلاج المرضى وغير ذلك من الحجج.

(١) التبشير والاستعمار: ص ٣٦.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي.

(٣) عن كتاب التبشير والاستعمار: ص ١٧٨ نقلاً عن مصادر غربية.

(٤) المصدر السابق.

(٥) التبشير والاستعمار: ص ٣٨.

سبيل الحرب الفكرية المتجنبة :

وأما السبيل الثاني والذي هو سبيل الحرب الفكرية المتجنبة فقد كان فرسانها الأوائل الرهبان الذين كان العلم مقتصراً عليهم في أوروبا، فأخذ هؤلاء يشوهون حقائق الإسلام ويعرضونها عرضاً منفراً على الأوروبيين، وألفوا ودبجوا في ذلك المقالات والكتب والصحف فأغروا قلوب المسيحيين على الإسلام وزرعوا فيهم حقداً وضحينة أصبح فيما بعد من البدهيات عندهم والذي نرى أثره حتى إلى هذه الأيام، فلقد بلدوا الشعور الغربي نحو المسلمين فأصبحوا لا يتحركون لما يصيب المسلمين من كوارث ومصائب وذلك لما ترسخ في نفوسهم من حقد ورغبة في انقراض المسلمين.

وسائلهم :

ثم تبع هؤلاء الرهبان في عملهم هذا خلق كثير تخصص في ذلك ووقف حياته عليه، ويدلل على مدى الجهد الذي بذلوه في حربهم هذه عدد الكتب والمؤلفات التي أصدروها لهذه الغاية، فإن خيال الإنسان قد لا يطيق تصور عدد الكتب التي ألفوها والنشرات التي طبعوها والمجلات والجرائد التي أصدروها طاعنين ومتهكمين ومستهزئين بكل مظاهر الإسلام حتى أن القارئ لكثير مما كتبوا لا يستطيع منع نفسه من الضحك على جهلهم بل تجاهلهم لحقائق الإسلام.

ومثال ذلك الكتاب الذي ألفه بوديه سنة ١٦٢٥ مؤرخاً عن الإسلام وهو الكتاب الفرنسي الأول عن الإسلام والذي منه وقف الفرنسيون على حقيقة الإسلام ولقد اعتمد مؤلفه على الكهنة البيزنطيين والإسبان وهؤلاء هم الذين احتقروا الإسلام والمسلمين احتقاراً وأسفروا لهم عن حقد وضحينة^(١)، ولا أريد أن أمثل على هذه الكتب التي نهجت هذا النهج فالأمثلة على ذلك كثيرة

(١) المستشرقون لنجيب العقيقي: ص ٤٠.

لا تحصى^(١). فإننا لا نكاد نمسك ونقرأ أي كتاب غربي يتكلم عن الإسلام أو الشرق (فإننا سنجد فيه أشياء كثيرة مبعثها التحامل، لا يقرها منطوق ولا عقل بل تشنيع خال من الحق والعدل تتجلى فيه سوء النية تجلياً لا يقبل الرد)^(٢).

وقد قاد هذه الحرب الفكرية المتجنية فريقان، رجال الكنيسة، وملوك أوروبا وأمراؤها خوفاً من الإسلام الذي أصبح يهددهم في عقر دارهم وذلك بما امتاز به الإسلام من سرعة الانتشار في البلاد التي يصل إليها وهذا ما نبه إليه الكثيرون منهم، يقول غاردنو: (إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا)^(٣).

— فقام الفريق الأول (قادة الكنيسة ورجالها) بتشجيع حركة التبشير والاستشراق ووقف أعداد كبيرة من الرهبان عليها فقد ورد في كتاب المستشرقون البريطانيون: فبينما كان التاجر يسعى في تحصيل النفع المادي من علاقاته بالشعوب الشرقية إذ المبشر الإنجيلي يسبقه تارة أو يتبعه حيثاً تارة أخرى وقد امتلأ حماسة شريفة أن يحقق أمر معلمه المسيح بالذهاب إلى كل العالم والتبشير بالإنجيل إلى كل مخلوق، وقد وجد أن مما يساعده على تحقيق ما يرمي إليه من الخلاص الروحي أن يتعلم ما للجماعة التي سيلقاها من لغة وطرق تفكير، وقد ازداد هذا التعليم لزوماً حين وجد الداعي المسيحي نفسه وجهاً لوجه أمام دين تبشيري آخر، هو الإسلام وأمام دعاة قاموا بدعوتهم، مستندين إلى ثقافة ناضجة وفلسفة لاهوتية دقيقة^(٤).

(١) اشترائيت وندنفر أصدر بين عام ١٩١٦م وعام ١٩٣١م سبعة مجلدات ذكر فيها أسماء مصادر ومراجع تدور حول المبشرين وتسهيل أعمالهم مما يدل على مدى الجهود التي بذلت في التبشير والذي هو وجه من وجوه هذه المعركة الفكرية «التبشير والاستعمار»: ص ٤٢٦.

(٢) المستشرقون والإسلام، لحسن الهراوي: ص ٣٠.

(٣) عن كتاب التبشير والاستعمار: ص ٤٢.

(٤) المستشرقون البريطانيون د. أح. أربري: ص ١٤ — ١٥.

وذلك ليقوموا بكل ما يستطيعون من تشويه وتزييف يهدفون منه هدفين:
الأول: حماية الكنيسة والمكاسب التي حصلت عليها من الزوال بانتشار
الإسلام؛ والثاني: غزو الشرق بهذه الأفكار محاولين نشر دينهم وثقافتهم
وأفكارهم، وتظهر نتائج هذه المحاولة بما قامت به أوروبا من حروب صليبية
أشعلها وزاد في جذوتها ما اطلع عليه الأوروبيون من الإسلام عن طريق هؤلاء
الرهبان ومن تبعهم^(١).

يقول البابا (أوربانوس الثاني في مجمع كليرون ١٠٩٥م وذلك عندما دعا
للحروب الصليبية: (إن أهل الإسلام رجال ضعفاء تعوزهم الشجاعة للقتال وجهاً
لوجه فيعمدون إلى الهرب واستعمال السهام السامة). هكذا تشويبهم وتهويشهم
شمل حتى الحقائق المسلمة للمسلمين في سبيل الحروب الصليبية.

واستمرت هذه الحروب ما يقرب من قرنين فساعدت هي بدورها على
ترسيخ هذه العداوة وتقويتها فلم تخب جذوتها من تلك الأيام، فهذا الاتصال
عرف المسيحيون قوة الإسلام وحقيقته واطلعوا على مظاهر القدرة ومكامن
العطاء عند المسلمين والتي تتجلى بفهمهم للإسلام وتطبيقه، واطلعوا أيضاً على
خيرات البلاد الإسلامية فطمعوا بها وعزموا من تلك الأيام على احتلال هذه
البلاد بكل الوسائل وعلى الاستمرار في حرب الإسلام بكل ما يستطيعون.

وأما الفريق الثاني (ملوك أوروبا وأمراؤها) فقد شجعوا المستشرقين الأوائل
والمبشرين تشجيعاً قويا وذلك أولاً: للوقوف في وجه الإسلام الذي أصبح يدق
عليهم الأبواب، وثانياً: للهجوم في المستقبل عليه واستعادة ما أخذ منهم بل
والقضاء عليه تماماً وذلك لأن هؤلاء المستشرقين والمبشرين^(٢) قد ساعدوا
ملوكهم وولاتهم في استيلائهم على الشرق، يقول ذلك نجيب العقيقي في كتابه
المستشرقون ومن ثم يمجدهم تمجيداً واضحاً ويقر لهم بالفضل الواسع علينا

(١) قريب من هذا في كتاب المستشرقون، للعقيقي: ص ٣٦.

(٢) جلى هذه الفكرة كتاب التبشير والاستعمار خاصة بالنسبة للمبشرين.

فيقول مثلاً: (في سبيل هذه الثمار التي يقتطفها الغرب من الشرق أحسن ملوكة صلات المستشرقين فضموهم إلى حاشيتهم أمناء أسرار لهم وانتدبوهم سفراء وقناصل وتراجمة وموظفين في سلكي الجيش والسياسة إلى بلدان الشرق، ومنحوهم ألقاب الشرف الفخمة كبارون وكونت وكراسي التدريس...^(١)).

وواضح أن المسيحية الروحانية لا تقر مثل هذه التصرفات كما لا يقرها المسيحيون المتنورون.

ومضت الأيام وتعددت اتصالات الغرب بالشرق المسلم من اتصال الأندلس إلى اتصال صقلية إلى الاتصال الذي تم بالحروب الصليبية إلى الاتصالات التجارية التي بدأت بشكل قوي في نهاية القرن السادس عشر. واستفاد الغرب من هذه الاتصالات الشيء الكثير باعتراف الكثير من مفكريه وفلاسفته، فلقد أخذ الغرب مظاهر الحضارة المادية عن الإسلام فقوي وأبدع في مجالات العلوم والتكنولوجيا، وفي هذه الفترة أخذ المجتمع الإسلامي يتعد عن الإسلام بمفهومه الحضاري الشامل، فضعفت شوكته وتفرقت بلاده فاستطاع الغرب احتلال أكثر بلاد الإسلام بعد أن استطاع افتعال المبررات والوصول إلى بعض مراكز القوة فيه وبعد خدعة حكام هذه البلاد وعقده معهم المعاهدات الزائفة الخادعة، وكان يدفعه إلى هذا الاحتلال رغبته الأولى في محاربة الإسلام والقضاء عليه في عقر داره، والثانية رغبته في السيطرة على خيرات العالم الإسلامي وكنوزه التي يتصور أن المسلمين ليسوا أهلاً لها. هكذا استطاع العدو السيطرة على بلاد المسلمين لفترات طويلة، فأخذ يفكر في كيفية استمرار هذا الاحتلال وفي كيفية التنفيس عن حقه على الإسلام، وفي كيفية الإبقاء على التخلف والضعف بين أظهر المسلمين فأنصب تفكيره على الإسلام وعلى الوحدة التي ينشئها الإسلام بين متبعيه، الإسلام الذي انتشر في هذه البلاد وخلق من أهلها قوة تهدد كل شر، فالإسلام هو عدوهم الأول والأخير فيجب أن يكون هو الهدف الأول لمخططاتهم العدائية التي تهدف إلى القضاء عليه تماماً وقد شملت

(١) المستشرقون، للعقيقي: ص ٥٠.

هذه المخططات التشويه والتزييف لكل قيمة من قيم هذا الإسلام الخالد وشملت أيضاً محاولة التبشير بالمسيحية بين المسلمين عسى أن يكون بذلك القضاء النهائي على الإسلام وقد استعانوا على ذلك بحالة الضعف التي يعيشها المجتمع الإسلامي وحالة القوة والرقى المادي التي يعيشها الغربيون فصوروا للمسلمين أن الإسلام هو دين الضعفاء وأن المسيحية هي دين الأقوياء فما على المسلمين إذا أرادوا القوة والتقدم إلا ترك الإسلام إلى غير رجعة.

ومن هنا قوى وضع اتجاه المبشرين والمستشرقين الذين كانوا أهم وسيلة من وسائل المستعمرين في هذه الحرب الفكرية. والتبشير سلك لهدفه هذا طرقاً عدة منها التعليم المدرسي في دور الحضانة ورياض الأطفال والمدارس الابتدائية والثانوية للذكور والإناث والجامعات والعمل الخيري في المستشفيات والملاجئ والعيادات^(١) وتميز الاستشراق بصورة البحث العلمي الأكاديمي فألفوا الكتب وكتبوا المقالات في المجلات والصحف وأخذوا ينشرون أفكارهم: من فوق كراسي الجامعات وفي أجواء المؤتمرات التي يدعون إليها.

والأدلة على هذا الهدف الاستعماري الخبيث يستطيع كل متجرد عاقل أن يتصيداها من كتاباتهم وأعمالهم فمثلاً يقول الرئيس فيليب فونداسي رئيس المكتب الخاص الفرنسي أي مصلحة التجسس الفرنسي في كتاب صدر سنة ١٩٥١م ناصحاً الحكومة الفرنسية بمحاربة الإسلام في أفريقيا السوداء فيقول: (فإننا إذا ما نظرنا إلى الإسلام تحت تأثير العطف المجرد أو تحت دافع رد الفعل بعد نظرنا إلى المعتقدات الوثنية، فإننا نسر برؤيتنا هذا الدين ضعيفاً جداً وقد طرأ عليه ذلك التغيير الكبير وأصبح ذا شكل كبير الاختلاف عن أصله. ولكن الإسلام يمكن أن يكون خاصاً (كما في أفريقيا السوداء) ولكنه لا يكون أبداً هادئاً جامداً فهو في رقي دائم يجمع شتات قواه وذلك بتطهير عقيدته تدريجياً، ويؤلف كتلة طبيعية بالرغم من شوائبه ومن أشكاله المختلفة...)^(٢).

(١) يراجع في ذلك كتاب التبشير والاستعمار.

(٢) الاستعمار الفرنسي في أفريقيا السوداء: ص ٢٨.

ويقول سيكارد: (إنه يجب التقليل من الإسلام بين الشعوب الخاضعة لنا لأنه ضد مصلحتنا)^(١).

ويقول القس سيمون في كتاب له: (إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوروبية)^(٢).

ويقول لورانس براون: (إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً أو أمكن أن يصبحوا أيضاً نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حيثند بلا وزن ولا تأثير)^(٣).

وتقول مجلة العالم الإسلامي الإنكليزية: (إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي ولهذا الخوف أسبابه منها أن الإسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عددياً بل دائماً في ازدياد واتساع ثم إن الإسلام ليس ديناً فحسب بل إن من أركانه الجهاد ولم يتفق أن شعباً دخل في الإسلام ثم عاد نصرانياً)^(٤).

وقالت مجلة مراكش الكاثوليكية التي يصدرها الفرنسيكان: (إن فرنسا لا يمكنها أن تنجح في إخضاع أهالي المغرب إلاً بإبعادهم عن الديانة الإسلامية)^(٥).

ولا ننسى في هذا المجال قول غلادستون رئيس وزراء بريطانيا الأسبق بأنه لا يمكن السيطرة على المسلمين إلاً بنزع القرآن من ما بينهم.

هكذا قرر الغربيون حرب الإسلام حرباً فكرية متجنية فأخذوا يشوهون الإسلام في أذهان الناس وكانت حربهم هذه على الإسلام من جهات ونواح مختلفة وفي ذلك يقول أحد كرادلة الإفرنج في حفلة تدشين كنيسة

(١) المستشرقون والإسلام، لحسن الهراوي: ص ٣٢.

(٢) عن كتاب التبشير والاستعمار.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) دعوة نصارى العرب إلى الإسلام، لخليل قيرصي.

الإسماعيلية (لا يمكننا القضاء عليه - أي الإسلام - إلا إذا قوضه كل من جهته حتى نصل إلى محوره)^(١). وقد خرجوا على الناس بأفكار جديدة حاولوا أن يلبسوها أثواب الحقائق المسلمة وهي بعيدة عن ذلك كل البعد ومنها:

١ - القرآن كتاب مسيحي يهودي كتبه محمد، فالإسلام دين مخترع ملفق من الأديان السابقة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل يقول جون تاكلي: (يجب أن نرى هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديداً وأن الجديد ليس صحيحاً)^(٢). فليس للمسلمين أصالة فكرية أو ثقافية، فلا قيمة ذاتية لهم فيجب عليهم أن يندمجوا في الحضارة الأوروبية القائمة.

٢ - الإسلام دين مادي لا روحية فيه مطلقاً فلا مجال للصفاء النفسي والمحبة فيه.

٣ - الإسلام دين الحيوانية والاستغراق في الملذات.

٤ - هاجموا شخصية الرسول ووصفوه بكثير من الأوصاف السيئة كما هاجموا القواد المسلمين في كل العصور.

٥ - القول بأن الفلسفة الإسلامية فلسفة فكر يوناني بأحرف عربية وأن الفقه الإسلامي هو قانون روماني بأحرف عربية.

٦ - مهاجمة اللغة العربية والدعوة إلى العامية ومهاجمة الأحرف العربية والدعوة إلى الكتابة بالأحرف اللاتينية.

٧ - إثارة التفرقة القومية في مختلف نواحي العالم الإسلامي ليتم تفريقه إلى دوليات متنازعة متصارعة.

(١) المصدر نفسه.

(٢) التبشير والاستعمار: ص ٤٥.

وهكذا... تتعدد مقولات الطعن والتجني وقد ركزوا على ربط تأخر المسلمين في هذه الأيام بالإسلام: فالمسلمون يتأخرون في هذه الأيام لأنهم يتمسكون بالإسلام فعليهم أن يتركوا الإسلام إذا أرادوا التقدم، يقول هنري جب: (المسلمون لا يفهمون الأديان ولا يقدرونها قدرها إنهم لصوص وقتلة ومتأخرون وإن التبشير سيعمل على تقديمهم)^(١).

والمهم أن من غاياتهم:

١ - إخراج المسلمين من دينهم ليتمكن غزوهم فكرياً ودينياً واقتصادياً وعسكرياً، والدعوة للتصير بالتبشير بالمسيحية ما هي إلا وسيلة لا أكثر ولا أقل.

٢ - محاولة إيجاد أناس بأسماء وطنية وبعقليات ونفسيات وثقافات وعادات أوروبية لا يثقون بالثقافة الإسلامية مطلقاً وهؤلاء هم من الذين يتخرجون على كتبهم أو في جامعاتهم سواء في الشرق أو الغرب وهؤلاء هم الذين أعدوهم ليكونوا متنفذين في بلاد المسلمين بحجة حصولهم على الشهادات ووصولهم للمراكز العلمية والمادية. وهؤلاء هم الذين دعوا إلى التجديد في الإسلام ومثلوا الاتجاه الذي يمالئ الاستعمار في دعواته ويسير في طريق اتباع الغرب في كل شيء.

٣ - وإذا لم يتولد الإخراج من الدين يتولد التشكيك وزعزعة العقيدة، وبعد ذلك تعرض الحضارة الغربية وتبين بأنها هي الأفضل، فيحدث الانضمام إليها والتبني لبعض فلسفاتها ونظمها.

٤ - تجميد كل فعاليات المسلمين وتقطيع العلاقات بين الشعوب الإسلامية بأي وسيلة ممكنة.

٥ - إفساد الخصائص الدينية في النفوس والمجتمعات وإيجاد جماعات متدينة متزمنة ومتعصبة للإسلام تظهر بمظهر التأخر والجهل بكل مظاهر الحضارة

(١) التبشير والاستعمار: ص ٤٥.

فينفر الجيل الجديد من الإسلام لأنهم صوروا له أن هذه الفئة هي التي تمثل الإسلام.

والهدف من كل ما مر هو السيطرة على البلاد الإسلامية والقضاء على الإسلام تماماً.

ونال هؤلاء النتائج التالية:

(أ) ما نالوه في الغرب:

١ - لقد استطاعوا تشويه الإسلام والمسلمين في نظر شعوب الغرب فلقد صوروا لهم الدين الإسلامي بصورة سيئة وبأن المسلمين أبطال التعصب والتزمت حتى كره الغرب المسلمين. يلاحظ هذه الناحية كل من يتعمق في موقف الأوروبيين فيما يجري من مذابح على الأرض الإسلامية دون تحريك ساكن في الغرب بينما إذا قتل إنسان غير مسلم في أي مكان في العالم تقوم قيامة أوروبا مطالبة بالعدل والرحمة والسلام. يقول محمد أسد في كتابه الإسلام على مفترق الطرق: (لا تجد موقف الأوروبي موقف كره في غير مبالاة فحسب - كما هي الحال في موقفه لسائر الأديان والثقافات عدا الإسلام - بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صور من التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فقط، ولكنه أيضاً يصطبغ بصبغة عاطفية قوية لا تقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ولكنها تحتفظ دائماً في ما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي مترن مبني على التفكير إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب)^(١).

٢ - استطاعوا بخلقهم هذا الشعور في الغرب تشجيع الغربيين على غزو المسلمين والقضاء عليهم وكأنهم وهم يقومون بهذا العمل يشعرون أنهم يحققون عملاً إنسانياً رفيعاً وذلك بتخليص الإنسانية من الخطر على التقدم والحضارة الإنسانية.

(١) عن الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، لمحمد البهي: ص ١٨٥.

(ب) ما نالوه في العالم الإسلامي :

١ - جعلوا كثيراً من المسلمين يتشككون بكل القيم الإسلامية وينظرون إلى الإسلام وكأنه متهم في قفص وجعلوا أيضاً كتاب المسلمين يعتمدون على أقوالهم في بحوثهم وكتبهم حتى في ما يتعلق بتاريخ الإسلام والمسلمين .

٢ - ولدوا بهذا رغبة عند كثير من المسلمين لترك دينهم ولكنهم بقوا متسبين إليه شكلاً وذلك عندما صور الغرب لهم بأنه مركز الخير . ولما كانت القيم الغربية مختلفة وقد أخذ المسلمون باعتمادها اختلف المسلمون في ما بينهم فسهل استعمارهم ، وذلك لأن الفكرة هي أهم ما يحرك البشر فهي مادة التوجيه ، فالاستعمار الفكري أشد أنواع الاستعمار وأطولهُ ولذلك حرر الإسلام أتباعه فحرك طاقاتهم وأطلقها نحو خير الإنسانية وتحقيق سعادة الأفراد والجماعات .

٣ - استطاعوا تقسيم المسلمين إلى أعراق وقوميات ، وإن نظرة إلى العالم الإسلامي في هذه الأيام توضح المدى الذي وصلوه في ذلك .

٤ - استطاعوا تجميد فعاليات المسلمين تماماً فضعفوا وطال استعمارهم فانتشر بينهم المرض والجهل والفقر ومظاهر التخلف ومن حيث لا يشعرون ولدوا بهجومهم هذا رد فعل قوي عند المسلمين ، فأخذ علماء المسلمين يعيدون غرس القيم الإسلامية في نفوس المسلمين ، فالمتهم الذي وضع في القفص ظلاماً وعدواناً لم يعد ممن يثبت براءته من كل ما اتهم به ويضع مكانه من اتهموه ظلاماً وعدواناً . وقوى رد الفعل هذا حتى استطاع بما عمله أن يعيد الروح الإسلامية من جديد إلى المجتمعات الإسلامية فأخذت هذه المجتمعات تدرح المعتدين في المعركة تلو المعركة وتبدأ بإعادة بناء حياتها على قيم الإسلام وقواعده .

٥ - شغل المسلمين عن الجهاد والدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة بإحدام النقاش والجدال بينهم في الأمور الخلافية البسيطة ومحاولتهم تطوير هذا الاختلاف بالفكرة إلى عداوة وبغضاء بين المسلمين : فقد قام

المستشرقون وتلامذتهم بإثارة الأمور البسيطة التي كان المسلمون قد اختلفوا فيها من جديد وذلك حتى يشغلوا المسلمين ويفرقوا كلمتهم مثل الخلافات المذهبية في العبادات والمعاملات وكذلك بإثارة أمور لا علاقة لها بتبليغ الرسالة وإنما هي ترف فكري لشغل المسلمين عن هذا التبليغ كالجبر والاختيار، بل إثارة خلافات في منتهى البساطة وعدم الأهمية كالخلافات في ضم اليدين أو إسباليهما في الصلاة.

هكذا قصد المعتدون إلى إشغال المسلمين عن دينهم والجهاد في سبيله وتبليغه إلى جميع البشر بخلافات سفصطائية لا طائل تحتها كان المسلمون الأوائل يأبون التحدث فيها فلما سئل مالك عن الاستواء وكيفيته قال: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة) وطرده السائل لأنه لا يريد شغل المسلمين بهذه الأمور التي تضيع وقتهم الذي يجب أن يصرفوه في تبليغ الدعوة والجهاد في سبيلها تنفيذاً لأمر الله ورسوله.

ويظهر هذا السلوك الاستعماري بوضوح في ما قامت به القاديانية من إثارة موضوع المسيح عليه السلام: هل قتل وصلب أم لا، وهل رفع إلى السماء أم لم يرفع، ثم هل رفع وهو ميت أم وهو حي، ثم بإثارة موضوع نبوة ميرزا غلام أحمد، فبهذا يشغل المسلمون بغير الأمور الهامة بالنسبة لهذا العصر عصر الإعداد والقوة والعمل والكفاح يقول أبو الحسن الندوي عن القاديانية إنها بقيت: (مقتصرة على إثارة المناقشات الدينية والمباحثات حول موت المسيح وحياته ونزوله ونبوة ميرزا غلام أحمد مما لا اتصال له بالحياة العامة والمسائل الإسلامية والحركات التي كانت مظهراً للغيرة الإسلامية، والشعور السياسي في هذه البلاد)^(١).

فهم يريدون بإبراز هذه الأمور الخلافية إضاعة جهودهم في معارك جانبية بعيدة عن معركة الإسلام الكبرى معهم أنفسهم.

(١) الفكر الإسلامي الحديث: ص ٢٨.

يقول الأستاذ محمد المبارك في رسالته ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد: (ومن هنا يتبين خطأ من يصرفون همهم إلى أمر قد يكون في ذاته مطلوباً أو ممنوعاً في الإسلام، ولكن في مقابلة أمر أخطر منه بكثير فالبلاد الإسلامية مبتلاة في هذا العصر بخطين عظيمين هما الاستعمار والإلحاد، أي الاستيلاء على الأرض والاستيلاء على العقيدة أي إتلاف ثرواتها المادية والمعنوية وسلبها. ولو تم الاستيلاء على البلاد وتهديم العقيدة واستمر لما أمكن إقامة شعائر الدين ولا القيام بأوامره وتطبيق أحكامه. ولذلك فإن صرف أذهان الناس إلى قضايا أخرى وجعلها محور النضال الإسلامي الهاء عن أهم القضايا الأساسية التي هي الاستيلاء على البلاد الإسلامية أو السيطرة عليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. . فهل يجوز في مثل هذه الحال تقسيم المسلمين إلى من يقولون بأن التراويح ثمانية ومن يقولون بأنها عشرون وإلى القائلين بتكرار الجماعة أو عدمها أو احتدام معركة السنة والبدعة في أمور لا تمس العقيدة، أنا لا أقول إنه لا تبحث هذه الأمور بحثاً علمياً بل أقول إنه يجب التنبيه حينما يكون الأمر ماساً بالعقيدة ويحسن التنبيه إلى الطريقة الصحيحة في العبادات لأن العبادات توفيقية فلا زيادة ولا نقصان فيها عما أمر النبي صلوات الله عليه أو فعله ومع ذلك فإذا كان ذلك يحدث فتنة أو يحدث خصومة بين فئتين من المسلمين وجب ترك ذلك لما يترتب عليه من منكر أعظم ولما ينشأ عنه من تقسيم المسلمين إلى فئات متعددة في ظروف وأحوال لا يجوز فيها تفتيت القوى ولا الاشتغال إلاً بالقضايا الأساسية الكبرى)^(١).

٦ - تمجيد القيم المسيحية والدعوة للدعوات الإنسانية المتعددة وإشغال المسلمين بها وتبين أن الأديان كلها قد جاءت للرحمة والسلام، والجهاد ليس فيه أي معنى من معاني الرحمة فهو ليس من الإسلام دين الرحمة والسلام.

إن الأوروبيين قد سلكوا كل سبيل في تشويه القيم الإسلامية والصرف عنها

(١) ذاتية الإسلام: ص ١٣ - ١٤ .

وقد نال الجهاد الشيء الكثير من هذا، ولا أريد هنا أن أذكر الشبه التي افتعلوها على نظام الجهاد فهي محل بحث مستقل ليصorوا الجهاد في أنظار المسلمين بأنه أمر يجب التخلص منه بدون تردد.

ومع تصويرهم لنظام الجهاد بهذا الشكل يأخذون في تمجيد القيم المسيحية الغربية والتدليل على أنها دعوة للسلام ورسالة للمحبة ويربطون بين هذا وبين رقي الغرب المادي في كل مجال من مجالات الرقي والتقدم، ثم يقارنون ذلك مع تأخر المسلمين في كل مجال من مجالات الحياة ويعللون ذلك بأن الإسلام هو سبب تأخرهم. ويصفون من يسير وإياهم في هذا الطريق ويؤمن بما يقولون بالتقدمية والتسامح بينما يوصف من يرفض ذلك ويتهم بالرجعية والتزمت.

ومع كل ما مر يشجعون بل وينشرون الدعوات التي تدعي الإنسانية والتعاون بين كل البشر والتي تقول أيضاً إن الأديان جاءت للرحمة والسلام والمحبة، ولهذا نرى الحركات الإنسانية المختلفة الأشكال والأساليب تنتشر في أغلب مناطق الإسلام، ولقد أصبحت الدعوات الإنسانية ستاراً لكثير من الدعوات الهدامة المنحرفة.

ويسير مع هذا تشجيعهم للدعوات الجديدة والمذاهب الحديثة كالوجودية والشيوعية وتكوين أحزاب تتبنى آراء غربية في السياسة والاقتصاد. ويشابه هذه الدعوات في أهدافها دعوى أن الإسلام دين لا دولة ففي هذه الدعوات قصر للإسلام على الأفراد دون الجماعة، ففيه إلغاء للشخصية الإسلامية بشكلها الجماعي وبالتالي يؤدي ذلك إلى إلغاء الجهاد الذي يقوم على أكتاف الجماعة.

ولتشجيعهم هذا وجه آخر وهو ترجمة الكتب الأجنبية الفكرية التي تبحت فيها الدعوات المختلفة والنظريات المتعددة فهم يحاولون قصر الترجمة على هذا الشكل بهدف إبعاد ما يفيد المسلمين في حياتهم المادية^(١).

ومما عجلوا به نشر الفوضى الأخلاقية بين المسلمين، فالأمم بأخلاقها فإذا

(١) يراجع في ذلك كتاب في وكر الهدامين، للدكتور محمد حسين.

ذهبت أخلاقها ذهبت هذه الأمم . فشحجوا الانحرافات الجنسية وروجوا بضاعة الجنس ترويجاً تاماً في السينما والإذاعة والتلفزيون والمسارح والمجلات والكتب والصحف .

ولا أريد أن أطيل في هذا فهو معروف تماماً وهو من أخطر ما يمكن أن يصرف المسلمين عن دينهم وجهادهم وحتى أوطانهم وبلادهم، وأثره فيما نراه من جيوش الشباب الضائعين الذين يتكالبون على هذه الشهوات .

٧ - ولكي ينجحوا في دعواتهم السابقة أصر هؤلاء على أن يبقى المسلمون متأخرين فكرياً فالجهل هو سبب كل بلاء وإنني لا أجزم أن قضية دعاة الإسلام ليست في عدم عمل الناس به مع علمهم إياه بل قضيتهم عدم عملهم به لأنهم لا يعلمونه حق العلم، لهذا كان تأخير التعليم الديني في المدارس هو خطوة من الخطوات التي سلكها المستعمرون في سبيل صرف الناس عن الإسلام، وكذلك أن في تأخير المسلمين اقتصادياً وجعل بلادهم في التخطيط الاقتصادي مقصورة على الزراعة البدائية وإبعادهم عن المجال الصناعي المتقدم هو من أهدافهم في إبعاد مظاهر القوة عن المسلمين .

وهناك تأخير لفئة خاصة من المسلمين عملوا له بكل اندفاع وتخطيط وهو تأخير الفئات التي تمثل الإسلام حتى يتبعد الناس عن الإسلام عندما يرون مظهره في دعائه وحملته وهذا واضح مما نلاحظه في مختلف بقاع الإسلام ومجتمعاته . هذا عدا عن محاولة دعم جماعات توصف بأنها حاملة للإسلام وممثلة له وهي أبعد ما تكون عن روح الإسلام وذلك بتزمتها ومحاربتها التقدم المادي في كل ناحية مما يكره الناس بها وبما تمثل .

سبل المواجهة :

بعد هذا الاستعراض لبدايات الغزو الثقافي وأبعاده وما حققه من نتائج في بلاد العرب والمسلمين وغيرها من بلاد الدنيا كيف تكون المواجهة . . ليست القضية بهذه السهولة، ومما يمكن معالجته في بحث عاجل ولا في دراسة

محدودة، إنما هو أمر في غاية الأهمية ويتطلب تكاتف الجهود وإعداد الخطط والبرامج والدراسات والبحوث، وإنني أقترح نقاطاً للبحث في هذه القضية الكبرى.

١ - الحرص على بيان سماحة الإسلام وأنه جاء لخير الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة. . وبحيث يكون ذلك على المستوى العالمي وباللغات الحية جميعها.

٢ - الاستفادة الفاعلة والمدروسة من أساليب العصر في البيان وبخاصة في مجالات الإذاعة والتلفزيون وعبر الأقمار الصناعية والتي لا تعرف الحدود مما يمكن من إيصال كلمة الحق والخير إلى جميع أنحاء الدنيا دون إهمال لكل وسيلة متاحة مثل الصحف والمجلات وكتب التعريف وعقد المؤتمرات والندوات وإقامة المراكز والمساجد.

٣ - الاستفادة من انتشار أفكار الحرية والديمقراطية في المجتمعات الإنسانية لنشر الفكر الإسلامي والتعريف به بعلمية وموضوعية.

٤ - الاهتمام بمواجهة القضايا المعاصرة بحلول إسلامية والعمل على نقل حلول الإسلام لهذه المشكلات إلى التنفيذ والممارسة لأن التطبيق الناجح هو أفعل طرق الدعوة والبيان. .

٥ - العمل على تأكيد مظاهر وحدة المسلمين وتكاملهم على كل الأصعدة وحل خلافاتهم ومنازعاتهم فيما بينهم بالطرق السلمية وفق أحكام الشريعة المعروفة إفساداً لمخططات الغزو الثقافي في تفتيت وحدة المسلمين وزرع الخلافات والمنازعات بينهم.

٦ - العمل على بناء قوة المسلمين واكتفائهم الذاتي اقتصادياً وعسكرياً.

٧ - الحرص على النهوض بمناهج التربية والتعليم بهدف إعداد الأجيال الإعداد المناسب الذي يحصنهم من كل مظاهر الغزو الثقافي.

٨ - تطوير مناهج إعداد الدعاة بهدف التأكد من إدراكهم لروح الإسلام ومنهجه

في بناء الحياة الإنسانية بالإضافة إلى اطلاعهم على ثقافة العصر ليكون تعاملهم مع المجتمعات المعاصرة عن وعي وبصيرة.

٩ - الاهتمام بخطب الجمعة وتطوير الأداء فيها لمواجهة كل مظاهر الغزو الثقافي وآثاره وتعريف المسلمين بدينهم التعريف السليم المتكامل.

١٠ - رد كل الشبهات التي أثارها أعداء الإسلام بثقة وقوة ودون اللجوء إلى أساليب الدفاع التبريري مما يصلح لبيان مستقل ليس هنا مجال الحديث عنه.

١١ - الاهتمام بدراسة الأفكار الوافدة والمبادئ المستوردة والتعريف بمظاهر قصورها. ونقصها بأمانة وموضوعية.

١٢ - ترشيد الصحوة الإسلامية ومعالجة كل مظاهر التزمت والانغلاق وبناء الشخصية الإسلامية السوية التي تقدم للمجتمع الإنساني صورة مشرقة للتطبيق الإسلامي على المستوى الفردي والجماعي وفي كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الكتور عبد السلام داود العبادي

الغزو الفكري
في المعيار العالمي الموضوعي

إعداد

الدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرفور
عضو مجمع الفقه الإسلامي بمجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطبة المؤلف:

اَسَمَتْ أَكْثَرَ كِتَابَاتِ الْكَاتِبِينَ الْإِسْلَامِيِّينَ فِي الْعَصُورِ الْحَدِيثَةِ حِينَ يَكْتُبُونَ عَنِ الْغَزْوِ الْفِكْرِيِّ بِالْمُعَالَجَةِ الْعَاطِفِيَّةِ وَالرُّوْحِ الْخَطَابِيَّةِ، وَتَغَلَّبَ الْمَنْهَجُ الْقَدِيمُ الَّذِي كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَكْتُبُونَ كَثِيرًا بِمَقْتَضَاهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَى الْأُمُورِ مِنْ مَنْظُورِهِ، وَهُوَ مَنْهَجُ خَيَالِي مُوَعِّلٌ فِي رُؤْيَا الذَّاتِ، مِجَانِفٌ لِللُّغَةِ الْوَاقِعِ، عَقِيمٌ غَيْرُ مِتَّجٍ، طَالَمَا مَشَى عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قَبْلِ فَلَمْ يَجْنُوا إِلَّا الْخَسَارَةَ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ عَلَى حَقِّ وَأَنَّ أَعْدَاءَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، وَلَكِنَّ صَاحِبَ الْحَقِّ إِذَا صَرَخَ وَبَكَى وَغَضِبَ وَزَمَجَرَ لَنْ يَصِلَ إِلَى مَا يَرِيدُ مِنْ إِنْصَافِ النَّاسِ إِيَّاهُ، مِنْ حَيْثُ يُتَّقَنُ خِصْمَهُ الْمَبْطُلُ لُغَةً الْحَوَارِ الْهَادِيَّةِ وَالْأَغَالِيطِ، وَفَنَّ الْحَدِيثِ، فَيَرْبِخُ الْحَلْبَةَ وَيَكْسِبُ الرَّهَانَ، وَيُدْفَعُ الْمُحِقُّ الثَّمَنَ . . . ، وَمَا أَتَى إِلَّا مِنْ أَسْلُوبِهِ الْعَقِيمِ الْقَدِيمِ الْبَالِي الْأَهْوَجِ، وَعَقْلِهِ الْأَزْعَنِ . . .

الْوَاقِعُ أَنَّ الْحَقَّ شَيْءٌ، وَالِدْفَاعُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ . . . الْوَقُوفُ فِي وَجْهِ الْخِصْمِ فَنَّا لَا يُتَّقَنُهُ إِلَّا جِهَابُذَةَ الْحُكَمَاءِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمَوْفِقِينَ ذَوِي الْبَصِيرَةِ الْنَافِذَةِ. أَوْلَكِ الَّذِينَ يَعْتمِدُونَ دَائِمًا الْمَنْهَجَ الْعِلْمِيَّ الْمَوْضُوعِيَّ الْهَادِيَّةَ، وَيُنْصِفُونَ النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَلَسْنَا الْيَوْمَ فِي سَاحَةِ وَغَى نُذْكَي الْجُنُودَ بِحِمَاسِ الْحَرْبِ، وَلَكِنَّا فِي صِرَاعٍ فِكْرِيٍّ رَهِيْبٍ وَمَصِيرِيٍّ، سِلَاحُنَا فِيهِ الْعَقْلُ الذِّكْرِيُّ الْمُنْتَظَمُ، وَمُنْتَظَمُنَا الْحَقُّ الَّذِي نَحْمَلُهُ وَنُدْفَعُ عَنْهُ كَيْدَ الْكَائِدِينَ، وَمَعْيَارُنَا دَائِمًا الْمَنْهَجَ الْعِلْمِيَّ الْمُجَرَّدَ.

وَلَقَدْ وَاللَّهِ يُؤْمِنِي جَدًّا مَا أَسْمَعُهُ فِي أَرْوَقَةِ الْمُنْتَدِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْمَرَازِكِ الثَّقَافِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ؛ مِنْ سُخْرِيَّةِ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُسْلِمِينَ بِالْغَمَزِ وَاللَّمَزِ مِنْ أَسْلُوبِهِمُ الْخَطَابِيِّ وَطَنْطِنَاتِهِمْ وَمُبَالِغَاتِهِمْ، وَمُجَافَاتِهِمْ مَنَاهِجَ الْبَحْثِ

في هذا العصر، وبُعْدِهِم عن الموضوعية وروح البحث العلمي المُجَرَّد، وكلُّ ذلك سببه فيما أَحَسَّبُ ضيقُ العَطْنَى وقِصْرُ النَّظَرِ، وقلةُ الثقافة المُعاصرة، والبُعْدُ عن معرفة الآخرين وأفكارِهِم وأنماطِ سلوكِهِم وحياتِهِم، والتفوقُ على الذات، والاكتفاءُ بالتَّشْهير والتحقير للغير، من حيث يتخذ ذلك الغير هذا كله سلاحاً ضد المسلمين، يقول زوراً وبهتاناً للناس: انظروا: أنا إنسان باحث موضوعي أُريد الوصول إلى الحقيقة المجردة، وهؤلاء الكُتَّاب المسلمون حاقدون شانون، لا يريدون إلا مُحاربتِي ومُناصَبَتِي العِدَاء...!! فاحكموا أنتم بيِّننا...!!

أنا لا أُريد للمسلم ولا سيما إذا كان كاتباً أو عالِماً أو داعيةً أن يكون أسلوبُه أسلوباً سُوقياً رخيصاً في معالجة القضايا المصرية، فيكون قد جَنَى على دينه وقومه قبل كل شيء، بل أُريد له أن يتأدَّب بأدب القرآن قال تعالى مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام ومعلِّماً إياه أدب المناظرة مع المشركين الأعداء: ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

فما أعظم أسلوب القرآن، وما أبعد الكُتَّاب الإسلاميين اليوم في الأعم الأغلب عن أدب هذا الوحي الأعلى!؟

* * *

قرأتُ كثيراً مما كُتِب في هذا الشأن الخطير مما كتبه الإسلاميون وخصومهم. فما وجدتُ مَنْ انطلق من قاعدة المنهج العلمي الموضوعي المُجَرَّد، بل وجدتُ خُطباً بليغةً، وكلماتٍ إنشائيةً جميلةً، وقِطعاً أدبيةً مُونقةً، ولكن لم أجد العقلَ المُتَرَنِّ الهادىءَ الحكيمَ الذي يُعالج الأمورَ من جميع أطرافها فيُنصف الطرفَ الآخرَ قبل أن يُنصف نفسه، فالكل يتصوّر الطرف الآخر بل ويصوِّره عَدُوًّا، ويصوِّر عمله غارةً أو إغارةً، فلماذا لا نَتصوِّره في مجال النقاش والمناظرة خصماً كما يقول العلماء على الأقل!؟ ولا والله ما وَجَدْتُ الغارة

ولا الإغارة على العالم الإسلامي إلا من المسلمين أنفسهم، ولا فعلَ أعدائهم بهم من الغزو الثقافي وغيره قَدْرَ ما فعلوا هم بأنفسهم. . .

صحيح أن هنالك دوائر للاستكبار العالميّ تَمُكّر للمسلمين وتكيد لهم، وعلى رأسها اليهودية العالمية والفكر الاستشراقيّ، ودوائر التبشير وغيرها، ولكن هذه الجراثيم والميكروبات لا تعمل في جسم إنسان حتى يكون فيه قابلية واستعداد لها من ضعف مقاومة أو هزال أو هشاشة وغير ذلك، فإذا كان هنالك من يكيّد للمسلمين وهذا حق لا مرية فيه فإنّ هؤلاء ما بلّغوا ولن يبلّغوا من المسلمين ما بلّغ المسلمون هم من أنفسهم، ولن يفتك الجرثوم في جسّد حتى يكون الجسد مؤهلاً لذلك، مُستعداً له. . .

* * *

أنا لا أدعو إلى مهادنة أعداء الإسلام وخصومه الأشداء، معاذ الإيمان، وما يكون لي ذلك!! ولكنّ أدعو إلى سحب البساط من تحت أرجلهم وإلى تعريتهم أمام الناس لينكشف عوارهم وزيفهم وضلالهم واللغة التي بها يتكلمون مغالطين ومُخادعين، لغة العلم والمنطق والعقل.

ولا يذهبنّ بك الوهم قارئ الكريم فتظنّ أننا في طريقنا إلى وفاق أو وئام أو أنصاف حلول، لا، ولكنّ الشيء الذي نسعى إليه وحده هو إقامة الحجة عليهم فقط دون طمع بشيء آخر من تصديق أو ولاء.

إنّ الإغارة والغزو الفكريّ والثقافيّ للعالم الإسلامي ليس بجديد بل وُلد مع ولادة الرسالة الإسلامية المحمدية، ولكنّ المسلمين كانوا من داخلهم في عافية فلم يتأثروا بالمكر والكيد الذي نُفث فيهم، حتى إذا ما ضعفت النفوس، واضمحلّت من الداخل روح المقاومة، وانهمز المسلم في ذاته، ظهر أثر هذا الغزو الثقافي وخطره وعقاييله. . .

إننا بحاجة أيها الناس إلى إصلاح البيت من الداخل، إلى إصلاح الإنسان المسلم والجماعة المسلمة، إلى لغة العقل والمنطق، إلى صفاء السريرة، وطهارة

النفس الإنسانية من داخلها، وبعَدَ ذلك لا يَهْمُنَا أَلْفُ غَزْوٍ ثِقَافِي وَأَلْفُ وَأَلْفُ، ولو غزانا أهل الأرض كلهم بكل أنواع الغزو، ومكروا بنا بكل ضروب المكر وأصنافه.

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٧﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ خِيَابَ الْمَدِينَةِ وَالْوَقْدُ كَزَيْبٍ مُّسْتَسْقِمٍ ﴿١٧٨﴾ حَتَّىٰ لَمَّا كَانَتْ فِي أُمَّةٍ نَحَرْنَا لَهَا وَصَلَّىٰ عَلَيْهَا رَبُّكَ بِاللَّيْلِ لَمَّا أَحْبَبَتْ إِلَيْهَا وَاتَّجَعُوا بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٩﴾ ﴾ صدق الله العظيم.

* * *

أما بعد فهذه صفحات من الغزو الفكري أضعها في ميزان المنهج العلمي الموضوعي، أقدمها للدورة السابعة لمجمع الفقه الإسلامي بجدة، لعلها تحظى بالاهتمام والدراسة المستوعبة لتصبح ورقة عمل إن شاء الله.

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ صدق الله العظيم.

خُطَّةُ البَحْثِ

أَقَمْتُ البَحْثَ عَلى مَدخَلٍ وأربَعَةِ أَبوابٍ وخاتمةً، ودونكَ التَّفصِيلَ:
المَدخَلُ: التَّعريفُ بِالغزوِ الفِكرِيِّ، وشواهدُ وجودِهِ في العالَمِ الإِسلامِيِّ،
وخطَرُهُ، وأهدافُهُ.

الباب الأول:

التَّياراتُ المُعاصرةُ لَدَى المَفكرينَ الإِسلاميينَ في مواجهةِ مشكلةِ الغزوِ
الفِكرِيِّ؛ وفيهِ فِصلان:

١ - الفِصلُ الأوَّلُ: التَّياراتُ المَطروحةُ في السَّاحةِ.

٢ - الفِصلُ الثَّانِي: التَّيارُ المَوْضوعيُّ المَقْتَرَحُ.

الباب الثاني:

أَساليبُ الغزوِ الفِكرِيِّ ومدارسُهُ؛ وفيهِ فِصلان:

١ - الفِصلُ الأوَّلُ: أَساليبُ الغزوِ الفِكرِيِّ؛ وفيهِ مباحثُ ثلاثة:

- المَبحِثُ الأوَّلُ: التَّشكيكُ في النُّصوصِ الدِينِيَّةِ.

- المَبحِثُ الثَّانِي: اعتمادُ الرِّواياتِ المَشكوكِ بِها والآراءِ الشاذَّةِ.

- المَبحِثُ الثَّالِثُ: أَساليبُ أُخرى في المَجالِ التَّاريخِيِّ.

٢ - الفِصلُ الثَّانِي: مدارسُ الغزوِ الفِكرِيِّ المَشبوهةُ وفضحُها؛ وفيهِ

مَبحِثان:

- المَبحِثُ الأوَّلُ: أَمْرُ مدارسِ الغزوِ الفِكرِيِّ.

- المَبحِثُ الثَّانِي: طَرُقُ مَحارِبَةِ هَذِهِ المَدارسِ المَشبوهةِ وفضحُها.

الباب الثالث :

ظواهر الغزو الفكري؛ وفيه فصول ثلاثة :

- ١ - الفصل الأول: ظاهرة سوء فهم الإسلام أو سوء تعظيمه .
- ٢ - الفصل الثاني: ظاهرة البديل عن الإسلام .
- ٣ - الفصل الثالث: ظاهرة تهميش دور الإسلام في أهله .

الباب الرابع :

أسباب قيام الغزو الفكري والعوامل المُساعدة له؛ وفيه فصلان :

- ١ - الفصل الأول: أسباب قيام الغزو الفكري في العالم الإسلامي .
- ٢ - الفصل الثاني: العوامل المُساعدة لقيام الغزو الفكري ،

الباب الخامس :

تفتيتُ الغزو الفكري وَرَدُّ حَمَلاته؛ وفيه فصلان :

- ١ - الفصل الأول: الوقاية والعلاج للحالة الراهنة .
- ٢ - الفصل الثاني: الغزو الفكري المعاكس .

خاتمة :

خلاصة لكل ما سبق .

المدخل إلى البحث

التعريف بالغزو الفكري، وشواهد وجوده
في العالم الإسلامي، وخطره، وأهدافه

المطلب الأول: التعريف بالغزو الفكري:

الغزو الفكري هو: [مجموعة من الشبهات والأغاليط مصوغة صياغة علمية مثقنة، تُوجّه إلى عقول المسلمين بطرقٍ مختلفةٍ وبأيدي شتى، يُراد منها تشكيك المسلمين في دينهم وحضارتهم ورجالهم وبعثة الوصول إلى تسخيرهم لمآربٍ عدوّهم وغاياته].

المطلب الثاني: شواهد وجوده في العالم الإسلامي:

الغزو الفكري ليس جديداً في العالم الإسلامي، بل هو موجود منذ وجد الإسلام، ولكن اشتدّ أواره بُعيدَ الحروب الصليبية وعلى وجه الخصوص بعد واقعة المنصورة حيث أُسر لويس الرابع عشر ثم قُدّي نفسه ورجع إلى وطنه فنصح لرجاله أن يتعدوا منذ ذلك اليوم عن المواجهة المسلّحة وأن يَدْرُسُوا الإسلام وأحوال المسلمين ليصلوا إلى ثغراتٍ ينفذون منها إلى هذا الدين وأهله، ومنذ ذلك اليوم وُلد الاستشراق وداء التبشير وما يتبع ذلك من الصراع الحضاريّ الرهيب إلى يومنا هذا.

وشواهد وجود هذا الغزو في العالم الإسلامي لاثنة واضحة، وآثاره ظاهرة للعيان تتجلى في محاولاتهم الدائبة لهزيمة المسلم من داخل كيانه بشتى

الأساليب والمكر، فهم لا يطمعون في مهاجمة المسلمين بقدر ما يطمعون في تشكيكهم وتآليبهم على دينهم وأمتهم وتاريخهم ليكونوا هم معاول هدم لهذا الدين من الداخل بأيدي أهله.

والذي يدل على نبلهم بعض النجاح في بُغيتهم تلك؛ أنهم تَوَصَّلُوا بأساليبهم الخبيثة الماكرة إلى توظيف عقولٍ بعد غَسْلها، عقولٍ كانت من قبل يُرَجَى أن تمتلئ بالحق، ملؤها بالأغاليط والشبهات ثم وظَّفوها ضد أمتها ودينها وحضارتها من حيث استراحوا هم وربحوا الرُّهان، وأضحى المسلمون معهم كما قال الشاعر:

لو بغير الماء حَلَقِي شَرِقٌ كُنْتُ كَالعَصَانِ بِالماءِ اغْتَصَارِي
فليس أنكى على الأمة أن تَحْتَلِسَ أبناءها، ثم تُجَنِّدَهُم ضدها، وتدعِّرها بأيديهم وهم عن ذلك غافلون بالأباطيل والمُغالطات يَخْدعون بها أنفسهم وما يشعرون.

* * *

المطلب الثالث: خَطَرُ الغَزْوِ الفِكرِيِّ وأهدافه:

يكمن خطر الغزو الفكري في أنه أسلَمَ عاقبة لمن يَستَخدمه من الغزو المباشر العسكري أو الاقتصادي، وأقلُّ مؤنة، وأشدُّ نكايَةً وتأثيراً في المَغزُوبِ، فهو يَستَخدم دائماً الأسلوب العلمي الهادئ والحوار المفتوح، وإرادة الخير والنهضة بالآخرين، مُغالطةً وكذباً وتزويراً وتزييفاً للحقائق من باب «كلمة حق أريد بها باطل»، وذلك من أجل الخديعة والمكر بالمسلمين، لذلك لا يَتَبَنَّى لهذا الغزو العامة من المثقفين والبسطاء والسُدُج من الناس، لشدة تَلَبُّسِهِ وخفائه ومن هنا يأتي الخطر، ثم هو أي التحدي الثقافي آخِرَ حَظٍّ للدفاع عن الإسلام والأمة الإسلامية فإذا سَقَطَ انتهى كلُّ شيء... .

لكن... تَرَى؟ ما هي أهداف هذا الغزو الثقافي الخطير؟!

ليس المراد كما يتوهم البعض ويحلِّقوا في الخيال الشُّعري،

أن يُصَّروا المسلمين أو يُهَوِّدوهم، فذلك قد انتهى زمانه وَوَلَّى، وكان المراد أن يردوهم عن دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً إلى أي شيء من إلحاد أو علمنة أو وجودية أو دهرية أو ما شابه ذلك كي يُصبحوا بلا إسلام. . . .

إذن ليست المشكلة أن يزداد النصارى أو اليهود، لا، فهم راضون بما هم فيه، بل المشكلة أن ينقص المسلمون ويقلَّ عددهم وتضمحل مقاومتهم، ليُضحوا عبيداً لغيرهم من الأمم القوية بعد أن يَرَجعوا ضعفاءً مزرعةً لغيرهم خَدَمًا لِلآخِرِينَ.

فإذا كان الإسلامُ يعطي أتباعه معنى السيادة والعزة والكرامة، فليَنَتِ الإسلام من المسلمين وبأيدي المسلمين أَنفُسِهِمْ بِسَبْتِ السُّبُلِ حتى يصل الأسيادُ إلى ما يحلمون به من السيطرة والاستعباد والإذلال.

البَابُ الْأَوَّلُ
التيارات المعاصرةُ
لدى المفكرين الإسلاميين
في مواجهة مشكلة الغزو الفكري

الفصل الأول: التيارات المطروحة في الساحة.

الفصل الثاني: التيار الموضوعي المقترح.

* * *

الفصل الأول

التيارات المطروحة في الساحة

ليس موضوع وجود الغزو الفكري وخطره أمراً متفقاً عليه بين الكتاب والمفكرين المسلمين في هذا العصر، فهذه مسألة تقديرية تخضع لعوامل شتى، فضلاً عن مواجهة المشكلة؛ وسأتكلم عن التيارات الفكرية في هذا الموضوع تلك المطروحة في الساحة ودونك التفصيل:

التيارات المطروحة في الساحة:

هنالك ثلاثة تيارات لدى الكتاب المسلمين المعاصرين في الاعتراف بهذه المشكلة ومواجهتها:

١ - التيار الأول: التيار العلماني^(١)؛ وهو المُعجَبُ بالفكر الغربي المنذهل به الذي يعمل لتسود مقولات هذا الفكر فيما بين أبناء قومه، فهو إذن يرى في مقولات هذا الفكر بركة وإقبالاً، فلا يرى فيها شيئاً يقال له غزو فكري بل هو تلقیح فكريّ جاء من قوم ذوي حضارة إلى قوم متخلفين، وسبب تخلفهم في زعمهم الدّين الذي يُسمّونه (غَيبيّات).

(١) العلمانية شيء غير العلم، فالعلمانية يقابلها الإيمان، والعلم يقابله الجهل، فالعلمانية في جوهرها هي (توظيف المقولات العلمية المحايدة لتأييد فكر مُناهض للدين على وجه العموم وللإسلام على وجه الخصوص)، ولكنها لا تظهر للناس على هذه الشاكلة من الحقيقة المجردة بل تلبس لبوساً مخادعاً فيقال عنها من لدن أنصارها (فصل الدين عن الدولة) أي الدين للأفراد فقط وليس للحكم ولا للجماعة.

وهؤلاء قوم من أبناء جلدتنا ينتمون إلى العروبة، وبعضهم ينتمي شكلياً إلى الإسلام، والجدير بالذكر أن كثيرين منهم من أصحاب الكلمة النافذة في أوقامهم ومن رجال الفكر والقلم!!!

فهؤلاء لا يعترفون بوجود شيء يُقال له غزو فكري فضلاً عن معالجته أو مواجهته، لأنهم من أصبحوا دُمى في أيدي أرباب الغزو الفكري وأدواتٍ ووسائل، يرون في هذا الغزو ما يراه المرید الصادق من بركات شيخه لا يرى فيها أيّ غزو، بل يراها يُمناً وبركةً سَعْدًا، يَشْرَفُ بها وَيَتَسَعَّدُ!!!

٢ - التيار الثاني: وهو التيار الساذج الأبله؛ الذي يقوم في عقول الشُّوقَة والعامَة وأشباه العامَة، وأنصاف المثقِّفين وهو الذي يجنح إلى أنه يوجد غزو فكري للمسلمين، ولكنه تافه ولا قيمة له، لأنه مجموعة جهالات وأكاذيب سرعان ما يكتشف المسلمون زيفها وعُوارها فيتعدون عنها. ومثل هذه المقولة سببها ضيق أفق هؤلاء وغفلتهم عما يحيط بهم، وعدم تقديرهم حجم خصمهم وقوته، وهؤلاء أقرب الناس لأن يقعوا في براثن هذا الغزو الثقافي الخطير.

٣ - التيار الثالث: وهو قريب من التيار الثاني ولكنه مصحوب بكثير من التساهل والتواكل وترك العمل بالأسباب اعتماداً على قوة الإسلام، فهم يقولون: إنه يوجد غزو فكري مآكر وقوي، ولكن لن يضرنا ما دنا مع الله، والإسلام دين الله وهو الحق، فلن يؤثر فيه مكر الماكرين، وكيد الكائدين، وغزو الغزاة المارقين!!

والحقُّ أنَّ هؤلاء لن يضرنا بشيء إذا كشفنا أغاليلهم وضلالاتهم، وإلَّا فلماذا هاجم القرآن الكريم مقولاتِ خصومه وفنَّدها ورَدَّ عليها، فلو كان الأمر كما يقولون لتجاهلها القرآن الكريم وأعرضَ عنها^(١) .!!

(١) انظر رد القرآن الكريم على مقولات أهل الكتاب في سورة البقرة وآل عمران، ورد القرآن الكريم على المنافقين في سورة البقرة والنور والمنافقون وغيرها .

الفصل الثالث التيار الموضوعي

يتمثل هذا التيارُ عند بعض المفكرين الإسلاميين - وهم قلة - في قيام غزو فكري للعالم الإسلامي قوي ماهر ومُنظَّم وخطِر، له رجاله ومخططوه ومدارسه وأساليبه وطُرُقُه وأهدافه وغاياته .

تخطيطه غالباً من خارج العالم الإسلامي وتمويله، بينما تنفيذه من داخل المسلمين بأيديهم وأيدي أهله وأبنائه من الذين هُزموا من الداخل وفقدوا الهوية الإسلامية، وفقدوا ذواتهم أولاً ففقدوا بعدها كلَّ شيء .

والمفروض لدى هؤلاء المفكرين وصاحب السطور منهم أن لا يُترك الأمر على عواهنه، بل أن يُعدَّ للأمر عُدَّتُه وأن يُبحث بتأنٍ وترؤُّ عن أسباب هذا الغزو ووسائله، وأن يُدرَسَ الدراسة العلمية المتأنية المستوعبة ليُصار إلى مواجهته بأساليبه ذاتها وأدواته التي غرانا بها، فنقابل الغزو الفكري بدفاع متين ثم بغزو فكري مُعاكس .

الباب الثاني

أساليب الغزو الفكري ومدارسه

الفصل الأول: أساليب الغزو الفكري .

الفصل الثاني: مدارس الغزو الفكري المشبوهة .

الفصل الثالث: طرق محاربة هذه المدارس المشبوهة وفضحها .

* * *

الفصل الأول أَسَالِيبُ الْغَزْوِ الْفِكْرِيِّ

يَعْتَمِدُ الْغَزْوُ الْفِكْرِي لِلْإِسْلَامِ مَنْهَجَيْنِ اثْنَيْنِ لِلْوَصُولِ إِلَى غَايَتِهِ فِي هَدْمِ الْإِسْلَامِ وَتَقْوِيضِهِ مِنَ الدَّخْلِ . وَسَأَذْكَرُ هَذَيْنِ الْمَنْهَجَيْنِ فِي مَبْحَثَيْنِ اثْنَيْنِ ، وَدُونَكَ التَّفْصِيلَ :

المبحث الأول

التَّشْكِيقُ فِي النُّصُوصِ الْمَقْدَّسَةِ فِي الْمَجَالِ الدِّينِيِّ

(أ) التَّشْكِيقُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

شَكَّكَ الْغَزَاةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ جِهَةِ نَزْوَلِهِ ، وَمِنْ جِهَةِ مَوْضُوعَاتِهِ ، وَمِنْ جِهَةِ إِعْجَازِهِ ، وَمِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ وَأَحْكَامِهِ ، وَمِنْ جِهَةِ لُغَتِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَأَبْرَزَ ذَلِكَ كُلَّهُ ؛ التَّشْكِيقُ فِي أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ :

١ — فِي نِسْبَةِ الْقُرْآنِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

٢ — وَفِي مَتْنِ الْآيَاتِ .

٣ — وَفِي شَخْصِيَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

أَمَّا فِي نِسْبَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالُوا إِنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ وَحِيًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَهُوَ مِنْ نَوَادِرِ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّائِعَةِ وَأَنَّهُ مَقْتَبَسٌ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَأَنَّهُ لِذَلِكَ لَيْسَ مَعْجَزًا لَا فِي نَظْمِهِ وَلَا فِي مَعَانِيهِ .

وَأَمَّا فِي مَتْنِ الْقُرْآنِ فَقَالُوا إِنَّهُ حُرْفٌ وَبُدَّلٌ ، وَإِنَّهُ مُتَنَاقِضٌ وَمُتَعَارِضٌ بَعْضُهُ

مع بعض وإن في نصّه أخطاء كثيرة علمية وتاريخية ولغوية وأخلاقية^(١)، ولا مجال للرد على هذه المفتريات الآن بل العمل على الكتب المتخصصة. وأما في شأن شخص النبي ﷺ فمن أحسن الكتب التي دافعت عن النبي ﷺ كتاب (خاتم النبيين) للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله.

(ب) المطلب الثاني: التّشكيك في السُّنَّة المُشرَّفة:

وأما السُّنَّة فلقد صَوَّب إليها الغزاة من السهام أكثر مما صَوَّبوا للقرآن الكريم، ذلك لوجود البُعد البشري في السُّنَّة، فشكَّكوا في الصحابة الكرام في عدالتهم وضبطهم اعتماداً على بعض الروايات الواهية الساقطة والمقولات الهابطة. وشكَّكوا في بعض الأحاديث النبوية مُدعين تناقضها بعضها مع بعض، أو مخالفتها للعلوم الحديثة ومقولاتها الطبيعية، وشكَّكوا كذلك في علم مصطلح الحديث. وفي رجال الحديث وأئمة الجهادية، ورجال الجرح والتعديل.

وانظر في ذلك كتاباً نفيساً ألفه الدكتور محمد محمد أبو شهبه اسمه: (دفاع عن السُّنَّة). تجد طلبتكَ إن شاء الله تعالى فأحيك عليه، لأن المحل محلٌّ اختصار.

المبحث الثاني

إِعتماد الروايات المشكوك بها والآراء الشاذة في المجال التاريخي

لا يزال الغزاة يَتَمسكون بالمنهج التاريخي تاركين وراءهم ظهرياً المنهج الإسلامي العلمي في تَنخُل الرواية، وهذا هو منهج مدرسة الاستشراق وأذنانها من المأجورين في بلادنا، ولقد تحدثتُ بما فيه الكفاية عن هذا الموضوع الخطير في كتابي (من ذخائر الفكر الإسلامي) فليُرَجع إليه^(٢).

* * *

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث، للدكتور محمد البهي؛ وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للعقاد.

(٢) انظر: من ذخائر الفكر الإسلامي، للمؤلف.

المبحث الثالث

أساليب أخرى مآكرة للغزو الثقافي

- ١ - الحيلولة بين المسلمين وتمكنهم من التّقنية الحديثة، فإذا لم يستطع الغزو الثقافي ذلك عمّد إلى تزهيدهم فيها، وإذا فرّضت عليه مصلحة تمكين المسلمين من بعض تقنيّة العصر حرص على تلويثها بما يُفقدهم أصالتهم فيُصبحون بها قوة مضافةً إلى قوته .
- ٢ - ومن أساليبه أيضاً إثارة التّعرات العرقية باسم إحياء الحضارات القديمة والتراث القومي للشعوب والأمم .
- ٣ - ومن ذلك محاربته اللغة العربية وتشويهه للتاريخ الإسلامي والنيل من عظمائه وعلمائه .
- ٤ - ومن ذلك استغلال وسائل الإعلام لترسيخ القيم الاستهلاكية الغربية في المجتمعات الإسلامية .
- ٥ - ومن ذلك إزالة القدسية عن النصوص الدينية والفكر الإسلامي بتصنيفه ضمن التراث الإنساني العام .
- ٦ - وجعل المسلمين دائماً في حالة دفاع واستجابة مستمرة للتحدي .

الفصل الثاني

مدارس الغزو الفكري المشبوهة وفضحها

أبرزُ مدارس الغزو الفكري ثلاثة: العلمانية، والحدّانة، والاستشراق.

المبحث الأول

العلمانية

(أ) العلمانية في التاريخ:

في غمرة صراع مرير وقاس بين بعض حكام أوروبا في القرون الوسطى وبين نظام كنسي اتسم بالطغيان والأناية والشر والفساد وهو إلى ذلك يُضفي على نفسه حلة العصمة والقداسة باسم الدين ويغلو في استغلال الدين استغلالاً شائناً، ثار العقلاء والأحرار، وأعلنوا فصل الدين عن الدولة هناك، وانطلقوا يُسيِّرون شؤونهم بمنأى عن تلك السلطة القائمة.

وجاء الاستكبار الصليبي العسكري والسياسي الحديث للبلاد الإسلامية التي ليس فيها شيء من تلك الأوضاع السيئة التي دعت إلى فصل الدين عن الدولة في أوروبا، فدعت في بلاد المشرق الإسلامي إلى فصل الدين عن الدولة فأبعد الإسلام عن جميع الميادين، وحصلت ازدواجية في كل شيء، حتى حرَّر المسلمون أنفسهم بالجهاد الإسلامي من رتقة هذا الاستكبار وجدوا أنفسهم أمام تركة ضخمة من القوانين وجيش جرار من ضحايا الغزو الثقافي في ميدان الفكر، يُحرِّضونه على المحافظة على المستورد من تلك القوانين ولو ناقض دين الأمة وحضارتها بلا أي مُبرِّر.

(ب) العِلْمَانِيَّة فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ :

لئن كانت العِلْمَانِيَّة ضروريةً أو حاجةً في أوروبا أمام طغيان سلطان الكنيسة فلا حاجة لنا بها نحن المسلمين لأنه ليس عندنا كهنوت ولا كنيسة، ولا يملك أحد لأحد مغفرةً ولا جنةً ولا جِرمَاناً، فالإسلام يختلف عن غيره بهذه البساطة والفترة.

ولكنَّ الغزاة أرادوا إزالة الإسلام من الحلبَة، فَهُم يخشونه ويخافون منه ويحسبون له ألف حساب، ولذلك أقنعوا الناشئة من شبابتنا بقضية فصل الدين عن الدولة، واستبقاء الدين للعبادة فحسب وعزله عن مكانته القيادية في المجتمع الإسلامي، فأحدثوا فكرة العِلْمَانِيَّة وروَّجوا لها بشكل ملحوظ حتى أصبحت لدى أكثر ناشئتنا من المسلمَات لأنهم أفاقوا عليها لا يعرفون غيرها فظنوا أنها هي القاعدة والأصل، ولم يعلموا أنها دواءٌ وُصِفَ لمرضى في غير بلادنا ولغير أقوامنا...!!^(١).

* * *

المبحث الثاني

الْحَدَاثَةُ

الحدائثة أو (تحديث الإسلام) دعوةٌ استكباريةٌ مُعَادِيَةٌ للإسلام ظاهرها جميل براق وحقائقها سُومٌ زعاف تُعَدُّ رَدَّ فعلٍ عَنِيفاً على الإسلام، ومعنى ذلك: (تَهْجِينُ الإسلامِ وَمَسْحُهُ) أو (قصره على الأمور شكلية)، وتفريغه من محتواه.

والأنكى من ذلك ما يقوله هؤلاء إن تطبيق الشريعة الإسلامية يُعَدُّ تطرفاً وهو شعار تردده وسائل الإعلام وأبواق الدعاية الغربية وبعض ما يصدر في البلاد الإسلامية نفسها.

(١) انظر في ذلك كتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي)، للدكتور محمد البهي في مواطن متعددة.

ومن دعوة الحداثة الزائفة هذه تفسير النصوص الدينية بالتفسيرات الاعتباطية المدسوسة المسمومة مما يُفَرِّغ الدين من محتواه الأصلي وجعله جُرَاباً يُوضَع فيه ما يُريد هؤلاء من الأفكار المستوردة الغربية عن الإسلام باسم الإسلام الحديث أو تحديث الرؤية الدينية، ومن ذلك كتب طُبعت ونُشرت لَكُتَّابٍ مسلمين عرب ثَبَّت بالدليل القاطع أنهم لم يكتبوا شيئاً من ذلك وإنما كُتِبَ في غير بلاد المسلمين ومن دوائر استشراقية بحتة، واستأجروا لها من يكتب اسمه عليها من العرب المسلمين حَمَلَةَ الدرجات العلمية الرفيعة.

إننا ندعو إلى تحديث الأساليب في عَرَض الإسلام من صياغةٍ جديدةٍ وابتكارٍ جذاب، وما شاكل ذلك. أما في جوهر الإسلام وثوابته فلا، وَأَلْفُ لا...

وهل دخلت النِحْلُ والأديان الزائفةُ إلى عقول الناس إلا من هذا الباب...!!

* * *

المبحث الثالث

الاستشراق

وأما الاستشراق فهو أخطر مدرسة لمحاربة الإسلام بالإسلام فالاستشراق هو تلك الدوائر التي رُصدت لها العقول والأموال وتوفرت على دراسة الإسلام دراسةً ناقدة لتبحث عن الثغرات، ورجالها غالباً من اليهود أو من رجال الكنيسة، فالدافع ليس علمياً بل ديني بحت.

ولقد ظهر من هؤلاء نيكلسون شيخ الاستشراق الذي كتب في التصوف الإسلامي بروح نصرانية فَحَوَّزَ وَبَدَّلَ وَغَيَّرَ وافترى على الحقيقة العلمية المجردة، وجاء بعده تلاميذه وأتباعه، وهم إلى يومنا هذا لا يفتأون يكذبون على الإسلام ورسول الإسلام ومن هؤلاء كارل بروكلمان وأضرابه.

وأشهد أنه كان منهم منصفون؛ فمنهم من أسلم مثل د. روجيه جارودي وموريس بوكاي، ومنهم من بقي على دينه مع الإنصاف للحق. وبالجملة؛ فالاستشراق في جملته إحدى الوسائل والأساليب المعتمدة للغزو الفكري الثقافي للإسلام في الماضي والحاضر.

الفصل الثالث

طُرُقُ مُحَارَبَةِ هَذِهِ الْمَدَارِسِ الْمَشْبُوهَةِ وَفَضْحُهَا

المبحث الأول

الوعيُ الفكريُّ الإسلاميُّ وانتشارُه

هذا الوعيُ الفكريُّ أضحى أمراً ضرورياً للمسلمين اليوم، ولا يقوم به إلاّ المفكّرون المسلمون من العلماء ذوي الوسْطية والاعتدال.

والواجب على هؤلاء المفكرين نشر هذا الوعي الفكري بين المسلمين بكل طرق النشر من خطابة وتدرّيس وكتابة وتأليف، والواجب على المسلمين مساعدة هؤلاء المفكرين في رسالتهم تلك حتى تُؤتي أكلها وتُعطي ثمراتها.

كما ينبغي كتابة الرسائل والردود العلمية وطبعها وتوزيعها، والعمل على ترجمتها للغات الحية.

* * *

المبحث الثاني

إقامة المراكز العلمية ودور الدّرس والتحصيل

هذا؛ ومن أهم طرق محاربة هذه المدارس المشبوهة:

(أ) فتح المدارس والمعاهد العلمية الشرعية والكونية مع الإشراف على المناهج.

(ب) وإقامة الجامعات والكليات الإسلامية، ودعمها حسيّاً ومعنويّاً.

(ج) وبناء المراكز العلمية وإقامة المحاضرات، وإصدار المجلات الإسلامية الحديثة بأقلام واعية.

البَابُ الثَّالِثُ

ظَوَاهِرُ الْغَزْوِ الْفِكْرِيِّ

الفصل الأول: ظاهرة سوء فهم الإسلام أو سوء توظيفه.

الفصل الثاني: ظاهرة البديل عن الإسلام.

الفصل الثالث: ظاهرة تهميش دور الإسلام في أهله.

* * *

الفصل الأول

ظاهرة سوء فهم الإسلام أو سوء توظيفه

من أبرز ظواهر الغزو الفكري ظاهرة سوء فهم الإسلام بحيث يصبح الإسلام في نظر أهله ومعتقيه طقوساً مجردة خاوية لا روح فيها، لا تُقدّم ولا تُؤخّر، فهي مُبتسرة جوفاء، سرعان ما يَبْذُها المُتَنَفِّ اللِّقْنُ لأنه لا يجد فيها طَلْبَتَهُ في هذا العصر.

وسوء فهم الإسلام عادةً يكون عند كثيرٍ من المُتَدَيِّين وَمَنْ لَفَّ لِفَهْمِهِ، ولذلك يكونون دائماً مثلاً سيئاً مُنْقَرَأً، وهو المطلوب.

ومثُلُ هؤلاء يَحْرِصُ أصحاب الغزو الفكري ورجاله على إبرازهم وإعطائهم حجماً في المجتمع الإسلامي أكبرَ من حجمهم الحق للتشويه فقط والتنفير من الإسلام.

ومثُلُ سوء الفهم سوء التوظيف للإسلام: فهناك مستغلون من الساسة والتجار ومحترفي السياسة ورجال الأعمال يتخذون من الدين مطيةً لمآربهم، فهؤلاء وأمثالهم يبرزهم الغزاة على أنهم قادة الفكر الإسلامي وزعماءه، ليُبعدوا الناس عن الإسلام الذين هم هؤلاء المستغلون رجاله والدعاة إليه!..!

الفصل الثالث ظاهرة البديل عن الإسلام

هنالك من المفاهيم الوطنية والقومية ما يحمده الإسلام ويُقرُّه عنصرًا رديفًا مؤيِّدًا، فلا يصلح لأن يكون عقيدةً أو دينًا، وذلك كالقومية العربية، والولاء للوطن، والشهادة في سبيل الله، وما إلى ذلك . . .

ولكنَّ رجال الغزو الفكري يتَّقصدون أن يُبالغوا في هذه القضايا، ويحلُّو لهم لغاية في أنفسهم أن يجعلوا منها بدائلَ عن الإسلام.

فَنصَّبوا من القومية العربية التي نعزُّبها كلنا دينًا بديلاً عن الإسلام، بحيث صار الإسلامُ من مقوِّمات القومية العربية وليس العكس.

وَنصَّبوا من الوطنية وثناً يُعبد من دون الله — حاشا لله — كما قال شاعرهم:

لو بدلي مَوطَني وَثناً لَهَمَّمْتُ أَعْبُدُ ذَلِكَ الوَثَناء!!

وقس على ذلك الشهادة والشهداء، والأُمَّة والدَّولة، . . .

فهذه المفاهيم على ضرورتها للمجتمعات الإنسانية، لا تصلح ديناً ولا عقيدة ولا فكراً، لأنها تفتقر إلى مقوِّمات ذلك، فكيف تصلح بدائلَ عن الإسلام؟!؟

والعَجَبُ من بعض المسلمين من المفكِّرين والكتَّاب والأدباء من يدعو إلى هذه المبالغات الجوفاء التي ظهر عُوارُها وانكشف زيفُها وباطلُها وبهْزُجها . . .

الفصل الثالث

ظاهرة تهيمش دور الإسلام بين أهله

بقي من الظواهر تهيمش دور الإسلام بين أهله؛ ومعنى ذلك أن يُجعل دور الإسلام في الحياة الاجتماعية مقتصرًا على توافيه الأمور وصغائرها، فتصغر مساحته فوق خارطة العمل الوطني، وتضعف قيمة كلمته بإفقارهم وتجويعهم، ووضعهم دائماً في مؤخرة الركب، وهذه خطة مأكرة وضعها خصوم الإسلام زمن الاحتلال العسكري والسياسي فلما ذهبوا بقيت بيد أذئابهم وتلاميذهم.

ألا وإن دور الإسلام دورٌ رائد، فالإسلام ليس قزما ودوره ليس هامشياً، ولوسعى إلى ذلك خصوم الإسلام وغزاة الفكر الإسلامي وجب أن نسعى إلى ذلك بكل ما نستطيع.

البَابُ الرَّابِعُ أسباب قيام الغزو الفكري والعوامل المساعدة له

الفصل الأول: أسباب قيام الغزو الفكري في العالم الإسلامي .
الفصل الثاني: العوامل المساعدة لقيام الغزو الفكري .

* * *

الفصل الأول

أسباب قيام الغزو الفكري في العالم الإسلامي

تكاد تنحصر هذه الأسباب في ضربين: أسباب خارجية، وأسباب داخلية؛
ودونك التفصيل:

المبحث الأول

الأسباب الخارجية للغزو الفكري

تتجلى هذه الأسباب الخارجية فيما يلي:

- ١ - الطمع في خيرات العالم الإسلامي ونهبها عن طريق استعباد المسلمين.
- ٢ - إذلال المسلمين لشفاء الأحقاد في نفوسهم على الإسلام.
- ٣ - تسيخ المسلمين لرغبات السادة المستعبدين.
- ٤ - المكر للمسلمين للعداوة الدينية المتأصلة في نفوس الغزاة.
- ٥ - إضعاف شأن المسلمين وشوكتهم كي لا يفكروا يوماً بمقارعة أعدائهم.

* * *

المبحث الثاني الأسباب الداخلية للغزو الفكري

وتتجلى في ما يلي:

١ - وجود الاستعداد الواضح في العالم الإسلامي لقبول مقولات الغزو الفكري، فالغزو كالجرثوم لا يفتك في البدن إلا بوجود الاستعداد في البدن لقبوله.

٢ - الخواء الفكري عند المسلمين، بحيث قد يوجد العلم ولا يوجد الفهم أي حُسن التوظيف لذلك العلم كما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ وَكُلَّاءَ آيِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

٣ - الخواء الأخلاقي والتربوي لدى كثير من الناشئة المسلمين لفقدان التربية الحق.

الفصل الثالث العواملُ المُساعدة لقيام الغزو الفكري

هنالك نوعان من العوامل المساعدة؛ نوع في الدعاة إلى الإسلام من العلماء، ونوع في الأمة.

المبحث الأول

العواملُ المساعدة في الدعاة إلى الإسلام

وتظهر فيما يلي:

- ١ — انعدام الوساطة^(١)، وظهور كل من طرفي الغلو والانحلال.
 - ٢ — فُشو الخلاف^(٢) المذموم وانتشاره بين الكُتّاب والعلماء.
 - ٣ — عدم التكامل^(٣) في شخصية العلماء الدعاة في الأعم الأغلب بحيث ينقص العالم الداعية عنصر من العناصر المهمة في دعوته وهي ثلاثة: العلم الصحيح، والتربية الصحيحة، وشروط الدعوة إلى الله ورُوحها.
- وعدم التكامل هذا يورث نقصاً أو ازدواجية في شخصية الداعي تُحدث خللاً في دعوته يُؤثّر ليحدث قابليةً لغزو فكري مُعادٍ.

* * *

(١) انظر كتابي: خصائص الفكر الإسلامي في مواضع متعددة.

(٢) انظر كتابي: معيار المعايير أو أصول الخلاف العلمي.

(٣) انظر كتابي: من ذخائر الفكر الإسلامي.

المبحث الثاني

العواملُ المُسَاعِدَةُ في الأمة الإسلامية لقيام الغزو الفكري

- ١ - نالت الشعوب الإسلامية استقلالها السياسي ولكن الكثير منها لم تحقّق استقلالها الثقافي والتربوي فاحتفظت بنقاط ضعف فيها كثير من الازدواجية والانشطار بين العلم والدين وبين العلم والأخلاق، حتى العلم لم يعد هو المقصود لذاته بين الناشئة بل الشهادات فقط ولو بغير علم وهذا أمر خطير .
- ٢ - وكذلك الفراغ التربوي في كثير من بلاد العالم الإسلامي فنسبة الأمية عالية في معظم البلاد الإسلامية، والكثيرون محرومون من تربية تُنمّي مواهبهم .
- ٣ - يبقى لدينا عامل مهم جداً وهو ربط الحقيقة العلمية بالحقيقة الدينية، فهذا أمر شُبّه مفقود في العالم الإسلامي إلّا في القليل النادر، فالتعليم الصحيح هو الذي يمر على الإيمان والقلب قبل أن يمر على الفكر والعقل .

البَابُ الخَامِسُ

تَفْتِيْتُ الغَزْوَ الفِكْرِيَّ وَرَدُّ حَمَلَاتِهِ

الفصل الأول: الوقاية والعلاج للحالة الراهنة.

الفصل الثاني: الغزو الفكريُّ المَعَاكِسُ.

* * *

الفصل الأول الوقاية والعلاج للحالة الراهنة

أرى - والله أعلم - الوقاية والعلاج لما عليه المسلمون اليوم من آثار الغزو الفكري يكمن في أمرين اثنين:

١ - الوسطية بمعناها الإسلامي الشامل في الأمة ومفكرها وعلمائها.

٢ - والتكامل في فهم الإسلام.

فإذا ألحَقْنَا بهذين الأمرين عنصراً مُساعداً لهما وهو:

٣ - الوعي الإسلامي العام بمفهومه الكلي.

نكون قد وضعنا سداً منيعاً في وجه أيّ غزوٍ ثقافي أو فكري مهما كان

مصدره، ومهما كانت رجاله وأصحابه.

الفصل الثالث الغزوُ الفكريُّ المُعاكِسُ

ولعلَّ أعظمُ أُسْلُوبٍ للدِّفاعِ هو الهجومُ .

فلماذا لا نهاجم فكرياً وثقافياً ولدينا الوسائل والأدوات والقُدْرَاتُ . . . !!

وأجَلُّ ما نهاجم به ثلاثة أمور:

(أ) افتتاح الجامعات الإسلامية في بلادنا وبلادهم وتخرير أجيال من العلماء الواعين الدعاة معهم العلوم والإجازات مع الشهادات العالية والدرجات الجامعية .

(ب) وافتتاح دوائر لدراسة الاستشراق ومقارنة الأديان ويتَوَقَّرُ على هذه الأمور المهمة برجال من المتخصصين بالدراسات الإسلامية .

(ج) وافتتاح مراكز ثقافية متكاملة (جامع وجامعة ومعهد ومدرسة وقاعات للمحاضرات ومكتبة) كُلُّها في مبنى واحد، في بلاد الإسلام وفي بلاد الغرب تقوم عليها خيرة أهل التخصص في العلوم الإسلامية معهم لغات أجنبية ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله .

خاتمة

خلاصة لكل ما تقدم

- وفي الختام؛ أستطيع أن أوجز البحث في عناصر:
- ١ - الغزو الفكري حقيقة قائمة لها من يؤيدها، وهي خطر على الأمة الإسلامية إن لم يُتدارَكْ، وهو أمر قائم ومنظَّم وخطر تخطيطه من خارج البلاد الإسلامية وتنفيذه من داخلها.
 - ٢ - أساليب الغزو الفكري التشكيك في الحقائق الإسلامية بينما مدارسه المشبوهة هي العلمانية والحدائثة والاستشراق.
 - ٣ - ظواهر الغزو الفكري؛ سوء فهم الإسلام أو سوء توظيفه، وظاهرة السبيل، وظاهرة التهميش.
 - ٤ - أسباب قيام الغزو الفكري، الاستعداد من الداخل والمكر من الآخرين، والعوامل المساعدة له انعدام الوسطية والخلاف المذموم وعدم التكامل في اختيار الدعاة.
 - ٥ - تفتيت الغزو الفكري ورد حملاته، الوقاية والعلاج للحالة من العنة، والهجوم على الغزو الغربي بغزو فكري مُعاكس.
- هذه أبرز القضايا التي بَحَثْتُ في هذه العُجالة المتواضعة فإنَّ أصبَتْ فمن الله وله الفضل والمِنَّة، وإن أخطأتُ فمني وأستغفر الله تعالى وأستقبله فإن أصبَتْ فلي أجران؛ وإن أخطأتُ فحسبي الأجر الواحد.
- ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ صدق الله العظيم.

الدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرور

أبرز مصادر البحث ومراجعته

- ١ - البهّي (د. محمد): الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي.
- ٢ - العقاد (عباس محمود): حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.
- ٣ - خالدي وفروخ (د. مصطفى خالدي ود. عمرفروخ): التبشير والاستعمار.
- ٤ - أبو زهرة: (محمد): خاتم النبيين.
- ٥ - الفرفور (محمد عبد اللطيف): خصائص الفكر الإسلامي من ذخائر الفكر الإسلامي.

الغزو الفكري وأساليب المواجهة

إعداد

الشيخ محمد علي السخيري
عضو مجمع الفقه الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

الغزو الفكري وأساليب المواجهة

في عالم يغص بالانحراف والضياع الفكري والأخلاقي، والظلم، ظهر الإسلام العظيم منحة ربانية ترسم للإنسانية الطريق الخالد الوحيد لتكاملها المطرد، وخلاصها من كل ما يزي بها ويجرّها إلى الانحطاط. ورغم أنّ العوامل الكثيرة كانت ضدّ مثل هذه الإنطلاقة، إلّا أنّها كانت تمتلك - من جهة أخرى - عناصر أهلتها لتحقيق غايتها الكبرى. وأهمّ هذه العناصر:

(أ) - طاقات الإسلام الذاتية القادرة على النفوذ إلى الأعماق، نتيجة انسجامها مع البنية الإنسانية، والفترة.
(ب) - القيادة الحكيمة للرسول الأعظم ﷺ.

(ج) - تأييد الله تعالى، فهو وليّ المؤمنين: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصُرُوفِهِ وَيَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ نَبِيًّا وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبُهُمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَا يَكُنْ اللَّهُ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

ولا ننسى - أيضاً - أنّ الظروف الزمانية والمكانية - رغم ما كانت تتمتع به من عناصر سلبية - كانت مهياة لظهور مثل هذه الدعوة، بل وانتصارها في زمن قصير.

وعلى أيّ حال، فقد ظهر الإسلام وعمّ نوره الأرض... إلّا أنّه - وبشكل

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٢ و ٦٣.

طبيعي – واجه من يومه الأوّل مقاومة، من كلّ أولئك الذين جاء للقضاء على ظلمهم، وجهلهم، وتعصّبهم، وابتزازهم للحقوق، فخطّطوا له ما شاءوا وقاموا ما مكّنتهم قوتهم من ذلك. وحفل تاريخ العصبية الإسلاميّة الأولى، بل تاريخ المسلمين على مرّ العصور، بألوان من الحرب، والمقاومة الكافرة، والتآمر الحاقد لإطفاء هذا النور الإلهي: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمَّرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

وكانت الحرب الثقافيّة والسلوكيّة هي أخطر ما ووجه به الإسلام في صدره الأوّل، وخصوصاً بعد أن قويت شوكته العسكريّة وتوطّدت أركانه، بل راح ينطلق مهاجماً القوى الكبرى آنذاك، وقاضياً بالتالي على شوكتها، خلال ربع قرن، وهو عمر لا يعدّ شيئاً بالمقياس التاريخيّ.

وإذا ركّزنا على صدر الإسلام بالخصوص، وجدنا أنّ نقطة الاختراق الرئيسيّة – تقريباً – والتي نفذ منها العدو الكافر إلى فكر المسلمين، وبالتالي إلى سلوكهم هي (الإسرائيليّات) فقد أضفت طابعها – مع الأسف – في مختلف حقول المعرفة، ونجحت إلى حدّ كبير في جرّ الأمتة إلى مسارب لا تحمد. هذا وإن كنّا لانتناسي الرواسب الأخلاقيّة والحضاريّة التي بقيت كامنة، سواء في نفس بعض العرب الذين أسلموا، أو في نفوس الشعوب التي دخلت الإسلام بعد ذلك، فنقلوها بشكل شبه طبيعي إلى الساحة الإسلاميّة، وربما صبغوها بالصبغة الإسلاميّة، بل وقد تكون هذه العمليّة انطلت على من جاءوا وبعدهم، فحسبوا إسلاميّة أصيلة، وراحوا يتعبّدون.

ولا نريد أن نزيل في هذا الجانب – وإن كان مهمّاً جدّاً – .

نظرة إلى الفترة الفاصلة بين الصدر واليوم:

وإذا أردنا أن نلقي نظرة على الفترة الفاصلة بين عصر صدر الإسلام وقرننا الأخير، وجدنا أنّ الاختراق الثقافيّ والحضاريّ والسلوكيّ المنحرف، قد زاد

(١) سورة التوبة: الآية ٣٢.

عنفاً وقوة حتى تحوّل إلي تيار عرم، وذلك كلّما اتّسعت النقاط التي ينفذ منها بالتدرّج.

إنّ المتنبّع لفترة القرنين الثالث والرابع الهجري مثلاً، يجد - إلى جانب الثراء العلميّ والأدبيّ وغيرهما - حالة منحطّة جدّاً على المستويات السياسيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة على الأقلّ في الطبقات العليا من المجتمع.

فها هنا صراع عنيف بين العنصريّات (العربيّة والفارسيّة والتركيّة وغيرها)، وهناك تقاتل وتناحر بين الطوائف الإسلاميّة يذكيه ذوو الأطماع، وهناك اختلاف في المستويات الاقتصاديّة صارخ، فبين أن تُزفّ عروس للخليفة ببغداد من مصر، وتُصرف عليها من الأموال ما يزلزل الخزينة المصريّة بكاملها، وبين أن يظلّ عالم كبير يثث من الجوع والفقر، ولا تنجيه إلاّ صدقة من حاكم مترف.

وعلى أيّ حال، فلنعبّر هذه العصور المتمادية إلى عصرنا الأخير.

فكما تجمّعت قوى ثلاثة في الصدر الأوّل، ضدّ الثورة الإسلاميّة الكبرى الأولى، وهي:

(أ) - المترفون والمستغلون.

(ب) - الجاهلون العقائدّيون المتعصّبون.

(ج) - الحاقدون على الشعوب.

نجد أنّ هذه القوى تجمّعت من جديد - وبشكل أكثر ضراوة وأدق تخطيطاً - على الأُمّة الإسلاميّة اليوم، بل وزادت من قدرتها ونشاطها عندما واجهت الثورة الإسلاميّة المباركة في إيران، وما تركته من آثار على إيقاظ الشعوب، وتحريك الجيل الإسلاميّ - اليوم - نحو تطبيق الإسلام الأصيل، بعيداً عن التشويه والتحريف.

لقد تجلّت الصيغ الماضيّة في كلّ من (الاستعمار، الصليبيّة، الصهيونيّة).

وكان هذا التلاحم الحاقد الخطير، وهذا التمهيد المتبادل بينهما، وبالتالي هذا الهجوم الكاسح على العالم الإسلاميّ.

وقد صدقت الثورة الإسلامية أروع الصدق، حين أطلقت على هذا الثالث عنوان (الاستكبار العالمي) منتبهة إلى علته وجذوره النفسية.

وإذا تجاوزنا - أيضاً - تفصيلات هذا الهجوم، مستقرئين أهدافه من خلال طبيعة العمل، وتصريحات القائمين به، عرفنا أنه كان يعمل على إطفاء بصيص العقيدة الإسلامية المتبقي في النفوس، ولقد كان هذا البصيص - الذي سلم من خلال عصور الغفلة - كافياً في بعث الصلابة والثبات في أبناء هذه الأمة، وشدها بنوع من التماسك، الأمر الذي يعرقل كل مخططات الكفر!!

وكان التخطيط عموماً يسير عبر الأساليب التالية:

(أ) إيجاد الخواء الحضاري في الأمة الإسلامية.

(ب) بثّ التعالي الحضاري الغربي، وتأكيد بهشتي الأساليب.

(ج) الملاء الحضاري بالمطلوب.

ورغم أن هناك نوعاً من الطولية بين هذه الأساليب، إلا أن هذا لم يمنع من أن تعمل إلى جنب بعضها البعض وفي عرض واحد.

ومن الواضح التالي: أن الكفر إذا استطاع أن ينفذ هذه الأساليب، فإنه سيحقق بغيته من إطفاء الشعلة العقائدية، أو إفراغها من محتواها الثوري، وهذا يعني فناء الشخصية الإسلامية، وتمهيد السبيل لتحقيق حلم القوى الثلاثة، الحاكمة الجشعة.

فلنستعرض - إذن - تفصيلات كل أسلوب من هذه الأساليب الثلاثة - طبعاً باختصار - لتتوضح أكثر فأكثر:

الأسلوب الأول:

خلق الخواء في الشخصية الحضارية الإسلامية، أو فلنعبّر عنه بقطع الأواصر السليمة الأصيلة، بين الأمة وإسلامها في شتى الجهات، فإذا انقطعت العلاقات حوى الوجود الإسلامي، وماتت الروح المطلوبة، وذوى النشاط والتأثير المفروض.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَطُّهُ الْطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ

سَجِيٍّ﴾^(١).

ونستطيع هنا أن نستعرض قائمة طويلة من تفصيلات هذه الخطة الماكرة إلا

أننا سنتنصر على المهم منها وهي:

١ - العمل على تأجيج الخلافات بين المسلمين، لكي ينسوا قضيتهم الكبرى، وينخرطوا في مشاكل جانبية، الكثير منها مصطنع، وهم إذ يفعلون ذلك يمهّدون للنفوذ الأجنبي بلا ريب، ولو عن طريق شيء من الانتصار المذهبي الضيق على حساب الطرف الآخر. ولا ننسى في هذا الصدد، ما عمله المستشرقون الحاققون في هذا المضمار، للإيقاع بين المسلمين، فضلاً عما كان للتركة التاريخية في هذا المجال من أثر محطّم، وإلى جانب هذا التأجيج الخبيث، نجد عملية إلهاء المسلمين بقضايا فكرية جانبية، غاية أثرها أنها تصنع مواقف متباينة، من نمط من السلوك الفردي غير الطبيعي.

وقد وجدنا نظير ذلك، عندما التهيء المسلمون - سابقاً - بقضايا (خلق القرآن) وأكلت منهم هذه المسألة الجهد الكثير وربما سالت لأجلها دماء ودماء.

٢ - وعلى هذا الغرار، سعياً لتمزيق الشخصية الإسلامية الواحدة، عمل الاستكبار العالمي على تفتيت كل عناصر الوحدة الأخر، فراح - مثلاً - يحارب لغة القرآن (اللغة العربية) وذلك لدى غير العرب، في حين راح يروج اللغة العامية لدى المسلمين العرب، وهي عملية ماهرة خبيثة، تعمل على إبعاد الأمة عن مصادر الإشعاع، وتجعلها حكرأ على جماعة متخصصين فقط، كما راح الاستعمار - من خلال عملائه - يمزق الأرض الإسلامية إلى دويلات صغيرة - بعد أن قضى على الدولة العثمانية - بشنى الأساليب الماكرة، وإذا تمزقت هذه الدويلات، راح يزرع مفهوماً ضيقاً للوطن، يتلخّص في التراب الإيراني أو العراقي أو الكويتي أو اللبناني وما إلى ذلك. وتأكيداً لهذا المعنى، راحت كل منطقة تدرس تاريخها الخاص بها، وتوسعة في التأمّر، راحت المناطق تؤكد على

(١) سورة الحج: الآية ٣١.

تاريخها - هي - ما قبل الإسلام وما أدعته لأنفسها من حضارات سخيّة، وقد ساعدت الاستعمار - في ذلك - أحزاب قوميّة ومحليّة خبيثة، أنشأها - هو - لتحقيق مراده في هذا المجال.

هذا بالإضافة إلى روح التمزّق القوميّ التي خلقها - كأخطر فكرة وأخبثها - لتحقيق الهدف نفسه على صعيد آخر.

٣ - بثّ الشبهات العقائديّة في أذهان الجيل الناشئ، ولما لم يكونوا بمستوى الردّ عليها، فإنّ الشبهة سوف تتحكّم في النفس، وحينئذٍ يتحقّق الانقسام المطلوب.

٤ - تشجيع العزلة لدى العلماء، سواء العزلة عن البحث في القضايا الاجتماعيّة المهمّة، أو عن المشاركة الاجتماعيّة الفعّالة، واختيار التقوقع والزهد بمفهومه المنحرف، المبعد عن المسيرة الاجتماعيّة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، العمل على خنق كلّ صوت علميٍّ حرّ، يحاول أن يمدّ الجسور إلى لبّ العمل الاجتماعيّ، واتّهامه وتجريحه وتحريفه، وتحريك الغوغاء ضدّه.

كلّ هذا لإيجاد الانقسام بين ورثة الأنبياء - وهم العلماء - والأئمّة، فلا تركز إلى ركن ركين، خبير بالأمور.

وإذا انسدّ على الأئمّة باب الفكر الأصيل، انفتح عليها باب الأوهام أو الفراغ - على الأقلّ - وهو المطلوب من قبلهم في هذه المرحلة.

٥ - توسيع الهوة بين الحياة القانونيّة والشريعة الإسلاميّة من خلال استيراد القوانين الغربيّة، وترويج الفكرة العلمانيّة، والوقوف بوجه أيّة محاولة تقنيّة للشريعة الإسلاميّة، وغير ذلك. مما أدّى إلى البعد التدريجي للحياة الاجتماعيّة عن مخطّطات الشريعة^(١).

(١) ولا ننسى أن نشير - هنا - إلى أنّ ضغط الجماهير المسلمة من جهة، ومحاولة بعض الحكّام العلماء التخفيف من الضغط الجماهيري، وحماية أنفسهم من السقوط، دفعاهم لطرح فكرة التقنين من جديد، إلّا أنها دعوة معروفة الدوافع والنتائج.

٦ - ترويج الفساد الأخلاقي بين أبناء الأمة، وذلك كمقدمة للفساد العقائديّ.

وقد تم استغلال كلِّ وسائل التمييع لبث الروح الشهوانية، وتحريك الغرائز في الشباب، والشهوة - إذا أثرت - ملكت على المجتمع له، وهوت به في أحلام كاذبة، حتى غداً الشاب يشعر - مع ثورة الشهوة - أن الإسلام هو الذي وقف سدّاً حائلاً بينه وبين إشباع لذاته المسعورة، متناسياً كل المقاييس الواقعية النوعية، وكل الأضرار الناتجة عن هذه النظرة الثائرة، الأمر الذي يقوده - أحياناً - للانضمام إلى معسكر الشك وربما الكفر في كثير من الأحيان.

والخلاصة: إن الاستعمار إذ يشيع هذه المادّيّة الأخلاقيّة، فإنّه يمهدّ السبيل للمادّيّة العقائديّة، إذ غالباً ما تؤدّي الحياة المادّيّة التي يعيشها الإنسان إلى العقيدة المادّيّة، تماماً كما تؤدّي العقيدة المادّيّة إلى السلوك المادّي المنحرف.

فإذا حدّد الإنسان مركزه من الكون على أساس أن هذه الحياة هي كلّ الشوط وأنه يجب أن يشبع غريزة الذات فيه - تماماً - منها، وأن لا شيء وراء المادّة، إذا اعتقد ذلك فقد فتح الباب على مصراعيه، لأن يعبّ من اللذات، ويظلم الآخرين، وحينئذٍ يذوب عنده أيُّ معنى للفضيلة والرذيلة، وسيكون لهؤلاء مستقبل مظلم - غالباً - إذ سيفرون إلى المخدرات والمسكرات.

أما العكس، فواضح أيضاً، فالأخلاق والعمل، لهما تأثيرهما في تعميق الفكرة وإذابتها، إنهما يحوّلان الفكرة العقليّة إلى أحاسيس وعواطف تصبغ سلوك الإنسان ولا يتأنى لأيّة فكرة - ما لم تتحوّل إلى هذا المستوى - أن تصبغ السلوك الإنسانيّ.

إن العلاقة بين الإيمان والعمل علاقة تبادليّة.

ثم إنّ المادّيّة الخلقية، وما نعبر عنه - نحن - بالمعاصي، تبعد النفس عن مقام تلقّي اللطف الإلهي، وهكذا يجد المنحرف أخلاقياً نفسه - في نهاية

المطاف - مكذباً بآيات الله: ﴿فَرَّكَانَ عَنقِبَةَ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّورَةَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١).

في حين يقوم العمل الصالح بتعميق الفكرة والسمو بها: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (٢).

وعلى أيِّ حال، فسوف نستعرض بعض الأساليب اللاأخلاقية، التي استخدمها الاستكبار العالمي، ليحقق هذه الغاية، عندما نتحدث عن الاختراق في جانبه الخاص بالشعب الإيراني.

٧ - العمل الحثيث على تسليم أزمة الأمور لحكام عملاء، أو جهلة بالإسلام وأحكامه، ليقوموا بالمساعدة على إبعاد الأمة عن جذورها الأصيلة، بشتى الأساليب وليس أقلها خطراً، أسلوب عرض الإسلام عرضاً رجعيّاً ميثياً، يفقده أيُّ روح تغييرية، ويحوّله إلى سلوكات فردية، بعيدة عن القضية الإسلامية الكبرى.

وهؤلاء الحكام - بطبيعة الحال - سيقومون بفصل الحياة الاجتماعية عن الدين وعزل المفكرين الإسلاميين الأصليين، أو ربطهم بركاب الحاكم، ولكي لا يتحركوا إلاّ وفق هواه وترويج الفساد الأخلاقي، وفسح المجال للشبهات والتشكيك، وأمثال ذلك.

وهكذا تحركت عملية إبعاد الأمة عن منابعها، على محاور متناسقة:

- ١ - المحور الفكري.
- ٢ - المحور التشريعي.
- ٣ - المحور الأخلاقي.
- ٤ - المحور الحضاري (التاريخ، اللّغة، التقاليد...).
- ٥ - المحور السياسي.

(١) سورة الروم: الآية ١٠.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.

وظنت أنها استطاعت أن تحقق هدفها المنشود، وهو إيجاد الفراغ في الحياة الإسلامية كلها، تمهيداً لخطوة الملء التالية.

الأسلوب الثاني:

يتجسد في عملية فرض التعالي الحضاري للثقافة الغربية، كي تكون هي المثل الأعلى للأمة الإسلامية، فتنساق باتجاه الغرب بشكل طبيعي، خصوصاً بعد أن تنجح عملية التفريغ السالفة.

وقد استغلّت هذه العملية الثانية مختلف الوسائل لتحقيق هدفها. منها:

أولاً: التطور العلمي: ذلك أنّ المسلمين، بعد أن وضعوا أسس التقدّم العلمي، وكانوا هم السباقين في طرح الطريقة التجريبية في الحياة الطبيعية، تخلفوا عن الركب العلمي، في حين راح الغرب - وخصوصاً عبر نهضته الصناعية - يطوّر العلوم ويسير بها سجحاً، حتى بلغ بها شأواً عظيماً، الأمر الذي أدّى من جهة إلى نتائج ماديّة محسوسة كبرى، ومن جهة أخرى، ترك آثاراً تشكيكية ضخمة أيضاً، على مجموع الأفكار والنظريات حتى تلك التي ما كان الشكّ ليطاولها من قبل، وعلى أيّ حال، فقد كان هناك تقدّم علمي رائع، وإن لم يواكبه تقدّم حضاري مطلوب.

وقد واجه الغرب العالم الإسلاميّ بنتائج نهضته العلميّة مع حملة دعائيّة واسعة، تركّز على أنّ هذا التقدّم العلميّ، هو في الواقع نتيجة نهضة عقليّة وحضاريّة كبرى، الأمر الذي يستلزم أن يتّجه معه العالم الإسلاميّ، إلى نفس الوجهة الغربيّة حتى يحصل على نفس النتائج.

وراقت الدعاية الغربيّة تعمل عملها، ونسي أبناء العالم الإسلاميّ ما صاحب هذا التقدّم. من وحشيّة، وبربريّة، وجشع، وانحطاط خلقيّ وإنسانيّ مقيت.

ثانياً: الشعارات البراقة: فقد وجد الغرب أنّ الاحتفاظ بأعماله الوحشيّة وطرحها على حقيقتها، أمر لا يساعده في تحقيق مآربه، ومن هنا بدأت أكبر

عملية ابتزاز وتسابق، في طرح الشعارات المحيية أصلاً إلى القلوب العامة. وهكذا رحنا نجد سوق المزايدات ملأى بشعارات (الحرية، والديمقراطية، والإرادة، والإنسانية، والاشتراكية، والعدالة، والتحرر الوطني والاستقلال، والتقدم، وحقوق الإنسان، وأمثال ذلك... .). وقد ساعده على الإغراء، أن هذه الشعارات وجدت لها - أحياناً - بعض المصاديق، الأمر الذي خدع الكثير من أبناء الأمة، وجعل الغرب في عينه المثل الأعلى.

هذا في حين كان الواقع الغربي مليئاً بالعنصرية، والوحشية، والجشع، والسعي، لبسط النفوذ، وقهر الشعوب الضعيفة، وامتصاص دمائها.

وثالثاً: تسخير شتى الإمكانيات العسكرية، والاقتصادية، والإعلامية والمالية، والثقافية لتأكيد هذا التعالي بشتى السبل.

وهذا ما سنراه بعد قليل، عند حديثنا عن الأسلوب الثالث.

ولكن قبل الانتقال إلى الحديث عنها، يجب القول إن العوامل التاريخية، وحالة الانحطاط التي أصابت أبناء الأمة، وما شاع فيها من أخلاق العزلة، والبعد عن الواقع، والتفكك؛ هذه العوامل شكلت عاملاً مساعداً قوياً في مجال الانخداع بالأحاييل الغربية. وإلاً فأى فكر سليم، وأي استقرار للتاريخ العربي والشرقي، وأي تمعن في طاقات الإسلام وثورته الموروثة، يوضح الأمر بشكل جلي ليس عليه غبار؟! ورحم الله من قال: إن القابلية للاستعمار هي أشد ضرراً من الاستعمار نفسه.

أما الأسلوب الثالث:

فهو عملية ملء الفراغ الفكري والفراغ في الشخصية بالنتاج الغربي، أو قل النتاج الذي يضمن للغرب أن يحقق مآربه دون عائق أو مانع.

هذا وقد شملت عملية الملء - هذه - مختلف الجوانب في حياتنا الاجتماعية، فعلى الصعيد الفكري: راحت الأفكار الغربية - الغربية على ثقافتنا - تروج وتعكس روحها، هنا وهناك، وراح الناس ينقسمون إلى مجاميع،

تناصر هذه الفكرة الغربية أو تلك، وكلتاها غربية، تقيأهما الغرب، والتقمهما هؤلاء، فهنا فكرة القومية، وهناك الوطنية، وهنا الديمقراطية، وهنا أيضاً فكرة فصل الدين عن السياسة، وهذا يحلل الحياة الاجتماعية على أساس أنها بنى فوقية للوضع الاقتصادي، وهذا يتبنى الفكر الليبرالي، معالجا القضايا الاجتماعية والدينية، وحتى الغيبية – إن كان يؤمن بها – على ضوئه، وهكذا اقتصرَت الثقافة، على تلقي الفكر الغربي، والتأمل فيه، بل وتقليده فكراً.

وهذا المعنى نفسه انعكس على الفن والأعمال الفنية، كما ترك بصماته المؤثرة على الأدب والشعر.

أما الملاء في المجال الخلقي، فحدث عنه ولا حرج، حتى لقد عادت الصفة الغربية للعادة أو السلوك معياراً للأخلاق الفاضلة، وهكذا شملت عملية الملاء المجال التشريعي، والنفسي، وأمثالهما.

وهذا وقد أشرنا إلى أن الاستكبار العالمي استخدم شتى إمكاناته، في مجال فرض التعالي الحضاري الغربي، والواقع أنه استخدم تلك الوسائل – بشكل أقوى – في مجال ملاء الفراغ الفكري، والفراغ الاجتماعي، وهذه الوسائل كثيرة:

منها: هذا الأسطول الإعلامي الضخم، الذي تشرف عليه عقول جشعة مفكرة، في كيفية تقديم الغذاء المناسب، وتحريف الحقائق، وتزويق الأكاذيب، إلى الحد الذي يقل نظيره في التاريخ. كما أن منها عملية الاستشراق الضخمة، التي عبّرت بكل وضوح عن التلاحم الثلاثي الآنف، في دفع هذه الحملة الثقافية الاستعمارية، للاطلاع على ما لدى المسلمين، واكتشاف نقاط ضعفهم، وضربهم من خلال تلك النقاط، واكتساب شخصية علمية لدى المسلمين وتحريف الحقائق، وتقديم الطبخات الغربية للأذواق الإسلامية، وتشويه الحضارة.

ومن تلك الأساليب: أسلوب البعثات الثقافية، وإنشاء الجامعات في الأرض الإسلامية، أو تربية الطلاب المبعوثين منها إلى الغرب وإشباعهم

بالأفكار المادية، وتحويلهم بالتالي إلى عملاء فكريين، يرجعون إلى بلادهم فيبشرون بالحضارة والفكر الغربيين، ويعملون على إنقاذ شعوبهم من جهلها وتخلفها.

كما أن منها أيضاً: الاستفادة من الحكام العملاء، الذين أمسكوا أزمة الأمور في تمرير المخططات المختلفة.

ويعد أسلوب الاستفادة من الأحزاب العميلة من أخطر الأساليب في هذا المجال.

والواقع: إنه لولا ما يحمله الفكر الغربي من نقص ذاتي وانحراف ونبو من قبل الفطرة تجاهه من جهة، وما تملكه الأمة من نور عقائدي حتى على مستوى (البصيص المتبقي)، ووجود بعض العلماء والمفكرين الواعين الذين انتبهوا للخطر من أول الأمر، لأمكن لتلك الحملة الظالمة أن تحطم الشخصية الإسلامية بالكامل، وتترك الإسلام محطماً، منعزلاً، بعيداً عن الحياة الاجتماعية، في حين تترك الأمة مكبلتة إلى الأبد بالقيود الفكرية والحضارية الغربية الغريبة عليها.

الفصل الثالث

الاختراق الحضاري الثقافي للمجتمع الإيراني

والواقع؛ إننا نستطيع أن نمثل لكل ما سبق، عبر ملاحظة واقع المجتمع الإيراني، قبل الثورة الإسلامية.

فلقد كانت الخطة الاستكبارية مأكرة ومركزة جداً، باعتبار ما لإيران من مميزات حضارية، وجغرافية، وتاريخية، وخصائص أخرى. وقد شملت الحملة المحاور التالية:

المحور السياسي، المحور الثقافي، المحور الأخلاقي والمحاور الأخرى أيضاً.

أما على المحور السياسي: فلا نود إطالة الحديث فيه، لوضوحه وانكشافه.

فلقد كان النظام المسلط على إيران، قبل الثورة، يحكي جيروت التسلط الغربي، ويعكس ماهيته أشد انعكاس، وكان التراب الإيراني مركز القواعد الغربية؛ كما كان النظام الشاهنشاهي محور التآمر الغربي على المنطقة العربية والإسلامية، بل ومنطقة جنوب آسيا إلى حد كبير، وكان قد أحكم قبضته على الشعب - أو هكذا ظن - حتى عدت إيران جزيرة الآمان في تصورهم.

وقد قام هذا النظام بكل المهام الملقاة على عاتقه من قبل الاستكبار، ونفذ مخططات الاختراق على مختلف الأصعدة، ولكن كم لشاه إيران بالأمس، من نظير اليوم في العالم الإسلامي؟!

أما على صعيد المحور الثقافي: فنود أن نقف عنده قليلاً، ونورد له بعض الأمثلة، التي تبين عمق المأساة الثقافية، التي ابتلى بها الشعب الإيراني.

وقبل كل شيء، يجب أن نتذكر، أن المطبوعات والكتب والصحف كانت حكرًا على النظام، ومن يسمح لهم النظام بنشر كتبهم، اللهم إلا ما شذّ وندر – وقد عاث العملاء الفكريون في إيران فساداً ما له نظير – .

فلنركز على الحقبة الأخيرة من تاريخ إيران، لنقف مجملًا على بعض الخطوط الفكرية، التي طرحت نفسها على الساحة، بإسم المثقفين، أو منوري الفكر – كما كانوا يطلقون على أنفسهم – لنعرف أنهم كانوا أهم مسرب للفكر والثقافة الغربية إلى الساحة الإيرانية.

والملاحظ في الأمر، أن هذه الحركة طرحت شعارات أخاذة تستهوي إليها القلوب. وقد مر بنا، أن هذا يعدّ من أهم أساليب الاستكبار، في عملية الاختراق، نحو جسم الأمة.

فمن هذه العناوين: فكرة (البروتستانتية الإسلامية!!).

وكان الأرمني الميرزا يعقوب خان – وهو عميل إنكليزي معروف – في طليعة من طرحوا هذه الفكرة. فهو يكتب من حدود سنة ١٢٩٠هـ. إلى الشاه ناصر الدين، متحدثاً عن (لزوم المزج بين الإسلام والعلوم الغربية)، فيقول: (إن انطلاقة الرقي، وضرورة الإصلاحات، يمكن الاستجابة لها بكل سهولة، من خلال خلق نوع من الانسجام بين المقررات والمناسبات القديمة، والمناسبات ومقتضيات المقررات الحديثة في هذا العصر).

ويستطرد قائلاً:

(لقد انمحت – الآن – ضرورة الجهاد في المجال الديني – تماماً – وما علينا بعد هذا إلاّ تعميم عادة الجهاد في الأمور الدنيوية هذه)^(١).

(١) كتاب فكرة الرقي لفريدون آدميت، وهو أحد الماسونيين: ص ٤٥ – ٣٨.

ويبدو - من هذا النص - كيف حاول هذا الأرمني الحاقد أن يبقي لفظ الجهاد، مبعداً إياه عن موضع الخطر على العدو المهاجم.

إلاً أن الأخطر من هذا الميرزا، كان ولده الميرزا ملكم خان، هذا العقل المفكر للماسونية في إيران، والمعتبر أباً للمثقفين الإيرانيين.

يكتب الميرزا ملكم خان عن نفسه: (لقد صممت أطروحة أمزج فيها بين عقل السياسة الغربية، وحكمة الديانة الشرقية، وقد علمت أن تغيير إيران إلى الشكل الأوروبي سعي لا نفع فيه، ومن هنا عرضت فكرة التطور المادي في إطار ديني، ليدرك المواطنون تلك المعاني جيداً، وقد دعوت أحبة وأناساً معتبرين، وفي محفل خاص، تحدثت عن لزوم (تهذيب الإسلام) (١).

وقد جاءت على لسان هذا العميل ألفاظ، من قبيل:

(إسلام العلم)، (إسلام الحب)، (إسلام العقل) وأمثالها. محاولاً - بذلك - تعميق ما يريد من هدف خبيث.

وعلى هذا الغرار، جرى الميرزا يوسف خان، فهو يقول: (نعم، إن على الإنسان - دائماً - أن يقوم بعملية تكميل وتغيير لقوانين الماضين، وفقاً لمقتضيات عصره واحتياجاته... ومن بين الغربيين نجد دولة الإنكليز مدافعة دائماً عنا، وإنني لسعيد أن تفقد الدولة العثمانية عدة الولايات، ولا تفقد الدعم والتأييد من قبل الشعب الإنكليزي).

وهكذا نصل إلى الميرزا فتح علي آخوند زاده، الذي يعلن بكل صراحة أنه إنسان تحميه روسيا (عميل روسي) وأنه جاء لهدم الدين والرجعية، وإيقاظ شعوب آسيا من نوم الغفلة والجهل، وإثبات وجوب البروتستانتية الإسلامية.

وأخيراً نجد عبد الرحيم طالبوف، يكتب حول (تحديث الإسلام)، فيقول: (إن أحكامنا الشرعية كانت جيدة لما قبل ألف سنة، ولكنها في عصرنا - نحن - يجب أن تضاف إليها ٣٠ ألف مسألة جديدة).

(١) كتاب فكرة الرقي لفريدون آدميت، وهو أحد الماسونيين: ص ٦٤ - ٦٥.

وعلى هذا الفرار، يأتي أمثال كسروي، ليعلن فكرة (الدين النظيف) وشريعت سنكلجي، لي طرح فكرة (الإصلاح الديني) بعد أن دعمته دكتاتورية رضا خان المقبور. هذا وقد ألف الإمام القائد كتابه: (كشف الأسرار) للرد على أمثال هذين المنحرفين العميلين.

وهكذا استمر هذا الأخطبوط الخبيث، واستطاع أن يؤثر على بعض المفكرين المنتسبين للإسلام، وبعض الشباب، مما أوجد خطين مقلدين للغرب – وإن كانا متعارضين ظاهراً – وهما: خط الاشتراكية الإسلامية، وخط الليبرالية الإسلامية، وهما: أخطر الخطوط، وأشدّها انحرافاً، بل وعمالة.

الأمر الذي عانت منه الأمة الأمرين، كما عانت منه الثورة الإسلامية – وخصوصاً بعد نجاحها – حتى استطاعت أن تكشف حقيقة عمالتهما معاً للدول الغربية إذ التحمّا إلى جانب قوى الاستكبار العالمي، لضرب الثورة الإسلامية، وعرقلة مسيرتها الظافرة.

ولا ننسى أن نشير – هنا – إلى تفصيلات هذه الحركة، من عملها على فصل الأمة عن تاريخها الإسلامي، واعتبار الفتح الإسلامي نوعاً من الاستعمار، وعلى ما أسمته بتطهير الفارسية من اللغة العربية، بل وحتى على تغيير الحروف الفارسية على غرار تغيير الحروف التركية، وغير ذلك مما لا يستوعبه صدر هذا البحث الموجز.

ولنتقل – بعد هذا – إلى مجال الفساد الأخلاقي لنجد الحملة – هنا – أكثر ضراوة وإمعاناً.

إذا شئنا أن نستوعب كل المساحة الثقافية – من خلال المنظور الإنساني الإسلامي – كان من المحتم القول بأنها – أي المساحة الثقافية – تمتد إلى حيث تمتد التركيبة الإنسانية نفسها، وهذا يعني شمولها للجوانب الإنسانية الثلاثة التالية:

١ – الجانب التصوري والعقائدي، بما يشمل كل المفاهيم التي يملكها

الإنسان عن الكون والحياة والإنسان، وبالشكل الذي يتناول السنن التاريخية والقوانين الحاكمة كلها.

٢ – الجانب الإحساسي العاطفي، بما يشمل الغرائز والميول الأصيلة والمعدلة تبعاً للتربية الخاصة، وتكوين المصاديق المتعالية، كتحويل حب الذات الضيقة إلى حب الذات المتسعة الخالدة، من خلال الإيمان بالآخرة.

٣ – الجانب السلوكي العملي، وهو بطبيعة الحال يسري لكل موقف يتخذه الإنسان، حتى فيما بينه وبين نفسه، كما أنه متأثر بالجانبين السابقين تمام التأثير، وخصوصاً بالجانب الثاني، بعد أن فسر المحللون النفسيون الإرادة الإنسانية بالشوق المؤكد، رغم أن الشوق المؤكد هو المرحلة الأخيرة التي تسبق تصميم الإنسان على العمل – كما نعتقد – فإن الإنسان يبقى يمتلك الحرية في أخرج الضغوط العاطفية.

الترابط بين المساحات الثلاث:

وإذا قبلنا الحقيقة الماضية كان علينا أن نؤمن بالكل الثقافي المترابط، وأن نعتبر أي انفصال بين الأجزاء عملية مؤقتة، وأي قول بالفصل الدائم بين المساحات مجازفة يكذبها الوجدان والنصوص الشريفة، كما أن هذا الإيمان والقبول يفتح أمامنا باباً تربوياً وإعلامياً واسعاً، ننفذ من خلاله إلى المقصود أولاً، ونكتشف أيضاً – عبره – التأمر الإعلامي على الوجود الثقافي ثانياً.

وإننا إذا تأملنا واقعنا الوجداني رأينا حقيقتين مهمتين:

الأولى: هي هذا الترابط المحكم بين أبعاد الكل الثقافي الإنساني بما يمكن أن يرجع كل الإنسان إلى المحور الواحد المسيطر وهو النفس الإنسانية، فهي التي تنتقف في الواقع، وإن كانت المسارب أو المظاهر متفاوتة.

الثانية: أنه ونتيجة لهذا الترابط وهذه الوحدة الوجدانية فإن أي تنافر بين جزئين منها يعد أمراً طارئاً على التركيبة الطبيعية الإنسانية سرعان ما تتغلب عليه

لتحقيق الانسجام الكامل. ومن هنا نستطيع أن نفسر الكثير من النصوص القرآنية من قبيل:

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ آلِيَهُ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾ الآية^(٣).

وغيرها من النصوص الشريفة.

وعلى ضوء هاتين الحقيقتين، علينا أن نعالج ثقافتنا على كل الأصعدة، ونلاحظ مدى النفوذ الغربي فيها.

العدو يستهدف كل الجوانب:

ويبدو أن العدو — في حملته الثقافية — استهدف الجوانب الثلاثة بشكل عرضي وفي آن واحد، إدراكاً منه لهذا الترابط، وتحقيقاً لمهمته الرئيسية، وهي قتل الشخصية الإسلامية في وجود الفرد والأمة، وبالتالي تحقيق الأرضية السهلة لعملية الاستغلال الكبرى.

فعلى الصعيد التصوري: عمل الإعلام الغريب (واسمحوا لي أن أسميه بالإعلام الاستكباري العالمي نظراً لطبيعته ودوافعه الحقيقية الكامنة في طغيان الحيوانية والمادية في وجوده) عمل هذا الإعلام على التغريب الثقافي عن العقيدة والتصورات الأصيلة مستغلاً فترات الجهل، والاتجاهات القشرية الخالية من روح الإسلام، والمركزة على جوانب جزئية عابرة، مكبرة إياها، وجاعلة هذه الجوانب هي محور الصراع وتضارب الآراء عاملة — بالتالي — على نسيان التصورات

(١) سورة الماعون: الآيتان ١ - ٢.

(٢) سورة الروم: الآية ١٠.

(٣) سورة فاطر: الآية ١٠.

الإسلامية التغييرية الكبرى، وترك الميدان الاجتماعي لكل المبادئ المدعية للعدالة والإصلاح، وهي في الواقع ضد ذلك.

ومن هنا رأينا اتجاه الكثير الكثير من جيلنا الشاب نحو المبادئ المادية التي احتلت زوراً موقع البطولة الثورية، والمطالبة بالقضاء على الظلم بعد أن أخلته هذه الآراء القشرية وأبعدت المسلمين عنه - لسبب أو لآخر - متغافلة أن الإسلام هو دين الصراع ضد التفرعن والفراعنة والطغاة، وهو دين الجهاد المتواصل ضد أي نمط من أنماط الظلم والاستبداد والاستغلال.

ثم إن العدو، وتأكيداً لعملية التغريب الآنفة، راح يزرع الشبهات تلو الشبهات في النفوس تجاه الإسلام عقيدة ونظاماً، وتجاه إمكان تطبيق الإسلام، وهو دين المجتمع القبلي - كما يدعون - فكيف يمكن تطبيقه في مجتمع القرن العشرين؟!

ولم تكن الشبهات عادية وإنما هي تشمل الحقول الفلسفية والمنطقية تماماً كما تشمل الجوانب العملية، وهذه الشبهات عندما تصب في روح الشباب الفارغ فإنها تعصف برؤيته ومفاهيمه، وإذا تم ذلك ضَمِنَ الاستكبار انحراف الإحساس بالعمل بلا ريب. وإذا تمهد السبيل للنفوذ الغريب جاء دور بث الفكر الإلحادي المسموم لتحقيق المرحلة النهائية من العملية، ليصوغ الإنسان المسلم مباشراً للماركسية بقيمها الواطئة أو الرأسمالية بجشعها ولؤمها، وعلى أي حال؛ يغدو عدواً للأمة وعميلاً للأجانب الأعداء.

وأما على الصعيد العاطفي: فإن خطته الخبيثة يمكن أن تتلخص بعمليتين: الأولى عملية إضعاف الروح الأخوية الإسلامية، روح إحساس المسلم أينما كان بألم المسلم الآخر، وإحلال الروح المحلية، والقطرية، والقومية، وحتى الوطنية الضيقة وغيرها. أما العملية الثانية فهي عملية توجيه العواطف والدوافع نحو المادية السلوكية، الأمر الذي يترك أثره على الجانبين العقائدي والعملية بكل قوة، فتتحول المادية العاطفية إلى مادية عقائدية.

وقد استغل الاستكبار الغربي لتحقيق هذا الهدف كل الوسائل وما زال يستخدمها حتى يومنا هذا في أرضنا الإسلامية ونذكر منها:

النماذج الخلقية المنحطة، والمجلات والصحف الخليعة، والإذاعة المسموعة والمرئية، والسينما والمسارح، ومحلات الدعارة وبيوتها، والملاهي والمراقص والحفلات الماجنة، ومعسكرات الشباب ومنظماته، و (البلاجات) والمسابع المشتركة والرياضة وتعاطي الخمر، والتشجيع على استهلاك وسائل التجميل، والتشجيع على ارتكاب الجريمة، ودفع المجتمع نحو المخدرات واستغلال الإبداعات والأعمال الفنية لهذا الغرض، ومن تلك الفنون المستغلة: الزخرفة والرسم والموسيقى، واستغلال التناجات الأدبية كالقصة والشعر، وتربية الشعب على تقليد الغرب الخليع في مختلف الشؤون كاللباس والسكن والسلوك، وفسح المجال للجمعيات والعناصر المدنسة من: الصهاينة والبهائية والماسونية، ورواد نوادي الروتاري والملحدين، ليساعدوا في إذكاء نار الفساد، ونشر أفلام الخلاعة (والفيديو)، وإشاعة عملية المراسلة غير النزيهة بين الجنسين، وتشجيع عمليات المقامرة في (الكازينوهات) العامة الكبيرة منها والصغيرة، وفي المسابقات الرياضية، وسباق الخيل من قبل المتفرجين وغير ذلك الكثير الكثير من الأساليب الرخيصة، ونؤكد هنا أن الكثير من هذه الوسائل الإعلامية اكتسبت ضعتها من أهدافها الوضيعة لا من طبيعتها كوسائل إعلامية مجردة.

وبالتالي فعلى الصعيد العملي: كان هدفه المرحلي هو إبعاد النظام الإسلامي عن توجيه الحياة الإنسانية، وإحلال النظم الغربية المادية محله، بشكل كلي، أو في غالب الأحوال، وهنا أيضاً تنوعت الأفكار التي مهد بها لهذه العملية، فشملت:

- فكرة فصل الدين عن السياسة، وقصر الحياة الدينية على الشؤون الشخصية والعبادية، وترك الشؤون الاجتماعية للفكر التنظيمي الغربي.
- وترويج الاتجاه الليبرالي المتحرر من التقيد بالتوجيهات الدينية.
- وتحييد العلمانية في الحكم بكل صراحة، أو بشيء من غطاء دستوري يذكر الإسلام كدين الدولة تمويهاً، في حين يحجر عليه أن يصوغ مجمل الحياة الاجتماعية إلا بما لا يتعارض مع المصالح الغربية والشخصية الضيقة.

وقد مهدت لهذه الفكرة أفكار أخرى مخادعة من قبيل: (فكرة تعقّد الحياة، ولزوم التطوير في كل مجالاتها، وعدم قدرة النظم الدينية على مواكبة هذا التطور، باعتبارها تؤمن بالمطلقات التشريعية، وهذه المطلقات لا تنسجم مع عملية التغيير المستمر، وكذلك فكرة التخويف من الحكومة الدينية، أو ما يسمونه بالاستبداد الديني، مذكّرين بما جرى في القرون الوسطى من الظلم الكنسي، وكيف وقفت الكنيسة إلى جانب الإقطاع المستبد، وأن هذا لا ينسجم مع الدولة الديمقراطية الحديثة)، وغير ذلك من الأفكار التي مهدت – كما قلنا – للعلمانية، فإذا بنا نجد الأرض الإسلامية تضجّ من وجود الحكم العلماني المغلف، دون أن يشعر أكثر الأفراد بمدى الجريمة التي ترتكب عبر ذلك.

والأنكى والأمر من ذلك، إن البعض من عملاء الغرب ووسائله الإعلامية المحلية العميلة راحت تدعو لإعادة النظر في الإسلام نفسه!!

فهنالك من يدعي أن الإسلام قد استنفذ أغراضه التاريخية.

وهناك من يرفع نداءه طارحاً فكرة (البروتستانتية الإسلامية).

وهناك من يطرح النظم الغربية أساساً يجب أن يحور الإسلام نفسه بحيث ينسجم معها، فتجد شيوع تعبيرات: (الديمقراطية الإسلامية، والاشتراكية الإسلامية... إلخ).

ولما لم يجد أذنًا صاغية راح البعض يطرح الأفكار التلقيفية التي تأخذ من هذا ضعفاً ومن ذاك ضعفاً وتقدمه على أساس أنه الإسلام المواقب لمسيرة التطور!! وهذا القسم الأخير هو أشد الأقسام خطورة على جيلنا الإسلامي الناشئ، (واذكر أننا عانينا في إيران من كل الأفكار الماضية كثيراً، إلا أن الاتجاه التلقيفي بشكله الغربي أو الشرقي كان يشكل عقبة كأداء في عملية أسلمة الحياة الاجتماعية أسلمة كاملة، الأمر الذي اضطرت الثورة الإسلامية معه إلى الضرب بيد من حديد بعد أن تأمر على كل المكاسب الإسلامية).

الفصل الثالث

خطوط المواجهة الإعلامية للغزو الثقافي

ونستطيع أن نميز في مجال مواجهة الغزو الثقافي الأنف على الصعيد الثقافي والإعلامي خطوطاً، أهمها خطان:

أولاً – الخط الإعلامي الثوري البناء: وقد امتاز هذا الخط بميزات منها:

(أ) وعيه للإسلام وعياً نافذاً، وإدراكه العميق الأصيل لنظريته الحياتية التغييرية الشاملة.

(ب) إدراكه لأبعاد الغزو الثقافي ومساربه ومظاهره.

(ج) تركيزه على محور المشكلة دون إهمال لجوانبها وفروعها وتفصيلاتها، وبالتالي دعوته للتغيير الثوري والإصلاحي في آن واحد.

(د) تقديمه الطروحات الإسلامية للجيل، وبعث حركة ثقافية جديدة.

(هـ) تحريك الحس الإسلامي الحماسي المطلوب وعدم الاكتفاء بالتنظير الفكري الجاف وهذا النوع هو الذي استطاع أن يقدم خدمات جليلة على صعيد المواجهة وينقذ الأمة من هذتها.

ثانياً – الخط الإعلامي السطحي: والذي تميز بما يلي:

(أ) بطرح الإسلام شعاراً براقاً، والتذكير بالأمجاد دونما عمل على تقديم الطروحات الحياتية.

(ب) بتحبيذ الإصلاحات الجانبية والغض عن الكثير منها خوفاً من الانفلات.

(ج) باتباع أسلوب المساومة السياسية مع الحكام المرتبطين، مهما بلغ بهم الارتباط، والاكتفاء منهم ببعض الظواهر الكاذبة.

ولهذا نجد جماهيرنا المسلمة تمج هذا الأسلوب، وترفض التعامل معه كإعلام إسلامي، مما أفقده تأثيره، لا على صعيد المواجهة فحسب، بل وحتى على صعيد التأثير الجزئي، فلم يعد يحقق حتى ما يقصده العملاء – من خلال تسخيره – من تخدير وتغطية، وأمامنا تجارب حديثة جداً، حاول فيها أمثال هؤلاء التمويه وتشويه الإرادة الإسلامية من خلال إعلام واسع الأبعاد وعلى الصعيد العالمي، فكذبتها الجماهير المسلمة وأسقطتها من على عروشها العاجية.

الإعلام القرآني جوهر النهوض:

وإذا أردنا أن نهض في مجال الإعلام المواجه والمربي في آن واحد، لم يكن لنا من سبيل إلاً سبيل القرآن والدعوة القرآنية، إننا مسلمون قبل كل شيء، لنا تصوراتنا ونماذجنا الخاصة بنا، والمستقاة من خالق الكون العليم بما يصلحه، والقرآن هو نموذجنا الأسمى في شتى المجالات، فهو: (الكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع) وهو: (ناطق لا يعيى لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعز لا تهزم أعوانه) وهو: (كتاب الله؛ تبصرون به وتنطقون به، وتسمعون به)؛ فعلينا أن نعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي، فهو: (البحر الذي لا يدرك قعره)^(١).

إنه كتاب التوعية، والتوعية في الإسلام تسبق أية خطوة أخرى.

الإسلام دين التوعية والتربية.. وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرر لزوم القيام بتوعية أي إنسان يراد له أن ينضم إلى معسكره، وأي مجتمع يراد للإسلام أن ينفذ إلى عمقه... إنه يعرض جوهرته الثمينة، لأنه يعلم أن قيمتها ستتكشف

(١) نصوص متفرقة عن الإمام علي (ع) – تلميذ القرآن وتلميذ الرسول المبعوث بالقرآن – في: (نهج البلاغة).

بكل وضوح للجميع.. ولذا فهو يرفض أي تقليد في العقيدة، ويدعو للبحث والبرهنة: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾.

وهو يرفض أي عملية إكراه عقائدي ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾.

كما يريد من الأمة أن تكون من أولي الأيدي والأبصار، قوية في بصرها وبصيرتها...، وفي مجال التعامل مع الآخرين يأمر بالدعوة البيّنة الواضحة قبل كل شيء. يقول القرآن الكريم:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وفي هذا يقول آية الله السيد الصدر في كتابه (اقتصادنا):

(والأمر الآخر: أن يبدأ الدعوة الإسلاميون - قبل كل شيء - بالإعلان عن رسالتهم الإسلامية، وإيضاح معالمها الرئيسية، معززة بالحجج والبراهين، حتى إذا تمت للإسلام حجته، ولم يبق للآخرين مجال للنقاش المنطقي السليم، وظلوا بالرغم من ذلك مصرين على رفض النور...، عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الإسلامية - بصفتها دعوة عالمية تتبنى المصالح الحقيقية للإنسانية - إلا أن تشرق طريقها بالقوى المادية، بالجهاد المسلح) [٢٧٥/١].

وقد جاء في كتاب (الكافي) للمرحوم الكليني عن الصادق (ع) قوله:

(قال أمير المؤمنين (ع): بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقال: «يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله عز وجل على

يديك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي».)
[وسائل الشيعة: ٣٠/١١].

إنه أسلوب القرآن قبل كل شيء، الذي علمه الله لموسى وهارون (ع):
﴿ أَذْهَبًا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ لَكَ بِتَذْكَرٍ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

إنها الدعوة - حتى عند مواجهة الطواغيت - عسى أن يهتدوا إلى الحق.

وها نحن نجد الرسول العظيم يكرر عبارة: (أدعوك بدعاية الإسلام) في رسالته إلى كسرى أنوشيروان، وقيصر إمبراطور الروم، تطبيقاً لهذا التعليم الإسلامي السامي.

وهكذا راح الدعاة يثيرون الدعوة إلى الأقطار. وقد ذكرت أسماء بعض الدعاة الأوائل الذين أرسلوا لتحقيق واجب الدعوة إلى الله، ومنهم:

عبد الله بن حذافة السهمي - مبعوث الرسول إلى إيران.

حاطب بن أبي بلتعة - مبعوث الرسول إلى مصر لدعوة المقوقس.

دحية الكلبي - مبعوث الرسول إلى روما.

عمرو بن أمية - مبعوث الرسول إلى اليمامة.

عمرو بن العاص - مبعوث الرسول إلى عمان.

حرملة بن زيد - مع وفد معه إلى مدينة (أيلة) الواقعة على ساحل البحر

الأحمر.

المهاجر بن أبي أمية - مبعوث الرسول إلى ملوك حمير.

خالد بن الوليد - مبعوث الرسول إلى همدان (مدينة قرب بحر عمان).

علي بن أبي طالب (ع) - مبعوثه الثاني إلى هذه المدينة.

حذيفة بن اليمان - مبعوث الإسلام إلى الهند.

عبد الله بن عوسجة - مبعوث الرسول إلى قبيلة حارثة بن قريظ.

جرير بن عبد الله البجلي - مبعوث الرسول إلى قبائل ذي الكلاع

الحميري.

وغيرهم ممن حمل مهمة الدعوة إلى الشعوب.

وإذا أردنا أن نجد التطبيقات السياسية لهذا الأصل في التعامل الدولي، أمكننا أن نلاحظها في بعثات الإيضاح المرسلة من هنا إلى هناك، وفي أساليب توضيح الحقيقية عبر الوسائل السمعية والبصرية، وفي مذكرات الإيضاح الموجهة، والمذكرات التفسيرية المقدمة إلى المؤتمرات الدولية.

ومما تتميز به العلاقات الدولية الإسلامية: أنها تنظر لعملية التوعية والإيضاح - كرسالة الهية ومبدأ ضروري - يجب الالتزام به قبل القيام بأية خطوة عسكرية أو سياسية أو غيرها تجاه الدول الأخرى.

أما ما نجده من السياسة الماكرة القائمة - بالفعل - فهو اعتماد هذه السياسة التوضيحية - باعتبارها مناورة سياسية - فإذا لزم الأمر، قلبت الحقائق وتغيرت الموازين.

الهدف الرئيس والأهداف المرحلية للإعلام:

الهدف الرئيس - بكل اختصار - هو تعبيد الأرض لله تعالى، وإيجاد المجتمع المؤمن العابد المحقق لخلافة الله في الأرض، وإذا وجد مثل هذا المجتمع، فإنه سيكون الأمة الوسط التي تطمح الأمم للوصول إلى مستواها، والأمة الشاهدة على البشرية جمعاء، باعتبار ما لها من علو حضاري، نفسي ومادي، وحينئذ سيكون الدين كله لله، ويتحقق هدف الخلق الإنسانية: ﴿وَمَا خَلَقْتُمِّنَّ ذَكَرًا وَلَا إِنْسًا إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويجب أن تصب كل التشريعات والسلوكيات والأقوال والأفعال وتسمّر كل الأحداق بهذا الهدف الكبير الكبير، وتسترخص الغوالي لتحقيقه، إنه عظيم ترخص في قبالة دماء الأنبياء والطاهرين، وجهود الصالحين عبر التاريخ.

إلاً أن هناك أهدافاً مرحلية (تنتهي إلى ذلك الهدف الكبير) يعمل الإعلام القرآني على الوصول إليها بشتى الوسائل الممكنة فما هي؟

نستطيع أن نذكر أهم هذه الأهداف المرحلية في النقاط التالية :

الأولى: ترشيد إنسانية الإنسان: ذلك أن للإنسانية خصائص ومعالم إذا رشدت ونميت ضمنت للإنسان مسيرة متوازنة، أما إذا تلاشت من على سطح الوجود الإنساني، فحينئذ يكون الفسق عن السبيل القويم، وحينئذ تكون المسيرة المكبة على وجهها، وعندئذ يتوقع الإجرام كله، وهذه المعالم باختصار هي: (التعقل السليم، والإرادة الحرة، والخلقية الفطرية، والدوافع المنضبطة)، وإذا لم تكن هنا بصدد عرض البرنامج الإسلامي، الواسع الأبعاد لترشيد هذه الجوانب فإن من الطبيعي الإشارة إلى بعض مكوناته حينما نتحدث عن الأساليب الإعلامية.

الثانية: التوعية بالإسلام عقيدة ومفاهيم وتشريعاً، باعتباره السبيل الوحيد للوصول إلى ذلك الهدف الكبير، وكلما تعمق وعي الأفراد لهذه الرسالة، وطروحاتها وخطتها وحلولها للمشاكل الإنسانية، واتضح معالم الفرق بينها وبين المبادئ الوضعية وبانت خصائصها الرئيسية، استطاع المجتمع المسلم أن يخطو على طريق الهدف الكبير خطى أسرع وأثبت في نفس الوقت.

الثالثة: التوعية بكل ما يحيط بالأمة من أحداث وظواهر ومؤامرات وتفاعلات لها كلها أثرها على تعيين المواقف المبدئية والمتحركة.

الرابعة: إيجاد الأرضية الصالحة لتطبيق الإسلام، في كل الأرض الإسلامية، وبالتالي في شتى أنحاء العالم، ويشمل هذا الجانب أموراً نتحدث عنها في الأساليب التفصيلية.

الخامسة: تحقيق معالم الفرد المسلم والأمة المسلمة.

العدة المطلوبة والأسلوب الأمثل:

أما العدة المطلوبة للإعلام الإسلامي العامل على النهوض والمقاومة فيمكن تلخيصها فيما يلي:

الأول: القدرة العلمية والثقافية إلى الحد المستوعب لكل جوانب الإسلام وأهدافه العامة. فليس من المعقول أن يطلب من الإعلام تحقيق الأهداف السالفة دون أن يكون مزوداً بمثل هذه القدرة، ويمكننا أن نرد الكثير من نقاط الضعف الإعلامية إلى افتقادها، وتواجد السطحية في الفهم.

الثاني: الاستيعاب اللازم للفهم الاجتماعي العام، ومعرفة التحرك العالمي السياسي والاجتماعي وأساليبه، ومحاوره، وتوفر الخبراء الهادفين والمحققين بكل جدارة.

الثالث: معرفة أساليب العرض، أو ما يمكن أن نطلق عليه بفن الإعلام المناسب، وهو بالضبط ما كان قداماؤنا يطلقون عليه اسم: (معرفة حال المخاطب)، فيجب أن نعرف من نخاطب، وكيف نخاطب، وأنى يتم ذلك؟ وهذا هو مضمون التحلي بالحكمة في مجال الدعوة إلى الله.

الرابع: الإيمان العميق الواعي بالإسلام وأهدافه الكبرى، وتأسل ذلك في نفوس الإعلاميين إلى الحد الذي يحملهم على التضحية بكل غال ورخيص في سبيل الهدف السامي.

الخامس: التخلص من كل تبعية، أو ضيق أفق، أو مصلحة شخصية، والتجرد من كل ذلك لصالح الحقيقة.

والواقع أننا نعتقد أنه يكمن في هذه النقطة أحد أهم شروط النهضة الإعلامية، وإن إعلامنا الإسلامي اليوم مبتلى في الكثير الكثير من مقولاته بالتبعية للحكومات المتسلطة على شعوبها بالحديد والنار، فهو لا يعدو أن يكون دمية تتحرك بإرادة الحاكم القزم، وباتجاه تحقيق مصالحه.

وإلاً فبماذا نسمي إعلاماً ينتسب للإسلام وهو يسكت عن كل أنماط الخيانة الأخلاقية، أو الخيانة الاقتصادية، أو الانحراف السياسي والعمالة المفضوحة، أو الاستسلام للعدو الصهيوني الغاشم، أو يردد نفس تهم الاستكبار العالمي ضد أبطال المقاومة الإسلامية، أو يدعو للتستر على الجرائم؟! وربما بلغ من النذالة

إلى الحد الذي يعلن فيه أن فكرة الحكم الإسلامي فكرة لا إسلامية، لا لشيء،
 إلا ليرضي الحكم المسلط على رقاب الشعب، وإلا ليبارك قبضة الجلاد التي
 تشدد الخناق على رقبة الجيل المسلم المتوثب. أو قد يبلغ بهم الأمر إلى
 مهاجمة الأنبياء كداود وسليمان (عليهما السلام) لأغراض قومية وما إلى ذلك.
 أو ربما اتجهوا إلى التأكيد على اللغات غير العربية مع إهمال العربية نفسها
 أو المحلية العامة تنفيذاً للمآرب الاستعمارية.

السادس: ملاحظة الأرضية الإيمانية المتوفرة في أوساط الأمة الإسلامية،
 فإنها خير مساعد وعدة على إنطلاق الإعلامي في مسبحة المناسب، وتجلى لنا
 أهمية هذا العنصر حينما ندرك أنه بنفسه شكل سد المقاومة الرئيس أمام الهجوم
 الإعلامي الغريب حيث تخلى عن الساحة حتى أولياؤها الفكريون والسياسيون.

السابع: التمتع بالخصائص القرآنية الإعلامية: وهذه الخصائص واسعة
 الأبعاد قد لا يمكن الإحاطة بها إلا لدراسة تحقيقية عميقة، ومن هنا فإننا نكتفي
 بالإشارة للبعض منها بما يتناسب وحجم هذا الحديث، وما نذكره منها يتلخص
 فيما يلي:

أولاً - استحضار النظرة الغيبية إلى جانب الحسابات المادية، وذلك في
 كل تحليل أو توقع مستقبلي والابتعاد عن النظرة المادية الحسابية الجافة فإن
 التصورات القرآنية المعطاة تؤكد أن المسيرة المنسجمة مع العدل تنسجم معها
 القوى الطبيعية القائمة في خلقها على الأساس نفسه، في حين لا يتوفر الانسجام
 المطلوب مع الانحراف، وهو ما يلخصه المقطعان القرآنيان الكريمان:

﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾^(١)

﴿ نَفَلْتُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدَدُ ذِكْرَ بَأْمَوَالٍ
 وَيَبْنَ وَيَجْمَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْمَل لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾^(٢)

(١) سورة الفجر: الآيتان ١٢ - ١٣.

(٢) سورة نوح: الآيات ١٠ - ١٢.

وكذلك كل النظرات الإسلامية في التاريخ والحياة والإنسان، ومن ذلك ما قلناه من الترابط بين أجزاء التركيبة الإنسانية.

ثانياً – الموضوعية: والانصاف بروح التبعية للحقيقة – أياً كانت – وحتى لو خالفت مصلحة شخصية، أو استدعت التضحية الغالية. ويبالغ القرآن في تحقيق الروح الموضوعية، وعدم النظر إلى الواقع الموضوعي من خلال رؤية مسبقة إلى الحد الذي يدعو فيه الخصم إلى افتراض نقطة الصفر في الحوار، وعدم الإيمان بشيء والانطلاق منها إلى الحقيقة الموضوعية فيقول مخاطباً الكفار: ﴿... وَإِنَّا أَوْ يَتَاكُمْ لَعَلَّكُمْ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

ثالثاً – الهدفية في كل خطوة: ذلك أن الهدفية لا تتنافى مطلقاً مع الموضوعية في التصور الإسلامي، لأن المؤمن مطمئن تمام الاطمئنان أن الحقيقة الموضوعية – مهما كانت – تشكل آية من آيات الله تعالى وهدى إليه سبحانه.

وإذا انعكست الهدفية على حياة الداعية العامل، صرف النظر عن كل أنماط اللهو السخيف، والتضييع الوقتي فيما لا طائل تحته، وبالتالي لا تجد في نماذجنا الإعلامية ما يهدر هذا الوقت الثمين.

إن الهدفية القرآنية نلاحظها في كل قصة، وفي كل مثل، وفي كل عبارة، ففي كل موضوع عبرة، ومع كل حديث اعتبار، وكل شيء يعبر عن مادة للدراسة وخدمة الهدف من خلالها: ﴿لَقَدْ كَاتِبْنَا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ (٢).

ويكفي أن نتابع آية قصة قرآنية لنكتشف الهدفية التي تتجلى أروع تجل.

رابعاً – التنسيق والانسجام بين كل الخطوات والجوانب، وذلك انعكاساً للتنسيق القرآني فإذا الصورة المتشعبة تسودها روح واحدة، وهذه الخصيصة نتيجة طبيعية للخصائص السابقة وخصوصاً الهدفية بعد افتراض وحدة الهدف

(١) سورة سبأ: الآية ٢٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ١١١.

وشموله لكل جوانب التصور وأي اختلال لها يعني الانقلاب على الهدف:
﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١).

في حين تتضاعف السرعة إلى الهدف عند التناسق: ﴿ ... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ... ﴾ (٢).

وإذا لاحظنا ضرورة هذه الخصيصة للتأثير المطلوب أدركنا سر ضياع الكثير
من الأفكار الصحيحة المطروحة في إعلامنا اليوم بعد أن كانت تكذبها الأعمال
والأطر المنافقة والمساومة، والأقوال الأخرى من صاحب الفكرة نفسه.

خامساً - الواقعية والتفاعل المستمر مع الأحداث الاجتماعية، وعدم
الغرق في تصورات طوبائية، فإن من خصائص القرآن الكريم أنه رغم كونه
دستوراً عاماً لكل المسيرة البشرية، فهو ينسجم مع ما يبدو من ظواهر، ويعالجها
على ضوء تلك التصورات العامة الأصيلة: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا
وَتَسْتَكْبِرُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَخَاوِكُمْ ... ﴾ (٣).

﴿ وَإِذْ يَبْدَأُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَزَّ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ
لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقَطَّ دَائِرَ الْكٰفِرِينَ ﴾ (٤).

وينبغي هنا أن نذكر بأننا نقصد بالواقعية هنا: ملاحظة الواقع والعمل على
تطويره إلى المفروض، لا ما يبدو أحياناً من تفسيرات تتجه بالواقعية إلى عملية
الإذعان للواقع، والتلون وفق متطلباته إذعاناً واستسلاماً له.

والواقعية تتطلب أن تطرح الأساليب البديلة الصحيحة عند العمل لإصلاح
ظاهرة منحرفة، وذلك نظير ما نلاحظه في الآية الكريمة على لسان لوط (ع):
﴿ ... هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ... ﴾ (٥).

(١) سورة الصف: الآية ٣.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٣) سورة المجادلة: الآية ١.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٧.

(٥) سورة هود: الآية ٧٨.

وما نجده في تعبير الإمام علي - عليه السلام - حين يعمل على محو التعصب القبلي الممقوت، يطرح التعصب لمكارم الخلال حين يقول:

(وأما الأغنياء من مترفة الأمم، فتعصبوا لآثار مواقع النعم فقالوا: ﴿تَحَنُّنٌ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا تَحَنُّنٌ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب، ويعاسيب القبائل...) [نهج البلاغة: ص ٢٩٥].

سادساً - المنطقية في العرض والابتعاد عن السطحية: إن القرآن يربي المسلم على التأمل والبرهنة والتعقل واستقراء الأدلة القوية ومن ثم إصدار الحكم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١١﴾^(١).

أما الاتهامات الواهية، أو حتى التوقعات التي تمتلك دليلاً من الواقع، وطرح الآراء ونسبتها إلى الإسلام فهو الانحراف الكبير: ﴿... قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا عَلَى اللَّهِ فَتَرْجِعُوا﴾ ﴿٥٩﴾^(٢).

ومن هنا يتخلص الإعلام الإسلامي من ركाम المقالات والتحليلات الواهية، التي تترك أثرها السلبي على الأفكار، وتلقي بتبعاتها على كواهل هؤلاء الكتاب والمحللين، ولا أستطيع هنا تحديد المساحة التي يجب أن تحذف من الإعلام المتداول في مناطقنا الإسلامية - حين تطبيق هذا الشرط - إلا أنني متأكد من لزوم حذف المساحة الكبيرة مما ينشر بلا ريب.

سابعاً - : التفاعل الوجداني الحاراري العاطفي مع الهدف وحمل هم الرسالة للعمل على زرع الحماس الإسلامي للقضية الإسلامية من خلال ذلك.

إن كلام الداعية يجب أن يكشف للسامعين عن تألمه لقضيته وحماسه لأهدافه، وخشوعه أمام ربه وكلماته العليا، وتفاعله معها، وهو أمر يريه القرآن

(١) سورة البقرة: الآية ١١١.

(٢) سورة يونس: الآية ٥٩.

في نفوس أتباعه: ﴿... كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ (١).

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِيقُوا﴾ (٢).

ثامناً – الأخلاقية الإعلامية، ونعني بها الالتزام الكامل بالأخلاق الإسلامية في المجال الإعلامي، فلا يُلْقَى القول على عواهنه، ولا تشاع الفاحشة، ولا يتهم المؤمن، ولا يرد على القضاء، ولا تنمى روح التحاسد والتباغض والتحاقد، ولا تستخدم الألفاظ التي تمجها الأخلاقية الإسلامية. وإنما يعمل الإعلام الإسلامي على توفير البيئة الصالحة التي تتفتح فيها الفطرة عن طاقاتها المبدعة، وبالتالي: تسير بالإنسان نحو أهدافه الأصيلة.

يقول القرآن الكريم واصفاً المؤمنين: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (١١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (١٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (١٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزُقِنَا وَذَرِّبْنَا فِرَّةَ أَعْيُنِ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (١٤).

(١) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٢) سورة الحديد: الآية ١٦.

(٣) سورة الفرقان: الآيات ٦٣ – ٧٤.

تاسعاً - تنوع الأساليب الإعلامية: وهو - في الواقع - مقتضى تطبيق مبدأي، الحكمة، والموعظة الحسنة.

والحديث عن تنوع الأساليب القرآنية بالذات حديث واسع، فالقرآن بأساليبه الرائعة استطاع أن يصوغ أمة هي في طليعة البشر من شراذم متخلفة، كانت تتعثر خلف المسيرة البشرية...، ويكفي هنا أن نشير - مثلاً - إلى روعة الاستفادة من أسلوب الجمل المعترضة أو العبارات المعترضة في الحديث لتحقيق الهدف المطلوب، وتبدو لنا هذه الروعة إذا تأملنا كلمة «سبحانه» في الآية القرآنية الشريفة: ﴿وَيَجْمَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(١).

والحديث هنا كما قلنا واسع الأبعاد.

عاشراً - العالمية في الاهتمام: وذلك انطلاقاً من عالمية الإسلام نفسه، وسعيه لحل المشكلات الإنسانية جمعاء، ومن هنا فإن أي دراسة أو اهتمام محلي يجب أن يتم في هذا الإطار العالمي العام، وعلى هذا الضوء يجب أن يهتم الإعلام الإسلامي بقضايا المظلّمين والمحرومين والمستضعفين، ويتفاعل معها بكل حرارة، في حين يقف أمام كل حركة استكبارية يقوم بها الطغاة المجرمون.

حادي عشر - رصد التحركات التأميرية للشياطين على وجود الأمة الإسلامية، والعمل على توعية الأمة بها بشكل دائم. إنها إذن المرابطة الدائمة في هذا المجال، والمرابطة: عمل جهادي يندب القرآن الأمة إليه، وإنه الحذر الدائم: ﴿... إِنَّهُ يَرْبِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْتَوُونَ﴾^(٢).

وهي مهمة جسيمة يجب أن ينهض بها الإعلام الإسلامي.

ثاني عشر - التأكيد على النقاط المشتركة الجامعة، ومن ثم الاتجاه لحل

(١) سورة النحل: الآية ٥٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

الخلافات في النقاط المختلف عليها، وهذا أحد أساليب الحكمة في الدعوة.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(١).

وأخيراً؛ فإن ما أشرنا إليه من خصائص لا يستوعب حتى الجزء الأكبر من الخصائص الإعلامية للمعجزة الإسلامية الإعلامية (القرآن الكريم) وإنما ذكرنا ما يفتح الأبواب أمام دراسة موسعة في هذا المجال.

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

الفصل الرابع التشكيك في أهم مصدرين للتصور والأحكام الإسلامية

والمقصود بهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فهما في الواقع مصدرا الشريعة والمنبعان الرئيسان لكل التصورات والمفاهيم والأحكام الإسلامية. وإن الإسلام ليفتخر بهذه الميزة وهي أنه وضع لكل الأجيال إلى يوم القيامة هذين المنبعين الأصليين الخالدين.

والإنسان الطبيعي يستطيع أن يدرك بأقل تأمل فيهما هذه الصفة (صفة المنبعية) التامة فلا يحتاج للاستدلال بهما إلى دليل للحجية ولا للعمل بظواهرهما إلى مستند برهاني كبير وإنما هو ينطلق من المسلمات العرفية لدى المسلمين بل لدى العقلاء جميعاً.

إلا أن هناك أمرين أوجدا بعض العقبات في الاستدلال بهذين المنبعين الكريمين الأمر الذي قد يترك أكبر الآثار السلبية ويخلق الفراغ الفكري الهائل الذي ينفذ منه الفكر الغريب المعادي.

وسوف نبحث هذه العقبات في مرحلتين:

القرآن الكريم والشبه المثارة حول الاستدلال به:

والقرآن الكريم هو خصوص ما بين الدفتين دونما زيادة أو نقيصة ولقد أحصيت آياته فبلغت (سنة آلاف وثلاثمائة واثنين وأربعين آية)^(١).

(١) المدخل إلى أصول الفقه: ص ٢٠.

«والحديث حول حجيته موقوف على تمام مقدمتين أولاهما ثبوت تواتره الموجب للقطع بصدوره، وهذا ما لا يشك فيه مسلم امتحن الله قلبه للايمان، والثانية ثبوت نسبه لله عز وجل وعقيدة المسلمين قائمة على ذلك وحسبهم حجة ثبوت إعجازه بأسلوبه ومضامينه وتحديه لبلغاء عصره ونكولهم عن مجاراته وأخباره بالمغيبات التي ثبت بعد ذلك صدقها ومطابقتها لما أخبر به كما ورد في سورة الروم وغيرها وارتفاعه عن مستوى عصره بدقة تشريعاته إلى ما هناك مما يوجب القطع بسموه عن قابليات البشر مهما كان لهم من الشأن»

الحكمة في وجود المتشابه في القرآن الكريم :

يصرح القرآن الكريم في الآية السابعة من سورة آل عمران بوجود آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات فيقول تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴾^(١).

وقد اختلف المفسرون في المراد من المحكم والمتشابه وترددت نظرياتهم بين كون التشابه قائماً على أساس علاقة اللفظ بالمعنى ومدى دلالته وظهوره فيه وكونه أي التشابه في مجال تطبيق المعنى المفهوم على مصاديقه وتجسيده الخارجية . فالمتشابه: هو ما حصل تردد في دلالته على المعنى المراد — على رأي — أو ما حصل معه التردد في أفراد المعنى الذي يدل عليه؛ والمحكم ما يقابله .

ولسنا نريد هنا الدخول في مجال عرض الاتجاهات الرئيسة في هذا المجال وترجيح أحدها الآخر .

وإنما نقصد أن نعرض إلى مسوغات احتواء القرآن الكريم على آيات

(١) سورة آل عمران: الآية ٧ .

والفاظ متشابهة يحصل التردد في فهم تطبيقاتها وهل يتنافى ذلك مع كونه كتاب الهداية العامة للبشرية؟

وسنحاول فيما يلي التعرض إلى ما قيل في هذا المجال وتوضيحه أولاً ثم نحاول التعقيب على ما ذكر إما بالرد أو بالتكميل.

الآراء في هذا المجال:

نستطيع أن نحصر أهم ما قيل في توضيح الحكمة من مجيء كل الآيات المتشابهة أو بعضها وذلك في نقاط كما يلي:

١ - الامتحان والتربية على الاستسلام والخضوع:

فقد ذكر الشيخ محمد عبده: (إن الله سبحانه أنزل المتشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به فإنه لو كان كل ما ورد في الكتاب واضحاً لا شبهة فيه عند أحد من الأذكىء ولا من البلداء لما كان في الإيمان به شيء من معنى الخضوع لما أنزل الله تعالى والتسليم لما جاءت به رسله)^(١).

ويؤكد هذا بالالتفات إلى ما قالته الآية: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ في حين ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾^(٢).

وقد أكد هذا الرأي صاحب (مناهل العرفان) فقال في مجال تعداد حكم بعض أنواع المتشابه: (ثانيتهاما الابتلاء والاختبار أيؤمن البشر بالغيب ثقة بخبر الصادق أم لا؟ فالذين اهتدوا يقولون آمنا وإن لم يعرفوا على التعيين والذين في قلوبهم زيغ يكفرون به وهو الحق من ربهم، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة والخروج من الدين جملة)^(٣).

ونقل السيوطي عن بعضهم أنه ذكر فوائد للمتشابه الذي استأثر الله بعلمه

(١) تفسير المنار: ٣/ ١٧٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٣) مناهل العرفان: ٢/ ١٧٨.

ومنها: (ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم...) (١).

ثم قال: (ورابعها إقامة دليل على عجز الإنسان وجهالته مهما عظم استعداده وغزر علمه، وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة، وأنه وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً وأن الخلق جميعاً لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهناك يخضع العبد ويخضع ويطأ من كبريائه ويخضع) (٢).

ومما لا ريب فيه أن الامتحان والابتلاء يشكل نوعاً أساساً من أنواع تربية الإنسان المسلم على أن يتحلى بالصفات التي يريد الله أن تتقوم شخصيته بها وأهم هذه الصفات بل الملكات المتأصلة صفة التعبد والإستسلام لله تعالى في كل شيء يثبت أنه منه تعالى عرف الحكمة فيه أم لم يعرف، وقد وضع الإسلام لغرس هذه الملكة في أعماق المسلم برنامجاً واسعاً وأساليب مختلفة يمكن أن يذكر منها ما نحن بصده، كما يمكن أن يذكر منها أسلوب عرض قصص المستسلمين الأطهار (كإبراهيم وإسماعيل) وكذلك القصص التي تحكي الالهية الواسعة التي هي فوق ما يتصوره الإنسان الحبيس في سجن ضعفه وإمكانه حتى لو كان ذلك الإنسان موسى (ع).

ومنها نظام العبادات... إلى غير ذلك مما ليس هنا محل ذكره.

وعليه فيقف الممتحن أمام هذه الآيات المتشابهة موقفين تبعاً لمسبقاته وتصوراته واستسلامه فإما الاغترار واتباع الرأي ابتغاء الفتنة وإما الاستسلام لله تعالى وارجاع الأمر إليه.

٢ - الدفع نحو التعمق والتوسع الفكري:

وقد ذكر عبده أيضاً أن وجود المتشابه (كان حافزاً للعقل المؤمن إلى النظر كي لا يضعف فيموت فإن السهل الجلي جداً لا عمل للعقل فيه، والعقل أعز القوى الإنسانية التي يجب تربيتها، والدين أعز شيء على الإنسان فإذا لم يجد

(١) نفس المصدر: ص ١٩٣.

(٢) نفس المصدر: ص ١٧٩.

العقل مجالاً للبحث في الدين يموت عامل العقل فيه، وإذا مات فيه لا يكون حياً بغيره^(١).

وذكر العلامة الطبرسي ذلك باختصار حيث قال: (فإن قيل لم انزل الله تعالى القرآن المتشابه وهلا جعله كله محكماً؟ فالجواب: أنه لو جعل جميعه محكماً لا تكل الناس كلهم على الخبر واستغنوا عن النظر...)^(٢).

كما أن الفخر الرازي ذكر ما يقرب من هذا المعنى حيث قال في هذا الصدد: (باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه، يضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة مثل اللغة والنحو وأصول الفقه مما يعينه على النظر والاستدلال) ثم يقول: (باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه يضطر الناظر فيه إلى الاستعانة بالأدلة العقلية فيتخلص من ظلمة التقليد، وفي ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه، ولو كان كله محكماً لما احتاج إلى الدلائل العقلية، ولظل العقل مهملًا...) وأخذ هذا المعنى الشيخ صبحي الصالح فقال: (لعل اشتمال القرآن على المتشابه وعدم اقتصاره على المحكم وحده، أن يكون حافزاً للمؤمنين على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تقودهم على فهم الآيات المتشابهات فيتخلصون من ظلمة التقليد، ويقرؤون القرآن متدبرين خاشعين)^(٣).

ولربما عبر عن هذا المعنى بلسان آخر وهو حصول الثواب بإعمال النظر في القرآن الكريم وهو ما قاله المرحوم الطبرسي من أنه: (لولا وجود المتشابه لكان لا يحصل لهم ثواب النظر واتعاب الخواطر في استنباط المعاني)^(٤).

وقال الفخر الرازي أيضاً: (متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب).

(١) رشيد رضا، تفسير المنار: ٣/ ١٧٠.

(٢) مجمع البيان: ٢/ ٤١٠.

(٣) مباحث في علوم القرآن: ص ٢٨٦.

(٤) مجمع البيان: ٢/ ٤١٠.

كما أنه قد يعبر عنه بلسان آخر هو: (لسان ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات العلمية).

وهذا ما جاء في المجمع حيث يقول: (ولكان لا يتبين فضل العلماء على غيرهم)^(١).

ونقل السيوطي عن بعضهم قوله: (ومنها ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات، إذ لو كان كله محكماً لا يحتاج إلى تأويل ونظر لا ستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره)^(٢).

ويرى السيد الحكيم: (أن نوعاً من المتشابه وهو الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم إنما ورد في القرآن الكريم بهذا الأسلوب كبعض المسائل الكونية وغيرها لينطلق في تدبر حقيقتها واكتشاف ظلماتها المجهولة)^(٣).

هذا ومما لا ريب فيه أن القرآن الكريم أوجد بنزوله مرحلة فكرية جديدة ونقل المجتمع من حضيض التفكير الجامد الضيق إلى سمو فكري متفتح ونضح بلغ في مراحل التالية إلى مستوى فلسفي لا تصله أية فلسفة ومستوى علمي جوال قاد العالم خلال قرون ومستويات فكرية تشريعية وأخلاقية ما رأى الكون لها مثيلاً.

يقول الدكتور محمد يوسف موسى: (إن القرآن كان من أهم العوامل التي دفعت المسلمين إلى التفلسف ثم بيان ما اشتمل عليه من فلسفة، سواء ما يتعلق منها بالإنسان وما يتعلق بالله وصلته جل وعلا بالإنسان، ومن الحق أن القرآن قبل كل شيء هو كتاب العقيدة الحقة، والشريعة الصالحة لكل زمان ومكان

(١) مجمع البيان: ٤١٠/٢.

(٢) المناهل: ١٩٣/٢.

(٣) مجلة رسالة الإسلام، العدد ٦٠٥، السنة الثانية: ص ٣٢.

والأخلاق التي لا يقوم مجتمع سليم إلا بها^(١).

ويقول السيد الأستاذ الخوئي: (لأنه الكتاب الذي يضمن إصلاح البشر ويتكفل بسعادتهم وإسعادهم، والقرآن مرجع اللغوي ودليل النحوي، وحجة الفقيه، ومثل الأديب، وضالة الحكيم، ومرشد الواعظ، وهدف الخلقي، وعنه تؤخذ علوم الاجتماع والسياسة المدنية وعليه تؤسس علوم الدين، ومن ارشاداته تكتشف أسرار الكون ونواميس التكوين...)^(٢).

ويقول الأستاذ المطهري: (إن الفلاسفة المسلمين استطاعوا بإلهام من القرآن الكريم وكلمات الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار (ع) أن يوجدوا مدرسة فلسفية تعتمد الاستدلال المنطقي المتقن)^(٣).

ولعل من أهم عوامل الدفع نحو الفلسفة بالخصوص والتوسع الفكري على العموم وجود هذه الآيات المتشابهة على اختلاف أصعدتها الفلسفية والعلمية والاجتماعية والتي تدفع المسلم المتأمل في القرآن بحكم تطلعه إلى فهم معناها، تدفعه لذلك التوسع.

٣ - تقريب الأمور العميقة إلى الإلهام:

ويتوضح ملخص ما ذكره العلامة الطباطبائي في هذه الحكمة بمتابعة الخطوات التالية:

أولاً: إن الارتباط بالله تعالى والمعاد وما إلى ذلك من تفصيلات العالم الغيبي أمر ضروري للإنسان بل هو روح التصور الإسلامي عن الواقع... وهذا يستدعي أن يعرف المسلمون القدر الضروري عن نوعية هذه العلاقة.

ثانياً: إن الإنسان حبيس ضعفه وتصوراته الخاصة الحسية والعقلية التي

(١) القرآن والفلسفة: ص ٥.

(٢) البيان في تفسير القرآن: ص ٣.

(٣) علل الانحراف نحو المادية، ص ١٦٧، طبع مشهد، انتشارات طوس.

توفرت له خلال حياته... ومختلف مراتب الناس على ضوء كمية التصورات التي لديهم.

ثالثاً: وعلى ضوء مما سبق ولأجل الكشف عن القدر الضروري لنوعية العلاقة الآنفة لجميع الإنسانية فقد اتبع القرآن أسلوب التمثيل والتشبيه ليقرب تلك المعاني العالية إلى الأذهان فيقرب الأمر المعنوي المجرد إلى الأذهان المختلفة عبر ذلك التمثيل بحقائق حسية.

رابعاً: إلا أن من الواضح أن الممثل قد لا يتوافق مع الممثل به في مختلف الجوانب والخصائص خصوصاً وهما من عالمين مختلفي القوانين والأحكام (عالم المجردات وعالم الماديات).

وعدم التوافق هذا قد يجر إلى محذورين يخالفان الغرض الأساس لهذا التمثيل وهو الهداية القرآنية:

(أ) نقل الخصائص الحسية للممثل به إلى الممثل وهذا يعني تغيير الحقيقة وانقلاب الغرض.

(ب) وقد يلتفت الإنسان إلى الفرق بين الممثل والممثل به فيبدأ بعملية تجريد الممثل به من الخصوصيات مما قد يؤثر في تشويه الصورة المطلوب إعطاؤها إما بزيادة أو نقصان.

خامساً: وتخلصاً من هذه المحاذير يلجأ القرآن إلى توزيع المعاني التي يريد إعطاؤها إلى أمثال مختلفة وإعطاءها صيغاً مختلفة حتى يفسر بعضها بعضاً وينتهي الأمر إلى تصفية عامة تنتج ما يلي:

(أ) إدراك القارئ للقرآن أن هذه الصور هي مجرد أمثال لا تعبر عن كل الحقيقة ولا تكسب الواقع العيني كل خصائصها.

(ب) بجمع هذه الأمثال إلى بعضها ينفي بكل واحد منها الخصوصيات الحسية الموجودة في المثال الآخر.

وبذلك تتحقق الهداية القرآنية العامة ويتخلص من نقائص هذا الأسلوب الذي لا مفر منه^(١).

وقد عبر ابن اللبان في كتابه «رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات» عن رأي أخص من هذا فقال بتلخيص من صاحب المناهل:

(ليس في وجود فاعل إلا الله، وأفعال العباد منسوبة الوجود إليه تعالى بلا شريك ولا معين فهي في الحقيقة فعله وله بها عليهم الحجة لا يسأل عما يفعل وهم يسألون).

ومن المعلوم أن أفعال العباد لا بد فيها من توسط الجوارح مع أنها منسوبة إليه تعالى وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين: مظهراً عبادياً منسوباً لعباده وهو الصور والجوارح الجسمانية، ومظهراً حقيقياً منسوباً إليه، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لإفهامهم والتأنيس لقلوبهم ولقد نبه تعالى على قسامين، وأنه منزه عن الجوارح في الحالين، فنبه على الأول بقوله: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^(٢).

فهذا يفيد أن كل ما يظهر على أيدي العباد فهو منسوب إليه تعالى، ونبه على الثاني بقوله فيما أخبر عنه نبيه ﷺ في صحيح مسلم «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» وقد حقق الله ذلك لنبه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(٣). ويقول ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٤). وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوباً إليه تعالى فلا

(١) الميزان: ٥٨/٣ إلى ص ٦٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٤.

(٣) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٤) سورة الأنفال: الآية ١٧.

يفهم من نسبتها إليه تشبيهه ولا تجسيم، ولكن الغرض من ذلك التقريب للأفهام والتأنيس للقلوب...»^(١).

٤ - إعطاء الكل والتركيز على البعض :

ذكر الفخر الرازي رأياً يقرب من الرأي السابق فقال: إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمور عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ظن أن هذا عدم ونفي محض، فيقع في التعطيل فكان الأصح أن يخاطبوا بالفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح.

فالقسم الأول: وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر من باب المتشابه.

والقسم الثاني: «وهو الذي يكشف عن الحق الصريح هو المحكم».

وعبر عنه الشيخ عبده بتعبير آخر فقال:

(إن الأنبياء بعثوا إلى جميع الأصناف من عامة الناس وخاصتهم وفيهم العالم والجاهل والذكي والبليد، وهناك من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع على السواء، وإنما يفهمه الخاصة منهم عن طريق الكناية والتعريض ويؤمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله تعالى والوقوف عند حد المحكم فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده)^(٢).

ويعلق السيد الحكيم على هذا النص بعد رد أشكال العلامة عليه فيقول:

(إذا عرفنا دور المحكم والمتشابه أمكننا أن نتصور بسهولة أن بعض المعاني لا يدركها إلا الراسخون في العلم دون العامة خصوصاً المعاني التي ترتبط ببعض المعلومات الكونية الطبيعية كجريان الشمس ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾

(١) مناهل العرفان: ١٩٣/٢ - ١٩٤.

(٢) تفسير المنار: ١٧٠/٣ - ١٧١.

أو تلقيح الرياح ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ أو جعل الماء مصدراً للحياة ﴿وَحَعَلْنَا مِنْ
الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ فإن كل هذه المعلومات حين تتكشف لدى العلماء تكون من
المعلومات التي أشار إليها القرآن الكريم ويعرفها الخاصة دون غيرهم^(١).

ومما يؤكد أنه الراغب الأصفهاني في مفرداته ذكر أن من المتشابه
ما (يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم ويخفي على من
دونهم وهو الضرب المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام في علي رضي الله
عنه: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)^(٢).

فتكون بعض الآيات متوجهة إلى القادة الفكريين بالخصوص على أساس
أنهم سيعرفون الواقع المراد بالتفصيل للأمة ككل.

ولعله إلى مثل هذا الرأي يشير الزرقاني فيقول: في مجال تعداد الحكم من
«وجود المتشابه».

(أولاًها: رحمة الله بهذا الإنسان الذي لا يطيق معرفة كل شيء، وإذا كان
الجبل حين تجلي له ربه جعله دكاً وخر موسى صعقاً فكيف لو تجلى سبحانه
بذاته وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل أخفى الله على الناس معرفة الساعة
رحمة بهم كي لا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها، وكي لا يفتك بهم الخوف
والهلع لو أدركوا بالتحديد شدة قربها منهم ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة
آجالهم، ليعيشوا في بحبوحة أعمارهم)^(٣).

وواضح أن هذا النص غير دقيق في تعبيره وإلا فلا معنى لتصور إمكان
تجلي الله تعالى بذاته وحقائق صفاته وإنما يقصد أن النفس والتصور الإنساني
يكل غالباً عن تصور أقصى ما يمكن تصوره في الساحة الآلهية.

كما أنّ من الواضح أنه يجمع إلى صف هذه الحكمة (حكمة إعطاء الناس

(١) رسالة الإسلام، العددان ٥، ٦، السنة الثانية: ص ٢٨.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني: ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(٣) مناهل العرفان: ١٧٨/٢.

على قدر إمكاناتهم) حكمة بث الأمن والأمل بإخفاء بعض الأمور عنهم جامعاً الحكمتين تحت عنوان رحمة الله بالإنسانية.

٥ - تحقيق بعض جوانب الإعجاز:

فإن في هذا التشابه بعض ضروب الإعجاز ففيه الإعجاز البلاغي حيث يقول الزرقاني:

(لأن كل ما استتبع فيه شيئاً من الخفاء المؤدي إلى التشابه، له مدخل عظيم في بلاغته وبلوغه الطرف الأعلى في البيان، ولو أخذنا في شرح هذا لضايق بنا المقام، وخرجنا جملة من هذا الميدان، إلى ميدان علوم البلاغة وما حوت من خواطر وأسرار، للإيجاز والإطناب والمساواة...^(١)).

وفيه الإعجاز العلمي حيث تنكشف على الزمن حقيقة ما رمى إليه القرآن من الآيات التي تشكل نوعاً متشابهاً لدى من لم يكونوا مطلعين على حقيقتها في حين يكشف العلم عن الواقع بعد قرون مما يؤكد النسب السماوي للقرآن.

وكذا يمكن إدخال بعض الآيات المخبرة بالغيب، وإن كان ذلك يحوي نوعاً من الأشكال.

٦ - القرآن دستور يحوي بعض الإجمال ولا يمكن التفصيل فيه:

ويقصد بهذا أن يقال: إن القرآن لو أراد أن يبين كل جوانب الحقيقة ويعين المصاديق الصحيحة وينفي الباطل منها لكان ذلك يستدعي مجلدات ضخمة ولم يكن من الممكن إنزاله على ذلك النمط.

ويتضح هذا عند ملاحظة قصر فترة حياة الرسول ﷺ وانشغاله بالمشاكل الهائلة، وعدم قدرة المسلمين على استيعاب تلك المجلدات الضخمة، وحفظها من الضياع وأمثاله.

(١) مناهل العرفان: ص ١٨٠.

ولهذا يشير الزرقاني - بنوع من الإجمال - فيقول:

(ثانيها: تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه، لأن كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء، دال على معان كثيرة زائدة على ما يستفاد من أصل الكلام ولو عبر عن هذه المعاني الثانوية الكثيرة بألفاظ، لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة، يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبَيْتِلِهِ مَدَدًا﴾ (١).

٧ - التعبير العام الذي لا يتفر المذاهب عنه:

ويقول الفخر الرازي في تقريب هذا الوجه إنه (لو كان - أي القرآن - كله محكماً بالكلية، لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وكان بصريحه مبطلاً لجميع المذاهب المخالفة وذلك منفر لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه، أما وجود المتشابه والمحكم فيطمع فيه كل مذهب أن يجد فيه كل ما يؤيد مذهبه، فيضطر إلى النظر فيه، وقد يتخلص المبطل من باطله إذا أمعن فيه النظر فيصل إلى الحق).

ملاحظات حول الوجوه السابقة:

الملاحظة الأولى:

هي أنه يلزمنا أن نلاحظ هذه الوجوه كلها أو أكثرها - لو تمت في نفسها - ونعتبرها رداً على سؤال: لِمَ ورد المتشابه في القرآن الكريم؟

وذلك لأن البعض منها إنما يصح في بعض الآيات المتشابهة دون غيرها، وقد التفت إلى هذه النقطة بعض الباحثين.

الملاحظة الثانية:

إن بعض الوجوه السابقة لا يمكن المساعدة عليه، وخصوصاً الوجه

(١) المناهل: ١٨١/٢؛ والآية في سورة الكهف: الآية ١٠٩.

الأخير، فإن القرآن هو الفارق بين الحق والباطل وهو المقياس الحق ولا يمكن لهذا المقياس أن يكون عاماً مطلقاً يمكن كلا من تصحيح مذهبه والتمسك به ضد الآخرين.

وكذا بالنسبة للوجه الخامس في قسمه البلاغي، فإن البلاغة تركز أول ما تركز على إيصال المعنى بالدقة وإطار لفظي جميل إلى السامع، أما الإيهام والتشابه فقد يتنافى والغرض البلاغي اللهم إلا إذا كان هناك غرض آخر يستدعيه... فلا يمكن أن يكون التشابه معللاً بأنه ضرب من ضروب البلاغة أو ناتج لها.

الملاحظة الثالثة:

إن أكثر ما ورد من وجوه قد تعتبر تسويغات لما وقع ولذا فإن روح المسألة تتركز في الحكم الثلاث (الثالثة، والرابعة، والسادسة) والتي يمكن جمعها تحت عنوان: «عدم إمكان خلو القرآن من المتشابه» وذلك بعد ملاحظة دور القرآن كموضح لأعمق الحقائق، وكدستور عام، وكهاد يمنح كلا بمقدار ما يستطيع تقبله.

هذا هو روح الجواب وما ذكر من وجوه أخرى فهي ترتبط به وتدور حوله.

الملاحظة الرابعة:

إن أهم إشكال يمكن أن يورد على وجود المتشابه يلخص في تعبيرين:

الأول: أن القرآن الكريم، هدى، ونور، وذكر، وفرقان وحكيم، وما شابه ذلك في حين أن التشابه لا ينسجم مع هذه الصفات لأنه يوقع الإنسان في حيرة من معرفة الحقيقة وربما كان بعض ما فيه لا يمكن معرفته مطلقاً.

الثاني: ما ذكره الفخر الرازي من أن وجود المتشابه في القرآن كان سبباً لاختلاف المذاهب والآراء وتمسك كل واحد منها بشيء من القرآن بالشكل الذي ينسجم مع مذهبهم ونضيف على هذا فنقول:

إن بعض الآيات التي يشير إليها المستشكلون قد تُجعل - بل جُعِلت -

ذريعة للتمسك بعقائد تتناقض تمام التناقض مع العقيدة الإلهية بل تقضي عليها من الأساس وهذا يعني نقض الغرض الذي جاءت من أجله الرسالة . . . وهذا من مثل عقيدة التجسيم الذي يساوق تقديم صورة هزيلة عن الله تعالى مما ينتهي إلى إنكاره في الواقع وكذا من مثل عقيدة الجبر التي تنفي المسؤولية الأخلاقية وتوجد مشاكل كبرى، وعقيدة نفي العصمة عن الأنبياء التي تنتهي إلى التشكيك في أقوالهم وغير ذلك .

وعليه فإن هذا الإشكال - بهذين التعبيرين - لا يمكن أن يدفع بهذه الوجوه التي مهما تصاعدت قيمتها فإنها قد لا تعادل هذا الخسران الأساس الكبير الذي يجر الأمة إلى الضياع والتمزق ويقضي على العقيدة ويفقد القرآن - والعياذ بالله - صفته الهادية، أو أن يقال بتعادل الربح والخسران .

وهذا يدعوننا لأن نتطلب وجود ما يعصم الأمة من التفرق والتمزق والعقيدة من الانقلاب على أهدافها فما هو هذا المرجع الذي يجب الرجوع إليه؟ ما يبدو من الآية والروايات الشريفة أمران هما:

(أ) الآيات المحكمات:

وفهم الإرجاع إليها من جعلها أما للكتاب، والأمية لا ريب تعني المرجعية فهي التي تنفي إدخال صور باطلة في تصور الإنسان عن الآية أو إدخال مصاديق باطلة للمفهوم منها، ويحتاج هذا إلى رسوخ علمي في نفسه . . . ويبقى مجال كبير للتشابه خصوصاً لأولئك الذين في قلوبهم مرض ليغروا به الآخرين .

(ب) الراسخون في العلم:

وهم المرجع الثاني والأكثر عمومية لحل التشابه، فهم الذين يفسرون الدستور الإلهي، ويعطون تفصيلاته ولهم يرجع في الفصل بين الحق والباطل، فهم محور وحدة الأمة وملجأ العلم ومنتهى السبل . ولكن من هم هؤلاء الراسخون في العلم؟ إن الروايات المتواترة معنى عن النبي ﷺ لتركز بصورة عامة على مرجعية النبي ﷺ وأهل البيت للأمة في كل ما يبدو لها من غموض في كل شيء ومن جوانب الغموض هذا التشابه الذي يلاحظ في بعض الآيات القرآنية وأهم هذه الأحاديث حديث الثقلين الذي سلمت به الفرق الإسلامية

والذي أكد اقتران العترة بالكتاب ولزوم التمسك بهما معاً وأن الرجوع إليهما معاً عاصم من الضلال وأنهما لن يفترقا إلى يوم القيامة وهكذا الأحاديث النبوية المختلفة في علم الإمام (ع) مثل حديث أنا مدينة العلم وعليّ بابها. وقد أكد أهل البيت على مرجعيتهم في كل الأمور فهذا نهج البلاغة يصفهم بأنهم: موضع سر النبي، وملجأ أمره، وأنهم أساس الدين وعماد اليقين إليهم يفى الغالي، وبهم يلحق التالي، وهم أئمة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، وهم كمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم وعندهم أبواب الحكم وضيء الأمر، وإن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا، وهم عيش العلم وموت الجهل وإن بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه^(١).

ويقول الإمام في نص رائع يعين المرجع في الشبهة (فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجر، والباري من ذي السقم، واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذته فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل. هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصمتهم عن منطقتهم وظاهرهم عن باطنهم لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق)^(٢).

منابع التشكيك في الحجية:

حجية الظواهر القرآنية من الأمور المسلمة رغم ما حدث من تشكيك ويمكننا أن نحصر هذه المنابع في أمرين طرحهما بعض الجامدين أو الموتورين وربما تبعهم آخرون وهما:

(١) راجع: ص ٧٣٤، نهج البلاغة - صبحي الصالح.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ص ٢٠٥، ٢٠٦.

أولاً: ما نسب إلى بعض الإخباريين من دعوى التوقف عن العمل بظاهر القرآن لأحد أمرين:

الأول: حصول علم إجمالي بطرق مخصصات من السنة وهذا العلم الإجمالي منجز لمتعلقه ومانع من جريان الأصول في أطرافه وحتى لو جرت هذه الأصول لتعارضت وسقطت عن الحجية وهكذا يسري الإجمال لكل الظواهر ويتم التوقف عن العمل.

إلاً أن جوابه واضح تماماً ذلك أن هذا العلم الإجمالي – بعد الفحص والعتور على المخصصات – ينحل إلى علم تفصيلي بالعمومات المخصصة والمطلقات المقيدة، وشبهات ابتدائية في غير هذه الموارد تجري فيها الأصول.

الثاني: ما ورد من الأحاديث الناهية عن تفسير القرآن بالرأي إلا أن من الواضح أن العمل بالظاهر ليس تفسيراً بالرأي، فالتفسير إنما هو للأمور الغامضة لا الظاهرة.

ثانياً: ما ذكر من شبهة التحريف بالنقيصة في بعض آياته الأمر الذي لا يفسح المجال للعمل بالظواهر القرآنية لاحتمال فقدان القرائن.

ومنع هذه الشبهة بعض الروايات التي ربما يستدل بها لهذا الغرض وهي واردة في مختلف كتب الحديث السنية والشيعية.

إلاً أن المسلمين عموماً من كلا الفريقين لم يرتضوا مطلقاً هذا الاستدلال استناداً للأدلة القاطعة الحاكمة بعدم تحريف القرآن وفي طبيعتها الآيات القرآنية الدالة على حفظ القرآن من أي باطل.

وقد ذكر المحقق الكركي وهو من أكابر علماء الإمامية: (أن ما دل من الروايات على النقيصة لا بد من تأويلها أو طرحها فإن الحديث إذا جاء على خلاف الدليل من الكتاب والسنة المتواترة، والإجماع، ولم يمكن تأويله ولا حمله على بعض الوجوه وجب طرحه).

وعلق السيد الخوئي على هذا بقوله^(١):

(أشار المحقق الكركي بكلامه هذا إلى ما أشرنا إليه سابقاً؛ من أن الروايات المتواترة قد دلت على أن الروايات إذا خالفت القرآن لا بد من طرحها فمن تلك الروايات ما رواه الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بسنده الصحيح عن الصادق عليه السلام (الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة). إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه)^(٢).

وهكذا تندفع هذه الشبهة بعد حصول الإجماع الإسلامي على سلامة القرآن من التحريف بالزيادة أو النقصان ولا مجال لما يبدو أحياناً من التهاثر الرخيص والذي يمهد السبيل لأعداء الإسلام كي يشككوا بالاستدلال بكتاب الله العزيز.

السنة النبوية ودفع الشبهات عنها:

ربما أمكن القول بأنه لم تواجه أي رسالة أو عقيدة ما واجهه المبدأ الإسلامي من هجوم شرس على مختلف الصعد، وبشتى الأساليب الممكنة خلال تاريخه الطويل. السيف، والعذاب، والتهم، والإشاعات، والتشويه، والتشريد، واللغو والتحريق، والتشكيك في كل شيء.

وكل ذلك أمر توقعه الإسلام وأعد له عدته، ومن ورائه مدد الله وعونه.

وكذلك يجب أن يتوقعه كل عامل لصالح الإسلام وإعادته إلى واقع الحياة اليوم ويعد له عدته، على أساس إن ذلك سنّة تاريخية:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء كَافِرُونَ ﴾^(٣).

ولعل أخطر ما في الحملات، التشكيك بالمنابع الأساس لهذا المبدأ

(١) البيان في تفسير القرآن: ص ٢٣٤.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٨؛ كتاب القضاء: ص ٨٦.

(٣) سورة سبأ: الآية ٣٤.

السامي وإضعاف الثقة به. ومن ثم إذابة كل ما يتوقع من خير تضيفه هذه المنابع لأحكام الصورة الإسلامية الأصيلة، وتعميقها في النفوس، ومنحها أصالتها التي بها تقارع وتقاوم ثم تبني وتتقدم.

ولسنا هنا بصدد عرض تاريخي بقدر ما نحن بسبيل مواجهة فعلية مع المشككين اليوم.

لقد واجه المنبع الرئيس الأول للتصورات والتشريعات الإسلامية (القرآن) سيل التشكيك في نسبه السماوي أولاً، وفي مضامينه ثانياً، وفي حجية هذه المضامين ودورها وغير ذلك ولكنه كان أقوى من أي هجوم، وتقهر التشكيك وصدق وعد الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ولم نعد نسمع التشكيك في كتاب الله إلا حسيماً لا قيمة له.

ومن ثم استعرت الحملة – وإلى يومك هذا – ضد المنبع الرئيس الثاني (وهو السنّة النبوية المباركة) لكي تنال منها، ومن قدرتها على إعطاء الصورة الأصيلة عبر الدس أولاً والتشكيك بعد ذلك في مجموع الأحاديث التي تتحدث عن السنّة ووصفها بعدم الجدية لوجود الدس والتعارض وأمثال ذلك.

والواقع – أيها السادة – أن المسألة خطيرة مصيرية يجب أن لا نمر بها مرور الكرام، بل نقف عندها وقفة واع فقيه بالأبعاد الخطيرة لها.

وقد آثرت في هذه الفرصة التعرض للشبه المثارة بشيء من التفصيل بما يسمح لي الوقت راجياً أن يكون حديثي هذا منطلقاً للاستيعاب الأكثر لجوانب الموضوع.

اتباع السنّة والعمل بالحديث من الضرورة:

لا أغالي إذا ادعيت أن الضرورة العلمية بين المسلمين قائمة على لزوم اتباع سنة الرسول ﷺ إلى يوم القيامة، بل والعمل بها من خلال مضامين الأحاديث الواصلة إلينا... ومن هنا فكل تشكيك بذلك إنما هو مجرد شبهة في

قبال ضرورة... وقد انصب التشكيك في الواقع على الوعاء الموصل للسنة الشريفة وهو الخبر وخصوصاً الخبر غير المفيد للعلم ويدعى اصطلاحاً بخبر الواحد. ولكن التأمل في المستندات المطروحة المنبهة على هذه الضرورة ينفي كل تشكيك فالتأمل في الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١).

وملاحظة مفهومها من عدم لزوم التبين إذا كان المخبر غير فاسق يؤدي إلى حجية قول هذا المخبر.

وكذا التأمل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيسْتَفْرِؤْا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَسْتَفْقَهُوا فِي الَّذِينَ لیسْتَدْرِؤْا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٢).

وغير ذلك من الآيات، ولو لم يكن قولهم حجة لم يكن مجال للحدز. وكذا التأمل في التواتر المعنوي الذي تشعب به الروايات الكثيرة وأخيراً التركيز على السيرة الإسلامية القطعية على العمل بخبر الثقة وإن لم يفد علماً كل ذلك ينبهنا لهذه الضرورة والبدية.

دوافع المشككين:

يمكننا أن نلخص دوافع المشككين على اختلافها بما يلي:

١ - فسح المجال للاقتباس الفكري:

ذلك أن السنة إذا كانت محكمة في التشريع والمفاهيم إلى جنب القرآن الكريم أعطتنا صورة كاملة مفصلة عن النظام الكامل الشامل للحياة وبالتالي لم يكن هناك أي مبرر للتوجه إلى النظم الأخرى لاستجداؤها وتطبيقها، أما إذا أقصيت فقد انفتح الباب على مصراعيه، للآراء والأهواء المستوردة من قبل عملاء الغرب والشرق وهذه هي الطامة الكبرى التي ابتلي بها من يسمون

(١) سورة الحجرات: الآية ٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

بالمثقفين اليوم، وقد واجهت ثورتنا الإسلامية الفتية منهم أشد الضربات وكانوا أعظم الممهدين للعدو.

٢ - العجز والضحالة في الفهم:

فقد يؤدي هذا العجز، وقلة الثقافة وعدم التعمق، إلى تبني مثل هذا الرأي لثلا يبتلى بالعواقب، وربما كان للشبهات المثارة دورها في تعميق هذا الاتجاه.

٣ - توحيد الموقف:

فقد أغرى حب توحيد الموقف الإسلامي بعضهم للرضوخ لهذا الرأي ظاناً أنه به يستطيع أن يوحد الموقف بإرجاع الجميع إلى القرآن الكريم وحده ولكنه لا يدري أنه كالمستجير من الرمضاء بالنار، إذ سيمزق الوحدة بشكل فظيع. ويمكننا أن نذكر هنا بعض العوامل الأخرى.

بعض الشبهات المطروحة وأجوبتها: ونحن هنا نذكر بعض الشبهات المثارة ليقف الإخوة على مدى ضحالتها، ويندفعوا للتعمق في الإجابة عن أمثالها:

أولاً: ذكروا أن هناك بعض الروايات التي تتحدث عن الاكتفاء بكتاب الله عن غيره أو تنهى عن كتابة الحديث وأمثال ذلك.

ولكن المرء يكاد يجزم بأن هذه الروايات - لو صحت أسانيدها - إنما هي بصدد بيان فضل كتاب الله وعظمته، وأن لا وحشة على من كان معه القرآن، فهو خير أنيس للمؤمنين لا أن تكون بصدد جعله المصدر الوحيد للتشريع، كيف والقرآن نفسه يدعو إلى الاقتداء والتأسي والطاعة لرسول الله والأخذ بما يخبر به المخبرون عن الإسلام وسيرة الرسول ﷺ.

أما الروايات التي ادعي فيها أن بعض الصحابة نهوا عن كتابة الحديث فلا علاقة لها بنفي العمل بالروايات وإنما كانت - فيما أعتقد - تعبر عن تحوط من قبلهم لثلا يقع الخلط بين الحديث والقرآن. وبغض النظر عن صحة هذا التحوط وعدهما فإنها لا دلالة فيها على ما يطلبه المشككون هؤلاء.

ثانياً: ذكروا أن في الروايات ما هو معارض لغيره من الروايات نفسها ولما لم يكن من الممكن أن تتناقض السنة فيجب التوقف في المجموع.

ومن الواضح سخف هذا الاستدلال ذلك أن الروايات المتعارضة لها مساحة قليلة فإذا أريد التوقف فليكن في هذه الدائرة لا غير .

ثم إنه كثيراً ما يكون التعارض ابتدائياً - أي بالنظر الأولي - ولكن بمجرد التأمل ينحل ذلك التعارض بحصول جمع عرفي ظاهر بين المتعارضين ، أو بتخصيص أو تقييد أو تقدم لأحدهما على الآخر باعتباره قرينة والقرينة مقدمة على ذي القرينة أو باعتباره يرفع الموضوع أو يتصرف في الحكم مثل تقدم حديث (لا ضرر ولا ضرار) على غيره من الأحكام الأولية .

نعم إذا استحكمت التعارض توقفتنا عن العمل بهما معاً .

ويجب أن نلاحظ هنا أن التعارض طبيعي الوقوع فقد يكون في الأصل ناشئاً من عملية تدرج في إعطاء الأحكام ، أو من سقوط شيء وغيابه عن الراوي مما يغير المدلول ، أو من وجود خبر مدسوس لا نعلم بدسه فنتصوره حجة علينا .

ثالثاً: راح بعض الأشخاص يتحدث عن روايات تتنافى مع القرآن الكريم ، ولكنه لم يستطع أن يذكر إلا بعض الروايات . على أن الكثير مما يذكر كمصداق لذلك يرجع إلى تخصيص أو تقييد لمطلق قرآني وهو أمر واقع بشروطه المذكورة في محلها . نعم إذا رأينا الخبر منافياً تماماً لمضمون القرآن ضربنا به عرض الجدار ولم يكن إلا زخرفاً .

رابعاً: راح بعض الناس يذكر أن الأحاديث كانت موجهة للمخاطبين بها بالفعل فلا تشمل غير عصرهم من العصور .

وهذه الشبهة هي من أهوى الشبهات ؛ ذلك أن من المسلم به الواضح في خلد جميع المسلمين والموحى به من تعليمات القرآن أنه ﷺ كان يتحدث لا مع عصره فحسب بل مع كل العصور ، وأن حلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة ، وأنه أسوة حسنة لكل المؤمنين عبر التاريخ . . . مما أوجد لدى المسلمين آنذاك قاعدة الاشتراك ، أي اشتراك غيرهم معهم في الأحكام ، فمتى ما شك في اختصاصهم هم بحكم ، أو حتى اختصاص الرسول بحكم دونهم جاءت قاعدة الاشتراك حاكمة في البين .

خامساً: وراح هؤلاء يسوقون الأمثلة على تغير المصطلحات عبر الفترات الزمانية فمصطلحات (الوطن) و (الاشتراكية) و (الرعية) وغير ذلك قد تغيرت رأساً على عقب، ومن هنا فما أدرانا أن ما نفهمه من الروايات هو المقصود الواقعي منها.

ونحن لا نشك في أن بعض ظواهر اللغة والكلام متطورة عبر مؤثرات مختلفة لغوية وفكرية وإشرطات تاريخية معينة، فيختلف المعنى الظاهر في عصر الصدور عن ما يظهر في عصر آخر. والمعول عليه هو الظهور في عصر الصدور لا غيره.

إلاً أن هناك أصلاً عقلائياً ممضى حتماً من قبل الشارع المقدس بالإقرار يسمى بـ (أصل عدم النقل) أو كما يسميه العالم الشهيد السيد الصدر بـ (أصالة الثبات في اللغة) يحل المشكلة موضحاً أن العقلاء يبنون على هذا الأصل باعتبار البطء في حدوث أي تغيير في المفهوم من اللفظ مما يجعله في نظرهم أمراً استثنائياً. فمتى ما شككنا في تغير ما بنينا على عدمه فلا مشكلة في البين مطلقاً.

سادساً: وذكرنا أن هناك الكثير من الروايات المفتراة فكيف نتأكد من الصدور والحال هذه؟

والجواب على هذا واضح بعد الذي قدمناه إذ أننا بعد التجاوز عما يؤدي إلى العلم بالمضمون من الروايات قلنا إن الشارع عبّدنا بمضمون أخبار الآحاد التي يرويها الثقات وأكمل كشفها الناقص تعبداً لا وجداناً فنحن معذورون إذا عملنا بها وخالفت الواقع وهي منجزة علينا فليس لنا المخالفة فما علينا إذن إلا الفحص والتحصيص الدقيق في السند والمتن والمدليل، ومتى ما انتهى البحث فنحن معذورون أمامه تعالى.

سابعاً: وربما طرح بعضهم شبهة تقول إن تعليمات الرسول خصوصاً في المجال الاجتماعي كانت تقتضي كونه ولياً للأمر لا مخبراً عن الشارع المقدس، أو على الأقل يقال بوقوع الخلط بين ما يصدر بصفة الولي وما يصدر بصفة المشرع.

ولكن الواقع هو أنه كانت تصدر منه ﷺ تلك التعليمات باعتباره حاكماً

ولها جانب مؤقت ولكن كل تلك التعليمات كانت تحمل معها قرائنها اللفظية والحالية وهي أمور متميزة عند العلماء ولو من قياس حالها إلى الحالة السارية عموماً، وهل يشك أحد بأن الأمر بحضر الخندق مثلاً كان أمراً وقتياً متناسباً مع تلك الحرب بظروفها؟

ثامناً: وقد طرحت فكرة اجتهاد النبي ﷺ في الأمور الأمر الذي لا يعبر عن تشريع خالد والذي نعتقه أنه ﷺ كان لا يعدو بيان الواقع التشريعي الخالد من خلال وصوله إليه بالوحي أو بيان التعليم الاجتماعي اليومي بصفته ولي الأمر، وفي المجال الثاني هذا كان يتم التشاور والعزم لا في المجال الأول، والفرق بين المجالين واضح للمتأملين، أنه ﷺ كان ملتزماً تمام الالتزام بعرض الواقع التشريعي قبل كل شيء وعدم إبداء أي رأي من عنده، بل لقد كان ﷺ قد التحم بالوحي والحقيقة فلا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

تاسعاً: ولما لم يجدوا ما ذكروه راحوا يركزون على أن خبر الواحد لا يفيد إلا ظناً وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً غافلين عن أن الأدلة القطعية التي سبقت لحجية خبر الواحد استثنت هذا الظن وأمثاله من عموم النهي عن اتباع الظن وأنزلته منزلة العلم باعتباره السبيل العقلاني الطبيعي للوصول إلى الشريعة، وأنه لا يمكن تكليف الناس جميعاً بتحصيل العلم بكل موارد الإسلام وأحكامه. فالظن المنهي عنه هو الظن الذي لم يقم على اعتباره دليل قطعي.

عاشراً: وأخيراً راح بعض الأشخاص يستعرض بعض الروايات التي ادعى أنها تخالف العقل والعلم ولأجل التقليل من أهمية المجموع الروائي العام، ونحن نسمع كثيراً عن مخالفة العقل هذه وعند التأمل نجد أنها تخالف ذوقاً عقلائياً مثلاً أو ميلاً عاماً دون أن تصل إلى مستوى المخالفة القطعية. نعم لو وصلت إلى هذا الحد - وذلك بعيد جداً - فقدت الوثوق المطلوب. أما قصة مخالفة البحوث العلمية فيجب فيها أن نتذكر التغييرات الكبيرة التي تطرأ على هذه البحوث وعدم قطعيتها وأنها فرضيات متغيرة.

وخلاصة القول: إن كل ما طرح من شبهات حول الأحاديث والسنة لا يمكنه أن يصمد للنقد والاعتراض.

نقطتان هامتان: وهنا نود أن نبه إلى نقطتين هامتين في ختام هذا البحث هما:

النقطة الأولى: أننا إذ رفضنا هذا الاتجاه الخطر فإن ذلك لا يعني مطلقاً أن نتجه إلى قبول كل ما يرد عنه ﷺ من دون تمحيص وتحقيق في المتون والأسانيد، بل حتى إننا لا نجزئ أن يعتمد العلماء على استنتاجات غيرهم من العلماء في هذا السبيل إلا أن تكون شهادة، كلا وإنما تجب ملاحظة الأسانيد والرواة فرداً فرداً، والتحقق من توفر الوثوق المطلوب، وعدم التنافي الثابت مع القرآن الكريم والسنة المقطوع بها. وإننا لنرى من المناسب أن ننقل نصاً جاء عن علي (ع) تلميذ رسول الله ﷺ في جواب من سأله عن أحاديث البدع، وعمّا في أيدي الناس من اختلاف الخبر فقال: إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً، ولقد كذب على رسول الله ﷺ على عهده حتى قام خطيباً فقال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس:

رجل منافق مظهر للإيمان متصنع بالإسلام، لا يتأثم، ولا يتحرج... فهذا أحد الأربعة.

ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً لم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يعتمد كذباً فهو في يديه ويرويه، ويعمل به ويقول أنا سمعته من رسول الله ﷺ فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه ولو علم أنه كذلك لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً يأمر به، ثم إنه نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ فلو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يهجم بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه، فهو حفظ الناسخ

فعمل به وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام، والمحكم والمتشابه فوضع كل شيء موضعه... [نهج البلاغة، صبحي الصالح: ص ٣٢٥ - ٣٢٧].

بهذه الدقة يتعرض تلميذ رسول الله ﷺ إلى الرواة في عصره وهو ألصق ما يكون بعصر الرسول فكيف بنا ونحن نعيش هذا الفاصل الزمني البعيد؟ إن الأمر يتطلب - لا محالة - جهداً وبذلاً للوسع في هذا المجال. وهذا ما يقودنا إلى التأكيد على النقطة الثانية.

النقطة الثانية: وهي نقطة هامة جداً يجب التركيز عليها وملخصها:

إننا إذ نرفض الشبهات الماضية ونرفض القبول المطلق لكل ما جاء، نمتنع - في نفس الوقت - عن تسليم السنة - حتى الموثوق بها - إلى كل فرد مهما كان مستواه، وفسح المجال له ليفهم منها ما يشاء وينسبه إلى الإسلام. فإن هذا المنحى خطر جداً وإن كان دعائه اليوم كثر في عالمنا الإسلامي متذرعين بأن الإسلام لكل الناس فلماذا تحصرونه بأيدي عدة قليلة، خالطين بذلك بين هذا وبين كيفية فهم الواقع الإسلامي واستنباطه من النصوص. مثلهم في هذا مثل من يدعو لتسليم الذرة لكل من يطلبها ليستخدمها كيف يشاء بحجة أنها وجدت لصالح الجميع!

إن ملاحظة ما سبق، وإدراك احتياج فهم الواقع الإسلامي من الكتاب والسنة الشريفة إلى دراسات تخصصية معمقة في المجالات اللغوية والفقهية (أصولاً وفروعاً فقهية) والتفسيرية والرجالية وغيرها لهو مما يمنع بتاتاً من نفي التخصص والخبرة وعدم الركون إليهما.

وإننا لننبه أمثال هؤلاء إلى الآثار الخطيرة التي تنجم عن رأيهم هذا من:

شيوخ الفهم القاصر للإسلام، وفقدان العمق والأصالة التي تميزه عن غيره، وفسح المجال للأهواء أن تتلاعب بالمقدرات الإسلامية، وعدم قدرة الصورة الناتجة على الصمود أمام الإشكالات والشبهات.

هذا بالإضافة إلى أنه يجعل المذاهب بعدد الأفراد فويل للأمة من مثل هذا اليوم الرهيب... يوم يفتي فيه العسكري، ويدلي فيه هذا الموظف برأيه في الإسلام وذاك الملك وهذا الرئيس وهم لا يملكون مستوى فهمه واستنباطه.

إننا نسأل هؤلاء:

هل تستطيعون أيها السادة أن ترونا مبدأ فيه بعض ما في الإسلام ولا تخصص فيه؟

إننا نؤكد لزوم الحاجة إلى الأخصائيين الإسلاميين ونسميهم بـ (الفقهاء)، ولزوم أن يكونوا عدولاً لا يدعون لهوى نفسي، ولا يركعون أمام ظالم أو طاغوت، ويتجلى هذا اللزوم في الميادين التالية:

(أ) ميدان فهم الأحكام والنظم الإسلامية للحياة الإنسانية، واستنباطها من منابعها الرئيسة.

(ب) مجال القضاء وفصل الخصومات.

(ج) مجال قيادة الأمة، فلا يمكن تسليمها لجاهل بالإسلام غير إخصائي فيه. إذ الإسلام تجربة حياتية بشرية كبرى لا يمكن أن تقوم عليها إلا القيادة الواعية لها المؤمنة بها المطبقة لأحكامها المتشعبة بروحها.

وهذا بالضبط ما اصطللحنا عليه بمبدأ (ولاية الفقيه) والذي يعتبر تطبيقه في نظامنا الإسلامي الميزة الإسلامية الكبرى له والأساس الأول الذي أتحدثنا بالوصول إليه ثورتنا الإسلامية الكبرى بتوجيهات وقيادة القائد الفقيه الكبير الإمام الخميني.

ومن هنا تؤكد المادة الخامسة من دستورنا الإسلامي ضرورة تسليم ولاية الأمر والأمة للفقيه العادل التقى، العارف بالعصر، الشجاع المدير المدبر الذي تميل إليه أكثرية الجماهير المسلمة وتدعن لقيادته.

الفصل الخامس حول الحكم والدولة

تعريف الحكومة والدولة ونظام الحكم :

الدولة: ويراد بها: (المجموع الكلي المكون من شعب ونظام يسير عليه الشعب وحكومة تدير هذه المسيرة).

الحكومة: يعرفها روسو بأنها: (هيئة وسيطة بين الرعايا وصاحب السيادة من أجل الاتصال المتبادل بينهما، مكلفة بتنفيذ القوانين وبالمحافظة على الحرية المدنية والسياسية على السواء لأوامر رئيس الدولة).

وواضح أنه يعبر بها عن الهيئة التنفيذية لأوامر رئيس الدولة التي يريد تطبيقها على رعاياه، على اختلاف في نوعية صاحب السيادة هذا.

ولا ريب في أن تعريفه هذا إنما يصدق على بعض الحكومات لا كلها، أما ما نقصده من الحكومة، فهو: (الهيئة الكلية التي تشرف على إدارة الشؤون العامة في مجتمع ما).

فالشيخ والرئيس والأمير والملك جزء من هذه الهيئة، كما أنها تقوم بتمشية الأمور في «الشؤون العامة». و «الشؤون العامة» هذه تختلف باختلاف المجتمعات، والاجتهادات، فقد لا تتجاوز في مجتمع ما، تعيين أوقات الخروج للصيد وتقسيم الناتج، وقد تشمل - كما في المجتمعات الحاضرة - أغلب المجالات فلا يخرج عنها إلا بعض القضايا الشخصية جداً.

وعندما نطلق تعبير «نظام الحكم» فإننا نعني به المبادئ العامة التي تحدد

كيفية الحكم والحاكم وعلاقة الشعب بالحكومة وعلى ضوء ذلك يعرف دورها .

ضرورة الحكومة على ضوء وظيفتها :

وتوجد هنا بعض النظريات :

يرى آدم سميث أن أهداف الحكومة هي :

١ - حماية المجتمع من الفوضى على المجتمعات المستقلة الأخرى .

٢ - حماية كل عضو في المجتمع - بقدر الإمكان - من فقدان العدل ، أو كبت أي عضو منه ، وتطبيق العدالة بدقة .

٣ - إنشاء منظمات عامة لا تنشأ لمصلحة فرد أو مجموعة من الأفراد بل تسعى لمصلحة المجتمع بأسره .

ويرى برکس أن هدف الحكومة المباشر هو : تأمين سيادة القانون والأمن العام ، ونشر النظام . فإذا حصلت على ذلك وجب عليها أن تحدد حدود الحرية الفردية ، ويضع هدفاً أساساً لها وهو العمل لنشر الفكرة الإنسانية والحضارة في العالم . أما ويلنبي فيضع أهدافاً عامة لكل حكومة وهي :

(أ) تحقيق النظام في بلادها وحفظ استقلالها من بين الدول الأخرى .

(ب) العمل للحصول على أوسع نطاق من الحرية ، ويرتبط بالحرية تقوية الجهاز الحاكم لأجل الحفاظ عليها كما يرتبط بها تثقيف المواطنين كي يكونوا قادرين على ممارسة الحرية .

(ج) العمل لتحقيق الرفاهية العامة ورفع المستوى الاقتصادي والفكري والخلقي .

ويحدد لاسكي أهدافها في : (قيامها بتمكين مجموع الأفراد من تحقيق مستوى اجتماعي طيب بأعلى مستوى ممكن ، وتنحصر واجباتها في تنظيم مجموعة من الأعمال المنسقة ، ومن الطبيعي أن ذلك التنظيم يزداد ويقل حسب الظروف القائمة ، وليس للحكومة أن تقوم بالسيطرة على جميع فعاليات الإنسان

وإنما عليها أن تصنع مفتاح التنظيم الاجتماعي وعليها أن تحقق ما يدور في خلد الرعية من نظام أفضل).

ويرى جاكوبسن وليمان: إن الأهداف هي كما يلي:

- ١ - تأمين الحرية من الانتهاك، وتأمين العدل الداخلي للشعب فلا يكون للحكومة مسوغ إلا نجاحها في ذلك.
- ٢ - تحقيق سعادة الفرد.
- ٣ - تحقيق الرفاهية العامة.
- ٤ - حماية الأخلاق.

وهكذا رأينا اختلاف الآراء في أهداف الدولة مما يعين مقدار ضرورتها وإذا أردنا أن نختار أجمع ما ذكر اخترنا ما قاله «لاسكي» مع بعض التوضيح أو التعديل.

والواقع: إن التجمع الإنساني ضرورة لا بد منها لأفراد الإنسان وذلك على اختلاف في دواعي التجمع، أهي الغريزة الداعية للتجمع مباشرة أو غريزة الاستخدام التي تدفع كل فرد لاستخدام الفرد الآخر أو ما إلى ذلك؟ ولا بد للمجتمع من نظام يعين المسير ويحل التناقض في النزعات ووجهات النظر، كما لا بد لهذا النظام من معين ومنفذ له على ضوء مصلحة معينة، ومن هنا تنشأ فكرة «نظام الحكم».

وواضح أن أهداف هذا النظام تختلف باختلاف تصور الإنسان لوجوده ومركزه من الكون من جهة وبمقدار بساطته وتعقيده من جهة أخرى.

فالمجتمع الذي ينظر للإنسان كفرد حيواني يريد أن ينعم بالراحة والسعادة، تختلف متطلباته عن المجتمع الذي ينظر للإنسان كموجود استخلفه الله العظيم ليعمر الأرض ويتكامل بالتدرج، فيصنع مجتمع الأرض العادل العابد الذي لا يشرك بالله.

وبتعبير آخر فإن اختلاف إيديولوجية المجتمع تؤثر بشكل أساسي على الأهداف التي يتوخاها من التجمع.

ومن هنا رأينا الحكومات في بعض المجتمعات تؤكد على الجانب العسكري مثلاً لأن الاتجاه العام هو بناء المجتمع القومي صافحة عن تحقيق السعادة بالمعنى الذي نفهمه. كما رأينا الحكومات الأخرى تركز على جانب الثقافة لأن وجهة النظر الاجتماعية كانت تعينها هدفاً لها.

هذا وتختلف وظيفة الحكومة على ضوء تعقد المجتمع وبساطته فبينما لم تكن في السابق إلا هيئة أو فرداً يدير القبيلة أو المجموعة ويحل نزاعاتها نجد أنها تطورت إلى فرد تعينه هيئة كبرى تخطط للدفاع عن المجتمع، وتنظم وضع الأمن في داخله، وتشرف على وضع القوانين التي تسد بها بعض الفراغات الاجتماعية رأيناها في هذا العصر وهي تقوم بمهمة سن القوانين المختلفة وإدارة شؤون المجتمع الدفاعية والخارجية والداخلية والمالية والثقافية والفنية والصحية وشؤون المواصلات والزراعة والصناعة وأمثال ذلك.

ذلك أن تعقد الحياة الاجتماعية يغير كثيراً من الشؤون الشخصية إلى شؤون عامة مما يلقي بعهدتها على الدولة، كما أن تعقد المجتمع يخلق ترابطاً قوياً بين شؤونه مما لا يدع مناصباً من السيطرة على مختلف الجوانب لتحقيق السيطرة العامة والإدارة الاجتماعية.

فاختلاف الإيديولوجيات وتعقد المجتمع هما العاملان الرئيسان في تطوير وظائف الحكومة.

تنبيه مهم:

يكاد يجمع الذين عينوا وظيفة الحكومة على أن عليها أن تحقق سعادة الإنسان وتؤمن راحته وحتى الذين نادوا بنظم الحكم التي تعمل لصالح المجتمع أرادوا من خلال ذلك أن يوضحوا أن راحة الفرد تكمن في تحقيق الاحتياجات الاجتماعية.

وكل هذا التركيز على سعادة الفرد وراحته يكمن في أنه حق طبيعي له — كما يعبر جون لوك — وعندما نركز على الحق نفسه ونساءل عن علة كونه حقاً لا نجد لذلك موضحاً إلا أن نقول:

إن الإنسان يمتلك في أعماق وجوده طاقات فطرية تهيئه لأن يسير مسيرة كمالية بملء إرادته وشعوره، وهذا يعني أنه يستحق أن يفسح له المجال للوصول إلى كماله، مثلاً الإنسان له أن يعرف، وفي أعماقه دوافع للمعرفة فإذا منع من ذلك فقد منع من حقه، وفي الإنسان دوافع خلقية ووجدان عملي يعين له الحسن والقيح فإذا منع من السير الطبيعي وفقه، فقد منع من حقه، ومن هنا ركز الفلاسفة على أن كل موجود يولد وقد وصل إلى كماله النفسي فعلاً إلاّ الإنسان فإنه يولد موجوداً يحمل الاستعدادات النفسية الهائلة التي يسير إليها طبق نظام منسجم مع أهدافه الكمالية.

فإذا كانت الإيدولوجية التي يحملها المجتمع تعتقد بهذا وترى أن لمجموع الإنسانية غاية عظمى فإن حق الإنسانية على ضوء هذا سوف يوجب على الدولة أن تنظر في أمر تنظيم شؤون الفرد الحاضر والمجتمع الحاضر في مسيرتها نحو الكمال كما تخطط لثلاث تغلق على الأجيال الآتية أبواباً تسير من خلالها إلى الكمال. وعلى أساس من هذا تكون مسؤولية الحكومة كبيرة جداً ومسؤولية وضع نظام تعمل عليه الحكومة أكبر من ذلك. وللحديث عن رأي الإسلام في وظيفة الحكومة مجال واسع.

إن التربية العقائدية والتخطيط لمستقبل الأجيال يعد أهم وظيفة تقوم بها الحكومة.

ضرورة الحكومة في رأي الماركسية:

ترى الماركسية أن الإنسانية حتى مع فرض تجمعها لا تحتاج بالضرورة إلى الحكومة ومن هنا كانت المجتمعات في المرحلة البدائية الشيوعية لا تدار من قبل حكومة، وإنما بدأ الاحتياج لها بعد تشريع الملكية الذي غرس في نفسية الإنسان حب الذات وعند نشوء الطبقة المقتية، احتيج لحكومة كمنسق لمتطلبات الوضع الاقتصادي ومعبر عن احتياج الطبقة الحاكمة إلى أعمال نفوذها على الطبقة المحكومة أما إذا وصل المجتمع إلى الشيوعية الأصلية وهي المرحلة العليا من التطور الاجتماعي الإنساني فلن يحتاج إلى مثل هذه الهيئة الحاكمة بعد زوال مبررها وهو التناقض الطبقي.

وهنا يقول الإمام الصدر :

(ومن حقنا أن نتساءل عن هذا التحول الذي ينقل التاريخ من مجتمع الدولة إلى مجتمع متحرر منها، من المرحلة الاشتراكية إلى المرحلة الشيوعية، كيف يتم هذا التحول الاجتماعي؟ وهل يحصل بطريقة ثورية و انقلابية فينتقل المجتمع من الاشتراكية إلى الشيوعية في لحظة حاسمة، كما انتقل من الرأسمالية إلى الاشتراكية؟ أو أن التحول يحصل بطريقة تدريجية فتذبل الدولة وتتفصل حتى تضمحل وتلاشى؟

فإذا كان التحول ثورياً آتياً، وكان القضاء على حكومة البروليتاريا سيتم عن طريق الثورة، فمن هذه الطبقة الثائرة التي سيتم على يدها هذا التحول؟ في حين تقول الماركسية إن الثورة الاجتماعية على حكومة، إنما تنبثق دائماً من الطبقة التي لا تمتلكها تلك الحكومة. فلا بد إذن في هذا الضوء أن يتم التحول الثوري إلى الشيوعية على أيدي غير الطبقة التي تمثلها الحكومة الاشتراكية، وهي طبقة البروليتاريا. فهل تريد الماركسية أن تقول لنا إن الثورة الشيوعية تحصل على أيدي رأسماليين مثلاً؟

وإذا كان التحول من الاشتراكية وزوال الحكومة تدريجياً. فهذا يناقض - قبل كل شيء - قوانين الديالكتيك التي تركز عليها الماركسية فإن قانون الكمية والكيفية في الديالكتيك يؤكد: إن التغيرات الكيفية ليست تدريجية بل تحصل بصورة فجائية، وتحدث بقفزة من حالة إلى أخرى. وعلى أساس هذا القانون آمنت الماركسية بضرورة الثورة في مطلع كل مرحلة تاريخية بوصفها تحولاً آتياً. فكيف بطل هذا القانون عند تحول المجتمع من الاشتراكية إلى الشيوعية؟

والتحول التدريجي السلمي من المرحلة الاشتراكية إلى الشيوعية كما يناقض قوانين الديالكتيك كذلك يناقض الأشياء. إذن كيف يمكن أن نتصور أن الحكومة في المجتمع الاشتراكي تتنازل بالتدريج عن السلطة وتقلص ظلها حتى تقضي بنفسها على نفسها، بينما كانت كل حكومة أخرى.. على وجه الأرض

تتمسك بمركزها وتدافع عن وجودها السياسي إلى آخر لحظة من حياتها؟ فهل هناك أغرب من هذا التقليص التدريجي الذي تتبرع بتحقيقه الحكومة نفسها فتسوخو بحياتها في سبيل تطوير المجتمع؟ بل هل هناك ما هو أبعد من هذا عن طبيعة المرحلة الاشتراكية والتجربة الواقعية التي تجسدها اليوم في العالم؟ فقد عرفنا إن من ضرورات المرحلة الاشتراكية قيام حكومة دكتاتورية مطلقة السلطان، فكيف تصبح هذه الدكتاتورية المطلقة مقدمة لتلاشي الحكومة واضمحلالها نهائياً؟ وكيف يمهد استفحال السلطة واستبدالها إلى زوالها واختفائها؟

وأخيراً فلنجنح مع الماركسية في أخيلتها، ولنفترض أن المعجزة قد تحققت، وأن المجتمع الشيوعي قد وجد، وأصبح كل شخص يعمل حسب طاقته، ويأخذ حسب حاجته أفلا يحتاج المجتمع إلى سلطة تحدد هذه الحاجة، وتوفق بين الحاجات المتناقضة فيما إذا تزاومت على سلعة واحدة، وتنظم العمل وتوزعه على فروع الإنتاج؟^(١)

وهذه النقطة الأخيرة أمر مهم يوضح ضرورة الدولة في أي مجتمع حتى المجتمع الخيالي الشيوعي الذي يفترض فيه ذوبان غريزة حب الذات من الإنسان — وهو أمر ينكره وجدان الإنسان — وعمق هذه الغريزة الضارب في وجود أي إنسان. نعم حتى في ذات المجتمع توجد فراغات وشؤون عامة تحتاج فيها إلى سلطة تقوم على ملئها وتسييرها.

ويتوضح هذا عندما ندرك وظائف الحكومة اليوم وتعقدها وأنها ليست كلها قائمة على أساس تناقض المصالح الطبقيّة.

على أننا لو آمنّا بما قلناه في التنبيه الماضي من وجود هدف إنساني عام وهو الكمال وبناء المجتمع العابد، ولاحظنا أنه ليس لهذا الهدف حد ومجال متصور، عرفنا أن الحكومة تحتفظ بدورها في مختلف مراحل الوجود الاجتماعي للإنسان.

(١) اقتصادنا: ٢١١/١ - ٢١٢.

على أن ما يمكن تصوره من عوامل نقلت المجتمع من الشيوعية البدائية إلى المرحلة التي عملت الملكية فيها عملها في التقسيم الطبقي يمكن تصور وجوده في المرحلة الشيوعية أيضاً وبشكل أشد خطراً. ومعه ألا نحتاج للهيئة المسلطة التي تمنع من هذا السير التحولي؟

وعلى أي حال فإن الواقعية تقتضي تكذيب الماركسية والتأكيد على ضرورة الحكومة في كل عصر إنساني خصوصاً مع ملاحظة الوظائف المتشعبة التي تقوم بها في هذا العصر كما في التخطيط الصناعي والزراعي والصحي وأمثال ذلك.

وقد أكد المفكرون هذه الضرورة ومنهم أرسطو الذي اعتبرها من عمل الطبع و (إن الإنسان بالطبع كائن اجتماعي وإن الذي يبقى متوحشاً - بحكم النظام لا بحكم المصادفة - هو على التحقيق إنسان ساقط أو إنسان أدنى من النوع الإنساني)^(١).

هذا ونقل عن «المذهب الفوضوي» قوله بعدم ضرورة الحكومة مستدلين بأن طبيعة الإنسان خيرة وعاقلة فلا حاجة للحكومة وأنها تجر المصالح لطبقة خاصة وتهمل مصالح الأفراد، وأنها تقيد الحرية الفردية وأمثال ذلك.

وهذه أمور لا نرى حاجة في تنفيذها أو تفنيدها لتسويقها لعدم الحكومة. أما رأي الإسلام فسوف نستعرضه إن شاء الله.

نشوء الحكومة :

ولا يهمننا إلاّ التعرض باختصار لبعض الآراء في نشوء الحكومة. فقد ذهب «بودان» الفرنسي إلى أن أصل الحكومة هو التكوين الأسري وذهب «فريزر» إلى أن أصل تشكيل الحكومة هو الدين الذي جمع العائلات ووضع القانون. ويرى «أوبنهمير» الألماني أن أصلها هو القوة. في حين ذهب بعض الفلاسفة إلى الأصل الفطري لتشكيل الحكومة باعتباره نتيجة حتمية للتجمع وهو أمر فطري،

(١) السياسة، ترجمة أحمد لطفى: ص ٩٦.

وهم من مثل (أرسطو والفارابي وابن خلدون) أو تعتبر الحكومة فطرية باعتبار نشوئها على أساس نزعة سياسية في الإنسان تدعو للسيطرة على الآخرين. وهناك نظرية العقد الاجتماعي التي تدعي نشوء الحكومة على أساس اتفاق اجتماعي للدخول تحت قانون وحكومة.

وأخيراً لا بد وأن نشير إلى النظرية الماركسية القائلة بنشوء الحكومة على أساس التناقض الطبقي حيث تقوم الطبقة الغالبة بإنشاء القدرة السياسية التي تحمي مصالحها الاقتصادية.

وقد ادعت الماركسية أن تفسيرها هنا كباقي تفسيراتها يقوم على أساس من بحوث حولت التاريخ إلى علم بعد أن كان ضرباً من التخيل والمصادفة.

ولكن الواقع أن الماركسيين لا يستطيعون - كما لا يستطيع غيرهم ممن فسروا نشوء الدولة وغيرها على أساس من العامل الواحد - أن يقيموا دليلاً علمياً قاطعاً ينفون به كل الاحتمالات الأخرى ما عدا احتمالاً واحداً وذلك لاختلاف التجارب الطبيعية التي يقوم بها العلماء الفيزيائيون فيثبتون بها انحسار العامل في شيء معين، عن التجارب الاجتماعية التاريخية التي هي أكبر من عمر الفرد حتماً، فلا بد أن يعتمد فيها على الأخبار والحس وربما الفرض المحض أحياناً.

وللتفصيل في هذا المجال يراجع الكتاب القيم (اقتصادنا) ص ٥٨ - ٦٧.

وعليه فلا نستطيع أن نجزم بعامل معين لنشوء الحكومة وبالتالي مجموع عناصر الدولة وربما اجتمعت عوامل في ذلك. وإذا كانت قد نشأت على أساس عامل واحد أول الأمر فلا يعني ذلك أنه العامل الوحيد لنشوء الحكومات بعد ذلك، والذي ترتبط به الحكومة وجوداً وعدمياً.

احتياج الحكومة إلى مبرر وجداني للحكم:

إذا شئنا طرح البحث في مجال إنساني منطقي عام يمكن أن يكون مقبولاً من قبل كل إنسان ذي فكر سليم، وجب أن نلتزم بمقياس إنساني عام مقبول لدى الجميع.

وإذا فتشنا عن هذا المقياس العام الذي يجب التحاكم إليه في كل أمر أريد معرفة منطقيته وإنسانيته فسوف لن نجد لأول وهلة – وبغض النظر عن كل نزعة أو ميل فكري – إلاّ الوجدان الأخلاقي في الإنسان، وهو جانب فطري أصيل لا يختلف في روحه ولا يختفي اختفاءً تاماً عن حياة الإنسان وإن أمكن أن نتصور طغيان بعض الشبهات وتغير تطبيقاته فحتى الذين أنكروا الفطرة وأنكروا في ضمنها الوجدان لم يستطيعوا أن يتخلصوا – عفواً – من أحكامه. وإلاّ فما معنى أن نتصور ادعاء الإنسانية والتكامل في نظرية لا تؤمن بالفطرة – وهذا يعني أنها لا تؤمن بوجود سبيل فطري وإمكانات أصيلة هتّى لها الإنسان ومن حقه أن يسير نحوها ومع عدم وجوده لا معنى لأن يكون هذا المبدأ إنسانياً دون ذلك، ولا معنى لسير هذا نحو التكامل دون ذلك.

ففس التصاق المبادئ بالإنسانية والكمال له تأثير وجداني عميق.

وعليه فإن الوجدان الإنساني سوف يكون هو الحاكم الأصيل بمنطقية المبدأ وإنسانيته أو عدمهما.

وعندما نراجع الوجدان نجد أنه يتطلب في كل حكومة وجود عاملين رئيسين هما:

الأول: استمداد حق الحكم من مصدر مؤهل لذلك وبتعبير آخر استمداد حق التصرف وتقييد الحريات ممن له ذلك.

الثاني: قيام الحكم على أساس المصلحة الاجتماعية والفردية. فإذا استطاع الحكم أن يوفر هذين العاملين معاً، فقد وفرّ صيغة منطقية وجدانية له، وإلاّ عاد ظلماً وجبروتاً.

وتوضيح الأمر: أنه يمكن تصور عمل الحكومة في المجالات التالية:

١ – قيامها بتحديد الحريات الشخصية بتوجيه السير ومنع التجول في أماكن خاصة، وأمثال ذلك، ويشمل هذا قيام الدولة بفرض بعض الوظائف الاجتماعية على أفراد لا يرون لها ضرورة.

٢ - قيامها بتحديد الحريات الاقتصادية بمنع بعض الأفراد من إشباع غريزة حب الذات والسيطرة على بعض الأموال من طرق معينة، وفرض الضرائب وغير ذلك.

٣ - قيامها بحل النزاعات والضرب على يد المعتدي ومنع الظالم من ظلمه وأمثال هذه المجالات.

ومن الواضح أن الوجدان إذا كان يكتفي في المجال الثالث بكون تدخل الحكومة هو لمصلحة المجتمع والفرد بمنع الظلم والضرب على يد الظالم ظلماً وجدانياً لا ظلماً تراه الدولة كذلك لمصلحتها الخاصة، إذا كان يكتفي هنا بالمصلحة فهو لا يكتفي بها في المجالين الآخرين وإنما يتطلب مع ذلك وجود تولية أو توكيل ممن له الحق في هذا التحديد. رغم أن الإنسان يمتلك في الأصل حرية الطبيعية الأخلاقية في أن يفعل ما يحلو له، وكان ذلك انعكاس لكونه مخلوقاً إرادياً له الحق أن يفعل وأن لا يفعل في كثير من الأمور والمجالات.

أشكال الحكم الرئيسية :

وإذا أردنا أن نستعرض أشكال الحكم الرئيسية أمكننا تصنيفها كما يلي:

١ - الحكم الإسلامي بكلا أطروحتيه «أطروحة الشورى وأطروحة الإمامة ونيابتها».

٢ - الحكم الاستبدادي «الفردى، أو الفتوى، أو الحزبى».

٣ - الحكم الديمقراطي «الملكية الدستورية، الجمهورية».

هذه هي الأقسام الرئيسية المفروضة.

هذا وقد يتحول بعض هذه الأنماط إلى النمط الآخر نتيجة سوء التطبيق أو نتيجة نقص في النظام نفسه أو اقتباس نظام شيئاً من النظام الآخر.

وذلك كأن يمنح الشعب مثلاً رئيس الجمهورية حق الحكم المطلق فيصبح مستبداً تماماً، أو أن يمتلك الحكم الاستبدادي الحزبى نوعاً من الديمقراطية في

إطاره الحزبي وإن كان مستبداً على الشعب، أو أن يرى الحاكم الإسلامي في نظام الإمامة وجوب العمل برأي الأكثرية مثلاً في أمر ما، وأمثال ذلك. ونرى أن هذه الأقسام الثلاثة تختلف عن بعضها اختلافاً جوهرياً.

موقف الإسلام من مسألة الحكم والسيادة:
وفيه فروع مترابطة:

الفرع الأول — الإسلام والحكم:

وبسط الحديث إلى حد ما في هذا الموضوع يستدعي مراجعة بعض الأقوال الشاذة التي نفت أن يكون الإسلام قد جاء ليعطي نظاماً للحكم ثم التعقيب عليها بالنظرة المخالفة وبيان الحق والواقع.

ولعل «علي عبد الرازق» مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الأحكام» هو الذي أثار هذه الضجة، وإن كنا نستطيع أن نجد الشواذ ممن أيده كخالد محمد خالد وبعض الكتاب الآخرين وبعض المستشرقين أيضاً. وتتلخص نظريته في أن الإسلام لم يخطط نظاماً — ولو بنحو المبادئ العامة للنظام — في مجالات الحكم وأنه ليس إلا دعوة دينية خالصة لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة، وإذا كان الرسول زعيماً فليست زعامته زعامه حكم وسلطان بل هي زعامه دينية لا ربط لها بالزعامه السياسية.

وقد استند في نفيه هذا لتخطيط الإسلام للحكم إلى الأمور التالية:

أولاً — القرآن: كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾^(١).

﴿ إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾^(٢).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾^(٣).

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٤.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٠٥.

و ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾^(١).

وخلاصة الاستدلال أن من لم يكن مسيطراً ولا وكيلاً وإنما هو مجرد مبلغ ومبشر ونذير ليس حاكماً أيضاً^(٢).

ثانياً – السنة الشريفة: ويستند فيها إلى أحاديث ووقائع من مثل ما يلي:

(أ) جاء رجل إلى النبي ﷺ فأصابته رعدة شديدة فقال له الرسول ﷺ: «هون عليك فإني لست بملك ولا جباراً وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة».

(ب) قول الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم».

ثالثاً – الدليل العقلي: ويتلخص في ادعاءات ثلاثة:

(أ) أن من المعقول أن ينظم العالم في وحدة دينية ولكن ليس من المعقول أن ينظم العالم في حكومة واحدة فذلك يوشك أن يكون خارجاً عن طبيعة البشرية.

(ب) أن مسألة الحكم غرض دينوي خلى الله بينها وبين عقولنا.

وأخيراً فإن دولة الرسول خلت من كثير من أركان الدولة.

وهو يقول: «ولماذا لم يتحدث إلى رعيته في نظام الملك وفي قواعد الشورى، ولماذا ترك العلماء في حيرة واضطراب من أمر النظام الحكومي في زمنه؟»^(٣).

هذا وقد نقل الأستاذ عبد الحميد متولي بعض الاستنادات الأخرى لبعض العلماء والمحدثين تدعيماً لوجهة النظر هذه وهي:

أولاً: أن المؤسس الحقيقي للدولة الإسلامية هو أبو بكر.

(١) سورة العنكبوت: الآيتان ٢١، ٢٢.

(٢) الإسلام وأصول الحكم: ص ٧١ – ٧٥.

(٣) الإسلام وأصول الحكم: ص ٧٨.

ثانياً: أن الدين حقائق ثابتة لا تتغير والدولة نظام متغير .

ثالثاً: فشل الحكومات الدينية واستبدالها وعدم القبول للتطوير و «القوة تحتل من طبيعة الحكومة الدينية مساحة واسعة. . . وهي تستمد تبرير قسوتها وبطشها من نفس الغموض الذي تستمد منه سلطتها» كما يقول خالد محمد خالد في كتابه: (من هنا نبداً).

دوافع القول بهذه النظرية :

يختلف الباحثون حول دوافع القول بها، فبينما يعتبرها بعضهم نظرية قائمة على البحث التنزيه، يرى البعض الآخر إنها جزء من مخططات الاستعمار.

ولكن الأستاذ متولي يرى أن الطرفين جانبا الحق وأن الدوافع تكمن في ما يلي بتلخيص:

١ - إن علي عبد الرازق كان يريد أن يثبت هدفه الأساسي، وهو أن الخلافة ليست أصلاً من أصول الحكم في الإسلام وذلك ليضرب به هدف الملك فؤاد ملك مصر الذي أراد الاحتلال البريطاني أن يجعله خليفة للمسلمين بعد أن قام أتاتورك بعزل الخليفة العثماني وإقامة النظام الجمهوري في تركيا.

٢ - خشية بعضهم من أن يسيطر الفقهاء على شؤون الدولة وبث روح الجمود فيها وهو ما أصيب به الفقه الإسلامي بعد سد باب الاجتهاد.

وقد ناقشه بقوله: (ولقد فات أصحاب هذا الرأي أنه إذا كان مما لا يمكن إنكاره أن الأخذ بالرأي الآخر (القائل بأن الإسلام دين ودولة) مما يؤدي بلا ريب إلى الإعلاء من مقام رجال الفقه الإسلامي، فليس من شأنه أن يؤدي حتماً إلى أن يكون رجال الفقه أو الدين من الحكام، فلم يكن هذا هو الشأن حتى في صدر الإسلام فمعاوية ويزيد وعمرو بن العاص (وكثير غيرهم من رجال الحكم في ذلك العهد) لم يكونوا من علماء الفقه والدين).

٣ - التأثر بالفكرة الغربية «فصل الدين عن الدولة».

ويمكننا أن نكون الرأي الحق بملاحظة نقاط ثلاث:

النقطة الأولى:

إن النظر المنصف إلى الإسلام ونصوصه وتاريخه وضروراته لا يدع مجالاً للمكابرة في أنه يجعل مسألة الحكم في إعداد أهم المسائل التي يعالجها ويضع مبادئها...

فلنلاحظ هذا بشيء من التفصيل:

(أ) طبيعة الإسلام:

وإذا تصفحنا خصائص الإسلام عرفنا أن أهم الخصائص وأبعدها غوراً في وجوده هي الواقعية، فالإسلام دين واقعي ينسجم مع الفطرة الإنسانية والواقع التكويني الذي يعيشه الإنسان، ولا يتناقض مع نفسه ومع هدفه السامي مطلقاً. وهذه الواقعية هي التي تفرض أن يهتم الإسلام بمسألة الحكم تمام الاهتمام وذلك:

أولاً: لأن الإسلام جاء ديناً شاملاً لكل نواحي الحياة الإنسانية، مخططاً لكل سلوك، ومعيناً لكل نظام وليس هناك في حياة الإنسان سلوك ولا فرضية لا يدخل تحت نظام خاص وحكم خاص.

وهذا ما نستكشفه من عمل الإسلام على إعطاء رأيه في كل مجال، ومن روايات متعددة تؤكد هذا المبدأ من مثل:

١ - الرواية الصحيحة التي رواها الكافي عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن حماد عن أبي عبد الله الصادق (ع) قال سمعته يقول:

(ما من شيء إلا وفيه كتاب وسنة)^(١).

٢ - وما رواه الكافي أيضاً عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن

(١) وسائل الشيعة.

ابن فضال عن عاصم بن حميد عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر (ع): قال: (خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: يا أيها الناس والله ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه).

والرواية صحيحة أيضاً.

وغيرهما من الروايات التي تؤكد رأي الإسلام حتى في «أرش الخدش».

ولعل وجود مفهومي «الحلال والحرام» اللذين لا يخرج عنهما أي فعل أكبر موضح لأن الإسلام أعطى رأيه بالعموم أو بالخصوص في كل سلوك إنساني وعين مذاهبه السياسية والاقتصادية والتربوية وغيرها وقام نظمه فيها على أساس من مذاهبه العامة.

ولا يمكن مع هذا أن نفترض الإسلام غافلاً عن مسألة الحكم أو تاركاً إياها للظروف والتطورات والتقلبات التي تفرض نفسها على المجتمع الإسلامي وتحكمه وتفرض سيطرتها عليه دون أن تستمد منه ولايتها ومبادئها العامة على الأقل.

وثانياً: فإننا حتى لو غضضنا النظر عن مسألة الشمول التي اقتضتها الواقعية الإسلامية، نجد أن الإسلام بلا ريب أعطى الأمة نظاماً اقتصادياً كاملاً يقوم على مذهب محدد، كما أعطاها نظاماً للعقوبات وآخر للشؤون الشخصية ورابعاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، وكل هذه النظم يمتلك الحكم فيها مساحة مهمة بحيث لا يتصور قيام كل منها كنظام إلا بافتراض وجود الدولة الإسلامية التي تحتل ذلك الموقع وتسير على هدى الإسلام وتعيينه لوظيفتها.

يقول الأستاذ المرحوم محمد المبارك: (إن مجموع هذه الأحكام الجنائية والمالية والدولية والدستورية لا يمكن أن يعقل إيرادها والالتزام بها التزاماً يعتقد المؤمن بالإسلام بوجوبه والإثم بتركه إلا إذا كان القرآن يفرض على المسلمين تنظيم الحكم وإقامة الدولة).

ولا يعقل أن يقدم الإسلام في قرآنه هذه الأحكام لدولة لا تؤمن به أو لا تقوم على أساس عقيدته ومبادئه، ولا يقول بهذا إلا من فقد رشده أو غالط نفسه أو قصد المراوغة والخداع^(١).

والطريف أن نجد جان جاك روسو يسوّغ رفضه للدين العالمي الذي يتدخل في الشؤون المدنية بأن ذلك يؤدي إلى الاعتراف برئيسين وسلطانين وقانونين وهو ما لا ريب في سخفه وعدم إمكانه فيقول: (قد ينقسم الدين على ضوء علاقته بالمجتمع التي تكون إما علاقة عامة أو خاصة إلى نوعين: وهما دين الإنسان ودين المواطن).

الأول: وهو بلا معابد ولا هياكل ولا طقوس، مقتصر على العبادة الداخلية المحضة لله الأعلى، وعلى الواجبات الأخلاقية الأبدية يكون دين الإنجيل النقي والبسيط، التوحيد الحقيقي وهو ما يمكن أن نسميه: القانون الإلهي الطبيعي.

الثاني: وهو مدون في بلد وحيد يمنحه آلهته وشفعاؤه الخاصون وحماته وله عقائده وطقوسه وعبادته الخارجية المفروضة بالقوانين وفيما عدا الأمة التي تعتنقه، يكون كل إنسان بالنسبة له كافراً، أجنبياً، بربرياً، وهو لا يمد واجبات الإنسان وحقوقه خارج حدود هياكله. كانت هذه هي أديان الشعوب الأولى جميعها التي يمكن أن نطلق عليها اسم القانون الإلهي المدني أو الوضعي.

ثمة نوع ثالث من الأديان أكثر غرابة، إذ إنه بتقديمه للبشر تشريعين وطنيين يخضعهم لواجبات متناقضة ويمنعهم من أن يكونوا في آن واحد مؤمنين ومواطنين. ذلك هو دين اللاميين، ودين اليانبيين والمسيحية الرومانية، ويمكن تسمية هذا الدين بدين الكاهن، وينشأ عنه نوع من القانون المختلط والانطوائي لا اسم له إطلاقاً.

وإذا ما نظرنا سياسياً إلى هذه الأنواع الثلاثة من الأديان وجدنا أنها تنطوي على أخطاء.

(١) نظام الإسلام والحكم والدولة، محمد المبارك: ص ١٣.

فالثالث واضح كل الوضوح أنه سيء، ومن العبث إضاعة الوقت في البرهان على ذلك، إذ إن كل ما يفرق الوحدة الاجتماعية لا قيمة له، وجميع المؤسسات التي تضع الإنسان في تناقض مع نفسه لا قيمة لها^(١).

ورسو هنا ينظر للدين نظرة المشرع الوضعي المؤمن بالديمقراطية والنظام المدني وهو يحاسب الدين على ضوء خدمته لهذا النظام. فيقسم الدين إلى دين روحاني عالمي لا ربط له بالحياة، وآخر إقليمي ذي هياكل وهو يسند القانون الوضعي، وثالث عالمي متدخل في شؤون الإنسان ويرى أن الثالث واضح البطلان.

والواقع أن الدين العالمي المتدخل لو كان يعترف بقانونين وسلطنتين ووطنين أحدهما للدين والآخر للدولة، فما أسخفه وما أبعدته عن الواقع.

ولكن الإسلام وهو الدين العالمي المنظم لشؤون الإنسان على ضوء علم وحكمة الهيين واسعين لا يسمح بقيام نظام وسلطة أخرى إلى جنب سلطته وحكومته وإلا ألقى الإنسان في تناقض مع نفسه كما فعلت المسيحية المحرفة بتدخلها القليل في شؤون الإنسان واعترافها بالنظم المدنية.

إن الإسلام يعتبر نفسه هو الحاكم وهو المسيطر وهو المطاع وهو الموجه لشؤون الحياة، كما ستأتي بعض النصوص في ذلك. وهو الذي يربط بين شؤون الدنيا والآخرة ربطاً تاماً حتى أنه دعا لأن تكون الحياة بمفهومها الواسع عبادة وقربة إلى الله، فلا معنى للقول بعد ذلك، بأن هذا من أمور الدنيا وذاك من أمور الآخرة وهذا من أمور الدين وذلك من أمور الدولة والدنيا وأمثال ذلك.

وثالثاً: لأن القرآن والإسلام دعوة انقلابية تربوية تريد أن تربي الإنسانية العابدة وتنفي كل بذور الجاهلية في العقيدة والنظام والأخلاق والتقاليد وغيرها. والتربية تعني أول ما تعني مسك أزمة الأمور ثم وضع برنامج تربوي عام وخلق التلاؤم بين مختلف نواحي الحياة ونظمها خدمة لذلك الهدف التربوي العام الذي

(١) في العقد الاجتماعي: ص ٢٠٦، ٢٠٧.

بينته الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ (١).

تحقيقاً لمدارج التكامل الإنساني ومن هنا يتغير هدف الحكومة في الإسلام ويختلف عن أهداف الحكومة في المجتمعات الوضعية - كما قلناه - حيث ركزت على تحقيق رفاهية المواطنين وراحتهم في حين يطلب الإسلام من (الإمام) وهو عنوان الدولة الإسلامية أن يراقب تحولات المجتمع ويسوقه نحو كماله في مختلف الجوانب. كما سيأتي مزيد توضيح لهذه النقطة.

رابعاً: فإن طبيعة العقيدة الإسلامية تقضي أن تستمد الحكومة ولايتها وقدرتها ومبادئها من الإسلام فإن أساس الإسلام هو التوحيد الخالص وولاية الله الحقيقية ومالكه للكون والإنسان ولن يملك أي إنسان ولاية على آخر إلاّ بسماع الله له وقد رأينا من قبل أن الحكومة بطبيعتها تحتاج إلى من يمنحها هذه الولاية ووفقاً للعقيدة الإسلامية وأساسها التوحيدي الحنيف لا يملك حتى الناس أنفسهم سلطة تولية الآخرين عليهم إلاّ بإذن الهي.

ومن هنا كان النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما في حديث الغدير المتواتر وكان الإمام بعده أولى بالمؤمنين كما سيأتي.

هذا بيان موجز عن اقتضاء طبيعة الإسلام وواقعيته لأن يضع الإسلام أسس دولته الخالدة خلود رسالته.

(ب) النصوص الإسلامية:

والنصوص الإسلامية التي تشير من قرب أو بعد إلى التحام مسألة الحكم بالإسلام كثيرة نلاحظ منها ما يلي: يقول تعالى:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ (٢).

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠٥.

أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١٥﴾ ﴿١﴾.

و ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ﴿٢﴾.

و ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿٣﴾.

وروي عن الرسول ﷺ قوله المقطوع به:

«من مات وليس في عنقه بيعة لإمام فقد مات في جاهلية» وحديث الغدير

الذي أكد فيه ﷺ أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأمثال ذلك.

بل إذا لاحظنا الأدلة القاطعة التي تؤيد وجهة النظر هذه التي استُقي بعضها من الروايات، عرفنا أن مسألة الحكم تشكل معلماً بارزاً من معالم الإسلام وبدونها لا يكمل الدين، بل يشكل نظام الإمامة امتداداً للنبوة مع فوارق بينهما.

ولكننا نكتفي هنا بذكر نص واحد عن الإمام الرضا (ع) يقول فيه:

(يا عبد العزيز، جهل القوم، وخدعوا عن أديانهم، إن الله تبارك وتعالى

لم يقبض نبيه ﷺ حتى أكمل له الدين، وأنزل عليه القرآن فيه تفصيل كل شيء، بيّن فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما تحتاج إليه الأمة فقال عز وجل: ﴿ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ﴿٤﴾.

وأنزل في حجة الوداع وهي آخر عمرة: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْتَمْتُ عَلَيْكُمْ

نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ﴿٥﴾.

وأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يرحل ﷺ حتى بين لأمته معالم دينهم

وأوضح لهم سبلهم) ﴿٦﴾.

(١) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(٢) سورة الجاثية : الآية ١٨ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤٤ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٣٨ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٦) عيون أخبار الرضا: ١/٢١٦ .

(ج) التاريخ الإسلامي:

ولا نجدنا بحاجة إلى استعراضه لوضوح قيادة النبي ﷺ والصحابة والأئمة لشؤون الحكم، وما كان الهدف المعلن للإمام الحسين (ع) إلاً استلام الحكم من يزيد، وإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(د) الضرورة الإسلامية:

فإن مسألة الحكم وارتباطها بالإسلام لم يختلف فيها أحد، فحتى الخوارج الذين رفضوا حكام عصرهم نسبوا الحكم إلى الله غافلين عن أن الله لا بد وأن يعين من يطبق شريعته على الأرض ويقود عملية التربية الكبرى.

النقطة الثانية:

بالنسبة إلى الدوافع التي ذكرت للقول بفصل الإسلام عن مسألة الحكم نود أن نقول:

إن علائم التعمد والتحريف واضحة في كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ولعل مؤلفه كان أدري بأن ما يستدل به لا يتجاوز ما لا تستقيم دلالاته على مدلوله أو ما لا يعدو كونه قصة تاريخية لا تملك سنداً شرعياً أو ظناً لا يغني عن الحق شيئاً.

أما الدوافع التي ذكرت بعد ذلك، فالدافع الأول منها سياسي محض وفرض وهم، إذ كيف يمكن أن نتصور بريطانيا تعمل على إرجاع الخلافة الإسلامية ولو في شخص رجل منحرف مثل الملك فؤاد، وهي التي عملت المستحيل وتوسلت بكل السبل لإفناء الخلافة العثمانية بفعل تحريك العميل الصهيوني الكبير أتاتورك وتحريك العرب وإثارة الروح القومية فيهم؟ وأمثال ذلك فلا يعدو هذا إلاً وهماً. نعم يمكن أن نتصور الاستعمار البريطاني نفسه يدفع أمثال «علي عبد الرازق» لفصل الإسلام عن مسألة الحكم وبالتالي خلق روحية الحكم المدني وجعل الدين ذا دور غير أساسي في التشريع وهو ما طبقه الاستعمار فعلاً في الدويلات التي شكلها بشكل غير مباشر وصاغ قوانينها الوضعية معطياً للإسلام بعض المجالات القليلة كالأشؤون الشخصية من زواج وطلاق وأمثالهما.

وأما الدافع الثاني: وهو التخوف من سيطرة الفقهاء على الدولة وتجميدها فقد رأينا الدكتور متولي يردده بأن الحكم الإسلامي يعزز مكانة الفقيه ولكنه لا يجعله رجل الدولة الوحيد ثم يذكر مثلاً للحاكم الإسلامي مجسداً حكاماً مثل يزيد ولم يكن يزيد بن معاوية من الفقهاء.

والرد قد يمكن توجيهه إلى حد ما طبق الأطروحة التي تعتمد الشورى أساساً وإن أمكن القول بأن أهل الحل والعقد المتدينين سوف يميلون بالطبع إلى رجال الفقه والدين، فإذا افترضنا هؤلاء ممن ابتلوا بالجمود كان من المتوقع للدولة الجمود على وضعها وعدم تطورها وهذا ما يرفضه المنطق الاجتماعي ولكن النقص الأساسي في الرد يكمن في تمثيله بحكام امتلكوا الأمر بالجور والقهر والقتل وشوهوا وجه التاريخ الإسلامي بالظلم والهتك والمكر. فهل يرضى الدكتور أن يمتلك أمر الأمة أمثال يزيد؟ إنها والله الداهية الدهيئة — على أن الرد لا ينسجم مع النظرية التي تعطي الفقيه الدور الأساسي في الأطروحة ضمن شروط خاصة — كما سنبين . . .

وأما الدافع الثالث: فهو دافع متوقع جداً بعد نفوذ الغرب وتصوره عن الدين وتشيع المثقفين العرب بذلك وبهر الغرب لهم بنظامه الديمقراطي الذي يفصل بين الدين والسلطة وهو أمر ينسجم مع الدين المسيحي المنحرف والذي لم يعد سوى دين ينظم جوانب العبادة الشكلية لا غير، وسنوضح هذه النقطة في البحث التالي عن العلمانية.

والشيء الهام الذي نود التنبيه عليه في هذا المجال هو أن نقاط الضعف الكبرى الموجودة في بعض التصورات لنظام الحكم في الإسلام كان لها أكبر الأثر في موقف هؤلاء إن لم تكن هي الدافع الرئيس لذلك.

ولكننا هنا نلخص بعضها المحتمل قوياً تأثيره في هذا الموقف:

(أ) ضعف الأدلة المقامة على نوعية نظام الحكم «الشورى» المستقل عن عنصر الولاية وقبولها كلها للمناقشة الدلالية وبعضها للمناقشة السندية، ولعل كلمة خالد محمد خالد تشير إلى ذلك.

(ب) غموض نظام الشورى وعدم احتوائه - على الأقل - على المبادئ الضرورية لتكوين أي نظام.

(ج) تأرجح تطبيق هذا النظام بين تطبيقات مختلفة.

(د) تعميم عنوان (ولي الأمر) لكل من مسك بأزمة الأمور، وتعيين وجوب طاعته حتى ولو كان فاسقاً.

(هـ) وجود نقاط ضعف ولعل أهمها ما جاء في تفسير حديث (أتم أعلم بشؤون دنياكم).

فإذا ضممنا إلى ما تقدم المستوى الفكري غير المتحول الذي وصل إليه بعض الفقهاء في العصور الأخيرة والجمود الذي ابتلوا به على أثر إغلاق باب الاجتهاد والتبعية المطلقة للرئاسة الدينية للدولة القائمة وحدوث الكثير من العقبات في وجه الفقيه غير المجتهد. إذا ضممنا إليه كل ذلك عرفنا جانباً هاماً من جوانب هذه الدعوة الخطيرة.

النقطة الثالثة: مناقشة أدلة هذا الاتجاه.

وهنا لا بأس بالتعرض للرد الموجز على الأدلة المذكورة:

أولاً - الآيات القرآنية:

من قبيل ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾^(١) ومن الواضح لكل من لاحظ هذه الآيات أنها آيات مكية إلا الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾^(٢).

ولاحظ أسباب نزولها وأنها كانت تطيب من خاطر النبي ﷺ الذي كان يتألم كثيراً لإعراض بعض المشركين ووقوفهم بوجه دعوته الكبرى، فتخبره أن لا يبخل نفسه على أن لا يكونوا مؤمنين فليس عليه إلا البلاغ أما إذا رفضوا الإسلام فليس هو بوكيل حفيظ عليهم، أنها لا تدل على المدعى المذكور وليست بهذا الصدد.

ويوضح هذا - بالإضافة لملاحظة سياق الآيات وأسباب نزولها - الآيات

(١) سورة النساء: الآية ٨٠.

الكثيرة التي ذكرنا بعضها والتي تؤكد أن الرسول هو الشهيد على هذه الأمة وتوجب طاعته وقيادته ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ (١).

و ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (٢).

و ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٣).

وكلها تتحدث عن قيادته ومسؤوليته تجاه أمته وأنه أولى بها من نفسها.

أما الكافرون المكذبون فليس هو بمسؤول عن تكذيبهم وإنما سيجزون بما كفروا يوم القيامة.

وكذلك يوضح ذلك موقف الرسول العملي وقيادته للحياة العامة وعدم اقتصاره على مجرد التبليغ والإنذار بالضرورة.

ثانياً - الأحاديث النبوية:

فلو غرضنا النظر عن أسانيدنا ولم نناقش روايتها واحداً واحداً - وهو طبعي - فإن الحديث الأول واضح الدلالة على أن الحاكم الإسلامي حتى ولو كان هو النبي ﷺ ليس ملكاً جباراً مستبداً يحكم هواه ويقتل بغير حساب، ويقهر رعيته بالرهبة والجبروت وإنما ينبغي أن يكون الرحيم العطوف الودود برعيته كما كان النبي ﷺ وكما كان الخلفاء وها هو علي تراه في أصحابه كأحدهم وهو يكتب إلى عامله على مصر (مالك الأشر) كتاباً رائعاً يقول فيه من جملة ما يقول: (واشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق... .) [نهج البلاغة، صبحي الصالح: ص ٤٢٧].

أما حديث (أنتم أعلم بشؤون دنياكم... .) فإنه أقوى دلالة على المطلوب لو صح وإن كان من الممكن النقاش فيه على أساس أن المقصود من أمور الدنيا

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٣) سورة الفتح: الآية ٢٩.

الأمر التجريبية التي يدركها الإنسان بالممارسة وليست مسألة الحكم أمراً من هذا القبيل بل هي العمود الرئيسي للمجتمع الذي يعمل الإسلام على بنائه وخصوصاً بالنسبة لفترة ما بعد الرسول ﷺ .

ولكن الكلام كل الكلام في صحة هذا الحديث وذلك :

(أ) كيف يعقل أن لا يعلم النبي ﷺ وهو الذي يعيش في مجتمع أهم زراعة فيه هو زراعة النخل – إن تأبيره ضروري لإنتاجه حتى لو فرضناه غير متصل بالسماء في هذه الأمور على الأقل؟ وكيف لم يرد عليه الفلاحون؟

(ب) إن الإسلام كما قلنا أعطى رأيه في مختلف الشؤون الدنيوية بعد أن ضبط كل تصرفات الإنسان تحت عنواني الحلال والحرام كما مرّ، وقد تدخل النبي ﷺ في مختلف شؤونهم الحياتية حتى بصفته ولي الأمر فقاد الحيوش ووجههم في مختلف الأمور كما في المجال الصحي وفي المجال الاقتصادي وأمثال ذلك .

(ج) وقد قام بعض العلماء بمناقشة هذا الحديث سنداً ودلالة فاعنوننا عن البحث فيه .

ثالثاً – الأدلة العقلية :

وكلها لا تصلح دليلاً على المدعي .

أما استبعاد إمكان الحكومة العالمية، فهو قائم على أساس أنه يفرض على الجميع نمطاً واحداً من السلوك رغم اختلاف المناطق بينهم . المفروض هو أن يكون الموجه الواحد للعالم والحكومة الواحدة متمثلاً بحكومة الإسلام والإمام ولا يوجد أي مانع عقلي أو واقعي من ذلك، بل إن بعض كبار المفكرين والسياسيين في العصر الحديث يعدون ذلك إحدى الضرورات التي لا غنى عنها للبشرية – على أنه لا يهمننا رأي هؤلاء – بعد أن وعد الله المؤمنين بالدولة العالمية التي تملأ الأرض قسطاً وعدلاً : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ

الَّذِينَ ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴿١﴾.

إن الإسلام كما هو واضح من مختلف جهاته يريد أن ينسق مسيرة الأرض الواحدة نحو تكاملها، وهذا لا يفرض إلا وحدة عامة ولا مانع فيه من الاختلاف في بعض التطبيقات مراعاة للظروف.

وأما مدعاه في أن مسألة الحكم أمر دنيوي خلى فيه الرسول بيننا وبين عقولنا فقد توضح أمره بما سبق.

وأما المدعي الثالث في أن الرسول لم يبين الدولة ولا وضع مبادئ الحكم ولم يوص بشيء ولا عين تفصيلات الشورى، فالواقع فيه أن الرسول لاحظ كل ما يتعلق بهذا الأمر فخطط لإقامة الدولة الإسلامية أروع تخطيط يتناسب — طبعاً — ومستوى الاحتياجات في عصره ثم بين أهم مبدأ في نظام الحكم بأن جعل الحاكم الأول في الدولة هو المعصوم العالم السائر على خط الإسلام الذي يعين شكل التنظيم الإداري وهو يختلف باختلاف الظروف.

وأما ما ذكره البعض تأييداً له فهو أيضاً غير صحيح، إذ المؤسس الحقيقي لنظام الحكم الإسلامي هو النبي ﷺ.

وأما ما قيل من أن الدين نظام ثابت والدولة نظام متغير فهو أمر يخلط فيه بين جوانب الدين الثابتة التي تعالج أموراً ثابتة وجوانب الدين المرنة التي تعالج أموراً متغيرة كمسألة نوعية التنظيم والإدارة فإن الجوانب المتغيرة من الحياة كعلاقة الإنسان بالطبيعة أو كـبعض العلاقات الاجتماعية تحكمها ضوابط عامة يكون تطبيقها مرناً يختلف باختلاف الظروف مثل قواعد (منع الضرر) و (التزام بين الأهم والمهم) و(نمو الانتاج) وأمثال ذلك.

ومن تلك الجوانب أسلوب الإدارة المختلف باختلاف الظروف ولذا شكل منطقة فراغ يملأها الإمام وربما عمد إلى الشورى في ذلك، أما الشكل العام الذي ينسجم مع الضوابط العامة فهو أمر ثابت لا يتغير — وسيأتي مزيد حديث عن هذا في البحث التالي — .

(١) سورة النور: الآية ٥٥ .

أما مسألة فشل الحكومات الدينية فليس يعني أن كل حكومة دينية فاشلة مطلقاً خصوصاً بعد أن نجد الحكومات المذكورة لا تتبع النظام الإسلامي الكامل وتحيد عن الصيغة الإسلامية بأي شكل تصورها وهل يتحمل الإسلام وزر عمل الطاغية يزيد والحجاج وباقي حكام الجور وبعض الخلفاء العثمانيين وأمثالهم .

وربما يحلو لبعض الكتاب مثل (طه حسين) أن يجعل الزمان غير مناسب للحكومة الإسلامية التي أرادها علي (ع) ولذلك لم ينجح في إنشاء دولة العدل بعد أن مال الناس إلى ملكية معاوية فيقول: (كان علي (ع) يدير خلافة وكان معاوية يدير ملكاً . وكان عصر الخلافة قد انقضى وكان عصر الملك قد أطل).

ولكن طه حسين لم يلتفت إلى أن وجود العقبات في وجه أمير المؤمنين لم يكن من مقتضيات التطور الاجتماعي وإنما هي حالة طارئة وجدت بفعل عوامل معينة ولم تكن لتستطيع الثبات بوجه العدل العلوي لو فقدت أحد مقوماتها صدفه كأن لم يخدع بعض الناس فيعلن الثورة على أمير المؤمنين مما خلق الضعف الكبير في الدولة الإسلامية التي يقودها وأفضل التطبيق الإسلامي التنظيف وحرمان الكثير من الخيرات .

ورغم كل هذا فإن الفرص التي أتاحت للحكم الديني كي يشمل المجتمع شكلت أروع تجربة بشرية على الإطلاق .

بل أن هناك أنماطاً من التطبيق المنحرف لنظام الحكم الإسلامي هي أفضل بكثير من تطبيق أي نظام لا إسلامي بشهادة التاريخ .

* * *

الفرع الثاني — العلمانية الغربية وآثارها على العالم الإسلامي :

والمقصود بالعلمانية — المأخوذة من كلمة (العالم) أي (الزمان) — أن يكون الحكم بيد قادة زمنيين لا يلتزمون بالدين تشريعاً وتنفيذاً .

ومن الخطأ تفسيرها بأنها مذهب يدعو للاستفادة من العلم الحديث مثلاً أو أنها مجرد مذهب يدعو لإقامة التنظيم الإداري والاجتماعي على أسس عملية مدروسة وأمثال ذلك .

وقد نشأ هذا المذهب من خلال إرهابات عديدة وصراعات بين السلطة الدينية والسلطة المدنية في الغرب. وهو ما اعترفت به المسيحية بادية الأمر. مما خلق هذا التناقض المرير وأدى في النهاية إلى هذا المذهب.

وقد ذكر بعض الكتاب أن دعاة العلمانية يسوقون الحجج التالية لضرورة بناء الدولة العلمانية واستمداد التشريع والتنفيذ من غير الدين بل وعدم إعطائه محللاً لائتقاً في المجتمع، وهي:

١ - أن الدولة الدينية تعني سيطرة رجال الدين مما يعني تحكمهم بمصائر الناس.

٢ - أن قوانين الدولة الدينية ثابتة كمنظرتها إلى الحقيقة وهي تؤدي بالتالي إلى بقاء المجتمع وعدم تطوره، وهذا شبيه بما قاله الماركسيون لرد الفلسفة المثالية، والقول بتطور الحقيقة نفسها.

٣ - من النادر وجود دولة ينتسب جميع مواطنيها إلى دين واحد فإذا كانت دينية وقع التمييز بين المواطنين.

٤ - إن الدين له تصورات معينة عن الكون والحياة والإنسان والتاريخ، والدولة الدينية تتبع تلك التصورات مما يعرقل التقدم العلمي ويقود إلى فجائع حفل بها التاريخ.

٥ - جاء في تصريحات بعض القادة العلمانيين، أن المناداة بدولة دينية تعني إعطاء إسرائيل مسوغاً لقيامها واعتدائها، وهي بالتالي خدمة للصهيونية العالمية.

هذا في حين تتمتع الدولة العلمانية بالخصائص التالية:

- ١ - الحركية والاستمرار والتطور الاجتماعي.
- ٢ - مركز حقوقي متساو لجميع المواطنين على اختلاف انتماءاتهم الدينية.

٣ - سيطرة الشعب على الحكم وكونه مصدر السلطات .

٤ - فسح المجال لحركة التقدم العلمي .

العلمانية والإسلام:

لا ريب في أن المسيحية قنعت بنصيب ما منحتها إياه بعض العلمانيات المعتدلة بحيث تقوم بنشاط معين في إطار الدولة العلمانية في قبال العلمانية الماركسية التي رفضت أي نشاط متصور لها . وهذا ما حدث أخيراً في إيطاليا مثلاً .

ولكن ما هو موقف الإسلام منها؟ وهل تمتلك مسوغاتها في الحقل الإسلامي؟

إننا نرى أن الإسلام لم يدع منذ البدء مجالاً لحدوث هذه النتيجة بعد أن قرر:

أولاً: وحدة السلطتين الدينية والسياسية بل جعل تعيين الإمام (وهو القائد السياسي والديني في آن واحد) إتماماً للدين وإكمالاً للنعمة السماوية على الأرض كلها ولم يسمح بأي انفصال جوهري بينهما، وأي انفصال رُئيَ بعد ذلك فإنما كان يعبر عن تطبيق غير سليم للإسلام .

وإذا رجعنا إلى ملاحظة صفات الإمام أو الحاكم في الإسلام لم يبق مجال مطلقاً لتصور عملية تكريس للذات ومصالحها، بعد فرض علمه الفقهي الواسع والتزامه الكامل بتطبيق الشريعة الإسلامية المقررة . هذا والتاريخ يشهد على السيرة الممتازة التي سار فيها قادة المسلمين، بغض النظر عن بعض الذين تحدوا وطغوا . وإذا نظرنا إلى نظام (نيابة الفقيه عن الإمام) وولايته وجدنا أن الفقيه لا يمتلك هذا المقام إلا بعد توفر شروط أهمها (الكفاءة، والعدالة، والفقه العميق) ويفقد أي قدرة بفقدان أي منها، والأمة المشبعة بروح هذه الشروط هي المراقبة لسير هذا الفقيه كما أن مجلس الفقهاء العدول الأكفاء هو الحارس الأمين على السير الصحيح^(١) .

(١) يراجع كتاب (حول الدستور الإسلامي) وقد صدر عن منظمة الإعلام الإسلامي - قسم العلاقات الدولية .

وحتى إذا نظرنا لنظام الشورى — بدون ولاية لشخص ما — نجد أنه أفضل بكثير من أي نظام زمني يسلم أموره كلها لآراء الشعب لأنه يسير وفق تشريع سماوي مسبق وطبق ضوابط شرعية .

وعلى أي حال فإن الإسلام لم يفسح المجال مطلقاً لظهور هذه الثنائية بين السلطة المدنية والسلطة الدينية وهي من أمدح الأخطاء التي تفقد السلطة السياسية دورها الحقيقي في نفس الوقت الذي تشوه حقيقة الدين وتوجيهه للحياة .

ثانياً: خطط الإسلام للجانب المتغير من الحياة فوضع القواعد العامة والأحكام الظاهرية والاضطرارية وفتح مناطق فراغ يملأها الحاكم الإسلامي الفقيه العادل على ضوء مشورته ومتطلبات الظروف إلى جنب إشباعه للجانب الثابت في الحياة الإنسانية — وهو الجانب الفطري الأصيل — بقوانين ثابتة . فلا مجال إذن للجمود وأمثال ذلك .

وقد تصور هؤلاء أن الدولة الدينية لما كانت تقوم على الإيمان بحقائق فلسفية مطلقة ثابتة بل وتؤمن بلزوم الإطلاق في الحقيقة بمعنى (مطابقة الفكرة للواقع الخارجي) فهذا يعني الإيمان بقوانين اجتماعية ثابتة لا تتغير مطلقاً وهو لا يعدو مجرد خلط وسخف فالإيمان بالحقيقة المطلقة شرط لأن نفترض إمكان المعرفة وحصول اليقين بالواقع الموضوعي الخارجي ولا ربط له بالإيمان بثبات كل النظم الاجتماعية أو عدمه .

إن الإسلام يؤمن بتطور كثير من الجوانب الاجتماعية في نفس الوقت الذي يؤمن فيه بثبات الحقيقة الفلسفية لأنهما مجالان لا ربط بينهما ولا يخلط بينهما إلا جاهل أو مغالط .

ثالثاً: إن الإسلام أعطى الدين مفهومه الصحيح فلم يعد مجرد شأن شخصي يمكن أن يتنازل عنه الفرد لصالح النظام الاجتماعي العام — كما تصوره الغربيون — ومن هنا قالوا بأن إقامة الدولة الدينية تعني إعطاء امتيازات شخصية لاتباع الدين دون غيرهم وإنما عاد الدين كل شيء في حياة الإنسان لأنه تصورات

واقعية عن الكون والإنسان يثبتها المنطق الصحيح، ونظم تعالج مسيرة الإنسان على ضوء علم إلهي غير محدود وحكمة شاملة. ومع هذا التصور والمبدأ يختلف التقييم. إن الدين حينئذٍ يحاول أن يبني الإنسانية الصالحة لا أن ينظم مجرد علاقة روحية شخصية للفرد بخالقه. وانطلاقاً من هذا المبدأ فمن الطبيعي أن نتوقع للإسلام أن يقود الحياة كلها ولا يسلم أموره بيد دولة لا تؤمن له، ومن الطبيعي بحكم كونه نقطة مخولاً من رب الإنسانية أن يدعو الناس جميعاً للدخول تحت سلطته. كما أن من الطبيعي أن يكون المسلم المنسجم مع الهدف أوسع حقوقاً كما يكون أكثر تحملاً للمسؤوليات في الدولة المسلمة.

وهذا لا يعني أن الإسلام يعمل على وضع تميزات كبرى في دولته بين المسلم وغير المسلم وإنما يقيم توازناً بين الحقوق والمسؤوليات - كما هو مبين في متون الفقه الإسلامي - .

وربما نجد بعض المفكرين المسلمين يعالجون المسألة من سبيل آخر فيدعون أن كون الدولة مسلمة في الأقطار الإسلامية أمر طبيعي وسائر وفق القوانين الديمقراطية بعد انتخاب الأكثرية المسلمة لها. وهذا الإصلاح أمر لا مسوغ له بعد ملاحظة حقيقة التصور الإسلامي للحكم. وإن الإسلام لا يحكم من خلال هذا المنطق وليس لمبدأ الأكثرية تأثير إلا في إطار سماح المذهب الإسلامي للحكم. والواقع أننا يجب أن لا نجعل الديمقراطية هي الأصل الذي يقرر مصير الحكم الإسلامي، والتشريعات الإسلامية للحياة فالعكس هو السبيل المنطقي الصحيح.

رابعاً: ولا تجدنا هنا بحاجة لتوضيح موقف الإسلام من التقدم العلمي واحتضانه للعلماء في مختلف المجالات وكيفية أنه صنع - رغم الانحراف في تطبيقه - الحضارة العلمية الناصعة في عصر كانت أوروبا تغط فيه في سبات قاتل، والواقع أنه لا يمكن تقديم رقم واحد يوضح وقوف الإسلام أمام أي تقدم إنساني في حين يمكن تقديم الأرقام الكثيرة على تنمية الإسلام لروح التقدم الإنساني والبحث. وقد فرض الإسلام - كفاية - العمل على كون المجتمع

الإسلامي دائماً في طليعة المجتمعات. نعم كان التقدم العلمي في الإسلام إنسانياً أي منسجماً مع التقدم الأخلاقي لا متعارضاً معه وهذا له مجاله الرحب من الحديث.

وعليه:

فإن العلمانية تفقد أي مسوّغ لها في الإطار الإسلامي وإنما حمل لواءها الاستعمار وعاونوه بعض المسيحيين والمسلمين المتفرنجين ورفعوا لواء الإصلاح ونجحوا في ما قاموا به على اختلاف في درجات النجاح ولكن النتيجة لم تكن إلاّ التخلف وربط مسيرة الأمة بعجلة الغرب وفقدان الأمة جل خصائصها الإيجابية وتحكم الطغاة فيها بمختلف الألوان.

* * *

الفرع الثالث — الإسلام والسيادة في الدولة:

اتضح من البحوث السابقة أن الإسلام يعتبر نفسه هو المسؤول الأول والأخير عن نظام الحكم في الأمة المسلمة، ولذا لا يبقى أي شك في أن السيادة في تصور الإسلام لله تعالى باعتباره المولى الحقيقي. وبهذا الاعتبار نستطيع أن نقرر منطقية الحكم الإسلامي ووجدانيته.

ولذا فلسنا مع الدكتور عبد الحميد متولي في رده العنيف على طرح «مشكلة السيادة» في البحوث الإسلامية مدعياً أنها نظرية نشأت في ظروف فرنسية وأن الظروف التي دعت ل طرح المشكلة هي ظروف أوروبية محض وقد زالت فعلاً، ومؤكداً أن العلماء المسلمين لم يبحثوها، وإن بحثها الحديث يولد أضراراً منها: نسبة بعض الأخطاء إلى بعض الخلفاء والعلماء ومنها ادعاء الشيوقراطية للنظام الإسلامي مع أن الشيوقراطية في نظر علماء الغرب تعتبر الشكل المعروف للدولة في حياة البشرية في حالتها البدائية، كما أنها تعني في بعض صورها (نظرية التفويض الإلهي) التي استند إليها السلاطين لتسويغ استبدادهم. وأخيراً يقول: (مما تقدم يتبين أن الإسلام في غير حاجة إلى إثارة تلك المسألة،

أو المشكلة التي لا تؤدي إثارها إلى حل مشكلة من مشكلاته، وإنما تؤدي إلى خلق مشكلة جديدة للإسلام عنها في غنى^(١).

والواقع: إننا لم نتفهم كيف عادت هذه المسألة أمراً غير ذي بال؟ وكيف لم تكن مطروحة لدى المسلمين رغم أنهم جميعاً استدلوا على صحة ما يقولون بدليل شرعي يثبت في نظرهم أن الله منح السيادة لهذا الشخص مباشرة أو لمن يصل إلى هذا المنصب عن طريق معين وبشروط معينة ولو كان ذلك عن طريق انتخاب الأمة أو أهل الحل والعقد.

إننا إذا عزلنا الحاكم عن هذه المسألة لم يكن يملك فرض أي حكم عام. ولعل وضوح كون السيادة في الإسلام لله هو الذي صور للدكتور المذكور أن المسلمين لم يعرفوا هذا المبدأ.

أما ما ذكره من الأخطار (في تصوره) فليست إلا أخطاء في البحث أو النسبة وكشفاً لفضائح كان ينبغي أن تكشف كما في مجال عمل بعض حكام سوء والمتملقين لهم، وسيتبين أن النظام الإسلامي يختلف تمام الاختلاف عن الشيوقراطية الغربية وقد أشار إلى ذلك المودودي في كتابه.

نعم لم يكن هناك إلا نزاع صوري بين من جعل حق السيادة لله — من السنة — كالمودودي، ومن جعلها حقاً للأمة — كالخفيف — فإن هذا الأخير أيضاً إنما يتصورها حقاً للأمة بإعطاء الله هذا الحق لها إذ يستدل على مبدأ الشورى بمثل ﴿وَسَأَوْرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ مع فرض أن المولى هنا في مقام التشريع لا الإخبار عن حق مسبق للأمة بل حتى لو كان يخبر فإنما يخبر عن جعل إلهي مسبق لهذا الحق للأمة.

وعلى أي حال فالاتفاق الإسلامي حاصل على أن حق السيادة لله لا غير، وإنما يبحث عمّن أعطاه الله هذا الحق.

خامساً: أما ما ذكر من قبل بعض القادة العلمانيين فهو أمر غريب حقاً.

(١) راجع مبادئ نظام الحكم في الإسلام: من ص ١٦٥ إلى ١٩٣.

ذلك أننا إذا استندنا إلى هذا المنطق تجاهلنا:

أولاً: كل التعاليم الإسلامية الداعية إلى الحكم الإسلامي، وإقامة نظام الحياة الاجتماعية على أساس ديني . . .

﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١)

﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣)

وتناقضنا مع إيماننا:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٤)

وثانياً: فإن إسرائيل لم تقم على منطق سوى السيف والقوة والاعتداء ومثل هذا القول يكاد يعطيها الحق في القيام باعتبار أنه يشكل الدليل التالي: إسرائيل تقوم على أساس الدين الواحد.

وفكرة كون الدين أساساً للحياة هي فكرة صائبة. فإسرائيل تقوم على حق.

في حين أن الواقع في المسألة الإسرائيلية:

١ - إنها لا تؤمن بأي دين حتى اليهودية وليست سوى قاعدة استعمارية استكبارية زرعها الكفر ليفجر المنطقة الإسلامية ويسوقها إلى أهدافه الرخيصة.

٢ - إنها لم تستند في قيامها إلى مثل هذا المنطق، استناداً حقيقياً. بحيث يفسح لها المجال في القيام وإنما كانت ذريعة سبقتها القوة والغضب.

٣ - إن فلسطين هي أرض إسلامية منذ مئات السنين وحتى اليوم فلا بد أن يدعو هذا المنطق (منطق قيام الحكم على أساس ديني) إلى قيام حكومة

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٧.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٥.

إسلامية فيها، خصوصاً إذا علمنا أن أكثر يهودها قد جاءوا من أماكن أخرى وأن أكثر أهلها الحقيقيين قد شردوا في البلاد.

وثالثاً: إذا كان هناك من يستغل مبدأ صحيحاً ويطبقه تطبيقاً خاطئاً فهل هذا يعني أن نرفع أيدينا عن المبدأ الصحيح؟

فمثلاً إذا كان من ادعوا (المهدوية) في التاريخ أناساً منحرفين فهل هذا يعني أن نرفع أيدينا عن الإيمان بفكرة (المهدوية) التي كثرت الروايات وتواترت على صحتها لا لشيء إلا لأن بعض الأشخاص استغلوها غاية الاستغلال؟ أو فلنقل إن كان هناك أنبياء مزيفون فهل هذا يلزمنا بعدم الإيمان بمبدأ النبوة مطلقاً؟ .

الخلاصة

في حديثنا عن الغزو الفكري ذكرنا في الفصل الأول أن الإسلام صنع المعجزات في تقدمه لفتح القلوب إلا أنه واجه أصنافاً من المعارضين فيهم (المترفون، والجاهلون، والحاقدون).

ورأينا أن تخطيطهم عموماً يسير عبر الأساليب التالية:

- (أ) إيجاد الخواء الحضاري في الأمة الإسلامية.
- (ب) بث التعالي الحضاري الغربي وتأكيده بشتى الأساليب.
- (ج) الملاء الحضاري بالمطلوب من أفكارهم.

وانقلنا في الفصل الثاني لضرب مثال من الاختراق الحضاري الثقافي للمجتمع الإيراني لنجد أن الحملة تشمل المحاور (السياسية والثقافية، والأخلاقية) ووجدنا أن التغريب بأشبع صورته مورس في هذه البلاد - عقائدياً وأخلاقياً حتى بلغ الأمر إلى محاربة الفكر الإسلامي بشكل صريح وعلني والقضاء على كل ما ينتسب للإسلام حتى التاريخ الهجري.

وفي الفصل الثالث: حاولنا أن نميز بين خطين في المواجهة الإعلامية للغزو الثقافي، وهما:

١ - الخلط الإعلامي التغييري، وقد امتاز بوعيه للإسلام ونظرته التغيرية وإدراكه لإبعاد الغزو وتركيزه على محور المشكلة وتقديمه للطروحات الأصلية وتحريكه للحس الحماسي.

٢ - الخلط الإعلامي السطحي، وحاولنا تأييد الخط الأول بالعودة إلى القرآن الكريم ومعرفة بعض جوانب منهجه الإعلامي.

وفي الفصل الرابع درسنا نمطين من التشكيك في أهم منابعنا وهما (القرآن
والسنة النبوية الشريفة) وحاولنا دفع كل الشبه المذكورة.

وفي الفصل الخامس: تحدثنا باختصار عن الحكم والدولة في الإسلام
وعملنا على نفي الاتجاهات المتخاذلة التي تنفي وجود التخطيط لدولة إسلامية.
والله أسأل أن يوفقنا لإقامة هذه الدولة على كل الأرض الإسلامية.

شيخ محمد عايب السخيري

الغزوالفكري

إعداد

الدكتور أبو بكر دكوري

عضو مجمع لفقہ اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

من أساليب الغزو الفكري إثارة الشبه حول تطبيق الشريعة :

يتعرض الإسلام اليوم لمختلف أنواع الغزو الفكري كل ذلك للتشكيك في صلاحيته لمسايرة تطورات العصر ومتطلبات المدنية ويقصد من كل ذلك محاولة عزل المسلمين عن دينهم الحنيف ومصدر قوتهم الحقيقية .

ولما كانت الشريعة هي التي تمثل الحياة العملية والسلوك الديني والاجتماعي في حياة المسلمين، وبتمسكهم بها يسعدون ويتفوقون على كافة شعوب الأرض. فإنها جديرة بأن توجه إليها سهام الأعداء، فكان لزاماً علينا نحن المسلمين أن ندافع باستمرار عن هذه الشريعة الغراء ونذود عنها أمام الهجمات المتواصلة من المدنية الغربية والشيوعية الدولية على حد سواء، وما هذا البحث إلا مساهمة متواضعة مني في هذا السبيل فبالله التوفيق وعليه التوكل .

أقول: الشريعة في اللغة المواضع التي ينحدر الماء منها، قال الليث: وبها سمى ما شرع الله لعباده من الصوم والحج والنكاح وغيره شريعة^(١).

ويقول الشيخ محمود شلتوت في كتابه: (الإسلام عقيدة وشريعة): (إن الشريعة هي النظم التي شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه في

(١) راجع لسان العرب: ٢/٢٩٩؛ والنهية في غريب الحديث ودائرة معارف القرن العشرين: ٣٧٨/٥.

علاقته بربه وعلاقته بأخيه المسلم وعلاقته بأخيه الإنسان وعلاقته بالكون وعلاقته بالحياة^(١).

ومن هذا التعريف نعرف أن الشريعة هي كل شيء بالنسبة للمسلم، إن تمسك بها سعد في الدنيا ونجا في الآخرة لأنها صادرة من عند الله تعالى الذي خلق كل شيء بما فيه الإنسان والزمان والمكان، فكان طبيعياً أن يكون أدرى بما يصلح لهذا الإنسان وما يسعده في كل زمان ومكان وقد صدق الله العظيم حين قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمْ سُبُلُ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾^(٢).

ومن تتبع الشريعة الإسلامية وأمعن النظر في أدلتها وأحكامها، يجد أنها تمتاز عن أي قانون آخر بأنها مزجت بين الدين والدنيا من حيث ترتيب الأحكام الشرعية بهما سواء في ذلك ما يتعلق بالعقوبات أو ما يتعلق بتحقيق مصالح العباد، وهذا ما حمل المسلمين على طاعة الشريعة في السر والعلن وفي السراء والضراء، لأنهم يؤمنون بأن الطاعة نوع من العبادة يقربهم إلى الله تعالى، وأنهم مثابون على هذه الطاعة، ومن استطاع منهم أن يرتكب جريمة ويتفادى العقاب فإنه لا يرتكبها مخافة العقاب الأخروي، وغضب الرب عليه وكل ذلك يساعد على قلة الجرائم، ويؤدي إلى حفظ الأمن وصيانة نظام الجماعة، بخلاف القوانين الوضعية فإنها ليس لها في نفوس من يطبقها أو تطبق عليهم ما يحملهم على طاعتها، فمن استطاع منهم أن يرتكب جريمة ما وهو آمن من سطوة القانون، فليس هناك ما يمنعه من ارتكابها من خلق أو دين، لذلك نلاحظ كثرة الجرائم وازديادها في الدول التي تطبق القوانين.

(١) راجع كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة»: ص ٢٢.

(٢) سورة المائدة: الآيات ١٥ - ١٦.

موقف الناس من الشريعة الإسلامية :

يختلف الناس في تصورهم للشريعة الإسلامية وفي تعاملهم معها باختلاف حالاتهم وبيئاتهم، فهناك فريق تلقى هذه الشريعة بالقبول - وهم المؤمنون الصادقون الذين فهموا الإسلام عقيدة وشريعة - فهؤلاء وجدوا في الشريعة الخلاص، ووجدوا فيها السعادة، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: (إن أحكام الشريعة ما شرعت إلا لمصالح الناس)^(١) فما دام الأمر كذلك فيجب التمسك بالشريعة شرعاً وعقلاً، أما شرعاً فلأنها صادرة عن الله تعالى، وما كان صادراً عن الله تعالى فلا يجوز للمسلم أن يعدل عنه، يقول الله تعالى:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾^(٢).

وقال في آية أخرى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾^(٣).

وقد حذر الله المسلمين من التحاكم إلى غير ما أنزل، أو الرضا بغير حكم الله تعالى فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً ﴿٦٠﴾ ﴾^(٤).

وقال في آيات أخرى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١﴾ ﴾^(٥) ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٥).

(١) راجع الموافقات: ٩٢/٢.

(٢) سورة القصص: الآية ٥٠.

(٣) سورة الجاثية: الآيتان ١٨ - ١٩.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٠.

(٥) سورة المائدة: الآيات ٤٤ - ٤٥ - ٤٧.

ومن هذه الأدلة يتبين أن المسلم ملزم باتباع الشريعة من غير خيار قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (١).

ولا يكفي ذلك بل لا بد بعد العمل بالشريعة من الرضا التام والتسليم المطلق وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٢).

هذا من حيث الشرع، وأما عقلاً فلأننا باستقراء أحكام الشريعة الإسلامية يتبين أنه روعي فيها مصالح العباد، ففيها العدالة وفيها المساواة وفيها اليسر وفيها المرونة وفيها الكمال والسمو والدوام، لأن نصوصها لا تقبل التعديل والتبديل مهما مرت الأعوام وطالت الأزمان، وهي مع ذلك تظل محتفظة بصلاحياتها في كل زمان ومكان، ومن تتبع التاريخ وجد أنه ما من مجتمع حكم فيه شرع الله إلا سعد هذا المجتمع، ولا شك أن قانوناً يتمتع بكل هذه الميزات ويجري على تحقيق العدالة الاجتماعية وإسعاد المجتمع البشري باختلاف أجناسهم وطبقاتهم وأوطانهم، لجدير بأن يتشبث به العقلاء ويذودوا عنه وهذا ما فعله المؤمنون الصادقون كما أسلفت.

الفريق الثاني: وهم المعادون للإسلام إما جهلاً بتعاليمه السامية، وإما حسداً من عند أنفسهم كما هو شأن اليهود والنصارى، فهؤلاء لا يستغرب أن يقفوا موقف العداء من الشريعة الإسلامية ويتهموها بأبشع التهم، لينفروا الناس منها، وذلك كوسيلة من وسائل الغزو الفكري للصد عن الإسلام والقضاء على نفوذه.

وأهم شبهة يثيرها أعداء الإسلام حول الشريعة الإسلامية ويروجونها في جميع المحافل أذعاءهم، بأن الشريعة الإسلامية لا تصلح للعصر الحاضر، وبعد

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٥.

التحقيق يتبين أن ادعاءهم هذا لا يقوم إلا على الجهل والافتراء، إذ أنهم لم يقدموا أي دليل ملموس ولا حجة بينة على دعواهم، وهذا لا يكون مقبولاً لدى ذوي العقول المفكرة، ولو أنهم قالوا أن مبدأ معيناً أو مبادئ بذاتها لا تصلح للعصر الحاضر وبينوا السبب في عدم صلاحيتها لكان لادعائهم قيمة علمية، ولوجب مناقشتهم لتزييف أقوالهم؟ أما أن يدعوا أن الشريعة كلها لا تصلح للعصر ولا يقدموا على قولهم حجة واحدة؛ فذلك دليل على أنهم مدفوعون بدافع الحقد على هذا القول وهذا الزعم الباطل، ولكن نظراً إلى أن بعض السذج تأثر بمثل هذه الترهات فجعل يعادي الشريعة الإسلامية وينتقص من مكانتها، تجد لزاماً علينا أن ندافع عن هذه الشريعة الغراء، ونرد على ما يثيره هؤلاء المغرضون المفترون من شبهات حول الشريعة، ويكفينا للرد عليهم ما يقوله بنو جلدتهم وأبناء عقيدتهم من النصارى المنصفين، يقول العلامة سانتيلانا: (إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني إن لم نقل إن فيه ما يكفي للإنسانية كلها)^(١).

ويقول الباحثة الأمريكية: «هوكنج» أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد في كتابه روح السياسة العالمية وذلك في معرض حديثه عن مصير الثقافة الإسلامية: (إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس في اتخاذ الأساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس فقط ما يملي من حياة الفرد اليومية ومن القانون والنظم السماوية^(٢). وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم، وأحياناً يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة واصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية، فالجواب على هذه المسألة هو أن في نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو، لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً النظم الأخرى، والصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشرع الإسلامي وإنما في انعدام الميل إلى استخدامها، وإني أشعر بكوني على

(١) انظر كتاب روح الدين الإسلامي لعفيف طبارة: ص ٣١٠.

(٢) هكذا في الأصل ولعل صوابه: «النظم السياسية».

حق حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ اللازمة للنهوض^(١).

ويقول الدكتور «انريكو انسابا توحيد»: (إن الإسلام يتمشى مع مقتضيات الحاجات الظاهرة فهو يستطيع أن يتطور دون أن يتضاءل في خلال القرون ويبقى محتفظاً بكامل ما له من قوة الحياة والمرونة فهو الذي أعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً. وشريعته تفوق في كثير من تفاصيلها الشرائع الأوربية)^(٢).

هذه بعض شهادات علماء القانون في الغرب المسيحي، الذين لم يُعْمِ التعصب بصيرتهم فأنصفوا الشريعة الإسلامية.

ولا يفوتنا كذلك أن نذكر القرار الذي اتخذته المؤتمر الدولي المنعقد في لاهاي سنة ١٩٣٢ للقانون المقارن باعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر القانون المقارن. فهؤلاء المؤتمرون الذين لهم مكانتهم العلمية وخبرتهم القانونية لم يتخذوا هذا القرار إلاً لإيمانهم المطلق وقناعتهم التامة بأن الشريعة الإسلامية غنية بالمبادئ والنظريات التي تكفل سد حاجات الفرد والجماعة في الحاضر القريب والمستقبل البعيد.

ومن الشبه التي يثيرونها ادعاؤهم بأن بعض أحكام الشريعة مؤقتة:

يرى بعض الأوربيين أو بعض أذئابهم ممن تتلمذ عليهم أو تثقف بثقافتهم يرون أن الشريعة تصلح للعصر الحاضر إلاً أن بعض أحكامها جاءت مؤقتة، ويقصدون بذلك بعض الأحكام الجنائية التي لا مثيل لها في القوانين الوضعية كالرجم والقطع فيحاولون التخلص منها بادعاء أنها أحكام مؤقتة، وهذا أكبر دليل على جهلهم بالإسلام لأن أحكام الإسلام دائمة لا مؤقتة ولأن ما لم ينسخ منها قبل موت الرسول ﷺ فلا يجوز نسخه بأي حال إلى يوم القيامة، وقد صرح القرآن بأن الإسلام قد اكتمل عقيدة وشرعية فلا زيادة فيه ولا نقص وذلك في

(١) روح الدين الإسلامي: ص ٣١٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٣١٢ نقلاً عن كتاب: «الإسلام وسياسة الحلفاء».

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

ومن الشبه التي يثيرونها حول الشريعة ادعاؤهم بأنها من آراء الفقهاء وابتكارتهم:

ويحاولون أن يقنعوا الناس بأن ما تتمتع به الشريعة الإسلامية من مبادئ ونظريات سامية ومتميزة لا يرجع إلى كونها من عند الله تعالى، وإنما يرجع إلى عبقرية علماء المسلمين وجودة تفكيرهم واتساع أفقهم، وهذه الدعوى خطيرة لأنه يقصد منها سلب قدسية الشريعة، واقناع المسلمين بعدم وجوب طاعتها، لأنها من آراء الرجال، فإذا ثبت ذلك فلكل عصر رجاله، وهم أدري من غيرهم بمشكلات عصرهم، وأقدر على وضع حلول لهذه المشكلات نظراً إلى اختلاف الأحداث والوقائع من عصر لآخر ومن بيئة لأخرى.

وللرد على هذه الشبهة نقول: إن فقهاء الإسلام قد بذلوا مجهوداً كبيراً في خدمة الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية، ولكن دورهم محدود يتمثل في أنهم وجدوا أمامهم شريعة غنية بالمبادئ، والنظريات فقاموا بشرح النظرية أو المبدأ، وبيّنوا شروط تطبيق كل منهما، وحاولوا جمع ما يدخل تحت هذه النظريات والمبادئ من جزئيات، وهم في كل هذه الاجتهادات وهذه المحاولات يقيدون أنفسهم بنصوص الشريعة ومبادئها العامة وروحها التشريعية، فتبين خطأ من يظن أن الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية من ابتكار المسلمين، يقول الشهيد عبد القادر عودة: (إن الفقهاء لم يبتكروا نظرية المساواة المطلقة ولا نظرية الحرية الواسعة ولا نظرية العدالة الشاملة، وإنما عرفها الفقهاء من نصوص القرآن والسنة التي جاءت بها)^(٢).

وقد أورد أمثلة كثيرة من المبادئ والنظريات القانونية، أخذها الفقهاء من نص القرآن كنظرية الطوارئ المسماة في عرف القانون بنظرية تغيير الظروف،

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) راجع كتابه: «الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه»: ص ٥٩.

فإن فقهاء الشريعة قد أخذوا هذه النظرية من هذه النصوص القرآنية: قوله تعالى: ﴿لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١).

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٢).

وقوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾^(٣).

وكأخذهم نظرية إعفاء المكروه والمضطر من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٤).

وقوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٥).

وقول الرسول ﷺ «رفع عن أمتي الخطاء والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٦).

وليس الفقهاء هم الذين ابتكروا نظرية إعفاء الصغير والمجنون والنائم من العقاب، وإنما أخذوا ذلك من قول الرسول ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يحتلم وعن النائم حتى يصحو وعن المجنون حتى يفيق»^(٧).

ولا هم الذين فرقوا بين أحكام العمد وأحكام الخطاء وإنما أخذوا ذلك من نص القرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا حَطَأًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا حَطَأًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ...﴾^(٨).

وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾^(٩).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٩.

(٤) سورة النحل: الآية ١٠٦.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٧٣.

(٦) رواه ابن ماجه في الطلاق ١٦ بلفظ «إن الله تجاوز عن أمتي...» الحديث.

(٧) رواه البخاري في الطلاق وفي الحدود وكذلك رواه كل من أبي داود والترمذي والنسائي

والإمام أحمد، راجع مسنده: ١/١١٦ - ١١٨.

(٨) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٩) سورة البقرة: الآية ١٧٨.

وقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾^(١).

وهكذا نجد الأمثلة كثيرة جداً كلها تبطل الدعوى بأن مبادئ الشريعة ترجع إلى آراء الفقهاء.

ومن الشبه التي يثيرونها للحيلولة دون تطبيق الشريعة الإسلامية، قولهم إن الإسلام فيه فرقٌ دينية كثيرة، ولكل فرقة منها فقه مستقل عن فقه غيرها، فإذا تقرر تنفيذ الشريعة الإسلامية في قطر ما ففقه أية فرقة منها يكون على أساسه القانون؟

فقول لهم أن هذا الاعتراض الذي يعلقون عليه أمالاً كبيرة في تفريق كلمة المسلمين، وينالون منه بغيتهم في إقصاء الشريعة الإسلامية عن الحياة العامة والخاصة للمسلمين، ليس هو بمعضلة أصلاً كما يظنون، لأنه لم يحل دون تطبيق الشريعة الإسلامية عبر قرون طويلة وفي أكثر من بلد إسلامي، لأن الجهاز الأساسي للقانون الإسلامي الذي يشتمل على ما فرض الله تعالى من الأحكام والقواعد والحدود القطعية لم يزل ولا يزال معترفاً به على صورة واحدة بين جميع فرق المسلمين وطوائفهم، ولم يكن بينهم شيء من الخلاف في ذلك قديماً وحديثاً، وإنما الخلاف في تعبير الأحكام والمسائل الاجتهادية وقوانين دائرة الإباحة وضوابطها وحسب، أما ما يعتبر قانوناً يلزم به الناس فلا بد من أن يتعقد عليه إجماع الأمة أو أغليبتها ويسلم به جمهور أو تجري به الفتوى من علماء الأمة المعتمدين، أما ما يستخرجه إمام من الأئمة بقياسه واجتهاده أو ما يصدره من فتوى على أساس الاستحسان، فإنه لا يرقى إلى درجة القانون، فعندما يقول العلماء في كتبهم: «هذا ما عليه الفتوى» أو «عليه الجمهور» أو «عليه الاجماع» يقصد منه أن هذا ليس مجرد رأي أو اقتراح فقط، وإنما أصبح جزءاً من القانون لإجماع المسلمين أو اتفاق جمهورهم عليه، فالحكم الشرعي إذا انعقد عليه الإجماع أصبح قانوناً رسمياً لا يجوز مخالفته في أي زمان ولا مكان، ولا يجوز

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥.

إعادة النظر فيه، فإن لم ينعقد عليه الإجماع فما ارتأته الغالبية من أهل الحل والعقد من المسلمين في كل بلد يعد قانوناً لذلك البلد، ويكفي أن يكون ما يحتكم إليه المسلمون في بلد إسلامي مصدره الشريعة الإسلامية وقواعدها العامة.

ومن الشبه التي يثيرها البعض ادعاؤهم بعدم قدرة الشريعة على الاستجابة لمتطلبات العصر الحديث، فكثيراً ما يقولون كيف يصلح قانون قديم مر عليه أربعة عشر قرناً ليلبّي حاجات مجتمع عصري ودولة متحضرة؟

وبعد إمعان النظر في هذه الشبهة يتبين أن مثيرها لم يفهموا شيئاً من الشريعة الإسلامية، لاعتقادهم أن الشريعة مجرد أحكام محدودة مقيدة بنصوص قديمة محدودة وهذا الاعتقاد هو الذي دفعهم إلى القول بأن النصوص الشرعية لا تستوعب الأحداث المتنوعة والمتطلبات العصرية.

ونقول لهم إنهم وقعوا في هذا الخطأ عندما سوا بين القوانين الوضعية التي وضعها البشر وبين الشريعة الإسلامية التي تكفل بوضعها خالق البشر، فنحن نعلم أن القوانين الوضعية القائمة الآن تختلف اختلافاً جذرياً عن القوانين القديمة التي كانت تطبق حتى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلادي، لأن القوانين الوضعية الحديثة تقوم على نظريات فلسفية واعتبارات اجتماعية وإنسانية لم يكن لها وجود في القوانين القديمة، ونحن وإن كنا نتفق معهم في الاعتقاد بعدم صلاحية القوانين القديمة للعصر الحاضر، ولكن لا نتفق معهم حين يقيسون الشريعة الإسلامية بالقوانين الوضعية، وهذا القياس الذي دفعهم إلى القول بأنه ما دامت القوانين التي كانت سائدة حتى أواخر القرن الثامن عشر لا تصلح لعصرنا الحاضر، فكذلك الشريعة الإسلامية التي كانت سائدة في العصور الوسطى – ولا يخفى بطلان هذا القياس لأن القياس إنما يكون بين متماثلين، ولا تماثل بين الشريعة والقوانين الوضعية، فبينهما اختلافات أساسية، وتتميز الشريعة بمميزات جوهرية والقاعدة المعروفة لدى جميع العلماء أنه إذا

انعدمت المساواة والمماثلة بين شيئين فلا قياس، أو كان القياس باطلاً، وبذلك يبطل ادعاؤهم بعدم صلاحية الشريعة للعصر الحاضر لأنه بني على قياس باطل وما قام على الباطل فهو باطل^(١).

ولو تتبعنا نصوص الشريعة لوجدنا فيها من القواعد والمبادئ ما يتسع لحاجات الجماعة مهما طالت الأزمان وتطورت الجماعة وتعددت الحاجات وتنوعت، لأنها جاءت عامة إلى آخر حدود العموم، مرنة إلى آخر حدود المرونة، فلا تضيق بما يمكن أن يستجد من حالات، فكل ما عرّض للناس من الحاجات والمرافق في مختلف أيامهم يمكن لعلماء الإسلام أن يجدوا له حلاً شرعياً إما بالنص بوجه من وجوه دلالاته المتعددة، وإما بالقياس على النص بنوع من أنواع القياس الكثيرة، أو بغيرهما كالإجماع والاستحسان والمصالح فكل ذلك مما يثبت به الحكم الشرعي إذا توفرت الشروط.

ومن الشبه التي يثيرونها: اتهامهم الشريعة بالهمجية والوحشية:

وكثيراً ما يذكرون على سبيل المثال عقوبات رجم الزاني وقطع يد السارق وطريقة تنفيذ حكم القصاص في الشريعة الإسلامية.

وأنا كنت أحضر دورة للغة الفرنسية في باريس عام ١٩٨٣م، فرأيتهم أكثر من مرة يعرضون على التلفزيون صورة لشخص نفذ فيه حكم الإعدام في المملكة العربية السعودية، والرجل ملطخ بدمائه وفي بعض المرات يكون رأسه مفصلاً عن جسده، ويعرضون الصورة مدة طويلة بدون أن يذكروا الجرائم التي ارتكبتها هذا الشخص حتى استحق هذه العقوبة، وقصدهم من ذلك إثارة المشاهدين وتفيرهم عن الإسلام لأنهم لو ذكروا لهم ما ارتكبه هذا الشخص من جرائم منافية لكل القيم الدينية والمبادئ الإنسانية لوجدوا أن هذه العقوبة كانت مناسبة له، بل وخفيفة في حق هذا الشخص، ولكن يتعمدون إخفاء ذلك ولسان حالهم للمشاهدين انظروا إلى وحشية الإسلام فإنه دين يتسم بالقسوة والهمجية

(١) تاريخ التشريع الإسلامي: ١٣/١ - ١٤.

ولا يصلح ديناً للإنسان المتحضر أو للمجتمع الراقي إلى آخر ما يقولونه من
أباطيل.

ونقول إن هؤلاء يصدق فيهم قول الشاعر العربي:

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرأً به الماء الزلال
فهؤلاء قد نجم عن فساد ذوقهم ومرض قلوبهم وطمس بصيرتهم أمران:

أحدهما: أنهم أصبحوا لا يرون الباطل باطلاً ولا يقيمون وزناً للقيم
والمبادئ الخلقية، فالزنا مثلاً واللواط وشرب الخمر والتعري في الأماكن العامة
والتزواج بين الرجال يعتبر عندهم أموراً عادية، ولا يتحملون أن يلام عليها
الإنسان فضلاً عن أن يعذب عليها، ولا يخفى على إنسان عاقل ما في هذه
المعاصي من أضرار مادية ومعنوية للأفراد وللمجتمع فلا يستسيغها إلاً من كان
مريض القلب فاسد الذوق.

ثانيهما: أنهم لا يهتمهم أمر الأبرياء والمظلومين الذين وقعوا ضحايا لهؤلاء
المجرمين، بينما يظهرون شفقتهم على هؤلاء المجرمين ويتألمون لما ينالهم من
عقاب شرعي يستحقونه، فهذا منتهى الوقاحة ومنتهى الضلال، لأنهم يقولون إن
الرجم عقوبة تتسم بالوحشية ولكنهم يغضون الطرف عما يقوم به الزاني من
إشاعة الفاحشة في المجتمع وإلحاق العار بالأسر الكريمة وتدمير مستقبل البنات
بحيث يقضين كل حياتهن في شقاء لا يتقدم لهن أي إنسان شريف، أضف إلى
ذلك تفشي الأمراض الفتاكة في المجتمع بما فيها الأمراض المستعصية على
الطب الحديث والقديم، وهي الأمراض التي تهدد بقاء جنس الإنسان على هذا
الكوكب الأرضي، وما أمر «السيدا» أو «الأيديز» بخاف على أحد. وكذلك
اختلاط الأنساب بحيث يقضي الإنسان كل عمره ينفق على ولد يظن أنه ولده،
يعالجه إذا مرض ويسعى جاهداً من أجل تعليمه وتربيته، ويسعى من أجل إبعاده
وتأمين مستقبل سعيد له، فإذا هو في حقيقة الأمر ليس ولده، ألا يستحق كل من
تسبب بهذه الجرائم عقوبة تكون جزاء له وتكون رادعة لأمثاله من الوقوع في مثل

هذه الجرائم وتطهر المجتمع من المجرمين؟ فعندما يرحم الإسلام الزاني بالحجارة جزاء له على كل ما ارتكبه من جرائم في حق الأفراد وفي حق المجتمع، يقيمون الدنيا ولا يقعدونها، ولكن عندما ترحم حكوماتهم الشعوب البريئة بالقنابل المحرقة والصواريخ المدمرة لأجل استعمارها ونهب خيراتها، أو عندما تنزل هذه الحكومات على معارضيتها السياسيين أشد أنواع العقوبات، فإنهم لا يرون في كل ذلك بأساً، ومن ذا الذي لا يعرف الوسائل والطرق القاسية التي تتوسل بها الحكومات المتحضرة في هذا الزمان إلى استنطاق المتهمين حتى يعترفوا بجرائم على أساس الشبهات فقط؟ كل ذلك أمر سائغ ومقبول أما عندما توقع الشريعة الإسلامية عقوبة مناسبة لمجرم محترف يتهمونها بالوحشية فيا عجباً لهذا العالم المتحضر وقد صدق الشاعر العربي عندما قال:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وإذا انتقلنا إلى عقوبة قطع يد السارق نجد أنه خير وسيلة لمعاقبة من يرتكب مثل هذا النوع من الجريمة، لأن السارق يريد أن يعيش عيشة كريمة على حساب الآخرين، فكم من أسر بريئة تشردت بسبب اللصوص، وكم من شخص كد واجتهد وعانى كثيراً من المتاعب طيلة سنوات عديدة لتوفير مال يعتمد عليه في حالة عجزه عن العمل إما لكبر وإما لمرض، فيأتي لص يبدد كل هذه الأموال ويستولى في دقائق على هذه الثروة التي جمعت في عشرات السنين وكثيراً ما يتم ذلك تحت تهديد بالسلاح بل وبالقتل والجرح في بعض المرات، فهل يليق في نظر العقلاء أن يحبس هذا المجرم وينفق عليه من أموال الشعب يأكل ويشرب وينام ملء جفونه؟ وهل هذه عقوبة رادعة؟ طبعاً لا، بدليل أن السارق لا يكاد يخرج من السجن حتى يسرق مرة أخرى ويعود إلى سجنه، لأنه يجد في السجن مرتعاً خصباً يأكل ويشرب وينام كما يريد دون أي تعب أو عناء.

وما ذنب الشعب حيث تؤخذ منه الضرائب والرسوم المختلفة لينفق على هؤلاء المجرمين الذين يهددون أمن البلاد وأمن المواطنين؟ أليس من المناسب عقلاً قطع يد اللص جزاء وفاقاً لما ارتكبه في حق الأبرياء؟ فيتعذب بالقطع

وتتشوه خلقته به، فنكون قد عاملناه على نقيض قصده لأنه ما قصّد السرقة إلاّ ليتمتع بالحياة بدون أي تعب ولا معاناة، بل وبتخريب بيوت الآخرين، فنفوت عليه هذا القصد بقطع يده لأنه حتى لو كسب المال بالسرقة فإنه لا يمكن أن يتمتع به، ولا أن يكون سعيداً في الحياة لأجل علامة العار التي تلازمه أينما حل وارتحل، وقد أثبت التجارب أن هذه العقوبة رادعة تحقق الأمن والاستقرار في أي مجتمع ينفذ فيه هذا الحكم الشرعي، فقد رأيت بنفسي عندما دخلت الديار المقدسة لأول مرة في عام ١٩٦٧ دكاكين مليئة بالذهب والماس يتركها أصحابها بدون إغلاق، وإنما يكتفون فقط باسدال أستار من القماش الرقيق عليها، فيذهبون إلى المساجد لأداء صلاة الظهر، ثم يعودون إلى بيوتهم للغداء والراحة ولا يعودون إليها إلاّ بعد صلاة العصر، فيجدون هذه الدكاكين كما تركوها لم تمس بأي أذى، ولا يشك إنسان في أن سر ذلك يرجع إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في المملكة العربية السعودية.

أما الدول التي تدّعي الحضارة والتقدم المادي، فلا يخفى على أحد ما يجري فيها من الفوضى وعدم الاستقرار على الرغم من البلايين والدولارات التي تنفق في الأمن، فمثلاً في مدينة نيويورك التي تعتبر أكبر مدن العالم وأكثرها تحضراً وتطوراً، فإنه يجري فيها في كل ثانية عشرات الجرائم وذلك حسب إحصائيات الحكومة الأمريكية نفسها.

فنطلب من هؤلاء أن يتركوا المغالطات وأن يتخلوا عن تعصبهم الأعمى ويعودوا إلى الشريعة الإسلامية إذا ما أرادوا الأمن والاستقرار والسعادة، لأنها صادرة عن الله تعالى الذي خلق البشر، فهو أعلم بما يصلح لهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الدكتور أبو بكر دكوري

مصادر البحث

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .
- ٣ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث .
- ٤ - صحيح البخاري .
- ٥ - صحيح مسلم .
- ٦ - نيل الأوطار .
- ٧ - النهاية في غريب الحديث لابن الأثير .
- ٨ - لسان العرب لابن منظور .
- ٩ - دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي .
- ١٠ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد .
- ١١ - الموافقات للإمام الشاطبي .
- ١٢ - الإسلام عقيدة وشريعة لمحمود شلتوت .
- ١٣ - مبادئ الإسلام لأبي الأعلى المودودي .
- ١٤ - التشريع الجنائي الإسلامي المقارن للشهيد عبد القادر عودة .
- ١٥ - الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه للشهيد عبد القادر عودة .
- ١٦ - روح الدين الإسلامي لعفيف طبارة .
- ١٧ - تاريخ التشريع الإسلامي لمناع قطان .

مِنْ أَسْأَلِيبِ الْغَزْوِ وَالْفِكْرِ
الطَّعْنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

عَرَضَهُ وَتَفَنَّدَهُ

الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ نَبِيلُ غَنَائِمِ

كَلِيَّةُ الشَّرِيعَةِ وَالذِّهَابَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ
جَامِعَةُ قَطْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص البحث

- ١ - هذا البحث تعريف موجز بالغزو الفكري في ماضيه وحاضره وتعريف بتاريخه ووسائله، وبيان لأهدافه وأنواعه.
- ٢ - وهو يعرض لمطاعن أعداء الإسلام من مبشرين ومستشرقين في القرآن الكريم، وقد عرض معظم هذه المطاعن في أسلوب موجز وعرض سريع لينتقل من ذلك إلى الأهم وهو مناقشتها والرد عليها.
- ٣ - ناقش هذا البحث مطاعن الأعداء في القرآن الكريم في سبعة بنود مناقشة تفصيلية تكشف بالأدلة عن كذبها وتقيم الحجة على بطلانها.
- ٤ - قدم هذا البحث أربعة عشر دليلاً على أن القرآن الكريم وحى وليس بشرياً ولا من عمل محمد ﷺ.
- ٥ - وقدم هذا البحث خمسة أدلة عامة وستة تفصيلية وتطبيقية على أن القرآن الكريم غير مقتبس من الكتب السابقة.
- ٦ - وقدم خمسة أدلة على أن القرآن الكريم معجز بل هو المعجزة الكبرى والخالدة للنبي ﷺ.
- ٧ - وقدم هذا البحث سبعة أدلة مختلفة على إبطال دعوى التحريف والتبديل في القرآن الكريم.
- ٨ - وقدم هذا البحث أربعة أدلة إجمالية واثني عشر رداً تفصيلياً على مزاعم الغزاة بأن القرآن الكريم يناقض بعضه بعضاً فأبطل هذا الادعاء.

٩ - ورد هذا البحث في سبع فقرات على ادعاءات الغزاة بما زعموه أخطاء في القرآن الكريم .

١٠ - أثبت البحث أن القرآن الكريم قدم في الماضي وما زال يقدم في الحاضر وسيظل يقدم في المستقبل وإلى أن تقوم الساعة كل ما يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم، ولو أخذ الناس به فلن يحتاجوا إلى شيء آخر .

١١ - أكد البحث أن القرآن الكريم لم تنقض عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، وما زال يتسع للعديد من الدراسات والبحوث .

١٢ - أكد البحث أن القرآن الكريم كتاب الله المحفوظ بعنايته الميسر للذكر، الهادي إلى صراط الله المستقيم .

١٣ - مهما حاول الأعداء والغزاة النيل من القرآن الكريم فستدور الدائرة عليهم وترتد سهامهم إلى نحورهم وسيبقى القرآن الكريم عالياً شامخاً منتصباً محفوظاً إلى يوم الدين ولا يحق المكر السبيء إلا بأهله . ﴿ وَيَمَكُرُونَ
وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي تعالى بالقرآن وجعله أعظم معجزاته وأقوى أدلته ورضي الله تعالى عن أصحابه الذين حفظوه وجمعوه وتدارسوه، وعمن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين فتعلم القرآن وعلمه، وبعد.

فهذا البحث عن: أسلوب خبيث من أساليب الغزو الفكري وهو «الطعن في القرآن الكريم» وقد جعلته في ثلاثة فصول. تناول الفصل الأول منها تعريفاً بالغزو الفكري بصفة عامة في ماضيه وحاضره وأهدافه ووسائله وأنواعه وذلك بشكل موجز.

أما الفصل الثاني فجعلته لسرد مطاعن الغزاة في القرآن الكريم وقسمته طبقاً لهذه المطاعن إلى سبعة بنود، تناول كل بند منها مجالاً من مجالات الطعن في القرآن. فبند عن بشريته، وآخر عن اقتباسه، وثالث عن عدم إعجازه، ورابع عن تحريفه، وخامس عن أخطائه العلمية واللغوية والتاريخية والتشريعية، وسادس عن تناقض آياته مع بعضها البعض، وسابع عن عدم تقويمه للنظريات والمبادئ العامة.

وخصصت الفصل الثالث - وهو بيت القصيد - لتنفيذ تلك المطاعن والرّد عليها وإبطالها، فتناولتها بندياً بندياً وناقشتها فكرة فكرة وقدمت الأدلة النقلية والعقلية على إبطالها، ففي البند أولاً قدمنا أربعة عشر دليلاً منوعاً على أن القرآن وحي من عند الله وليس بشرياً أو من عمل محمد ﷺ، وفي البند ثانياً قدمنا خمسة أدلة عامة وستة تطبيقية على أن القرآن ليس مقتبساً من التوراة ولا الإنجيل، وفي البند ثالثاً قدمنا خمسة أدلة على أن القرآن معجز وفي قمة

الإعجاز. وفي البند رابعاً قدمنا سبعة أدلة على أن القرآن الكريم معافى من أي تحريف أو تبديل على عكس الكتب السابقة، وفي البند خامساً ذكرنا أربعة أدلة إجمالية على إبطال دعوى التناقض بين بعض آيات القرآن ثم وضحنا ذلك في اثني عشر موضعاً مما استندوا إليه ووضحنا بطلانه، وفي البند سادساً ناقشنا ما أسموه أخطاء في القرآن الكريم حتى بينا أنهم هم المخطئون وأن القرآن الكريم في قمة الأداء والمعنى ولكنهم لا يفهمون، وفي البند سابعاً ناقشنا موضوع النظريات التي يتساءلون عنها وبيننا ما قدمه القرآن في هذا المجال مما لم يسبق إليه ولم يلحق فيه. ودعمنا ذلك كله بأقوال العلماء والمفكرين وبعض المنصفين من أعداء الإسلام والقرآن.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا البحث وأن يجعله خالصاً لوجهه إنه خير مسؤول وأعظم مأمول.

الفصل الأول

الغزو الفكري ماضيه وحاضره

إن عداوة اليهود المشركين، ومن على شاكلتهم من المبشرين والمستشرقين للإسلام والمسلمين قائمة منذ فجر التاريخ، فقد عادوا رسالات الله التي جاءت كلها بالإسلام، وتأمروا على رسل الله الذين حملوا إليهم هذه الرسالات، وقتلوا الأنبياء الداعين للإسلام، وعبدوا العجل وغيره من الأصنام، وآمنوا بالجبوت والطاغوت، واتبعوا ما تتلو الشياطين، وحرفوا كتاب الله تعالى وبدلوه، وكتبوه بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً، وكفروا بأنعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، وبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، وعصوا أوامر الله تعالى واعتدوا على حدوده وحرماته، وظل حالهم كذلك حتى بعث الله تعالى خاتم النبيين والمرسلين محمداً ﷺ فازدادت عداوتهم وأفصحوا عن حقدهم، فكانوا - رغم علمهم به - أول كافر به، ولم يكتفوا بكفرهم، بل شنوا على المؤمنين به حملات العداة والتشهير، ووضعوا أيديهم في أيدي المشركين والنصارى لمهاجمة الإسلام ورسوله وكتابه وكل من آمن به، وصدق الله العظيم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾^(١).

وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تشير إلى ما قام به اليهود والنصارى ضد الإسلام ورسوله وأصحابه، من كفرهم به، وصد الناس عن الإيمان به، ومحاولات تشويهه والنيل منه، وشن الحروب على أهله، ونقض العهود معهم، وتدبير المؤامرات ضدهم، وخيانة الأمانات إلى غير ذلك؛

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

ويقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمِنَ ذَلِكَ الَّذِينَ عَلَى الْكُفْرِينَ﴾ (٢).

فهذا عن كفرهم بالرسول ﷺ والقرآن، أما عن صدهم عن سبيل الله وعن الإيمان فمنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ (٣) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمَنَّهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنُ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصَدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عَوَاجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٥).

وأما عن تلبيس الحق بالباطل فيقول الله تعالى: ﴿يَأْتَاهِلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُوتَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦).

(١) سورة البقرة: الآية ١٠١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٩؛ قال السيوطي: أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد، أبي عكرمة، عن ابن عباس أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء وداود بن سلمة: يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه، فقال سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ الآية، لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، هامش المصحف الشريف بتفسير الشيخ حسين مخلوف.

(٣) سورة النساء: الآيتان ٥١ و ٥٢.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٩٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٧١.

بل حاولوا مع المسلمين أن يردوهم إلى الكفر بعد الإيمان، وفي سبيل ذلك كان بعضهم يدخل الإسلام أول النهار ويكفر آخره ليحذو حذوه المسلمون، يقول الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢).

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن الصيف وعدي ابن زيد والحرث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نضنع فيرجعون عن دينهم فأنزل الله فيه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُم بِالْبُاطِلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَسِعَ عَلَيْهِمُ﴾ (٣).

هذا قليل من كثير مما كان عند اليهود والنصارى من العداوة للإسلام والقرآن والرسول ﷺ والمؤمنين.

وقد استمرت هذه العداوة تتنامى وتتضاعف بمرور السنين حتى لبست أثواباً جديدة في العصر الحديث، وتجلت فيما يعرف الآن: بالغزو الفكري الذي يصبو سهامه المسمومة إلى أعلى ما يعتز به المسلمون من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ. يقول الدكتور دراز رحمه الله: (ومن تتبع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم، وإن أكثرها وروداً في جدلهم هي نسبه إلى نفس صاحبه، وهذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم «الوحي النفسي» زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءوا برأي علمي جديد وما هو بجديد، وإنما هو

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٢.

(٣) لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، هامش المصحف الشريف بتفسير الشيخ حسين مخلوف. والآيات من سورة آل عمران: الآيات ٧١ - ٧٣.

الرأي الجاهلي القديم لا يختلف عنه في جملته ولا تفصيله، وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منسوخة بل ممسوخة من الماضي في أقدم أثوابه، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمداً من فئات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصر الجاهلية الأولى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(١).

وقبل أن نتناول هذه السهام الحديثة نقف وقفة قصيرة مع هذا الغزو الحديث نتعرف من خلالها على تاريخه وأهدافه وأنواعه وأساليبه.

تاريخ الغزو الفكري:

عرفنا أن الحملة على الإسلام ومصادره قديمة، منذ بزغت شمس، أما الغزو في ثوبه الجديد، فقد بدأ بعد فشل الحروب الصليبية، وذلك أن الصليبيين لما خسروا المعارك الحربية ضد الإسلام وأهله، ولم يتمكنوا من الاحتفاظ ببيت المقدس، فكروا في حروب أخرى للقضاء على الإسلام الذي هو سر قوة المسلمين ومصدر توجيههم فلجأوا منذ ذلك الوقت إلى الغزو الفكري، يقول غاردنر: (لقد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي...)، ثم يقول: (والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الإسلام)، أما ليفونيان فيرى - وهو على حق - (أن الحروب الصليبية كانت أعظم مأساة نزلت بالصلوات بين المسلمين والنصارى في الشرق الأدنى، لقد أحب الصليبيون أن ينتزعوا القدس من أيدي المسلمين بالسيف ليقيموا للمسيح مملكة في هذا العالم، إنهم لم يستطيعوا أن يقيموا تلك المملكة، ولكنهم تركوا بعدهم العداوة والبغضاء، خابت دول أوروبا في الحروب الصليبية الأولى من طريق السيف، فأرادت أن تشير على المسلمين حرباً صليبية جديدة من طريق التبشير^(٢))، وكان «ريمون لل» الأسباني أول من

(١) سورة البقرة: الآية ١١٨؛ وانظر النبا العظيم، د. محمد عبد الله دراز: ص ٦٧ هامش.

(٢) انظر: التبشير والاستعمار، خالد وفروخ: ص ١١٥.

تولى هذا الغزو التبشيري، فقد استطاع في عام ١٢٩٩م أن يحصل على إذن من الملك يعقوب صاحب أرغونة ليشر في مساجد برشلونة محتمياً بالسلطة المسيحية في أسبانيا، ثم جال في بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة^(١).

وظلت عمليات التبشير تتنامى وتتكاثر وتتكون لها جمعيات ومؤتمرات عالمية كما يذكر ذلك «أدوين بلس» في كتابه «ملخص تاريخ التبشير» من مثل مؤتمر القاهرة ١٩٠٦ برئاسة «زويمر» وكتابه «العالم الإسلامي اليوم»، ومؤتمر «أدنبرج» التبشيري ١٩١٠، ومؤتمر لكنو التبشيري في الهند ١٩١١^(٢).

أما عن الاستشراق وهو الجناح الثاني من أجنحة الغزو الفكري، فقد بدأ منذ دقت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوروبا، وتحققت لهم السيادة العالمية في شتى المجالات، فبدأ الأوروبيون الذين كانوا غارقين في ظلام العصور الوسطى يبحثون عن أسباب نهضة المسلمين، وبدأ بعض رجال الكنيسة يدرسون اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وزادت هذه الدراسات وكثر الاهتمام بها في أعقاب فشل الحروب الصليبية، ولما قامت النهضة الأوروبية، وفتحت أنظار الأوروبيين إلى استعمار البلاد العربية والإسلامية - وهذا هو الجناح الثالث للغزو - كثر اهتمام الأوروبيين بالدراسات الشرقية «الاستشراقية» فشحجوا عليها وفتحوا لها أقساماً خاصة في جامعاتهم، وبدأوا يعقدون المؤتمرات والجمعيات، وينشرون التقارير والمجلات، وبدأت هذه الأعمال الاستشراقية تحقق ثمارها ونتائجها في مهاجمة الإسلام وتشويهه والنيل منه، فالتقت في ذلك مع التبشير وأعمال المبشرين، وتضافرت معها، ومن أشهر المستشرقين: المستشرق الإنجليزي جب، والفرنسي ماسينيون، والإنجليزي مرجليوت، والمجري جولدزيهير، والألماني بروكلمان، وغيرهم كثير^(٣).

(١) التبشير والاستعمار: ص ١١٥.

(٢) انظر: أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة: ص ٢٨ - ٥٤.

(٣) انظر: التبشير والاستعمار: ص ١١٥؛ وأجنحة المكر الثلاثة: ص ١١٥؛ وانظر أيضاً الفكر الإسلامي الحديث: ص ٤٤٧ - ٤٥٢.

ويذكر الدكتور محمد البهي أن الغزو الفكري بدأ بعد الحرب الصليبية، وذلك أن الاحتكاك في هذه الحروب على مدى قرنين جعل الصليبيين يقفون على أمرين هما: عقيدة الإسلام في قوتها وضعف المسلمين في مجتمعهم، وسعة ما يملكون من ثروة في بلادهم فبدأوا بعد الفشل في الحرب يعدون أنفسهم ويرسمون خططهم انتهزاً لزيادة ضعف المجتمع الإسلامي وتفككه، والاستفادة من ثروته، وأعقب هذا الاتصال الاقتصادي نفوذ سياسي ثم استعمار عسكري منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين، وقد استخدم هذا النفوذ السياسي والعسكري للتنفيس عن الهزيمة الصليبية في الحروب الماضية، وعن الحقد الصليبي على بقاء بيت المقدس في ظل السيادة الإسلامية، يقول:

فكيف يستمر للغرب نفوذه السياسي على الشرق الإسلامي؟

وكيف يبقى تخلف المسلمين؟

وكيف تنفس النفس الصليبية عن حقدها؟

ليس له - الغرب - هنا طريق آخر لتحقيق هذه الغاية سوى تناول «مادة التوجيه» المحلية وجعلها غير صالحة، ولم يكن هناك في توجيه الشرق الإسلامي سوى «الإسلام» والتراث الإسلامي الذي خلفه المسلمون في شرح إسلامهم، فإفساد الإسلام والتراث الإسلامي إذن غرض أول للمستعمر الغربي^(١). وهذا ما سنبينه في الفقرة التالية.

أهداف الغزو الفكري:

لا تختلف أهداف الغزو الحديث عن مؤامرات الماضين ومكائدهم فهي كلها تدور حول النيل من الإسلام وتشويه حقائقه ورموزه الكبيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وصد الناس عن الإيمان به والدخول فيه، وإفساد من تم إسلامهم بالتصوير أو التشكيك والإلحاد، وبذلك وغيره يتم القضاء على الإسلام

(١) الفكر الإسلامي الحديث: ص ١٦.

واستغلال أهله وأرضه، يقول الدكتور عبد الحليم محمود: (ولقد غرانا الغرب في العصور الحديثة بكل ما يملك، بالسلاح والقلم، وقد كانت مهمة القلم في هذا المجال واسعة متنوعة، فقد تناول كتابهم الإسلام عقيدة وتشريعاً وأخلاقاً وتاريخاً محاولين أن يزيفوا الحقائق في كل ميدان من ميادين الدين، وحاولوا أن يقللوا من شأن الإسلام ومن شأن العرب، وحاولوا بكل ما أتوا من وسائل في الدعاية أن يبعثوا في النفوس روح التحلل والفساد الأخلاقي...)، ثم يقول: (إن الغربيين يريدون بكل وسيلة القضاء على الإسلام كقوة لها ذاتيتها وأصلها ومنهجها في الحياة وهم يستعملون من أجل ذلك كل الوسائل)^(١).

ويقول الدكتور البهي: «فإفساد الإسلام والتراث الإسلامي إذن غرض أول للمستعمر الغربي، واختار وسيلة لذلك فيما أبرزه من المفارقة بين الغرب والشرق من تقدم الأول وتأخر الثاني، وابتدأ العلم وابتدأت الدراسة هناك تبحث عن أسباب هذه المفارقة وتركزت الأسباب أخيراً في المقابلة بين المسيحية والإسلام، المسيحية دين المتقدمين والإسلام دين المتخلفين...»^(٢).

ويضيف الشيخ محمود شاكر: (لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضللاً بهدى، أو أن يصارع باطلاً بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة، بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولاً لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تدرك، ولا تبصر إلا ما يريد لها هو أن تبصر، ولا تعرف إلا ما يريد لها هو أن تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلاً بمثل، وقد كان ما أراد الله أن يكون، وظفر العدو فينا بما كان يبغى ويريد...»^(٣).

ومن هذا يتبين أن الهدف الرئيسي لأئمة الغزو الفكري وقياداته هو القضاء

(١) القرآن والنبي: ص ٢٠، ٣٩٦.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث: ص ١٧.

(٣) مقدمة الظاهرة القرآنية: ص ١٢.

على الإسلام وأصوله وتراثه، وهناك أهداف أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية كالحيلولة دون وحدة الأمة الإسلامية، ونهب خيراتها وثرواتها وبذر بذور التفرق والقومية بين صفوفها، ولكننا إذا أمعنا النظر في هذه الأهداف وجدناها ترجع في حقيقتها إلى الهدف الرئيسي الديني: (وهو القضاء على الإسلام وعلى كل ما يقويه ويحفظه).

وقد أحصى هذه الأهداف إجمالاً وتفصيلاً الأستاذ عبد الرحمن حسن فقال: (وأخطر أهدافهم في الأمة الإسلامية تحويل المسلمين عن دينهم وتقطيع أوصال جماعتهم الإنسانية الكبرى، وبثها إلى وحدات صغرى متقاطعة متنافرة متدابرة يقاتل بعضها بعضاً، ولتحقيق ذلك لجأ الغزاة إلى الأعمال الجزئية الآتية:

- ١ - التشكيك بصحة رسالة النبي محمد ﷺ.
- ٢ - إنكار كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله.
- ٣ - أن الإسلام ليس ديناً سماوياً ولكنه ملقن من اليهودية والنصرانية.
- ٤ - التشكيك في صحة الحديث النبوي.
- ٥ - التشكيك بقيمة الفقه الإسلامي.
- ٦ - التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي.
- ٧ - تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري وإضعاف ثقتهم فيه.
- ٨ - إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين الأفكار القومية والنعرات العصبية^(١).

وسائل الغزو الفكري:

اتخذ الغزاة من الوسائل كل ما يؤدي أو يساعد على تحقيق أهدافهم جملةً وتفصيلاً، ولم يتركوا وسيلة تساعد على تحقيق هدف ولو جزئي إلا استعملوها، ولذلك نجدهم تارةً يستخدمون السلاح، وأخرى يستخدمون السلام، وحيناً يستخدمون العلم، وتارةً يستخدمون الطب، وأخرى يستخدمون المساعدات

(١) أجنحة المكر الثلاثة: ص ٩٤ - ٩٧.

الاقتصادية بأشكالها المختلفة من مساعدات غذائية إلى مساعدات كسائية، إلى مساعدات نقدية كمعاشات ومرتبات شهرية أو مكافآت سنوية، وفي مناسبات كثيرة يكون الكذب والباطل وإثارة الشبهات والضلالات وسيلتهم لتحقيق تلك الأهداف أو بعضها، بل إن ذلك يكاد يكون الطابع العام مع كل الوسائل السابقة، يقول الشيخ محمود شاكر: (وميادين معركة الثقافة والعقل ميادين لا تعد بل تشمل المجتمع كله في حياته وفي تربيته، وفي معاشه، وفي تفكيره، وفي عقائده، وفي آدابه وفي فنونه، وفي سياسته، بل كل ما تصيح به الحياة حياة إنسانية كما عرفها الإنسان منذ كان على الأرض، والأساليب التي يتخذها العدو للقتال في معركة الثقافة أساليب لا تعد ولا تحصى لأنها تتغير وتتبدل وتتجدد على اختلاف الميادين وتراحبها وكثرتها، وأسلحة القتال فيها أخفى الأسلحة)^(١).

ويفصل الدكتوران خالدي وفروخ هذه الوسائل ويعددها ويبينان أن العدو لم يترك واحدة منها، ولم يفوت مناسبة إلاً واستخدمها، فما دامت الغاية واضحة والهدف محدداً نحو الإسلام فقد سلكوا كل السبل الشريفة وغير الشريفة لتحقيق هذه الغاية يقولان: «ولقد استخدم المبشرون جميع الطرق في سبيل التبشير، واستغلوا جميع المناسبات؛ فصناعة التطبيب والتعليم والوعظ، ونقل الكتب من لغة إلى لغة كلها يجب أن توجه توجيهاً يفيد التبشير... والمبشرون مجمعون على أن جميع الوسائل - مهما كانت - يجب أن تستغل في سبيل التبشير، حتى أعمال البر يجب أن تستغل استغلالاً بحثاً، من ذلك قولهم - المبشرين - كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشير ويجب أن يبقيا كذلك، أما أعمال الإحسان فيجب أن تستعمل بحكمة كي لا تذهب في غير سبيلها، يجب أن تعطى الأموال أولاً للبداء عن الكنيسة ثم تقل تدريجياً كلما اقترب أولئك من الدخول في الكنيسة... (وكان المبشرون يتخذون من زيارة المسجونين ومن العمل في المستشفيات وسيلة إلى التبشير... كما لجأوا إلى الرشوة يفسدون بها ضمائر

(١) مقدمة الظاهرة القرآنية: ص ١١.

الذين يستميلونهم، واتخذوا سماسرة يجلبون لهم الذين كانوا يرضون أن يبدلوا دينهم، وكانوا يدفعون عن كل رأس عشرة قروش ذهباً...»^(١).

أما الدكتور البهي فيبين أن أعداء الإسلام من مبشرين ومستشرقين ومستعمرين اتخذوا لتحقيق أهدافهم في القضاء على الإسلام وإضعافه وإضعاف أهله وسيلتين أساسيتين هما:

١ - خلق جيل جديد من أبناء المسلمين يكون تابعاً لهم متحدثاً باسمهم، متشعباً بثقافتهم، مقتنعاً بأهدافهم، راضياً بسيادتهم واحتلالهم.

٢ - قيام الغربيين بالتركيز على تشويه الإسلام والسخرية من المسلمين.

يقول رحمه الله: (وسائل الاستعمار لإضعاف المسلمين في إسلامهم تنحصر في توجيه الفكر الإسلامي نحو تحقيق هذه الغاية، وقد برز هذا التوجيه في صورتين تنم كلتاهما عن هذه الغاية:

الصورة الأولى: قيام بعض مفكري المسلمين بحركة تقدمية في الإسلام؛ تبغي تقرير سلطة المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية... .

الصورة الثانية: قيام بعض الغربيين الأوروبيين المسيحيين بإبراز الخلافات المذهبية، وتأكيد الفجوات والثغرات بين طوائف المسلمين وشعوبهم من الوجهة الشعوبية، أو الجغرافية، أو نظام الحكم، مع شرح كثير من مبادئ الإسلام شرحاً يشوهها وتحرف بها عن أهدافها الأصلية، وذلك كله بالإضافة إلى تمجيد القيم المسيحية والحضارة الغربية والنظام السياسي، والسلوك الفردي للشعوب الغربية»^(٢).

(١) التبشير والاستعمار: ص ٤٨ - ٥٠.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث: ص ٢٨.

وهذا الذي حصره الدكتور البهي في هاتين الصورتين لا يختلف عما ذكره العلماء السابقون من وسائل متعددة بل يتفق معه تماماً، وكل ما هنالك من فرق أن السابقين فصلوا الوسائل والدكتور البهي جمعها، فالطب والتعليم والمساعدات والزيارات والإعلام والثقافة والبر والإحسان و... و... كل ذلك ينتهي إلى إحدى هاتين الصورتين، والهدف النهائي هو: القضاء على الإسلام وتنصير أهله، أو إضعاف شأنه ومكانته عند أهله وغيرهم بما يثيرونه حوله من شبهات وأباطيل، وسيقوم بذلك أحد شخصين أو هما معاً إما مسلم ضعيف الإسلام صنعه الاستعمار على هواه، وإما كافر حاقد لا يريد بالإسلام وأهله خيراً كالمبشرين والمستشرقين، ومن هذا يتبين لنا أن أعداء الإسلام سلكوا كل الوسائل واتخذوا كل الأساليب، واستغلوا كل المناسبات، ووجهوا كل الخطط، وقضوا على الأساليب المضادة لتحقيق أهدافهم الخبيثة في القضاء على الإسلام وأهله.

أنواع الغزو الفكري:

يتخذ الغزو الفكري صوراً وأشكالاً بعضها واضح مكشوف تحت عنوان خبيث هو تحقيق الإصلاح والتقدم الحضاري، وبعضها خفي حتى لا يثير أية مشكلة تتعلق بقوانين البلاد وأمنها وتقاليدها فمن ذلك:

(أ) الاستشراق والتبشير:

وهما جناحان لطائر واحد فكلاهما يصب في الآخر ويدعمه ويسانده، فالاستشراق هو الجانب النظري والعلمي والتبشير هو الجانب العملي والحركي^(١)، ولكنهما يسعيان لغاية واحدة ويتعاونان في الوصول إلى هدف واحد وكلاهما يستخدم خطط الآخر وأساليبه ويتبادلانها، ولهذا النوع مراكز عديدة يتحرك من خلالها لتحقيق الهدف المشترك منها:

١ - أجهزة التعليم من مدارس ومعاهد وجامعات.

(١) انظر: التبشير والاستعمار: ص ٢٢٤.

- ٢ - الجمعيات والمراكز الثقافية .
- ٣ - الأندية الرياضية والاجتماعية .
- ٤ - المنشئات الطبية والدوائية .
- ٥ - الملاجىء وجمعيات التكافل الاجتماعي .
- ٦ - الكنائس وتحركاتها التبشيرية .

(ب) الاستعمار العسكري والاقتصادي والسياسي :

حيث يغرق الدول الفقيرة بديون تكبلها ثم يتدخل في شؤونها الداخلية والخارجية بدعوى حفظ مستحقاته وديونه، وقد يلجأ إلى الاستعمار العسكري وإقامة القواعد الدائمة، ثم يعمل على بث أفكاره ومبادئه بين أبناء تلك الشعوب عن طريق حكامها أو عن طريق الأقلام المريضة للعملاء الذين يصنعهم أو يشتريهم من أهل تلك البلاد .

(ج) الماسونية والصهيونية :

وهي حركات سرية عنصرية استخدمت الشيوعية والاستعمار في هدم الأديان والقيم الدينية والسيطرة على الشعوب النامية والتخطيط لقيادة العالم والاستيلاء على مقدرات الأمم .

(د) عملاء الاستعمار من الوطنيين :

وهؤلاء يروجون للأفكار الدخيلة سواء منها ما ينتمي إلى المعسكر الشرقي أو المعسكر الغربي، ومن هؤلاء من يدعو إلى ترك اللغة الفصحى، وتشجيع العامية^(١)، ومنهم من يدعو إلى تغيير الأحكام الشرعية لأنها قاسية ولم تعد صالحة للتطبيق^(٢). إلى غير ذلك .

(هـ) تلاميذ المستشرقين والمبشرين :

ممن درسوا على أيديهم أو تتلمذوا على أفكارهم، ولم ينالوا الشهادات

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث: ص ١٨ .

(٢) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي: ص ١٢ وما بعدها .

العالمية العالية من ماجستير ودكتوراه إلا بعد ترديد هذه الأفكار والافتناع بها والدفاع عنها^(١).

(و) إنشاء ومساندة الفرق الضالة المرتدة عن الإسلام:

فقد ظهر في القرن الماضي بعض من ادعى النبوة وحرف الإسلام وشوه العقيدة وأفسد العبادة وغير القيم والأخلاق فغذاهم الاستعمار وساعدهم ووقف إلى جانبهم حتى أثمرت دعواتهم الباطلة فرقاً تضم جماعات من الناس مثل: البابية والبهاية والقاديانية وغيرها من الحركات التي ادعت زوراً وبهتاناً أنها حركات تجديد وإصلاح في الإسلام والمسلمين^(٢).

(١) انظر مقدمة رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي: ص ١٢ - ١٤؛ والفكر

الإسلامي الحديث: ص ١٩، ١٩٥.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي الحديث: ص ١٧.

الفصل الثاني

مطاعن الغزاة في القرآن الكريم

(أ) لماذا الطعن في القرآن :

من المعلوم أن القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد الذي تولى حفظه بنفسه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١).

وهو معجزة رسول الله ﷺ الكبرى التي تحدى بها الإنس والجن إلى يوم الدين : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٢).

وهو مادة الإسلام ومصدره الأعظم في العقيدة والعبادة والتشريع والأخلاق والمعاملات وجميع نظم الحياة، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (٣).

وقال تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٤).

كان رسول الله ﷺ ينتظر نزوله بالأحكام والإجابة عن الأسئلة. والفصل في الخلافات والأوامر والنواهي والحلال الحرام وشؤون العباد. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون إليه – مستعينين بالسنة النبوية – في كل ما يتنزل بهم

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

أو يطراً عليهم، وكذلك سار التابعون والأئمة المجتهدون والمفسرون والمحدثون والفقهاء والمتكلمون، والخلفاء والوزراء والفلاسفة والعلماء. وهكذا كان القرآن الكريم - وما زال - مرجع الإسلام والمسلمين في كل شيء إما بالنص عليه أو بالفهم والاجتهاد في ضوئه، ونظراً لهذه المكانة السامية، والمنزلة الكبرى لكتاب الله تعالى كان القرآن الكريم مستهدفاً من قبل الغزاة على اختلاف أجناسهم ووسائلهم، فسلطوا حربهم في الدرجة الأولى عليه، ووجهوا معظم سهامهم المسمومة إليه، لأنه كما ذكرنا أساس الإسلام، فإذا قضي عليه - وهذا مستحيل - قضي على الإسلام، وفي ذلك يقول جون تاكلي: (يجب أن نستخدم كتابهم - القرآن الكريم - وهو أمضى سلاح في الإسلام ضد الإسلام نفسه لنقضي عليه تماماً، يجب أن نري هؤلاء الناس - المسلمين - أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً)^(١)، ونحو ذلك من الأقوال التي سنتعرف عليها في الفقرات القادمة.

(ب) بداية الطعن في القرآن:

يردد الغزاة من أعداء الإسلام اليوم ما رده أجدادهم من أعداء الإسلام في الماضي منذ فجر الدعوة الإسلامية، ومع البدايات الأولى لتزول القرآن الكريم في مكة على النبي ﷺ، فقد حكى القرآن الكريم ما قاله المشركون واليهود والنصارى على القرآن الكريم وعلى سيدنا محمد ﷺ، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝۱۰ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولَىٰ ۚ أَكْتَبَهَا فِيهِ نُمُلُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝۱۱ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا ۝۱۲﴾^(٢).

فآيات تبين أن المشركين وأضرابهم من الكافرين ادعوا ظملاً وزوراً وبلا بينة أن القرآن من صنع محمد وكذبه، وساعده في ذلك آخرون^(٣)، وادعوا مرة

(١) التبشير والاستعمار: ص ٤٠؛ وكتابتنا: في التشريع الإسلامي: ص ٦١.

(٢) سورة الفرقان: الآيات ٤ - ٦.

(٣) قيل قوم من اليهود، وقيل عبيد كانوا للعرب من الفرس أحدهم: أبو فكيهة مولى الحضرميين، وجبر، ويسار، وعداس وغيرهم؛ انظر تفسير ابن عطية: ٥/١١.

أخرى أن القرآن من أساطير الأولين يملى على محمد ويكتبه صباحاً ومساءً، وقد رد الله تعالى عليهم في آيات أخرى بما أفحهم وبين أنه من عند الله ووحيه، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكُّ قَالَوَا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١).

فالآيات تبين أن المشركين ادعوا على رسول الله ﷺ أنه يفترى القرآن الكريم ويختلفه كما ادعوا أن شخصاً أعجمياً يساعده في ذلك (٢)، فرد الله تعالى عليهم بأن القرآن من تنزيله عز وجل ولكنهم يجهلون، وقد نزله الله تعالى بوحيه ليثبت المؤمنين ويهدي ويبشر المسلمين، وأما ادعاؤهم أن شخصاً أعجمياً يساعده فينقضه الواقع ويبطله البيان فكيف بأعجمي لا يكاد يبين يعلم محمداً هذا البيان العربي الحكيم المبين؟ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُبِينٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٠٩﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْكُمْ فِي الْبِلَادِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَكْفُرُونَ بِالَّذِينَ بَدَأُوا الصِّفَاءَ بِكُفْرَانِهِمْ إِذْ أَخْرَجْتَهُمْ مِنَ دِينِهِمْ لِيَتَلَذَّطُوا مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَبِئْسَ الَّذِي يَعْصِبُ عَلَى عَصَبٍ وَاللَّكِنِّيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نَحْنُ نَزَّلْنَا وَعَمَّنَا نَحْنُ نَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا

(١) سورة النحل: الآيات ١٠١ - ١٠٣.

(٢) قيل إنه: بلعام، وقيل يعيش، وقيل جبر ويسار وقيل سلمان وهذا ضعيف؛ انظر: تفسير ابن عطية: ٥١٠/٨.

(٣) سورة الصف: الآيات ٦ - ٨.

مَعَهُمْ قُلٌ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾

هكذا كان موقف أجداد الغزاة المعاصرين - من المشركين واليهود والنصارى - من القرآن الكريم إبان نزوله على محمد ﷺ، وظل الأمر كذلك حتى نشر الله تعالى الإسلام وأقام دولته ومكن له في الأرض، وسمع دوي القرآن الكريم في أرجاء المعمورة، وقامت المساجد في القرى والمدن وعقدت مجالس العلم ومدارسه في كل مكان، ونشأت علوم كثيرة لخدمة القرآن.

وبعد دهر نبئت نابتة الشيطان في أهل كل دين، وجاءوا بالمرء والجدل، وشققوا الكلام بالرأي والهوى، وعندئذ نجم الخلاف وانتهى الخلاف إلى الجراءة، وأفضت الجراءة يوماً إلى رجل في أواخر دولة بني أمية يقال له الجعد بن درهم، وكان شيطاناً خبيث المذهب تلقى مذهبه عن رجل من أبناء اليهود يقال له طالوت، فكذب القرآن في اتخاذ إبراهيم خليلاً، وفي تكليم موسى، وإلى هذا وشبهه وكان من قوله (إن فصاحة القرآن غير معجزة، وإن الناس قادرون على مثلها وأحسن منها)، ولم تكد دولة بني العباس ترسي قواعدها حتى دخلت بعض العقول إلى فحوص إعجاز القرآن، فقام بالأمر كهف المعتزلة ولسانها «النظام» فاتاه من قبل الرأي والنظر^(٢)، واستمر الأمر كذلك إلى أن تبنى المعتزلة فتنة القول «بخلق القرآن» في زمن الخليفة المأمون، الذي أيدهم وتبنى وجهة نظرهم ومبادئهم التي منها تقديم التحسين العقلي على الشرعي، ومما زاد في كثرة الفتن أمر المأمون بترجمة التراث الروحي للثقافات الأخرى من فارسية ويونانية^(٣).

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود: (ومهما تحدث المتحدثون عن الازدهار والقوة والمجد في عصر المأمون، ومهما قالوا من أنه العصر الذهبي للأمة الإسلامية، فإنه مع ذلك عصر يتسم بسيتين: الأولى: دخول المأمون في

(١) سورة البقرة: الآيات ٨٩ - ٩١.

(٢) مقدمة الظاهرة القرآنية: ص ٤٠.

(٣) وكان ذلك سنة ٢١٢؛ انظر كتاب دول الإسلام. الذهبي: ١٣٠/١؛ وانظر في إبطال

القول بخلق القرآن، شرح العقيدة الطحاوية: ص ١٧٣ - ١٧٦، ص ٢٩٨.

النزاع الذي كان بين علماء المسلمين في مسألة خلق القرآن، لقد دخل المأمون في هذا النزاع بقوة الدولة رغبة ورهبة، لقد دخل متحيزاً لفئة منكلاً بالفئة الأخرى، لقد تحيز للمعتزلة وهم قوم حكموا أهواءهم في الدين، وحسبوا أن ما يقولونه هو حكم العقل...، والثانية: أنه برغم موقف جمهور المسلمين الحاسم من التراث الروحي للأمام الأخرى، وبرغم معارضتهم الشديدة للغزو الفكري، فإن المأمون تحداهم تحدياً سافراً، أمراً بترجمة التراث الروحي والأخلاقي للأمام الأخرى يونانية كانت أو فارسية أو غيرهما^(١).

ثم تابعت العصور على ذلك الجدل في القرآن وعلى ما هو أشنع منه حتى أفضينا به في العصر الحديث إلى أقبح الشناعة يوم فرض الاستعمار الغربي الغازي على مدارسنا منهجاً من الدراسة يضعف دراسة اللغة العربية، وينحيتها رويداً رويداً، ويشجع العامية ويدعو إليها حتى يقطع الصلة بين الأمة وكتابها العزيز فيصبح كتاباً غير مفهوم، فيهجره الناس، كما فعل المشركين من قبل:

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾^(٢).

وبهجر القرآن وعدم القدرة على فهمه يكون قد تم القضاء على المصدر الأعظم للإسلام وبالتالي يتم القضاء على الإسلام.

وقد سلك الغزاة الجدد في سبيل القضاء على القرآن كل السبل والوسائل، ولكن كان الله تعالى — وما يزال — لهم ولأمثالهم بالمرصاد ففشلت كل محاولاتهم، وضلت جميع وسائلهم، وبقي القرآن الكريم وسيبقى إلى يوم الدين كما أنزله الله تعالى قوياً عزيزاً محفوظاً: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(٣).

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾^(١١) وَاللَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِطًى ﴿١٢﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿١٣﴾ فِي تَوْجِ مَحْفُوظٍ ﴿١٤﴾^(٤).

(١) القرآن والنبى: ص ١٤٨ — ١٥٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

(٣) سورة الحجر: الآية ٩.

(٤) سورة البروج: الآيات ١٩ — ٢٢.

(ج) ماذا يقول الغزاة عن القرآن الكريم؟

قال الغزاة عن القرآن الكريم كلاماً كثيراً - وما زالوا يقولون - منه ما يتعلق بنزوله، ومنه ما يتعلق بموضوعاته، ومنه ما ينصب على إعجازه، ومنه ما يعود إلى معانيه وأحكامه، ومنه ما يتعلق باللغة، وبالعلم، وبالتاريخ، ومنه ما يتعلق بالتشريع والأخلاق، ومنه ما يتعلق بالنظم والنظريات، ومعنى هذا أنهم لم يتركوا سبيلاً إلى النيل من القرآن الكريم إلاً سلكوه، ولم يجدوا وسيلة لتحقيق هدفهم إلاً أخذوا بها وسعوا إليها، ونحن في هذه الفترة نعرض نماذج مختلفة ومتعددة من أقوالهم، ثم نقوم في الفصل الثالث إن شاء الله بتفنيدها واحدة واحدة.

١ - قالوا: إن القرآن ليس وحياً من عند الله، ولكنه من عند محمد، فهو من نوادر الأعمال الإنسانية، وتأليف كتاب ما في نهاية البلاغة والفصاحة لا يعد معجزة^(١)، يقول موريس بوكاي - وهو يعقد موازنة بين الإنجيل والقرآن - : (ومرة أخرى تفرض الموضوعية أن نشير إلى ادعاء هؤلاء الذين يقولون - بدون أي أساس - إن محمداً مؤلف القرآن)^(٢). ويقول المستشرق نيكلسون: (والقارئون للقرآن من الأوروبيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه - وهو محمد - وعدم تماسكه في معالجة المعضلات، وهو نفسه لم يكن على علم بهذه المتعارضات، كما لم تكن حجر عثرة في سبيل صحابته الذين نقل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله)^(٣). وتقول الموسوعة الروسية^(٤): (كتب

(١) الباكورة الشهية في الروايات الدينية لطائفة من المبشرين والمستشرقين: ص ١٨٣؛ والإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي: ص ٥١١.

(٢) الكتب المقدسة والمعارف الحديثة: ص ١٠٥؛ وانظر: رد مفتريات على الإسلام ص ٢٣٢.

(٣) الصوفية في الإسلام. نيكلسون. ترجمة نور الدين شرييه: ص ٧ - ٨؛ انظر: الفكر الإسلامي الحديث: ص ١٦٨ و ص ١٧٧ وما بعدها.

(٤) الموسوعة الروسية: ٢٨/٩٦٤؛ انظر: كتابنا دراسات في الثقافة الإسلامية: ص ٢١٦.

القرآن في زمن الخليفة الثالث عثمان (٦٤٤ - ٦٥٦) ونظر إليه المسلمون نظرة تقديس، ويبدو من الدراسات التي بين أيدينا أن القرآن ظل يتحور ويتطور حتى بداية القرن الثامن، على أن تحليل مواضيع القرآن قد دلت على أن بعض أجزائه ترجع إلى زمن محمد وبعضها الآخر لا بد من إرجاعها إلى أزمان متأخرة أو متقدمة).

وهكذا لم يكتف الغزاة بنسبة القرآن إلى النبي ﷺ وإنما نسبوه إلى غيره ممن لحقوا به أو سبقوه.

٢ - وقالوا: إن القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل، اقتبسه محمد، فأكثر القضايا الشرعية فيه مقتبسة من كتاب التوراة، وجميع القصص فيه ما عدا قصتي صالح وهود مقتبس من التوراة، فإذا نسخنا من القرآن كل ما هو مقتبس من التوراة من الشرائع والسير لا يبقى فيه إلا ما لا يستحق الذكر، واستشهد بعضهم على ذلك بمثل ما ورد في القرآن الكريم من قصص الأنبياء والوصايا كالتي في سورة الأنعام والتي في سورة الإسراء^(١)، فمثلها موجودة في التوراة، وأكدوا ذلك بأن القرآن اعترف بهذا في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُجُرِ الْأُولِينَ ﴿١٧٧﴾ أَوْ لَرِيكَنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧٨﴾﴾^(٢).

ومن القائلين بذلك الخوري الحداد، وقد عرض الأستاذ محمد عزة دروزة أقواله التي منها: (إن الدعوة المحمدية كانت في العهد المكي كتابية إنجيلية توراثية مسيحية يهودية، وإن القرآن نسخة عربية من الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء السابقين ومقتبس منها، وإنه كتاب توراتي إنجيلي يهودي نصراني في موضوعه ومصادره وقصصه وجدله...)^(٣).

ولم يكتفوا بنسبة الاقتباس هذه إلى النبي ﷺ بل أضافوا عليها كذباً آخر

(١) آيات الأنعام: ١٥١ - ١٥٣؛ وآيات الإسراء من الآية: ٢٣ إلى الآية: ٣٩.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ١٩٦ و ١٩٧.

(٣) القرآن والمبشرون: ص ٩٤؛ الإسلام في مواجهة الاستشراق: ص ٥٣٩؛ ورد مفتريات:

حيث نسبوا إلى النبي ﷺ التحريف في اقتباسه واتباع الهوى والنفس في النقل، يقول الدكتور البهي عنهم: (والإسلام الذي وضعه محمد تأثر فيه بالتعاليم الدينية السابقة عن تعاليم اليهودية والمسيحية، وبالأخص مسيحية الكنيسة السريانية... ثم إن محمداً في اقتباسه من المسيحية حرف الفهم فيما اقتبسه، لأنه حكم نفسه ومنزلته وقيمته الإنسانية في فهمها، فقد أنكر ألوهية المسيح متأثراً بنفسه كإنسان، ولم يرق هو في تصور نفسه إلى منزلة عيسى حتى يتصور أنه إله كما كان عيسى)^(١).

٣ - وقالوا: إن القرآن ليس معجزاً، ويمكن أن يحاكي ويؤتى بمثله، لأنه كلام بشر صيغ في أعلى وأرفع الأساليب العربية بلاغةً وفصاحةً^(٢). ومنهم من اعتبر الإعجاز في هذا المجال فقط - مجال الفصاحة والبلاغة والنظم - وذلك يرجع إلى عبقرية محمد لا إلى أن القرآن معجز في ذاته، يقول الخوري الحداد: (إن المسلمين يلتزمون اليوم للقرآن الشمول من كل وجه، ويحاولون أن يجدوا فيه إعجازاً إلهياً في العقيدة، وإعجازاً إلهياً في الشريعة، وإعجازاً إلهياً في الفلسفة، وإعجازاً إلهياً في العلم الحديث، وفاتهم جميعاً على أن تاريخ الإسلام يجهل مثل هذا التفكير ومثل هذه المحاولات وأن القدماء إنما جمعوا على أن إعجاز القرآن هو في نظمه)، ثم قام الخوري بعد ذلك بالطعن في نظم القرآن، ونقض رأي القدماء في إعجازه ليخلص من ذلك أن القرآن ليس معجزاً^(٣)، وهكذا يدعي الخوري كذباً أن القدماء أجمعوا على أن الإعجاز القرآني في النظم فقط، ثم نقض ذلك كما أنكر ما يذكره المسلمون في الماضي والحاضر من تعدد جوانب الإعجاز في القرآن الكريم وعدم توقفها أو اقتصرها على النظم، وهو يرمي من وراء ذلك الكذب والإنكار أن ينتهي إلى أن القرآن ليس معجزاً.

(١) الفكر الإسلامي الحديث: ص ١٦٨.

(٢) الإسلام في مواجهة الاستشراق: ص ١٠.

(٣) القرآن والمبشرون: ص ٣٢٨.

٤ - وقالوا: إن القرآن قد حرف وبدل، واستدلوا لذلك بمثل قوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

وادعوا أن جزءاً من القرآن قد ضاع من سورة الأحزاب كان مكتوباً في ورقة فأكلها جدي، كما ذكر تيوثاوس أسماء سور لا أساس لها من كتاب الله وهي سور الخلع والحفد والنورين، وقد أخذ هذه الأسماء من أدعية قنوت (٣) رسول الله ﷺ (٤).

٥ - وقالوا: إن آيات القرآن يناقض بعضها بعضاً في اللفظ أو في المعنى، وضربوا لذلك أمثلة - لا أساس لها من الصحة كما سيتبين بعد - كقولهم إن الآية ١٥ من سورة يونس، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّمَا أَنْتَ بِشْرٌ مِّمَّنْ بَدَّلُوا قُلُوبَهُمْ فَلَا أَبْدَلُ لَهُمْ مِنْ مُّجْلَمٍ إِنْ تَفْسِقْ إِلاَّ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِنَّ أَعَافُ إِذْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴾ (٥).

تتناقض مع الآية ١٠١ من سورة النحل، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦).

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠١.

(٣) كقوله ﷺ: «نشكرك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يكفرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد...».

(٤) رد مفتريات على الإسلام: ص ١٠٢.

(٥) سورة يونس: الآية ١٥.

(٦) سورة النحل: الآية ١٠١.

والآية ١٠٦ من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

تتناقض مع الآية ٢٧ من سورة الكهف، وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحَلًا ﴾ (٢).

والآية ٩ من سورة الحجر، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرَ وَإِنَّا لَكُلِّفُوظُونَ ﴾ (٣).

تتناقض مع الآية ٣٩ من سورة الرعد، وهي قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (٤).

وهكذا الآية ٤ من سورة السجدة تناقض مع الآية ٤ من سورة المعارج والآية ١ من سورة البلد مع الآية ٣ من سورة التين، والآية ٤٤ من سورة الزمر والآية ٤ من سورة السجدة مع الآية ٣ من سورة يونس، والآيتان ١٣، ١٤ من سورة الواقعة تناقضان مع الآيتين ٣٩، ٤٠ من سورة الواقعة، والآية ٨٥ من سورة الحجر تناقض مع الآية ٧٢ من سورة التوبة، والآية ٢٧٤ من سورة البقرة تناقض مع الآية ٢٨ من سورة التوبة، والآية ٤٧ من سورة الأحزاب تناقض مع الآية ٦٥ من سورة الأنفال، والآية ٢٠ من سورة آل عمران تناقض مع الآية ٨٩ من سورة النساء، إلى غير ذلك من الأمثلة^(٥) التي تتشابه جميعها في القيام على أساس واحد وهو الجهل وعدم المعرفة، أو العلم المكتوم بالحق والكرهية أو هما معاً.

ومن التناقض في المعاني ما يقوله العقاد عن هؤلاء الأعداء: (قرأنا لبعضهم أخيراً كتاباً عن الشيطان يلم فيه بصفة إبليس في الإسلام ويستغرب فيه

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٧.

(٣) سورة الحجر: الآية ٩.

(٤) سورة الرعد: الآية ٣٩.

(٥) رد مفتريات على الإسلام: ص ٣٧.

— من هذا الدين — أن يقول عن الله إنه أمر الملائكة بالسجود لآدم... مع أنه الدين الذي اشتهر بغاية التشدد في إنكار الشرك وتكفير كل ساجد لغير الله... (١).

٦ — وقالوا: إن في القرآن أخطاء كثيرة، وأنه يتعارض مع العلم، واستشهدوا لذلك بأمثلة منها:

(أ) ما ذكره فردريك بلس من أن القرآن الكريم لم يفرق بين مريم والدة عيسى عليه السلام وبين مريم ابنة أخت موسى وهارون، يقول بلس: (خاطب القرآن مريم على لسان قومها بعد أن ولدت عيسى ولم يكن لها زوج بقوله: ﴿يَتَأَخَذَ هَنُورًا مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا﴾ (٢).

ثم إنه قال: كيف تكون مريم أخت موسى التي عاشت قبل المسيح بألف وأربعمائة سنة هي أم المسيح (٣).

(ب) قول تيموثاوس: (جاء في القرآن في سورة الكهف عند الحديث عن ذي القرنين قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ (٤).

وعلق المجلس الملي القبطي على ذلك مستغرباً ومستكراً: (الشمس تغيب في بئر!!) وقال البيضاوي إن الاسكندر الأكبر رآها ورأى طينها وماءها وناساً عرايا حولها... (٥).

(ج) ومن الأخطاء التاريخية قولهم: جاء في سورة القصص: ﴿إِنَّكَ فِرْعَوْنٌ وَمَنْ كَانَتْ أُمَّةٌ لَكَ خَلْقٌ مِمَّنْ وَوَعَدْنَاكَ آثُورًا خَطِيئِينَ﴾ (٦).

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: ص ٢٧٦.

(٢) سورة مريم: الآية ٢٨.

(٣) التبشير والاستعمار: ص ٤١.

(٤) سورة الكهف: الآية ٨٦.

(٥) رد مفتريات على الإسلام: ص ١٢٨.

(٦) سورة القصص: الآية ٨.

وجاء في سورة غافر: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ
الْأَسْبَابَ ﴾^(١).

وهذا خطأ لأن الملك احشويروش ملك الفرس الذي جاء ذكره في سفر
استير كان له وزير يهودي يسمى هامان، وعاش هذا الملك بعد فرعون بنحو ألف
سنة وهذا هو خطأ القرآن في نظرهم^(٢).

(د) ومن الأخطاء اللغوية - في زعمهم - رفع إسم إن كقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا
لَسَجْرَانٌ ﴾^(٣).

ونصب الفاعل في قوله: ﴿ وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ رَبُّهُ يُرِيهِ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ
لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾^(٤).

ونصب المضاف إليه في قوله: ﴿ وَلَئِن أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرْبَا مَسْتَةٍ لَيَقُولَنَّ
دَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي ﴾^(٥).

إلى مثل ذلك من الأمثلة^(٦) التي تدل على جهل كامل باللغة العربية
وأسرارها.

(هـ) ومما زعموه من الأخطاء التشريعية: عدم التسوية بين المرأة والرجل
في الميراث وغيره، وإباحة الطلاق وتعدد الزوجات، وقطع يد السارق حيث
يصبح السارق بعد قطع يده عالة على المجتمع، وتحريم المطلقة على زوجها
حتى تنكح زوجاً آخر^(٧).

(و) وأخطاء أخلاقية منها: إباحة الكفر عند الإكراه كقوله: ﴿ مَنْ كَفَرَ

(١) سورة غافر: الآية ٣٦.

(٢) رد مفتريات على الإسلام: ص ١٥٨.

(٣) سورة طه: الآية ٦٣.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٥) سورة هود: الآية ١٠.

(٦) انظر ذلك في: رد مفتريات على الإسلام: ص ١٦٩ وما بعدها.

(٧) المصدر السابق: ص ١٧٤.

يَا اللَّهُ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِيهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُّظْمِنٌ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ (١).

(ز) ومن الأخطاء العلمية - في زعمهم - ما جاء في سورة لقمان من
قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَنِي فِي الْأَرْضِ رَسُولِي أَنْ تَيِّدَ بِكُمْ﴾ (٢).

وقال رجال المجلس الملي القبطي إن هذا يتعارض مع العلم فقد أثبت
العلم أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة فكيف يقول
القرآن إنها راسية وثابتة (٣).

٧ - وهناك مطاعن أخرى تأخذ صفة العموم كقول دي بوي: (جاء
القرآن للمسلمين بدين ولم يجئهم بنظريات (٤) وتلقوا فيه أحكاماً ولم يتلقوا فيه
عقائد (٥)). وما قاله مرجليوت وطه حسن عن الشعر الجاهلي ثم تطبيق ذلك
على القرآن (٦) بما يبين أنه صورة للبيئة وانطباع لها أكثر من الشعر الجاهلي
المنتحل.

وهكذا نجد الهجوم الصليبي اليهودي على القرآن الكريم من شتى
الجوانب، في أصله ونزوله، وفي أصالته وتقليده، وفي إعجازه وإنسانيته، وفي
بلاغته وفصاحته، وفي ألفاظه ومعانيه، وفي صحته وخطئه، في سلامته
وتناقضه، وفي أحكامه وتشريعاته، وفي مضمونه ومحتواه، ولكنه - كما سنبين
في الفقرات التالية إن شاء الله - هجوم هش ومعركة خاسرة، وسهام طائشة
مردودة إلى نحور أصحابها من الغزاة الحاقدين أعداء القرآن والمسلمين.

(١) سورة النحل: الآية ١٠٦.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٠.

(٣) رد مفتريات على الإسلام: ص ١٣٠.

(٤) يريد - كما يقول العلمانيون - أن الدين خاص بالآخرة أما شئون الحياة والسياسية
والاقتصاد والمجتمع فلها انظمتها الخاصة التي تختلف من بيئة لأخرى ومن شخص لآخر
وفق المصالح والمنافع.

(٥) القرآن والنبي: ص ١٠٠.

(٦) الظاهرة القرآنية: ص ٥٦؛ وانظر الفكر الإسلامي الحديث: ص ١٨٦ - ١٨٧.

الفصل الثالث

تفنيد المطاعن السابقة والرد عليها

في هذا الفصل نذكر المطاعن السابقة حسب ورودها في الفصل السابق
لنتناقش كلا منها ونقيم الأدلة على زيفها وبطلانها في الفقرات التالية:

أولاً — قولهم إن القرآن بشري من عمل محمد وليس وحياً.

والرد على ذلك من عدة جوانب:

(أ) أن القرآن الكريم كان الدليل الذي قدمه النبي ﷺ للمشركين لإثبات نبوته وصدق دعوته، فدل ذلك على أنه كلام غير عادي، وليس من عند محمد، إذ لو كان عادياً أو من عند محمد لما صح أن يكون دليلاً لأنه لا يخرج عن كلامهم، ولا بد أن يكون الدليل شيئاً آخر، وقد أحس المشركون بذلك لولا عنادهم واستكبارهم، وفي ذلك يقول الشيخ محمود شاكر: (ولم يكن من برهانه ولا مما أمر به أن يلزمهم الحجة بالجدال حتى يؤمنوا إنما هو إله واحد، وأنه هو الله نبي، بل طالبهم بأن يؤمنوا بما دعاهم إليه، ويقروا له بصدق نبوته، بدليل واحد هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤه ولا معنى لمثل هذه المطالبة بالإقرار لمجرد التلاوة إلا أن هذا المقروء عليهم كان هو نفسه آية فيها أوضح الدليل على أنه ليس من كلامه هو ولا من كلام بشر مثله، ثم أيضاً لا معنى لها البتة إلا أن يكون في طاقة هؤلاء السامعين أن يميزوا واضحاً بين الكلام الذي هو من نحو كلام البشر والكلام الذي ليس من نحو كلامهم)، ثم انتقل إلى قضية التنجيم^(١) في نزول القرآن الكريم وابتدائه قليلاً متباعداً ثم تكاثره وتتابعه ليبين

(١) التنجيم أي نزول القرآن منجماً أي مفرقاً على دفعات على مدى ثلاثة وعشرين عاماً ما بين آيات إلى سور حتى اكتمل نزوله قبل وفاة النبي ﷺ بقليل.

أن قليله ككثيره في الدلالة على أنه موحي به، ودليل على نبوة حامله ﷺ، يقول: (وكان هذا القرآن ينزل عليه منجماً، وكان الذي نزل عليه يومئذ قليلاً كما نعلم، فكان هذا القليل من التنزيل هو برهانه الفرد على نبوته، وإذن فقليل ما أوحى إليه من الآيات يومئذ، وهو على قلبه وقلة ما فيه من المعاني التي تنامت وتجمعت في القرآن جملة كما نقرؤه اليوم منطوقاً على دليل مستبين قاهر يحكم له بأنه ليس من كلام البشر، وبذلك يكون دليلاً على أن تاليه عليهم — وهو بشر مثلهم — نبي من عند الله مرسل^(١)).

وفي هذا يقول النبي ﷺ: «ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إليّ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(٢).

فالقرآن هو آية الله تعالى في الأرض، آيته المعجزة من الوجه الذي كان به معجزاً للعرب ولكل البشر وللثقلين جميعاً. ومن هنا كان حقاً على كل عاقل، وعلى كل بليغ، وعلى كل متذوق، وعلى كل فاهم أن يقر وأن يعترف حيث لا مناص له عن ذلك بأن القرآن وحي الله، وآيته لخلقه ولا دخل لأي بشرية فيه لا من محمد ولا من غيره، يقول الشيخ شاکر: (لقد فات بيان القرآن طاقة بلغاء الجاهلية وكانت له خصائص ظاهرة تجعل كل مقتدر بليغ مبين، وكل متذوق للبلغة والبيان لا يملك إلا الإقرار له بأنه من غير جنس ما يعهده سمعه وذوقه، وأن مبلغه إلى الناس نبي مرسل، وأنه لا يطبق أن يخلقه أو يفتره لأنه بشر لا يدخل في طوقه إلا ما يدخل مثله في طوق البشر، وأنه إن تقول غير ما أمر بتبليغه وتلاوته بان للبشر كذبه، وحق عليه قول منزله من السماء سبحانه: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَابِلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴿١٤﴾﴾^(٣).

(١) مقدمة الظاهرة القرآنية: ص ٢١.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٨٦/٢؛ والسراج الوهاج: ١/١٢٦.

(٣) سورة الحاقة: الآيات ٤٤ — ٤٧.

(ب) أن نزوله منجماً - في ثلاثة وعشرين عاماً - على حسب الغايات الربانية، والأهداف التربية - على الرغم من حاجة النبي ﷺ لنزوله قبل ذلك أو في وقت أسرع - دليل على أنه وحي يوحى، يمضي حسب المشيئة الإلهية وليس الأهداف والرغبات الشخصية، وكمن مرة كان الرسول ﷺ في حاجة ماسة لنزول الوحي فيتأخر عنه، وكمن مرة نزل على غير ما يحب ويتوقع، يقول الدكتور دراز^(١): بل كان يأتي أحياناً على خلاف ما يحبه النبي ﷺ ويريده، فيخطئه في الرأي، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فإذا تلبث فيه يسيراً تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد، والعقاب القاسي، والنقد المر، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَلَّغِي مَرَضَاتِ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَانَا وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

وقد وضح ذلك الدليل بشيء مكن التفصيل الأستاذ مالك بن نبي في حديثه عن الخصائص الظاهرية للوحي وتطبيقها على القرآن ومن هذه الخصائص التنجيم فقال: (يضم الوحي في مجموعه ثلاثة وعشرين عاماً، فهو لا يكون ظاهرة مؤقتة أو خاطفة، ولقد نزلت الآيات منجمة بين كل وحي وما يليه مدة انقطاع تتفاوت طولاً وقصراً، ولقد ينقطع الوحي مدة أطول مما ينتظره النبي وبخاصة عندما يلزمه أن يتخذ قراراً يعتقد أن من الواجب ألا يصدره قبل تصديق السماء عليه)، وأوضح مثال على ذلك موقفه إزاء قرار الهجرة، فلقد غادر أصحابه مكة فارين بدينهم بينما كان يعتقد أنه لا بد فيما يتعلق بشخصه أن ينتظر أمراً صريحاً من الوحي، ومثال آخر: عندما كان الأمر بالنسبة له يحتم اتخاذ قرار في موقف محير مريب، بينما ينتظر - على أحر من الجمر - وحي الله الحاسم، ولقد تعرض النبي ﷺ لمثل هذه الحيرة في حادثة الإفك^(٣) التي لم يفصل فيها

(١) النبأ العظيم: ص ٢٥.

(٢) سورة التحريم: الآيات ١، ٢.

(٣) انظر الآيات ١١ - ٢٦ من سورة النور؛ وانظر: لباب النقول في أسباب النزول؛ وتفسير

ابن عطية: ١/٤٤٩ - ٤٧٥؛ وعون الباري لحل أدلة صحيح البخاري: ٤/٢٢٠ - ٢٣٧

وغيرها.

الوحي إلّا بعد شهر من الانتظار على مضمض^(١) . . . وهكذا كان ينزل القرآن الكريم وفق المشيئة الإلهية ولتحقيق الغايات التربوية في المناسبات والنوازل بالرسول والأمة في مدى ثلاثة وعشرين عاماً يعزز الجهود ويثبت الأفئدة ويواسي المصابين، ويبشر الصابرين، ويشد من أزر المجاهدين، يقول مالك بن نبي: (وكلما كان الإسلام ينتشر في ربا الحجاز ونجد كان الوحي ينتزل بالدرس الضروري في المشابرة والصبر والإقدام والإخلاص يلقنه أولئك الأبطال الأسطوريين، أبطال الملحمة الخارقة . . . ولو أن القرآن كان قد نزل جملة واحدة لتحول سريعاً إلى كلمة مقدسة خامدة، وإلى فكرة ميتة، وإلى مجرد وثيقة دينية لا مصدراً يبعث الحياة في حضارة وليدة، فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الإسلام لا سر لها إلّا في هذا التنجيم)^(٢). وفي هذا كله يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾^(٣).

(ج) الوحدة الكمية في القرآن الكريم؛ وهذا دليل آخر من أدلة الوحي، وذلك أنه على الرغم من نزول القرآن منجماً كما أشرنا من قبل، إلّا أن بين آياته كلها وآيات السورة الواحدة، والسورة مع السور الأخرى ترابطاً وانسجاماً لا يستطيع لعبقرية بشرية، ويعرض علينا الدكتور دراز نماذج متعددة من هذه الوحدة سواء منها القطعة الواحدة (الجملة) من القرآن مع غيرها منه، أو في السورة الواحدة مع آياتها أو في السور جميعها مع بعضها البعض. أو في القرآن كله من أوله إلى آخره، ونكتفي هنا بهذه الفقرة من كلامه في هذا المعنى يقول رحمه الله: (فإن كنت قد أعجبتك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه

(١) الظاهرة القرآنية: ص ٢٢٠؛ والنبأ العظيم: ص ٢٤.

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ٢٢٢.

(٣) سورة الفرقان: الآيات ٣٢، ٣٣.

حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلم إلى النظر في السورة منه حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز، ألتست تعلم أن ما امتاز به أسلوب القرآن من اجتناب سبل الإطالة والتزام جانب الإيجاز — بقدر ما يتسع له جمال اللغة — قد جعله هو أكثر الكلام افتتاحاً، نعني أكثره تناولاً لشؤون القول وأسرع تنقلاً بينها من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى جدل إلى ضروب شتى، بل جعل الفن الواحد منه يتشعب إلى فنون، والشأن الواحد فيه تنطوي تحته شؤون وشؤون، أولست تعلم أن القرآن — في جل أمره — ما كان ينزل بهذه المعاني المختلفة جملة واحدة، بل كان ينزل بها آحاد مفرقة على حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وأن هذا الانفصال الزماني بينها والاختلاف الذاتي بين دواعيها كان بطبيعته مستتبعاً لانفصال الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يدع بينها منزعاً للتواصل والترابط، ألم يكن هذان السببان قوتين متظاهرتين على تفكيك وحدة الكلام، وتقطيع أوصاله، إذا أريد نظم طائفة من تلك الأحاديث في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة... وسبب ثالث كان أجدر أن يزيد نظم السورة تفكيكاً، ووحدتها تمزيقاً، ذلك هو الطريقة التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها إلى بعض، وفي تأليف وحدات السور من تلك النجوم، وإنها لطريقة طريفة سنريك فيها العجيبة الثالثة الكبرى التي خرجت بهذا التأليف القرآني عن طبيعة التأليف الإنساني...^(١) وهكذا يقدم لنا الدكتور دراز الأسباب والأدلة التي جعلت من هذا التنجيم في نزول القرآن مع هذا التأليف والانسجام بين ما نزل أولاً وما نزل آخرأ، وما هو مكّي وما هو مدني، وما هو في القصص وما هو في الأحكام، وما هو في السلم وما هو في الحرب، وما هو في الأخلاق والشؤون الاجتماعية وما هو في المعاملات والشؤون المالية، نسيجاً مختلفاً عن تأليف البشر ونظاماً لا ترقى إليه عبقرية ولا تطبيقه أية قوة غير إلهية، ومن هذا يثبت أن القرآن ليس بشرياً وإنما هو وحي الله العظيم.

(١) النبا العظيم: ص ١٤٥، ١٤٦.

وفي توضيح هذا المعنى أيضاً يقول الأستاذ مالك بن نبي: (الوحي ظاهرة منجمته فهو في أساسه متفاضل شأن مجموعة عددية، أي أنه متكون من وحدات متتالية هي الآيات، وهذه الخاصة توحى إلينا بفكرة الوحدة الكمية، فكل وحي مستقل يضم وحدة جديدة إلى المجموعة القرآنية، بيد أن هذه الوحدة القرآنية ليست ثابتة، فهي لا تماثل الوحدة التي تزيد في مجموعة الأعداد حين يضاف واحد إلى ثلاثة أو أربعة أو خمسة ليؤدي إلى الوحدة العددية التالية، فإن للوحي مقياساً متغيراً هو كميته أو سعته، تلك السعة التي تتراوح بين حد أدنى هو الآية وحد أقصى هو السورة)، ثم يمضي في تفسير هذا المعنى ببيان صلته بالنبي ﷺ لينتهي من ذلك إلى نفي أي تأثير بشري في هذا الوحي، وتأكيد خلوصيته وتماثل نسبه إلى الوحي الإلهي فيقول: (وتأمل هذه الوحدة يتيح لنا بعض الملاحظات المفيدة عن العلاقة بين الذات المحمدية والظاهرة القرآنية، إذ هي تتناسب في الزمن مع الحالة الخاصة التي سميناها (حالة التلقي) عند النبي ﷺ، ولقد رأينا - بصفة خاصة - أن إرادته تنعدم مؤقتاً إذ هو عاجز في تلك اللحظات عن أن يغطي وجهه المحتقن المتفصد عرفاً، فعن هذه الذات العاجزة فجأة - وللحظات - تصدر وحدة التنزيل، على هذه الذات الغارقة في حالة لا شعورية تقريباً يطبع الوحي فجأة فقراته الوجيزة... هذه الوحدة تؤدي بالضرورة فكرة واحدة، وأحياناً مجموعة من الفكر المنتظمة في أسلوب منطقي يمكننا ملاحظته في آيات القرآن، ودراسة هذه الفكر في ذاتها وفي علاقتها ببقية حلقات السلسلة تكشف عن قدرة خالقه ومنظمه لا يمكن أن تنطوي عليها الذات المحمدية في تلك الظروف النفسية الخاصة بحالة تلقيها الوحي بل حتى في ظروفها الطبيعية...)^(١).

ويؤكد الدكتور دراز هذا المعنى بالنظر في أي آية من آيات القرآن أو سورة من سوره فيقول: (اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى

(١) الظاهرة القرآنية باختصار: ص ٢٢٣.

واحد، وما أكثرها في القرآن فهي جمهرته، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كررتين: كيف بدئت وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأت أولها لآخرها؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به سواء أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى... (١).

ثم يتعجب ويستنكر كيف يوجد بعد هذا النظام البديع والترتيب المعجز من يقول إنه بشري؟ وكيف يكون عاقلاً أو فاهماً بعد اطلاعه على هذا النسيج العجيب من يقول إنه إنساني؟ ومتى وأين وجدنا إنساناً لديه مثل هذه القدرة على هذا العمل العظيم؟ حاشا لله أن يكون من عند غير الله. يقول: (أي تدبير محكم، وأي تقدير مبرم، وأي علم محيط لا يضل ولا ينسى ولا يتردد ولا يتمكث كان قد أعد لهذه المواد المبعثرة نظامها وهداها في إبان تشيبتها إلى ما قدره لها حتى صيغ منها ذلك العقد النظيم، وسرى بينها هذا المزاج العجيب؟ سبحان الله! هل يمتري عاقل في أن هذا العلم البشري، وأن هذا الرأي الأنف (٢) البدائي الذي يقول في الشيء: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لقلت أو فعلت أو قدمت أو أخرت، لم يك أهلاً لأن يتقدم الزمان ويسبق الحوادث بعجيب هذا التدبير، أليس ذلك وحده آية بينة على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما هو صنع العليم الخبير؟ بلى) (٣).

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٤)

أما الأستاذ مالك بن نبي فيسوق أمثلة لهذه الوحدة الكمية منها الوحدة التشريعية في سورة النساء، والوحدة التاريخية في سورة المنافقون.

(١) النبأ العظيم: ص ١٥٤.

(٢) أنف كل شيء أوله أي أن هذا الرأي مغرق في البدائية والجهل.

(٣) النبأ العظيم: ص ١٥٧.

(٤) سورة النساء: الآية ٨٢.

(د) ومن الأدلة أن القرآن وحي إلهي لا صنع بشري ولا عمل محمدي أسلوب القرآن الكريم وصوره الأدبية العالية، ذلك الأسلوب القرآني الفريد المتميز الذي فاق جميع الأساليب العربية المعروفة وغير المعروفة إبان نزوله مما جعل أصحاب البلاغة وأساطين الفصاحة يتحيرون معه فلا هو شعر مثل أشعارهم ولا رجز ولا سجع ولا نثر، إنه ذلك كله وأعظم من كل ذلك، ذلك الأسلوب الذي استحوز على إعجاب الماضين والحاضرين، وكل من يسمعه رغم التقدم العلمي الكبير الذي لم يعد يحفل بالصور والأساليب الأدبية والتعبير البياني، يقول الدكتور دراز: (أما الأسلوب القرآني فإنه يحمل طابعاً لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعاً يطمع أن يحوم حول حماه، بل يدع الأعناق تشرب إليه ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور، كل من يرى بعينين أو يسمع بأذنين إذا وضع القرآن بإزاء غير القرآن في كفتي ميزان ثم نظر بإحدى عينيه، أو سمعه بإحدى أذنيه إلى أسلوب القرآن، وبالأخرى إلى أسلوب الحديث النبوي^(١)، وأساليب سائر الناس، وكان قد رزق حظاً مامن الحاسة البيانية والذوق اللغوي فإنه لا محالة سيؤمن معنا بهذه الحقيقة الجليلة وهي أن أسلوب القرآن لا يدانيه شيء من هذه الأساليب كلها، ونحسب أنه بعد الإيمان بهذه الحقيقة لن يسعه إلا الإيمان بتأليتها استدلالاً بصنعة (ليس كمثله شيء) على صانع ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢).

وهكذا يؤكد أسلوب القرآن الفريد وتميزه العجيب وتفوقه على كل الأساليب أنه صنع الله ووحيه، وليس للصنعة البشرية أي موضع فيه، يقول الأستاذ مالك بن نبي: (إن القرآن يؤكد صراحة سمو بيانه الذي أعجز به العقريّة الأدبية في عصره حين قذف في وجوه معاصريه بهذا التحدي المذهل: ﴿وَإِنْ

(١) رغم أن صاحبه ﷺ قد أوتي جوامع الكلم.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١؛ والنبا العظيم: ص ١٠٠.

كُنْتُمْ فِي رَبِّ وَمَا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٣﴾^(١).

ولم يذكر التاريخ أن أحداً قد أجاب على هذا التحدي، وبهذا يمكن أن نستخلص أنه قد ظل دون تعقيب، وأن إعجازه الأدبي قد أفحم عبقرية ذلك العصر^(٢)، ليس ذلك العصر فحسب بل جميع العصور وكل العبقريات والإنس والجن إلى يوم القيامة.

(هـ) ودليل آخر على أن القرآن وحي الله لا عمل محمد وذلك هو مضمون الرسالة الذي احتواه القرآن الكريم في وضوح وشمول وإيجاز وإطناب وإجمال وتفصيل، ذلك الشمول التام لمفردات الإسلام ووكلياته من عقائد وعبادات وتشريع وأخلاق ومعاملات وقصص وحكم وأمثال وحلال وحرام وترغيب وترهيب وعلوم وتاريخ وأخبار ماضية وحاضرة ومستقبلية، هذا كله وغيره لم يكن لنا أن نعرفه لولا حديث القرآن الكريم عنه ذلك الحديث القديم الجديد الذي لا يشبع منه العلماء ولا تنقضي عجائبه، يقول الأستاذ مالك بن نبي: (إن رحابة الموضوعات القرآنية وتنوعها لشيء فريد طبقاً لتعبير القرآن نفسه: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٣)).

فهو يبدأ حديثه من ذرة الوجود المستودعة باطن الصخر والمستقرة في أعماق البحار — كقوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ بُنْيَانُهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(٤).

إلى النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم كقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٥).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣.

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ٢٣٢.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(٤) سورة لقمان: الآية ١٦.

(٥) سورة يس: الآية ٤٠.

وهو يتقصى أبعاد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس وهو يتجه نحو ماضي الإنسانية البعيد، ونحو مستقبلها، كما يعلمها واجبات الحياة، وهو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابع ثم يدعونا إلى أن نتأمله من عواقبه عظة واعتباراً، وإن درسه الأخلاقي لهو ثمرة نظرة نفسية متعمقة في الطبيعة البشرية تصف لنا النقائص التي ينهى عنها وينفر منها، والفضائل التي يدعو إلى التآسي بها من خلال حياة الأنبياء، أولئك الأبطال والشهداء في سجل ملحمة السماء، وعلى هذا الأساس يدفع القرآن المؤمن إلى الندم الصادق حين يعده بالغفران، أساس التربية الجزائة في الأديان السماوية... (١).

(و) ودليل آخر على أن القرآن وحي من الله تعالى لا صنعة لأحد فيه ذلك الأثر البالغ والتأثير العميق الذي يتركه القرآن الكريم في قلوب كل من يقرأه أو يستمع إليه، والشواهد على ذلك كثيرة في الماضي والحاضر مما يؤكد أن القرآن الكريم كان وما يزال وسيظل وراء إسلام الآلاف والملايين، ولولا العناد والاستكبار لآمن به كل من سمعه ونقد ما يدعو إليه. لقد بكى النجاشي حين استمع إليه من جعفر بن أبي طالب في أعقاب الهجرة إلى الحبشة، وقال قولته المشهورة: (إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة)، وكان سبباً في إسلامه فور وصول كتاب النبي ﷺ إليه (٢) ولما قرأ النبي ﷺ بعضه على الوليد بن المغيرة - وهو الذي جاء لإغراء النبي ﷺ ببعض المغريات لعله يرجع عن دعوته - ارتد إلى قومه وهو يقول: «والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه»، وقال عتبة بن ربيعة لقومه بعد أن استمع من النبي ﷺ لجزء من سورة فصلت: (يا قوم أطيعوني في هذا الأمر اليوم، واعصموني فيما بعد، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت

(١) الظاهرة القرآنية باختصار: ص ٢٣٧.

(٢) خاتم النبيين: ٤٩٦/١.

أذناي كلاماً مثله، وما دريت ما أرد عليه^(١)، وقال توماس كارليل في كتابه «الأبطال» عن القرآن: (هذا صدى متفجر من قلب الكون نفسه).

يقول مالك بن نبي في تعليقه على ذلك: (وفي هذه الصرخة الفلسفية نجد أكثر من فكرة جافة لمؤرخ، نجد بعض ما يشبه الاعتراف التلقائي لضمير إنساني سام بهت أمام عظمة الظاهرة القرآنية، وإن العقل الإنساني ليقف فعلاً حائراً أمام رحابة القرآن وعمقه...) ويضيف: (إنه لو أتيح لأحد من الناس أن يقرأ القرآن قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق)^(٢).

وهكذا يكون تأثير القرآن الكريم باعتراف الأعداء دليلاً على أنه وحي وأنه غير بشري.

(ز) التحدي القائم إلى يوم القيامة: فنحن نعلم أن الله تعالى تحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن إن كان بشرياً أو كان محمد كاذباً فعجزوا، فسهل عليهم الأمر وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا، فسهل عليهم الأمر أكثر وتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا، فثبت من ذلك أنه ليس من كلام البشر وإلا لاستطاعوا إليه سبيلاً لتوفر كل الأسباب الداعية إلى ذلك عندهم. فعجزهم هذا المطبق دليل على أنه وحي يوحى. يقول الشيخ شاکر: (ظل رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً، والمسلمون قليل مستضعفون في أرض مكة، وظل الوحي يتتابع وهو يتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم بعشر سور مثله مفتريات، فلما انقطعت قواهم، قطع الله عليهم وعلى الثقلين جميعاً منافذ اللدود والعناد فقال: ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾^(٣)).

وكذلك كان، فكان هذا البلاغ القاطع الذي لا معقب له هو الغاية التي

(١) خاتم النبيين: ٤٧٠/١.

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ٢٣٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

انتهى إليها أمر هذا القرآن، وأمر النزاع فيه، لا بين رسول الله ﷺ وبين قومه من العرب فحسب، بل بينه وبين البشر جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، لا، بل بينه وبين الإنس والجن مجتمعين متظاهرين، وهذا البلاغ الحق الذي لا معقب له من بين يديه ولا من خلفه هو الذي اصطلحنا عليه فيما بعد وسميناه «إعجاز القرآن»^(١). وإعجاز القرآن هذا هو دليل النبي ﷺ على صدق نبوته، وعلى أنه رسول من الله يوحى إليه هذا القرآن، وأن النبي ﷺ كان يعرف إعجاز القرآن من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به قومه العرب... إلى أن يقول: (فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، وأما النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن)^(٢).

(ح) ومن الأدلة على أن القرآن وحي إلهي لا عمل بشري أنه صحح العقائد الإلهية؛ فقد كانت العقيدة في الله قبل القرآن الكريم يشوبها الكثير من الشرك والانحراف عن التوحيد حتى جاء رسول الله ﷺ بالقرآن من عند الله، فأبطل الباطل وأتم الناقص، وأقام المعوج حتى استقامت عقيدة التوحيد كما لم تكن من قبل وذلك دليل على أن القرآن وحي من عند الله، فلم يكن لمحمد ﷺ ولا لغيره لولا الوحي الإلهي أن يقوم بذلك، يقول الأستاذ العقاد رحمه الله: (فالله رب العالمين، مالك يوم الدين، لم يكن نسخة محرفة من صورة الله في عقيدة من العقائد الكتابية، بل كان هو الأصل الذي يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة في الإله كأكمل ما كانت عليه وكأكمل ما ينبغي أن يكون، ومن ثم كانت هذه العقيدة الإلهية في الإسلام مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات، أو في مذاهب الفلسفة، ومباحث الربوبية، فهي عقيدة كاملة صححت وتممت عقيدة الهند في: الكارما والزفانا^(٣)، لأنها عقيدة في

(١) مقدمة الظاهرة القرآنية: ص ٢٤؛ وانظر أيضاً النبأ العظيم: ص ٤٤ - ٨٨.

(٢) مقدمة الظاهرة القرآنية: ص ١٧ - ١٨ باختصار.

(٣) صورتان من صور التنزيه للإله عند الهنود القدماء، وهما بالمعاني الذهنية أشبه منهما بالكائنات الحية، وإحدهما - وهي الزفانا - إلى الفناء أقرب منها إلى البقاء؛ وانظر حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: ص ٤٤.

خواء أو فناء مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة، وهي عقيدة كاملة صححت وتممت عقيدة المعلم الأول أرسطو بين فلاسفة الغرب الأقدمين، لأنه كان على خطأ في فهم التجريد والتنزيه، ساقه هذا الخطأ إلى القول بكمال مطلق كالعدم المطلق في التجرد من العمل والتجرد من الإرادة، والتجرد من الروح، ودين يصحح العقائد الإلهية ويتممها فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها - تراه من أين أتى؟ ومن أي رسول كان مبعثه ومدعاه؟ من صحراء العرب، ومن الرسول الأمي بين الرسل المبعوثين بالكتب والعبادات، إن لم يكن هذا حياً من الله فكيف يكون الوحي من الله؟ ليكن كيف كان في أخلاق المؤمنين بالوحي الإلهي حيث كان، فما يهندي رجل أمي في أكناف الصحراء إلى إيمان بالله أكمل من كل إيمان تقدم إلا أن يكون ذلك حياً من الله، وإنه لحجر على البصائر والعقول أن تنكر الوحي على هذه المعجزة العليا لأنه لا يصدق عليها في صورة من صور الحدس والخيال^(١).

إذاً تصحيح العقيدة في الله بهذا الشكل التوحيدي النقي الذي صحح اعوجاج العقائد السابقة وأتم نقصانها لا يستطيعه شخص أمي من بيئة صحراوية، ولا عبقرى من بيئة حضارية، فلم يكن لهذا ولا ذاك أن يصل إلى هذا الكمال الذي لم يعرف إلا من القرآن إلا عن طريق الوحي الإلهي، فتحصل من ذلك أن القرآن الذي صحح هذه العقائد الإلهية لا بد أن يكون حياً ويستحيل أن يكون غير ذلك، فالذي جاء به لم يسبق إليه، ولن يلحق فيه، ويضيف الدكتور دراز أن الإسلام والقرآن لم يصححا عقيدة التوحيد فحسب، بل إنه (يشرح حدود الإيمان مفصلة، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعمتها، والنار وألوان عذابها كأنهما رأي عين، حتى إنه ليحصى عدة الأبواب وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب... ثم يخبر عن مستقبل الإسلام في نفسه، وفي شخص كتابه ونبيه، وعن مستقبل حزب الله وحزب الشيطان...)^(٢).

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) انظر: النبا العظيم: ص ٤٠، ٤٢.

(ط) أمية النبي ﷺ؛ وهذا دليل آخر على الفضية التي نحن بصددھا وهي إثبات أن القرآن وحي إلهي لا عمل بشري محمدي . فقد كان رسول الله ﷺ بشهادة الجميع أمياً لا يقرأ ولا يكتب فكيف لأمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة أن يؤلف مثل هذا الصرح العظيم بل أقل منه ملايين الدرجات، هذا فضلاً عما تضمنه القرآن الكريم من تاريخ الماضي السحيق الذي لا يعرفه العلماء المتخصصون، فكيف بالأميين، وكذلك الأخبار عن المستقبل والعلماء لم يستوعبوا الحاضر بعد، وما اشتمل عليه القرآن من حقائق علمية لم يعرفها المتخصصون منذ بضع سنوات وما زال بعضها غير معروف، فكيف بأمي في أمة أمية يعرف ذلك لو لم يكن وحيًا، والمتتبع لمؤتمرات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم يعرف الكثير من ذلك الذي أشار القرآن الكريم إليه منذ نزوله ولم يعرفه العلماء إلا هذه الأيام، وقد اندهش الكثيرون منهم لما وجدوا ذلك في القرآن وآمن بعضهم ولولا الكبر والعناد لآمن الآخرون. وهذا بالإضافة إلى ما في القرآن الكريم من الأحكام التشريعية العظيمة والأخلاق الفاضلة الكريمة، من كل ما يحفظ للإنسانية أمنها وسلامتها وسعادتها، فكيف بمحمد الأمي يعرف كل ذلك لو لم يكن القرآن الكريم وحيًا إلهيًا؟.

يقول الدكتور دراز: (فلينظر العاقل هل كان هذا النبي الأمي صلوات الله عليه أهلاً بمقتضى وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية؟ سيقول الجهلاء من الملحدين: نعم، فقد كان له من ذكائه الفطري، وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء، والحسن والقبیح من الأخلاق، والخير والشر من الأفعال، حتى لو أن شيئاً في السماء تناوله الفراسة أو تلهمه الفطرة، أو توحى به الفكرة لتناوله محمد بفطرته السليمة وعقله الكامل، وتأملاته الصادقة، ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله ﷺ ولكننا نسأل: هل كل ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور؟ اللهم كلا، ففي القرآن جانب كبير من المعاني الثقلية البحتة التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنا إلا بالدراسة والتلقي

والتعلم^(١)، وفي ذلك كله يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أُنزِلَتْ عَلَيْكَ الْمُطْلُوكُ﴾^(٣).

ويقول عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤).

ويقول تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنِّي رَسُولٌ لِّهِم مِّن قِبَلِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٥).

ويقول الشاعر:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتيم

(ي) أضاف الأستاذ مالك بن نبي كثيراً من الأمور التي تدل كل منها - فضلاً عن جميعها - تدل على أن القرآن وحي من عند الله تعالى وليس بشياً من عمل محمد منها: إرهاب القرآن: أي إخباره عن بعض أحوال المستقبل فجاءت فيما بعد كما أخبر القرآن كقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ لَوْلَا تَقِيلاً﴾^(٦).

والقرآن لم يكن ثقیلاً في بداية نزوله ونجومه ولكن أصبح كذلك بعد

(١) النبا العظيم: ص ٣٦.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

(٤) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٦) سورة المزمل: الآية ٥.

اكتماله و وفاة النبي ﷺ، وهو ثقل الفكرة الدينية والإيمان وليس مجرد القرآن فقد حفظه الله تعالى ويسره للذكر، ومنها تصدير أو ختم بعض الموضوعات والقصص القرآنية بالإشارة إلى أن ما قصصناه عليك من أبناء الغيب كقوله تعالى: ﴿ تَحْنُ نَقْضُ عَيْكَ أَحْسَنَ الْفَصِّصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِينًا الْعَنْفِيلِيكَ ﴾ (١).

وفي صدر قصة يوسف وقوله في نهايتها: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (٢).

ومثل ذلك في قصة مريم (٣) وفي قصة نوح (٤) وهكذا.

ومن ذلك: فواتح بعض السور ببعض الحروف المقطعة التي لا مجال للعقل فيها (٥)، ومنها: المناقضات التي كانت تقع بين الميول والاتجاهات الطبيعية لدى النبي ﷺ، وبين ما يعتربه خلال تلقيه الوحي، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ (٦).

حيث صادرت الآية الكريمة إرادة النبي ﷺ في التريديد والحفظ أثناء عملية الوحي ووعده في آية أخرى بالحفظ: ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (٧) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَبْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ (٧).

وبالإضافة إلى هذه المناقضات كانت هناك الموافقات العديدة مع البحوث

(١) سورة يوسف: الآية ٣.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٤.

(٤) سورة هود: الآية ٤٩.

(٥) كأوائل السور: البقرة، آل عمران، الأعراف، يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، مريم، الطواسين، الحواميم، ق، ن.

(٦) سورة طه: الآية ١١١.

(٧) سورة القيامة الآيات ١٦ - ١٩.

العلمية الحديثة كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا أَنَا فِي الْأَرْضِ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾^(١).

هذا التوافق الذي يخص شكل الأرض ودحو قطبيها، تلك الخاصة المساحية التي أثبتها العلم الحديث عموماً، ويضاف إلى ذلك المجاز القرآني والقيم الاجتماعية التي جاء فيهما القرآن بما لا يحصى^(٢).

(ك) بقيت قضية أخرى تتعلق بادعاء «بشرية القرآن» وذلك بتفسير هذه البشرية من الجانب النفسي وهو «اللاشعور» وقد حلل الأستاذ مالك بن نبي هذه المقولة وأبطلها أولاً لغموضها وثانياً لأنها في أولها فاللاشعور مهما اختلف عن الشعور فهو لا يخرج عن كونه نشاطاً إنسانياً نفسياً، ولا علاقة له بالوحي، يقول: (لعبت كلمة لا شعور دوراً نظرياً هاماً في تفسير الظاهرة القرآنية، فإذا أردنا أن نفهم معنى هذا المصطلح في نظريات علم النفس وجدناه في منتهى الغموض، فهو لا يعني شيئاً محدداً كما تعني مثلاً المصطلحات المعروفة كالتيذكر والإرادة، إن نظرية «اللاشعور» ما تزال في مرحلة نشوئها ومع ذلك فقد استخدموها لكي يفسروا لنا — كما يدعون — الظاهرة القرآنية بطريقة موضوعية، ومن الصعب علينا أن نعتقد أن هؤلاء المؤلفين قد بذلوا أقل الجهد لكي يتفهموا الموضوع، فمما لا شك فيه أن الذات الإنسانية تحتوي على مجال معين تتكون فيه الظواهر النفسية الغامضة التي لا تخضع لسلطان الشعور كالأحلام مثلاً، فهذا المجال المظلم الذي تدوي فيه بعض طوارئ الحياة النفسية الشعورية في الفرد ذو علاقة واضحة بالحالات الشعورية، فلو أردنا لأطلقنا لفظ «لا شعور» على هذا المجال المظلم، وجميع العمليات التي تتم فيه أشكال محورة خاصة لفكرة أو واقع مر بالشعور، فيمتص اللاشعور هذه العناصر الشعورية ويودعها مخيلته لكي يقلبها غالباً إلى رموز، إلى أحلام، إلى حديث نفسي، إلى إلهام، ولكن هذه الرموز تحتفظ بمعالم الفكرة أو الواقع الذي تولدت عنه، لا شك أن هذه العلاقة متفاوتة في غموضها، ولكن التحليل قد يكشف عنها، إذ من الممكن أن

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٤.

(٢) بتصرف من الظاهرة القرآنية: ص ٣٢٥ - ٣٦٠.

نجد في حلم أو كابوس الطريقة التي اتبعها «اللاشعور» في صياغة رمزه بالرجوع إلى حادث سابق تسبب فيه، فهو حساسية خاطفة، أو تذكار قاس، أو هو راجع إلى يسر الهضم أو عسره... الخ، فاللاشعور يعمل هنا عمل المستقبل الكهربائي بالنسبة للمولد الكهربائي الذي هو الشعور، وعليه ففي هذا المجال الأخير يجب أن نلتمس دائماً مصدر العمليات النفسية التي يصفونها باللاشعورية، وعندما يتضح أن فكرة ما لا تخضع مطلقاً للذات الشعورية فمن الممكن أن نفهم من هذا أنها بالضرورة أجنبية عن هذه الذات، وأنه لا محل لها في اللاشعور^(١).

وهكذا يثبت الأستاذ مالك بن نبي أمرين: أولهما أن اللاشعور في الإنسان غير مستقل عن الشعور، ولكنه ترجمة محورة له ورموزه معبرة عنه فهو بهذا عملية نفسية إنسانية، وثانيهما: أن اللاشعور إذا جاء بشيء مستقل عن الشعور ولا علاقة له به كان ذلك خضوعاً واستجابة لمؤثر أجنبي خارج عن خبرات لم تمر في شعوره في الماضي وفي المستقبل فهو ليس من اللاشعور النبوي بل هو بالضرورة أجنبي عن هذه الذات، ولا مجال لذلك إلا أن يكون القرآن وحياً وهو المطلوب.

(ل) دليل السيرة النبوية: فقد عرف رسول الله ﷺ بين قومه على مدى أربعين سنة قبل الوحي بالصادق الأمين، وأصبح ذلك علماً عليه، فإذا أطلق انصرف إليه ﷺ، ولم تمنع العداوة التي كانت عند المشركين للنبي ﷺ ودعوته، أن يستمروا على ما عرفوه ويشهدوا به في كل مكان كما حدث من أبي سفيان عند هرقل ملك الروم^(٢)، فمن غير المعقول بعد هذا الرصيد الطويل وهذه الشهادة العامة أن يكذب محمد في نسبة القرآن إلى الله^(٣).

وصدق الله العظيم: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ

(١) الظاهرة القرآنية: ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٢) رواه الأشيخان: انظر الحديث بتفاصيله في عون الباري لحل الأدة صحيح البخاري:

٧٧/١ - ١١٢.

(٣) النبأ العظيم: ص ٢٣.

لَيْسَتْ فِيكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ (١)

وكان الواجب عليهم بعد هذا الإقرار النبوي أن يأخذوا منه الدليل على صدقه في نسبة القرآن إلى الله، لا تكذيبه والشك فيه .

(م) دليل العقل والمنطق: ومؤداه أن العقل والمنطق يقضي بأن ينسب محمد القرآن إلى نفسه لو كان من عنده ليكسب من وراء ذلك التفوق على أقرانه بهذا البيان العظيم والبلاغة الفائقة، كما يفعل بعض الأدباء والعلماء الذين يسطون على أعمال غيرهم ليحققوا من وراء ذلك شهرة ومكانة، ولكن محمداً لم يفعل ذلك، بل نسب القرآن - على حقيقته - إلى الله لأنه ليس فيه حول ولا طول، فإذا قيل: إنما فعل ذلك ليحقق منزلة أعظم ومكانة أكبر واستجابة أعم، أجيب بأن ذلك غير صحيح، وإلا لنسب كل أقواله - كالسنة النبوية - إلى الله، فإذا لم يفعل دل ذلك على أن الله قولاً موحى به هو القرآن الكريم، وللنبي ﷺ قولاً آخر وهو السنة النبوية المطهرة^(٢).

(ن) وأخيراً يقدم لنا الدكتور البهي دليلاً حاسماً في هذه القضية يسأل فيه المنكرين إن كانوا يؤمنون بوحى سابق نزل على موسى وعيسى وغيرهما أو لا يؤمنون، فإن كانوا يؤمنون فالقضية واحدة ولا بد لهم أن يسلموا إما بالجميع أو بإنكار الوحي عموماً، أما أن يؤمنوا به في جهة وينكرونه في جهة أخرى فهذا لا يقبله العلم ولا المنطق والموضوعية، وإن كانوا ينكرون الوحي بعامه فلن يجدي معهم أي دليل. يقول: (لو واجهنا بالقرآن غير المسلم من متعصي أهل الكتاب، فإنه - القرآن - لا يكون له دليل هداية واقتناع على أن القرآن وحي من الله، وإنما الذي يجب أن يسلك معه: مطالبته بتحديد موقفه من الوحي كقضية عامة للديانات الثلاث، وليست قضية الإسلام وحده فما يقوله الغرب المسيحي بإسم العلم تأييداً لوحي عيسى أو موسى يصح أن يقال تأييداً لوحي محمد، فإذا كان الوحي كأمر غير عادي يخضع للطريقة العلمية الحديثة،

(١) سورة يونس: الآية ١٦ .

(٢) النبأ العظيم: ص ٢٢ .

أو لا بد أن يقف عند حد اعتقاد المؤمنين به في كل دين فكل أنواع الوحي سواء في هذا أو ذاك، أما الأمر الذي يجب أن ينكره البحث العلمي – بهذا التحديد – فهو أن يناقش نوع من الوحي ويتشكك فيه باسم العلم، ثم يسان نوع آخر منه على أنه بديهي التسليم، وبعيد عن مجال الجدل العقلي والنظري أو العلمي التجريبي^(١).

وبعد، فقد ثبت لنا بالعديد من الأدلة القطعية التي قدمناها في هذه الفقرة سواء منها ما يتصل بذات القرآن الكريم من حيث لفظه ونظمه وأسلوبه وبلاغته ونزوله وترتيبه، ومن حيث مضمونه وما احتواه من عقائد صحيحة وأحكام مناسبة ومعاملات سليمة وأخلاق فاضلة، ومن حيث أخباره الماضية العتيقة والمستقبلية البعيدة وأسراره التي لم تحل وغيباته التي لم تكشف، أو ما يتصل بذات الرسول ﷺ من حيث أميته وسيرته وحالته في التلقي، وحرصه على الحفاظ وانتظاره قبل اتخاذ القرار وبعده عن الشعور واللاشعور، كما رأينا أن العقل والمنطق والعلم والموضوعية كلها تشهد بأن القرآن الكريم وحي إلهي عظيم، فلا مجال بعد ذلك كله إلا الاعتراف والتسليم لأي باحث متدبر وعالم عاقل، وسيبقى القرآن الكريم عزيزاً يغلب كل مغالب، ويعلو على كل شاعر وكاتب، وستنقضي الأحقاب والأجيال قبل أن تنقضي عجائبه وقبل أن يحيط الناس بكل ما فيه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾^(٢).

أما من ينكر بعد كل ذلك فهو إما ممن غرق في حمأة العناد ممن يقولون: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

أو ممن لا يجدون طمأنينتهم إلا في اضطراب الشك يقولون: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَثْقِينَ﴾^(٤).

(١) الافكر الإسلامي الحديث: ص ١٩٤ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٣ .

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٢ .

(٤) سورة الجاثية: الآية ٣٢ .

وهؤلاء وأولئك لا سبيل لنا عليهم ولا ينفعهم نصحن إن كان الله يريد أن يغويهم، إذ ليس من شأننا أن نسمع الصم أو نهدي العمي، ولا الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم فإذا هم لا يسمعون، أو يضعون أكفهم على أعينهم فإذا الشمس الطالعة ليست بطالعة: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾^(١).

وإنما سبيلنا أن نصب الحجة لجاهلها من طلاب الحق ونوضح الطريق لسابلها من وراء اليقين^(٢). ولعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات^(٣).

ثانياً — قولهم: إن معظم القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل، فإذا نسخنا منه ما هو مقتبس منهما لم يبق منه ما يستحق الذكر^(٤).

وهذه دعوى باطلة وغاية في السخف والنكارة والرد عليها من عدة وجوه:
(أ) فالقرآن الكريم لا يشبه التوراة ولا الإنجيل في اللفظ أو الأسلوب أو النظم، فالقرآن كما رأينا في الفقرات السابقة في قمة البلاغة ولا الفصاحة والبيان والإعجاز، أما التوراة والإنجيل — بعد تحريفهما — ليس في أي منهما شيء من البلاغة ولا الفصاحة ولا البيان، بل إنهما عند الاطلاع على أي منهما يتبين أنهما يقعان في أدنى درجات التعبير والبيان، وفيهما الكثير من الركافة والألفاظ السوقية حتى ليقلان في أحيان كثيرة عن مستويات التعبير العادية والصحفية.

(١) سورة المائدة: الآية ٤١.

(٢) النبأ العظيم: ص ٧٨.

(٣) النبأ العظيم: ص ٢١١.

(٤) انظر في هذه الدعوى: اسلام في مواجهة الاستشراق: ص ٥٣٩ — ٥٦٥؛ والفكر الإسلامي الحديث: ص ١٦٨.

(ب) أن القرآن الكريم في موضوعاته ومعانيه وما يقدمه من عقائد وعبادات وحلال وحرام وأخلاق ومعاملات يختلف كثيراً جداً عما في التوراة والإنجيل وبخاصة بعد تحريفهما، بل إن فيهما الكثير مما يرفضه القرآن الكريم كما ترفضه العقول السليمة والفطرة الصحيحة، وإذا كان بينهما بعض التشابه في بعض الوصايا والأحكام وأصول العقيدة والشريعة ومكارم الأخلاق، فهذا أمر طبيعي ولازم بين كل الرسالات والكتب السماوية، بل وفي كل المجتمعات المتحضرة، لأن المصدر لهذا كله واحد وهو الله تعالى الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب وأودع في كل نفس فطرتها الصحيحة، ولأنها جميعاً تهدف إلى غايات واحدة وهي: إصلاح الناس وإسعادهم في الدنيا والآخرة. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١).

فهذا في الأصول. وأما الفروع فإنها مختلفة غالباً لاختلاف الأحوال والبيئات ولذلك قال سبحانه: ﴿ لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾ (٢).

(ج) أن الله سبحانه وتعالى - وهو رب العالمين ومنزل الكتب كلها - قد جعل القرآن الكريم - وهو وحيه الذي تولى بنفسه حفظه - مصدقاً لما سبقه من الكتب ومهيماً عليها قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاتَّبِعْ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَلَّا تَكُونَ مِنَ الْخَالِفِينَ ﴾ (٣).

فالقرآن الكريم يصدق الكتب السابقة ويؤيدها ويوافقها فيما لم تمتد إليه يد التحريف، كما أنه الحكم على هذه الكتب فيما أصابه التحريف وما لم يصبه لأنه الكتاب الوحيد الذي تولى الله تعالى حفظه فبقى كما أنزله الله، فكيف يكون القرآن حاكماً عليها وهو مقتبس منها؟

(د) أننا قد عرفنا في الفقرة السابقة أن رسول الله ﷺ كان أمياً ولم يجلس

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.

إلى معلم قط، ولم يعرف شيئاً من القراءة والكتابة، ومن باب أولى لم يطلع على الكتب السابقة، وقد بعث في مكة وهي إبان بعثته ﷺ خالية من اليهود والنصارى أو على الأقل من الكثرة التي يمكن أن يكون لها تأثير ما في ثقافته ونشأته، ونحن نعلم أن الاقتباس مرحلة عالية من الفهم والعلم لدى من يقتبس منه، فإذا كان رسول الله ﷺ أمياً ولم يلتق بمعلم ولم تكن البيئة يهودية ولا نصرانية فمن أين له حينئذ الاقتباس أو القدرة عليه، قد يقال إن ورقة بن نوفل وبحيرا الراهب قد التقى بهما محمد ولدى كل منهما علم بالكتب السابقة؟ فيجواب عن ذلك بأن التاريخ لم يذكر من اللقاء بينهما وبين رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين، وكان لقاءه بالراهب وهو صغير، فهل يعقل لصغير في لقاء واحد أو لقاءين أن يقتبس كل ذلك الذي لا يحصى علماً وخبراً وأحكاماً؟ فكيف إذا علمنا أن ما تناقلته كتب التاريخ التي سجلت ما دار في هذه اللقاءات لم تشر من قريب أو بعيد إلى شيء مما في التوراة والإنجيل أو القرآن، وكل ذلك مسجل ومحفوظ فمن أين وعلى يد أي معلم تعلم محمد التوراة والإنجيل حتى يقتبس منهما؟ وذلك الرومي الحداد «بلعام» الذي زعم المشركون أن محمداً ﷺ تعلم منه، كان أعجمياً لا يعرف من العربية إلا بضع كلمات، فإذا كان فاقد الشيء لا يعطيه — كما نعلم — فكيف يعلم هذا الأعجمي رسول الله ﷺ التوراة والإنجيل أو هما معاً فضلاً عن أن يعلمه هذا الكلام المعجز «القرآن الكريم»؟ وإذا كان «بلعام» معلماً فلماذا لم يسرعوا إليه ويتعلموا منه كما فعل محمد كما يدعون؟ وإلى هذا الافتراء العجيب يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ إِفْكُ أَقْرَبَهُ وَاعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿١١٤﴾ وَقَالُوا أَصْطَلِحُوا آلَؤَلِيئَكَ أَكْتَبْنَا فِيهَا فَهِيَ تُمَلِّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١١٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا ذَكِيًّا ﴿١١٦﴾﴾ (٢).

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٢) سورة الفرقان: الآيات ٤ - ٦.

(هـ) وإذا كان مقتبساً من كتبهم كما يزعمون فلماذا كفروا به وكذبوه؟ ألم يخبرهم الله تعالى في كتبهم أنه سيرسل محمداً وينزل عليه قرآناً وعليهم أن يؤمنوا به؟ إن كفرهم بالقرآن والرسول وتكذيبهم لهما دليل قاطع على أنه شيء آخر غير التوراة والإنجيل، كما أن هذا الكفر بالقرآن والرسول كفر بالتوراة والإنجيل، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَسْرَفُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَنِيَّ أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. فَبَاءَ وَبِعَضِّ عَلَى عَضْبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (٢).

(و) أن القرآن الكريم نفسه أكد أن بينه وبين الكتب السابقة تشابهاً وصلته ولكن على طريقته الخاصة وبأسلوبه الفرد الذي يصدق ما بقي صحيحاً في الكتب السماوية السابقة، ويصحح ما أصابه التحريف فيها، ويفصل الأحكام الكلية ويبين الأحكام الفرعية بما لم يسبق إليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ لِكِتَابٍ لَارَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (٣).

يقول الأستاذ مالك بن نبي: (إن القرآن يؤكد مستعلاً صلته بالكتاب المقدس، فهو يطلب دائماً مكانه في الدورة التوحيدية، وهو بهذا وذاك يثبت باعتدال — التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل — وهو يؤكد هذه القرابة صراحة، ويلفت إليها النبي نفسه كلما وجدت مناسبة) (٤).

(١) سورة البقرة: الآيات ٨٩ — ٩١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠١.

(٣) سورة يونس: الآية ٣٧.

(٤) الظاهرة القرآنية: ص ٢٤٠.

إذن فليس التشابه كما يزعمون اقتباساً قام به محمد ﷺ، ولكنه تنزيل رب العالمين الذي أنزل هذا وذاك، ويبقى للقرآن بعد ذلك التشابه التفرد المطلق والعجيب والمختلف عن الكتب السابقة في كثير من الأمور ولناخذ لذلك بعض الأمثلة التي تقطع باستقلالية القرآن عما سواه وبطلان دعوى الاقتباس:

١ - في قضية التوحيد: يعرض القرآن الكريم العقيدة الغيبية الخاصة بطريقة أكثر مطابقة للعقل، وأكثر تدقيقاً، وفي اتجاه أكثر روحية، فالله واحد، ومخالف للحوادث، وهو رب العالمين: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾. على حين نجد هذه القضية في الكتب السابقة يشوبها التشبيه والقومية، ثم اخترعت المسيحية من جانبها للإله ذاتاً إنسانية في الأفانيم الإلهية، وبهذا نشأت عقيدة جوهرها (الرب الحي بجسد إنسان)، وتولد عن هذه العقيدة التفسير المسيحي الذي أنشأ عقيدة دينية ثالوثية قائمة على سر الثالوث الأقدس. وقد أشار الأستاذ العقاد أيضاً إلى هذه القضية وبيان التفاوت فيها بين القرآن وغيره ليخلص من ذلك إلى إبطال القول بالنقل أو الاقتباس، يقول: (جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب، منزه عن التشبيه الذي تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية... وللباحث في مقارنات الأديان أن يقول ما يشاء عن هذا الإله الواحد الأحد رب العالمين، ورب المشرقين ورب المغربين إلا أن يقول إنه نسخة مستمدة من عقائد عرب الجاهلية أو عقائد الفرق الكتابية التي خالطت عقائد الجاهليين على النحو الذي وصفه جورج سبيل في مقدمته لترجمة القرآن الكريم، فإن العقيدة الإلهية التي تستمد من تراث الجاهليين لن تكون لها صبغة أغلب من صبغة العصبية، ولا مفخرة أظهر من مفاخر الأحساب، ولن تخلو من لوثة الشرك ولا من عقابيل العبادات التي امتلأت بالخباثت، وحلت فيها الرقى والتعاويد محل الشعائر والصلوات، ومعجزة المعجزات أن الإسلام لم يكن كذلك بل كان نقيض ذلك في صراحة حاسمة حازمة لا تأذن بالهواذة

ولا بالمساومة... (١).

٢ - قضايا الآخرة: من قيامة وبعث وحشر وحساب وجنة ونار إلى غير ذلك من المشاهد، لم تلق الكتب العبرية عليها إلا شعاعاً خافتاً، ولكن القرآن الكريم يبرز هذا المجال الأخروي إبرازاً مؤثراً، يقص رواية الخلود الأخروي بنبرة خاشعة رهيبة في أسلوب فاق الذروة في بلاغته، وقد ثبت في أنحائه صوراً ومشاهد تسكب الخشية في قلوب العباد مما لا يمكن معه لإنسان حتى في هذه الأيام أن يصدف عن مشاهد الهائلة (٢) وهي مشاهد لا تحصى ولا تعد في القرآن الكريم حيث لا تكاد تخلو سورة من القرآن عن شيء منها إلا نادراً.

٣ - قضية الخلق: في الكتب السابقة لا نجد لها تفسيراً شافياً ولا صوراً توضيحية فكل ما هنالك إشارات مجملة كهذه الجملة «وقال الله ليكن نور فكان نور» (٣)، على حين نجد القرآن الكريم يولي هذه القضية اهتماماً كبيراً، ويقدم بشأنها العديد من التفاصيل والتوضيحات التي تزيل أي لبس أو غموض بشأنها، ويتدرج القرآن الكريم في ذلك - شأنه في كل الأحوال - فيبدأ بالحديث عن وحدة مادة الكون الأولى في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَلَقْنَاهُمَا﴾ (٤).

ثم يحدثنا عن الحالة البدائية لتلك المادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَعِلْمًا طَوَّعًا أَوْ كَرِهًا قَالَتْ لَا أَبْنِيَنَّ طَائِعِينَ﴾ (٥).

ثم ينتهي إلى الظاهرة الحيوية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ (٦).

(١) حقائق الإسلام: ص ٥٣.

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ٢٤٤.

(٣) سفر التكوين، الإصحاح الأول، فقرة ٤.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

(٥) سورة فصلت: الآية ١١.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

وهناك آيات كثيرة تكمل هذه اللوحة النموذجية لصورة التكوين في القرآن^(١).

٤ - قضية الأخلاق: تقوم في الكتب السابقة على أساس سلبي، فهي تأمر الناس بالكف عن فعل الشر في حالة وبعدم مقاومة الشر في حالة أخرى، أما القرآن الكريم فيأتي بمبدأ إيجابي أساسي وهو لزوم ووجوب مقاومة الشر، فهو يخاطب معتنقيه بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٢).

في حين يعيب على الآخرين وينكر عليهم أنهم كانوا يسكتون عن المنكر: ﴿كَأَنَّا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَعَلُوا لِيَلْسَنَّا مَا كَانُوا يَقْعَلُونَ﴾^(٣).

كما أن القرآن الكريم يحترم منافع الآخرين بإزاء المنفعة الشخصية، كما يقيم الأخلاق على أساس من فكرة الجزاء والثواب، فيقيم القرآن الكريم بناءه الخلقي على أساس القيمة الخلقية للفرد، وعلى العاقبة الدنيوية للجماعة^(٤).

٥ - ويقارن الأستاذ مالك بن نبي^(٥) بين قصة يوسف في القرآن الكريم والتوراة ويتبهي من المقارنة بأن ما بين القصتين من الاختلاف أكثر مما بينهما من الاتفاق، وأن ما اتفقا فيه يتميز فيه القرآن بالوضوح والبيان بما يجعله ذا طابع خاص متفرد ويطلق فكرة الاقتباس من أساسها، يقول الأستاذ مالك بن نبي: (إنه لم يثبت أن كان بمكة وضواحيها أي مركز ثقافي ديني ليقوم بنشر فكرة الكتاب المقدس التي عبر عنها القرآن... ومن ناحية أخرى: لو أن الفكرة اليهودية المسيحية كانت قد تغلغلت حقاً في الثقافة والبيئة الجاهلية فإن من غير المفهوم ألا توجد ترجمة عربية للكتاب المقدس، وهناك حدث مؤكد فيما يتصل

(١) الظاهرة القرآنية: ص ٢٤٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧٩.

(٤) الظاهرة القرآنية: ص ٢٤٨.

(٥) المصدر السابق: ص ٢٥٢ - ٣٠٦.

بالمعهد الجديد الإنجيل وهو أنه حتى القرن الرابع الهجري لم تكن قد وضعت له ترجمة عربية، نعرف هذا من مصادر الغزالي الذي اضطر أن يلجأ إلى مخطوط قبطي كي يحرر رده^(١)، وقد ذكر الأب شدياق أن أول نص مسيحي ترجم إلى العربية كان مخطوطاً بمكتبة القديس بطرسبرج كتب حوالي ١٠٦٠م بيد رجل يدعى «ابن العسال».

وهكذا لم تكن توجد ترجمة عربية للإنجيل، فهل كان يمكن أن توجد ترجمة للتوراة وهي الأقدم؟ إن القرآن الكريم يقول لليهود: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

أفليس هذا دليلاً على أنه لم يكن يوجد من يقرأ العبرية من العرب من ناحية، وعلى أنه لم تكن توجد ترجمة عربية للتوراة من ناحية أخرى؟ وعليه فلا شيء أقل احتمالاً من وجود تأثير توحيدي في البيئة الجاهلية لانعدام المصادر اليهودية والمسيحية المكتوبة فيها بحيث يصبح من المستحيل أن نقول بإمكان حدوث امتصاص لا شعوري للذات المحمدية في هذا الوسط الجاهلي^(٣).

٦ - ويضيف الأستاذ العقاد فارقاً آخر بين القرآن الكريم والكتب السابقة وذلك في صدر حديثه عن النبوة قبل سيدنا محمد ﷺ مما يبين أن دعوى الاقتباس دعوى باطلة ولا محل لها؛ يقول رحمه الله: (نمت نبوة الإسلام نماءها الأوفى حين خلصت من دعوى الخوارق والمغيبات وهي آية النبوة الكبرى في عرف الأقدمين، وفرق الإسلام بين طريقين شاسعتين في تاريخ الأديان: طريق موعلة في القدم تنحدر إلى مهد النبوات الوثنية حيث تشتبك العبادة بالسحر والكهانة، ثم تتقدم في خطوات وئيدة يلتقي فيها الخبل باليقظة، وتختلط فيها الخرافة بالإلهام الصادق والموعظة الحسنة، وطريق تليها، موعلة في المستقبل

(١) بشير إلى كتاب الغزالي: الرد الجميل على من ادعى ألوهية المسيح لصريح الإنجيل.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٣.

(٣) الظاهرة القرآنية: ص ٣١٠ - ٣١٢؛ وانظر مقارنات أخرى في: الإسلام في مواجهة الاستشراق: ص ٥٤٣ - ٥٦٥.

يفتحها صاحب النبوة الأخيرة فيعلن أنه يفند السحر والكهانة ويزري بقداسة الجنون أو جنون القداسة، ويروض بصيرة الإنسان على قبول الهداية وإن لم تروضها له روعة الخوارق ودهشة الغيب المجهول لأنه يروض البصيرة الإنسانية على أن تنظر وتبصر ولا يستوي الأعمى والبصير... إلى أن يقول: (وأبعد شيء عن البحث الأمين أن تتعقد المقارنة بين هذه النبوة الإسلامية ونبوءات أخرى تقدمتها فيزعم الباحث أنها نسخة محرفة منها أو منقولة عنها، فإن الفارق بين نبوءة تقوم حجتها على هداية العقل والضمير، ونبوءات تقوم حجتها الكبرى على الغرائب والأعاجيب لهم من الفوارق البينة التي لا يمتري فيها باحثان منصفان، ودع عنك الفارق بين نبوءة تدعو إلى رب العالمين، ونبوءة تدعو إلى رب سلالة أو رب قبيل، وربما اعترى الخطأ مقياساً من مقياس البحث فتساوت لديه الزيادة والنقص وتعادل أمامه الراجح والمرجوح، فلما أن يرجح النقص على الزيادة فذلك هو الخطأ الذي لا ينجم إلّا من زيغ في الطبع أو عناد يتعمى عمداً عن الشمس في رابعة النهار)^(١).

ثم يقول: (وبعد ستة قرون من آخر رسالة في بني إسرائيل يستمع العالم إلى صوت ما جانب الجزيرة العربية يدعو إلى رب العالمين رب العربي والأعجمي، ورب الأبيض والأسود، ورب كل عشيرة وكل قبيلة، لا يستأثر بقوم ولا يؤثر قوماً على قوم إلّا من عمل صالحاً واتفق حدود الله، صوت نبي ينادي كل من بعث إليه أنه لا يعلم الغيب ولا يملك خزائن الأرض، ولا يدفع السوء عن نفسه فضلاً عن قومه، ولا يعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحداً لا ينتفع بعقله ولا يتفكر فيما يسمع من نبي أو رسول، صوت نبي يقول للناس إنه إنسان كسائر الناس، وهو بشير يهدي إلى الرشد والحق، نذير يحذر من الباطل والضلال. أي مشابهة بين الصوتين؟ بل أي اختلاف قط بينهما يجاوز هذا الاختلاف؟ يرثى لمن يقول: إن الصوتين سواء، فأما من يقول إن النداء باسم رب العالمين نسخة محرفة من النداء برب القبيلة بين شركائه من أرباب القبائل،

(١) حقائق الإسلام: ص ٥٨ - ٦١.

فإنما هو خطأ حقيق أن يسمى عجزاً في الحس، لأنه أظهر للحس من أن يحتاج إلى إطالة بحث أو تعمق في تفكير^(١).

كما يضيف بعد حديثه عن الشيطان في العقائد السابقة والعقيدة الإسلامية قوله: (بهذه العقيدة الوجدانية الفكرية أقام الإسلام عرش الضمير وثل عرش الشيطان، ومن حق البحث الأمين على الباحث المنصف أن يضيفها إلى عقائد الإسلام في الله وفي النبي ﷺ وفي الإنسانية، فإذا عرف الإنصاف فما هو بقادر على أن يزعم أن الإسلام ديانة محرفة من ديانة محرفة من ديانة سبقت، وإذا عرف الصواب فما هو بقادر على أن يجحد مرتقاه في أطوار الإيمان وأنه غاية ما ارتفع إليه ضمير المؤمن في ديانات الأقدمين والمحدثين)^(٢). وقل مثل ذلك في العبادات والمعاملات وغيرها من الأحكام مما يقطع ويبطل أي شبهة في القول باقتباس القرآن الكريم من الكتب السابقة، فمقاصد القرآن الكريم وتوجيهاته وعقائده وعباداته وأخلاقه ومعاملاته وقصصه وأخباره وحلاله وحرامه وحكمه وأمثاله، ولفظه ونظمه، وبلاغته وفصاحته تختلف عن كل من التوراة والإنجيل اختلافاً يوحى بانقطاع الصلة بينهما اللهم إلا في القليل النادر منهما الذي بقي صحيحاً. هذا هو حكم العقل والنقل والواقع فمن لم يقبل بهذه الموازين فقد ظلم نفسه وأوردها موارد الضياع والهلكة، وما له من الله من عاصم وويل للذين ظلموا من النار.

ثالثاً — قولهم: إن القرآن ليس معجزاً أو أنه مجرد عمل إنساني نادر:

وهذا قول منكر وادعاء باطل لأسباب كثيرة منها:

١ — ما سبق أن أشرنا إليه في الفقرة الأولى من أدلة أثبتت أن القرآن الكريم وحي من عند الله تعالى ومن هذه الأدلة إعجازه المتواصل والمستمر

(١) حقائق الإسلام: ص ٧٢ . ٧٣ .

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٥ .

بشكل فاق كل الحدود وتجاوز كل ما ذكره العلماء من أنواع الإعجاز وفنونه إلى حد لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

٢ — أن التحدي بالقرآن كان وما زال قائماً ولم يستطع أحد إبان نزوله ولا بعد وفاة النبي ﷺ وحتى الآن وإلى أن تقوم الساعة، لم يستطع ولن يستطع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة واحدة من مثله، ومعنى ذلك العجز الكامل في الماضي والحاضر والمستقبل ليس للبشر وحدهم ولكن للجن أيضاً أنه معجز وأن إعجازه مستمر .

٣ — أن هذه المقولة ليست جديدة فقد قالها المشركون إبان نزول القرآن وادعوا أنهم يستطيعون الإتيان بمثله، ولكنهم عجزوا عن الوفاء بما قالوا فبقي كلامهم وكلام المعاصرين اليوم مجرد ادعاء لا قيمة له ولا دليل عليه . قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١) .

قال السيوطي: أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط وطعمة بن عدي والنضر بن الحارث، وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله: أسيري، فقال رسول الله ﷺ إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول، قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا... ﴾ الآية (٢) .

وجاء المبشرون والمستشرقون اليوم يرددون نفس المقولة بادعائهم أن القرآن عمل إنساني نادر غير معجز، فهل استطاعوا أو استطاع أسلافهم المشركون أن يقولوا شيئاً مثله؟ أم عجزوا كما عجزوا فتنين بطلان مقولتهم وسخفها؟ قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَفَقًا مِّنْ بَلَدٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (٤) (٣) .

وفي ذلك يقول الدكتور المطعني: (في هذه الآية صور القرآن الأمين

(١) سورة الأنفال: الآية ٣١ .

(٢) لباب النقول في أسباب النزول بهامش المصحف الشريف .

(٣) سورة الطور: الآيتان ٣٣ — ٣٤ .

موقفهم في مواجهة الدعوة حيث قالوا إن محمداً ﷺ قد افترى القرآن، وادعى أنه من عند الله، ثم طالبهم في الآية الثانية بأن يأتوا بكلام مثل القرآن في علو منزلته، أي كلام غير مقيد بطول أو قصر كثر أم قل، فمحمد عليه السلام بشر مثلهم وعربي مثلهم، فإذا كان هو صاحب هذا الكلام بحق فليحاكوه إن كانوا صادقين في دعوهم، والقرآن في هذه المواجهة يثيرهم ويحرك مشاعرهم ليأتوا بكلام مثل القرآن وجعل هذا الإتيان شرطاً في صدقهم فإن لم يأتوا فما هم بصادقين. إن بواعث الخصوم على المحاكاة هنا لا بد أن تكون قد بلغت درجة الفوران، ولكنهم لم يقدموا على المحاكاة والإتيان بمثل القرآن فما هو السبب؟ أهو زهدهم في المحاكاة مع القدرة عليها؟ أم هو رغبتهم عن الصدق مع شدة افتقارهم إليه؟ إنهم لو كانت المحاكاة في مقدرتهم وأتوا فعلاً بمثل القرآن لقصوا في تلك الجولة على الرسالة والرسول! ولكنهم لم يفعلوا مع قيام كل الدواعي الشعورية والخصومية على تلك المحاكاة المدعاة، وليس لهذا التقاعس والقصور أي تفسير مقبول إلا عجزهم الفعلي عن المحاكاة لأن «المحاكي» فوق طاقة البشر والجن. .

لقد تحدى القرآن خصومه، واستحثهم على الدفاع عن أنفسهم ولكنهم وجموا أمام ذلك التحدي وهم أحوج ما يكونون إلى الدفاع عنها، إنهم عاجزون وكفى^(١).

وقد ذكر الله تعالى أنهم لم يستجيبوا للتحدي ويأتوا بمثل القرآن أو بشيء من مثله فليعلموا أنما هو من عند الله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَظَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ ﴿١٧﴾ فَإِلَيْهِمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِالْحَقِّ وَأَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٨﴾﴾^(٢).

ثم جاء القرآن بعد ذلك التدرج في التحدي من مثل القرآن إلى عشر سور من مثله إلى سورة واحدة من مثله لينتهي بعد ذلك إلى إثبات العجز المطلق لكل الكائنات فقال في سورة البقرة ليشمل التحدي أهل الكتاب مع المشركين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

(١) الإسلام في مواجهة الاستشراق: ص ٥١٨ - ٥١٩.

(٢) سورة هود: الآيتان ١٣، ١٤.

صَدِيقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَٰكِن تَقْعَلُوا فَاثْقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴿١﴾.

ثم أكد في سورة الإسراء أن العجز عن محاكاة القرآن شامل للجن أيضاً مع الإنس فقال سبحانه: ﴿قُل لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢﴾.

وبهذا حكم الله تعالى بالعجز على الجميع من لدن نزول القرآن إلى قيام الساعة، فهل هناك إعجاز أعظم من ذلك؟ وهل هناك دليل على صدق الرسول والرسالة أقوى وأوضح من ذلك؟

٤ - وإليك الآن صوراً محدودة من الإعجاز المستمر للقرآن الكريم، وقد أقر بها المنكرون والعلماء من غير المسلمين. من هذه الصور: ما يتصل بالكون بصفة عامة كخلق السموات والأرض وما بينهما، ومنها ما يتصل بالأرض نفسها وما فيها من آيات، ومنها ما يتصل بحركة النجوم والكواكب والليل والنهار والرياح، ومنها ما يتصل بالماء، ومنها ما يتصل بالإنسان وخلقته إلى غير ذلك وهو كثير جداً عرف العلماء بعضه، وما زالوا يجهلون الكثير مما وعد الله تعالى بتعليمهم إياه في قوله: ﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣﴾.

وفي آية جامعة أو تكاد يقدم الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بعض آياته للعاقلين تؤكد أن القرآن الكريم وحى معجز قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَلْبُلِّ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ الَّذِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَّا يَبْفَعُ النَّاسُ وَمَا أَنْزَلْنَا اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْسَبَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُتَحَسِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿٤﴾. يقول الدكتور المطعني: لقد

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٣) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

خطا العلم خلال القرنين الأخيرين خطوات لم يسبق لها مثيل في شتى المجالات، ولم يظهر للآن مكتشف علمي يتنافر مع دلالات القرآن الحكيم، وموقف العلوم الحديثة من دلالات القرآن يتخذ ثلاث سمات:

الأولى: التوافق التام بين المعارف الحديثة ودلالات القرآن الكريم وهذه هي السمة الغالبة.

الثانية: تصحيح دلالات القرآن لأخطاء كانت عن بعض الظواهر العلمية.
الثالثة: وقوف العلم الحديث من بعض دلالات القرآن الكريم موقف العاجز عن الوصول إلى فهم الحقيقة العلمية التي يشير إليها القرآن، وأمل العلماء في هذا الفرع كبير في أن يصل العلم البشري في عصر مقبل إلى فهم الحقيقة القرآنية إذا ما توفرت بعض الظروف اللازمة لذلك الفهم.

فمما وقع التطابق فيه تاماً مسألة انفصال السموات والأرض بعد أن كانتا كتلة واحدة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهَا...﴾^(١).

والرتق هو الالتصاق بلا فصل، والفتق هو الفصل بينهما بالهواء^(٢). وقد أثبت العلم الحديث ذلك بعد أن ذكره القرآن من ألف وأربعمائة عام. ومما صححت فيه الدلالات القرآنية أخطاء كانت شائعة من عهد أرسطو إلى عصر النهضة: أن العيون المائية تستمد ماءها من بحيرات جوفية في أعماق الأرض، فجاء القرآن وصحح هذا الخطأ وأشار إلى أن العيون المائية تستمد تمولينها المائي من مياه الأمطار حيث جاء فيه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

وقد أثبت العلم ذلك وقارن العلماء بين ما قاله أرسطو وما ذكر القرآن

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

(٢) كلمات القرآن تفسير وبيان للشيخ حسين مخلوف؛ وانظر: الصحاح في اللغة والعلوم

مادة رتق: ص ٣٦٥؛ وفتق: ص ٨٤٢.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢١.

فتبين لهم خطأ أرسطو ومن تابعه من العلماء فترة طويلة وثبت صحة ما قاله القرآن الكريم^(١).

٥ - وأما ما قاله «الخوري الحداد» من أن القدماء أجمعوا على أن إعجاز القرآن في نظمه فقط ثم تشكيكه في ذلك بعد ليلته في ذلك إلى مقولة أهله وأصحابه من أن القرآن غير معجز فقد تولى الرد عليه بشكل واضح ومفصل ومفحم الأستاذ محمد عزة دروزة، ونحن بالإضافة إلى ما ذكرناه في الفقرات السابقة من إبطال هذه المقولة وإثبات إعجاز القرآن نجزيء من ردود الأستاذ دروزة العديدة بعض ما قاله. يقول: (والخوري كاذب من حيث الأصل في قوله إن القدماء مجمعون على أن إعجاز القرآن في نظمه وحسب فهناك آثار وأقوال قديمة كثيرة ينطوي فيها تقرير كون إعجاز القرآن في نظمه وفي محتواه على السواء، فالقرآن حينما يقرر أنه كتاب هداية وإرشاد، ونور وشفاء، وتبشير وإنذار، إنما يقرر إعجاز القرآن في المحتوى في الدرجة الأولى الذي يمثله ما في القرآن المكي والمدني معاً من إعجاز إلهي في العقيدة، وإعجاز إلهي في التشريع، وإعجاز إلهي في الحكمة، وإعجاز إلهي في الإرشاد إلى خير سبل السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة، وإعجاز إلهي في التبشير والإنذار والترغيب والترهيب، وإعجاز إلهي في عرض بدائع الكون ومشاهد عظمته وروعة نواميسه الماثلة في كل شيء، والبرهنة بها على وجوب وجود الله وقدرته وإحاطته، وإعجاز إلهي فيما احتواه قصصه من مواعظ وأمثال وتذكير وحكم بالغة، وإعجاز إلهي فيما احتواه من الغيبات السالفة والغيبات الآتية، وإعجاز إلهي في صلاح ما أتى به من كل ذلك لكل زمان ومكان وجنس ولون وعقل وثقافة، وكل هذا بارز ملموح بكل قوة وبكل روعة وبكل نفوذ وبكل قطعية في مختلف سور القرآن المكية والمدنية، ولا يمكن أن يكابر فيه ويتعمى عنه إلا أحقق غبسي أو حقوق مغرض، والقرآن في تناول جميع الناس في كل مكان وزمان، ومن هذا المنطلق قرر القرآن أنه المعجزة الكافية لصدق رسالة النبي ﷺ على ما تضمنته آيات

(١) انظر: الإسلام في مواجهة الاستشراق: ص ٥٨٢ - ٥٨٣.

سورة العنكبوت: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾^(١).

ثم يقول: والآن نورد الدليل على كذب الخوري، فالخوري يجعل كتاب (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي) مصدراً رئيسياً من مصادره وينقل عنه كثيراً، ومع أن السيوطي أورد حقاً أقوالاً لبعض العلماء بأن إعجاز القرآن هو في نظمه وبلاغته فإنه قال: إن جمهور العلماء يقررون أن إعجازه هو في نظمه ومعانيه على اختلاف نواحيها^(٢). وقد تعامى الخوري عن هذا القول الذي فيه تكذيب صريح له، ولقد أورد السيوطي^(٣) مقتطفات عديدة من أقوال عدد منهم ومن جملة ذلك فصل للخطابي أحد علماء القرآن في القرن الرابع الهجري نوره كمثال على أقوال العلماء القدماء.

يقول الخطابي: وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه المنظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فتواصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حاصل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاوة وتشاكلاً من نظمه، وأما معانيه: فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه والترقي إلى أعلى درجاته، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فإن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، مخرج من هذا أن القرآن صار معجزاً

(١) سورة العنكبوت: الآيتان ٥٠ - ٥١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ١٥١/٢.

(٣) الإتقان في علوم القرآن ١٥٠/٢ - ١٥٣.

لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمناً أصح المعاني من توحيد الله تعالى وتزيهه في صفاته ودعائه إلى طاعته وبيان طريق عبادته من تحليل وتحريم وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعاً أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثالات الله بمن مضى وعائد منهم، منبهاً عن الكوائن المستقلة في الأعصار الآتية من الزمان جامعاً في ذلك بين الحججة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وأنبأ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشاتها حتى تنتظم وتتسق أمر يعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، ومناقضته في شكله، ثم صار المعاندون له يقولون مرة: إنه شعر لما رأوه منظوماً، ومرة أخرى إنه سحر لما رأوه معجزاً عنه غير مقدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب وقرعاً في النفوس يرهبهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف، ولذلك قالوا: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وكانوا مرة يقولون بجهلمهم إنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلا مع علمهم أن صاحبهم أمي وليس بحضرته من يملي أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد والجهل والعجز، وإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً إذا قرع السمع خلص منه إلى القلب من اللذة والحلاوة، قال تعالى:

﴿ تَوَازَنَّا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتُمْ خَشِيعَاتُ مَصَدِّعًا مِّنْ خَشِيعَةِ اللَّهِ وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نَصْرِبَهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّتَابًا نَفْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٢)

وقال ابن كثير رحمه الله: ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز

(١) سورة الحشر: الآية ٢١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.

فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى: ﴿الرَّكْبُ أَهْكَمَتْ أَيْنَهُمْ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (١).

فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه، وكل من لفظه ومعناه لا يجاري ولا يداني، يقول ابن عطية في تفسير هذه الآية الكريمة: أحكمت أتقنت وأجيدت شبه ما تحكم من الأمور المتقنة الكاملة، وبهذه الصفة كان القرآن في الأزل، ثم فصل بتقطيعه وتبيين أحكامه وأوامره على محمد ﷺ في أزمنة مختلفة فتم على بابها، وهذه طريقة الأحكام والتفصيل، إذ الإحكام صنعة ذاتية، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له والكتاب بأجمعه محكم ومفصل (٢) فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير ونهي عن كل شر كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (٣).

ثم قال دروزة: ولو كان الخوري يخضع للحق والحقيقة أو يتحراها لكان راعى ما قاله جمهور العلماء القدماء، ولما قال ما قال عنهم من الموقف السلبي بأسلوب حاسم، ومن غبائه أنه لا يخطر لباله أن كتب القدماء والكتب التي ينقل عنها ليست عنده وحده، ونحن إذ نركز الكلام في هذا المبحث على الإعجاز الإلهي في المحتوى فليس ذلك منا إغفالاً للإعجاز الإلهي في النظم القرآني، فهذا من المسلمات التي لا تتحمل إطناباً جديداً، وقد وفاها العلماء قديماً وحديثاً حقها بما لا محل للمزيد عليه، وإنما كان ذلك منا لأنه مقتضى الكلام والحافز عليه من جهة، ولأننا نعتقد أن الإعجاز القرآني هو في المحتوى في الدرجة الأولى وهو ما اهتم القرآن للتنبؤ به أكثر والله أعلم (٤).

ومما سبق يتبين بكل قوة ووضوح بطلان ما ادعاه المبشرون والمستشرقون في الماضي والحاضر من أن القرآن غير معجز، وتبين بما لا يقبل ذرة من الشك، الإعجاز العظيم للقرآن الكريم فيما عرفناه من لفظ ومعنى ونظم ومحتوى وعلم

(١) سورة هود: الآية ١.

(٢) تفسير ابن عطية: ٢٣٣/٧ - ٢٣٤.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٥.

(٤) راجع: القرآن والمبشرون: ص ٣٣٤ - ٣٣٥، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

طبيعي أو أخلاقي وغيب ماضي وغيب مستقبلي إلى ما لم نعرفه بعد من أسرار وأن إعجاز هذا باق إلى يوم القيامة؛ وصدق رسول الله: (ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله؛ فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشيع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۗ ﴾^(١)، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم^(٢)).

وبعد هذا الوصف الشائق الشامل للقرآن المروي عن أنزل عليه القرآن والذي هو أدرى الناس بمدى إعجازه على الذين ادعوا أنه ليس معجزاً أن يأتيونا بما لديهم من توراة وإنجيل لنرى أي الكتب خير وأيها أصدق. فهل بقي بعد هذا كله أي شبهة أو أثر لتلك المقولة السخيفة: أن القرآن ليس معجزاً! وإذا كان القرآن غير معجز فما المعجز إذن وكيف يكون الإعجاز؟ حقاً إذا لم تستح فاصنع ما شئت!!

رابعاً — قولهم: إن القرآن قد حرف وبدل:

وهذا قول كاذب وادعاء باطل، ساقهم إليه حقد دفين وبغض شديد وفهم خاطيء للقرآن الكريم، أرادوا به أن يردوا الصاع صاعين للقرآن الكريم الذي فضحهم وعراهم وأثبت تحريفهم للتوراة والإنجيل، وأرادوا أن يحاربوه ويهاجموه بنفس سلاحه فوضعوا كعادتهم الكلمات في غير مواضعها، واستخدموا

(١) سورة الجن: الآيتان ١، ٢.

(٢) المسند: ٩١/١؛ وسنن الدارمي: ٤٣٥/٢؛ وسنن الترمذي: ٢١٨/٨ حديث رقم ٢٠٧٠؛ انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور محمد رأفت سعيد: ٤٢/١ وهامشها. وذكره ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز؛ المقدمة: ١٣/١ — ١٤ وهامشها.

لسوء فهمهم الألفاظ في غير معانيها، وعادت سهامهم المسمومة إلى نحورهم، وإليك بيان ذلك بالتفصيل:

١ - فأما قولهم: إن القرآن قد حرف وبدل فيرده المعلوم من تاريخ القرآن على مر العصور والكثير من الآيات القرآنية التي تبين كيف كان ينزل القرآن على رسول الله ﷺ، وكم كان حريصاً على حفظه ومراجعته مع الروح الأمين جبريل عليه السلام، وأنه ﷺ كان يمليه على أصحابه ومن بينهم كتاب الوحي رضوان الله عليهم أجمعين فور نزوله، فانضم بذلك تدوين السطور إلى حفظ الصدور عند أكثر من واحد مع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٧﴾ عَلَيَّ قَلِيلًا لِيُكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّكُمْ لَأُولَوِّينَ ﴿٢١﴾ أَوْ لَرِيكُنَ لَمْ يَأْهَ أَنْ يَعْلَمَهُمُ عُلَمَتُونَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢٣﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٦﴾ ﴿١﴾

وقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَلنَّاقِيِ الْقُرْآنَاتِ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴿٢﴾

وقال: ﴿ لَا تَحْرَجْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٥﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٦﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴿٣﴾

وقال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَكُنْتُمْ عَرَبِيٌّ ﴿١١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٢﴾ ﴿٤﴾

وقال: ﴿ الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴿٥﴾

إلى غير ذلك من الآيات التي تؤكد نزوله وتلقيه وحفظه بإحكام وإتقان، فمن الذي حرف إذن وبدل! جبريل الذي نزل به بأمانة؟ أم محمد ﷺ الذي تلقاه

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ - ٢٠١.

(٢) سورة النمل: الآية ٦.

(٣) سورة القيامة: الآيات ١٦ - ١٩.

(٤) سورة فصلت: الآيات ٤١ - ٤٢.

(٥) سورة هود: الآية ١.

بلهفة وعناية، أم أصحابه الذين حفظوه وكتبوه تحت مراجعة النبي ﷺ؟

٢ - ينفي القرآن الكريم أن يكون رسول الله ﷺ كان له أي تدخل في

نزول القرآن الكريم بحروفه وكلماته ومعانيه، وأنه مجرد حافظ ومبلغ، ثم مفسر ومبين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تَأْتُونَ ﴿٢﴾ وَلَا يَقُولُ كَمَا هُنَّ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٥﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٧﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿١٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾﴾ (١).

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْرَأْنَّ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٢).

إلى غير ذلك من الآيات التي تنفي بقطع ووضوح أي تدخل من رسول الله ﷺ في آيات القرآن فمن الذي بدل إذن؟

٣ - عرفنا من الفقرة السابقة - الأولى - أن رسول الله ﷺ كان ينتظر

الوحي ونزوله بالقرآن الكريم فيما يخصه شخصياً وفيما يخص الأمة وفيما يخص الرسالة وفي اتخاذ القرارات، وفي إجابات الأسئلة التي توجه إليه، ورغم الحرج الذي كان النبي ﷺ يتعرض له سواء فيما يخصه شخصياً أو فيما يخص الناس، كان رسول الله ﷺ ينتظر بفارغ الصبر نزول الوحي بالقرآن الكريم، فلو كان يمكنه التحريف أو التبديل أو الزيادة أو النقصان لفعل ذلك خصوصاً في أوقات الشدة أو فيما يخصه ويخص بيته كحديث الإفك، ولكان يغير ما يمسه شخصياً بالعتاب والمؤاخظة كسورة عبس أو سورة براءة ومواقفه من بعض المنافقين أو موضوع أسرى بدر أو خلافاته مع زوجاته... إلى غير ذلك.

٤ - إن الله تعالى تولى بنفسه حفظ القرآن الكريم من أي تغيير أو تحريف

أو زيادة أو نقصان، من نزوله إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٣).

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤١ - ٤٢.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٣) سورة الاحجر: الآية ٩.

فلا يمكن أن يصل إليه أي تحريف مهما كان وهذا بخلاف الكتب السابقة التي ألقى الله تعالى مسؤولية حفظها على أهلها فامتدت أيديهم إليها بالتحريف والتغيير، قال ابن عطية في تفسير هذه الآية: (والمعنى: لحافظون من أن يبدل أو يغير كما جرى في سائر الكتب المنزلة)، وفي آخر ورقة من البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن التبدل فيها إنما كان في التأويل، وأما في اللفظ فلا، وظاهر آيات القرآن أنهم بدلوا اللفظ، ووضع اليد على آية الرجم هو في معنى تبديل الألفاظ^(١)، وقيل: لحافظون باختزانه في صدور الرجال والمعنى متقارب، وقال قتادة هذه الآية نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٢)،^(٣).

فمن يستطيع أن يغير ما حفظه الله؟ ثم كيف يحدث ذلك؟ وأين هو؟ وقد عرفنا من الفقرة الأولى أن القرآن وحي في لفظه ونظمه ومعناه وترتيبه فمن عساه يغير حرفاً من ذلك الوحي؟

٥ - جمع القرآن الكريم بعد وفاة الرسول ﷺ مرتين: المرة الأولى في خلافة أبي بكر بمشورة عمر رضي الله عنهما بعد موقعة اليمامة، وكان هذا الجمع بإشراف كاتب الوحي زيد بن ثابت رضي الله عنه وكان عبارة عن ترتيب الصحف المتفرقة من جلد وحجارة وعظام بناء على المحفوظ في الصدور بحيث يضمها رباط واحد بدل بعثرتها وتفرقتها، وكان ذلك خوفاً من مرور الوقت بعد وفاة الرسول ﷺ ووفاة الصحابة القراء الحافظين فيختلف الترتيب فيما بعد عما نزل وحفظ فجمعه أبو بكر في إطار واحد وأجمع عليه الصحابة وحفظ ذلك المصحف المجموع المرتب عند أبي بكر ثم عمر ثم حفصة رضوان الله عليهم أجمعين، أما المرة الثانية فكانت في خلافة عثمان رضي الله عنه حين بلغه أن خلافات قد بدأت تظهر في قراءة القرآن نتيجة كثرة الفتوحات ودخول أجناس

(١) البخاري، باب المناقب.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٢.

(٣) تفسير ابن عطية: ٢٨٥/٨.

جديدة بلغاتهم في الإسلام فكان لا بدّ من حسم الأمر وقطع دابر الاختلاف مهما كان ولو صغيراً، وقام عثمان بتشكيل لجنة بقيادة زيد بن ثابت رضي الله عنه أيضاً لكتابة القرآن من مصحف أبي بكر بلغة واحدة هي لغة قريش، وقد تم ذلك ونسخ منه عدة نسخ وزعت على جميع العواصم في الأمصار الإسلامية لتكون المرجع الذي يعتمد عليه ويرجع إليه، وبذلك تم قتل الفتنة منذ ولادتها والحمد لله^(١). ومن يومها والأمة الإسلامية تتلقى القرآن الكريم بهذا الرسم العثماني بالتواتر المنقطع النظير حتى يومنا هذا، ولم يتح ذلك لغير القرآن الكريم فهو أصدق وثيقة على الإطلاق في الدنيا، وقد حاول بعض الأعداء تغيير بعض الآيات والكلمات ففضحهم الله تعالى أكثر من مرة وبقي القرآن بحمد الله تعالى وحفظه كما نزل على محمد ﷺ تطبيقاً وتحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

فأين ذلك التغيير الذي تدعون؟ وأين التحريف الذي تزعمون؟ وقد شهد بذلك بعض المنصفين من غير المسلمين يقول «لوبلو»: (إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر)، وكان «موير» قد أعلن ذلك قبله إذ قال: (إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد إلى يد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف قد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلاّ قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا والذي يرجع إلى الخليفة المنكوب عثمان الذي مات مقتولاً)^(٢).

٦ - لم يبقَ بعد ذلك من حجج أو شبهات إلاّ ما استندوا إليه - لسوء

(١) مدخل إلى القرآن الكريم: ص ٤٠.

(٢) انظر: مدخل إلى القرآن الكريم: ص ٣٦ - ٣٨؛ وانظر: تفسير ابن عطية: ١/ ٥٠ - ٥٣.

فهمهم — من بعض الآيات، أو فهموها ولكن حقدهم أعمى بصائرهم حتى قالوا ما قالوه؛ فقد كان من رحمه الله تعالى بعباده وتيسيره عليهم أن تدرج معهم في تكاليفه وتشريعاته في نقلهم من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام ونظامه وضوابطه، وقد اقتضى هذا التيسير والتدرج أن ينسخ الله تعالى بعض الآيات ويأتي بآيات أخرى وأحكام أخرى أخف وأيسر، وكان رسول الله ﷺ يعرف أصحابه بذلك بعد نزول جبريل عليه السلام بالتغيير وتعريفه بالنسخ، فالمغير إذن هو الله تعالى، والمبدل هو الله عزَّ وجلَّ لا رسوله وأصحابه وأمته، وهذا باب معروف من أبواب علوم القرآن والتشريع الإسلامي وهو «النسخ» وفيه يقول الله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بَحَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

وقد يكون النسخ للتلاوة والحكم معاً وقد يكون لأحدهما مع بقاء الآخر وذلك معروف في القرآن الكريم، وقد نعى الله تعالى على المشركين وعلى من جاء بعدهم إلى يوم القيامة ممن يشبههم في مقولتهم عن ذلك النسخ بأنه تحريف وتبديل كما فعل اليهود والنصارى ووصفهم الله تعالى بالجهل وسوء الفهم، فقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرَكَّبُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُقَدِّرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

فالناسخ والمبدل هو الله تعالى رحمة بعباده وتيسيراً عليهم لعلمه عزَّ وجلَّ بما ينفعهم ويصلحهم، أما اليهود والنصارى فقد كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً.

٧ — وأما ما نقص من سورة الأحزاب أو غيرها فليس كما يقول تيموثاوس لأن جدياً أكله، وإنما لأن الله تعالى نسخه، ومن ذلك الآية المشهورة

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠١.

في رجم الزاني والزانية (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم)^(١).

وغيرها مما ورد في حديث عمر رضي الله عنه^(٢). وهذا مما نسخ تلاوة وبقِيَ حكماً؛ وأما أسماء السور التي ذكرها تيموثاوس وادعى أنها فقدت من القرآن الكريم فلا أساس لها فسور القرآن الكريم أربع عشرة ومائة توقيفاً وإجماعاً وتواتراً، وما هذه الأسماء التي ذكرها إلا أسماء وردت في قنوت رسول الله ﷺ وبعض أدعيته، وليست أسماء لسور من القرآن، فالقرآن كما أشرنا من قبل، حفظ في حياة النبي ﷺ في الصدور والسطور، ثم جمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه في إطار واحد، ثم نسخ في عهد عثمان رضي الله عنه بلغة واحدة في عدة مصاحف ثم بقي هكذا وسيظل إلى أن تقوم الساعة محفوظاً بحفظ الله وعنايته.

وأما ما ورد في الموسوعة الروسية مما سبقت الإشارة إليه فتخريف من قائله ومدونه يدل على عدم فهمهم للقرآن الكريم الذي جمع بين أخبار الماضين والحاضرين والمستقبلين، وظنوا أن ذلك الجمع تطور من الكتاب الذين ألفوه ولم يفهموا أن ذلك من إعجازه العظيم وأن يد التحريف لا تمتد إليه.

يقول الأستاذ مالك بن نبي: (ولقد امتاز القرآن الكريم بميزة فريدة هي أنه تنقل منذ أربعة عشر قرناً دون أن يتعرض لأدنى تحريف أو ريب، وليست هذه حال العهد القديم «التوراة» الذي لم تعترف له بالصحة الدراسة النقدية للشراح المحدثين فيما عدا واحداً من كتبه هو كتاب «أرمياء» وليس العهد الجديد «الإنجيل» بأسعد حالاً فقد ألغى مجمع أساقفة «نيقية» كثيراً من أخباره مما زرع الشك حول ما تبقى منه وهو «الإنجيل» وهذه الأخيرة بدورها لا تعتبر الآن من الصحاح لأن النقد أثبت أنها قد وضعت بعد المسيح بأكثر من قرن أي بعد عصر

(١) تفسير ابن كثير: ٤٦٥/٣.

(٢) انظر سنن ابن ماجه بتحقيق الألباني: ٨١/٢، حديث رقم ٢٥٥٣؛ وتفسير ابن عطية:

١/١٢ وهامشها.

الحواريين الذين تنسب إليهم التعاليم المسيحية، وعلى هذا فإن شكوكاً كثيرة تحوم حول القضية التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية^(١). ثم يقول: (هذا التحديد الكامل للنص القرآني على عهد النبي ﷺ نفسه يعد ظاهرة جديدة بالملاحظة من وجهة علم الاجتماع وعلم النفس بخصوص الوسط العربي في العصر المحمدي، فتلك نقطة جوهرية تستحق البحث والوقوف أمامها، إذ ليست هناك مشكلة تدوين بالنسبة للقرآن كما هو الأمر بالنسبة للكتاب المقدس وهي أيضاً مؤيدة بحقائق التاريخ التي ينبغي أن نلفت إليها انتباه القارئ ليلاحظ هو أيضاً توافق واقع التاريخ مع هذه الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا لَهُ لِحَظُونًا﴾، ومع ذلك فإن لهذا الحفظ تاريخه، فكلما كان الوحي ينزل كانت آيات القرآن تثبت في ذاكرة الرسول ﷺ وصحابته، وتسجل فوراً بأيدي أمناء الوحي حيث كانوا يستخدمون من أجل ذلك كل ما يصلح للكتابة كعظام الكتف أو قطع الجلد، حتى إذا قبض رسول الله ﷺ كان القرآن محفوظاً في الصدور مدوناً في الصحف، فكان من الممكن كلما دعت الحاجة إلى مقارنة الآيات بعضها ببعض ولا سيما حين يعرض اختلاف من نوع صوتي أو لهجي، وفضلاً عن ذلك فس نجد أن هذه المقارنة تحدث مرتين، والطريقة التي نفذت بها هي ذاتها حدث فذ في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية، فللمرة الأولى تتجلى صفات الطريقة المنهجية في عمل عقلي، كما تتجلى الدقة التي هي الآن وقف على التفكير العلمي... وبهذا يكون القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد الذي يتمتع بامتياز الصحة التي لا جدل فيها بحيث لم يثر النقد أية مشكلة حوله سواءً أكان ذلك من حيث الشكل أم الموضوع^(٢). فمن أين يجيء التحريف والتبديل؟ وكيف يقع بعد كل هذه الإجراءات الربانية والنبوية والصحابية والإسلامية؟ أليس ذلك كما رأينا مستحيلًا؟ وهذا ما جعل المستشرق الفرنسي

(١) الظاهرة القرآنية: ص ١١١ - ١١٢؛ وانظر أيضاً: الإسلام في مواجهة الاستشراق:

ص ٢٧٣ - ٢٧٦.

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ١١٣ - ١١٤ باختصار.

الأستاذ دمومبين يقول في كتابه عن الإسلام: (إن المنصف لا مناص له من أن يقر بأن القرآن الحاضر هو القرآن الذي كان يتلوه محمد)^(١).

خامساً — ادعاء التناقض في القرآن:

ادعى أعداء الإسلام والقرآن أن القرآن يتناقض بعضه بعضاً، أحياناً في اللفظ وأحياناً في المعنى، وساقوا لذلك عدداً من الآيات الكريمة لا تناقض بينها في شيء — كما سنرى — إلا في فهمهم البليد، أو بسبب حقدهم البغيض، وقد ذكرنا في الفصل الثاني نماذج من هذه الدعوى وسناقشها في هذه الفقرة لنبين بطلانها، وقبل هذه المناقشة نذكر بما سبق أن قدمناه من الحقائق التي تؤكد عدم وجود أي ثغرة للتناقض في القرآن الكريم.

١ — فهو — كما عرفنا — من وحي الله تعالى والتناقض مستحيل عليه عز وجل.

٢ — وهو معجز والإعجاز قمة الأداء فإذا دخله التناقض لم يكن كذلك.

٣ — وهو المحفوظ بعناية الله تعالى في صدور عباده وسطور مصاحفهم، فكيف يقع التناقض فيه وهو من مظاهر الخلل لا الحفظ.

٤ — وهو الذي أثبت الله له الأحكام ونفى عنه الباطل فكيف يقع التناقض فيه؟

وبعد هذه الحقائق الثابتة الكافية في إبطال هذه الدعوى نسوق الآيات التي استشهدوا بها لنبين سوء فهمهم وجهلهم وحقدهم البغيض للقرآن.

(أ) قالوا إن الآية: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ أَنبَانًا يَنْتَبِهَاتِ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِسُورَةٍ مِّثْلِ هَذِهِ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَنشِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾^(٢).

(١) القرآن والنبي: ص ٥٩.

(٢) سورة يونس: الآية ١٥.

تتناقض مع الآية: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

وذلك الذي زعموه لأنهم فهموا أن الآية الأولى تنفي التبديل في القرآن والآية الثانية تثبته، هكذا فهموا فهل هذا فهم صحيح؟ كلا لأن الآية الأولى تنفي أن يقوم رسول الله ﷺ بتبديل شيء من القرآن تلبية لطلب المشركين لأنه ﷺ ليس له من أمر القرآن شيء فهو لا يستطيع أن يغير أو يبدل فيه شيئاً وإلاّ تعرض للعذاب العظيم، والآية الثانية تؤكد هذا المعنى لأنها نسبت التبديل إلى الله تعالى وحده، وهذا ينفي إمكانية ذلك لغير الله تعالى فمضمون الآيتين واحد وهو أن المبدل هو الله وليس محمداً، أما التناقض الحقيقي فهو في موقف المشركين الذين كانوا يطالبون الرسول بالتبديل والتغيير، فإذا وقع من الله تعالى تبديل عابوا على النبي ﷺ واتهموه بالكذب والافتراء، وما أشبه تناقض اليهود والنصارى بتناقض المشركين فكلهم يقولون على الله ورسوله وكتابه ما لا يعلمون.

(ب) قالوا: إن الآية ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ (٢).

تتناقض مع الآية: ﴿ وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ (٣).

وليس ذلك صحيحاً لأن الآية الأولى يبين الله تعالى فيها أنه يراعي أحوال العباد ومصالحهم فإذا نسخ آية أو حكماً فإنه يأتي بما هو خير منه للناس في معاشهم ومعادهم، والآية الثانية تبين أنه لا يستطيع أحد أن يبدل كلام الله أو شيئاً منه، فهل نفي التبديل عن الخلق يشمل الخالق عزّ وجلّ؟ كلا، فأين التناقض؟

(ج) قالوا: إن الآية: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاطِقُونَ ﴾ (٤).

(١) سورة النحل: الآية ١٠١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٣) سورة الكهف: الآية ٢٧.

(٤) سورة الحجر: الآية ٩.

تناقض الآية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾^(١).

فهل هذا صحيح؟ كلا، فالآية الأولى تؤكد حفظ الله تعالى للقرآن من أن تمتد له يد التحريف والتغيير كما امتدت إلى الكتب السابقة، ولكنها لا تحجر على الله تعالى أن يمحو وينسخ ما يشاء من آياته ويثبت ويبقي ما يشاء، كما جاء في الآية الثانية، فهم يخلطون بين الله تعالى وخلقه وحاشا لله أن يكون كذلك فهو سبحانه يمحو من الأحكام ما يشاء، ويثبت من الأحكام ما يشاء، وما يمحوه أو يثبتها لا تمتد إليه يد أحد بالتغيير أو التبديل لأن الله حافظه.

(د) قالوا: إن الآية ﴿يُدْبِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا تَعُدُّونَ﴾^(٢).

تعارض مع قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٣).

فهل هذا صحيح؟ كلا والله فالعدد في الآيتين لا يقصد به حقيقة وإنما هو كناية عن الطول، وهذا معروف في البلاغة وفي عرف الناس، كلفظ السبعين في قوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٤).

فلا يعني ذلك أن رسول الله ﷺ لو استغفر لهم أكثر من سبعين يغفر الله لهم، وإنما معناه: لا فائدة من الاستغفار للمنافقين مهما كان عدده فلا تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لو علمت أنني إذا زدت على السبعين يغفر لهم لزدت»^(٥)، وكما تقول لصديقك: جئتك عشر مرات أو أكثر، تريد أنك زرته كثيراً، وهكذا، فالقرآن يعبر عن يوم القيامة بألف سنة أو خمسين

(١) سورة الرعد: الآية ٣٩.

(٢) سورة السجدة: الآية ٥.

(٣) سورة المعارج: الآية ٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ٨٠.

(٥) رواه أحمد وأحمد البخاري والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وغيرهم؛ انظر تفسير ابن عطية:

ألف سنة ولا يريد عدد السنوات، وإنما يريد أنه يوم طويل، فأين التناقض إن كنتم تفهمون؟

(هـ) قالوا: إن الآية ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ والآية ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ متناقضتان، فالآية الأولى تنفي القسم والثانية تثبته، هكذا يقولون لأنهم لا يفهمون العربية واستخداماتها ودلالات حروفها وتنوعها، لقد ظنوا أن (لا) نافية، ورتبوا على ذلك أنه لا قسم فكيف يقسم بعد ذلك؟ ونقول لهم: إن (لا) ليست نافية ولكنها تأكيد للقسم كقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾^(١).

وهذا شائع في اللغة العربية لمن يعرفها ويتذوقها^(٢) فلا تناقض بين الآيتين.

(و) قالوا: إن الآية ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّمْ يَكُن لِّلْمَلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شُرَكَاءُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣).

تناقض مع الآية ﴿مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٤).

والآية ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مَا مِّن شَفِيعٍ إِلَّا مِّن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾^(٥).

فهل هذا صحيح؟ كلا، لأنهم فهموا خطأ أن الآية الأولى تقصر الشفاعة على الله، والآيتان الأخريتان فيهما شفاعة لغير الله، وهذا فهم خاطيء فالأمر كله لله تعالى، ومادام الأمر كذلك فليس لأحد شفاعة من دون الله، ولكن إذا أذن الله لأحد أن يشفع كان له ذلك بإذن من الله، فالأمر كله لله إن أذن في الشفاعة وجدت وإن لم يأذن فلا شفاعة، فأين التناقض؟

(١) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٢) انظر: رد مقتربات على الإسلام: ص ٧٠.

(٣) سورة الزمر: الآية ٤٤.

(٤) سورة السجدة: الآية ٤.

(٥) سورة يونس: الآية ٣.

(ز) قالوا: إن الآيتين ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ ١٣ ﴾ و﴿ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ ١٤ ﴾ (١).

تتناقض مع الآيتين: ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ و﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ ٢٤ ﴾ (٢).

وهذا خطأ لأن الآيتين الأوليين تتحدثان عن السابقين المقربين، وهم كما تشير الآية الأولى كانوا الكثيرين في صدر الإسلام ثم قالوا بعد ذلك، أما الآيتان الأخريان فتحدثان عن أصحاب اليمين بصفة عامة، وهؤلاء كثيرون بحمد الله في أمتنا وفي الأمم السابقة، أو في عصر الرسول ﷺ وفيمن جاء بعد ذلك، فلا تناقض لأن الموضوع مختلف.

(ح) قالوا: إن الآية ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ﴿ ٨٥ ﴾ (٣).

تتناقض مع الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٤).

لأن الأولى تأمر بالصفح والثانية تأمر بالقتال. فهل هذا صحيح؟ كلا، لأن الآية الأولى من سورة الحجر وهي مكية ولم يكن قد نزل الأمر بالجهاد بعد فكان رسول الله ﷺ وأصحابه مأمورين بالصبر والصفح والعفو، فلما هاجروا إلى المدينة أذن الله لهم في القتال وفرض عليهم الجهاد كما جاء في الآية الثانية، إذن لا تناقض لأن كل آية في مرحلة ولأن لكل آية موضوعاً ومناسبة وليستا في موضوع واحد.

(ط) قالوا: إن الآية ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَعِينِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ (٥).

(١) سورة الواقعة: الآيتان ١٣ - ١٤.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان ٣٩ - ٤٠.

(٣) سورة الحجر: الآية ٨٥.

(٤) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

تتناقض مع الآية ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١).

لأن الآية الأولى حرمت الربا فعلاً، والثانية فرضت الجزية وليس الربا على أهل الكتاب، فأين الربا المحرم من الجزية المفروضة؟ أليس التناقض في زعمهم وحدهم؟.

(ي) قالوا: إن الآية ﴿ وَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٢).

تتناقض مع الآية ﴿ أَلَمْ نَخَفْ اللَّهَ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ نِيَاةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا آمَنِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣).

حيث الآية الأولى تأمره بترك الكافرين والمنافقين، والثانية تأمره بقتالهم وعدم تركهم، وهذا غير صحيح لأن الآية الأولى أمر بترك الأذى لا بترك الجهاد، والأذى منه ما هو قولي وما هو فعلي ثم جاءت الآية الأخرى لتؤكد على الجهاد ومهما كان عدد المسلمين قليلاً فالفرد منهم بعد التخفيف من الله بفردين والجهاد من صميم التوكل على الله، فلا تناقض كما رأينا.

(ك) قالوا: إن الآية ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُكُمْ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُمْ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلْتُمْ إِنْ أَسَلْتُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ أَسَلْتُمْ قَدْ أَهْتَكُمُ أَذَى وَلَئِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِبَصِيرَةٍ بِالْعِبَادِ ﴾ (٤).

تتناقض الآية ﴿ وَذُوَا نَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ

(١) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٨.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٦٦.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٢٠.

يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذِّهُمُ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَاجِدُوا مِنْهُمْ وَإِنَّا لَا نَصِيرُهُمْ ﴿٨٩﴾ (١).

فآية الأولى ذكرت أنه ليس على الرسول إلاّ البلاغ، والآية الثانية أمرته بقتل المنافقين وجهادهم. هكذا يقولون فهل هذا صحيح؟ كلا، فالآية الأولى تتحدث عن أهل الكتاب والمشركين، والثانية تتحدث عن المنافقين، والأولى تبين أن النبي ﷺ ليس مسؤولاً إلاّ عن التبليغ حتى لا يحزن عليهم، أما الثانية فتبين وجوب قتالهم وعدم الحزن عليهم لأنهم قد أبلغوا وأساءوا إلى أنفسهم وإلى المؤمنين فلا تجوز مصادقتهم ولا السكوت عنهم ولا الحزن عليهم، فأين التناقض؟.

وهكذا قدموا نماذج أخرى من هذه الأمثلة التي تدل كما رأينا على أحد أمرين، إما جهل باللغة العربية وبلاغتها ودلالات ألفاظها وطرق أساليبها ولذلك لم يفهموا فحكّموا بالتناقض بين غير المتناقضين، وإما أنهم يفهمون ولكن حقدهم أعمى عيونهم وبصائرهم حتى قالوه ما قالوه.

(ل) أما التناقض من جهة المعاني فيقدم لنا الأستاذ العقاد نماذج منها ويرد عليها نكتفي ببعضها يقول: (قرأنا لبعضهم أخيراً كتاباً عن الشيطان يلم فيه بصفة إبليس في الإسلام ويستغرب فيه من هذا الدين أن يقول عن الله إنه أمر الملائكة بالسجود لآدم، مع أنه الدين الذي اشتهر بغاية التشدد في إنكار الشرك وتكفير كل ساجد لغير الله، ومرد الخطأ فيما بدر إلى الكاتب من التناقض بين التوحيد وبين السجود لآدم أنه فهم السجود بمعنى الصلاة دون غيرها من معاني الكلمة في اللغة العربية، وفاته أن الكلمة عرفت في اللغة العربية قبل أن يعرف العرب صلاة الإسلام، ولم يفهموا منها أنها كلمة، تنصرف إلى العبادة دون غيرها، لأنهم يقولون: سجدت عينه أي أغضت، وأسجد عينه أي غض منها، وسجدت النخلة أي مالت، وسجد أي غض رأسه بالتحية وسجد لعظيم أي وقره وخشع بين يديه، ولا تناقض على معنى من هذه المعاني بين السجود لآدم وتوحيد الله، وإنما السجود هنا هو التعظيم المستفاد من القصة كلها، وهو تعظيم

(١) سورة النساء: الآية ٨٩.

الإِنسان على غيره من المخلوقات، وبعضهم يرى أن الإسلام مناقض بطبيعته للعمل والسعي في سبيل الحياة لأنه يفهم من الإسلام أنه التواكل وتسليم الأمر إلى الله بغير حاجة إلى الحول والقوة لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وجهل هؤلاء بالفهم أكبر من جهلهم باللغة لأن الإسلام إلى الله وحده وتحريم الإسلام لغيره يأتي على المسلم أن يسلم للظلم أو يسلم للتحكم من الناس أو من صروف الحياة، وينهاه أن يستسلم للخيبة وللقسمة الجائرة، وأن يستسلم لكل قضاء لا يرضاه، ويعلم أن الله لا يرضاه، وبعضهم يرى أن الإسلام والسلم نقيضان لأنه يفهم من كلمة أسلم أنها التسليم في الحرب أو التسليم قبل الحرب خوفاً من القتال، فكل مسلم فهو خاضع للسيف هزيمة بعد الحرب أو خوفاً من الحرب قبل إشهارها عليه، وهؤلاء الذين يتحذلقون على اللغة العربية التي يجهلونها يفوتهم أن كلمة أسلم في ميدان الحرب هي نفسها مأخوذة من إعطاء اليد أو بسطها للمصافحة، وأن المقصود بهذه الكلمة في الدين أنها استقبال الله والاتجاه إليه، فمن أسلم وجهه لله فقد استقبل طريقه وأعطاه وجهه ولم يتحول عنه إلى غيره... .) وهكذا نجد الأستاذ العقاد يعزو ما فهمه أعداء الإسلام على أنه تناقض فيه إلى خلل في أنفسهم راجع إلى سوء فهمهم للإسلام وللغة العربية يقول: (ويندر أن نقرأ في كلام ناقد من الأجانب عن اللغة العربية شيئاً من مأخذ التناقض في الإسلام إلاً بدا لك بعد قليل أنه مخطيء، وأن مرد الخطأ عنده إلى جهل الإسلام أو جهل اللغة العربية، وبعضهم يجهلها وهو من المستشرقين لأنه يستظهر ألفاظها ولا يتذوقها، ولا ينفذ إلى لبابها من وراء نصوص القواعد والتراكيب... . وأكثر ما اطلعنا عليه من النقائص المزعومة فهو من قبيل هذه الأخطاء في التفرقة بين الكلمات على معانيها المطلقة وبين هذه الألفاظ على معانيها التي قيدها الاصطلاح أو خصصتها لغة القرآن الكريم، وفيما عدا هذه النقائص وما إليها يروع الباحث في الإسلام ذلك التناسق بين عقائده وأحكامه وأخلاقه)^(١).

(١) حقائق الإسلام: ص ٢٧٦ — ٢٧٨ بتصرف واختصار.

وهذا الذي نبه إليه الأستاذ العقاد ذكرته مستشرقة إنجليزية واعترفت به على إخوانها من المستشرقين والمبشرين، وهذا أبلغ رد على هؤلاء الجاهلين الحاقدين تقول المستشرقة تشاريس وادي: (إن الغربيين لم يعرفوا الإسلام إلا من الغربيين ولم يعرفوه من أهله، ولا من مصادره، فهم عرفوه من أعدائه، ولو أن هؤلاء حدقوا اللغة العربية وتدققوا بلاغة القرآن لأدركوا إعجازه وأنه تنزيل من حكيم حميد)^(١).

وبهذا بطلت دعوى هؤلاء الأعداء بتناقض آيات القرآن وألفاظه أو معانيه، وبقي القرآن، وسيبقى إلى قيام الساعة في قمة العظمة من البلاغة والفصاحة والاتساق والانسجام محفوظاً بعناية الله لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد وكيف لا وهو تنزيل الحكيم الحميد سبحانه وتعالى.

سادساً — ادعائهم أن في القرآن أخطاء كثيرة وأنه يتعارض مع العلم:

عرفنا من قبل أن أعداء الإسلام اتهموا القرآن الكريم بالوقوع في أخطاء كثيرة، بعضها تاريخي، وبعضها لغوي، وبعضها تشريعي، وبعضها علمي، وسقنا هناك أمثلة مما قالوه، ونحن هنا بعون الله تعالى وتوفيقه نبين بطلان هذه الاتهامات، وزيف الافتراءات وردّها على أصحابها الحاقدين الجاهلين، وإليك البيان:

(أ) ما زعمه «فردريك بلس» أن القرآن الكريم لم يفرق بين مريم والدة عيسى عليه السلام وبين ابنة عمران أخت موسى وهارون، ويشير بذلك إلى قوله تعالى في قصة أم عيسى: ﴿يَتَّخِذَ هُنُورًا مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكِ يَفِيًّا﴾^(٢).

(١) رد مفتريات على الإسلام: ص ١٠٤.

(٢) سورة مريم: الآية ٢٨.

يقول بلس: (فكيف تكون مريم أخت موسى التي عاشت قبل المسيح بألف وأربعمائة سنة وهي أم المسيح)^(١).

ونقول: إن بلس أساء فهم القرآن الكريم ولم يتذوق لغته العربية شأنه في ذلك شأن كل إخوانه ممن سبقت الإشارة إلى جهلهم بالإسلام واللغة العربية في الفقرة السابقة، فلم يعرف بلس أن هذا الخطاب من باب الكناية في علم البلاغة، فليس المقصود أنها أخت هارون عليه السلام في النسب والسن، وإنما أخته في الدين والخلق والعفة، فكما أن هارون عليه السلام لا يقع منه الفحش فكذلك مريم عليها السلام لا يقع منها ذلك، ومن ذلك قولنا وقول السابقين: يا أبا العرب، يا أبا اليهود، ونحو ذلك لمن يتخلق بأخلاقهم ولو لم يكن من بني جلدتهم، ولا يمت لهم بصلة، فليس المراد من: يا أخت هارون، أنها أخته من أبيه وأمه، وإنما هي أخته وشبيهته في التقوى والطهارة، والأمر كذلك فيما جاء عنها في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا﴾^(٢).

وهي ليست ابنته نسباً وإنما هي ابنته في الدين والتقوى ورعاية الله عزَّ وجلَّ وبركته واصطفائه^(٣). وقد يكون عمران هذا ليس أبا موسى وهارون ولكنه عمران بن ماثال رجل من بني إسرائيل من ولد سليمان بن داود عليهما السلام^(٤). وسواء كان المراد هذا أو ذاك فمريم ليست ابنة أو اختاً لأي منهما على الحقيقة، ولكن كما عرفنا على المجاز، قال ابن عطية: واختلف المفسرون في معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَتَأَخَّتَ هَتْرُونَ﴾.

فقال فرقة: كان لها أخ اسمه هارون لأن هذا الأسم كان كثيراً في بني إسرائيل تبركاً بإسم هارون أخى موسى عليهما السلام. وروى عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ أرسله إلى نجران في أمر من الأمور، فقالوا: إن صاحبك

(١) التبشير والاستعمار: ص ٤١.

(٢) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٣) انظر: رد مفتريات على الإسلام: ص ١٦٤.

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: ٨٣/٢.

يزعم أن مريم هي أخت هارون^(١) وبينهما في المدة ستمائة سنة، قال المغيرة: فلم أدر ما أقول، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: ألم يعلموا أنهم كانوا يسمون بإسم الأنبياء والصالحين^(٢). وفي هذا إشارة إلى أن الأخوة على الحقيقة وأن مريم كان لها أخ يسمى هارون تبركا بإسم هارون أخي موسى عليهما السلام. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمعنى أنه إسم وافق إسماً، وقال السدي وغيره: بل نسبوا إلى هارون أخي موسى لأنها كانت من نسله، وهو كما تقول لرجل من قبيلة: يا أخا فلانة، ومنه قول النبي ﷺ: إن أخا صداء أذن، ومن أذن فهو يقيم^(٣). وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: ليست بأخت هارون أخي موسى، فقالت عائشة: كذبت، فقال لها يا أم المؤمنين: إن كان رسول الله ﷺ قال فهو أصدق وأخبر وإلا فإني أجد بينهما من المدة ستمائة سنة، قال: فسكتت^(٤). وقال قتادة: كان في ذلك الزمن في بني إسرائيل رجل عابد منقطع إلى الله عزَّ وجلَّ يسمى هارون فنسبوا إلى أخوته من حيث كانت على طريقته، قيل: إذ كانت موقوفة على خدمة البيع، أي يا هذه المرأة الصالحة، ما كنت أهلاً لما أتيت به، وقالت فرقة: بل كان في ذلك الزمن فاجر إسمه هارون فنسبوا إليه على جهة التعبير والتوبيخ، ذكره الطبري، ولم يسم قائله، والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلاً لهذه الفعلة فكيف جئت بها أنت؟^(٥).

إذن فنحن أمام عدة أقوال بعضها يستخدم الأخوة على حقيقتها وهاارون المذكور أخو مريم من النسب، والبعض يستخدمها على المجاز والكناية سواء كان هارون عبداً صالحاً أو أخا موسى، ولم يقل أحد كما رأينا إنها تعني أخت

(١) وهذا يؤكد أن الادعاء قديم يردده المعاصرون.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل (الدر المنثور).

(٣) أخرجه الترمذي في الصلاة وابن ماجه في الآذان وأحمد في مسنده: ١٦٩/٤.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن سيرين (الدار المنثور).

(٥) انظر فيما سبق: تفسير ابن عطية: ٤٥٩/٩ - ٤٦١.

هارون أخوا موسى على الحقيقة حتى يجيء هؤلاء المغفلون ويستنكرون ذلك على القرآن ويعتبرونه خطأً فاحشاً فالاستنكار عليهم ولا خطأً من فهمهم أو من حقدهم لأن أحد الأقوال إن مريم أم عيسى هي أخت هارون وموسى عليهم جميعاً السلام لأن بينهم كما قال ستمائة عام أو أكثر. ولذلك تراجع كثير من مردي هذه الدعوى القديمة عن ذكرها، ولكن بعض المعاصرين يحييها وذلك دليل جهله وتخلفه.

(ب) قول تيموثاوس: جاء في القرآن في سورة الكهف في الحديث عن ذي القرنين قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْبُؤُا فِي عَمِيْقٍ حَمِيْمٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ^(١)﴾.

وعلق المجلس الملى القبطي على ذلك بهذه الجملة: (الشمس تغيب في بئر) مستغرباً ومستنكراً، ثم أكدوا ذلك بقول البيضاوي: (إن الإسكندر الأكبر رآها ورأى طينها وماءها وناساً عرايا حولها)^(٢).

والواقع أن هذا الإدعاء باطل كسابقه، راجع - كغيره - إلى الجهل وسوء الفهم للغة العربية وألفاظها ودلالاتها وبلاغتها، فلم يقل أحد إن الشمس تغيب في بئر حقيقي كما فهموا وعبروا، وإنما التعبير تشبيه تمثيلي كأن الشمس عند الغروب على سطح المحيط، وعند اختلاط الصفرة والحمرة من أشعتها مع ماء المحيط تبدو لمن يراها من بعيد كأنها تسقط في عين حارة ملتهبة أو بئر متفجرة بالنيران، وكثيراً ما رأينا الرسامين يعبرون في لوحاتهم عن هذا المنظر (منظر الغروب) كما عبر عنه القرآن الكريم، فالكلام ليس على الحقيقة ولكنه التشبيه والتمثيل، وحين رجعنا إلى التفسير وجدنا هذه المقولة من كلام كعب الأحبار الذي كان يهودياً ثم أسلم، فبضاعتهم ردت إليهم، واستغرابهم واستنكارها يرجع إلى توراتهم.

قال ابن عطية: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم «في عين

(١) سورة الكهف: الآية ٨٦.

(٢) رد مفتريات على الإسلام: ص ١٢٨.

حمئة» على وزن فعلة أي ذات حمأة، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر والباقون «في عين حامية» أي حارة، وقد اختلف في قراءة ذلك معاوية وابن عباس، فقال ابن عباس رضي الله عنهما «حمئة» وقال معاوية «حامية» فبعث إلى كعب الأخبار ليخبرهم بالأمر كيف هو في التوراة؟ فقال لهما: أما العربية فأنتما أعلم بها مني^(١). ولكنني أجد في التوراة أنها تغرب في عين ثأط، والثأط الطين... وذهب الطبري إلى الجمع بين الأمرين فقال: يحتمل أن تكون العين حارة ذات حمأة فكل قراءة وصف بصفة من أحوالها وذهب بعض البغداديين إلى أن في بمنزلة عند كأنها مسامة من الأرض فيما يرى الرائي لعين حمئة^(٢).

وقال الدكتور عبد الجليل شلبي: (وما تقوله الآية هو أن هذا الرجل جال في الأرض حتى وقف على شاطئ بحر أو محيط فرأى الشمس عندما تصل مرآه إلى الأفق تغيب في الماء وأن الماء الأزرق حيث تغيب الشمس تشوبه صفرة أو حمرة تجعله عكراً، فهذه هي عين الماء الحمئة، وليست البئر)^(٣).

فتبين من ذلك أن المقصود التشبيه والتمثيل وليس الحقيقة كما فهم رجال المجلس القبطي، وإذا فرض أنها على الحقيقة فهي من توراتهم كما روى عالمهم القديم كعب الأخبار.

(ج) نسبوا إلى القرآن الكريم أخطاء تاريخية - في زعمهم - كحديثه عن هامان الذي ذكره القرآن وزير الفرعون مع أنه كان بينه وبين فرعون ألف سنة ولم يكن وزيراً له بل كان وزيراً للملك أحشوروش ملك الفرس، كما جاء في سفر «استير» يشيرون بذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خٰطِئِينَ﴾^(٤).

(١) هكذا يكون الأدب، وكان الواجب على هؤلاء الجاهلين المعاصرين أن يقتدوا بسلفهم في

الأصل، ويردوا علوم العربية وألفاظها إلى أهلها ما داموا لا يفهمون!!

(٢) تفسير ابن عطية: ٣٩٣/٩ - ٣٩٤.

(٣) رد مفتريات على الإسلام: ص ١٢٩.

(٤) سورة القصص: الآية ٨.

وقوله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنُ ابْنِي صِرًا لَمَّا بَلَغَ الْأَسْتَبَّ ﴾ (١).

وللرد على هذا الزعم نقول:

١ - لا مانع أن يكون هناك أكثر من شخص بإسم هامان في قرون مختلفة.

٢ - إن فرعون لقب ملك مصر في زمن موسى عليه السلام وليس إسماً لشخص، فلا مانع أن يكون قد استوزر هامان أكثر من فرعون أو ملك.

٣ - إنهم اعتمدوا على سفر من أسفار التوراة، وقد علمنا من الفقرات السابقة أن القرآن أصدق منها لأنه محفوظ بعناية الله، وهي امتدت إليها أيدي التحريف فلا يحتاج بالمحرف على الصحيح، بل العكس هو الصحيح، وقد أكد ذلك الدكتور عبد الجليل شلبي فقال: (جاء إسم هامان في أوراق بردية^(٢))، أما هامان استير فشخصية خيالية والدارسون المحدثون يشتون أن قصة استير كلها قصة موضوعة خيالية لا أصل لها ورجحوا أنها مقتبسة من أسطورة بابلية قديمة، ولكنها صورت إلى ما يناسب طبيعة اليهود من اعتمادهم على النساء في التجسس، ودفعهن إلى الملوك والقواد لاستمالة قلوبهم بجمالهن وإغرائهن بمفاتن أجسادهن... ويرى الباحثون أن القصة وضعت نموذجاً لتحذيه الإسرائيليات، أما أدلة كذبها فهي أنها لم تذكر في غير التوراة^(٣). فليس هناك إذن خطأ تاريخي ولا غيره، إنما إفك وافتراء اخترعه أعداء القرآن ليلحقوا به أي نقص، وأنتى لهم ذلك؟

(د) ونصبوا أنفسهم حكماً على لغة القرآن - وهم الجاهلون بها وبأوليائتها - فقالوا إن في القرآن أخطاء لغوية منها رفع إسم إن كقوله: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَسَٰحِرِينَ﴾^(٤).

(١) سورة غافر: الآية ٣٦.

(٢) يريد أنه مصري لا فارسي.

(٣) رد مقتريات على الإسلام: ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٤) سورة طه: الآية ٦٣.

ونصب الفاعل في قوله: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾^(١).

ونصب المضاف إليه في قوله: ﴿ وَلَئِن أَدَقَّنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾^(٢).

إلى نحو ذلك من السخافات والجهالات، ولمزيد جهلهم سموها لغوية، وإنما هي - كما يريدون - نحوية، وهي تدل دلالة قاطعة على خيبتهم ورسوبهم في امتحان أوليات النحو العربي حيث لم يفهموا من المفعول به، ولم يعرفوا الفرق بين المنصرف وغير المنصرف كما لم يعرفوا إعراب المثني، فأبراهيم في الآية الكريمة مفعول به لا فاعلا لأن الله تعالى هو الذي ابتلاه، وضراء مضاف إليه ولكنها من الممنوع من الصرف لألف التأنيث الممدودة فتجر بالفتحة ولا تجر بالكسرة كما ظنوا، أما إسم الإشارة: هذان بعد إن ففيه قراءات عديدة بالرفع بالألف، وفي إن قراءات عديدة، والبعض يعمل إن والبعض يلغي عملها، والبعض يفسرها تفسيرات أخرى غير إن المؤكدة الناصبة^(٣).

وهكذا ليس في الأمر خطأ نحوي - كما زعموا - ولكن بعض ما زعموه جهل والبعض الآخر له تفسيرات أخرى ولكنها صحيحة ومعروفة في اللهجات العربية والنحو العربي وعند أهل الفن والاختصاص، وأين هؤلاء من أولئك؟

(هـ) وأما ما زعموه من وجود أخطاء تشريعية في القرآن الكريم من مثل: عدم التسوية بين الرجل والمرأة في الميراث وغيره، وقطع يد السارق، وإباحة الطلاق وتعدد الزوجات، ونحو ذلك، فهو زعم باطل وضلال مبین، ومردة إلى أمرين^(٤): أحدهما: أنهم لم يفهموا حكمة التشريع الإسلامي العظيم، والثاني: أنهم يفهمون، ولكنهم بحقدهم على الإسلام يروجون بهذه الأباطيل إلى العلمانية

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة هود: الآية ١٠.

(٣) انظر في ذلك: تفسير ابن عطية: ٤٧/١٠ - ٤٩.

(٤) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي: ص ١٢، وما بعدها.

لهدم الإسلام والقضاء على أحكامه وتشريعه، ولا مانع من اجتماع الأمرين معاً فيهم فهم يجمعون كما رأينا بين الجهل والعلمانية.

وبالرجوع إلى فلسفة التشريع الإسلامي العظيم يتبين جماله وعظمته فيما شرع وقرر ويبيّن من أحكام، فهو يسوي بين الذكر والأنثى في جميع الأمور ولا يستثني من ذلك إلاّ أمور خاصة قليلة تتناسب مع خصائص ومسؤوليات كل نوع، فهو إنما ميز الرجل على المرأة في الميراث لأنه ألقى على الرجل مسؤوليات مالية كثيرة أعفى منها المرأة، ولو قارنا بين ما يبقي الرجل من الميراث بعد قيامه بمسؤولياته وبين ما أخذته المرأة من الميراث لوجدنا أن حظ المرأة أعظم، وهي التي كانت قبل الإسلام بلا ميراث، وما تزال في الغرب بلا نصيب.

وأما قطع يد السارق فلحماية المجتمع من خطره وحمايته أيضاً من الهلاك، فقطع يد سارق واحد - زجراً له وردعاً لغيره - يقي المجتمع مما آل إليه أمره الآن في ظل الغياب هذا الحد الشرعي إلى كثرة السارقين وتفشي خطرهم ونهب أموال المجتمع حتى أصبح الحكام عاجزين عن تطبيق الحكم لأنهم سيحولون المجتمع إلى معوقين. أي أنهم جميعاً سارقون. ولو أقيم حد الله مرة لكان السارق قد ردع وأمن المجتمع كله من هذا البلاء، ونحن نعلم أن الإسلام لا يطبق هذا الحد إلاّ بعد استيفاء الجوانب والأدلة التي لا تجعل للسارق عذراً أو شبهة فيما فعل، وهذا من عظمة الإسلام.

وأما إباحة التعدد في الزوجات، فقد أحاطها الإسلام بسياج العدل والتقوى، وهو حينئذٍ علاج لكثير من الأوضاع الاجتماعية غير الصحيحة، بدليل أن كثيراً من الأوربيين والأوربيات قد امتدحوه، فأيهما أفضل: أن تكون المرأة زوجاً أو خليلاً وعشيقة؟ وقد حرم الإسلام التعدد عند عدم العدل ليقى المرأة والمجتمع مما آل إليه أمره من الخيانات والأبناء غير الشرعيين.

وكذلك كانت إباحة الطلاق باباً لحل العقيدة الزوجية، وخروجاً من عشرة غير موفقة وشركة غير مستقرة تنتهي به المشاكل وتستأنف بعده حياة جديدة، أما

أن يبقيا على خلاف ونكد في ظل تحريم الطلاق، فذلك يدفع — كما هو واقع الآن — إلى الإجرام والجنايات الزوجية، ولذلك بدأت الصيحات تعلو في البلاد التي تحرمه منادية بتحليله كما فعل الإسلام، ونحن نعلم أن الإسلام لم يحله إلاً لحاجة وبعد استفاد كل وسائل التفاهم والإصلاح^(١).

فأين الأخطاء التشريعية في هذه الأسباب الحياتية الاجتماعية العظيمة؟

(و) ونسبوا إلى القرآن أخطاء أخلاقية منها أن يبيح الكفر عند الإكراه عليه كقوله: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِنَّ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ﴾^(٢).

وكذبوا في قولهم إن هذا الخطأ أخلاقي بل هو قمة الكرم والأخلاق والجمال الإسلامي، فالمكروه لا حول له ولا قوة إزاء المكروه القوي الظالم وهو بين أمرين كلاهما مر، إما أن يموت في سبيل إصراره على الإسلام، أو يقول كلمة الكفر عند الضرورة ليخرج من المأزق ثم يستأنف الجهاد، وكلمة الكفر في هذه الحال أنفع للإسلام والمسلمين من إزهاق روح بريئة مسلوية الإرادة، وفرق بين هذا وبين التضحية بالروح في سبيل الإسلام والدعوة، فهذه تضحية يحث عليها الإسلام ويرغب فيها ويجعلها أعظم الأعمال حين تقوم على الإرادة الصادقة والنية المخلصة، بينما المكروه لا حول له ولا إرادة، فماذا يستفيد الإسلام من موته مكرهاً في سبيل المبدأ؟ إن الإسلام يقدم مصلحة الشخص وحياته في هذا الموقف ويأذن له في كلمة الكفر حتى يصبح حر الإرادة فيموت بحريته أو يعيش مسلماً بإرادته، وهذا موقف أخلاقي أسمى وأعظم من الموت على الإسلام تحت الإكراه والظلم، وإذا رجعنا إلى سبب نزول الآية وقفنا على الحق، قال القاضي أبو محمد رحمه الله: (كان عبد الله بن أبي السراج ومقبس بن صبابه وأشباههما ممن كان آمن برسول الله ﷺ ثم ارتد، فلما بين في

(١) انظر: كتابنا في التشريع الإسلامي: ص ٨١ — ٨٨.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٦.

هذه الآية - السابقة على آياتنا - أمر الكاذبين بأنهم الذين كفروا بعد الإيمان أخرج من هذه الصفة القوم المؤمنين المعذبين بمكة، وهم بلال وعمار وسمية أمه وخباب وصهيب وأشباههم، ولذلك أن كفار مكة كانوا في صدر الإسلام يؤذون من أسلم من هؤلاء الضعفة، ويعذبونهم ليرتدوا، وربما سامحهم بعضهم بما أرادوا من القول، وروي أن عمار بن ياسر فعل ذلك فاستثناه الله في هذه الآية، وبقيت الرخصة عامة في الأمر بعده، وروي أن عماراً اشتد عليه ما قاله فكلم رسول الله ﷺ، فقال له: كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ أكان منشراحاً بالذي قلت أم لا؟ قال: لا، قال: وأنزل الله ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(١).

ولهذا اتضح لنا الأمر كان صعباً والإكراه كان شديداً فأذن الله لهم ولمن في مثل أحوالهم بذلك قولاً وفعلاً وهذه رحمة من الله وفضل. أما من ينشرح صدره لكلمة الكفر وبلا ضغط ولا إكراه، فهذا مغضوب عليه من الله وله عذاب عظيم. (ز) وادعوا أن في القرآن أخطاء علمية لأنه يتعارض مع العلم، فمن ذلك قوله: ﴿وَالْفَيْنِ فِي الْأَرْضِ رَوَيْتُ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾^(٢).

ومعنى هذا أن الأرض ثابتة بينما أثبت العلم أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة

وهذا ادعاء كاذب - كما نرى - فالقرآن الكريم لم يقل إن الأرض ثابتة، وإنما قال: إن فيها رواسي وهي الجبال تقيها من الاضطراب حتى يستطيع البشر أن يقيموا عليها ويمارسوا كل أسباب الحياة من حل وترحال ونوم وحركة وصناعة وزراعة، ولو كانت بلا رواسي لاضطربت وعجز الناس عن الاستقرار عليها، ولا يعني حفظها من الاضطراب بالجبال والرواسي والأوتاد أن يكون غير متحركة، فنحن ننام في الطائرة وهي مسرعة وفي القطار وهو يتحرك، وفي السفينة وهي تمخر عباب البحر، فإذا اضطرب واحد منها بخلاف سرعته المعتادة

(١) تفسير ابن عطية: ٥١٥/٨، وهامش: ص ٥١٧.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٠.

وحركته العادية استيقظنا وشعرنا بالدوار والتعب والخوف، وقد نطلب من السائق أن يعمل شيئاً يسكنها لتثبت ولا يعني تثبيتها أن تقف ولا تتحرك، بل أن ينقطع اضطرابها، وتستمر حركتها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحركة في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١).

و(كل): كلمة تشمل الشمس وتوابعها من الأرض والقمر والكواكب الأخرى، فالقرآن إذن يقرر حركة كل الكواكب والنجوم^(٢)، وهو مع هذا يربي حركتها ويمنعها من الاضطراب، بل إن القرآن الكريم كان أول من لفت مدارك العلماء لوظيفة الجبال من أنها أُنقال لتثبيت الأرض في دورانها وحفظها من الاضطراب^(٣).

فهل يقال بعد ذلك إنه يتعارض مع العلم؟ وكيف يقال ذلك وجميع ما تم التوصل إليه من حقائق العلم سبق القرآن الكريم إليه، وأخبر به، وما يزال فيه الكثير من الحقائق لم يصل إليها العلم بعد. يقول الدكتور دراز: (قول قاصر أن نقول إن القرآن دائرة معارف عصره، فلقد كانت لجميع العصور أوهامها التي اعتبرتها حقائق مقررة، ولم يثبت خطأها إلا فيما بعد، ولكن القرآن في مسلكه بين مجالات العلم لا يتأرجح أبداً، والحقائق التي يسوقها كانت وستظل لا تقهر)^(٤).

سابعاً — ومن المطاعن الحديثة :

قول دي بوي: (جاء القرآن للمسلمين بدين، ولم يجنهم بنظريات، وتلقوا فيه أحكاماً ولكنهم لم يتلقوا فيه عقائد)^(٥). وما قاله مرجليوت وطه حسين من

(١) سورة يس: الآية ٤٠.

(٢) رد مفتريات على الإسلام: ص ٣١.

(٣) الإسلام في مواجهة الاستشراق: ص ٥٧٦.

(٤) مدخل إلى القرآن الكريم: ص ١٨٠.

(٥) القرآن والنبوي: ص ١٠٠.

التشكيك في الشعر الجاهلي لأنه لا يمثل البيئة الجاهلية وأن القرآن هو الذي يمثلها ليتنها من ذلك إلى أنه عمل إنساني^(١).

أما مقولة دي بوي فبطانها ظاهر، فقد علمنا مما سبق بشمول الإسلام واتساقه في عقائده وعباداته وأخلاقه وتشريعاته وأحكامه، وتكاليفه بصورة لم يسبق إليها ولم يلحق بها، وقد استطاع بما جاء به أن يخلق أمة ويبنى حضارة وينشر ثقافة في بضع سنوات، ونظرة منصفة إلى دستور الإسلام الحي «القرآن الكريم والسنة النبوية» ترينا وتري كل منصف ما في الإسلام من نظريات وقوانين ومبادئ وقواعد تحقق لكل من يأخذ بها أسباب السعادة والأمن في الدنيا والآخرة، كيف لا وهو تنزيل الحكيم الخبير، وتشريع الرحمن الرحيم.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: (في هذه الفترة من صدر الإسلام — فترة حياة الرسول ﷺ — كان القرآن وكان الرسول ﷺ في أحاديثه يليان حاجات الأمة اعتقادية كانت أو تشريعية أو خلقية، وكانت الأسئلة تترى موجهة إلى الرسول ﷺ، فيجيب عنها الوحي القرآني تارة وتجبب عنها أحاديث الرسول ﷺ تارة أخرى، وأسئلة المجتمع إذ ذاك لم تكن تنتهي إلى حد، وكانوا يسألون الرسول ﷺ في كل صغيرة وكبيرة فقد سألوه عن الروح، وسألوه في القدر، وسألوه عن الأزل، وسألوه عن المصير، وسألوه عن الله، وعن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة، وسألوه عن الخمر والميسر والمأكل والمشرب، والأهله والمحض، وسألوه عن كل ما يجول في أذهانهم، وكان القرآن سجلاً يصور الكثير من الأسئلة ويعطي الإجابة عنها)^(٢).

ثم يقول: (أظن أننا بعد هذا لسنا بحاجة إلى الرد على الأستاذ دي بوي، فلقد رأينا بوضوح أن القرآن جاء للمسلمين بدين وبنظريات، وبأحكام وبعقائد)، ولا شك أن الإمام الرازي كان أصدق رأياً وأعمق غوراً إذ يقول معبراً عن

(١) الظاهرة القرآنية: ص ٥٦؛ والفكر الإسلامي الحديث: ص ١٨٧.

(٢) اقرأ الآيات التي صدرت بقوله تعالى: ﴿يسألونك﴾ وهي كثيرة.

الحقيقة: (إن الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية، وأما البواقي ففي بيان التوحيد والنبوة والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين)، ويقول: (وأما محمد عليه الصلاة والسلام فاشتغاله بالدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أظهر من أن يحتاج فيه إلى التطويل، ولم يرفع الرسول ﷺ إلا وقد أكمل الله دينه، وأتم نعمته على المسلمين)، ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

(لقد أكمل الله للمسلمين الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً وقد أتمه عزَّ وجلَّ فلا ينقصه أبداً وقد رضي به فلا يسخطه أبداً)^(٢).

فدين هذا شأنه من الكمال والتمام ماذا ينقصه؟ لقد صحح العقائد التي أفسدتها الأمم السابقة، وقوم الشرائع التي انحرفت عنها الأمم السابقة. وهدى الفطرة إلى أصلها الإلهي بعد أن أفسدتها القوانين والفلسفات الوضعية، ووضع نظاماً للعبادة ونظاماً للمال، ونظاماً للأسرة، ونظاماً للعقوبات، ونظاماً للسياسة والاجتماع، والعلاقات الدولية والحرب والسلام حتى نستطيع أن نقول بكل تأكيد وثقة، لا تحتاج البشرية إلى شيء بقدر حاجتها إلى الإسلام، وإذا أخذت به فلن تحتاج إلى شيء آخر.

ويقدم الدكتور دراز العديد من النظريات القرآنية والقواعد والمبادئ التي جاء بها^(٣) فمن ذلك قوله: (إن النفس الإنسانية لا تتغذى بالحقائق النظرية وحدها فبجانب حاجة الإنسان إلى المعرفة والاعتقاد يحتاج في إلحاح إلى القاعدة العملية القادرة على توجيه نشاطه في كل لحظة من حياته، سواء في تصرفاته مع نفسه أو في علاقاته مع غيره أو مع خالقه، ولقد قدم القرآن إلى هذه

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) القرآن والنبوي: ص ٩٨ - ١٠٠.

(٣) انظر: مدخل إلى القرآن الكريم: ص ١٠٦ - ١١٣، ص ١٧٥ - ١٧٩.

الحاجة النظام الوافي بأوسع وأدق طريقة ممكنة، وخط في كل فرع من فروع النشاط الإنساني خطأ واضحاً يسلكه الإنسان في أمان واطمئنان^(١).

ويقول رحمه الله: (إذا كان القرآن بعيداً عن أي عامل خارجي قد أثر بصفة دائمة على عقول جد مختلفة فلا بد أن يكون ذلك راجعاً إلى ما له من جاذبية خاصة بتوافقه الكامل مع أسلوب الناس الفطري في التفكير والشعور، وباستجابته لما تتطلع إليه نفوسهم في شؤون العقيدة والسلوك، وبوضعه الحلول الناجعة للمشكلات الكبرى التي تقلق بالهم، وبمعنى آخر أنه ينطوي على ما يشبع حاجتهم إلى الحق والخير والجمال، بما يجمع من صفات العمل الديني والأخلاقي والأدبي في آن واحد)^(٢).

وأما مرجليوت وطه حسين، فقد قدم الأول فرضه عن الشعر الجاهلي القائم على الشك فيه والقول بأنه متحل لأنه لا يصور البيئة الجاهلية تصويراً صحيحاً. ثم جاء طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» فكرر هذا الكلام ثم انتقل منه إلى القرآن فذكر أنه أصدق من الشعر الجاهلي في تصوير البيئة، يريد من وراء ذلك أن يصل إلى أنه عمل إنساني، ثم يشكك في قصة إبراهيم وإسماعيل كما ذكرهما القرآن.

أما القضية الثانية وهي القول بأن القرآن عمل إنساني فقد بحثناها باستفاضة في البند أولاً من هذا الفصل، وأما القضية الأولى وهي التشكيك في الشعر الجاهلي فإنها تتناول القرآن الكريم بشكل أو بآخر. ومن هنا كانت خطورة هذا المنهج الدراسي الغربي للشعر الجاهلي على القرآن الكريم، وفي هذا يقول الشيخ محمود شاكر: (لقد نشر مرجليوت فرضه سنة ١٩٢٥ في إحدى المجلات الاستشراقية، وفي خلال عام ١٩٢٦ نشر طه حسين كتابه المشهور «في الشعر الجاهلي»، وربما لم يكن فرض مرجليوت ليحتوي على شيء خاص غير عادي

(١) المصدر السابق: ص ٨٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٩.

لأنه حين نشر لم يصادف ذلك الترحيب الحار من المجالات المستعربة ومن بعض الرسائل التي تقدم بها دكاترة عرب محدثون حتى لقد كسب هذا الفرض قيمة «المقياس الثابت» في دراسة الدكتور صباغ عن «المجاز في القرآن» فقد رفض هذا الدكتور رفضاً مقصوداً مغرضاً للاعتراف بالشعر الجاهلي كحقيقة موضوعية في تاريخ الأدب العربي، فالمشكلة بوضعها الراهن إذن تتجاوز نطاق الأدب والتاريخ وتهم مباشرة منهج التفسير القديم كله، ذلك المنهج القائم على المقارنة الأسلوبية معتمداً على الشعر الجاهلي كحقيقة لا تقبل الجدل^(١).

إذن فنظرية مرجليوت التي شككت في الشعر الجاهلي وجعلت بعض الدارسين ينكرونه على اعتبار أنه متحل لاختلاف رواياته، ولأنه لا يمثل البيئة الجاهلية، ولأن فيه تقارباً مع الصور الدينية التي جاءت في القرآن، ثم منهج الشك الديكارتي الذي اعتمده طه حسين مضافاً إلى فروض مرجليوت في الشعر الجاهلي كان لهما تأثير على الثقة في القرآن الكريم الذي كان كثيراً ما تقارن فصاحته وبلاغته ولغته بهذا الشعر، وبذلك يصبح القرآن الكريم أيضاً مجالاً للشك، ومن هنا وجدنا طه حسين ينكر قصة إبراهيم وإسماعيل الواردة في القرآن الكريم ولا يعتبر ورودها فيه كافياً لإثباتها، ومن هنا قامت الدنيا وقعدت إبان ظهور هذه النظرية الخطيرة، وبدأ البحث الفعلي الجاد عن جوانب أخرى في إعجاز القرآن الكريم غير اللغة والبلاغة «اللفظ» اللذين سادا في الشعر الجاهلي والأدب العربي عموماً.

وقد ناقشنا قضية الإعجاز القرآني برمتها في البند ثالثاً وبيننا أن إعجازه متعدد لا يقتصر على اللفظ أو الأسلوب أو اللغة أو البلاغة أو المعنى والمحتوى أو النظم والتركيب أو الموضوعات والأخبار أو ما مضى وما سيأتي... الخ، وبيننا أن ذلك الإعجاز الشامل مستمر إلى يوم القيامة بصرف النظر عن ثبوت الشعر الجاهلي أو الشك فيه.

(١) مقدمة الظاهرة القرآنية: ص ٥٦ - ٥٧.

وبهذا تبطل نظرية مرجليوت وطه حسين في القرآن الكريم الذي لم يتأثر إعجازه بالشعر الجاهلي ولا غيره. ولقد عبر «لامتر» في كتابه «مهد الإسلام قبيل الهجرة» عن أسفه لأن هذا الكتاب لم يقدم معلومات أو تفاصيل توصف بها بلاده من حيث العلوم المناخية والجوية، بينما يطيل تأملاته أمام النجوم والجبال والسحاب والمظاهر العادية الأخرى التي يصفها بالعجائب، ورد عليه الدكتور دراز رحمه الله فجعل هذا المأزق حسنة من حسنات القرآن ودليلاً من أدلة إعجازه وعظمته وبرهاناً على أنه من عند الله وليس انتاجاً محلياً أو صورة للبيئة كما ادعى مرجليوت وطه حسين، فقال: (وهنا يكمن في رأينا الدليل على أن القرآن ليس انتاجاً محلياً لأن الحقائق التي يقدمها هي من النوع الذي يسهل على جميع العقول إدراكه واستخلاص العقائد الأخلاقية منه، ولهذا نرى مكانه سامقاً فوق كل الاعتبارات الجغرافية والعنصرية وغيرها، ولهذا أيضاً لا يذكر عموماً أسماء الأشخاص والأماكن التي يتحدث عنها، ولا يركز إلاً على العبر والدروس التي تفيد في تربية الأنسان، إن هذا المنهج الكامل والمتكامل الذي ينفرد به القرآن وحده هو في ذاته برهان وأي برهان)^(١). وبعد:

فهذا هو القرآن الكريم كتاب الله ووحيه الذي قال فيه وقوله الحق:

﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾^(٢).

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣﴾﴾

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤﴾﴾^(٤).

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا

كَبِيرًا ﴿٥﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦﴾﴾^(٥).

(١) مدخل إلى القرآن الكريم: ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) سورة هود: الآية ١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢.

(٤) سورة فصلت: الآية ٤٢.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٩ - ١٠.

﴿ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ. وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

﴿ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ (٢)

و ﴿ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ (٣)

﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ (٤)

﴿ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ (٥)

﴿ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦)

﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (٧)

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٨)

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ سُبُلًا مِّنْهُ سُبُلًا شَدِيدًا

لَدُنْهُ وَيُنذِرَ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَنكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾
وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ (٩)

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ (١٠)

(١) سورة الأعراف: الآية ٢.

(٢) سورة يونس: الآية ١.

(٣) سورة يوسف: الآية ١.

(٤) سورة ق: الآية ١.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٥٨.

(٦) سورة يونس: الآية ٥٧.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٨) سورة المائدة: الآية ١٦.

(٩) سورة الكهف: الآية ١ - ٤.

(١٠) سورة الفرقان: الآية ١.

وصلى الله على سيدنا محمد الهادي ﴿إِنِّي صِرَطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ﴿١﴾ .
والحمد لله رب العالمين أولاً وأخيراً.

الدكتور محمد نبيل غنایم

(١) سورة الشورى: الآية ٥٣ .

المراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - أجنحة المكر الثلاثة. عبد الرحمن حبنكة. دار القلم، بيروت.
- ٣ - الإسلام في مواجهة الاستشراق. د. عبد العظيم المطعني. دار الوفاء، المنصورة.
- ٤ - الباكورة الشهية في الروايات الدينية. مجموعة من المستشرقين.
- ٥ - التبشير والاستعمار. د. مصطفى خالدي، د. عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت.
- ٦ - التشريع الجنائي الإسلامي. أ. عبد القادر عودة، دار التراث، القاهرة.
- ٧ - تفسير ابن عطية (المحور الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ابن عطية. إدارة إحياء التراث، قطر.
- ٨ - تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٩ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. عباس العقاد. المكتبة العصرية، بيروت.
- ١٠ - خاتم النبيين. محمد أبو زهرة. إدارة إحياء التراث، قطر.
- ١١ - دراسات في الثقافة الإسلامية. د. محمد نبيل غنایم وآخرون. مكتبة الفلاح، الكويت.
- ١٢ - رد مفتریات علی الإسلام. د. عبد الجليل شليبي. دار القلم، الكويت.
- ١٣ - سنن ابن ماجه بتحقيق الألباني. ابن ماجه. المكتب الإسلامي، بيروت.
- ١٤ - شرح العقيدة الطحاوية. لابن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي، بيروت.
- ١٥ - الصحاح في اللغة والعلوم. نديم وأسامة مرعشلي. دار الحضارة العربية، بيروت.

- ١٦ - صحيح مسلم بشرح النووي، النووي. المطبعة المصرية، القاهرة.
- ١٧ - الظاهرة القرآنية. مالك بن نبي، الاتحاد الإسلامي العالمي.
- ١٨ - عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري. صديق خان. إدارة إحياء التراث، قطر.
- ١٩ - الفكر الإسلامي الحديث. د. محمد البهي. مكتبة وهبة، القاهرة.
- ٢٠ - في التشريع الإسلامي. د. محمد نبيل غنايم. دار الهداية، القاهرة.
- ٢١ - القرآن والمبشرون. محمد دروزة. المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٢٢ - القرآن والنبى. د عبد الحلیم محمود. دار المعارف، القاهرة.
- ٢٣ - كتاب دول الإسلام. الذهبي. إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر.
- ٢٤ - لباب النقول في أسباب النزول. السيوطي. هامش المصحف الشريف، دار الشروق.
- ٢٥ - الإتقان في علوم القرآن. السيوطي. مصطفى الحلبي، القاهرة.
- ٢٦ - مدخل إلى القرآن الكريم. د. محمد عبد الله دراز. دار القلم، الكويت.
- ٢٧ - مقدمة الظاهرة القرآنية. محمود شاكر. الاتحاد الإسلامي العالمي.
- ٢٨ - النبأ العظيم. د. محمد عبد الله دراز. دار القلم، الكويت.
- ٢٩ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. الخطيب البغدادي. تحقيق د. محمد رأفت سعيد. مكتبة الفلاح، الكويت.

الغزو الفكري
في التصور الإسلامي
إعداد
الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مصطلح الغزو الفكري:

بداية نقف عند مصطلح «الغزو الفكري» الذي يتردد في هذا العصر كثيراً على ألسنة الباحثين، والكاتبين، والمتحدثين. وإن وقفة استقرائية، تكشف في وضوح: أن هذا المصطلح، لم يسمع به قبل القرن الرابع عشر الهجري «القرن العشرين الميلادي»..

ولكن ليس معنى عدم وجود المصطلح، أو عدم استخدام المصطلح، قبل القرن الرابع عشر الهجري، أن معنى الغزو الفكري، ومفهومه، وموضوعه، لم يكن موجوداً، لأن المستقرىء لأحوال الأمم والشعوب، يجد أن مفهوم «الغزو الفكري»، كان موجوداً في القديم، وفي الحديث..

وكلمة: «الغزو» في اللغة العربية، تُعْطِي معنى: القصد، والطلب، والسير، إلى قتال الأعداء، في ديارهم، وانتهاهم، وقهرهم، والتغلب عليهم.

ومصطلح «الغزو الفكري»، قصد به: إغارة الأعداء على أمة من الأمم، بأسلحة معينة، وأساليب مختلفة، لتدمير قواها الداخلية، وعزائمها ومقوماتها. وانتهاج كل ما تملك^(١)..

والفرق بين «الغزو الفكري»، و«الغزو العسكري»: أن الغزو العسكري، يأتي للقهر، وتحقيق أهداف استعمارية، دون رغبة الشعوب المستعمرة. أما

(١) انظر: الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٨٠، طبعة دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨هـ، القاهرة.

الغزو الفكري، فهو لتصفية العقول، والأفهام، لتكون تابعة للغازي^(١) .

وقد يكون الغزو الفكري، أشد وأقسى، لأن الأمة المهزومة فكرياً، تسير إلى غازيها، عن طواعية، وإلى جزائها عن رضا، واقتناع، وحب، لا تحاول التمرد أو الخلاص .

وبهذا يظهر ما بين المصطلح واللغة من صلة، حيث إن كلمة الغزو، استعملت في معناها، وهي الإغارة على أمة من الأمم للاعتداء عليها، وانتهابها، ولكن عن طريق الفكر، وتدمير القوى المفكرة فيها، وهذا ما لفتت إليه كلمة: «الفكر»، التي تطابق معناها في العربية، معناها في المصطلح^(٢) .

ويمكن أن يقال: إن المصطلح استعار كلمة «الغزو» للفكر، لما بينها وبين الغزو في الحرب من علاقة، في نهب الشعوب، وتدميرها، والسيطرة عليها .

ويمكن أن يقال: إن مصطلح «الغزو» مجاز على التشبيه بالحرب الفعلية في التدمير، والتخريب، والانتهاب، والسيطرة على الشعوب . . ولهذا شاع استعمال هذا المصطلح، وأضرابه من المصطلحات، التي تدل على هذا المعنى، وتسير في فلكه^(٣) .

ومما يسترعي الانتباه، أن بعض العلماء والباحثين: ينكرون، ويستنكرون، وجود «الغزو الفكري». معتبرين الحديث عنه مجرد «وهم» من الأوهام . .

وهؤلاء العلماء إنما ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم، باعتباره — رغم الحدود الدولية السياسية، والحوازج الجغرافية — وبسبب من التقدم الهائل في ثمرات «ثورة الاتصال» ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتباره «وطناً واحداً»، لحضارة واحدة، يسمونها: «حضارة العصر» أو «الحضارة العالمية» أو «الحضارة

(١) المصدر السابق: ص ٦٨٠، بتصرف .

(٢) انظر: المصدر السابق: ص ٦٨١ مع تصرف وإضافة .

(٣) انظر: المصدر السابق: ص ٦٨١ مع تصرف يسير .

الإنسانية» ويتصورون الأمم، والشعوب، والقوميات، مجرد درجات ومستويات في البناء الواحد، لهذه الحضارة الواحدة . .

ومن ثم فليس في هذا التصور حدود - لها حرمة الحدود - تميز «أوطاناً» متعددة، لحضارات متميزة . . ولهذا فإن عبور الفكر - كل الفكر - للحدود - كل الحدود - ليس فيه عندهم شبهة «غزو» ولا أثر «عدوان»^(١) . .

وهذا التصور يُرَوِّجُ له بشتى الأساليب، فثمة دعوة إلى «فكر عالمي» وهناك دعوة إلى أن الحضارة الحديثة «حضارة عالمية» وهناك دعوة إلى «ثقافة عالمية» . .

وهناك حركة «البهائية» التي نشأت سنة ١٢٦٠هـ - ١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الروسي، واليهودية العالمية، والاستعمار الانجليزي. تزعم أنها جاءت بدين عالمي جمع: البوذية، والبرهمية، والزرادشتية، والمانوية، والمزدكية، والفرق الباطنية، واليهودية، والنصرانية، والدهرية. وهذه الدعوة تجد رواجاً^(٢).

وهناك علماء ومفكرون، ينكرون أن يكون عالم اليوم، ووطناً حضارياً واحداً. لحضارة عالمية واحدة . . وهؤلاء العلماء يَدْعُونَ إلى ضرورة احترام «الحدود الحضارية» . . لأن العالم في تصورهم: هو أقرب ما يكون إلى «متدى عالمي لحضارات متميزة» تشترك أممها في عضوية هذا المتدى، ومن ثم فإن بينها ما هو «مشترك حضاري عام» . . وأيضاً، فإن هذه الأمم تتمايز حضارياً . . الأمر الذي ينفي الوحدة الحضارية، ويستدعي الحفاظ على «الهويات» الحضارية المتميزة . . لا لمجرد الحفاظ عليها - رغم أهميته . . إنما لأسباب وطنية، وقومية، وعقدية، تلعب دورها في إنهاء أمم كثيرة، من كبوتها وتراجعها. لما لهذه الخصوصيات، من قدرات على شحن شعوب هذه الأمم، بالكبرياء

(١) الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة: ص ٦، طبعة الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية، بالأزهر الشريف، ١٩٨٨م.

(٢) انظر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ص ٦٤، طبعة الرياض، ١٤٠٩هـ .

المشروع، والطاقت المحركة، في معركة الإبداع. . ولما للتعددية من دور، في إثراء مصادر «العطاء العالمي»^(١).

وهؤلاء العلماء الذين ينكرون أن يكون عالم اليوم وطناً حضارياً واحداً، لحضارة عالمية واحدة، يذهبون: إلى أن التعددية الحضارية، تكشف وتعري، روح الهيمنة، والعدوان، والاستعلاء، التي تخفيها الحضارة المتغلبة، على عالمنا المعاصر.

وهي الحضارة الغربية، تحت ستار: «وحدانيتها. . وعالميتها. . وإنسانيتها».

كما أن هذه التعددية تقوم بدور فعال، في إذكاء روح المقاومة، عند الأمم المستضعفة حضارياً، ضد السمات والقسمات التي مثلت وتمثل «مأزق الحضارة الغربية» الذي يمسك اليوم بخناق إنسانها، وذلك حتى لا تعم مأساته كل بني الإنسان؟^(٢).

وهؤلاء العلماء يعترفون بوجود: «الغزو الفكري»، وينبهون على مخاطره التي تعددت، وتكاد تحيط بالمجتمعات الإسلامية. .

وهؤلاء العلماء: يرفضون دعوى «الوطن الحضاري الواحد لعالمنا المعاصر» ودعوى «الحضارة العالمية الواحدة» لهذا الوطن الواحد، ويقدمون بديلاً لها: دعوى أن عالمنا هو أقرب ما يكون إلى «متندى عالمي لحضارات متميزة» وأن الأمم المستضعفة حضارياً، لا بد لها من النضال الحضاري، ضد نزعة التفرد، والهيمنة، التي تمارسها الحضارة الغربية المتغلبة — بالاستعمار القديم والجديد — على غيرها من الحضارات. . فالتعددية لا الواحدية، هي الحقيقة الممثلة للواقع الحضاري، في الواقع الذي نعيش عليه. ومن ثم فإن

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الثقافي وهم أم حقيقة: ص ٧ بتصرف.

(٢) المصدر السابق: ص ٧.

هناك حالات لتعدي «الحدود الحضارية». تمثل «غزواً فكرياً» لا شك فيه^(١).

وهذا التصور يؤيده واقع حياة الشعوب، فالذين يعيشون حياة الشعوب، والأمم ذات الحضارات الغنية، والتاريخ القديم، والتراث العريق، . . أو يغيصون في تراث هذه الأمم وفلسفتها، ومذاهبها، وتقاليدها، وأعرافها. . . يدركون أن عالمنا به — حقاً — أمم متعددة، تتميز كل منها بشخصيتها القومية والحضارية المتميزة. . .

وإننا إذا نظرنا في مذاهب هذه الأمم وأعرافها، وفي معايير الحلال والحرام والمشروع والممنوع لدى أبنائها، وفي موازين الأذواق، والحاسة الجمالية، وفي تصوراتها لمكان الإنسان من الكون، وتصوراتها لمصيره بعد الموت، وتصوراتها الفلسفية لهذا الكون، وما وراء المادة والطبيعة. . . إذا نحن نظرنا إلى مذاهب هذه الأمم، في هذه القضايا الأمهات. أدركنا السمات التي تميز بينها — جنباً إلى جنب — مع سمات تشترك فيها، فتجمع بينها^(٢). . .

ولا يخفى أن الباحث الذي يسبر أغوار الموارث الفكرية لهذه الأمم، ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضاري يجد أنها تضرب بجذورها في أعماق أعمق التاريخ. . . حيث كان البابليون، والآشوريون، والفينيقيون، والمصريون، وغيرهم ممن أسهموا في الفكر الإنساني، وكان لهم تمايز حضاري^(٣). . .

ولعل نظرة فاحصة، إلى أمم مثل: الصين. . . والهند. . . واليابان، ستفضي بالباحث إلى الاجتماع على حقيقة تميز الشخصيات القومية، والموارث الحضارية، وطرائق العيش، والفلسفة، والحياة، وفي النظرة للكون وتصوره، لدى شعوب وأمم هذه الحضارات. . .

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة: ص ٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٨، ٩.

(٣) راجع: الدكتور أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ٧٨، طبعة دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية، منذ اليونان، وحتى نهضتها الحديثة.. والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج الموارث القديمة للشعوب التي دخلت الإسلام - بعد الإحياء لهذه الموارث - كثمرة لاندماج هذه الموارث في الفكر الإسلامي، الذي استصفاها وطورها وفقاً لمعاييره^(١). حيث لم يكن المسلمون مجرد نقلة، ولكن إضافاتهم للأصول التي نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا، وابتكروا، لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الثقافة اليونانية، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية^(٢)..

على أن الذي ينبغي أن نقف عنده: «أن التصور الذي يرى أن العالم وطناً واحداً لا غزو لفكر فيه، تصور يقوم على انتصار الحضارة الغربية المتغلبة التي تعمل على مسخ الحضارات العريقة»..

إذن: لا بد من التصور الذي يقوم على أن الفكر إذا نظرنا إليه، على المستوى العالمي الإنساني، وجدنا في هذا الفكر: «ما هو مشترك إنساني عام» لا يختص بحضارة بذاتها، وفي هذا الفكر أيضاً ما يتميز بالخصوصية والاختصاص.

والتمييز في الفكر بين ما هو مشترك إنساني، وبين ما هو خصوصية حضارية إنما تحكمه وتحده معايير موضوعية.

فكل العلوم التي موضوعها الطبيعة وظواهرها، والمادة وخصائصها، هي من قبيل الفكر، الذي هو مشترك إنساني عام، وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمي، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية، هي السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم، تلك الحقائق التي هي بنت الدليل، والتي لا تختلف باختلاف مذاهب، وعقائد، وأجناس، وفلسفات المكتشفين. ومن ثم فهي لا تتغير بتغير

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة: ص ٩، بتصرف.

(٢) انظر: الدكتور توفيق الطويل، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية: ص ١٥١، طبعة مكتبة التراث الإسلامي، مصر ١٩٩٠م.

القوميات، والحضارات، بل هي واحدة على المستوى الإنساني، كما أن موضوعاتها - المادة وظواهرها - واحدة هي الأخرى، لا تختلف ولا تتغير باختلاف، وتغير الحضارات. فعلوم مثل الرياضيات وفروعها، ومثل الكيمياء والطب، والطبيعة، والجولوجيا. لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها، وقوانينها باختلاف الحضارات. . قد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها. لكن حقائق علومها أي «فكرها العلمي» سيظل واحداً، مهما اختلفت المذاهب، والعقائد، والحضارات^(١).

والعقل البشري استطاع بما اكتسب من خبرة، ودربة، ومرانة، أن يصنف هذه العلوم. وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلوات، وروابط.

والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض، ويعتمد بعضها على بعض، ولهذا كانت الحضارات الإنسانية ليست ملكاً لأمة بعينها، ولا هي وقف على جماعة من الناس، لأنها صرح هائل، قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب^(٢).

ويلحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها، على نحو ما، وإلى حد كبير العديد من ثمرات التجارب الإنسانية في الوسائل، والنظم، والمؤسسات، والخبرات التي ترشد أداء الإنسان، وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات. .

فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل، فإن تجارب الإنسانية في الوسائل، والنظم، والمؤسسات، قد تكون صالحة في أحيان كثيرة للاقتباس - مع التطويع - وللتمثل، والاستلهام.

هذا عن العلوم الطبيعية، والتجارب المادية، التي تمثل حقائقها وخبراتها فكراً عالمياً، هو من صميم «المشترك الإنساني».

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة: ص ١٦.

(٢) انظر: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية: ص ٩٢.

أما الشق الآخر من الفكر، الذي يدخل في صميم الخصوصية الحضارية، التي تتمايز بتمايز الحضارات، فهو ذلك الذي ينطلق من العقائد، والمذاهب، والفلسفات.

فكما تميزت علوم «المادة» الثابتة بالعالمية، فغدت حقائقها، وقوانينها «مشتركةً إنسانياً عاماً» تميزت، وتميز علوم العقائد، والمذاهب، والفلسفات، بالخصوصية الحضارية، التي تجعلها وثيقة الصلة بطبائع الأمم ومعتقدات الشعوب، وطرائقها في الحياة^(١).

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة: ص ١٧، ١٨ بتصرف.

الغزو الفكري

لقد وضع لنا: أن هناك «غزواً فكرياً» مقصوداً، يعمل لإذابة الشعوب، وانسلاخها عن عقائدها، ومذاهبها، وحضاراتها، لتصبح مسخاً شائهاً تابعاً، لغيره، يؤمر فيطيع.. ولقد عمل هذا الغزو على تضليل المجتمعات الإنسانية، وخداعها، والتمويه عليها، وقلب الحقائق، وتشويه الحقيقة، عن طريق تصنيع الكلمة، وزخرفة القول، والدخول إلى المخاطب، من نقطة الضعف، والاستغفال لإغرائه، والإيقاع به، والإيحاء إليه، بسلامة الفكرة، وصحة المفهوم المزيف، الذي تحمله كلمات الغزو.

ولكم تهاوت أمم وشعوب وأجيال، وتساقطت في هاوية الضلال والانحراف والفساد الخلقي، والعقدي، والاجتماعي بسبب تصورات «الغزو» المزخرفة الخداعة، التي يرقص السذج، والجهال على نغم إيقاعها، ويفتنون بسماعها وأناقة ظاهرها.

ولكم عانى الإنسان والشعوب من أولئك الذين يصنعون «الغزو الفكري» ويصدرونه في موجات، تقتحم الديار والبيوت، لقد قيدت الإنسانية إلى هاوية الضلال، والانحراف. ولقد كان «للغزو الفكري» في كل جيل، وفي كل عصر، دوره التخريبي، في حياة الناس، إلا أن البشرية لم تشهد في مرحلة من مراحل حياتها وضعاً كان فيه «للغزو الفكري» خبراء، ومتفلسفون، وأجهزة، ومؤسسات، كعصرنا الحاضر هذا، الذي اتخذ فيه «الغزو الفكري» صبغة الفلسفة، والنظرية، والمبدأ، الذي يعتنقه الأتباع، ويدافعون عنه، وينقادون له..

وقضية الغزو الفكري، أصبحت اليوم، من أشد القضايا خطراً، وتبدو ظواهر هذا الغزو المدمر، في قلوب وعقول كثير من المثقفين، في هذا العصر

واضحة بينة، والسلاح الذي يستعمله «الغزو الفكري» مدمر قتال، يؤثر في الأمم والمجتمعات أكثر مما يؤثر المدفع، والصاروخ والطائرة، وقد ينزل إلى الميدان، ويعظم خطره، حين تخفق وسائل الحديد والنار، في تحقيق الهدف، والوصول إلى الغاية، والخطر الذي يحتجته هذا الغزو أكثر بكثير من قتل الأفراد، بل من قتل جيل بأسره. إذ يتعدى ذلك إلى قتل أجيال متعاقبة، والسلاح الذي يستعمله هذا الغزو هو سلاح الحيلة والشبهات وتحريف الكلم، والخديعة في العرض^(١).

ومما لا ينكر: أنه لم يواجه دين من الأديان، ولا عقيدة من العقائد، مثل ما واجه الإسلام من تحديات، فقد واجه الإسلام منذ فجر تاريخه، تحديات عنيدة من مخالفيه، فقد واجه المشركين في مكة، واليهود في المدينة، ثم لما فتحت الأمصار، وانتشر الإسلام فيها واجهت الثقافة الإسلامية أفكاراً شعبية إلحادية، وفلسفات وثنية، كالفلسفات الفارسية، واليونانية، والهندية، وغيرها. ولكن الإسلام ثبت أمام هذه التحديات وانتصر عليها. فقد كان المجتمع الإسلامي آنذاك يعي الإسلام وعياً كاملاً، ويدرك أخطار الأفكار والاتجاهات التي كان يطرحها الفلاسفة والزنادقة، وما تحمله من شبهات، وهي في جملتها تعمل على نقل الفكر، من مجال أصالة الفطرة، ومنطق العقل الصحيح، وطريق التوحيد، وطابع الإيمان، إلى مجال الإلحاد والإباحية. غير أن المجتمع تصدى لهم، وأخذ يكشف زيفهم، ويبين ما انطوت عليه قلوبهم من كيد، ولم تستطع أن تنال من الإسلام عبر العصور.

على أن أخطر هذه التحديات هي تلك التي تواجهها المجتمعات الإسلامية اليوم، وهي تحديات تتمثل بالمواجهة السافرة حيناً، والمستترة أحياناً، هذا التحدي الذي يتمثل حالياً بالغزو الفكري الغربي^(٢).

(١) راجع: إبراهيم النعمة، المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري: ص ٧، طبعة شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، العراق ١٩٨٦م.

(٢) عز الدين الخطيب التميمي وآخرين، نظرات في الثقافة الإسلامية، ص ٣١ دار الفرقان، عمان، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، الأردن.

أسباب الغزو الفكري

أولاً – العداة الصليبي للإسلام والمسلمين:

والباحثون يدركون أن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي، في مرحلتين من مراحل تاريخها: فكانت مرحلة القرون الوسطى، قبل وبعد «توماس الإكويني»^(١) تريد اكتشاف هذا الفكر، وترجمته. . ومن أجل ذلك إثراء ثقافتها، بالطريقة التي أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات، التي هدتها إلى حركة النهضة، منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وفي المرحلة العصرية والاستعمارية، فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى، لا من أجل تعديل ثقافي، بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية، مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية أخرى، ولتيسير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه السياسات في البلاد الإسلامية^(٢).

ويذكر المؤرخون أن الجيوش الأوروبية الصليبية لما هاجمت بلاد الإسلام كانت مدفوعة إلى ذلك بدافعين:

الدافع الأول: دافع الدين، والعصبيية العمياء، التي أثارها رجال الكنيسة، في شعوب أوروبا مفترين على المسلمين أبشع الافتراءات، محرضين النصارى أشد تحريض على تخليص مهد المسيح من أيدي الكفار – أي المسلمين – فكانت جمهرة المقاتلين، من جيوش الصليبيين، من هؤلاء الذين أخرجتهم

(١) توماس الإكويني ولد سنة ١٢٢٦م وتوفي سنة ١٢٧٤م، ويعتبر من أعظم الفلاسفة واللاهوتيين في العصر المدرسي المسيحي، منحه الكنيسة الكاثوليكية لقب القديس.

(٢) مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، ص ٨، طبعة دار الإرشاد، بيروت ١٩٦٩م.

العصبية الدينية، من ديارهم عن حسن نية، وقوة عقيدة، إلى حيث يلاقون الموت، والقتل، والتشريد، حملة بعد حملة، وجيشاً بعد جيش.

والدافع الثاني: دافع سياسي استعماري، فلقد سمع ملوك أوروبا بما تتمتع به بلاد المسلمين من حضارة، وثروات، فجاءوا يقودون جيوشهم باسم المسيح، وما في نفوسهم إلا الرغبة في الاستعمار والفتح، وشاء الله أن ترتد الحملات كلها مدحورة مهزومة^(١).

ويكاد يكون معروفاً أن أوروبا شنت ثماني حملات صليبية على الشرق الإسلامي، وقد بدأت الحروب الصليبية منذ منتصف القرن الحادي عشر، واستمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر أي ما يقرب من مائتي وخمسة وعشرين عاماً في ثماني حملات من الحملات المدججة بالعدد والمعدات، ويصف كاهن مدينة (لوبوي ريموند واجيل) سلوك الصليبيين حينما دخلوا على القدس، فيقول: (حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقطعت رؤوس بعضهم فكان أقل ما أصابهم وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرقت بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوه)^(٢).

وروى الكاهن نفسه خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر - رضي الله عنه - ويقول في هذا: «لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، فكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها. فإذا ما اتصلت

(١) الدكتور مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص ١٨٧، ١٨٨ طبعة دار المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٢) انظر: د. غوستاف لوبون. حضارة العرب: ص ٢ - ٤، ترجمة عادل زعيتير، الطبعة الثانية ١٩٤٨م.

ذراع بجسم لم يعرف أصلها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلاّ بمشقة»^(١).

ويذكر التاريخ أن الحملة الصليبية عند دخولها بيت المقدس في ١٥ مايو عام ١٠٩٩م قد ذبحت أكثر من سبعين ألف مسلم حتى سبحت الخيل إلى صدورها في الدماء، وفي أنطاكية قتلوا أكثر من مائة ألف مسلم.

فالأمر خطير، إنه حقد الشر على الحق، والرذيلة على الفضيلة، وعداوة الشرك للتوحيد، وخصومة الضلال للهدى^(٢).

وقد صمدت الأمة الإسلامية في وجه هذه الحروب الوحشية التي سلبت، ونهبت، وقتلت، وفتكت.

وبعد مضي أكثر من قرنين من حروب دامية اشتد وطيسها بين كتائب الإيمان وبين جحافل الشر، ارتدت الحروب الصليبية، وقد باءت هذه الحملات بالإخفاق والهزيمة، فالقديس «لويس التاسع» قائد الحملة الصليبية الثامنة، وملك فرنسا، وقع أسيراً في مدينة «المنصورة» في مصر. ثم خلص من الأسر بفدية، ولما عاد إلى فرنسا، أيقن أن قوة الحديد والنار لا تجدي نفعاً مع المسلمين الذين يملكون عقيدة راسخة، تدفعهم إلى الجهاد، وتحضهم على التضحية بالنفس، وبكل غال.

إذن: لا بد من تغيير المنهج والسبيل، فكانت توصياته: أن يهتم اتباعه بتغيير فكر المسلمين، والتشكيك في عقيدتهم وشريعتهم، وذلك بعد دراستهم للإسلام لهذا الغرض، وهكذا تحولت المعركة من ميدان الحديد والنار إلى ميدان الفكر^(٣)، لأن القضاء على الإسلام أو تحويل المسلمين عن دينهم، لا يمكن أن يأتي عن طريق القوة المادية، والغزو المسلح.

(١) لوثرروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي: ٦٠/١، ترجمة نويهض.

(٢) راجع نادية شريف العمري، أضواء على الثقافة الإسلامية: ص ١٦٤، طبعة مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ بيروت.

(٣) إبراهيم النعمة، الإسلام أمام تحديات الغزو الفكري: ص ١٢.

ولقد بدأت حركة «الغزو الفكري» من منطلق ضرب المسلمين عن طريق الكلمة بعد هزيمة الحروب الصليبية – كما وجههم «لويس التاسع» – والعمل على ترجمة القرآن، والسنة، وعلوم المسلمين، للبحث عن الثغرات التي يدخلون منها إلى إثارة الشبهات، وقد أعلنوا صراحة أن الإسلام هو عدوهم الأول، وأن أكبر غاية لهم هي ضرب وهدم قواعده^(١) لقد فشلت الحروب الصليبية من الوجهة الحربية.. لكن بقي «الغزو الفكري» ينفث سموه، ويشير الشكوك، وبقيت النزعة الصليبية تتوارى خلف ستار من الدبلوماسية، والرياء السياسي، تحرك ما تريد تحريكه، وتقف خلف الغزو الفكري، بكل ما لها من قوة، وعلم..

ولا شك أن العداء الصليبي للإسلام، هو الدافع الأساسي والأصيل، للغزو الفكري الذي تسلط على مجتمعات الأمة الإسلامية، ونجد أن هذا العداء أخذ «شكل السعار البوائي، لدى الأمم الغربية «الصليبية» فأخذوا مستميتين يوزعون السموم، ذات اليمين، وذات الشمال، ويفترون الأكاذيب، ويطمسون الحقائق، ويدبرون المكائد، ويتصيدون السقطات، ثم يدخلون في روع أنفسهم، وبني جلدتهم أنهم أرقى عنصرأ، وأفضل عقلاً، وأفلح دينأ، وأنهم أوصياء على البشرية، وسادة الإنسانية، وهداتها، ومرشدوها»^(٢).

وقال «وليم غيفورد بلغراف» الإنجليزي المسمى بالحرباء: الكمة المشهورة التي يلخص فيها عداء الغربيين للإسلام: (متى توارى القرآن، ومدينة مكة، عن بلاد العرب يمكننا أن نرى العربي، يندرج في سبيل الحضارة، التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه)^(٣).

(١) أنور الجندي، المد الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري: ص ١٢٦، طبعة دار الاعتصام بالقاهرة، ١٩٨٢م.

(٢) الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٧٠٤، ٧٠٥.

(٣) انظر: المصدر السابق.

«وجلاستون» رئيس وزراء بريطانيا يقول: (مادام القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان)^(١).

ويرى غاردنر: «أن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا»^(٢).

ويوضح هذا العداء، ويذكر بعض أسبابه المستشرق بيكر، فيقول: (إن هناك عداء من النصرانية للإسلام، بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى، أقام سداً منيعاً في وجه الاستعمار، وانتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لوصولجانها)^(٣).

ويقول في هذا المعنى «لورانس بروان»: (إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي)^(٤) ثم بين «لورانس بروان»: أن خطر المسلمين هو الخطر العالمي الوحيد في هذا العصر، الذي يجب أن تجتمع له القوى، وتجيئ له الجيوش، وتلتفت إليه الأنظار، فيقول حاكياً آراء المبشرين: (إن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهودية، إن المسلمين يختلفون عن اليهود في دينهم، إنه دين دعوة، إن الإسلام ينتشر بين النصارى أنفسهم، وبين غير النصارى، ثم إن المسلمين كان لهم كفاح طويل في أوروبا، فأخضعوها في مناسبات كثيرة، على أن الفرق الأساسي بين المسلمين واليهود — كما يراه

(١) نادية شريف العمري، أضواء على الثقافة الإسلامية: ص ١٦٧.

(٢) عبد الرحمن حسن جبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة: ص ١٣، طبعة بيروت دار القلم ١٩٧٧.

(٣) انظر: المصدر السابق: ص ٧٠٥.

(٤) راجع المصدر السابق: ص ٧٠٥. وانظر عمر فروخ والخالدي، التبشير والاستعمار: ص ١٨٤، طبعة المكتبة العصرية بيروت.

المبشرون – هو أن المسلمين لم يكونوا يوماً ما أقلية موطوءة بالأقدام). ثم يقول: (إننا من أجل ذلك نرى المبشرين ينصرون اليهود على المسلمين في فلسطين، لقد كنا نُخوف من قبل بالخطر اليهودي، والخطر الأصفر (باليابان وتزعمها على الصين) وبالخطر البلشفي، إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق (لم نجده ولم يتحقق) كما تخيلناه، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مُضْطَهَدٍ لهم^(١) عدونا الألد، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا، أما الشعوب الصفر، فإن هناك دولاً ديمقراطية كبيرة، تتكفل بمقاومتها، ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام)^(٢).

ولقد اشترك الاستعمار الغربي، والجهد التبشيري، والحقن الصليبي، في حرب المسلمين، وتشتيت تراثهم، ونهب ديارهم، يخيم عليهم سحابة سوداء، من البغضاء والكراهية، يتمثل هذا فيما حدث في عام ١٩١٨م عندما دخل اللورد اللنبي القدس، وأعلن: «الآن انتهت الحروب الصليبية» كان هذا القائد يعبر عن الروح الأوروبية، الروح الصليبية التي ظلت متوهجة في أعماقهم طوال تلك الحقب، وبنفس الحقن الذي صدر عن الجنرال الإنجليزي، كان مسلك الجنرال الفرنسي «غورو» قائد الجيش الفرنسي في دمشق حين ذهب إلى قبر صلاح الدين، بعد أن جاءه راكباً سيارة مكشوفة، وترجل إلى القبر، وقال قولته المشهورة: (نحن هنا يا صلاح الدين) وفي اليوم التالي عمل الشيء نفسه في حمص، حيث ذهب إلى قبر «خالد بن الوليد» – رضي الله عنه – وقال: (نحن هنا يا خالد)^(٣).

(١) الواقع أن اليهود لم يضطهدهم المسلمون، ولكنهم هم الذين يضطهدون المسلمين ويتآمرون عليهم.

(٢) انظر: الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٧٠٦، وانظر عمر فروخ والخالدي، التبشير والاستعمار: ص ١٨٤.

(٣) انظر: الدكتور توفيق الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٧٠٧.

وانظر كذلك: نجيب الكيلاني، الإسلامية والقوى المضادة: ص ١٤٢، طبعة مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ.

هذا الحقد، والضغن، والمقت، كان سبباً قوياً، في الإغارة على المسلمين، بشتى الأساليب، والطرق، والأشكال، والألوان، وما زالت تلك الموجة، تعلو، وتشتد، وتمتد، ثقافياً وفكرياً، لتخريب قواعد الإسلام، والأخلاق الإسلامية، وإشاعة الأفكار، والتيارات الهدامة^(١)، وشغل الأمة الإسلامية، بكل ما هو هامشي في حياتها، حتى لا تترك اليقظة الواعية، ولا تنتبه إلى ما يحاك حولها.

لقد وجد الغربيون، أن خير طريق لغزو العالم الإسلامي وإخضاعه، هو سلوك الغزو الفكري، فوضعوا الخطط، وحاكوا المؤامرات، للغارة على الأفكار، والمفاهيم الإسلامية، وعلى كل ما له صلة بالإسلام، حضارة وثقافة، وصارت قاعدتهم التي ارتكزوا عليها: «إذا أربك عدوك فأفسد فكره ينتحر به، ومن ثم تستعبده» وانطلقت الصيحة إلى ضرورة نقل المعركة من ساحة الحرب، إلى ميدان الفكر والمعرفة^(٢). فأغاروا على حضارة الإسلام وثقافته، سعيًا وراء هدم عقائده وأفكاره، ونشر الأفكار الغربية بديلاً عنها.

ولا شك أن الغزو الفكري أعمق أثراً، وأشد فتكاً في حياة الأمة من الغزو المسلح، لأنه يتسلل إلى عقولها وقلوب أبنائها، ذلك أن الأمم تقاس بمقوماتها العقدية، والفكرية، وقيمها الخلقية.

فالغزو الفكري الأخلاقي أخطر من الغزو المادي المسلح، لأنه يمضي بين الناس، في صمت ونعومة وخفاء في الأهداف، مما يجعل الناس تدريجياً يتقبلون كل جديد، ولو خالف قيمهم، وعقائدهم وأفكارهم دون معارضة، ويتقبلون الذوبان في بوتقة أعدائهم، وهم ينظرون ولا يشعرون^(٣).

(١) راجع الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٧٠٧.

وراجع أنور الجندي، المد الإسلامي في القرن الخامس عشر: ص ٢٨٦.

(٢) انظر: عز الدين الخطيب التميمي وآخرين، نظرات في الثقافة الإسلامية: ص ٣٣.

وراجع عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة: ص ١٤.

(٣) انظر: عز الدين الخطيب التميمي وآخرين، نظرات في الثقافة الإسلامية: ص ٣٤.

وإذا كان العداء الصليبي للإسلام والمسلمين سبباً رئيسياً دفع بالغرب إلى «الغزو الفكري» للمجتمعات الإسلامية فإن هناك أسباباً أخرى – غير العداء الصليبي – ساعدت على انتشار «الغزو الفكري» وعملت على هزيمة المسلمين أمام هذا الغزو، ونجد ذلك واضحاً في ثانياً .

ثانياً – الاستعمار الغربي للمجتمعات الإسلامية :

لقد تعرض المجتمع الإسلامي في آسيا، وأفريقيا، للطابع الأيديولوجي، للمجتمع الأوروبي، سواء الحديث منه في القرن التاسع عشر، أو المعاصر في القرن العشرين، ولم تكن للمجتمع الإسلامي مناعة في رفض هذا الطابع وتحديه، وعدم تقبله .

فتعرض للغزو الأوروبي، من أجل الصناعة الغربية، منذ أثمر عهد النهضة الأوروبية ثمرته في التحرر والخلاص، من سلطة الكنيسة، وفي استرداد الإنسان الأوروبي حرية الحركة في التجارة، وفي شؤون المال على العموم، وحرية التفكير والتوجيه السياسي^(١).

وكان الوضع في البداية قبل الاستعمار تربصاً من جانب المجتمع الأوروبي بالمجتمعات الإسلامية، وانقضاضاً عليها من جانب، بينما كان استسلاماً من أي مجتمع إسلامي، تعرض للتربص والانقضاض، وقبولاً للوصاية الأجنبية والاستغلال الأوروبي من جانب آخر^(٢)، ومما هو مسجل في صفحات التاريخ: أن المجتمع الإسلامي وقع فريسة للاستعمار، فقد احتلت بريطانيا: الهند في سنة ١٨٥٩م ومناطق الخليج الإسلامي، وجنوب شبه الجزيرة العربية في سنة ١٨٤٩م، ومصر في سنة ١٨٨٢م، والسودان في سنة ١٨٩٨م .

(١) انظر: الدكتور محمد البهي، الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي: ص ٥١، ٥٢،

بتصرف، طبعة دار الفكر، ١٩٧٣م .

(٢) المصدر السابق: ص ٥١ .

واحتلت فرنسا: الجزائر في سنة ١٨٤٥م، وتونس في سنة ١٨٨١م،
والمغرب في سنة ١٩١٢م.

واحتلت إيطاليا: طرابلس الغرب في سنة ١٩١١م.

واحتلت هولاندا: جزر الأرخيل الأندونيسية تباعاً منذ عام ١٩٠٣م.

وروسيا احتلت القرم قبل القرن التاسع عشر في سنة ١٨٧٣م وسيطرت
بإشرافها على المجتمعات الإسلامية في وسط آسيا، وهي: أذربيجان،
وكازاخستان، وأوزبكستان، ونور كيستان، وكزبخستان.. سيطرة تامة في القرن
التاسع عشر، ولم يسلم من الاحتلال الأوروبي سوى: اليمن، والحجاز،
وإيران، ووسط تركيا^(١).

ولا يخفى أن وقوع المجتمعات الإسلامية تحت سيطرة الاستعمار زاد من
اتساع السوق الاستهلاكية لمنتجات الغرب الصناعية، وهذا أدى إلى تفوق
الصناعة الغربية. وكلما قوي المجتمع الأوروبي وتفوق صناعياً، كلما زادت
رغبة استعماره في قارة أفريقيا وقارة آسيا..

وكلما زادت قبضة أوروبا على ما تم استعماره، وكلما اتسع نفوذها
السياسي والاستغلالي، كلما زاد ضعف المجتمع الإسلامي الذي وقع تحت
سلطة الاستعمار، وزادت تبعيته وتقبله لما يأتي من الغرب.

ويوم أن تحرك المجتمع الأوروبي لاستعمار المجتمعات الإسلامية، كان
في قمة مجده، بما أنجزه من الفصل بين الكنيسة والدولة، واستقلاله بالسلطة
الزمنية، وبالحرية الفردية، في التفكير، والتوجيه، وبالحرية السياسية، كما كان
في أشد الأوضاع حرصاً على اتجاه (العلمانية) كمثال للإنسانية..

استصحب الاستعمار معه هذا الاتجاه بما يستتبعه في الحكم، والتوجيه،
والتشريع، والاقتصاد، في المجتمع الإسلامي الذي يتمكن منه.

(١) راجع هامش: ص ٥٢ من المصدر السابق.

وباستصحاب الاستعمار اتجاه العلمانية، ومحاولة تطبيق هذا الاتجاه، في المجتمع الإسلامي، وهو مجتمع يغاير في خصائصه، وتاريخه، وواقعه. . . المجتمع الأوروبي، اضطر هذا الاستعمار إلى أن يسلك طريقاً يمكنه من هذا التطبيق، وهو طريق عزل المجتمع الإسلامي كلية عن ماضيه، وعن تراثه العقلي، والروحي، والتوجيهي، والسلوكي. . .

فإذا ما تم عزله أصبحت قيادته ميسرة، وطبعة للمستعمر، وبالأخص للأجيال التي تنشأ في ظل هذه العزلة^(١).

ثالثاً - تقدم الغرب العلمي:

لقد كان الغرب يملك تقدماً علمياً فائقاً، وتقدماً مادياً هائلاً، وعبقريّة تنظيمية مبدعة، وروحاً من الجلد والصبر على العمل والإنتاج، وروحاً عملية في مواجهة المشكلات سواء من ناحية الدراسة أو من ناحية التنفيذ^(٢).

ولا شك أن التقدم العلمي المذهل للغرب، كان قوياً دافقاً، له من القوة والانتشار والاستيلاء، ما بهر العقول، وفتن الألباب، ولا غرو فقد بز بذلك كل تقدم علمي عرفه العالم، وسمعت عنه البشرية في التاريخ المترامي الأطراف، واستطاع أن يخرج من الأسرار، ويكشف من الاختراعات، ما جعل أبصار الناس وعقولهم تتعلق به^(٣)، وخاصة أن هذا العلم أصبح في خدمة الإنسان، في كثير من مناحيه، فالتجهت الأنظار، والعقول، والقلوب إلى الغرب، تتطلع إلى ما فيه من اكتشافات تأتي بجديد^(٤).

لقد واجه العالم الإسلامي مشكلة تقدم الغرب العلمي، وجهاً لوجه، وهذا

(١) راجع المصدر السابق: ص ٥٤.

(٢) انظر: محمد قطب، واقنا المعاصر: ص ٣٤٣، طبعة مؤسسة المدينة، جدة ١٤٠٧هـ.

(٣) راجع الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٦٨٥.

(٤) د. أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية: ص ١٥٠.

التحدي السافر على طريق واحد. وهو صاحب الحضارة العريقة، والرسالة الدينية الخاتمة، وصاحب الوصاية على البشرية، بعد ما انسحبت كل الديانات والمذاهب القديمة، متوارية من نوره الوهاج، وحجته المشرقة، وصاحب الرقعة الواسعة، والثقافة المنتشرة، والقوة الكبرى التي كان يحسب لها ألف حساب. فكان تحدي الحضارة المادية الآلية للعالم الإسلامي أعظم من تحديها لأي أمة، ولأي حضارة، ولأي ثقافة، وقد صاحب تلك الحضارة مذاهب فكرية، وفلسفات مادية، ونظم سياسية، واقتصادية، وعمرانية، واجتماعية، وخلقية، وكان لا بد أن ينظر الناس - وخاصة الشعوب المتخلفة - إلى هذه المذاهب، والفلسفات، والنظم نظرة تقدير واحترام، لأنها نتاج تلك الشعوب المتقدمة، وحصاد تلك الأمم المتطورة التي فتتت الذرة، وصنعت الطائرة والصاروخ، وأدارت الأقمار^(١) وغزت الفضاء، لتراقب سلوكيات الإنسانية كلها - وخاصة تحركات المجتمعات الإسلامية - ولتكتشف من الفضاء الواسع، ما يزيد بها من العلم تمكيناً وأصبحت المجتمعات الإسلامية تمجد الحضارة الأوروبية، والتقدم العلمي والصناعي، واستطاع الغرب أن ينقل الإنتاج المادي إلى المجتمعات الإسلامية، في أفريقيا وفي آسيا، لاستخدام هذا الإنتاج في تيسير الحياة والتغلب على صعوبات المشاق التي تصحب عادة الحياة الإنسانية المتخلفة، أو البدائية، وذلك ليكون شواهد مادية، ترى وتختبر في التطبيق وفي واقع الحياة^(٢).

رابعاً - الضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي:

لقد أصيب المجتمع الإسلامي بالضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي، وذاق من جراء تلك الإصابة مرارة التأخر، والضعف الفكري ما أصيبت به أمة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات، إلا كانت الحالة، انحطاطاً في التفكير، واهتماماً بالخرافات والأساطير.

(١) الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٦٨٦.

(٢) الدكتور محمد البهي، الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر: ص ٥٤.

والتفكك الاجتماعي نتيجة حتمية للضعف الفكري، لأن الضعف الفكري لا يكشف للإنسان مخاطر الانزلاق في الهاوية، ولهذا نجد أن المجتمعات الإسلامية ابتليت بالطوائف المتعددة والمتناحرة، والمذهبية التعصبية، وتعدد السلطنات والدويلات التي قامت على أساس شعوبي أو مذهبي، في هذا المجتمع أو ذلك.

وهذا كله جر المجتمع الإسلامي إلى فوضى قاتلة، وتناحر حقيقي، وسلب ونهب وقتل دون رادع أو وازع.. ومجتمعاً كهذا لا بد وأن يتعرض لسيطرة المتربصين به. لقد كانت السلطة السياسية في المجتمعات الإسلامية تعيش في وضع مقلوب «في ذلك الوضع لا بد أن تكتمل الصورة المقيمة لأي إمبراطورية على وشك السقوط، بغض النظر عن اللافتة التي ترفعها، سواء كانت إمبراطوية فارسية، أو بيزنطية، أو رومانية، أو عباسية. لا بد أن تتفشى الرشوة، وتكثر مصادرة الأموال، وتتفاقم الاضطرابات الداخلية، مع الانحلال الخلقي، والانشغال بالتوافه عن الخطر الذي يدق الأبواب»^(١).

وأساس انهيار الأمم يبدأ من الداخل، وقد يأتي تدخل خارجي ليعجل بالسقوط، ولكن يظل الانهيار الداخلي هو بداية النهاية وعاملها الأكبر، ويأتي الانهيار الداخلي حين تتكون طبقة مترفة تتحكم في الرشوة، وفي الجماهير، فتتشر الظلم، والانحلال، وتحيل حياة الأكثرية إلى جحيم تهون فيه الحياة»^(٢).

لا شك أن الأمة الإسلامية عاشت فترات من حياتها، كانت سبباً في تأخرها وغفلتها، وطمع الطامعين في مجتمعاتها.

وأي أمة تضعف في أفكارها، ولا تعرف إلاّ القشور من أمرها، وتعيش في تناحر وتمزق، لا بد وأن تسقط، وينال منها من كان يهابها.

(١) انظر الشيخ محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل: ص ١١٠، طبعة دار الشروق، بيروت.

(٢) راجع المصدر السابق: ص ١١٣.

خامساً — تخلف الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة :

إن المجتمعات الإسلامية، حين أصابها الضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي، انشغلت بالتأفة من الأمور، فقادت التفاهة إلى التخلف عن ركب العلم، والتقدم، والحضارة.. ومعنى هذا، أن المجتمعات الإسلامية انصرفت عن تعاليم الإسلام التي تدعو إلى العلم، والمعرفة، واستعمال العقل، والفكر في كل ما من شأنه أن يأخذ بالناس إلى الطريق السليم، (وواكب هذا الانصراف انحطاط في القيم، ودعوات إلى الركون إلى المتع والعبث بالأموال، إلى حد السفه، والجنون، والترف، والفجور، حتى كان قواد هذا الركب في كل ناد، وكل صحيفة، مع جهل ضارب، ونفاق ناشب أظفاره، وفساد في كل مجتمع وناد، وتصارع على كل تافه وخسيس من المادة، وخراب للذمم، وبيع للشرف، وكره للقيم، وضياع للحق، وهضم للحقوق، وذبح للفضيلة)^(١).

وكان وضع البلاد الإسلامية كما صوره شاعر تركيا الإسلامي الكبير محمد عاكف: (يسألني الناس أنك كنت في الشرق مدة طويلة. فما الذي شهدت يا ترى، وما عسى أن يكون جوابي؟ أنني أقول لهم: إنني رأيت الشرق من أقصاه، فما رأيت إلا قرى مقفرة، وشعوباً لا راعي لها، وجسوراً متهدمة، وأنهاراً معطلة، وشوارع موحشة، رأيت وجوهاً هزيلة متجعدة، وظهوراً منحنية، ورؤوساً فارغة، وقلوباً جامدة، وعقولاً منحرفة.

رأيت الظلم، والعبودية، والبؤس، والشقاء، والرياء، والفواحش المنكرة المكروهة، والأمراض الفاشية الكثيرة، والغابات المحرقة، والمواقد المنطفئة الباردة، والحقول السبخة القاحلة، والصور المقززة، والأيدي المعطلة، والأرجل المشلولة..

رأيت أئمة لا تابع لهم، ورأيت أخاً يعادي أخاه، ورأيت نهاراً لا غاية له،

(١) راجع الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٩٦.

ولا هدف، ورأيت ليالي حالكة طويلة، لا يعقبها صباح مسفر، ونهار مشرق^(١).

هذا التخلف أضعف الثقة بالنفس، وأوقف عجلة التقدم والانطلاق في الشعوب الإسلامية، وجعلها تعتمد في كل شيء على غيرها، إن التخلف العقلي لا يكمن في عدم الذهاب إلى الجامعات، واكتساب المعارف فقط، بقدر ما يكمن في التبلد، والخمول، والنوم، والرضاء بالدون، وموت الهمة^(٢).

ومن المؤكد أن الأمة التي تفضل أو ترضى بالتواكل، والاستجداء، والكسل، والتبعية، أمة لا تستحق الحياة الكريمة، والحياة الحرة الكريمة لا تتأتى لأمة دون ثمن، والثمن هو التضحية، ولا يتأتى لأمة أن تشق طريقها في الحياة، وأن تستعيد وجودها وكرامتها، وتعيد صنع حياتها، دون أن تحاول جاهدة أن تبني نفسها بناءً يتفق مع الاعتداد بالذات.

وقد يكون من المسلمات البديهية: أن ضعف الأمة في جوهره وجذوره، ليس ضعفاً في قوة الدفاع، أو في القوة العسكرية، وإنما يكمن في ذل النفوس، وشعورها بالضعف.

وقد يكون من المسلمات البديهية أيضاً: أن فقر الأمة في جوهره وجذوره ليس فقراً في السلاح والمعدات، أو فقراً في المال والإمكانات، وإنما يكمن في فقر النفوس وعجزها، وضعف الإرادة واضطرابها^(٣).

فالتخلف عن ركب التقدم والحضارة، يعود بالمجتمعات الإسلامية إلى الانحطاط، ويقودها طواعية إلى الهلاك كما تقاد الشاة إلى حتفها بظلفها، ولذا كان هذا التخلف عاملاً من عوامل الغزو الفكري الذي اجتاحت البلاد والعباد.

(١) راجع المصدر السابق: ص ٦٩٦؛ وانظر أبا الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية: ص ٣٥.

(٢) انظر الدكتور توفيق الواعي، الحضارة الإسلامية، مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٦٩٨.

(٣) انظر: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح، معارك حاسمة في حياة المسلمين: ص ١٥٤، ١٥٥، طبعة دار اللواء بالسعودية ١٤٠٩هـ.

سادساً - الفراغ العقدي:

من المؤكد لدى الباحثين، أن العقيدة هي الأمر الذي تثق به النفس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقيناً عند صاحبه، ولا يمازجه شك فيه، ولا يخالطه ريب. ويذكر العقاد: أننا نعني بالعقيدة الدينية طريقة حياة، لا طريقة فكر، ولا طريقة دراسة، إنما نعني بها حاجة النفس، كما يحس بها من أحاط بتلك الدراسات، ومن فرغ من العلم والمراجعة، ليتربح مكان العقيدة من قرارة ضميره، إنما نعني بها ما يملأ النفس لا ما يملأ الرؤوس أو الصفحات^(١).

إن العقيدة التي يصح أن توصف بالعقيدة الدينية، هي التي لا يستغني عنها من وجدها، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم منها، بمعتصم، واستقر فيها على قرار^(٢).

ومن يتأمل العقيدة الإسلامية، ويتدبر ما جاءت به من مفاهيم، تناولت معضلات الحياة، إن من يتأمل ذلك يحس بالاطمئنان، ويتخلص من الحيرة التي تواجه كثيراً من المفكرين^(٣).

والحقيقة التي أثبتتها مئات السنين الحافلة بالأحداث، والخطوب، والمحن، حقيقة أن العقيدة الإسلامية هي العقيدة الشاملة، والعقيدة المثلى للإنسان، والمجتمع، رعاية للروح والجسد، وعمل للعالم والآخرة، وجهاد في السلم والحرب، وتنظيم للعلاقات والصلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والأمم.

(١) عباس محمود العقاد، العقائد والمذاهب: مجلد رقم ١١، ص ٤٠٢، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٣١.

(٣) انظر: الدكتور أحمد السايح، عباس محمود العقاد، فيلسوفاً رسالة «ماجستير»: ص ١٦٦.

فالعقيدة ضرورة لا غنى عنها للفرد والجماعة.. ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد، وتظهر نفسه.. وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك، وترفح وينهض..

فالفرد بغير عقيدة كالريشة في مهب الريح، تحوله يميناً وشمالاً فلا يسكن له حال، ولا يستقر له قرار، وليس له جذور تثبته^(١).

والعقائد في الأمم تقف سدوداً بينها وبين الأفكار الوافدة، أو المذاهب المقتحمة، وتعطي أعماقاً للصروح والمجتمعات والأفراد، كما تمنح استقراراً وثباتاً للإنسان في الحياة. أما إذا تركت الأمم عقائدها، وتخلفت عن غذائها الروحي، وعن عمقها الإيماني^(٢)، فإنها تصبح فريسة لمن هب ودب..

والباحث في أحوال الشعوب الإسلامية: يجد أنها لم تحسن التخطيط، ولم تستفد من الدروس، فانطلقت في سبيل الشهوات والملذات، والطوائف، والاختلاف، وتركت تعاليم الإسلام التي تدعو إلى الفكر، والعلم، والحضارة.. فكان ما كان..

لقد اتضح لنا، أن «الغزو الفكري» الذي تعرضت له شعوب الأمة الإسلامية ولا زالت تتعرض، قام على أسباب وبواعث، دفعت بالغزو الفكري إلى تكالب مسعور، وكان في الإمكان أن ترد الهجمة الشرسة، ولكن كانت هناك عوامل تنتشر في المجتمعات الإسلامية، ساعدت على توغل الغزو الفكري، وانتشاره بين الناس.

(١) انظر: محمد أمين حسن، خصائص الدعوة الإسلامية: ص ٢٥٧، طبعة مكتبة المنار، الأردن؛ وانظر كذلك الدكتور أحمد السايح، العقيدة والإنسان، مجلة الخفجي، السنة العشرين، العدد الأول: ص ٤، ٥، إبريل ١٩٩٠م السعودية؛ وانظر: كذلك أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ٢١٨، طبعة دار الكتاب العربي ١٤٠٤هـ.

(٢) الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية، مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٧٠١، ٧٠٢.

وقد سبق أن – ذكرنا – أن من عوامل وأسباب «الغزو الفكري»:

- * العداء الصليبي للإسلام والمسلمين .
- * الاستعمار الغربي الذي أصاب بعض المجتمعات الإسلامية .
- * تقدم الغرب العلمي .
- * الضعف الفكري والتفكك الاجتماعي الذي أصاب المسلمين .
- * الفراغ العقدي الذي دلت عليه سلوكيات المسلمين .

وقد تكون هناك أسباب أخرى: داخلية أو خارجية، عملت على تمزيق الأمة الإسلامية وقتل روح الأصالة فيها والتجديد، والقدرة على مواجهة التحدي .

ولا يخفى أن التعرف على الأسباب، قد يدفع بالعلماء، وقادة الفكر إلى تشخيص الداء، وبذل الدواء، وإذا عرف التحدي أمكنت المواجهة، وإذا كانت معرفة أسباب الغزو الفكري، تقف بالمسلمين على محطات انطلاق، فإن معرفة مظاهر الغزو الفكري، تساعد على التبصر بالمواقع والمواقف .

مظاهر الغزو الفكري

مظاهر الغزو الفكري كثيرة ومتعددة، وتكاد تشمل جميع جوانب الحياة، وهذه المظاهر لم تكن إلاّ بناء على دراسات دقيقة لأحوال المجتمعات الإسلامية .

لقد خطط أعداء الأمة الإسلامية، وتدارسوا الأمر فيما بينهم، ووضعوا مخططات تنفذ بكل دقة، وتوالت مظاهر الغزو الفكري تنتشر بين المسلمين، يساعد على ذلك أمران:

الأمر الأول: موالاة بعض حكام المسلمين للغرب.

والأمر الثاني: الدعاية للنظم الغربية والتغريب بها.

ولولا هذه المساعدة، لكان من الصعب على مظاهر الغزو الفكري أن يستشري خطرهما، وقد نجح الغزو الفكري في إعداد بعض «كوادر» تتولى القيادة، وإدارة أمور المجتمعات. وكانت الدعاية للنظم الغربية والتغريب بها، تدفع الناس إلى قبول ما يأتي من الغرب - أياً كان - :

ومظاهر الغزو الفكري يلمسها المراقب والباحث في كثير من القضايا،

مثل:

- ١ - حملات التشويه .
- ٢ - إحياء النزعات الجاهلية .
- ٣ - إبعاد العلماء عن مراكز التوجيه والسلطة .
- ٤ - التعليم والثقافة .
- ٥ - الخدمات الاجتماعية .

أولاً - حملات التشويه :

فإذا ما بحثنا في حملات التشويه - والتي كانت مظهراً من مظاهر الغزو الفكري - وجدنا أن هذه الحملات، مست كل ما يتصل بالإسلام من عقائد، ونظم، وتراث، وتاريخ وفكر، وحياة.

١ - فهناك محاولة تشويه عقائد المسلمين، بغير سند ولا دليل. يقول رينان الفرنسي، يصور عقيدة التوحيد في الإسلام «بأنها عقيدة تؤدي إلى حيرة المسلم. كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك»^(١).

ودائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الجديدة التي لم تترجم إلى اللغة العربية، تعرض تحت مادة «ابن تيمية»، أن ابن تيمية كان مسرفاً في القول بالتجسيد، ومن ثم كان يفسر كل الآيات والأحاديث التي تشير إلى الله بظاهر اللفظ، وقد تشبع بهذه العقيدة إلى درجة أن ابن بطوطة يروي عنه، أنه قال من منبر جامع دمشق: (إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ثم نزل درجة من درج المنبر)^(٢).

٢ - وهناك محاولة تشويه القرآن الكريم، وهي محاولة قديمة وحديثة، وهذه المحاولة كغيرها بعيدة عن العلم والمنطق. يقول المستشرق جب: (إن محمداً قد تأثر بالبيئة التي عاش فيها، وشق طريقه بين الأفكار، والعقائد الشائعة في بيئته. فالقرآن من صنع محمد ﷺ ومن ملاءمات هذه البيئة التي عاش فيها)^(٣).

(١) انظر الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية، مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٧٠٨.

(٢) انظر: عبد العزيز علي المحوي، مجلة المنهل: ع ٤٨٥، ص ١٠٨، ١٠٩، جمادى الآخرة ١٤١١هـ، جده - السعودية.

(٣) انظر: الدكتور علي عبد الحليم محمود، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام: ص ٢٩، جامعة الإمام ١٤٠١هـ.

٣ - وهناك محاولة تشويه السنة النبوية، وهي محاولات ضارية، عميقة الجذور في تاريخ الحرب ضد الإسلام، وهي محاولات تستهدف ما تستهدفه محاولات تشويه القرآن الكريم، من عزل المسلمين عن دينهم، بتشويه مصدره الأساسيين: القرآن والسنة. . وهي حرب دخلت على المسلمين حديثاً عن طريق الغزو الفكري، وقد جند أعداء الإسلام لتشويه السنة ما جندوا من أقلام، وكتب ومجلات، وبحوث، ومجمل محاولات الأعداء:

* الادعاء بأن هناك أحاديث لا يمكن أن تكون قد صدرت عن النبي ﷺ.

* والادعاء بأن محاولة وجود شيء في الحديث النبوي يمكن القطع بصحته نسبه إلى النبي ﷺ تاريخياً، محاولة فاشلة.

* الادعاء بأن الفرق الإسلامية عندما اختلفت في الآراء، أخذ كل منها يضع لنفسه الأحاديث التي يؤيد بها رأيه.

* الادعاء بأن الأحاديث النبوية ليست إلا سجلاً للجدل الديني في القرون الأولى^(١).

٤ - وهناك محاولة تشويه شخصية الرسول محمد ﷺ. وهي محاولات قديمة وحديثة ومستمرة، تهاجم رسول الله ﷺ، وتحاول أن تنال من شخصه، ومن هؤلاء الأعداء الحاقدين على الإسلام الذين تناولوا على شخصية الرسول الصادق الأمين:

١ - وليم موير في كتابه: «حياة محمد».

٢ - هنري لامنس اليسوعي، في كتابه: «الإسلام» وقد بلغ من حقد هذا الرجل على الإسلام أن تخبط فيما يكتب إلى الحد الذي أزعج بعض المستشرقين أنفسهم.

(١) المصدر السابق: ص ٣٩، ٤٠.

- ٣ - الفرد جيوم في كتابه: «الإسلام».
- ٤ - صمويل زويمر في كتابه: «الإسلام تحد لعقيدة».
- ٥ - كنبشكراج في كتابه: «دعوة المئذنة».
- ٦ - أ. ج. أربري. في كتابه: «الإسلام اليوم».
- ٧ - جولد زيهر. في كتابه: «تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي».
- ٨ - ه. أ. ر. جب. في كتبه:

(أ) طريق الإسلام.

(ب) الاتجاهات الحديثة في الإسلام.

(ج) المذهب المحمدي.

(د) الإسلام والمجتمع الغربي.

٩ - أ. ج. فينسك. في كتابه: «المستشرقون والإسلام».

١٠ - د. س. مرجليوث. في كتبه:

(أ) محمد ومطلع الإسلام.

(ب) التطورات المبكرة في الإسلام.

(ج) الجامعة الإسلامية.

(د) قنطرة إلى الإسلام.

١١ - ج. فون. جرونهام. في كتبه:

(أ) إسلام العصور الوسطى.

(ب) الإسلام.

(ج) الأعياد المحمدية.

(د) الوحدة والتنوع والحضارة الإسلامية.

(هـ) دراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية.

١٢ - د. ب. ماكدونلد. في كتابه: «تطور علم الكلام والفقہ والنظرية الدستورية في الإسلام».

١٣ - ر. أ. نيكلسون. في كتابه: «متصوفو الإسلام».

١٤ - ر. بل. في كتابه:

(أ) أصول الإسلام في بيئته المسيحية.

(ب) مقدمة القرآن.

١٥ - آثر جيفري. في كتابه: «مصادر تاريخ القرآن».

١٦ - يوسف شاخت. في كتابه: «أصول الفقہ الإسلامي».

١٧ - أرنولد توينبي. في كتابه: «دراسة في التاريخ».

١٨ - فيليب حتى، وهو مسيحي لبناني. في كتابه: «تاريخ العرب».

١٩ - مجيد خوري، وهو مسيحي عراقي. في كتابه: «الحرب والسلام في الإسلام».

٢٠ - أبراهام كاش. في كتابه: «اليهودية في الإسلام».

٢١ - إدوارد فرمان. في كتابه: «تاريخ المسلمين وفتوحاتهم».

٢٢ - ج. س. آرثر. في كتابه: «العناصر الصوفية في محمد».

٢٣ - د. بلاشير. في كتابه: «مقدمة القرآن».

٢٤ - سنوك هورج رونجد. في كتابه: «الإسلام»^(١).

وغير هؤلاء كثير.. وما أردنا الإحصاء أو الاستقصاء.. وكل هؤلاء حاولوا تشويه الإسلام، ونالوا من شخص الرسول ﷺ، فيما كتبوا، وافتاتوا على

(١) انظر: الدكتور علي عبد الحليم محمود، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام:

الحق، وموّهوا، وملأوا الدنيا ضجيجاً بأصوات الباطل، وهراء الجاهلين، وسموم الحاقدين^(١).

٥ - وهناك محاولة تشويه التاريخ الإسلامي. وهذه المحاولة من أخبث المحاولات وأكثرها خبثاً ومكرراً. فقد صور هؤلاء الحاقدون على الإسلام والمسلمين، أن الفتوحات الإسلامية فتوحات غزو واستعمار، وأن الخلافة الإسلامية خلافة تأمر وسفك للدماء، وغير ذلك كثير مما لا يقره عقل ولا دين.

٦ - وهناك محاولة تشويه التراث الإسلامي، ولا يخفى أن تشويه تراث الأمة، هو تشويه للأصالة التي تنطلق منها. وتراث المسلمين تعرض لانتهاك هؤلاء الحاقدين على كل ما هو إسلامي، فأصابه ما أصاب غيره من الافتراء والافتئات.

٧ - وهناك محاولة تشويه مجال الغيب في الإسلام، وهذه المحاولة أريد منها زعزعة الإيمان بالغيب عند المسلمين، ولذا جاءت المحاولة تشكك في كل ما لا تدركه الحواس وتفسر الجزاء عند المصدقين به. . بأنه جزاء روحي، والجنة والنار بأنها شعور نفسي.

٨ - وهناك محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية، وذلك بالادعاء بأنه لا يوجد نظام للحياة معروف في الإسلام، والتهم التي وجهت إلى نظام الحياة الإسلامية كثيرة ولكن أبرزها وأخطرها:

(أولاً): اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بالرجعية وعدم القدرة على مواكبة ركب الحضرة والتقدم^(٢).

(ثانياً): اتهامهم النظم الإسلامية بالمحلية والقصور والإقليمية.

(ثالثاً): اتهامهم لها بأنها عند التطبيق والتنفيذ، تعتمد على وحشية أو همجية أو قسوة وبخاصة فيها يتصل بالرجم والقطع والجلد.

(١) المصدر السابق: ص ٤٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٧٨.

(رابعاً): اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها، في عصر من العصور.

(خامساً): اتهامهم لها بأنها تتجاهل الأقليات غير الإسلامية في ظل الدولة الإسلامية.

وهذه التهم قد أطلقها أعداء الإسلام من غير المسلمين، وشاركهم في إطلاقها بعض المسلمين المخدوعين بالفكر الغربي.

٩ - وهناك محاولات تشويهية أخرى، تتصل بجوانب من الإسلام، إن هذه المحاولات في مجموعها، تشكل انقضاضاً على مبادئ الإسلام، وتعاليمه ..

ثانياً - من مظاهر الغزو الفكري:

إحياء النزعات الجاهلية التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام كالدعوة إلى القومية، والدعوة إلى الفرعونية، والآشورية، والفينيقية، وما جرى مجرى هذا. مما يتنافى مع الإسلام.

الدعوة إلى التحلل والإباحية: وهذه دعوة خبيثة لأنها تطعن الأمة في أخلاقها وقيمها، وقد شاعت في المجتمعات الإسلامية أمور تعافها الفطر السليمة. ولكنه الانحراف الذي لا يعترف بالقيم الفاضلة.

ثالثاً - إبعاد العلماء عن مراكز التوجيه والسلطة:

ولا يخفى أن إبعاد العلماء عن المراكز التوجيهية أمر له خطورته، وفي بعض المجتمعات تقلص دور العلماء، وأصبح قاصراً على خطبة الجمعة، وبعض الأحاديث التي تخضع للعيون الساهرة والمراقبة الدقيقة، وأصبح بعض العلماء يجرون وراء المناصب جرياً، تذلل له الجباه، ويطلبون المناصب بما لهم من مآثر في الأتباع، وأياد في التصفيق والتأييد.

رابعاً — التعليم والثقافة :

ولا يخفى أن الغزو الفكري، ينتشر من خلال مدارس التعليم ومعاهده وجامعاته أفضل من أي مظهر آخر.

وقد دخل الغزو الفكري إلى العالم الإسلامي، من باب يخيل إلى السطحيين من الناس أنه الباب الطبيعي. إذ حمل اسم العلم والمعرفة والتمدن. يقول القس زويمر: «المدارس أحسن ما يعول عليه المبشرون في التحكم بالمسلمين»^(١).

ومن المعروف أن المسلمين أقبلوا على هذه المدارس بكثرة كاثرة، يزدرون مناهجها، ويلتهمون كل ما احتجته من عقيدة وفكر، لا يميزون صحيحها من فاسدها، ونفعها من ضررها.^(٢)

وبما أن الثقافة ليست علوماً ومعارف وأدباً وفنوناً فحسب، بل مناهج فكر وخلق. تصطبغ حياة الأمة بصبغتها في شتى ضروب نشاطها، فإن «الغزو الفكري» استطاع من خلال الثقافة، أن يلقي بمزيج من الأخلاط الغربية الملتزمة من الفكر الغريب المنحرف، والتوجيه الفاسد، القائم على التخطيط الشرير^(٣). ولذا قام الغزو الفكري بالدعوة إلى الأغراض الآتية:

١ — الدعوة إلى إضعاف العلاقة بين المسلمين بقطع الروابط الثقافية وإحياء الثقافات الجاهلية.

٢ — الدعوة إلى العامية، وإلى تطوير اللغة.

٣ — إيجاد الشعور بالتبعية الثقافية، والشعور بمركب النقص.

٤ — دفع الجامعات إلى الاعتماد على كتب المستشرقين العلمية.

٥ — توهين جهود المخلصين الثقافية والإبداعية.

(١) محب الدين الخطيب، الغارة على العالم الإسلامي: ص ٤٨، طبعة ١٣٨٤هـ.

(٢) إبراهيم النعمة، المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري: ص ١٣.

(٣) انظر: عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية: ص ١٦٧، ١٦٨.

- ٦ - تمجيد القيم الغربية، وتسفيه القيم الإسلامية، والدعوة إلى نبذها.
- ٧ - لفت المجتمعات إلى القشور، وإلهائها عما يفيد وينفع.
- ٨ - إحياء المذاهب الفلسفية والجدلية، والبعد عن الأساليب العلمية.
- ٩ - إنشاء الموسوعات التاريخية الإسلامية، وبذر الشكوك وليّ الحقائق فيها.
- ١٠ - الحرص على تكوين جيل مثقف يحمل راية الاستشراق والدعوة^(١).
- ١١ - الدعوة إلى تدريس العلوم الطبية وغيرها بلغات غير اللغة العربية، ليظل المسلم عنده إحساس بعجز اللغة العربية لغة القرآن.

خامساً - الخدمات الاجتماعية:

والخدمات الاجتماعية مظهر من مظاهر الغزو الفكري، وقد وجد المخططون لغزو العالم الإسلامي، أن الخدمات الاجتماعية طريق يساعد على إمرار ما يراد إمراره، من خلال الخدمات الاجتماعية، ولذلك أصبحت الملاجىء، والمستشفيات، والمستوصفات، والجمعيات الخيرية، ووكالات الإغاثة، ودور الأيتام، والمسنين، وغيرها.. مراكز غزو!!

ومما يلاحظ أن «الغزو الفكري» لم يقتصر على المظاهر التي ذكرنا بعضاً منها، وإنما كانت هناك خطوات أخرى، محسوبة ومتعددة، على كافة الجهات والطرق، ومن هذه المخططات:

- ١ - الإرساليات التبشيرية التي قل أن يخلو مجتمع إسلامي منها.
- ٢ - الإعداد الصهيوني والتنسيق بينه وبين الفكر الغربي.
- ٣ - التصنيف والتأليف في المباحث الإسلامية واستغلال قصور المسلمين فيها.
- ٤ - إلقاء المحاضرات في الجامعات أو الجمعيات الإسلامية.
- ٥ - إنشاء دوائر المعارف الإسلامية، والمعاجم المختلفة.. وغيرها..
- ٦ - استغلال البعثات العلمية والثقافية.

(١) انظر: الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية:

- ٧ - الامتيازات الأجنبية والحصانات الدبلوماسية واستغلالها.
- ٨ - استغلال الأقليات والطوائف والنعرات.
- ٩ - التعاون بين التبشير والسياسة.
- ١٠ - استغلال الحركات الوطنية، والتطلعات السياسية.
- ١١ - استغلال فقر الشعوب، وحاجتها، وعريها، وربط الإحسان بالتبشير.
- ١٢ - استغلال العواطف والجوع الجنسي، واستخدامه في خدمة الأهداف.
- ١٣ - الرحلات، وجمعيات الصداقة، والدعوة إلى العالمية، والمجتمعات الكشفية.
- ١٤ - المساعدات الاقتصادية، وربطها بتسهيلات، وتنازلات معينة.
- ١٥ - الدعوة إلى الحوار الحر، مع نبذ العقائد والأفكار، والتجرد للوصول إلى الحقيقة^(١). في زعم هؤلاء.

(١) المصدر السابق: ص ٧٢٣.

تيارات الغزو الفكري

ومما لا يخفى على باحث أو دارس، أن الغزو الفكري لكي يحقق أهدافه من إبعاد الأمة الإسلامية، عن أصولها، وأدابها اتخذ له منافذ متعددة، وتيارات مختلفة، قد تبدو متباينة، ولكنها تلتقي جميعها في محاربة الإسلام والمسلمين، ومن هذه التيارات والحركات:

(الاستشراق)، (التبشير)، (الصهيونية)، (الماسونية)، (أندية الروتاري)، (العلمانية)، (القوميات)، (التغريب)، (الوجودية)^(١)، (الفوضوية)، (القاديانية)، (البابية والبهائية).. وغير ذلك..

إن هذه التيارات والحركات، صنعها «الغزو الفكري»، ليمر من خلالها إلى الشعوب الإسلامية، وقد استطاعت هذه التيارات أن تثبت أقدامها، وتوطد علائقها، وتقيم معاهدها، ومدارسها..

وهناك مجتمعات إسلامية – جميع أبنائها مسلمون – بدت فيها ظاهرة لا يتنبه لها إلا أولئك الباحثون، وما أخطر هذه الظاهرة. ظاهرة انتشار صورة الصليب في أشكال قد لا تلفت النظر لأول وهلة.

فقد يكون الصليب داخل مربع يضيء ليلاً أعلى قمة محل تجاري..

وقد يكون الصليب داخل إطار دائري، تتزين به حجر الاستقبال..

قلت لصديقي الذي تتزين حجرة جلوسه بثلاث من هذه الدوائر: ما هذا؟

قال: لا أدري – والله – إنها أدوات زينة.

(١) انظر: وراجع كتابنا، التيارات الفكرية والحركات المعاصرة، طبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٤١٢هـ.

وقد يكون الصليب داخل إطار كتابي «شعاراً» لإحدى الشركات الكبرى .
وفي بعض المجتمعات الإسلامية، لا يستطيع أحد أن يشير إلى أي ظاهرة
من ظواهر الغزو الفكري في المجتمع بأي إشارة كانت .
وهكذا تعيش بعض المجتمعات الإسلامية في ظواهر الغزو الفكري،
ولا أحد يرى، ولا أحد يتكلم، ولا أحد يسمع .

لقد نجحت الحملات التي قامت بها مؤسسات الغزو الفكري الغربي في
تحقيق أغراضها نجاحاً بعيداً، حين ضمت إليها فئات مثقفة من المسلمين،
وجعلتها في صفها تحارب الإسلام وثقافته، وأكثر من هذا أن هؤلاء المثقفين
صاروا يستنكرون الثقافة الإسلامية إذا تناقضت مع الثقافة الغربية . وصاروا
يستمرثون الثقافة الغربية ويتعشقونها، ويتجهون في الحياة طبق مفاهيمها^(١) .

لقد أقبل الكثير من المسلمين على ثقافة الغرب يدرسونها ويطبقونها
ويتسابقون في الأخذ بها، واستجاب المسلمون إلى الدعوات العنصرية حتى
صاروا على لسان الكثيرين . وحتى صارت الإقليمية الضيقة هي المرتكز لأي
عمل في أي اتجاه سياسياً كان أم اقتصادياً أم فكرياً . إن هناك حرباً تشن على
العقائد الموروثة، وعلى المسلمات التي تتصل بالوحي والبعث . وهناك فلسفات
مطروحة، ترمي إلى إلغاء القيم الثابتة، وإقامة التطور المطلق، وتجاوز الروح
وإقامة المادة وحدها، وإلغاء الضوابط الأخلاقية والمسؤولية الفردية ودعوة إلى
رفع الوصاية عن الشباب، بل هناك دعوة صريحة أعلنت خطتها بإخراج العرب
والمسلمين من إطارات الدين، ودعوتهم إلى علمنة الذات العربية . وهناك
دعوات إلى إعادة طرح الأساطير، والإباحيات في أفق الفكر الإسلامي عن طريق
القصة، والمسرح، والصحافة . وهناك دعوات تزين الباطل وتزخرفه ودعوات
تحول الشر إلى صور براقة زاهية .^(٢)

(١) انظر: عز الدين الخطيب التميمي وآخرين، نظرات في الثقافة الإسلامية: ص ٤٦ .

(٢) أنور الجندي شبهات التعريب في غزو الفكر الإسلامي: ص ٤٧، ٤٨، طبعة المكتب
الإسلامي بيروت ١٤٠٣ هـ .

أهداف الغزو الفكري

لا يمكن أن يتصور عاقل: أن الحرب بين الإسلام وأعدائه قد وضعت أوزارها. ولا يمكن أن يتصور عاقل أن أعداء الإسلام قد سكتوا عن الإسلام بعد أن تحالفوا ضد أهل الإسلام فغلبوهم وجعلوا منهم أمماً بعد أن كانوا أمة، ورفقاً بعد أن كانوا وحدة. ولا زال أعداء الإسلام، يدبرون لحربه كل يوم وسيلة. ويحشدون للوقوف في وجهه كل يوم قوة، وليس خطر الكلمة والفكرة بأقل من خطر الجندي والسلاح في المعركة الضارية التي يشنها أعداء الإسلام على الإسلام وأهله.

إن هؤلاء الأعداء قد سكتوا عن حرب الجنود والأسلحة، ليشنوا حرب التشويه والتخريب للإسلام: منهجه وتاريخه ورجاله وتراثه ولغته وقرآنه. وتحالفوا وتآزروا وابتكروا حديث الوسائل، وخبث التيارات والأساليب. فغزوا المسلمين في قلوبهم، وأفكارهم، وأخلاقهم، وأزيائهم. وشنوا على العالم الإسلامي من الغارات ما لا يخفى أمره^(١).

وإن أحص صفت عصرنا، هي أنه ينتج من الأفكار، بقدر ما ينتج من الأشياء، وليس من الضروري أن نتطلب من الأفكار المنتجة، أن تكون نافعة دائماً كالأشياء فإن المجتمعات التي تصدر إلينا أشياء الحضارة، ترى في الأفكار سلعة، ينبغي أن تتغير كل يوم، كما تتغير طرز الأشياء، ولذلك يقف مثقفونا مبهورين، أمام موجات الفكر الوارد من الخارج، ماذا يأخذون وماذا يدعون. بل قل: ماذا يقرؤون، ماذا يترجمون؟ ولا شيء أكثر من هذا يكفيهم أن يستطيعوا ملاحظة

(١) انظر: الدكتور علي عبد الحليم محمود، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام:

الأفكار، دون أن يكون عليهم أن يواجهوها أو ينقدوها فهم إلى أن يصوغوا نقداً معيناً لأحد الاتجاهات الجديدة نسبياً، يكون الوقت قد فات. وتقاوم بمرور الزمن ما ينقدون. وغطت عليه أفكار أخرى أشد لمعاناً، وأكثر جاذبية وإشعاعاً.

ومما لا شك فيه أن العالم الإسلامي هدف ثمين من أهداف تصدير الأفكار، نظراً إلى موقعه وخطورة موقفه. ليبقى هذا العالم مفتقراً إلى الدول المصدرة وليحال بينه وبين أفكاره الأصيلة التي يمكن أن تغنيه عن الاستيراد.

وسوق الأفكار أخطر أسواق المنتجات، وأكثرها تقبلاً للتزييف والإفساد. ومن ثم حفلت أسواقنا، بما هو أشد فتكاً من السموم، وأعظم انتشاراً من الهواء. يتخلل كل خلية وينخر في كل بناء. أفكار ترتدي أثواباً، أو تحمل شعارات، أو ترفع مشاعل. ليس الثوب فيها، أو الشعار، أو المشعل، إلاً قناعاً يستر الزيف الخطر^(١).

إن هذا الغزو الفكري الذي يجتاح الشعوب الإسلامية يهدف فيما يهدف إلى:

١ — أن تظل الشعوب الإسلامية خاضعة لنفوذ القوى المعادية لها. تلك القوى التي تتمثل في عدد محدود من الدول الكبيرة، التي يحمي بعضها بعضاً، ويتبادل ساستها الدفاع عن المصالح، التي تهتم أي طرف من أطرافها.

٢ — أن تظل بلدان العالم الإسلامي خصوصاً، والعالم النامي عموماً تابعة لتلك الدول الكبيرة المتقدمة، تبعية غير منظورة، وفي هذه التبعية يكمن دهاء تلك الدول المتبوعة وذكاؤها، فليس أقتل للشعوب من أن تحس بالحرية والاستقلال، بينما هي ترسف في قيود الذل والتبعية. وليس أضيع لمستقبل أمة من الأمم أن تعجز عن أن تخطط لمستقبلها ومصيرها إلاً وهي دائرة في فلك دولة كبيرة واهمة ذاهلة عن حقيقة ما تعانیه من تبعية.

(١) انظر: الدكتور عبد الصبور شاهين، مقدمة كتاب الإسلام يتحدى وحيد الدين خان: ص ٨، ٩، طبعة المختار الإسلامي، ١٣٩٧هـ، الطبعة السابعة، القاهرة.

٣ - أن تتبنى الأمة الإسلامية أفكار أمة أخرى من الأمم الكبيرة دون نظر فاحص، وتأمل دقيق، مما يؤدي إلى ضياع حاضر الأمة الإسلامية في أي قطر من أقطارها، وتبديد لمستقبلها، فضلاً عما في ذلك من صرف عن منهجها وكتابها، وسنة رسولها.. وما يترتب على هذا الصرف من ضياع أي ضياع، إذ لا يوجد مذهب سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي يغني الأمة الإسلامية عن منهجها الإلهي، ونظامها الشامل المتكامل، في كل زمان ومكان.

٤ - أن تتخذ الأمة الإسلامية مناهج التربية والتعليم، لدولة من هذه الدول الكبيرة، فتطبقها على أبنائها وأجيالها، فتشوه بذلك فكرهم، وتمسح عقولهم، وتخرج بهم إلى الحياة، وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم شيئاً واحداً، هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية أولاً. ثم يلبس الأمر عليهم بعد ذلك، فيحسبون أنهم بذلك على الصواب، ثم يجادلون عما حسبه صواباً ويدعون إليه، وهم بذلك يؤكدون تبعيتهم من جانب آخر، فيعيشون الحياة وليس لهم منها إلاّ حظ الأتباع والأذنان.

٥ - أن يحول العدو بين الأمة الإسلامية وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدول الكبيرة الغازية، وسير أعلامها وقادتها.

٦ - أن تزاحم لغة الغالب لغة المغلوب، فضلاً عن أن تحل محلها أو تحاربها بإحياء اللهجات العامية أو الإقليمية، ما دام الإنسان لا يفكر إلاّ باللغة فإن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها.

٧ - أن تسود الأمة المغزوة أخلاق الأمة الغازية، وعاداتها وتقاليدها^(١).

٨ - تصوير تراث الأمة الإسلامية بصورة التخلف، وعدم قدرته على

(١) انظر: الدكتور علي عبد الحليم محمود، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام: ص ٨ - ١٠ بتصرف.

إمداد الحضارة بشيء مفيد، وأنه لم يكن له فضل على الحضارات التي جاءت بعده.

٩ - إحياء الجوانب الضعيفة في التراث الإسلامي خاصة فيما يتعلق بالخلافات السياسية التي وقعت بين المسلمين أنفسهم، والتركيز على دعوات الحركات الباطنية، وإخراجها بصورة جميلة مضيئة، ووصف هذه الدعوات بأنها كانت تحمل فكراً عالياً، وفلسفة عميقة^(١).

١٠ - إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب، وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر، وإظهار أي دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر.

١١ - تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، بدعوى أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها.

١٢ - إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم^(٢).

١٣ - اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين، وصرفهم عن التمسك بالإسلام نظاماً وسلوكاً.

١٤ - تفرغ العقل والقلب من القيم الأساسية، المستمدة من الإيمان بالله، ودفع هذه القلوب عارية أمام عاصفة هوجاء تحمل معها السموم عن طريق الصحافة والمسرح والفيلم والأزياء والملابس.

(١) إبراهيم النعمة، المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري: ص ٣٠.

(٢) أنور الجندي، شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي: ص ١٨.

نقد الغزو الفكري ومواجهته

بعد أن اتضحت لنا أبعاد «الغزو الفكري» وتياراته، وحركاته، التي تعمل ليل نهار، يبقى أمامنا السؤال الكبير: ماذا فعلنا نحن؟ ما موقفنا من الغزو الفكري؟ إن جزءاً كبيراً من الغزو الفكري، حركة فكرية هائلة، وما تنتجه هذه الحركة، يخصنا نحن المسلمين، ويخص عقيدتنا، ولغتنا، وتراثنا، وتاريخنا، وذاتيتنا.

وإن جزءاً كبيراً آخر من الغزو الفكري، حركة عملية هائلة، تأخذ المواقع، وتسيطر على القلوب.

والغزو الفكري بحركته الفكرية والعملية، من أخطر ما نواجه في حياتنا، لأن ما يقوم به من أهداف تقوض الدعائم يتعلق بأعمق أعماقنا عقدياً، وفكرياً، وحضارياً، وليس هناك أمام المسلمين من سبيل إلاّ المواجهة وقبول التحدي وإثبات الذات وإلّا فلسنا جدّيرين بالحياة.

ولا يخفى على أحد أن السعي إلى إثبات الذات، والعمل على مواجهة هذه التحديات والتيارات الغازية دليل صحة، ودليل صحة... — إذن — لا بد من منهج.

والمنهج الصحيح هو أن نواجه الفكر بالفكر، والعمل بالعمل، ولما كان التخطيط الاستراتيجي منبثقاً لكثير من التيارات. والتحرك التبشيري غزواً عملياً للمجتمعات، كان علينا أن نواجه هذين التيارين في قوة وحزم.

أولاً — مواجهة الفكر الاستشراقي :

لا شك أن الاستشراق كان ولا يزال يشكل الجذور الحقيقية، التي تقدم المدد للتنصير والاستعمار، والعمالة الثقافية، ويغذي عملية الصراع الفكري، ويشكل المناخ الملائم، لفرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي، وإخضاع شعوبه.

فالاستشراق هو المنجم، والمصنع الفكري، الذي يمد المنصرين والمستعمرين، وأدوات الغزو الفكري، بالمواد التي يسوقونها في العالم الإسلامي، لتحطيم عقيدته، وتخريب عالم أفكاره، والقضاء على شخصيته الحضارية التاريخية^(١).

لقد تطورت الوسائل، وتعددت طرق المواجهة الثقافية الحديثة، ويكفي أن نشير إلى مراكز البحوث والدراسات، سواء أكانت مستقلة أم أقساماً للدراسات الشرقية، في الجامعات العلمية، وما يوضع تحت تصرفها من الإمكانيات المادية، أو المبتكرات العلمية، والاختصاصات الدراسية، تمثل الصور الأحدث فيتطور الاستشراق، حيث تمكن أصحاب القرار من الاطلاع والرصد، لما يجري في العالم يومياً^(٢).

ففي القارة الأمريكية وحدها، حوالي عشرة آلاف مركز للبحوث والدراسات، القسم الكبير منها متخصص بشؤون العالم الإسلامي، ووظيفة هذه المراكز تتبع ورصد كل ما يجري في العالم، ومن ثم دراسته وتحليله، مقارنة مع أصوله التراثية التاريخية، ومنابعه العقديّة، ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار، لتبني على أساسه الخطط، وتوضيح الاستراتيجيات الثقافية، والسياسية، وتحدد وسائل التنفيذ^(٣).

(١) انظر: عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب الأمة رقم ٢٧ : ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق، عدد ٢٧ : ص ٩.

(٣) المصدر السابق، عدد ٢٧ : ص ٩.

وإن الباحث في مؤسسات الاستشراق، ووسائلها المختلفة، يجد أنها استطاعت، أن تؤثر في العقلية الإسلامية، فهذه دائرة المعارف الإسلامية تعد أكبر مصدر للمعلومات والحقائق الإسلامية، وأثمن ذخيرة لها، وتعتبرها بعض البلاد الإسلامية اليوم، أساساً للمعلومات الإسلامية، وتقوم بترجمتها إلى لغاتها بنصها وروحها^(١).

ولقد نجحت العقلية الأوروبية الاستشراقية، في فرض شكلتها وآلياتها على التحقيق، والتقويم، والنقد والسيطرة على مصادر التراث العربي الإسلامي، ويمكن القول بأن معظم الكتابات العربية المعالجة للتراث، قد سارت على هذا النهج في التاريخ، والأدب، وغيره. . ولم تتجاوزه إلا في القليل النادر، وانتهت إلى إيجاد ركائز عربية معبرة عنها، ومتبينة لوجهة نظرها، ومدافعة عن المواقع الثقافية التي احتلتها، حتى في الجامعات، والمؤسسات العلمية. لا يزال الخضوع والاحتكام للقوالب الفكرية، التي اكتسبها بعض المثقفين العرب، من الجامعات الأوروبية^(٢).

وبجانب كل هذا فإن الاستشراق يذهب إلى محاولة إلغاء النسق الإسلامي، ومحاولة تشكيل العقل المسلم، وفق النسق الغربي الأوروبي، وإنجاب تلامذة من أبناء العالم الإسلامي، لممارسة هذا الدور والتقدم، باتجاه الجامعات والمعاهد، ومراكز الدراسات والإعلام، والتربية، في العالم الإسلامي، لجعل الفكر الغربي، والنسق الغربي هو المنهج، والمرجع، والمصدر، والكتاب^(٣).

ومما يلحظه الباحث بوضوح: أن عمليات الاستشراق والتغريب، لم تستسلم، ولم تلق السلاح، لكن لما أعيهاها السعي، فبدل أن تقر بفساد نظرياتها، وطروحاتها، وعدم إمكانية القبول لها في العالم الإسلامي، تحاول

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي، الإسلام والمستشرقون، مجلة المنهل، عدد ٤٧١: ص ٢٦.

(٢) الأستاذ عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب الأمة العدد رقم ٢٧: ص ١٤.

(٣) المصدر السابق: ص ١٦.

اليوم أن تعتبر أن المشكلة والعلة، في بنية العقل المسلم أصلاً، لتأتي على البنيان الإسلامي من القواعد، وترسب في النفوس أن السبب في التخلف، والعجز، والتخاذل الثقافي، وعدم القدرة على الإبداع، وقبول الفكر الغربي، هو في بنية هذا العقل، وتكونه، وميراثه الثقافي.

فهو عقل مولع بالجزئية، وعاجز عن النظرة الكلية للأشياء، وهو عاطفي يحب الإثارة والانفعال، ويعجز عن الفعل، وهو محكوم أيضاً بموروث ثقافي، لا يستطيع الفكاهة منه. فهو لا يفكر بطلاقة، وحرية، لأنه محكوم بوحى مسبق، وهو يقوم على منهج التفكير الاستنتاجي، ويعجز عن التفكير الاستقرائي، وهو معجب بالمنهج البياني، وعاجز عن المنهج البرهاني، وهو يخلط بين الواقع المعاش، والمثال الخيالي، وصاحبه يحب الثأر، ويفرق في الملذات، وأن الإسلام الذي يكون هذا العقل هو دين أمر ونهي، وزجر وكبت للحرية، وإلغاء للاجتهاد، الأمر الذي أدى إلى التقليد وفقدان الشخصية، والقدرة على الإبداع^(١).

ولا بد أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا، ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامي عن معرفة ذاته، فالاستشراق في حد ذاته كان دليل وصاية فكرية، ويوم أن يعي العالم الإسلامي ذاته، وينهض من عجزه، ويلقي على كاهله أثقال التخلف الفكري والحضاري، يومها سيجد الاستشراق نفسه في أزمة وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام، ويومها لن يجد الجمهور الذي يخاطبه، لا في أوروبا، ولا في العالم الإسلامي، ولا يجوز لنا أن ننتظر من غيرنا - أياً كان هذا - أن يساعدنا على النهوض من كبوتنا^(٢).

وإذا كان علينا أن نضع عن أنفسنا أغلال الوصاية الفكرية، فإن علينا من ناحية أخرى، أن نتحرر من عقدة التخلف، التي تسيطر علينا، في جميع مناحي

(١) المصدر السابق: ص ٢٧، ٢٨.

(٢) الدكتور محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري:

ص ١٢٧، ١٢٨.

حياتنا، والتي تسد علينا منافذ الأمل، في الخروج من أزمئتنا، فقد تحررنا من الاستعمار العسكري، ولكننا لم نتحرر من القابلية للاستعمار، ولهذا فإن نظرتنا لكل ما يأتي من الغرب، هي نظرة التقدير، والإكبار، حتى وإن كان هذا الذي يرد إلينا، متمثلاً في أزياء غريبة عن أذواقنا، وتقاليدينا^(١).

وحتى نكون في مستوى الحوار الفكري، والتبادل المعرفي، ونوقف فعلاً الغزو الفكري والاختراق الاستشراقي، لا بد أن نكون قادرين على امتلاك الشوكة الفعلية.. أن نكون قادرين على الإنتاج الفعلي، لمواد ثقافية، تمثل ثقافتنا، وتأتي استجابة لها، وتغري الناس بها، وبذلك وحده نكون في مستوى الحوار، والتبادل المعرفي، فالمواجهة لا تكون بإدانة الآخرين، والنظر إلى الخارج دائماً، وإنما تبدأ حقيقة من النظر إلى الداخل أولاً لملء الفراغ بعمل بناء مستمر، وتحصين الذات^(٢).

وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب، إذا قال: إننا إذا لم نتصد للتيار الاستشراقي بكل قوة، فسوف نتعرض للانسلاخ والذوبان، لا محالة والمعركة بين الاستشراق والإسلام معركة فكرية هائلة، جند لها المستشرقون كل المعاول التي تحاول أن تهزم المسلمين، وتبعدهم عن إسلامهم.

وإن الإنسان الذي يتابع النشاط الاستشراقي، قد يلحظ بوضوح، أن هذا النشاط يمثل قمة التحدي للفكر الإسلامي، وقد يكون معروفاً لدى الباحثين: «أن التيارات الفكرية الأجنبية القديمة – التي كانت تمثل تحدياً للإسلام، والفكر الإسلامي الأصيل، في عصور الإسلام الزاهرة – كانت حافزاً للمسلمين، في تلك الأيام الخوالي، للوقوف أمامها بقوة وصلابة^(٣).

وقد رأى الإمام الغزالي، في عصره، أن التيارات الفلسفية، يتردد صداها

(١) المصدر السابق: ص ١٢٨.

(٢) عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب الأمة، العدد رقم ٢٧: ص ٢٩.

(٣) الدكتور محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: ص ١٢٤.

في الأرجاء وأنها تصول، وتجول، في تحدٍ سافرٍ، للفكر الإسلامي، والمسلمين، فلم يقف الغزالي موقف المتفرج، ولم يسب، ويشتم، ويصرخ، ويولول، ولم يرغب أن يترك الأمر، ويقول لا شأن لي به، ولكنه عزم على خوض المعركة. فأعد العدة، واتخذ لها الأدوات من العلم والمعرفة بما عند هؤلاء.

وقد رأى أن يتقن الفلسفة، ويتفرغ لقضاياها، ويتعرف على مقاصد الفلاسفة، واستطاع في دقة وإتقان أن يخرج كتابه: «مقاصد الفلاسفة» وكان ما قام به هو الخطوة الأولى في منهج المواجهة للفكر الفلسفي، ثم جاءت الخطوة الثانية بعد ذلك، بالكشف عما في «مقاصد الفلسفة» من تناقض للفكر، ومخالفة للمنطق والعقل، وتعثر في المقاصد، فكان كتاب «تهافت الفلاسفة» يمثل قمة المواجهة.

واستطاع بهذا المنهج النقدي أن يواجه المعركة، ويخوض غمارها، في قوة، ودقة، ويقول الغزالي معبراً عن ذلك المنهج: «ثم إنني ابتدأت - بعد الفراغ من علم الكلام - بعلم الفلسفة، وعلمت يقيناً: أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أهل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره وغائله، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً، ولم أر أحداً من علماء الإسلام، صرف عنايته وهمته إلى ذلك»^(١).

وإذا كان الغزالي، قد استطاع أن يواجه الفكر الفلسفي، في عصره، فإن الأمر بالنسبة للاستشراق يحتاج إلى جهود أفراد ومؤسسات، فمكتبات العالم مليئة بإنتاج المستشرقين، وبشتى اللغات الإنسانية، وهناك عشرات المجالات، ومئات المؤسسات التي ترعى الاستشراق، وتعمل لخدمة المستشرقين، وهناك

(١) الإمام الغزالي، المنقذ من الضلال: ص ٩٢، تقديم الدكتور عبد الحليم محمود، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٥ م.

أيضاً آلاف العلماء والباحثين، من المستشرقين، الذين يتفرغون لبحوثهم ودراساتهم، وهناك المؤتمرات الاستشراقية العالمية التي تعقد حسب الحاجة في العواصم العالمية.

ولقد كان لحركات الفكر الاستشراقي منذ القرن الثامن عشر، قوة دفع، ورواج واستقطاب، أثارت اهتمام رجال الفكر الإسلامي، بما كتبه المستشرقون عن الإسلام، في الكتب، والمجلات، والموسوعات، وعن مصدريه الأساسيين: القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعن النبي الذي بعثه الله بهذا الدين الحنيف^(١)، ومواجهة التحديات الاستشراقية، ضرورة لا بد منها، إن كنا نريد الحفاظ على عقائدنا، التي جاء بها الإسلام، وكنا نريد الحفاظ على ذاتيتنا، وشخصيتنا ومواجهة الاستشراق في مجال العقيدة الإسلامية وغيرها يحتاج - كغيره - إلى بذل جهود صادقة، ومخلصة، لرد هذه الطعون المفتراة، حتى لا يأتي زمن نجد أنفسنا فيه، بألسنة غير ألسنتنا، نردد ما يقوله المستشرقون، دون وعي أو دون أن نحس أننا مسلمون لنا عقائدنا وشخصيتنا.

ومنهج نقد الاستشراق في مجال العقيدة الإسلامية وغيرها مما تناوله الاستشراق لا بد وأن يقوم من وجهة نظرنا على الأصول الأساسية التالية:

أولاً: استيعاب شامل للإنتاج الاستشراقي، في مختلف المجالات الإسلامية، وهذا الاستيعاب لا بد منه، ومن حق الأمة الإسلامية، أن يعرف أبنائها ما يقوله الآخرون عنها، في عقائدها وغير عقائدها، ليكون أبناء الأمة على بينة مما يقوله أن يتفوله هؤلاء المستشرقون. . ويلزم هذا الاستيعاب الشامل تحقيق الأمور التالية:

١ - القيام بحصر شامل لكتابات المستشرقين في المجالات المختلفة في

(١) الدكتور التهامي نقرة، القرآن والمستشرقون: ص ٢١، من كتاب «مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية - الجزء الأول» طبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض ١٩٨٥م.

القرنين التاسع عشر، والعشرين، بصفة أساسية، باللغات الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والأسبانية، والإيطالية، والروسية، ويشمل هذا الحصر: الكتب، والمجلات، والدوريات.

والقيام بعملية حصر هذه الأعمال الاستشراقية يحتاج إلى خبراء وعلماء مسلمين متخصصين، ويحتاج إلى عدد من المساعدين في مجال كل لغة نأخذ منها.

٢ - لا بد من توفير كل الأعمال الاستشراقية، المشار إليها، عن طريق الشراء، إذا كانت متوفرة، أو عن طريق التصوير، إذا لم يمكن شراؤها، وتشكل هذه الأعمال مكتبة استشراقية تكون تحت أيدي الخبراء والعلماء.

٣ - يقوم جهاز متعاون من الخبراء في اللغات المختلفة، بتحضير المادة وتصنيف الموضوعات، وضم المادة التي يتكرر الحديث عنها في لغات مختلفة، تحت موضوع واحد.

٤ - تقدم المادة للعلماء الذين سيقومون بإعداد النقود العلمية، ويراعى عند تقديم المادة للعلماء، أن تترجم لهم الأفكار الأساسية للقضايا المعروضة، ليكون عند العلماء تصور شامل لكل ما قيل حول القضية المطروحة، وحتى يغطي التناول للموضوع، وجهات النظر التي قيلت فيه^(١).

٥ - تذكر مع المادة التي تقدم للعلماء أسماء المستشرقين الذين تناولوها وأزمنتهم وبيئاتهم، والدوافع وراء مقولاتهم.

٦ - العمل على بيان المصادر، التي اعتمد عليها المستشرقون، في كتاباتهم عن قضايا المسلمين، وهل هي مصادر إسلامية أصيلة في الموضوع، أم مصادر غير إسلامية، لأن بعض المستشرقين يعتمد على ما ذكره المستشرقون السابقون، كمصدر أساسي، دون الرجوع إلى كتب المسلمين.

(١) الدكتور محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: ص ١٣٤، بتصرف وإضافة واختصار.

٧ - بيان المنهج الذي التزم به هؤلاء الكتابون في العقائد والشرائع، والتاريخ، والحضارة، والسيرة لأن بيان مناهج المستشرقين، سوف يكشف لنا عن أخطاء جسيمة في المنهج والنتائج، والدارس لمقولات المستشرقين في العقائد الإسلامية وغيرها، يجد في هذه الكتابة تغرباً عن المسلمات، وخروجاً صريحاً على البدايات، وما يمكن اعتباره محاولات متعمدة لإصابة هذه المسلمات والبدايات بالجروح والكسور، وهي لن تفعل فعلها في يقين المسلم، إلا في حالات معينة، بينما نجدتها تدفعه في أغلب الحالات وأعمها، إلى الاشتزاز، والنفور.

هذا مع أن معالجة واقعة، تمتد جذورها إلى عالم الغيب، وترتبط أسبابها بالسماء، ويكون فيها الوحي همزة وصل مباشرة بين الله سبحانه ورسوله الكريم، ويتربى في ظلها المتمون على عين الله ورسوله ليكون تعبيراً حياً عن إيمانهم، وقدوة حسنة، للقادمين من بعده مواقع كهذه لا يمكن بحال أن تعامل كما تعامل الجزئيات والذرات والعناصر في مختبر للكيمياء، أو كما تعامل الخطوط والزوايا والمساحات على تصاميم المهندسين، بل ولا كما تعامل الوقائع التاريخية التي لا ترتبط بأي بُعد ديني أصيل^(١).

إننا هنا بمواجهة تجربة من نوع خاص، وشبكة من العوامل والمؤثرات تند عن حدود مملكة العقل، وتستعصي على التحليل المنطقي الاعتيادي المألوف، ومن ثم فإن محاولة قسرها على الخضوع لمقولات العقل الصرف، ومعطيات المنطق المتوارثة، لا يقود إلى نتائج خاطئة حيناً ولا تستعصي عليه بعض الظواهر حيناً آخر فحسب، بل إنه يقوم بما يمكن اعتباره جريمة قتل بشكل من الأشكال، أو محاولة لتفحص الجسد البشري، كما لو كان في حالة سكون مطلق بعيداً عن تأثيرات الروح وتعقيدات الحياة^(٢).

(١) الدكتور عماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية: ص ٦، طبعة دار الثقافة بالدوحة

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

(٢) المصدر السابق: ص ٦.

وإن الدين، والغيب، والروح، والوحي، والقضاء، والقدر، وما اتصل بهذا من أمور العقائد، ليس بمقدور الحس أو العقل أن يدلي بكلمته فيها إلا بمقدار، وتبقى المساحات الأكثر عمقاً وامتداداً بعيدة عن حدود عمل الحواس وتحليلات العقل والمنطق.

ثانياً: نقد المنهج الذي التزم به المستشرقون في معالجة قضايا العقيدة الإسلامية، ونقد المنهج هو خطوة حاسمة وضرورية قبل البدء في نقد ما جاء من أخطاء وافتراءات في مجال العقيدة، لأن: «مناقشة أي من المستشرقين على مستوى التفاصيل والجزئيات، لا تغني شيئاً لأنها ستكون بمثابة نقد موقوت يتحرك على السطح، ويستهلك نفسه في الجزئيات، دون أن يبحث عن الجذور العميقة التي تظل تنبت الشوك والحسك.

والجذور العميقة هي المنهج الخاطيء، الذي تقوم عليه أبحاث هؤلاء المستشرقين، فإذا استطعنا أن نضع أيدينا على عيوب المنهج وشروخه استطعنا معرفة المنبع الذي يتمخض عنه تيار الأخطاء الموضوعية، وخلخلة الأسس التي جاءت بهذه الثمار المرة، واقتلاعها^(١).

ثالثاً: نقد الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون في مجال الإسلاميات وعملية نقد هذه الأخطاء، والمزاعم، تقتضي منا عرض الشبهات، والمقولات، ونقدها نقداً علمياً، بعيداً عن النزعات الهجومية، حتى يكون لهذا العمل العلمي، أثره الإيجابي، لدى المثقفين من المسلمين، وغير المسلمين. . وحتى يكون كذلك دافعاً للمستشرقين، إلى إعادة النظر في أقوالهم، وعوناً لهم، على تصحيح اتجاهاتهم، وفي النهاية يكون هذا العمل بمثابة تعريف بالإسلام، لكل راغب في التعرف عليه^(٢)، ولا يخفى أن العمل العلمي القائم على النقد

(١) المصدر السابق: ص ٨.

(٢) الدكتور محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري:

السليم، يحمل العمل البنائي، الذي يأخذ بالناس جميعاً إلى العلم، والمعرفة، والعملية النقدية، الهادفة، جديرة بالممارسة، والمتابعة، لإثراء الفكر الإنساني بكل حق، وبكل مفيد.

والنقد المطلوب لشبهات وأخطاء المستشرقين لا بد وأن يتجاوز الدفاع المتشنج إزاء كل ما طرحه أولئك الذين تخصصوا في الاستشراق . .

رابعاً: إبراز ما رده بعض المستشرقين في نقدهم لمستشرقين آخرين، فإن هذه النقود العلمية التي ذكرها المستشرقون لها دلائلها، وقد تكون أبلغ في باب النقد، والتصدي والمواجهة، وما أكثر ما جاء عن المستشرقين في باب النقد، إن ما ذكره بعض المستشرقين في هذا الباب، يشكل ثروة مفيدة، وليس من الكياسة أن نبتعد عن المنصفين.

خامساً: إثبات أن المصادر التي اعتمد عليها رجال الاستشراق غير أصيلة في الموضوع. وقد رأى الباحثون، أن المستشرقين قد يرجعون إلى آراء مستشرقين سابقين قد أعماهم التعصب، فنفتوا سمومهم فيما كتبوه، وبعضهم يرجع إلى مصادر لا تتصل بالعقيدة الإسلامية من قريب أو بعيد، وبعضهم يعتمد على كتاب ألف ليلة وليلة. وكليلة ودمنة، وغيرهما من الكتب التي تجري مجراها.

سادساً: يحسن أن تحاط النقود ببيان ما وقع فيه بعض المستشرقين، من أخطاء علمية، أو لغوية، أو تاريخية، عن جهل، أو عن سوء فهم، وضيق نظر أو عن شطط في الافتراضات^(١).

سابعاً: أن تقوم النقود، التي توجه إلى الاستشراق على منهج يضم الأدلة العقلية، والأدلة الثقيلة، لأن نقد الاستشراق هو بالدرجة الأولى للمسلمين حتى لا يخذعوا بهذه البحوث والدراسات التي تصل عن طريق الاستشراق، وحتى لا يبنهروا بهذا التيار.

(١) الدكتور التهامي النقرة، القرآن والمستشرقون، مناهج المستشرقين: ٢٢/١.

كما أن نقد الاستشراق هو للمستشرقين، وقد لا يعترفون بالدليل النقلي، فكان لا بد من الدليل العقلي المقنع، الذي يجعلهم يفكرون كثيراً، قبل أن يقدموا على تناول ما للمسلمين بغير المراد.

ثامناً: أن تكون النقود التي توجه إلى الاستشراق شاملة لآراء السلف والخلف، في مسائل العقيدة، من الأسماء، والصفات، والتشبيه والتأويل، والقضاء والقدر، والحرية، والجبرية، وقضية الألوهية، والإسلام، والإيمان، والنبوة، والرسالة، والوحي، والمعجزة، والبعث وما جرى مجرى هذا من مسائل العقيدة.

ومواجهة الفكر الاستشراقي بما ذكره السلف والخلف فيه تضييق وحصار لآراء المستشرقين.

تاسعاً: لا بد من تفرغ عدد كبير، من علماء الأمة الإسلامية – المتخصصين والذين لهم اتصال بالبحوث والدراسات الاستشراقية – للقيام بهذه النقود العلمية واستخراجها على ما ينبغي.

عاشراً: أن تتوفر لهذا العمل الجدية، والجهود المخلصة، لتتمكن الأمة من المواجهة، والعمل.

وهناك أعمال أخرى تتصل بمنهج نقد الاستشراق وهي ضرورية ليكون هناك تكامل وحسم في المعالجة.

ونذكر من تلك الأعمال ما يلي:

١ – أن يصاحب النقود التي توجه للإستشراق عمل موسوعة الرد على المستشرقين، وموسوعة الرد شاملة لكل ما تناوله الاستشراق، وفي هذا يقول الدكتور محمود حمدي زقزوق: (إن المواجهة الفكرية الجادة هي الطريق الصحيح لمواجهة أية تيارات مناوئة للإسلام والمسلمين، ومن أجل ذلك ينبغي أن ننظر إلى حركة الاستشراق بكل جدية، ونأخذ في الحسبان، أن لها آثاراً كبيرة على قطاعات عريضة من المثقفين في العالم الإسلامي، وفي العالم الغربي على

السواء، ولهذا لا بد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة، ولما كان الفكر الاستشراقي مكتوباً بشتى اللغات الحية، ومنتشراً انتشاراً واسعاً على مستوى عالمي، فمواجهته لا بد أن تكون على المستوى العالمي نفسه^(١).

وقد دعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في القاهرة، في نهاية عام ١٩٧٩م إلى ندوة لمناقشة موضوع إعداد «موسوعة للرد على المستشرقين» وقد حضر الندوة عدد يزيد على عشرين من العلماء والمفكرين المهتمين بهذا الموضوع، وقد أعدت التقارير وقضي الأمر ونامت الفكرة^(٢).

ولا يفوت الباحث أن يذكر أن «موسوعة الرد على المستشرقين» تختلف عن «منهج نقد الاستشراق في مجال العقيدة والسنة وغيرهما» لأن الموسوعة شاملة للفكر الإسلامي.

٢ - لا بد من عمل دائرة معارف إسلامية، يقوم بعملها العلماء المسلمون «مشروع إصدار دائرة معارف إسلامية» من بين الأولويات العلمية الملحة، فلا يجوز أن نظل نفتات فكرياً من دائرة المعارف الإسلامية، التي قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية. فقد تجاوزها المستشرقون وانتهوا منذ بضع سنوات من إصدار دائرة معارف إسلامية جديدة، وواجبنا نحن المسلمين أن نقوم بإصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية، واللغات الأوروبية تكون على الأقل في مستوى دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين، تخطيطاً وتنظيماً، وتتفوق عليها علمياً، وتنقل وجهة النظر الإسلامية في شتى فروع الدراسات الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين على السواء^(٣).

وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب إذا عرف أن تقاعس المسلمين حتى اليوم، عن عمل «دائرة معارف إسلامية» يدل على الضعف، الذي يدب في

(١) الدكتور محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: ص ١٣١.

(٢) المصدر السابق: ص ١٣١.

(٣) المصدر السابق: ص ١٤٢.

النفوس، وأن مؤتمرات العلماء المسلمين، وقراراتهم تمثل مظهرة صاحبة، هاجت وماجت، ثم نامت.. إن مشكلتنا أننا نتكلم أكثر مما نعمل، وإن شئت فقل: إننا نتكلم ولا نعمل.

ومهمتنا لنواجه الاستشراق، أن نعمل على إصدار عدة موسوعات ودوائر معارف في التاريخ، والعقائد، والأدب، والأخلاق، والفقهاء، والحديث، ومختلف العلوم، والفنون، لأن المعركة فكرية قوامها انتشار الكلمة.

٣ - من الضروري لمؤازرة منهج نقد الاستشراق في الأمور التي خاض فيها أن تكون هناك دوريات، ومجلات، ونشرات بمختلف اللغات تتناول ما يتصل بمواجهة الاستشراق، لمحاصرة الفكر الاستشراقي، وصد هجومه، والوقوف أمام زحفه.

٤ - من الضروري لنجاح التصدي، لسوء ما جاء عن بعض المستشرقين أن تكون هناك مؤسسات علمية، وأكاديمية، ودعوية، ترعى شؤون النقد، والمواجهة وإعداد الدوريات والمجلات والمؤتمرات.

وفي إمكان الأمة الإسلامية، أن تُوجد الهيئات العلمية العالمية، وتهيء الأجواء المناسبة، التي تكفل نجاح المواجهة، والتصدي للزحف الاستشراقي، وذلك أن أمتنا الإسلامية حباها الله سبحانه وتعالى، بأعظم النعم، كما بها من الجامعات ما يمكن من وجود آلاف العلماء المتخصصين في مختلف العلوم، والفنون..

٥ - أن نمد يد الصداقة والمودة للهيئات الاستشراقية العالمية، وأن يكون لنا دور بالمشاركة في المؤتمرات الاستشراقية، التي تعقد في مختلف العواصم العالمية.

وهذه المشاركة لها أثر إيجابي، في نفوس المستشرقين، فقد تجعل المستشرقين يشعرون بأننا لسنا منعزلين، وإننا نريد أن نفهمهم من نحن، ومن

نكون؟ ومن الكياسة أن ندعو بعض المستشرقين المنصفين لفكرنا، وترائنا إلى مؤتمراتنا وندواتنا.

٦ - أن تقيم كل جامعة في مجتمعات الأمة الإسلامية معهداً للدراسات الاستشراقية، يمنح الدارسون في هذا المعهد درجات علمية عالمية، وقد لا يتصور الإنسان أن الأمة الإسلامية وقد تعددت جامعاتها المختلفة، لم تعمل بعد على إنشاء معاهد أو أقسام للدراسات الاستشراقية، في حين أننا نجد أنه ما من جامعة في أوروبا أو أمريكا إلا وملحق بها معاهد وأقسام لدراسة الإسلام والمسلمين، حتى أصبحنا بحركاتنا وسكناتنا واقعين تحت سيطرة وأقوال وآراء الاستشراق.

٧ - أن تعمل كل جامعة، وكل معهد، وكل مؤسسة، على تفرغ عدد معين من أساتذتها للدراسات الاستشراقية، في مواضع محددة.

٨ - أن يكون هناك تنسيق وتخطيط بين المؤسسات الإسلامية، وتكامل في الموضوعات المطروحة.

وبهذه الأعمال العلمية نستطيع أن نتصدى للتحديات التي تواجه الأمة الإسلامية، وبهذه الأعمال نستطيع أن نكشف في وضوح أن جهود المستشرقين لا تستند على حجة، ولا عقل، ولا منطق، بل هي جهود مغرضة، الهدف منها النيل من الإسلام وأهله، وقد اتسمت هذه الجهود بالكذب والافتراء والمغالطة.

ومن يتصفح كتب المستشرقين وموسوعاتهم ودوايرهم.. يجد مئات من الاتهامات والأباطيل، وآلاف التخريجات التي لا صلة لها بالعلم.

وإذا كان المسلمون يظنون أنهم في صحوة إسلامية، ووعي إسلامي، فإن من مبادئ الصحوة الإسلامية وأولياتها: مواجهة الاستشراق والمستشرقين، حتى لا يأتي وقت تكون فيه هذه الصحوات إرادة استشراقية، وتجارب مرادة، تجعل المسلمين يهتمون بالأشكال والقشور، وكل ما من شأنه أن يبعث على الجمود، والتأخر، والتخلف.

ثانياً — مواجهة التبشير :

كلمة «التبشير» من الكلمات التي أطلقت على المنظمات الدينية النصرانية، التي تستهدف نشر الديانة النصرانية في المجتمعات الإسلامية والوثنية والإلحادية .

ومما يجدر أن نعرفه أن البعض من الدارسين والباحثين، يستعملون في بحوثهم التي تتصل بنشر النصرانية كلمة «التنصير» بدلاً من كلمة «التبشير» لأن كلمة التبشير في المعاجم تعني: الخبر الذي يفيد السرور، والبعض الآخر يستعملون كلمة «التبشير» لأن كلمة التبشير هي لسانهم وعقيدتهم، ونحن نستعمل في بحثنا كلمة الاستعمار، والشيعوية، والاشتراكية، والعلمانية، والديمقراطية، كما ذكرها أصحابها، ولا مانع أن نذكر كلمة التبشير كما جاءت .

والتبشير — كما تذكره الموسوعات — حركة دينية سياسية استعمارية بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية بغية نشر النصرانية في الأمم المختلفة في دول العالم الثالث بعامه . وبين المسلمين بخاصة، بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب .

ويعتبر المبشر «ريمون لول» أول نصراني يتولى التبشير بعد فشل الحروب الصليبية في مهمتها، إذ أنه قد تعلم اللغة العربية بكل مشقة، وأخذ يجول في بلاد الشام مناقشاً علماء المسلمين، ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي وأثناء الاكتشافات البرتغالية دخل المبشرون الكاثوليك إلى إفريقيا، وبعد ذلك بكثير أخذت ترد الإرساليات التبشيرية البروتستانتية، إنجليزية وألمانية، وفرنسية .

وقد اهتمت الكنيسة بتوجيه الجهود إلى التبشير في المجتمعات الإسلامية، تريد أن تقتلع الإسلام من نفوس المسلمين، أو تبعد المسلمين عن الإسلام حتى يمكن أن يعتز الإنسان بالقومية أو الحزبية أو الاشتراكية، أو ما جرى مجرى هذا دون أن يفكر في الإسلام .

ويكاد يجمع المبشرون فيما بينهم على أن القوة التي تخيف أوروبا وأمريكا

هي قوة الإسلام والمسلمين، ولذا يعمل التبشير بكل ما يملك على تمزيق الأمة الإسلامية، ويصرح المبشر لورانس براون: بالهدف الحقيقي للمبشرين من عملهم في بلاد المسلمين فيقول: «إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أو أمكن أن يصبحوا أيضاً نقمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير».

ويعبر القس صمويل زويمر عن النوايا السيئة التي تحملها النصرانية للإسلام والمسلمين، فيقول: «لا ينبغي للمبشر المسيحي أن يفشل أو أن ييأس ويقنط عندما يرى أن مساعيه لم تثمر في جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية، لكن يكفي جعل الإسلام يخسر مسلمين بذبذبة بعضهم، عندما تذبذب مسلماً وتجعل الإسلام يخسره تعتبر ناجحاً يا أيها المبشر المسيحي، يكفي أن تذبذبه ولو لم يصبح هذا المسلم مسيحياً».

وصمويل زويمر رئيس إرسالية التبشير العربية في البحرين ورئيس جمعيات التنصير في الشرق الأوسط، كان يتولى إدارة مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية التي أنشأها سنة ١٩١١م، دخل البحرين عام ١٨٩٠م، ومنذ عام ١٨٩٤م قدمت له الكنيسة الإصلاحية الأمريكية دعمها الكامل، وأبرز مظاهر عمل البعثة التي أسسها زويمر كان في حقل التطبيب في منطقة الخليج، ويعد زويمر من أكبر أعمدة التنصير في العصر الحديث، وقد وضع كتاباً تحت عنوان «العالم الإسلامي اليوم» جاء فيه:

- ١ - يجب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداء لهم.
- ٢ - يجب نشر الكتاب المقدس بلغات المسلمين لأنه أهم عمل مسيحي.
- ٣ - تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها.
- ٤ - ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين.

ويقول صمويل زويمر في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٩٣٥م: «لكن مهمة التبشير التي نددتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها».

ويقول أيضاً: «إنكم أعددتُم نشأً لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي فقد جاء النشء طبقاً لما أراده الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوة، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوة يوجد بكل شيء».

إن المبشرين كانوا يخططون لاختراق مجتمعات المسلمين في دقة وخبث ودهاء، فالمبشر لويس ماسينيون قام على رعاية التبشير والتنصير في مصر، وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، كما أنه كان مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال إفريقيا، والمبشر «دون هك كري» كان أكبر شخصية في مؤتمر لوزان التبشيري، وهو بروتستانت، عمل مبشراً في الباكستان لمدة عشرين سنة.

ولقد كان للمبشرين ولا يزال الكثير من المؤتمرات الإقليمية والعالمية التي يناقشون فيها خطط التبشير، واتخاذ ما يروونه مناسباً لهم، ومن تلك المؤتمرات المؤتمر التبشيري العالمي في أدنبره باسكوتلنده عام ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م، وقد حضره مندوبون عن ١٥٩ جمعية تبشيرية في العالم، ومن أخطر المؤتمرات مؤتمر كولوراداو في ١٥ أكتوبر ١٩٧٨م، تحت اسم «مؤتمر أمريكا الشمالية لتنصير المسلمين» حضره مائة وخمسون مشتركاً يمثلون أنشط العناصر التنصيرية في العالم، استمر لمدة أسبوعين بشكل مغلق، وانتهى بوضع استراتيجية بقيت سرية لخطورتها.

وما أكثر مؤتمرات التبشير التي تعقد في أماكن متفرقة حسب الحاجة لعرقلة جهود المسلمين، واقتلاعهم من الإسلام، ويتخذ المبشرون وسائل وأساليب متعددة تحيط بالإنسان، ومن وسائلهم التطبيب، والتعليم، والأعمال الاجتماعية، والفتن، والحروب، يقول الدكتور نجيب الكيلاني: «إن روح التعصب الأعمى ضد كل ما هو إسلامي لم تزل سائدة حتى أيامنا هذه، تلك الروح التي غذاها المبشرون، ورجال الدين من معتقي الصليبية القديمة».

وإن الباحث في أساليب التبشير التي أحاطت بالمسلمين يجد أن هذه الأساليب أضرت بالمجتمعات الإسلامية، وأصبحت عاملاً معوقاً لكل تقدم إسلامي، وقد نجح التبشير في مواقع كثيرة لأن إمكاناتهم هائلة ويتحملون ويعملون ويصبرون ويخططون ويتربصون، وإذا كنا تنبهنا أخيراً إلى الأخطار المحدقة بالمسلمين من جانب المبشرين، فإن تنبهنا لم يأخذ بنا إلى الطريق السليم، وليس من الكياسة أن نكتفي بإنشاء مراكز للدعوة هنا وهناك، إن الأمر يقتضي قبل مراكز الدعوة أن نكون أقمننا الملاجئ والمستشفيات والمدارس والمعاهد ومؤسسات الإغاثة والإعاشة.

المواجهة الصحيحة تقتضي عملاً يعمل، لا كلاماً يقال: إن المبشرين يعملون ونحن لا نعمل، وإذا رغبتنا في مواجهتهم لإنقاذ إخواننا المسلمين فلا بد وأن يكون عملنا أزيد من عملهم، وتحركاً أسرع من تحركهم.

وإن المواجهة تحتاج إلى تخطيط، وتنظيم واتساع المواقع، والتعرف الدقيق، فإذا ما فعلنا ذلك، كان ذلك بداية في طريق طويل.

أما أن نترك المسلمين في قارة إفريقيا وآسيا وغيرها فتترسهما النصرانية فإن ذلك أمر بالغ الخطورة.

وإذا كان للتبشير مؤتمرات دولية، ومعاهد علمية، وجمعيات تبشيرية، فلماذا لا تكون للمسلمين مؤتمرات للدعوة والمواجهة. وهنا ربما يقول قائل: للمسلمين مؤتمرات للدعوة كثيراً ما سمعنا وقرأنا عنها، نعم للمسلمين

مؤتمرات، ولكن الناس يجتمعون فيها لينفضوا، فهي تساوي مظاهرة في الشارع، فيها تصفيق وكلام، ثم يدخل كل واحد بيته.

نحن نريد مؤتمرات لا تكون توصياتها وقراراتها حبراً على ورق، وإنما نريد عملاً يعمل في دقة وتخطيط وسرية.

إن المجتمعات الإسلامية تعاني من التسلط التبشيري في الصحافة وسائر وسائل الإعلام ووكالات الأنباء، وتعاني في البيت وفي الشارع وفي أمور كثيرة، قد يعرفها البعض ويسكت، وما أكثر الساكنين لأنهم لا يملكون أن يقولوا شيئاً، إنك ترى برنامجاً في التلفزيون ينطلق من دولة إسلامية عربية فيشدك إلى مزارع وحدائق خضراء بأندونيسيا ومستشفيات ومدارس أخذت بيد الأندونيسي يقال عنها إنها: «من صنع وإدارة وأعمال الكنيسة الكاثوليكية، هكذا تسمع وترى، ولا يخفى أن هذه الدعاية التبشيرية نصرانية، ومن الغريب والعجيب أنك ترى في أسواق الصحافة في بعض البلاد الإسلامية، ما هب ودب، وهو وهي، من المجلات والصحف، وتمنع من الدخول والوصول لبعض المجلات والصحف الإسلامية، لماذا؟ لأنها إسلامية، وكل ما هو إسلامي يقض مضاجع المبشرين، ومن المؤلم حقاً أنك تجد عند باعة الصحف مئات المجلات في كل التخصصات ما عدا الإسلام، فمجلاته قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة. ويبدو أن هذا ربما تكون وراءه أجهزة تبشيرية، حتى لا يكون هناك التأثير الذي يمنع من التأثر بالتبشير، إن أمتنا الإسلامية مطالبة بأن تبصر العواقب، وتتعرف على خطواتها بحكمة وتدبر قبل أن يتسع الخرق على الراقع. إن التبشير نجح في تنصير البعض، ونجح في أنه جعل المسلمين في موقف المدافع وهو موقف المهزوم، فهل تدارك هذه المواقف، وتخطاها إلى موقف المواجهة؟

أولاً: علينا أن ندرك تماماً أن هؤلاء لا يبشرون بدينهم وعقائدهم، أو يعملون على تحويل المسلم عن الإسلام، إلا في حالة إدراكهم أن المسلمين غير مهتمين بالإسلام، سلوكاً وتطبيقاً، ومن هنا كان علينا أن تكون موجهتنا للتبشير عملاً يعمل ويهتم بإنشاء المدارس والمستوصفات، والملاجيء، ورعاية

الأيام، واللقطاء، والمسنين، ويصاحب ذلك توعية إسلامية، وتبشيرية بالإسلام.

ثانياً: إن ما يقوم به التبشير النصراني في إفريقيا والمجتمعات الإسلامية المختلفة، من بناء المستشفيات الخيرية، والمدارس وغيرها مما يقدم للإنسان، هو عمل خيري في الدرجة الأولى، لأن الإنسان في مثل هذه المجتمعات في حاجة إلى من يقدم له يد العون أو المساعدة بالعلم، والخبز، والعلاج، فإذا ما أراد المسلمون المواجهة العملية، فعليهم أن يعملوا مثل ما يعمل المبشرون ويزيدون عليهم.

ثالثاً: يجب أن يدرك المسلمون أن التبشير يملك إمكانات هائلة: مادية وبشرية، فمواجهتنا للتبشير يجب أن تتوفر لها الإمكانيات المادية، والطاقات البشرية.

رابعاً: لا بد وأن نواجه التبشير من خلال مخطط دقيق، ينفذ بحكمة وبصيرة، توزع الأدوار ليكون هناك التكامل الواعي.

خامساً: يصاحب ذلك كله هجوم ونقد للأفكار الغربية والتبشيرية، لنتنقل من مرحلة المواجهة – (الدفاع) – إلى مرحلة الهجوم والنقد.

ثالثاً:

وإذا كنا عرفنا كيفية مواجهة الاستشراق، وكيفية مواجهة التبشير – وهما أصلان رئيسيان لكل أدوات الغزو الفكري وتياراته في المجتمعات الإسلامية – فإن هذه المواجهة لا تتم إلا إذا قامت أجهزة الإعلام في الشعوب الإسلامية بأمرين:

الأمر الأول: أن تقف أجهزة الإعلام من (صحافة، وإذاعة، وتلفزيون، ومسرح، وسينما، وفيديو) عن تقديم أي شيء يتنافى مع مبادئ الإسلام، لأنه لا فائدة من مواجهة الفكر الاستشراقي والتبشيري في الوقت الذي نجد فيه أجهزة الإعلام، تمور بكل ما هو مخالف للإسلام من عربي، وخلاعة، وتقاليد غريبة.

والأمر الثاني: أن تواكب مؤسسات الإعلام هذه المواجهة، فتتناولها وتقف من ورائها، وتعمل على مساعدتها بالتوجيه.

وقد لا يكون المرء مجاناً للصواب إذا تأكد لديه أن مؤسسات الإعلام في بعض المجتمعات الإسلامية، قد نجح الاختراق الاستشراقي والتبشيري في الوصول إليها، عن طريق عملائه الذين يديرون شؤونها، ولذا كان لا بد من تظهير مؤسسات الإعلام من هؤلاء العملاء الذين وقعوا فريسة الغزو الفكري، وتربوا في مدارسه ومعاهده.

رابعاً:

أن تتوجه النقود إلى أي أثر من آثار «الغزو الفكري» الموجود بالمجتمعات الإسلامية دون مجاملة لهذه المجتمعات، وأقول هذا، لأن كل مجتمع إسلامي يحب أن يمدح فقط. وقد يكون فيه من البلاوي ما فيه.

ومشكلتنا: أننا نفرح بالمدح، ويجمال بعضنا بعضاً على حساب ما يمس شخصيتنا وإسلامنا. يجب أن نضع في الحساب أن أي مجتمع إسلامي هو مجتمعنا دون عنصرية أو إقليمية أو قومية أو حزبية، وبهذا نستطيع أن نتمكن من المواجهة، وتقديم النصيحة.

خامساً:

لا بد وأن تتجه جهود المصلحين في المجتمعات الإسلامية، إلى التربية لأن المبادئ الإسلامية بمفاهيمها الأساسية، ومناهجها التربوية، تصنع شخصية متميزة لها سماتها وغاياتها الخاصة.

ولعل أخطر ما استهدفه الغزو الفكري في برامج التخريبية، هو هدم شخصيتنا الإسلامية: عقدياً، وثقافياً، وسلوكياً، وعاطفياً...

ولعل معاول «الغزو الفكري» التي أصابت الكثير، لم تؤثر إلا من جراء انهدام الشخصية الإسلامية.

ولهذا كان لا بد من اتجاه فريق من المصلحين إلى تربية الأجيال، تربية إسلامية، تتولى المسؤولية والإدارة.

* تربية تجعل الإنسان إيجابياً يعيش في حركة فكرية، ونفسية، وجسدية، بناءة بعيداً عن السلوك التخريبي.. رافضاً التحجر والجمود.. لا يرضى بالسلوك الانسحابي الذي يتهرب من نشاطات الحياة، ويتعد عن مواجهة الصعاب.

* تربية تؤهل الإنسان للعطاء، وتنمي فيه القدرة على الإنتاج والإبداع، بما تفتح له من آفاق التفكير والممارسة.

* تربية تعد الإنسان إعداداً إنسانياً ناضجاً لممارسة الحياة بالطريقة التي يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام، لأن الحياة في نظر الإسلام: عمل، وبناء، وعطاء، وتنافس في الخيرات..

* تربية تجعل الشخصية الإسلامية شخصية متزنة، لا يطغى على موقفها الانفعال، ولا يسيطر عليها التفكير المادي، ولا الانحراف الفكري المتأتي من سيولة العقل وامتداد اللامعقول..

* تربية تبني الإنسان على أساس وحدة، فكرية، وسلوكية، وعاطفية، متماسكة.. على أساس من التنسيق، والتوافق الفكري، والعاطفي، والسلوكي. الملتمزم، الذي لا يعرف التناقض، ولا الشذوذ.

* تربية تجعل الإنسان المسلم يشعر دوماً أنه مسؤول عن الإصلاح، وأنه يجب عليه أن ينهض بمسؤوليته، ويقود نحو شاطئ العدل والسلام.

* وإن أمتنا تتطلع إلى غدٍ مشرق، والتطلع يحتاج إلى علم وعمل، وجهود بناءة تكون علامات مضيئة في الطريق.

الدكتور أحمد عبد الصميم السامح

المصادر والمراجع

- ١ - ابن نبي .
مالك : إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ط . دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩ م .
- ٢ - أسد .
محمد : الإسلام على مفترق الطرق، ط . دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧ م .
- ٣ - البهي .
الدكتور محمد البهي : الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي، ط . دار الفكر ١٩٧٢ م .
- ٤ - التميمي وآخرين .
عز الدين الخطيب التميمي : نظرات في الثقافة الإسلامية، ط . دار الفرقان، عمان ١٤٠٤ هـ .
- ٥ - الجندي .
أنور : إطار إسلامي للفكر المعاصر، ط . المكتب الإسلامي، ١٩٨٠ م، بيروت .
- ٦ - الجندي .
أنور : شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، ط . المكتب الإسلامي ١٤٠٣ هـ .
- ٧ - الجندي .
أنور الجندي : المد الإسلامي في القرن الخامس عشر، ط . دار الاعتصام بالقاهرة، ١٩٨٢ م .

- ٨ - حسن .
محمد أمين حسن: خصائص الدعوة الإسلامية، ط. مكتبة المنار، الأردن.
- ٩ - حسن .
د. محمد إبراهيم، الاستشراق وأثره على الثقافة العربية، مجلة رسالة الخليج العربي، عدد رقم ٢٣، ط. الرياض، مكتب التربية العربي، لدول الخليج.
- ١٠ - حسين .
د. محمد محمد: الإسلام والحضارة الغربية، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- ١١ - خان .
وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ط. المختار الإسلامي.
- ١٢ - الخربوطلي .
علي حسن: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٦م.
- ١٣ - الخطيب .
د. عمر عودة: لمحات في الثقافة الإسلامية، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- ١٤ - الخطيب .
محب الدين الخطيب: الغارة على العالم الإسلامي، ١٣٨٤هـ.
- ١٥ - خليل .
د. عماد الدين: المستشرقون والسيرة النبوية، ط. دار الثقافة بالدوحة، ١٤١٠هـ.
- ١٦ - زقزوق .
د. محمود حمدي: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط. كتاب الأمة، دولة قطر، ١٤٠٤هـ.

١٧ - السباعي .

د. مصطفى: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ط. المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٨ - السباعي .

د. مصطفى: الاستشراق والمستشرقون، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٥م.

١٩ - السايح .

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ط. دار اللواء السعودية، ١٤٠١هـ.

٢٠ - السايح .

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح: التيارات الفكرية والحركات المعاصرة، ط. دار الطباعة المحمدية، بالقاهرة، ١٩٩٠م.

٢١ - السايح .

د. أحمد عبد الرحيم السايح: العلاقة بين الاستشراق والتبشير، ط. كلية أصول الدين والدعوة بشبين الكوم، مصر ١٩٨٩م.

٢٢ - السايح .

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح: معارك حاسمة في حياة المسلمين، ط. دار اللواء بالرياض، ١٤٠٩هـ.

٢٣ - السايح .

د. أحمد عبد الرحيم السايح: هذا هو الإسلام، ط. دار الثقافة بالدوحة، ١٩٨٩م.

٢٤ - سمايلوفتش .

د. أحمد: فلسفة الاستشراق، ط. دار المعارف بمصر.

- ٢٥ - ضياء الدين .
 د. حسن: الاستشراق، مجلة كلية الشريعة، العدد الخامس، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ.
- ٢٦ - طه .
 د. عزية: من افتراءات المستشرقين على أحاديث التوحيد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ع ١٣، رمضان ١٤٠٩هـ، مجلس النشر العلمي بالكويت.
- ٢٧ - الطهطاوي .
 المستشار محمد عزت إسماعيل، التبشير والاستشراق، ط. مجمع البحوث الإسلامية، بالأزهر، ١٣٩٧هـ.
- ٢٨ - العقيلي .
 نجيب: المستشرقون، ج ١ و ج ٢، ط. دار المعارف بمصر.
- ٢٩ - عمارة .
 الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ط. الأمانة العامة للدعوة بالأزهر، ١٩٨٨م.
- ٣٠ - العمري .
 الدكتورة نادية شريف العمري: أضواء على الثقافة الإسلامية، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٦هـ.
- ٣١ - فروخ .
 د. عمر فروخ والخالدي: التبشير والاستعمار، ط. المكتبة العصرية، بيروت.
- ٣٢ - فروخ .
 د. عمر: الاستشراق في نطاق العلم وفي نطاق السياسة من كتاب المستشرقين والإسلام، ط. الهند.
- ٣٣ - قطب .
 محمد قطب: واقعا المعاصر، ط. مؤسسة المدينة، جده، ١٤٠٧هـ.

- ٣٤ - القارىء .
- الشيخ عبد العزيز: المستشرقون في الميزان، من محاضرات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٣٩٣هـ.
- ٣٥ - الكيلاني .
- د. نجيب: الإسلام والقوة المضادة، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ.
- ٣٦ - اللبان .
- إبراهيم عبد المجيد: المستشرقون والإسلام، ط. إدارة الثقافة بالأزهر، ١٩٦٨م.
- ٣٧ - لوبون .
- الدكتور جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط. الثانية، ١٩٤٨م.
- ٣٨ - مجلة المنهل .
- عدد متخصص: الاستشراق والمستشرقون، رمضان وشوال ١٤٠٩هـ، عدد رقم ٤٧١، جدة السعودية.
- ٣٩ - محمود .
- د. عبد الحلیم: أوروبا والإسلام، ط. منشورات المكتبة العصرية، بيروت.
- ٤٠ - محمود .
- الدكتور علي عبد الحلیم محمود: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ط. جامعة الإمام، ١٤٠١هـ.
- ٤١ - الميداني .
- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة، ط. بيروت، دار القلم، ١٩٧٧م.
- ٤٢ - الندوة العالمية للشباب الإسلامي .
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط. الرياض، ١٤٠٩هـ.

٤٣ - الندوي.

أبو الحسن علي: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، ط. دار العلم الكويت، ١٩٨٣م.

٤٤ - النعمة.

إبراهيم النعمة، المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري، ط. شركة ومطبعة الزهراء، العراق، ١٩٨٦م.

٤٥ - النقرة.

د. التهامي: القرآن والمستشرقون، مناهج المستشرقين، ج ١، ط. مكتب التربية لدول الخليج العربي، ١٩٨٥م.

٤٦ - الواعي.

الدكتور توفيق يوسف: الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ط. دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨هـ.

المسأمون وتحديات الفكر المعاصر

إعداد

أبي لقاسم البيهقي الخنار
المدرس في الجامعة الإسلامية بالنيجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المدخل الرئيسي :

يندهش الكثير من المؤرخين من السرعة الفائقة التي انتشر بها الإسلام في أقاليم شاسعة، متباعدة من الأرض، قد اكتسح إمبراطورية الفرس، وهزم الروم في الشام ومصر وشمال أفريقيا، ولاحقهم حتى توقف مؤقتاً على أبواب القسطنطينية التي سقطت فيما بعد، وتابع مده في شبه جزيرة أربيا، وواصل إلى جبال البرانس، واتجه شرقاً إلى تركستان وتوغل في الهند، وأصبح للمسلمين السيطرة على أجزاء كبيرة من حوض البحر الأبيض المتوسط، وعلى سواحل شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلسي، واجتاز الصحراء جنوباً، فهدت أنواره الركاب في متاهات الصحراء، وأضاءت الغابات، وسارت السفن بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ في نهر السنغال ونهر النيجر.

ونرى هذا الدين الحنيف، هذا الدين الحق، هذا الدين السمح، قد استقر في البقاع، وأسس حضارة مزدهرة، وهذب أخلاقاً، وقوم سلوكاً، وأنشأ علوماً وفكراً وثقافة، وشيد جامعات ومدارس، وحول المساجد دوراً للعلم والعبادة، وصهر شعوباً مختلفة جنساً، ولوناً، ولساناً، وعادات، وأرضاً، وأنماط سلوك، في بوتقة كادت أن تكون واحدة أزال الحواجز، ومهد سبل الاتصال، وشجع التفاعل المثمر، وحذر من التباعد والتخاصم والتشاحن، ودعا إلى التعاون والتضامن وتقوية أواصر المعرفة بين المسلمين، وألح على أهمية العلم والتفكير في ملكوت الله، والبحث عن المعرفة، ولو تجشم الطالب في سبيلها المشاق والمتاعب. وكانت أولى السور التي نزلت من الذكر الحكيم تصر على القراءة

والعلم: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ۞ .

ردها المسلمون، وفهموها فترة من التاريخ، فانكبوا على العلم، وبحثوا عن المعرفة في كل مظانها، وذلوا في سبيلها المشاق والأهوال، فصمدوا، فكان لهم ما أثبتته التاريخ من ازدهار معرفة، وثناء حضارة، فكانت الجامعات والمدارس ودور الحكمة، فالبحث والمثابرة، فالإنتاج الضخم العملاق، فإذا بمشاعل الفكر والمعرفة الإنسانية مضيئة في أيديهم، يهدون بها البشرية رداً من الزمن، فاقبست منهم شعوب، وغرفت من معارفهم: في الطبيعة، والكيمياء، والرياضيات، والفلك، والفلسفة، والشريعة، والتاريخ، والجغرافيا، والرحلات، وفي مجالات أخرى من أنواع الفكر الإنساني وحضارته وآدابه.

* * *

الصراع المبكر:

إن هذه اللمحة التاريخية لم تشر إلا إلى ما كان معروفاً لدى كل متابع نزيه لمسيرة الإسلام، ذلك الدين الذي رغم مواجهته - منذ سطوع نوره - للفكر الوثني الجاهلي، والكتاب المبدل، استطاع - بعون الله - أن يصمد أمام كل المواجهات الاضطهادية والحربية والنفسية والفكرية، حتى أن محمداً المصطفى صلوات الله عليه وسلامه لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا والدولة الإسلامية قد رست بأسسها في المدينة المنورة.

وكلما انتشر الإسلام واتسعت رقعته، وتباينت الشعوب التي أفاض الله عليها بنوره، وتنوعت ثقافتها وعاداتها، وضخم تراثها الفكري، وضحت قوة مبادئ الإسلام، وأصالتها، ومقدرتها على التأثير العميق الفعال في الشعوب، إذ ما لبث الإسلام أن احتوى أقدم الحضارات من فارسية ورومية ومصرية وهندية وغيرها، فهذبها ووجهها، واستوعب فكرها، وحفظه، وأضاف إليه. وكان الإسلام قد قوم قبل ذلك رعونة البدو، وبطل الكثير من عاداتهم السيئة، وقادهم

إلى الاستعصام بحبل الله المتين، فأصبحوا أمة رائدة، بعد أن كانوا قبائل متناحرة يترص بعضها لبعض، تسفك بينها الدماء لأتفه الأسباب، وتجر فيها الحروب أذيالها عشرات السنين بلا وعي، ولا منطق مقبول، يولد فيها الأبناء، ويموت الآباء. ولما جاء الإسلام أُلّف بين القلوب النافرة، المتنافرة، المتناحرة، قلوب لو أنفق البشر ما في الأرض جميعاً ما تألفت. ولكن الله أُلّف بينهم، وكان ذلك من معجزات الإسلام الخالدة.

وكان العصر العباسي الأول مثلاً لمئاته مبادئ الإسلام وصلابة أسسه، فقد اشتبك على ميادين مكشوفة مع حضارات وفلسفات قديمة رسخت منذ قرون، وقام على فكرها وأيديولوجياتها شعوب ودول كانت آنذاك ذروة المد التاريخي والحضارات المعروفة، فهيمن عليها واحتاها، وهذبها ونقاها بعد أن عرضها على موازينه، موازين القسط، موازين عقيدة الإسلام، عقيدة (لا إله إلا الله محمد رسول الله). عقيدة قامت على تحصيل ضمير المسلم وجعله حياً يقظاً إلى درجة أنه لا يحتاج إلى عيون تتجسس عليه، ولا إلى عسس يترقبونه في حركاته وسكناته فأصبح قوياً في ضميره، عزيزاً في نفسه، متواضعاً في سلوكه، بشوشاً في وجهه، سموحاً في معاملاته، جاداً مخلصاً في عمله، يرجو به ثواب ربه في دنياه وآخرته، فلم يكن امعة يسير بلا هدي وراء الآخرين، ولا يشعر في نفسه بأي مركب نقص، ولا يخاف إلا من الله خالقه.

فإنه رغم تدفق هذه الحضارات العريقة، وتشجيع خلفاء بني العباس للحركة العلمية والفكرية، وتنافس العلماء والشعراء، والكتاب، والتراجمة، وتنافس الأعيان، والوزراء في اقتناء الكتب، وإنشاء المكتبات ودعم العلم والعلماء، ورغم حرية القول، وانتشار مجالس المحاورات والمناظرات بين العلماء والأدباء وأهل الملل من مختلف الأجناس والديانات من مسلمين وفرقهم، ونصارى ومذاهبهم المختلفة، ويهود، وصابئة، وزرادشتيين، ومانويين... إلخ.

فرغم كل هذا، فقد بقي الإسلام ثابت الأساس صامداً صمود الحق

لا يتزعزع، بل هيمن على كل علم وفكر وكل ثقافة جرى معها في حلبة السباق، فإذا بأرسطو وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم ينطقون باللغة العربية بعد أن صارت لغة الذكر الحكيم، لغة الإسلام الخالد، وفكره المزهري، وحضارته الرائعة.

بصمات الإسلام على الفكر الإنساني:

ولقد ترك الإسلام بصماته في كل مجالات المعرفة الإنسانية، فلم يكف بالنقل، ولم يرض بحفظ الأسفار وحملها كالحمار، بل محص المعرفة الإنسانية فميز غنها من سمينها، ووضعها على موازينه، موازين عقيدته الصافية، فلم ينهر ببهرجتها، ولم يقع في حبالها، بل نقدها نقد العارف الفنان الواثق بنفسه، فتناولها علماءه بالشرح والبيان، ونموها، وزادوا عليها فأبدعوا على ربط الروح بالمادة ومزج الدين بالفكر وتوجيه المجتمع الإسلامي في إطار ينتظم الأخلاق والقيم الدينية، في انسجام وتناسق وتعاون وتكامل بين الدين والدنيا، وبين الحياة العاجلة المرحلية والحياة الآجلة الأبدية.

الإسلام منهج كامل للحياة البشرية:

فالإسلام نظم جميع نشاطات الإنسان، في حياته الروحية والأخلاقية كما في حياته الاجتماعية والسياسية. «لم يتطلب الإسلام قناعة ببعض الحقائق فحسب، بل فرض مجموعة من الفرائض التي تتحكم في التنظيم الزمني لأمة المؤمنين، على هذا الوحي استندت حياة المسلم، ومن حوله انتظم — منذ حقبة قديمة — العالم الإسلامي الإمبراطوري وحضارته»^(١).

«فالإسلام، إذن، لم يكن ديناً بالمعنى المحدود، أو المعنى اللاهوتي الصرف، ولم يكن، ولن يكون مثلاً للجانب الروحي الخاص بالعلاقة بين الله والإنسان على النحو الذي فهمه الغرب من الدين، وإنما الإسلام أشمل وأعم من

(١) دومنيك وجانين سوردييل: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، الجزء الأول: ص ١٠١، ترجمة ديمون بلوخ، طبعة دار الحقيقة، بيروت.

ذلك، فهو منهج كامل شامل، وهذا الجانب اللاهوتي جزء منه لا ينفصل. ومن هذا فإن كل ما يقال عن عزل الدين عن التربية أو التاريخ أو الأدب أو الاجتماع أو الأخلاق أو السياسة، إذا جاز في عرف الغربيين، فإنه لا يجوز عند تطبيقه على الإسلام الذي ليس ديناً على النحو الذي عرفه الغرب»^(١).

«الإسلام منهج، منهج حياة، حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها، منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود، ويحدد مكان الإنسان في هذا الوجود، كما يحدد غاية وجوده الإنساني. . . ويشمل النظم، والتنظيمات الواقعية التي تنبثق عن ذلك التصور الاعتقادي، وتستند إليه، وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر، كالنظام الأخلاقي والنبوع الذي ينبثق منه، والأسس التي تقوم عليها، والسلطة التي يستمد منها، والنظام السياسي وشكله وخصائصه، والنظام الاجتماعي وأساسه ومقوماته، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته، والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته»^(٢).

وهذه الشمولية هي جوهر مشكلة الإسلام مع الأيديولوجيات والعقائد الأخرى وأذنانهم.

أثر عقيدة الإسلام:

وهذا الفهم العميق الشامل لعقيدة الإسلام وما انبثق عنها من فكر ومثل وأخلاق ونظم وحكم وسياسة وعلم واقتصاد وشريعة وثقافة وحضارة، هو الذي حدا بالمسلمين أن يقوموا بدور رائد في الفكر الإنساني وحضارته وثقافته. فهم رواد المعرفة الإنسانية بكل أبعادها ومنقحي سلوك هذا الذي استخلفه الله في الأرض واستعمره فيها.

وبهذه العقيدة نشر المسلمون دين الله الحق، ودحروا الإمبراطوريات.

(١) الأستاذ أنور الجندي: أصالة الفكر العربي الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي: ص ١٠٤

— كتب إسلامية — العدد ١٠٠. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

(٢) الأستاذ سيد قطب: المستقبل لهذا الدين: ص ٣، طبعة مكتبة وهبة، القاهرة.

ويكفيها دليلاً على أن قوة عقيدة الإسلام هي التي تجعل المؤمن يسعى إلى الشهادة وإلى العمل في سبيل الخير العام، ما حدث في غزوة بدر من^(١) الصحابي الجليل عمير بن الحمام الأنصاري، فإنه لما سمع رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فقال يا رسول الله: جنة عرضها السماوات والأرض؟! ولما رد عليه الرسول بالإيجاب. قال: بَخْ بَخْ. قال رسول الله: وما حملك على قول: بَخْ بَخْ؟ قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. فقال: فأنت من أهلها... فألقى تمرات كان يأكلها، إذ رأى أن الوقت الكافي لأكلها طويل، وهو في شوقه إلى لقاء ربه وتفضيل ما لديه من الرضا لم يعبأ بهذه الحياة الفانية بل تعجل ما وعده به تصديقاً لنبيه، فانطلق إلى الشهادة، انطلق إلى جنة عرضها السماوات والأرض، انطلق إلى الحياة الحقيقية فرحاً بما آتاه من فضله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَسَتَّابِرُونَ لِلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٧﴾ سَتَّابِرُونَ يَنْتَعِمُونَ مِنَ اللَّهِ وَقَضَى وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ ﴿٢﴾.

وإذا عاد الإنسان أي إنسان بهدوء، ومن غير خلفيات، ونظر من غير غشاوة، وتمعن في حروب المسلمين مع أعداء الإسلام، وجد أن القاعدة المحورية في انتصاراتهم كانت تلك العقيدة الصادقة، وإلا كيف تعلق قيام حفنة من الناس عزلاً تقريباً من السلاح للتصدي لألف مدججين بالسلاح، كما في غزوة بدر الكبرى، وفي مواقع كثيرة: في القادسية، في اليرموك، وفي معركة طارق بن زياد مع الملك لذريق وفي غيرها كثير... فالمسلمون انتصروا بقوة هذه العقيدة في نفوسهم وما تستلزمه من طاعة ربهم ورسولهم. وهذا واضح في كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وصاياه إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد: (أما بعد فإني أمرك ومن معك من الأجناد

(١) انظر القصة في فقه السيرة، للداعية محمد الغزالي عند الحديث عن موقعة بدر الكبرى.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ - ١٧١.

بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وأمرك ومن معك بأن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عدونا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا لم نصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا^(١).

والفصل في هذا قوله تبارك وتعالى في الذكر الحكيم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُذِيبَ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٢).

وأما عبدة الله على حرف، الذين إذا أصابوا خيراً اطمأنوا به وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم، فهم الخاسرون دنياهم وأخراهم، وذلك هو الخسران المبين. وأخاف أن يكون هذا حال كثير من الذين يدعون الإسلام. ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْئَلْ عَنْ قُتُولِهِ﴾^(٣).

مواجهة جديدة بين الإسلام والفكر الغازي:

أولاً - الغزو العسكري:

إن صراع الحق مع الباطل سمة هذه الحياة، فمنذ قاسم الشيطان آدم وحواء، يؤكد أنه لهما من الناصحين، فدلاهما بغرور، فأوقعهما، فاهبطوا جميعاً إلى الأرض مستقراً لهم ومتاعاً إلى حين.

فالباطل بجنوده من الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، والنفس الأمانة بالسوء تروج وتزين وتجذب إلى مباحج الحياة وملاذها الخلافة... واخترع لدعم الباطل من وسائل الدمار المادي والمعنوي، خلال حياة الإنسان الطويلة على الأرض، ما وصل في تطوره إلى قمة الخيال. وإذا

(١) انظر العقد الفريد.

(٢) سورة محمد: الآية ٧.

(٣) سورة فصلت: الآية ٤٩.

علمنا أن هذه الوسائل تسيطر عليها الرأسمالية العالمية الملحدة، والأيدولوجية المارقة، أدركننا مقدار ما تتعرض له من خطر وما يواجهنا من هجمة شرسة تستهدف تحطيم ديننا، تحطيم قيمنا، تحطيم مثلنا، تضليل فكرنا، ومسخ حضارتنا وإحلال محلها حضارة الآخرين لتكون ذليلاً نتبع ولا نُحترَم، ونُجر في إرضاء مصالح الغير.

إن الغزو العسكري الذي بدأت به الحروب الصليبية منذ قرون في الشرق الإسلامي وفي غربه لم يتوقف، كما يظن البعض، فهو صراع بين الحق والباطل، صراع بين التوحيد والضلال، صراع بين الحضارة الإسلامية التي رست أسسها على شهادة التوحيد، وعلى الذكر الحكيم، وعلى سنة خير الورى محمد ﷺ، وعلى التراث الإسلامي العظيم، وعلى فكره السامي الذي تناول كل جوانب الحياة البشرية، مادية كانت أم روحية، وبين حضارات قامت في أساسها على الوثنية وعلى أيدولوجيات مادية، وعلى أديان محرقة.

إن الصراع لم يتوقف، ولن يتوقف، وإنما يهادن لالتقاط أنفاسه، ويخاتل لإحكام خطه.

إن الفرنسيين، بعد أن احتلوا الشام ولبنان، واحتلوا جزءاً من ليبيا، واحتلوا تونس والجزائر والمغرب وأجزاء كبيرة من غرب أفريقيا ووسطها، لم ينسوا قيادة ملكهم للحروب الصليبية، ووقوعه في أسر المصريين وسجنه في دار ابن لقمان بالمنصورة وقول شاعرهم بهذه المناسبة:

«وقل لهم إن أضمرنا عودة لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح»^(١)

والإنجليز لم ينسوا بعد احتلالهم العراق وفلسطين ومصر إحياء ذكرى قيادة ملكهم ريتشارد الأول قلب الأسد للحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩١م ومعاركه مع المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي. واللورد النبي لم ينس في القدس

(١) الأستاذ محمد مصطفى زياد. حملة لويس التاسع على مصر: ص ٣٠٣، ٣٠٤.

سنة ١٩١٨م بعد أن دخلها مع قوات الثورة العربية أن يقول: «الآن انتهت الحروب الصليبية». وأن يقول في دمشق، متشفيماً يزهو كالتطاووس، وأوسمة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، تلمع على صدره: «هانحن قد عدنا إليك يا صلاح الدين»^(١).

والمحزن أن تمر هذه المواقف علينا نحن المسلمين، ونستصغرها وهي عظمة بعيدة المدى واضحة المعنى، قوية التعبير، تنم على الحقد والضغينة والكيد والمكر. وقد أثبتت تصرفات أعداء الإسلام، ومؤامراتهم ما تعني كلمة اللورد اللنبي، فقد أخلفوا كل وعودهم، ونفذوا ما كانوا يبيتونه ويتوason عليه أباً عن جد، وجيلاً عن جيل، ويضحكون على طيبتنا وبلادتنا. فبعد أن أغروا بعضنا ببعض، وزودوا بالسلاح... وخدعوا بالوعود الخلافة... انتهوا من تقطيع أوصال أمة الإسلام، فها نحن اليوم بعد كل اللكمات لا زلنا نغط... بلا وعي، ويتكالب بعضنا على بعض، تُحاك المؤامرات، وتُشن الحروب، ويُستنجد بالأعداء الذين يراقبون عن كثب ما يجري في الميدان، ويزيدون النار اشتعالاً ويزرعون الفتنة، ويغرسون إسرائيل في قلب أمة الإسلام، ويسارعون إلى احتضانها بعد أن قضوا على آخر رمز للخلافة الإسلامية «فانفرط العقد» فيؤججون القوميات الجاهلية التي اتخذت سلاحاً للفتك بالإسلام والمسلمين. وكأن هؤلاء المسلمين لم يعلموا بما فعل رسولهم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام عند وصوله إلى يثرب، وهو في صدد وضع أول نواة لدولة الإسلام، ومجتمع الإسلام، حين آخى بين المهاجرين والأنصار على أساس من رابطة الإيمان التي هي أقوى من رابطة الدم في الإسلام. ومعروف قوله لدى كثير من المسلمين في حجة الوداع: «كلكم لأدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بتقوى الله». والذكر الحكيم صريح، ولا يحتمل أي تأويل: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِيَّاَنَا

(١) الأستاذ أنور الجندي. أصالة الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي: ص ١٧.

خَلَقْتُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ ﴿١١﴾

ثم بعد هذا يعطي المسلم الفرصة لأعداء دينه أن يضلوه، ويشحنوه بأيدولوجيات عُرفت معارضتها، بالضرورة، لدينه، فيتحول إلى آلة مدمرة تعمل لتقويض أمته، والقضاء على نفسه، فيخرب بيته بيده وبأيدي أعداء أمته.

ثانياً – الغزو الفكري:

أدرك المستعمرون أن الغزو العسكري محدود النتائج، ويصعب تأمينها، وبجانب كونها غير ثابتة، هو باهظ التكاليف، ويربى الكراهية والأصغان. فهزيمة جيش واحتلال أرض، وقتل وتعذيب الناس لا يغير من عقيدة الناس، بل يزيد الشعوب نفوراً، ويقوي فيهم عزيمة الدفاع عن الكرامة والشرف ولو أدى ذلك إلى العناء وسقوط أعداد كبيرة من الشهداء، وخاصة لدى المسلم الراسخ العقيدة.

وثورة الحجارة – كما يسميها البعض – في أرض فلسطين الجريحة دليل صريح على ذلك. فالحياة مع الذل والمهانة لا يُزِيل عارها، ويمحي هوانها إلا شرف الكفاح، وحتى الشهادة إن استدعى الأمر ذلك.

«العمرك ما للمرء خير في حياة إذا ما عد من سقط المتاع»

وإذا كانت هذه الحياة لا بد أن ينهيها الموت، طالت أم قصرت، فلم إذن يقبل الإنسان أن يعيشها مهاناً مركول الكرامة؟

وانطلاقاً من هذا المنعطف، لم يضيّع الغزاة الوقت، بل أخذوا يخططون ويعملون لإبعاد المسلمين عن دينهم، للسيطرة على عقولهم، وإبعادهم عن مثلهم وتشويه حضارتهم، فالاحتفاظ بهم سوقاً استهلاكية ضخمة رابحة تروج فيها تجارتهم الواسعة، تجارة متع الحياة ونعيمها الرخو الناعم، تجارة السيارات الفارهة، تجارة السلاح. وهذا يتطلب مسخهم خلقاً جديداً لا علاقة له بعقيدتهم وتاريخهم.

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

وللوصول إلى هذه الأهداف لا بد من خطة محكمة، خطة ذكية لا تُشم فيها رائحة الأهداف الخبيثة التي يرمون إليها. ولا بد من إخفاء الفخ بإحكام لتقع فيه الضحية... ولإنجاح العملية لا بد من تأمينها، ولتأمينها لا بد من إشعار الناس بالخوف بحيث يقتنعون بأنهم معرضون للخطر، وإدخال هذا الشعور في نفوسهم يجعلهم يقبلون بالاحتفاظ ببعض وسائل الاستعمار التقليدية في شكل اتفاقات أمن ودفاع ومستشارين ومدربين، ومرابطة قوات في أماكن حساسة، قوات سريعة الحركة على أهبة التدخل المباشر إذا اقتضت مصلحة المستعمر ذلك.

وبعد تأمين الخطة يبدأ التنفيذ وعلى مراحل، والتنفيذ يحتاج إلى ذكاء ومهارة فائقة. فيما أن الغزو لم يعد غزو قتل، بل غزو تخدير، غزو فكر لفكر، غزو ثقافة لثقافة، صراع حضارة وحضارة، فالأسلحة التي ستستعمل في الهجوم لا بد أن تكون من جنس أسلحة الدفاع والمقاومة، أسلحة الفكر، وهي أسلحة لا تبيد هياكل الإنسان ولكنها تقتل فيه روح العزة والكرامة وتبقيه جاهزاً للاستغلال تماماً كالأسلحة التي قيل إنها تقتل الحياة ولا تمس بأذى المدن، فتبقى صالحة للعمران.

فإذا بالمبشر الخبير، والطبيب المبشر، والكنيسة والمستشفى، وإذا بالمعلم والكتاب والمدرسة، وإذا بالصحافة والإذاعة والتلفزة، فإذا بالمعونات والهيئات والقروض المشبوهة المشروطة، والمؤسسات الخيرية، والمؤسسات الثقافية، وأندية الترفيه، وإذا بالضغوط السياسية من وراء الكواليس... جيوش جرارة تنطلق، ومجموعة مصائد محكمة التصميم، محكمة التنفيذ، محكمة التضليل، محكمة الزخرفة، قوية اللمعان، براق، تسحر العيون، وتجذب النفوس، وتضع الغشاوة على البصائر، وتخلط السم بالعسل، تقتل على مهل، وقد يأتي مفعولها بعد جيل أو جيلين.

وكل هذا لترويض عقلية الناس ومحو شخصيتهم بالقضاء على دينهم، على عقيدتهم الصخر الصلد الذي تهشمت عليه معاولهم، ونبت عنه سيوف الوثنية

الجاهلية من قبل، وصدع إمبراطورية الفرس والروم، وردّ الصليبية المتعصبة وقادتها من ملوك أوروبا الكبار من أمثال ريتشارد قلب الأسد ملك الإنجليز، ولويس التاسع ملك الفرنسيين الذي ترك ذكريات لا تنسى بالمنصورة.

إن الذي جهله، أو يتجاهله، بعض المسلمين أن الحرب الفكرية، الحرب الحضارية التي يخوضها الغرب المادي الرأسمالي الملحد ليست حرباً موجهة لدولة معينة، أو لشعب معين من دول الإسلام وشعوبه، بل هي حرب عامة، حرب عقيدة، حرب فكر وحضارة، لا يكون تركيزها على بلد أو على منطقة إلاّ خطة تكتيكية، استراتيجية، مرحلية، فهي كمحصرة حصن كبير عصى، فكل ثغرة وكل ثلثة تحدث فيه، وفي أي مكان تهيه وتساعد على تدمير بقية أجزائه وإن طال الأمد.

فلتزل الغشاوة، وليرفع الحجاب، وليفكر أهل الفطنة، ومن بقيت لديهم عقيدة الإسلام، أو لديهم غيرة على الإسلام. فليدرك الجميع أبعاد ما يتعرض له الإسلام من حرب شرسة تستعمل كل أنواع السلاح، وأخطر هذه الأنواع كلها سلاح الفكر، وأن السفينة إذا حُرقت غرقت، غرقت بكل ما فيها، الخارقين والذين لم يأخذوا على أيديهم في الوقت المناسب.

فالهجوم الفكري الثقافي يهدف إلى ترويض عقلية الناس ومحو شخصيتهم بالقضاء على دينهم وتغيير منطقتهم ليصبحوا هم أنفسهم المدافعين عن ساداتهم، هم أنفسهم الغيورين على ثقافة وحضارة جلاديهم، هم أنفسهم الناشرين لفكرهم، هم أنفسهم الساخرين من دينهم، هم أنفسهم العاملين لنقض كل شيء يتصل بحضارتهم وتراثهم، إذ يرون، من ضلالهم، أن سبب شقائهم وتأخرهم ناتج عن حضارتهم، فهم يعملون بحماس ونشاط وفعالية لهدم كل الأسس التي قام عليها تاريخهم وفكرهم وحضارتهم، ولا يحتاجون إلى توجيه، فعملهم هذا يستند إلى رغبة جامحة لديهم، فبعد أن مسخوا أصبحوا خلقاً جديداً. والناس لا تختلف الاختلاف الحقيقي بأشكالها، فاختلافها الحقيقي يتمثل في أفكارها ومفاهيمها، وتصرفاتها التي هي رد فعل لما يعتمل في الأذهان...

وهذه هي مرحلة الانهيار الكامل، وهي الانهزام الفكري الحضاري، وهي أمل الغزو الفكري، وهي الغاية التي يسعى إليها أعداء الإسلام، ويعملون ليلاً ونهاراً للوصول إليها.

المنطلقات المحورية للغزو الفكري :

إن الاكتساح الفكري يتم عن طريق مؤسسات معينة متخصصة في التعليم والتوجيه، ونشر الأكاذيب والافتراءات ضد الإسلام، وتلقينها وبثها في أوساط الشباب «خاصة»، والترويج لها بوسائل الإعلام وبطرق نفسية مدروسة.

أولاً - التعليم :

والتعليم هو الوعاء العام الذي حمل، وسرب عن طريقه كل السموم الضارة، والجراثيم الوبائية القاتلة، والأفكار الهدامة الملحدة، والثقافة المائعة المنحلة، هو أصل الشجرة التي امتدت منها الفروع ومن الفروع الأغصان.

فمن طريق التعليم نشرت القوميات التي مزقت أمة الإسلام، وعن طريق التعليم رسخت أساسيات العلمانية، علمانية الدولة، علمانية التربية، علمانية الفكر. وعن طريقه انطلقت سهام الفكر الضال الذي يستهدف تحطيم المثل التي قام عليها الإسلام، وشيدت عليها حضارتها، وعن طريق التعليم أنبثق من أمة الإسلام علماء ومفكرون وأدباء ومذيعون وفنانون وصحفيون كرسوا حياتهم لنقض الأسس التي قامت عليها حضارة الإسلام، أتوا بكل باطل مموه، ففسدوا الأخلاق ومزقوا شعوب الإسلام، وأصابوا النفوس بالإحباط، ومركب النقص...

وكان من الطبيعي أن يكون أول غرض لسهام الغزو الفكري التعليم، وبمعناه العام أي بإدخال التربية فيه، بمعناها الخاص. فهم يدركون أهمية التعليم كسلاح فعال عند توجيهه إلى الخير، وعند توجيهه إلى الشر، فعن طريقه تتم السيطرة على الإنسان، وإذا تمت السيطرة على الإنسان، تمت السيطرة على الأرض واستغلالها بريح وفيه ومن غير عناء.

والمثال التالي يأتي من مصر، وينسحب على كل بلاد الإسلام، بل في كل أرض فيها الاستعمار، وهو من تقرير «لورد كرومر» لسنة ١٩٠٦م:

«التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز إلى مصر كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين والتي كانت أساليبها الجافة القديمة!! تقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي، وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني!! ولا يصيبون إلاً قدراً ضئيلاً من مرونة التفكير والتقدير، فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبثت من داخله لكانت هذه خطوة جليلة الخطر.

ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمر غير متيسر تحقيقه، فحينئذ يصبح الأمل محصوراً في إصلاح التعليم الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح وعندئذ فسوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين: فإما أن يتطور، وإما أن يموت ويختفي»^(١). ويضيف المستشرق «جب»: «وفي أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطوة لأبعد من ذلك بإنماء التعليم العلماني تحت إشراف الإنجليز في مصر والهند»^(٢).

وهذا «زويمر» أحد زعماء التبشير، يقول على جبل الزيتون في القدس إبان الاحتلال الإنجليزي لفلسطين سنة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م: «لقد قبضنا، أيها الإخوان، في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، وإنكم أعددتكم نشئاً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظام، ويحب الراحة والكسل، ولا يعرف همه

(١) نقلاً عن: الدكتور علي محمد جريشة، ومحمد شريف الزبيق. في أساليب الغزو الفكري

للعالم الإسلامي: ص ٦٢، ٦٣. طبعة دار الاعتصام. سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

(٢) نفس المصدر السابق.

في دنياءه إلا في الشهوات... فإذا تعلم فللشهوآت، وإذا جمع المال فللشهوآت، وإن تبوء أسمى المراكز ففي سبيل الشهوآت وجود بكل شيء»^(١).

وهذه النصوص تلقي الضوء على ما يختمر في عقول غزاة العالم الإسلامي وما بيتوه - في وقت مبكر - لاقتلاع أسس الفكر الإسلامي وحضارته. فقد كانت التربية والتعليم أول ميدان يتجهون إليه، وهم بلا شك يعلمون أن هذا الميدان هو المصنع الخاص بتشكيل الإنسان وتوجيهه حيث يراد... فلم يقصروا، وقد وضعوا في الحسبان تكوين جيش مدرب مجهز بوسائل الغزو، ليضمنوا النجاح الباهر، فكان التركيز على التعليم لتكوين الناشئة على هواهم وعلى أسس تقوم على قطع صلتها بماضيها وحضارتها وثقافتها، فنشأ جيل وبعده أجيال لا تعرف من تاريخها إلا النقاط المظلمة، والافتراءات المضلة والأكاذيب المتعمدة فلم يروا إلا حكم الفرد والاستبداد والظلم وكبت الحريات وقصور الحریم والجواري ومجالس الخمر وسهرات الحشيش والغناء ومع كل أنواع الانحراف الخلقى.

فجاءت أجيال لا تعرف من دينها إلا أنه هو العائق لها، والحائل بينها وبين التقدم والازدهار واللاحاق بركب حضارة الغرب. فهو دين همجي لا يصلح إلا للبدو في مفازة الصحراء، وإلا للرعاع في الأدغال والغابات، أما الحضارة، أما الرقي والازدهار، أما الفكر المهذب العالي فلا يعرف أي شيء من هذا.

وبعد أن تأكد الغزاة من نجاح عملية التكوين، وتمت مراقبة هذه الأجيال المقطوعة الصلة بثقافتها وأعرافها، المشوه تاريخها وحضارتها، «وبعد أن أثبتوا جدارتهم وإخلاصهم لحضارة الغزاة وفكرها وثقافتها، وتأكدوا من شغفهم بها، وانبهارهم بمظاهرها وبهرجتها، سلموا لهم مقاليد الأمور من سياسية وتعليمية واقتصادية وتشريعية وتوجيهية، فصار مثلهم الأعلى أن يقتربوا ولو بشبر من حضارة سادتهم، إذ ما عداها ليس إلا رجعية وتأخرًا وتزمتًا». وقدیمًا قال

(١) نفس المصدر السابق.

ابن خلدون رحمه الله: (إن المغلوب دائماً مولع بتقليد الغالب). فقد اندفع هؤلاء يبذلون كل جهد في «تغريب» الشباب وزرع عقدة الشعور بالنقص، وفقدان الشخصية الإسلامية، حتى برز من بين هؤلاء أعداد جمعوا كل قواهم، وطرحوا كل قناع، فتبجحوا بأفكارهم، أفكار كلها افتراء وتهجم على الإسلام وتشنيع عليه، محاولة مخططة لزعزعة عقيدته من قلوب الجماهير التي لم تزل تقدس عقيدتها، وتمسك بكل ما يمت إليها بصلة رغم ما تعرضت، وتعرض له من حرب نفسية، في المدرسة، في الشارع، في الصحافة، في الإذاعة، في التلفزة بل وفي كل وسائل التعبير الأخرى من مسرح وسينما ورسم ونحت... (١).

الغزو الخارجي والتحطيم الداخلي:

وهكذا نرى كيف مكن الغزاة لهذه الفئات الممسوخة بعد أن أجروا لها عملية غسيل المخ وفرغوها تماماً من محتواها الفكري والحضاري القائم على عقيدة الإسلام، ووكلوا إليهم عملية التخريب الداخلي للنخر في جسم أمة الإسلام كالسوس. فهم يحاولون، وبكل إلحاح، نزع، أو على الأقل زعزعة عقيدة الإسلام من قلوب الشباب في المدارس والجامعات والأندية، ويبثون في كافة وسائل الإعلام والتثقيف المختلفة، ويتولون التوجيه فيها ويقومون بعملهم هذا بلا كلل ولا ملل، وبدعم تام من الغزاة وأذئابهم في المجتمعات الإسلامية.

وسائل التوجيه في أيدي أعداء الإسلام:

ومن المحزن أن نرى كل وسائل التوجيه في العالم الإسلامي في أيدي هؤلاء المخربين، ولا يتولاها إلا من أقام فترة في أوروبا أو في أمريكا، أو أثبت أنه خادم أمين لقوى الشر التي تعمل ضد الإسلام. فهؤلاء وحدهم القادرون على التخطيط والتوجيه وإدارة المؤسسات التربوية والتوجيهية والفنية، وهم

(١) القاسم البيهقي المختار. التحدي الفكري وآثاره في المجتمعات الإسلامية المعاصرة. بحث قدم إلى ملتقى الفكر الإسلامي الثالث والعشرين. تبسة. الجزائر.

المتحضرين، أما نحن المسلمين فلا نبلغ كعب هؤلاء العمالقة خدام الغرب، حتى في لغة القرآن وتربية الإسلام، مركب نقص خطير وإحساس بالدون يعصف بالمسلمين!!...

فقد وصل تأثير الفكر الغربي بهم أن فقدوا الثقة بأنفسهم، وإذا فقد الإنسان الثقة في نفسه ضاعت منه القدرة على العمل الجاد المبدع، وعاد خاملاً لا تسمو به نفسه إلا لتقليد غيره والعيش على جهود الآخرين، وأما أن يشعر بأن الذي عمل وأبدع، وكذ وأنتج، وثابر واخترع، معتمداً على ما أنعم الله به عليه من قوى فاعلة ليس إلا بشراً مثله فغير وارد لما أصابه من تحطيم وإحباط.

وقد وصلت هذه الحالة المزرية بالمسلمين أن اختفى المنطق في تصرفات الكثير منهم، وإلا فكيف يترك المسلم مؤسسات التعليم والتربية في العالم الإسلامي ويذهب إلى مجتمع غير مسلم، وفي مؤسسات تحارب الإسلام علناً أو من وراء أقنعة يخفي وراءها المكر والكيد، وتذر الرماد في العيون وتخذر العقول. ويذهب هذا لدراسة ماذا؟.

لعلكم إخوة الإسلام، تقولون: إنه ذاهب لدراسة الهندسة الذرية، أو الالكترونيات، أو شيء من هذا القبيل من تلك الأنواع لم يصل المسلمون فيها إلى مستوى مقبول... وقد يصاب المسلم بغثيان من الألم إذا علم أن هذا ذهب ليدرس العربية أو ليدرس التربية الإسلامية!! تربية إسلامية في باريس!! تربية إسلامية في شيكاغو!!.

«أسوأ البلايا ما يضحك». وقد أثبتت التجارب أن الكثير من هؤلاء المصابين بعبادة الغرب لا يعودون إلا بالقشور، قشور غير مهضومة، تتمثل في أفكار هدامة للأسس التي قام عليها الفكر الإسلامي، وأنهم لا يعرفون كما ينبغي لغة البلاد التي عادوا منها، ويجهلون لغة القرآن، ورغم أن بعضهم يدعي العروبة!! فهم إن أرادوا أن يكتبوا بها شحت قرائحهم، وإذا سمحت، منحت ما يثير السخرية والشفقة معاً وإذا تباحثت مع أحدهم شاح بوجهه وورم أنفه لتغطية هزال فكره، وإذا قبل إنكشفت ضحالته، «فإذا بالجبل الشاهق يلد فأراً»

يمتاز عن جنس الفئران بأنه قزم يفتقد ذكاء هذا النوع من الفئران التي نجدها في مراكز الأبحاث.

من قضايا العصر ذات الأثر الخبيث: العلمانية:

العلمانية (Le lairisme) من الأيديولوجيات التي يحيطها الغموض لدى الكثير من المطبلين لها، فأغلبهم يتخبط فيها من غير معرفة لحقيقة الهدف، يسير في الركب لا لشيء إلا لأن الغرب نادى بها!، وكنت دائماً ألتمس من أدمعاء المعرفة أن يكشفوا لي حقيقتها... وقد جرى حوار بيني وبين شخصية إسلامية كانت تتولى منصباً إسلامياً سامياً. قلت للمسؤول الإسلامي ذي الثقافة الغربية: إن كثيراً من دول العالم الإسلامي تقول إنها ديمقراطية علمانية. والمفهوم السائر للديمقراطية «حكم أغلبية الشعب» فكيف تبرر ذلك في بلد قد تصل نسبة المسلمين فيه إلى القريب من مائة في المائة؟ بينما معنى لائك، الذي ترجم تضيلاً في اللغة العربية - بعلماني لا ديني - فكيف يكون الإنسان دينياً ولا دينياً في آن واحد؟ ولم أقتنع بما قاله ذلك السيد، ومن ضمنه القول بأن «دولة لائك» يعني أن كل إنسان في البلد الذي تحكمه هذه الدولة حر في اعتناق ما يراه من دين. فقلت: ولو كانت أغلبية الشعب لا توافق على هذا المبدأ، فأين إذن مفهوم الديمقراطية؟ أو لا يكون هذا عين الدكتاتورية؟.

إن مسألة «علمانية الدولة» مسألة خطيرة يترتب عليها كثير من المضار في المجتمع الإسلامي، وأن مضارها ومنافعها - إذا كان فيها منافع - يجب أن تكون معلومة واضحة لدى الشعب، وأن تكون أهم نقطة بارزة في أي نظام سياسي في بلد إسلامي وذلك قبل نظام الحكم: ملكي، جمهوري، ويعد شرحها بوضوح من كل جوانبها، وإجراء الاستفتاء، واختارها الشعب من غير تزوير لإرادته. فليعلم الجميع أنهم باختيار العلمانية قد انصرفوا عن الإسلام. فلا يمكن لإنسان أن يكون دينياً ولا دينياً في آن واحد.

هذا، وقد ترجمت كلمة (Laique-Laicism) إلى العربية بخبث واضح مثل

ما ترجمت كلمة (Colonisation) باستعمار تضليلاً بينما معناها الاحتلال والإستغلال والاستدلال. وذلك لهدف إيقاع الناس في الشرك وخاصة المسلم إذ تقع عينه أول وهلة، ويخطف فهمه، وهو خالي الذهن، كلمة علم، والعلم عنده جذاب مغر إذ أول سورة نزلت في كتابه الذي يقده، تشمل على: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الْأَلِيِّ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿١﴾ أقرأ وربك الأكرم ﴿٢﴾ الذي علم بالقلم ﴿٣﴾ علم الإنسان ما لم يعلم ﴿٤﴾﴾.

تقول دائرة المعارف البريطانية في تعريف كلمة (Secularism) (هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها، ذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخرة. ومن أجل مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ (Secularism) تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية. . . حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية البشرية، وبإمكانية تحقيق طموحاتهم في هذه الحياة القربية. . . وظل الاتجاه إلى الـ (Secularism) يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية)^(١).

وفي المنهل قاموس عربي فرنسي تأليف الدكتور جبور عبد النور، والدكتور سُهَيْل إدريس. بيروت (لائك لا ديني) (Laique) مذهب أنصار اللادينية في المؤسسات، علمانية (Laicism) فنبت الدين واقصاؤه عن الحياة العلمية هو لب العلمانية)^(٢).

والعلمانية اصطلاح حديث يقصد به ما ليس دينياً أو كهنوتياً^(٣). والذي لا يتطرق إليه شك أن العلمانية (Laicism) كانت مصدر شر مستطير هدام في العالم الإسلامي وفي العالم أجمع. فقد أصبحت قاعدة في الحكم، فصارت

(١) عن الأستاذ محمد قطب. مذاهب فكرية معاصرة: ص ٤٤٥. دار الشروق.

(٢) مذاهب فكرية. المرجع السابق.

(٣) الأستاذ فتحي رضوان. «اقرأ» ٣٧٧: ص ١٨٤، دار المعارف، القاهرة.

الدولة لا دينية، ودخلت في التعليم، وهو في رأبي أخطر مؤسسة وصل إليها الفكر البشري لتشكيل الفرد ومن ورائه الجماعة، إذ الفرد ما هو إلا لبنة المجتمع، وكل بناء سواء كان مادياً أو معنوياً يشاد على أساس ولبنات فإن كانت هذه اللبنات سليمة وصالحة صار البناء قوياً وإن كان العكس أصبح ضعيفاً هشاً. فلا دينية التعليم والتربية التي فرضت بالقوة - في البداية - على بلاد الإسلام هي التي سممت العقول والفكر وخلقت جيلاً ضللاً فأصبح أداة هدم من الداخل ومعاول تحطيم بما سلط وبيث من فكر سام، فكر مبتور عن تاريخ الأمة الإسلامية وتراثها وحضارتها ثم أصبح القادة من هذا الجيل فصاروا الأيدي التي تتحرك بعوامل الغزو الفكري الغربي، فمكنا له في الدولة ونبذوا دين الله كما هو طلب المحركين لهم من وراء الحجاب، وأقصوه عن الحياة العلمية والعملية، وطردوه عن جميع المؤسسات، ومنعوه من الاقتراب من المجتمع، وضرَبوا عليه الحصار في كل مكان «ودروشوا» من يتظاهر به، وسخروا منه، وقرروا إيداعه في كهف قصبي مظلم في متحف التاريخ.

انظروا قول زويمر السابق: (لقد قبضنا أيها الأخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، وإنكم أعددتُم نشأً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أرادَه له الاستعمار المسيحي...!).

أي شهادة من هذا الداعية الخطير الذي لم يتلعثم في أن يقول للأغبياء والبلداء والأغرار والمنتبهرين بحضارة الغرب والمخدوعين بحلاوة وطلاوة أحاديث المبشرين، وخاصة للذين يحاولون الفرق بين التبشير والاستعمار. يقول لهم هذا ما نخطط له، هذا ما نريده، نريد أن نحطمكم طبقاً لما أرادَه لكم الاستعمار المسيحي!.

إذا كان زويمر يكشف هذه الخطط، ويؤكد نجاحها سنة ١٩٣٥م. وإذا كان يقول بفخر ما قاله فماذا عسى أن يقوله الآن يا ترى!!!.

إنني لا أريد الاسترسال في التعليق على هذا التصريح الخطير . وفي الواقع لا يحتاج إلى تعليق، فوضوحه أغناه. . . وقد أثبتت أحداث التاريخ ما تباهى به زويمر، وبظنرة عامة نجد كثيراً من أبناء المسلمين يكيدون للإسلام وينفذون خطط زويمر ويضطهدون كل داع إلى الإسلام. فكأن بعض الناس لم يعد لديهم عمل إلا ملاحقة الإسلام، ومحاولة مسخه، وخلق دين مرقع لا يمت إلى الإسلام بصلة، دين مقبور في المساجد، مقطوع الصلة بالحياة، وبالمجتمع، وبشؤون الناس اليومية.

فليفعلوا ما يحلوا لهم، وليشكلوا ما يتصورونه ديناً يلهون به، ويظنون أنهم يخادعون المسلم، وما يخادعون إلا أنفسهم وهم لا يشعرون. فليفعلوا ما يريدون ولينفذوا رغبات الأسياد، وسيبقى الإسلام بخير بإذن الله ويبقى الخلط والضباب والظلمة في أذهان أعدائه.

إذا كان الغرب المسيحي قد عرف في تاريخه تسلط الكنيسة على الكادحين، وتحالفها مع الأقطاعيين ومع الملوك والنبلاء، من ديوك وبارونات ودوقات، لاستغلال الطبقات الكادحة، وتاجرت في صكوك الغفران، ونصبت محاكم التفتيش وسجنت العلماء، فما جريرة الإسلام في أن يوضع مع الكنيسة في قفص إتهام واحد!!؟ ويعزل عن شؤون الحياة اليومية ويحبس بين جدران المساجد، ويتلقى الخطباء يوم جمع تعاليم صارمة تقص ألسنتهم بل تشتت أفكارهم من هولها وتنتشر بين المصلين الشرطة السرية. وإذا تمرد متمرد غمرته كرامة الإسلام وأبت له أن يكون آلة لتخدير المسلمين، فانطلق لسانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالتنديد بالظلم والظالمين، منع بعد ذلك من الوقوف خطيباً، وهذا أهون عقاب، إن لم يزوج في السجن متهماً بالاخلال بالأمن العام أو حتى بالتآمر على أمن الدولة، وهي جريمة يعاقب عليها القانون.

إن فرض اللادينية= العلمانية، على الإسلام والمسلمين مجاف للإسلام ومناقض لأسسه وسيرته، وفصل الدين عن الدولة ليس من الإسلام في شيء،

وانفصامية الدين والدولة يتعارض أساساً مع شمولية الإسلام، وإذا فصل الدين عن الدولة صار شيئاً آخر، أدعه ما تشاء... ، أما أن يكون إسلاماً فلا .

فالإسلام لا تبتز أطرافه، وإذا بترت صار غير دين الله الحق الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، واستمسك به عقيدة، وطبقه شعيرة وشريعة، وكان مسجده في المدينة المنورة منطلق دعوته، تقام فيه الصلوات وينبعث منه الفكر الهادي، وتعالج فيه جميع شؤون المسلمين، وتدبر فيه الخطط لنشر الإسلام والدفاع عنه. ولا أدري هل هذا يسمى سياسة، ويمنعه دعاة اللادينية.

قوة الإسلام الذاتية :

فرغم كل التدابير التي اتخذت للقضاء على الإسلام لوضعه في المتحف التاريخ ورغم كل أنواع الغزو الفكري، وهجمه الحضارة الغربية المادية، ورغم المطبلين للغرب ونفوذهم، ورغم الحروب البشعة التي أشعل نيرانها أعداء الإسلام داخلياً وخارجياً، ورغم رايات الإضطهاد التي يرفعها، بافتخار، بعض أذنان الغرب وعباده في بلاد الإسلام، ورغم وقاحة الكتاب والمفكرين دعاة التغريب والتبعية خدام الغزو الفكري وأجرائه، ورغم انهزام كثير من أبناء المسلمين فكراً وحضارياً، ورغم وصول تأثير الفكر الغربي إلى درجة العمق في تصرفاتنا اليومية فكراً وسلوكاً وتعليماً وسياسة وتشريعاً واقتصاداً، وحتى في الأشياء البسيطة، أو التي تخضع للبيئة الطبيعية كالأزياء مثلاً. إذ قد نجد من يعيش في منطقة حارة وفي فصل الصيف، وتراه مشدود الرقبة، مشدود الوسط، يتصبب عرقاً من الصوف الذي يرتديه على الطريقة الغربية، ومن الجو الخائق الشديد الحرارة، ورغم كل هذا فقد فوجيء العالم أجمع بالإسلام يفيض من وراء كل السدود، ويتخطى كل الحواجز، وإذا بالجماهير من شباب الإسلام تتلقف الراية، راية التضحية والجهاد في سبيل الإسلام فيتحير الطغاة، ويتحير معهم خدام الفكر الغربي ودعاته، الذين خابت آمالهم في تحويل جماهير الشباب إلى دُمى تحركها أرقامهم المأجورة وتربيتهم الفاسدة، مكافأة للغرب على ما أولاهم من عناية وأوسع لهم من نعمة .

ففي الجامعة اُتَدَّت الفتاة زياً محتشماً، زياً إسلامياً وفي الشارع وفي المدرسة... ظاهرة أقلقَت جميع أعداء الإسلام وفزعت لها بعض الدول خارج العالم الإسلامي، حتى رأينا فرنسا، موطن الحرية والمساواة والإخاء!! ثور من أقصاها إلى أقصاها، وتجفل مرعوبة هلعة أمام قطعة من القماش تضعها صبية على رأسها، فتقوم زوبعة تهتز لها جمهورية الحرية، حامية حقوق الإنسان، وتمنع الصبية من دخول مدرستها إلاً بإلقاء خمارها!!... بينما تسير لداتها عاريات إن شئن، وتتفاقم الزوبعة وتتطاول صاعدة إلى السماء وتصل رئيس الجمهورية... لماذا كل هذا الفزع؟! أخوفاً من متر قماش وضعته فتاة على رأسها؟! أو من الفتاة نفسها؟ ولماذا كل هذا؟!.

إن الوثنية حاولت أن تند الإسلام في مهده منذ ما يقارب من ١٤٠٠ سنة، وقامت ضده بحرب شنيعة فرد الله كيدها في نحرها: ﴿وَيَأْتِكُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْكُفْرَةَ﴾ (١).

وفي العصر الحديث وقف حلف الفجور غير المقدس من الوثنيات والدهريات والديانات المنحرفة والأيدولوجيات الضالة وعتاة الاستعمار المادي والثقافي، تأمر الجميع بينهم، ومع من استهووه من أبناء المسلمين وأضلوه وقيل أن يمد يد العون لهم لاستئصال شأفة هذا العدو اللدود، ففتحوا عليه جميع أبواب الشر بسخاء، ولم يدخروا أي جهد، فإذا بجميع قرون الشياطين تعود واهية، وبقي الإسلام يتابع سيره بثقة واطمئنان... ﴿رِيدُونَ لِيُطْفَأَ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢).

إن قوة الإسلام ذاتية، قوة جوهرية، قوته المتمثلة في كتابه العزيز وفي عقيدته الراسخة. فقد واجه الإسلام قديماً وحديثاً أعتى المذاهب فصمد لها، وحسم الرأي في كل ما أثارته الفلسفات حول الإنسان والكون والحياة والفكر البشري من قضايا وتحريفات. وقد زيّف القرآن الكريم كل ما سوى عقيدة

(١) سورة التوبة: الآية ٣٢.

(٢) سورة الصف: الآية ٨.

التوحيد الكاملة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وجاء بالشرعة لصالح البشر. فتعانت العقيدة والشرعة بحيث لا تنفرد إحداها عن الأخرى. فمن آمن بالعقيدة وألغى الشرعة، أو أخذ بالشرعة وأهدر العقيدة خالف دين الله الحق. فالإسلام عقيدة وشرعة، دين ودولة.

وشهد التاريخ في كثير من أجزاء العالم لقوة الإسلام الذاتية التي حمته وأعطته فاعلية الانتشار بلا مبشرين وبلا قوى تدفعه وتساعد على الانتشار والصمود. فقد واصل الإسلام إنتشاره منذ فجره إلى اليوم، ولم يتوقف عن الانتشار حتى في أشد أيام الصراع بينه وبين الاستعمار. وقد انتشر بقوته الذاتية، وبفضل مبادئه التي تحمل عنصري التوحيد والحرية.

يقول توماس آرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»: (إن كانت دولة الإسلام قد انقسمت وانهارت وحدثها السياسية فإن فتوح الإسلام الروحية قد بقيت لا تحول دونها الحوائل، حدث هذا برغم إغارة المغول على بغداد، وقيام حكام الأندلس بطرد المسلمين من الأندلس. كان ذلك يجري والمسلمون يضعون أقدامهم في أرض جديدة، ويُدخلون أهلها في دين الله، تلك هي جزيرة سومطرة). ويقول العلامة مونتيه في كتابه «حاضر الإسلام ومستقبله»: (في إفريقيا أناس من المرابطين هم دعاة تبشير حقيقيين، وهناك طرق دينية أخذت على نفسها نشر الإسلام، على أن الإسلام ينتشر بنفسه بواسطة المسلمين أنفسهم، لأن كل مسلم في البلاد الوثنية داعية دين بحد ذاته. . . والمسلم ينشر دينه وهو متوفر على تجارته، أو عامل في صناعته، والإسلام ينتشر من نفسه بواسطة القوافل التي ترحل إلى البلاد الوثنية، ودعاة الإسلام فيما عرفوا من الغيرة يعمدون إلى ذرائع مختلفة تناسب كل حال بحسب الأقطار والشعوب التي يبشرون دعوتهم بين أهلها)^(١).

ولا غرابة إذن في أن نرى المسلمين، والشباب منهم خاصة، يعودون إلى

(١) عن الأستاذ أنور الجندي. بتصرف إطار إسلامي للفكر المعاصر: ص ١٩، المكتب الإسلامي، بيروت.

دينهم الحنيف بعد أن استفاقوا من هول الصدمة المضللة التي صرعت الكثير من الناس منذ بداية اشتباك الإسلام بالفكر الغربي وحضارته المادية .

ولا نسأم من تكرار الحقيقة الأبدية التي تتمثل في أن هذه القوة الذاتية الإسلامية المتجسمة في كتاب الله العزيز هي التي صمدت أمام كل الحروب القذرة، مادية وفكرية، تلك الحروب التي انطلقت منذ عاد محمد ﷺ من الغار يحمل رسالة الله إلى البشرية قاطبة، بل وإلى الجن أيضاً حتى يرث الله بالأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

حملات على القرآن الكريم :

وقد قامت حملات شعواء ضد الكتاب العزيز، حملات من كل نوع . ولكن الغزاة وأذئابهم تساقطوا جميعاً وارتدت سهامهم في نحورهم . وبقي الذكر الحكيم مضيئاً الطريق لمن يريد السير في المحجة البيضاء، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١) .

وقد أزعج هذا النور قطاع الطرق والمفسدين في الأرض والجبابرة والطغاة، وكل من يريد أن يعمل في الظلام بعيداً عن نور الحق، وأدركوا جميعاً أنه يستحيل عليهم القضاء على الإسلام وتدمير المسلمين إلا إذا انتزعوا هذه العقيدة، والتي لا سبيل إلى نزعها إلا باجتثاث القرآن من الأيدي ومحوه من الصدور ومن الذاكرة . ولقد أدرك هذه الحقيقة كثير من أعداء الإسلام وحاولوا بكل وسيلة تزييفه أو التشويش عليه، وقد دفع هذا «غلاستون» رئيس وزراء بريطانيا إلى القول في مجلس العموم البريطاني عام ١٨٨٣م، وهو يحمل المصحف : (ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض، فلا أمل لنا في إخضاع المسلمين، بل نحن على خطر في أوطاننا) (٢) .

(١) سورة فصلت : الآية ٤٢ .

(٢) الأستاذ أنور الجندي . مرجع سابق .

اللغة العربية ودعاة التغريب والهدم :

كانت اللغة العربية هدفاً أساسياً من أهداف التغريب والتشويش للحط من قدرتها على مجاراة الزمن واتهامها بالقصور عن التعبير عن مضامين الحضارة النامية المتوثبة، والفكر المتطور المتشعب، والتقدم العلمي الهائل .

(وقد بدأت الحملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضي، وامتدت على أيدي كتاب ومفكرين أجنب، ثم حمل لواءها كتاب من بلادنا. وبدأ هذه الحملة، في الأغلب، المبشر الأنجليزي وليم ويلكوكس سنة ١٨٩٢م، في خطاب ألقاه في القاهرة جعل عنوانه: «لِمَ لَمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟» وأجاب بأن السر في تأخرهم هو اللغة العربية. وأن المصريين لو اتخذوا لهم لغة إقليمية كما فعلت بريطانيا مثلاً لاستطاعوا أن يتفوقوا ويخترعوا»^(١). وتابعه ويلمور ١٩٠١م بحملة أخرى دعا فيها إلى ما سماه «لغة القاهرة» واقترح كتابتها بالحروف اللاتينية^(٢).

وانطلق أعداء الإسلام يتابعون هجمتهم على لغة القرآن الكريم، يتهمونها بالعمق والقصور تارة، ويدعون إلى استبدالها باللهجات العامية تارة أخرى، واستبدال حروفها بحروف اللاتينية. وانبعث من أبناء بلاد الإسلام مخربون من الداخل أخذوا راية المؤامرة وفي أيديهم معاول الهدم، ولما عجزت محاولتهم في فرض لغة عامية، أو كتابة العربية بالحروف اللاتينية، تفتقت أذهانهم على فكرة عبقرية، مؤهوها حتى لا تنكشف خططهم، يرجون من ورائها الوصول إلى هدفهم في استعمال العامية.

والخطة تتمثل في اعتماد اللغة الصحفية، فهي لغة لا هي فصحي ولا هي عامية، ولكنها تنزل درجة عن الفصحى، وهذا يجعلها عاجزة عن الوصول إلى

(١) انظر الأستاذ أنور الجندي. أضواء على الفكر العربي الإسلامي: ص ٥٠ - ٥١. المكتبة

الثقافية - ١٤٩، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(٢) المصدر السابق.

فهم القرآن الكريم والتراث الحضاري الإسلامي. ولا يخفى على أحد أن هذه العملية التنازلية تؤدي في غير عجلة إلى استعمال العامية. وليست هذه آخر المؤتمرات التي حيكت وتحاك ضد لغة الذكر الحكيم. فهناك ما أطلق عليه اسم «تطوير اللغة» وتعني هذه التحلل من القوانين والأصول التي صانت اللغة العربية خلال خمسة عشر قرناً.

وقد يظن بعض البسطاء أن المسألة يراد بها سهولة الأداء اللغوي، ولكن أهداف كل هذه الخطط هي كتم أنفاس هذه اللغة، ووضعها في تابوت ثم ركنها في متحف اللغات التي شاخت وأدركها الوهن مثل اللاتينية.

ويقول الدكتور العناني تعليقاً على هذه الحملة الماكرة: (إن تغيير قواعد اللغة العربية صرفاً ونحواً بالوضع فقط، أو الوضع والإزالة، معناه إحداث لغة جديدة بقواعد جديدة، وهذه اللغة العربية الجديدة إن صح اتصالها بالعربية الحالية المدونة، اتصال اللهجة بالأم، فإنها تبعد عنها شيئاً فشيئاً حتى تختفي معالم الصلات بينهما، أو تكاد وعندئذ تكون اللغة العربية الحالية من اللغات الميتة)^(١).

ولكن لماذا هذه الخطط لهدم اللغة العربية؟ إن كل هذه الشرك التي تلقى لصيد اللغة العربية، وهذه المؤتمرات التي تحاك حولها تستهدف أبعد مما يتبادر إلى ذهن بعض الناس عندما يرى هذه الحيل المحبوكة التي ألبست ثياب الفنية، والرغبة في تسهيل اللغة للدراسين، لإخفاء الأهداف الحقيقية من الهجمة على الإسلام وفكره وحضارته، وبتز المسلمين عن دينهم، ووضع عراقيل أمامهم في فهم كتابهم وسنة نبيهم وشريعة دينهم، وقطع الروابط الوثيقة التي تربط بينهم وبين ماضيهم.

فاللغة العربية منذ جاء وحى الله إلى نبيه محمد ﷺ بلسان عربي مبين،

(١) عن إطار إسلامي للفكر المعاصر، للأستاذ أنور الجندي. مرجع سابق: ص ٢٩١ -

وتوثقت بها جميع أصول دين الله، دين الحق، أصبحت لغة القرآن، لغة السنة النبوية، لغة كل مسلم في أي مكان في الأرض، ولم يعد للعرب منها أكثر ما لأي مسلم من أي جنس. فكما أن الإسلام دين الناس كافة، فلغة الكتاب والسنة لغة المسلمين، لا حق لأي فرد أو مجموعة أن تدعي ملكيتها واحتكارها، والاستئثار بها. ولا يجوز لأي أحد أن يمد يده أو لسانه لإيذائها. فالذي يفعل ذلك قد اعتدى على جميع المسلمين.

وبما أن أعداء الإسلام في الخارج وأذئابهم في الداخل لا يألون جهداً في سعيهم لإيجاد الوسائل الفعالة لغزو الإسلام فكراً وحضارة، وتدميره من أساسه، وبما أن اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة الصحيحة لفهم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وتراث الإسلام العظيم، استهدفوها وتآمروا عليها للوصول عن طريق هذه المؤتمرات إلى بلبله الأفكار، وتمييع مفاهيم اللغة، وتشويه كلماتها وتركيبتها وتفقيتها وتوزيعها إلى لهجات لا تتوفر فيها أسس اللغة، فيتصدع ما هو قائم الآن حولها من روابط ثقافية ودينية واجتماعية. فإذا بنا بدويلات اجتثت من أصولها، وحيل بينها وبين ماضيها وتراثها، ليسهل على الفكر الغربي الغازي ابتلاعها لقمة سائغة وتضيق كل النصوص التي كتبت بالعربية في ضباب، وبعد حين من الوقت يصير الإسلام تاريخاً مشوهاً ضاعت أصوله، ويدخل القرآن الكريم في المتحف مع التوراة والإنجيل، ولا يصل الإنسان إليه إلا عن طريق تراجم مشوهة مشبوهة. هذا ما يسعى إليه هؤلاء الغزاة وأذئابهم.

إنتشار العربية :

هذا وقد لاحظنا أن اللغة العربية نمت وانتشرت مع الإسلام، ولا زالت تنمو وتنتشر وتصدع مع دين الحق، وأنها تدرس الآن في كل أنحاء العالم، وخاصة حيث توجد تجمعات إسلامية، وفي إفريقية، مثلاً تنتشر المدارس العربية وتنتشر الكتابات وحلقات الدروس الدينية في البوادي والقرى وحتى في المدن التي طغت ثقافة الغرب الغازية وتدرّس اللغات الإستعمارية وخاصة الفرنسية والإنجليزية. وتبذل الدول الإستعمارية جهوداً جبارة لنشر لغاتها وثقافتها

وفكرها وحضارتها. فبجانب المساعدات المالية الضخمة، تُقدم الكتب والأدوات المدرسية على حسابها، وتُقدم المنح والمعلمين، وتتولى التدريب على جميع المستويات.

وأما اللغة العربية ومدارسها ومناهجها فإنها لا تتلقى إلا الشحيح الضئيل من المساعدات... وتتساوى في هذا المدارس العربية الحكومية والمدارس الخاصة.

وكان من المتوقع أن تقوم الدول الإسلامية، ذات الإمكانيات الفنية والمادية واللغوية التي تهتم باللغة العربية وفكرها وثقافتها، وبالقرآن الكريم والسنة النبوية، وبالدين الإسلامي، بواجب المساعدة للدول الأخرى الإسلامية في هذا المجال وتشجيعها في توسيع الدراسات الإسلامية واللغة العربية ما دامت هذه الدول مستعدة للمضي في هذا المجال.

وأعود لأقول: إن اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لغة كل مسلم. وانطلاقاً من هذا فحمايتها والدفاع عنها ونشرها واجب المسلمين جميعاً.

وهناك شعوب تنبش عن لغاتها بعد أن احتوتها الرموس أو كادت وتحاول نفخ الروح فيها من جديد، والمثال أمام أعيننا في اللغة العبرية التي فرض تعليمها وتعلمها.. وأما نحن المسلمين فقد أهملنا لغة القرآن الكريم رغم ارتباطها العضوي بكتاب الله وسنة نبينا محمد ﷺ وبتراثنا الفكري والحضاري ورغم حيويتها وراثتها وجمالها وطواعيتها للتعبير وسلاستها. إنهمام فكري في كل شيء حتى في أشياء كان من الواجب، ومن العادة ارتباطها بالمحيط البيئي كأسماء الشوارع والطرق، فكثير منها في الدول الإسلامية يحمل أسماء استعمارية، والكتابة عليها بالحروف اللاتينية وحتى في البلاد التي لا تزال تستعمل العربية وتدعي أنها تنتمي إلى أرومتها. وقد زرت بعض الدول الأوربية فلم أر في يوم من الأيام بلداً كتب أسماء الشوارع بالحروف العربية.

فإذا انهزم الإنسان فكرياً تغير منطقته، وتغيرت رؤيته للأشياء وفقد احساسه بالكرامة فيصير ميتاً في عداد الأحياء.

إسلام وإسلام:

بناء على المشاهد أصبح الإسلام إسلامين: إسلام العقيدة المتغلغة في النفوس المسيطرة على الشعور الموجهة للسلوك الصامدة في وجه التيارات الفكرية المعادية للإسلام، إسلام السواد الأعظم من أبناء الإسلام.

إسلام بعض رجال السياسة الذين يرون الدين الحق خطراً على مراكزهم ومصالحهم التي في معظمها لا تعكس ولا تستجيب لمصالح الجمة المسلمة الصحيحة الإيمان. فبعض الساسة في بلاد الإسلام، سواء أكانوا حكاماً أو رؤساء أحزاب أو منظمات، يتوددون ويتملقون الجماهير المسلمة باسم الإسلام، وليس هذا إلاً خداعاً بدليل أن الأحزاب الشيوعية تفعل نفس الشيء، وغير الشيوعية من تلك الزعامات كالشيوعية إذ لا يمكنها بحال أن تسير في ركب الإسلام، ولا أن تطبقه، وكل ما تفعل إذا تظاهرت بالإسلام أن تكتفي بأضعف الإيمان. وفي الواقع ليست لديها شجاعة المؤمن. إذ أن محاولة تطبيق الإسلام تجعلها تواجه الغزو الفكري وأعدائه على الطريق الواضح، وهذا ما لا يرغب فيه أحد منهم، لأن مصالحهم ارتبطت بمصالح الغرب.

ومن أجل أن ينالوا رضاء سادة العالم المعاصر، ويحتفظوا بمناصبهم، عليهم أن يموّها على الشعور الإسلامي ويضللوا شعوبه. ويمثل ارضاءهم لأعداء الإسلام ما نراه من الملاحظات للجماعات الإسلامية في العالم الإسلامي، واختلاق الأكاذيب ضدها، وافتعال مواقف معينة تأمرية لضربها أو أدها في مهدها، أو حصارها في مواضع تختنق فيها. ومن الغريب أن في البلاد الإسلامية من يتشوق بحرية الرأي ويدعي الديمقراطية على سنة الغرب، ويتباهى بذلك، ويسمح بقيام بعض الأحزاب وحتى الشيوعية، ولكنه إذا فاحت رائحة الإسلام من تنظيم أزمته، لأنها رائحة كريهة لا تتفق مع ذوق سيد متحضر، فيلجأ إلى

جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة لضربه. وبعض دولنا تخاف أن تغضب سادة العالم المعاصر فتتهم بالرجعية أو بالإرهاب إن هي سمحت بقيام أحزاب إسلامية. وللإنسان أن يتساءل: أحقاً نحن مستقلون؟! .

إن الغرب الذي يقلده بعض الناس، ويتفانى بعض الحكام في إرضائه توجد فيه أحزاب دينية «مسيحية» ولكن لم نسمع في يوم من الأيام أن هذه الدول وصمت بالرجعية أو بالإرهاب أو بالأصولية. أو أن حزباً مسيحياً نجح في الانتخابات، فقامت القيامة قبل أوانها، وعصفت بإرادة الشعب. وهذا يدعو إلى سؤال عن مفهوم الديمقراطية، والحرية؟ وسؤال أخير: لماذا نحن المسلمين نمسح أحدى المستعمرين، وتفانى في إرضائهم، فيركلوننا بأحذيتهم؟ ألا يتناقض هذا مع الإيمان بالله الواحد الأحد؟. أين الإسلام وكرامته؟ أين الإيمان وعزته؟ أين قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

الإسلام وحده في المواجهة :

جرت أحداث خطيرة في السنوات الأخيرة. فقد سقط من علّ صرح شاهق شغل العالم ما يناهز قرناً من الزمن، قامت على أيديولوجيته دول، واعتنتها شعوب وضلّت بها شعوب أخرى وخُدرت ومُنبت فردوس الأرض، وتأكد وأكد مبشروها أنهم اهدتوا إلى بلسم يشفي البشرية من جميع أوجاعها وآلامها. فانطلق الدعاة مسعورين يهيجون الشعوب ويقبلون الحكومات، يشرون بالحياة الفاضلة. فقامت بوجه هذه الأيديولوجية، أيديولوجية أخرى تقاومها، وتصارعها، فدخلنا في سباق لاقتسام العالم المعاصر، واستعملت كلاهما ما في جعبتها من حجج وكذب وخداع ومكر، وضغوط للاحتفاظ بمراكز النفوذ في العالم بعد أن انقسم فريقين. فعاشت الشعوب على أعصابها وهي تشاهد حرباً باردة بين العملاقين،

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

متمزقة بين الأيديولوجيتين اللتين تتصارعان على قسمة العالم واستغلاله إلى أقصى حد.

فانطلقت أبواب الدعاية ووسائل الإعلام الخاصة بكل فريق تسمم الأفكار وتخالل الشعوب وتخدرها، إما بالوعود بجنة الأرض الوارفة ذات القطوف الدانية، وإما بالحرية والديموقراطية والمساواة ذراً للرماد في العيون. إلا أن مبادئ العملاقين لا تختلف إلا في التكتيك، فكلاهما يرفع راية (العلمانية= لا دينية).

فالعالم الشيوعي بالشرق يرفعها ويقويها بفلسفة جدلية تحذف الإله الخالق لتكون من حسابها، وتعمل في كل المؤسسات التابعة لها بمحو فكرته من ذاكرة الشعوب.

والعالم الحر يرفع، أيضاً، بدوره نفس الراهية، ويطبق نفس المبدأ من عزل الدين عن حياة الناس، ولكنه فعل ذلك بخبث حين فصل الدين عن التعليم والتربية وجميع النظم المسيرة للحياة وقبره في دهاليز الكنيسة.

فرغم الصراع القائم بين العملاقين الشقيقتين فقد كانا متفقين على تحطيم الإسلام وتقويض أسسه، حيث كان دائماً صخرة صلبة ترتطم عليها معاول الهدم، فكانت مشكلة عويصة تسببت في فشل الكثير من هجماتهم الشرسة ضد المسلمين بدءاً من الحروب الصليبية ومروراً بالهجمة الاستعمارية وتثليثاً بطوفان ملوث من الفكر المادي اللا أخلاقي الملحد الذي لا يعدو — في معظمه — أن يكون عملاً من أعمال الحروب البيولوجية التي قيل إن بعض الدول الكبرى تشنها من وقت لآخر لإفساد البيئة ونشر الأمراض.

هذا ليس غرضي من هذه الكلمة الخاطفة المقارنة بين العملاقين ولا بيان أكثرهما ضراوة وفساداً في الأرض وإذابة للإسلام والمسلمين، ولا مناقشة الأسباب التي أدت إلى انهيار الاتحاد السوفيتي، ولا توقعات التغيرات المنتظرة في العالم خلال السنوات القادمة، وإن كانت تلوح في الأفق مؤشرات توحى بأن

أوروبا المتحدة سترجح كفتها في السباق على النفوذ في العالم اقتصادياً وسياسياً، وأن الولايات المتحدة أخذت في مرحلة تنازلية، وأن اليابان سيكون لها دور خطير في مستقبل العلاقات الدولية.

فالذي أريد أن أنبه عليه أن أعداء الإسلام تفرغوا له بعد أن حُيدَ العالم الشيوعي. صحيح أن الشيوعية لم يسقط جانبها الإلحادي، وإنما سلكت فقط طريق الغرب في تطبيق العلمانية= اللادينية، في الوقت الذي تخلت فيه عن فلسفتها الاقتصادية. وإن كان الوقت لا زال مبكراً في التأكيد من أن «الثعبان» بعد قطع رأسه وقبل قطع ذيله، لا تؤثر الحركات العشوائية التي يقوم بها في إيجاد إنحرافات أخرى قد تتولد عنها مفاهيم جديدة في سياسية والاقتصاد.

فالإسلام إذن يقف وحده في مواجهة أوروبا في حرب ضروس، حرب فكرية، حرب ثقافية، حرب حضارية، أوروبا المتحدة من موسكو إلى واشنطن. فالإسلام هو الوحيد الذي تتوفر فيه عناصر حيرت الغرب منذ الحروب الصليبية وحتى عصر النهضة الفكرية والتكنولوجية المتطورة. والأسلحة التي استعملت، وتستعمل في محاولة تقويض أسس الفكر الإسلامي هي نفس الأسلحة التي ستستعمل في متابعة الحرب، غير أنني أتوقع أن كون الاعتماد في المستقبل سيعتبر على عناصر الاستقبال والإرسال المتمثلة في الجماعات التي انسلخت عن فكرها، واجتثت من أصولها، وصارت رسالتها التخريب وتحطيم الشعوب الإسلامية من داخلها. كما أتوقع أن تشتد الضغوط على كل فرد أو جماعة تحاول أن تخرج بالإسلام من المسجد وتنادي به كنموذج صالح لإنفاذ الشعوب الإسلامية، بل كشعاع من الأمل يضيء طريق النجاة للإنسانية المحطمة الحائرة الغارقة في أوضاع حضارة مادية قاتمة لا يتخللها أي شعاع من الإيمان بالله^(١).

(١) ليس من المستبعد أن تحصل ردة إلى الدين. فقد دعا البابا إلى تنصير أوروبا (Evangelisation de l'Europe).

نداء إلى أهل النوايا الصادقة :

إن هذا النداء موجه إلى أهل النوايا الصادقة من الساسة والعلماء والمفكرين، وإلى كل غيور على مستقبل دينه ومستقبل أمته ومستقبل فكره وثقافته وحضارته وشخصيته المتميزة وكرامته . . . ليهبوا لحماية الإسلام . فإن أي مطلع على التاريخ، منذ بزوغ نور الإسلام بين جبال مكة المكرمة، وأمر الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله محمد بن عبد الله أن يصدع بما يؤمر به، وأن يعرض عن المشركين، يرى أن الإسلام دخل في صراع مع الباطل، وتصدى محمد ﷺ لكل أنواع الضلال، وواجه وحده الجماهير الضالة والزعامات الفاسدة، وصمد وانتصر بالحق، ولم يرحل إلى الرفيق الأعلى إلا والدولة الإسلامية قد قامت على أسس الإيمان، والعدل المطلق . وأصبحت مدينته موئل هذا الدين ومركزه النشاط، وانطلق موكب الإسلام يضيء القلوب، ويهدي النفوس، ويزيل الظلم ويحقق العدل، ويكون ممالك وإمبراطوريات ويمتن الصلات بين الأجناس والشعوب المختلفة التقاليد واللغات والألوان وأنماط السلوك . فأصبح المسلم في وطنه الكبير لا يعوقه أي عائق . ففي كل مكان يرتفع الأذان يشعر بالطمأنينة والأنس، فكل مسلم له أخ وكل مسلمة لها أخت . ولكن أعداء الإسلام لم يلقوا السلاح ولن يلقوه، واستمر الإسلام في صموده أمامهم، فقابل التتار، وناضل الصليبيين، فبرز من بين المسلمين رجال شهد لهم التاريخ في الدفاع عن عقيدة التوحيد . فبرز صلاح الدين الأيوبي، والمظفر قطز، والظاهر بيبرس، ويوسف بن تاشفين . . .

وتابعت مسيرة الإسلام خطاها صامدة بفضل عقيدته المركزية، عقيدة تشمل كل جوانب الحياة البشرية، وهذا الشمول جعل الإسلام يتعرض لخطط غزو جهنمية متصلة الحلقات منذ الحروب الصليبية وحتى يومنا الحاضر، وستستمر إلى ما شاء الله . ومن المؤسف أن ضعف المسلمين في هذا العصر كشفهم لغزو فكري عميق تغلغل في حياتهم بعد سقوطهم في يد الاستعمار . واستفاد من وسائل العصر التكنولوجي، فوسائل الإعلام العملاقة من إذاعة وتلفزة وصحافة،

وإمكانيات النشر، وما تحمله من فكر مسموم وغير مسموم تتسلل - برضا منا أو بغير رضا - إلى حياتنا اليومية. وفي الماضي كان الغزو الثقافي يتحرك ببطء، ويصل بعد زمن، وقد يكون تأثيره بعد مدة طويلة، وبوسائل الغزو العسكري أو بالتبادل التجاري.

أما اليوم، فالإنسان أنى وجد، وحتى في البراري والقفار وقمم الجبال، لا يستطيع تفادي ما يسלט عليه من فكر وثقافة. ففي كل لحظة من ليل ونهار تنطلق أمواج الأنثرب وتحمل الأقمار الصناعية، وتغذف المطابع، وتفرغ الطائرات والسفن ملايين الأطنان من حصاد الفكر الإنساني. أراد الإنسان أم لم يرد، فهو معرّض لآثارها... فقد صارت كالهواء الذي يستنشقه.

غير أن هذا لا يدعونا إلى اليأس وإلقاء السلاح والاستسلام الخائن الذليل، والتبعية الحقيرة التي تتناقض مع كرامة المؤمن، بل وتتعارض مع كرامة الإنسان. فإيماننا بالله يمنعنا من ذلك، فلنكن، إذن، على مستوى عقيدتنا ولنقتد بنبينا محمد ﷺ الذي واجه الأرض كلها وليس معه من البشر إلا زوجته، واجه الشرك والظلم والفساد بهذه العقيدة التي تدعو المسلم المؤمن بها أن يواجه الشرك والكفر والنفاق، ودعاة التغريب، وشهوات الدنيا التي روّجت لها الحضارة المادية اللادينية، اللاأخلاقية، التي تعشش الفساد وتنشره بسخاء في الأرض. والنفس مجبولة على حب الشهوات وإنها لأمارة بالسوء.

ولا تهولنا هذه الحضارة المادية الشرسة، ولا يذهلنا تغلغل آثارها الضارة في المجتمعات الإسلامية، ولا سيطرة فكرها على عقلية بعض المفكرين الذين أصبحوا أداة هدم في يدي أعداء الإسلام. ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكٰفِرُونَ﴾^(١).

فرغم أن الإحباط الكثير من أبناء الإسلام وأن بعض المفكرين من أبناء المسلمين لعبوا نفس الدور الذي لعبه المنافقون في صدر الإسلام أو أشد. فرغم

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.

أن كل هذا حقيقة إلا أن من الثابت تاريخياً وبالتجربة، أن الحقائق النسبية أي التي ترتبط بظروف معينة ليست لها صفة الديمومة إلا بقدر توافر الظروف التي أوجدتها. أنظروا جيداً، وأمعنوا النظر من يستطيع منكم أو من غيركم أن يتخيل أن حقيقة هائلة دوخت العالم المعاصر بأجمعه منذ ما يقرب من قرن تزول من الوجود، وتصبح بين ليلة وضحاها تاريخاً يذكر. من لا يعرف منكم الاتحاد السوفيتي الركيزة الثابتة التي قامت عليها السياسة العالمية المعاصرة. أليس هذا كان حقيقة؟! أين هذه الحقيقة الآن؟!.

فنحن المسلمين، نحن المؤمنين بالله الحقيقة الأزلية الخالدة، علينا أن نعود إلى ديننا الحنيف، دين القيم، ففيه صلاح ديانا وصلاح آخرتنا، وفيه حماية شخصيتنا المتميزة، وفيه وحدتنا التي هي قوتنا. فقد جعل الله رسالة نبينا ﷺ نهاية الرسالات، وجعل شريعته باقية بقاء الإنسان على الأرض، وجعل أسسها صالحة لمواجهة ما استجد ويستجد من تعقيدات حياة البشر ونموها الحضاري، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتعمر الأرض بالعدل والعمل الصالح، وجعلها وسطاً لتكون شاهدة على الناس.

أمة كهذه، لديها القرآن الكريم والسنة المطهرة والتراث العظيم الذي قام صرحه على الإسلام، وازدهرت حضارتها واتسع فكرها، وسمت أخلاقها. أمة هذه صفتها، وهذه رسالتها، فهل يجوز لها أن تتخلى عن هذا؟!، تتخلى عن عقيدتها، تتخلى عن قرآنها، تتخلى عن سنة نبيها، تتخلى عن شريعتها، تتخلى عن حضارتها وعن مثلها، تتخلى عن رسالتها تابعة ذليلة منهزمة أمام حضارة مادية فرغت الإنسان من كل معنى وسلبته كرامته بعد أن كرمه الله؟!.

الإِنسان يأخذ بعضه عن بعض :

إن أحداً لا يستطيع أن يقول: إننا يجب علينا أن نوصد الأبواب أمام كل ما جاء لنا من الخارج – ولا نستطيع – ولا أن نصم الأذان ونعمي العيون أمام الفكر الإنساني. فالإنسان منذ هبط على الأرض يتبادل المعرفة والخبرة حتى مع

الحيوان. فضضية الغراب الذي كان يبحث في الأرض فأخذ عنه أحد الأخوين كيف يوارى سواة أخيه معروفة. ولكن الحوار ليس الانهزام، وليس الاستسلام والخضوع، وليس التبعية الذليلة.

فيجب على علماء هذه الأمة ومفكريها أن يدافعوا عن دينهم، عن فكرهم، عن حضارتهم، عن عقيدتهم، عن أمتهم، عن شخصيتهم المتميزة، عن مثلهم وأخلاقهم وعاداتهم الطيبة. عليهم أن يضعوا كل ما يرد عليهم في مختبر التجربة، وتحت مجهر العقل، وعلى موازين الإسلام، موازين القسط، ليميزوا ما هو مفيد ومربح فيضاف إلى الفكر الإسلامي وتراثه العظيم الذي خلفه السلف الصالح، وما هو ضار ومؤذ فيلغى ويبعد لحماية المجتمعات والحضارة الإسلامية من شروره. فهذا واجبه الأول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وكثيراً ما أتساءل: لماذا تندافع عمياً، بكماً، صمماً، وراء الحضارة الغربية المادية وتأخذ أسوأ ما فيها، تأخذ إلحادها، تأخذ فصلها الدين عن الدولة وما يترتب عليه من فساد كل وسائل التربية والتعليم والإعلام، تأخذ عنها الانحلال الأخلاقي، وتفكك الأسرة وغير هذا من المفاسد.

هل نحن المسلمين نحتاج إلى هذا؟ وهل من مصالحنا أن نصل إلى ما وصلوا إليه من الانهيار الخلقي، أليس الانهيار الخلقي يمثل عفونة الحضارات، وعلامة انحدارها إلى السقوط. أترضون أن يصل المجتمع الإسلامي إلى الحالة التي ساقها الدكتور كشاط مدير المركز الثقافي لمسجد الدعوة في فرنسا، ونقلها من دراسات وبحوث غربية، وساهم بها في ملتقى الفكر الإسلامي الثالث والعشرين في مدينة تبسة بالجمهورية الجزائرية سنة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، وعنوانها: «حقائق عن المجتمع الغربي للاعتبار». فإليكموها للاعتبار أيضاً فإنها تلقي الضوء على حياة من يراهم البعض منا مثلاً علياً.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٩.

يقول الباحث: (وحتى لا نبخس المجتمع الغربي أشياءه - إذ البخس بصورتيه الأدبية والمادية رذيلة يتنزه المسلم عن مقارفتها - فإننا نحيل الكلمة إلى مفكرين غربيين، فإنهم أعرف الناس بمجتمعاتهم... وكانوا بمأمن عن الاتهام). وجاء في الاستفتاء الذي أجرته «اليونسكو» بأن ٦٠٪ من الزوجات الأمريكيات والأوروبيات يشعرن بالخيبة، ويقض مضاجعهن الشقاء. وهل تعلم أن أعلى نسبة طلاق في العالم هي من نصيب الولايات المتحدة الأمريكية! وهل تعلم أن في مقاطعة لوس أنجلوس تحدث حالة طلاق مقابل كل حالة زواج! وهل تعلم أن عدد الأطفال اللاشرعيين قد أصبح ثلاثة أضعاف الأعداد التي سجلت سنة ١٩٣٨!. وهل تعلم أن الولايات المتحدة الأمريكية تستقبل سنوياً ٤ ملايين من الأطفال اللاشرعيين!. قالت مجلة لايف: لقد ضربت نسبة الطلاق في الولايات المتحدة الأمريكية رقماً قياسياً، فكلما دار عقرب الساعة ٩٠ ثانية هوى بيت أمريكي.

لقد حاول الباحثون من علماء النفس والاجتماع تحليل هذه الظاهرة. فهذا أرمسترونج يخاطبنا قائلاً: (قد تحس بالحرج إذا اعترفت بأنك تعيش في عالم مجنون بالجنس. فلأدب مترع بالجنس، لكن أي نوع من الجنس؟ لقد أصبحت أكشاك بيع الصحف والمجلات مجموعات ملونة من الجنس الساقط، إنها عناوين صارخة كصرخات الخيانة والجريمة والشذوذ والسادية والإيدز. ثم ما هي المواضيع التي يقرأها الأزواج باستمرار؟ ما هي البرامج التي يشاهدونها من خلال شاشة التلفزيون؟ ما نوع الأفلام التي تعرضها لهم دور السينما؟ ما المجلات، ما الروايات، ما النكات التي تحشى بها عقولهم؟. الجواب في منتهى البساطة، إنه الجنس، الجنس القذر، الشاذ،... السابق للزواج، العفن والنجس... صدق ما يحلو لك... إن أهم عوامل المشاجرات والقتال التي تعصف بحياة الأزواج... تتحدر بهم إلى درك الطلاق، هي ذلك الغذاء المستمر بالجنس والعنف).

الشهادة الثانية: تلك التي أدلت بها الصحف الإنجليزية الصادرة في

السبعينات: لقد اجتاحت انجلترا عاصفة عاتية من الطلاق الذي ارتفعت نسبته بحيث سجلت حالة طلاق مقابل كل ثلاث زيجات... وتكلمت لغة الأرقام فأكدت بأن سنة ١٩٧١م قد شهدت ٦٢٥ ألف أسرة يراها أحد الوالدين فقط. ولقد أجمع الباحثون على أنه في كل ثمانية أطفال أمريكيين يعثر على طفل ضحية لشذوذ جنسي من طرف ذوي رحمه... تتراوح نسبة العائلات التي تتعرض فيها البنت إلى هذه الجريمة الشنعاء بين ١٠٪ إلى ٤٠٪ من العائلات الأمريكية. يتراوح عدد الأمريكيين الذين يمارسون هذه الفاحشة بين ١٠ إلى ٣٠ مليوناً، أي من كل خمس أو ست أسر أمريكية توجد عائلة ترتكب هذه المنكرات.

والغريب أن هناك جمعية تسمى نفسها «جمعية مناصرة مضاجعة المحارم» أعضاؤها باحثون مشهورون في مختلف الأكاديميات الأمريكية... وعلّلوا هذه الظاهرة بفقدان الحنان الذي قوض أركان البيت الأمريكي... قائلين بأن إدانته من قبيل الخرافات الخلقية وأكدوا بأنه آن الأوان أن ننظر إلى مضاجعة المحارم لا باعتبارها انحرفاً خلقياً، ولا على أنها من أعراض الاختلالات العقلية.

تقرير وزارة الشؤون الاجتماعية بهولاندا: (توجد من بين ثلاث نساء امرأة قد اعتدي عليها جنسياً قبل ١٦ من عمرها والذي ارتكب هذه الجريمة معها أحد محارمها: الأب أو الجد أو العم أو الخال أو الأخ. ونسبة اللائي وقعن في براثن هذه الوحوش الكاسرة امرأة من كل خمس نساء).

شهادة كارمين فانتيميليا، العالم الاجتماعي الإيطالي: (لقد أحصي خلال سنة واحدة ٩٠ حالة من حالات مضاجعة المحارم من مجموع ٥١٣ حالة اعتداء من هذا النوع).

وبعد استعراضنا لهذه اللقطات... ألا يحق لنا أن نعتبر المجتمع الغربي مجتمعاً مجرمًا؟ بلى إنه مجتمع مجرم. إنه خروج على الفطرة، ولكن الفطرة تنتقم لنفسها، وإنه مما لا ريب فيه أن الوباء الذي يعرف بـ «السيدا = إيدز» يعبر عن انتقام الفطرة. ويا له من انتقام...

إن الذي يرصد أحوال المجتمع الغربي يلاحظ بأنه مجتمع غير مطمئن، وينجلي عدم اطمئنانه في البحث عن مخرج من هذا الطريق المسدود، ولكنه قد ضل سواء السبيل. ويكفي أن نذكر لكم هذه الحقائق المتمثلة في انتشار الخرافة والشعوذة التي اجتاحت فرنسا بلد ديكارت:

عدد الأطباء:	٤٩,٠٠٠
عدد العرافين:	٤٠,٠٠٠
عدد الرهبان:	٣٨,٠٠٠
عدد السحرة:	٣٠,٠٠٠
عدد المعالجين الطبيعيين:	٣٠,٠٠٠

ما هي العبرة التي نستمدّها من عرضنا لهذه الحقائق على المجتمع الغربي؟

١ - ... إن أي مجتمع لا يمكنه أن ينعم بالسعادة إلا إذا صاغ حياته وفق المثل الإنسانية الرفيعة المنبثقة من تعاليم السماء. قال رئيس بلدية مدينة كيفلند الأمريكية: إذا لم تكن واعين فسيذكرنا التاريخ باعتبارنا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر، بينما هو يغوص إلى ركبتيه في أوحال القاذورات.

٢ - إن المسلمين وحدهم الذين لديهم رصيد من القيم السماوية إذ هم الأمة التي ما زالت تحتفظ بالوحي ممثلاً في مصدره الأصليين: الكتاب والسنة. اهـ.

أعود فأقول: لماذا تندافع وراء الغرب؟ ونمكن له بالسيطرة الكاملة في كل مجرى من مجاري حياتنا فكرياً وسياسياً واقتصادياً وحضارياً وأخلاقياً، لماذا نسلم له قيادتنا وتوجيهنا لقمة سائغة؟. شيء محير!! أمة مسلمة ذات عقيدة إلهية، ذات كتاب محفوظ مصان من خالق الأرض والسماء، ذات رسول كريم يقودها إلى المحجة البيضاء، ترك لهم ما إن تمسكوا به لن يضلوا «كتاب الله وسنة نبيه». أمة ذات شريعة ونظام هي نفسها عين موازين القسط، تقوم عليها

الحياة الفاضلة المزدهرة، حياة متوازنة: (اعمل لدينك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً).

إذا كان العقلاء من الغربيين أنفسهم يستغيثون من الأوحال التي تردت فيها حضارتهم المادية اللادينية، فهل من العقل أن تسير وراء شخص فيقع في حفرة عميقة فيها هلاكه، وأنت تراه، وترى الحفرة، فتقع بدورك في الحفرة؟! ﴿فَاتِّمَّا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(١).

في الواقع إن فيضان الغزو الثقافي اقتلع الإيمان من بعض القلوب ومسح بعض الناس، فوقعوا فريسة للغزو الغربي فأصبحوا أداة طيعة في أيدي الغزاة يحركونهم حسب رغباتهم ويتصرفون بهم في مصائر الشعوب الإسلامية، يخدمونهم بلا وعي فيما يبدو.

شهادة مورو بيرجر، يقول الكاتب الأمريكي مورو بيرجر في كتابه: «العالم العربي اليوم» كلاماً خطيراً، خطورة حقيقية، خطورة وباء ينتشر ويكتسح الأخضر واليابس، يكتسح ما تبقى من فكرنا ومثلنا وحضارتنا وشخصيتنا الإسلامية، بعد اكتساحه لتاريخنا الإسلامي، بتشويهه وتلطixه بالمفتريات والمين، ليزيل كل احترام وتقدير وافتخار به من قلوب الناشئة، فتفصل عن جذورها فتهيم في خواء حضاري عقائدي، فيلتقطها ويغرسها في أوحال حضارة قذرة، رأيم منذ قليل النزر اليسير من الأمثلة لما تعوم فيه من وحل القاذورات.

يقول: (فبينما يترك الحكام الغربيون منطقة الشرق الأدنى تتحول هذه المنطقة فتصبح أكثر غربية. ويواجه الزعماء العرب طريقين فهم يطردون الغرب سياسياً، ويسحبون الكتل الشعبية إلى الغرب ثقافياً). إذا قلت ثقافياً عنيت الإنسان كله. فالكائن البشري وعاء، والوعاء يرشح بما فيه. ولم يقل هذا الأمريكي إلاً حقاً وليس قوله مبالغته، ومقالته هذه تنطبق على كل العالم الإسلامي، والمشاهد اليوم يؤكدنها.

(١) سورة الحج: الآية ٤٦.

فإذا كانت مناهج التعليم والتربية وكل وسائل الإعلام قد سيطر عليها قوم تنكبوا طريق الإسلام، وشعروا بالدون نحو الغرب، وقاموا عنه بتمكين فكره وثقافته وحضارته في الناس، ونقشها في عقول الطفولة، وتعدوها بالرعاية في مرحلة الشباب. ماذا ترجون بعد ذلك؟

المحير في مشكلة الصدام الفكري الحضاري مع الغرب يتمثل في موقف الذين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم، الذين يمكنون الغزاة بالسيطرة على مصائر شعوبهم وأمتهم وتحطيم عقيدتهم وفكرهم، وترويج أكاذيب ومفتريات على تاريخهم وحضارتهم. فالغرب لولاهم ما تمكن من إشاعة الفوضى والتفرقة في صفوف المسلمين، الغرب لولاهم ما تمكن من تشويه فكر الإسلام: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوَامًا عَنِّيُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

كيف الخروج من المأزق؟

سؤال موجه إلى كل مؤمن بالله إيمان مخلص...

أيها الأخ في الله إن التحديات الخطيرة التي تواجه الإسلام وفكره وثقافته وتاريخه وحضارته ماثلة للعين، بل يعيش المسلمون اليوم آثارها السيئة، وهذه التحديات والمؤامرات تأتي من كل مكان، وبأشكال مختلفة. تأتي من الخارج في شكل إعلام مسعور وفكر منحل هابط ملحد، وضغوط سياسية وحصار اقتصادي، وتهديدات عسكرية، وتوقيع مقصود، ومعونات مشروطة وقروض لا تفتأ تثبت حالة الفقر وتجعلها مزمنة لا تجد الدولة وسيلة للفكك من أسرها. وهذه الصورة القائمة نتيجة الغزو العسكري ثم الغزو الفكري الذي يجري في كل شرايين الحياة في المجتمعات الإسلامية.

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

وطريق العلاج تستند أولاً إلى تشخيص المرض، والمرض قد شخص فعلينا إذن أن نبحث عن العلاج حتى نكوّن مجتمعاً إسلامياً مرتبطاً بدينه الحنيف وبمثله وبحضارته. غير أن العلاج معقد لتشعب العوامل التي أدت إلى الوضع السيء الحاضر.

وإذا تأملنا العوامل التي وصلت بالمسلمين إلى ما وصلوا إليه من التفكك وفقدان الهوية حتى أصبحوا ضحية سهلة لكل مستغل من الخارج، وكل مخرب من الداخل، نجدها عوامل فكرية، وبما أن سلاح الفكر لا يقاومه إلا سلاح من جنسه، وبما أن أسس الفكر السليم متوفرة في ديننا، دين الحق، فلنعد إليها لتشييد مجتمع الإيمان والأخلاق والعلم والإخاء والتضامن. فالفكر الإسلامي قادر على تصحيح المسيرة وجعلها في الاتجاه السليم. وعامل العقيدة أساس الفكر الإسلامي. فالعقيدة هي الأساس الذي يقوم عليه فكرنا، وحضارتنا. وإذا تغلغت هذه العقيدة في قلب الإنسان استولت على جميع كيانه، ووجهت تصرفاته، وأصبح قوياً شجاعاً كريماً لا يخاف إلا من الله الذي أبدعه وكرمه وفضله على كثير ممن خلق، وسخر له ما في السموات والأرض جميعاً.

وبهذه العقيدة قام سيد الخلق أجمعين محمد ﷺ وحيداً يدعو إلى كلمة التوحيد، يواجه بها الأوثان والأصنام وعبدتها. وبهذه العقيدة انتصر الإسلام وانتشر في الآفاق وبسرعة أدهشت المؤرخين، وهزم أكبر قوتين تسيطران على العالم آنذاك. وبضعف هذه العقيدة عند المسلمين تحطمت مقاومتهم وانهار الجدار الداخلي، وهوت صروح الإسلام من القلوب وسخر الساخرون من المسلمين ومن كل مقدساتهم، وتفتت المسلمون شيعاً وأحزاباً ودويلات تقوم بينها الحروب ويستعدي بعضها على البعض أعداء الإسلام. وبضعف هذه العقيدة أصبح المجتمع الإسلامي مكشوفاً من الخارج ومهلهلاً في الداخل. وبسبب ضعف هذه العقيدة جبن المسلمون وخارت قواهم وشعروا بالدون. وهذه حالة مشاهدة يعيشها مسلمو اليوم. فلنأخذ مثالين من عصرين مختلفين يصوران نفسية المسلمين:

١ - بلغ المعتصم الخليفة العباسي أن امرأة صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: «وامعتصماه» فأجابها: لبيك لبيك، فنهض من ساعته، وجهاز جيشاً جراراً وهزم الروم وانتصر لهذه المرأة المسلمة^(١).

٢ - وفي خلال عام ١٩٨٩م شاهدت وشاهد العالم كله، أو على الأقل معظمه على شاشة التلفزيون امرأة مسلمة تولول وتصرخ، والصهاينة ينهالون على وليدها... وهل تحرك أحد في العالم الإسلامي؟ نعم... نعم نددنا، وشجبنا، واستنكرنا، ثم أدخلنا إلى السكون والدعة وفضلنا السلامة والعافية، والجلوس على الكراسي المريحة، والفرش الوثير.

والشاهدان غنيان عن البيان. فالمسلم عندما يشعر بعزة الإسلام لا يقبل الإهانة، فإن الكرامة وقوة الإيمان تجري في كل شرايينه، وإذا أصابه الخور، وصار إسلامه وراثته وتقاليده خلت من حيوية الإيمان بالله عشم الوهن في كل مشاعره واكتفى بحياة الذل، ونسي أو تناسى قول ربه في كتابه الكريم: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

ونسي أو تناسى ما في الذكر الحكيم من قول رب العزة: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾^(٣).

حقاً إن المؤمن الصادق الإيمان يرجو من الله ما لا يرجون. ورحم الله أمير

(١) وقعت هذه الأحداث سنة ٢٩٣هـ. ولا شك أن عشاق الأدب العربي يذكرون لأبي تمام قصيدته الرنانة التي قالها بمناسبة هذه الواقعة التي فتحت فيها «العمورية». والقصيدة من عيون الأدب العربي:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلاً معسولة الحلب
انظر: الدكتور حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسي: ٢/ ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٨.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠٤.

المؤمنين علياً وأرضاه فلو رأى ما وصل إليه المسلمون اليوم لهاله الأمر. وقد صدق حين يقول: (فوالذي نفسي بيده ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلاّ ذلوا... والذي نفسي بيده لقد بلغني أنه كان يُدخل على المرأة المسلمة والمعاهدة فتُترع أحجالهما ورعثهما، ثم انصرفوا موفورين لم يكلم منهم أحد كلباً. فلو أن أمراً مسلماً مات من دون هذا أسفاً ما كان عندي فيه ملوماً)^(١).

رضي الله عنك وأرضاك يا أمير المؤمنين، ماذا تقول فينا اليوم لو علمت أن الذي ينزع ليس الأحجال والرعث، إنما الذي يقلع ويهان ويعذب هو فلذات الأكبأد!! والقوم نيام أو هم أموات غير أحياء، عيون تحوم ولا ترى وأذان مفتوحة ولا تسمع، «وما بجسم بعد الموت إيلام».

فالعقيدة، عقيدة الإسلام التي تحرر الإنسان من عبودية البشر إلى عبادة الله الواحد الأحد، عقيدة تربط الدنيا بالآخرة، عقيدة يصدقها العمل الصالح، وتستلزم متابعة محمد ﷺ في كل ما جاء به. هذه العقيدة هي الأساس الذي يجب على المسلمين أن يتخذوه قاعدة لتشييد صرح الإسلام وفكره وشريعته وكل ما يتصل بحياتهم الدنيوية وحياتهم الآخروية، فرغم أن هناك حياتين إلاّ أن الإسلام ربط بينهما.

والسبيل لترسيخ عقيدة الإسلام هو التربية والتعليم القائمين على الإسلام ومثله السامية. وسبب الحالة السيئة التي يعيشها المسلمون اليوم كانت نتيجة بعدهم عن الإسلام بواسطة المدرسة الاستعمارية التي مكن لها الغرب الغازي وأذنا به.

فالعلاج إذن يكمن في العودة إلى الإسلام، إسلام الفرد، إسلام الجماعة، إسلام الدولة، إسلام التعليم والتربية، إسلام السياسة والاقتصاد، إسلام القانون،

(١) عن الكامل للمبرد.

إسلام الإعلام، إسلام الفكر، إسلام كل ما يتصل بالإنسان المسلم... ولكن العقبة الكئود تواجه العودة إلى الإسلام وتمثل في الأعداء المترصدين للإسلام في الداخل والخارج. وإني أتوقع أن تكون الهجمة على الإسلام أشد مما كانت عليه من قبل. في الماضي كانت الحرب ذات الأسلحة المتعددة الجنسيات مستعرة ضد الإسلام، ولكن رغم ذلك كان في الميدان أهداف أخرى، كان بجانب حرب الإسلام من الغرب الملحد ومن الشيوعية المارقة، كان هناك صراع بين ما يدعي العالم الحر وبين الشيوعية. كان المعسكران يتنافسان على مناطق النفوذ واقتسام العالم، صحيح أنهما كانا بالنسبة لعداوة الإسلام متفقين ولكن ذلك لأسباب تكتيكية، ومصالح تجارية، وأهداف سياسية، يبدو بينهما الصراع والتنافس.

واليوم وقد انهارت الشيوعية بكل أوهامها التي خدرت بها العالم المعاصر وبقي الإسلام وجهاً لوجه مع العملاق الآخر، وحالته النفسية تقول: أنا سيد الأرض والسماء لا أسمح لهذا القزم أن يفوز بالنجاح في أي ميدان من ميادين الحياة لا فكرياً ولا اقتصادياً ولا سياسياً ولا علمياً.

ولو استطاع الإسلام أن ينجح فإن خططي ستنهار من أساسها، إذن لا بدّ من سحقه، ووسائل كثيرة، وأعواني منتشرون في ديار الإسلام، سأتحرك في كل الجهات وفي كل مكان، وبكل الوسائل والغاية تبرر الوسيلة. إذا كانت الوسيلة الناجحة التشنيع أشنع، وإذا كان الضغط السياسي، الضغط الاقتصادي أفعل، وإذا لزم الحرب لا أتردد. ولا بد من قتل هذا المتمرّد حتى أسحقه. ولن يعيش على الأرض إلاّ ذليلاً تابعاً مليئاً لإشاراتي. وسأحرك أعواني من المفكرين والكتاب العملاء والإذاعيين والتلفزيونيين والسينمائيين والفنانين والصحافيين والقادة السياسيين. وسأجعل حياة كل من ينادي بالإسلام جحيماً لا يطاق، سأسلط عليه زبائتي من أبناء جلدته.

إخوة الإسلام من المفكرين والعلماء ومن الساسة والقادة، ومن المعلمين والتربويين خذوا زمام المبادرة في الدفاع عن الإسلام عقيدة وفكراً، وثقافة

وشريعة، ودولة واقتصاداً وحضارة شيدها أجدادكم. وقبيح هوان الآباء والأجداد. كونوا في المقدمة «من وقف خلف جنوده فقد جعل عزائمها من خلفه».

هذا وأسأل الله أن يقيض لهذا الدين قوماً آمنوا بربهم وزادهم هدى. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

السَّيِّحُ لِقَاسِمِ الْبَيْهَقِيِّ النُّخَارِ

الغزو الفكريّ في حياة المسلمين

مَنافذ دُخوله .. وَوَسَائِلُ مُقَاوَمَتِهِ

إِعْدَاد

الدكتور عُمرُ يُوسُفُ صَمْرَةَ

كلية شريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر
قسم التفسير والحديث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وأكرم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تمسك بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.. وبعد:

فإنَّ الغزو الفكري للعالم الإسلامي حقيقة واقعة تبدت في الماضي، وتتجلى في الحاضر، ويخطط لها في المستقبل.

فعمارات الأجهزة: شرقية وغربية، سرية وعلنية، حكومية وأهلية، دينية وإلحادية، عسكرية ومدنية، تجمع صفوفها، وتحشد قواها، لغزونا من الداخل، بعد انحسار مرحلة الغزو من الخارج، ومع أن الغزو الخارجي ليس مستحيلاً - وأفغانستان خير دليل وشاهد - إلا أن الغزو الداخلي أكثر استقراراً، وأرسخ دعائماً وأعتى نفوذاً^(١).

ومن هنا يظهر لنا أن مقاومة الغزو الفكري ليست ترفاً فكرياً، أو محاربة طواحين هواء، بل شرط وجود، وجوهر بقاء.

إن الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام من الموضوعات التي تشد اهتمام الواعين من أبناء الأمة الإسلامية، وتحتاج من الباحثين والدارسين إلى أن يبذلوا فيها من الجهد ما يكشف عن خباياها ويوضح أبعادها.

ولقد كان للإسلام في الماضي جولة مع أهل الباطل والضلال وأصحاب

(١) وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٧، د. حسان محمد حسان سلسلة دعوة الحق، العدد ٥ السنة الأولى، شعبان ١٤٠١هـ.

الأهواء والمتجبرين في الأرض، ولقد حقق المسلمون انتصارات كبيرة على جميع أعدائهم، ومن ثم عادى الإسلام كل ضال وكل ذي هوى، ووقف في وجه هديه ومنهاجه كل طاغية، وكل ظالم، وقامت المعارك ضارية متعددة على مر التاريخ بين الإسلام وهؤلاء الأعداء.

ويخطيء من يظن أن الحرب بين الإسلام وأعدائه قد وضعت أوزارها، إنما الحق أن أعداء الإسلام يدبرون لحربه كل يوم وسيلة، ويحشدون للوقوف في وجهه كل يوم قوة، وليس خطر الكلمة والفكرة بأقل من خطر الجندي والسلاح في المعركة الضارية التي يشنها أعداء الإسلام على الإسلام وأهله. فبالإضافة إلى حرب الجنود والسلاح التي شنها أعداء الإسلام عليه، شنوا حرب التشويه والتخريب للإسلام منهجه وتاريخه، ورجاله وتراثه ولغته وقرآنه، وتحالفوا وتآزروا وابتكروا حديث الوسائل وخبث التيارات والأساليب، فغزوا المسلمين في قلوبهم وأفكارهم وأخلاقهم وأزيائهم وشنوا على العالم الإسلامي من الغارات ما لا يخفى أمره على كل ذي بصيرة، ووقفت الصهيونية والتبشير والاستعمار والمبادئ والنظريات والفلسفات يشد بعضها أزر بعض في حرب الإسلام وأهله. ومن مجموع تلك الوسائل والأساليب كان الغزو الفكري للمسلمين^(١).

إن الغزو الفكري هو أن تتبنى أمة من الأمم - وبخاصة الأمة الإسلامية معتقدات وأفكار الأمة الأخرى من الأمم الكبيرة وهي غير إسلامية دائماً - دون نظر فاحص وتأمل دقيق لما يترتب على ذلك التبني من ضياع لحاضر الأمة الإسلامية - في أي قطر من أقطارها - وتبديد لمستقبلها، فضلاً عما فيه من صرفها عن منهاجها وكتابها وسنة رسولها - وما يترتب على ذلك الصرف من ضياع أي ضياع، إذ لا يوجد مذهب سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي يغني الأمة

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠١هـ - ١٩٨١م: ص ٥ بتصرف، بحث أعده الدكتور/ علي عبد الحلیم.

الإسلامية عن منهجها الإلهي، ونظامها الشامل المتكامل في كل زمان ومكان^(١).

لا ريب أن من يرى مؤسسات التبشير والاستشراق، وما يصدران من شبهات وتحديات، يحكم بما لا يدع مجالاً للشك بوجود الغزو الفكري الذي يرمي إلى خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، ثم تحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلالها بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على حضارات الأمم، ولا سيما الحضارة الإسلامية.

ولقد ذكر المبشرون والمستشرقون أن هدفهم هو خلق أجيال جديدة من العرب والمسلمين تحترق كل مقومات الحياة الإسلامية بل الشرقية، وإبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه^(٢).

هذه هي بعض مفاهيم الغزو الفكري، وتلك هي تياراته المعادية للإسلام فيما يظهر لي، وسوف أتناول في ثنايا هذا البحث الغزو الفكري من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: المنافذ التي يدخل منها الغزو الفكري:

١ - الاقتصاد.

٢ - التعليم.

٣ - الصحة.

٤ - السياسة.

٥ - وسائل الإعلام.

المحور الثاني: أساليب الغزو الفكري في التشكيك:

١ - الطعن في القرآن.

٢ - الطعن في السنة.

(١) انظر: المصدر السابق: ص ٩.

(٢) شبهات التقريب في غزو الفكر الإسلامي: ص ١٣، أنور الجندي، الطبعة الأولى

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م المكتب الإسلامي.

- ٣ - اعتماد ما جاء في كتب السيرة.
- ٤ - النظريات لبعض الفرق الإسلامية الشاذة.
- ٥ - محاربة الفكر الإسلامي والدعوة إلى فصله عن جذوره وقواعده.

المحور الثالث:

- ١ - العلمانية والحداثة واتجاهاتهما الخطيرة في محاربة الإسلام.
- ٢ - الطريق الأنجع في دفع تحركاتهما العدوانية، ورد نشاطاتهما المتنوعة في المجالات: الفكرية، والتعليمية، والإعلامية.

وسوف أخص كل محور من هذه المحاور الثلاثة بشيء من التفصيل وسيكون حديثي عن عناصر هذه المحاور مستنداً إلى الأدلة والبراهين التي تدعم أقوالي والله المستعان وهو ولي التوفيق.

المحور الأول

المنافذ التي يدخل منها الغزو الفكري

١ - آثار الغزو الفكري في الاقتصاد:

يمر المسلمون اليوم بفترة من أقسى فترات التحدي الحضاري في تاريخهم الطويل، ويبلغ هذا التحدي مداه في مجال العلوم والتقنية حيث تخلفت الدول الإسلامية تخلقاً ملحوظاً، بينما تقدمت المعارف في هذين المجالين تقدماً مذهلاً خلال القرن الحالي بصفة عامة. وفي النصف الأخير منه بصفة خاصة، مما ميز عصرنا بأنه عصر العلوم والتقنية، وهذا المجال لم تدخله الدول الإسلامية في معظمها بعد - أو دخلته بعضها بجهود فردية محدودة لا تكاد تسير تقدم العصر في ذلك، مما تسبب في وجود هوة شاسعة جعلت الدول الإسلامية (في زمرة الدول النامية) واستمرت النهضة العلمية والتقنية التي بدأت في القرن التاسع عشر في نموها، وظهرت الصناعات المتقدمة في السيارات، والطائرات، والصواريخ، ورحلات الفضاء، كما ظهرت أقوى أسلحة الحرب، وأفضل وسائل الانتقال المدنية، وتطورت صناعة اللدائن والأنسجة الصناعية، وتمت ميكنة الزراعة، وتحسين المحاصيل عن طريق الأبحاث في كل من علم الوراثة وعلم كيمياء التربة. وأدخلت المخصبات الزراعية والمبيدات الحشرية كأساليب جديدة في تحسين الزراعة.

وفي غمرة هذا التقدم العلمي والتقني المذهل تخلف العالم الإسلامي تخلقاً شديداً بعد أن حمل لواء المعرفة العلمية والفكرية والصناعية لعشرة قرون كاملة (من القرن السادس الميلادي إلى مشارف عصر النهضة في القرن السادس

عشر الميلادي)^(١)، فقد أسقطت الخلافة الإسلامية في سنة ١٩٢٤م، بعد احتلال مساحات كبيرة من أرض المسلمين، كما تم تمزيق هذا الجسد الواحد إلى أكثر من خمسين دولة متباينة المساحة وتعداد السكان، بالإضافة إلى أقليات منتشرة في كل دولة من الدول غير الإسلامية، تفوق أعدادها مئات الملايين في بعض هذه الدول.

كما أدى تفتيت العالم الإسلامي إلى انقسامه إلى دول متخمة بالثراء إلى حد البطر، وأخرى معدمة إلى حد الفاقة، وبسبب انتشار الفقر أهملت عمليات التنمية البشرية والمادية، فقد أهمل التعليم، وبإهماله تفتت الأمة، وأهملت الرعاية الصحية، وبذلك تفتت الأمراض وساءت الأحوال الصحية، كما أهملت التنمية الزراعية والصناعية والاجتماعية، وبإهمالها تقلص الاقتصاد، وزادت الديون وغرقت الأمة في الربا، ولم يعد هناك مجال للأخذ بأسباب التقدم العلمي أو التقني. ويرجع السبب الرئيسي في فقر الدول الإسلامية إلى هذا التفتت الذي لم يجعل لأي منها القدرة على القيام بذاتها، فغالبية الدول المعاصرة لا تمثل كيانات حقيقية نمت من خلال التفاعلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على المدى التاريخي الطويل كما تنمو الدول عادة، ولكن في غالبيتها كيانات، رسمت حدودها الراهنة القوى الاستعمارية العالمية، وحافظت عليها لتبقى الأمة على هذه الصورة من التفتت الذي لا يمكن أيًا منها من تشكيل وحدة اجتماعية، اقتصادية متكاملة أو شبه متكاملة.

وبهدف الحيلولة دون قيام أدنى قدر من التعاون بين الأشقاء، ودون تحرك المال الإسلامي بين الدول الإسلامية على شكل استثمارات تعين على تنشيط عملية التنمية، قامت الدول الكبرى بترتيب سلسلة من الانقلابات العسكرية، والانقلابات المضادة لتحديث جواً من عدم الاستقرار السياسي والفوضى

(١) قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، د. زغلول راغب النجار: ص ٢٣، كتاب الأمة، الطبعة الأولى صفر ١٤٠٩هـ.

الاقتصادية، التي لا تشجع على تحرك أية أموال بينها، حتى لا تجد فوائض الدول الغنية فيها طريقها إلا إلى خزائن وبنوك الدول الكبرى.

وقد أدى إفقار الدول الإسلامية إلى تفشي الأمية بين البالغين من أبنائها بصورة مزعجة، تتراوح نسبتها بين ٥٠ - ٨٠ ٪ بمتوسط حوالي ٥٨ ٪. بينما تقل نسبة الأمية في الدول الغنية عن ٢ ٪، ولا تتعدى هذه النسبة ٤٥ ٪ في المتوسط في دول العالم الثالث مما يعني بوضوح أن أعلى نسبة للأمية بين البالغين في العالم اليوم هي الدول الإسلامية^(١).

فالتخلف الاقتصادي الذي أحاط بالعالم الإسلامي لا يحتاج إلى جهد في بيان أسبابه الحقيقية في حياة الأمة.

نعم، لقد كانت هناك أسباب خارجية قوية أسهمت في هذا التخلف ولكنها وحدها - لا تبرره وتفسره.

لقد كانت أوروبا الصليبية تسعى - منذ القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس - إلى تطويق العالم الإسلامي، وإضعافه بكل الوسائل. وكان من بين الوسائل التي اتخذتها السعي الدائب لتحويل التجارة العالمية إلى أيديهم، وانتزاعها من يد المماليك، الذين كانوا يمسكون بزمامها عن طريق سيطرتهم على البحر الأحمر والبحر الأبيض، فتدر عليهم أموالاً طائلة، وعلى العالم الإسلامي كله كذلك.

ومنذ أن اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، بمعاونة بحارة من المسلمين وعلى هدي الخرائط الإسلامية، بدأوا يتجهون إلى الشرق الأقصى ليستولوا على أرضه وخيراته، وينقلوها على سفنهم عن طريق رأس الرجاء الصالح فيحرموا منها دولة المماليك، ويحرموا منها العالم الإسلامي كله.

وحدث ذلك بالفعل، وتأثرت اقتصاديات العالم الإسلامي تأثراً بالغاً بما حدث^(٢).

(١) انظر: المصدر السابق: ص ٢٦.

(٢) واقننا المعاصر: ص ١٧٩ فما بعدها، الأستاذ محمد قطب، الناشر، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

ولكن... هل هذا هو التفسير؟! أو هذا هو التدبير!؟

أين كانت مراكز القوة يوم قامت الدولة الإسلامية أول مرة، سواء القوة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية؟! ألم تكن كلها في يد فارس والروم؟

فما الذي حدث في التاريخ؟

لقد خرجت الأمة المؤمنة تنشر الإسلام في الأرض فأزالت قوى الباطل ودكتها دكاً، وأقامت في مكانها دولة الإسلام، واستولت هي على مراكز القوة فأصبحت أكبر قوة في الأرض، وشملت قوتها كل جانب، فصارت في يدها القوة الحربية، والسياسية، والاقتصادية، وكان ذلك كله تحقيقاً لوعده الله للمؤمنين من هذه الأمة في قوله الكريم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾^(١).

فما الذي غير الحال بعد ذلك، وسلب مراكز القوة من يد المسلمين؟

ربما يقال ضعفت قوتهم الحربية بينما ازدادت قوة أعدائهم فتغلبوا عليهم. فنقول: نعم، تلك هي الأسباب الظاهرة، ولا شك، ولكن قراءة التاريخ بالأسباب الظاهرة وحدها لا تؤدي إلى الحقيقة، بل قد تضلل عن الحقيقة... يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(٢). ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمَّ يَكُ مُغَيِّرًا لِّعَمَلِهِمْ تَتَمَّهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

والذي يشغل النفوس المؤمنة هو الإيمان.. والذي يتغير في النفوس هو حقيقة الإيمان.

فحين تكون الأمة «متقدمة» في الإيمان، يتحقق لها وعده الله بالاستخلاف

(١) سورة النور: الآية ٥٥.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٥٣.

والتمكنين والتأمين، وحين تكون «متخلفة» يحدث تغيير النعمة، (أي سلبها) ويذهب عن الأمة الاستخلاف والتمكنين والتأمين.

فسلب التجارة من يد المسلمين، واستيلاء أوروبا الصليبية عليها، له أسبابه الكامنة في التخلف العقيدي الذي أصاب الأمة في مجموعها، والتقلص والضمور الذي ترتب عليه في كل اتجاه.

فتساؤل القوة الحربية الذي مكن الأعداء من أجزاء متزايدة من العالم الإسلامي هو ذاته، أثر من آثار التخلف العقيدي.

ولكن آثار التخلف العقيدي في الميدان الاقتصادي الخاص لا تحتاج إلى تأكيد.

وإذا سلمنا بأن التجارة الخارجية قد سلبت من أيدي المسلمين لسبب قاهر لا يقدرُونَ على رده، فهل تتوقف ثروة العالم الإسلامي على التجارة وحدها في ذلك الحين أو في أي حين؟

إنَّ بلاد المسلمين من أقصاها إلى أقصاها هي — بقدر من الله — أغنى بقعة في الأرض، وأكثرها خيرات، وقد كانت — وما تزال حتى هذه اللحظة — لم تستثمر الاستثمار الكامل، الذي يستغل كل مواردها.

والسبب في عدم استغلال هذه الثروات هو التقاعس، والتواكل، والضعف العلمي، ووهن العزائم، والانصراف عن عمارة الأرض، والرضى بالفقر على أنه من قدر الله لا ينبغي السعي إلى تغييره خوفاً من الوقوع في خطيئة التمرد على قدر الله.

إنَّ الأمة غير الإسلامية يمكن أن تنال القوة والتمكنين في الأرض بالبعد عن الله. بل كلما زادت بعداً عن الله زادت في القوة والتمكنين. . . كما هو حال أوروبا الكافرة الجاحدة اليوم، لأن هذا من السنن الربانية في معاملة الكفار: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُعُوا بِيَوْمِهِمْ فَتَخَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٤.

لفترة من الزمن بقدرها الله . . ثم يأتي التدمير :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُجِّعَ بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١٥﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١).

أما أمة الإسلام فإنها تعامل بسنة خاصة . . لا يمكننا إلا على الإيمان، فإذا انحرفوا زال عنهم التمكين، ذلك لأن الله لا يريد لهم أن يفتنوا بالتمكين وهم منحرفون عن طريقه، فيزيدوا انحرافاً حتى يصلوا إلى الكفر فتأخذهم سنة الكافرين: قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢).

فمن رحمته سبحانه بهذه الأمة أنه لا يمكنها أبداً وهي منحرفة عن السبيل لكي تعود إليه، فيمكنها وهو راض عنها، ويدخر لها في الآخرة ما يدخره لعباده الصالحين (٣).

وإذا كان من أهداف الغزو الفكري، صرف المسلمين عن دينهم، وعن قرآنهم، وليكونوا بعد ذلك ما يكونون، فإذا عجزوا عن تنصيرهم كما كانوا يشتهون ويخططون في البدء، فينبغي على الأقل أن ينتزعوا من قلوبهم ذلك الشيء المرهوب، الذي يزعجهم ويفزعهم حتى وهو كامن في قلب «الرجل المريض» كما صرح أحد الكتاب في كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» حيث قال: «إن أوروبا كانت تفرغ من الرجل المريض لأن وراءه ثلاثمائة مليون من المسلمين على استعداد للجهاد بإشارة من أصبعه» (٤).

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٤٤ و ٤٥ .

(٢) سورة هود عليه السلام: الآيتان ١٥ - ١٦ .

(٣) واقعنا المعاصر: ص ١٨٢ .

(٤) انظر: الغارة على العالم الإسلامي، تليخيص: محيي الدين الخطيب، مساعد اليافي، مكتبة أسامة بن زيد، بيروت.

وإذا كان المراد بالغزو الفكري الوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الصليبي لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية، وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، مما يتعلق بالعقيدة وما يتصل بها من أفكار وتقاليد وأنماط سلوك.

فإذا كان هذا هو هدف الغزو الفكري، فلا يمنع ذلك من وجود أطماع اقتصادية هائلة لأوروبا في الشرق الغني بالخامات والموارد، التي لا يكاد أصحابها يستثمرون منها إلا القليل، بينما تحترق أوروبا شوقاً إلى شيء منها. ولكن هذا لا ينبغي أن يخفي عنا مجموعة من الحقائق في هذا الشأن:

الأولى: أن الباعث الصليبي كان الباعث الأول الذي حرك أوروبا إلى الاستيلاء على العالم الإسلامي كما هو ثابت من رحلتي فاسكو دي جاما، وماجلان، والرحلات «الاستكشافية» الأخرى – في أفريقيا خاصة – التي حملت المبشرين بكميات هائلة إلى أماكن لم يكن الاستغلال الاقتصادي فيها محدد المعالم أول الأمر، وإن كان قد حدث على نطاق واسع فيما بعد، حين اكتشف المحتلون مصادر الثروة وأخذوا في استغلالها.

الثانية: أن التحرك الاقتصادي الأول من أوروبا نحو الشرق كان هدفه الأول حرمان المسلمين من مصادر قوتهم لإضعافهم، وهو هدف صليبي واضح تتخذ له جميع الوسائل، وما الوسيلة الاقتصادية إلا واحدة من هذه الوسائل فحسب، وليس هي الغاية كما يزعمون، ويزعم معهم المستعبدون لهم من المثقفين، خاصة الذين يرددون في غير تفكير القول بأن الغرب لا يريد إلا تأمين مصالحه الاقتصادية فحسب، ولا يهمه شيء غير ذلك.

الثالثة: أنه حين برز العامل الاقتصادي في حياة أوروبا فيما بعد، وأصبح – في ظاهر الأمر – هو المحرك الأول لجميع تصرفاتها، بقي هناك فارق واضح بين «الاستعمار الاقتصادي» في بلاد الإسلام، والاستعمار الاقتصادي في البلاد غير الإسلامية التي استولوا عليها في مرحلة التوسع وتكوين الامبراطوريات^(١).

(١) واقعا المعاصر: ص ١٩٤.

فمع أن الاستعمار في جميع أحواله ظالم للبلاد المحتلة المستغلة، أناني النزعة، لا يهيمه إلاً تحقيق مصالحه الخاصة على حساب أهل البلاد الأصليين، مع ذلك كله فإنه - في البلاد غير الإسلامية لا يتعرض لعقائد الناس وأفكارهم وتقاليدهم بشيء من العنف على الإطلاق، مكتفياً بما يتسرب إلى حياتهم تدريجياً من التأثير الناشئ من رغبة المغلوب في تقليد الغالب. أما في البلاد الإسلامية فقد كانت هناك دائماً تدبيرات وترتيبات يقصد بها قصداً إلى إزالة مظاهر الحياة الإسلامية، ومحاولة سحق الإسلام في نفوس المسلمين بالعنف، أو صرفهم عنه صرفاً خبيثاً مكرراً بوسائل أخرى غير العنف.

وكان من أول هذه التدبيرات والترتيبات في كل بلد إسلامي وقع في قبضتهم تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم ووضع القوانين الوضعية بدلاً منها، وهو أمر لا علاقة له من قريب ولا بعيد «بالمصالح الاقتصادية» التي يزعم الغرب ويزعم معه أتباعه المستعبدون له أنها الهدف الأول والأخير من استيلائهم على العالم الإسلامي.

ومن هذا يتبين أن الدافع الصليبي كان موجوداً مع الغزو الأوروبي لبلاد الإسلام، سواء كان يعمل منفرداً كما كان في منطلقه الأول، أو ممتزجاً بالدافع الاقتصادي كما حدث فيما بعد، ولكنه في جميع أحواله حاد النزعة لا يهدأ ولا يسكن، بل ازدادت حدته في القرن الأخير خاصة مع بروز حركات البعث الإسلامي^(١).

٢ - آثار الغزو الفكري في التعليم:

لقد ترك الغزو الفكري آثاراً عصبية في المجتمع الإسلامي في كافة نواحيه الثقافية والتعليمية والتشريعية والأخلاقية والاجتماعية.

وبذل المستشرقون والمبشرون كل ما في وسعهم وطاقاتهم سائرين على

(١) المصدر السابق: ص ١٩٥.

الوسائل والطرق التي تحقق أهدافهم، فحاولوا استغلال حركات الإصلاح الإسلامية، ويقول (كامفماير) المستشرق الألماني: إن الأب بانيرث المبشر الألماني: يرى أن حركة الإصلاح الإسلامي على النحو الذي يسير فيه الآن يجب أن تقابل من المسيحية الغربية بالتشجيع ويتساءل هذا المستشرق: هل يستطيع الإسلام أن يستعيد وحدته الداخلية في ظل التجزئة السياسية القائمة وتحت تأثير الآراء العصرية والعلوم الغربية؟

وهل سيكون الإسلام عند ذلك عدواً للغرب أم صديقاً وحليفاً، أم أن الإسلام في سبيله إلى التفتت إلى وحدات قومية تعكس كل منها التأثيرات الأوروبية على طريقتها الخاصة وبأسلوبها المستقل؟

ويبرز الكاتب في إجابته على هذه الأسئلة ثلاث نقاط:

- ١ - أهمية الكتلة العربية وخطورتها في نظره.
 - ٢ - أهم العوامل التي تستمد منها هذه الأمة وحدتها هي الاشتراكية في اللغة العربية الفصحى واشتراكها في العناية بالتراث الإسلامي القديم وتاريخه وآدابه.
 - ٣ - يتمنى أن يحدث في مصر ما حدث في تركيا من قطع كل صلة بالماضي الإسلامي واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية.
- ويهتم الغربيون بأن يجري التعليم في البلاد الإسلامية على الأسلوب الغربي والمبادئ الغربية والتفكير الغربي كوسيلة لفرنجة البلاد الإسلامية، وتغريبها، يقول (جب): هذا هو السبيل الوحيد فقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين^(١).
- ومن أقوى الوسائل التي تمكن بها (الغزو الفكري) من الوصول إلى هدفه:

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام: ص ٤٨١.

هي التربية والتعليم والثقافة الأجنبية، إذ بواسطة ذلك تم الاتصال بالمسلمين . .
وقد دخل الغزو إلى العالم الإسلامي من باب يخيل إلى السطحين من النَّاس أنه
الباب الطبيعي، إذ حمل اسم العلم والمعرفة والتمدن، ومن يحارب ذلك إلاَّ
الجاهل الأحمق؟.

يقول (القس زويمر): «المدارس أحسن ما يعول عليه المبشرون في
التحكك بالمسلمين»^(١). لقد أقبل المسلمون على هذه المدارس بكثرة كاثرة،
يزدرون مناهجها، ولا يميزون بين صحيحها من فاسدها، وقد بُيِّتت هذه المناهج
على أسس تختلف عن أسس الإسلام الصحيحة في العقيدة والشريعة والنظرة إلى
الكون والحياة والإنسان، على أن هذه المدارس كانت تساندها جمعيات كثيرة:
تمدها بالمال وبكل ما تحتاجه، ونستطيع أن ندرك أهمية هذه المدارس في
أعمالها التخريبية باهتمام المستعمرين بها إذ أنهم ما دخلوا بلداً إلاَّ كان ما فعلوه
أن فتحوا المدارس، وقد قال القائد الفرنسي (بيير كيللر) عن المعاهد الفرنسية
في لبنان: «فالتربية الوطنية كانت بكاملها تقريباً في أيدينا، وفي بداية حرب عام
١٩١٤ - ١٩١٨م كان أكثر من اثنين وخمسين ألف تلميذ يتلقون دروسهم في
مدارسنا، وكان بين هؤلاء فتيان وفتيات ينتمون إلى عائلات إسلامية عريقة»^(٢).

وقد أدت هذه المدارس دوراً عجزت عن أدائه أجهزة التبشير والاستشراق
كلها، وكفينا أن نعلم أن مؤتمر (أدنبرج) التبشيري الذي عقد عام ١٩١٠م
وحضره ١٢٠٠ من مندوبيه كان مما قرره ما يأتي: «اتفقت آراء سفراء الدول
الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي أسسها
الأوروبيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجح على تأثير العمل
المشترك الذي قامت به دول أوروبا كلها»^(٣).

(١) الغارة على العالم الإسلامي: ص ٤٨، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، للدكتور محمد محمد حسين: ٢/٢٧٢، الطبعة
الثانية.

(٣) الغارة على العالم الإسلامي: ص ٥٧.

ويقول المبشر (تكلي): «إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمراً صعباً جداً»^(١).

ويقول المستشرق (هاملتون جب): «لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي من طريق المدرسة العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين - ولو من غير وعي منهم - أثراً يجعلهم في مظهرهم العام «لادنيين» إلى حد بعيد، ولا ريب أن ذلك هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار»^(٢).

ولم يعد دعاة الشر يقنعون بالكلام فحسب، ولم يعد شرهم مقصوراً على محاولة نشر سمومهم بالدعاية لها. فقد نجحوا في التسلل إلى مناصب تمكنهم من أن يدسوا برامجهم ومناهجهم على المسؤولين من رؤسائهم وينفذونها في صمت، ودعاة الشر هؤلاء يعملون في ميادين كثيرة لا يكاد يخلو منهم ميدان. ولكن أخطر ما يكون إفسادهم إذا تسلل إلى ميدان التعليم، ولهم أساليب خبيثة في الوصول إلى أهدافهم^(٣).

ولقد تغلغل الغزو الفكري إلى أجهزة التعليم، وتمت السيطرة على التعليم قلباً وقالباً وفلسفةً وتنظيماً، ومحتوىً ومستوىً، وتمويلًا وإرادةً، ومناهجاً وطريقةً، وتدریساً ولغةً، ومدرسين وإدارة.

وخطورة هذه السيطرة أنها تضمن تشكيل الأجيال الناشئة وفق أهداف محددة تتلخص في النقاط التالية:

(١) التبشير والاستعمار للأستاذين مصطفى الخالدي وعمر فروخ: ص ٨٨، الطبعة الثانية ١٩٥٧م.

(٢) من التبعية إلى الأصالة، للأستاذ أنور الجندي: ص ١٣٢، طبعة دار الاعتصام القاهرة ١٩٧٧م.

(٣) انظر مزيداً من التفصيل في كتاب: حصوننا مهددة من داخلها، الدكتور محمد حسين، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة.

١ - تشويه صورة الإسلام: وهذا التشويه لا يقتصر على جانب واحد، ولا يشكك في نقطة بعينها، بل يشمل الإسلام بجميع جوانبه، وفي كل ركائزه.

٢ - التشكيك في تاريخ الأمة: لكي تتر صلة هذه الأمة بتاريخها، فلا بد من تشويهه، والتشكيك في مفاخره، والتركيز على مآزله، بحيث تنمو أجيال لا تعرف منه إلاَّ عصور الظلم والاستعباد وفترات الفلق والاضطهاد، وبذلك كله يرى الناشئ تاريخ أمته مسلسلاً من العذاب، وحلقات من السواد^(١).

٣ - التشكيك في حاضر الأمة: لا يقتصر الأمر على تاريخ بل يمتد إلى حاضر. فإذا شكل الشباب الجديد على كراهية لهذا الحاضر، ونفور من تخلفه، واقشعرار من رجعيته، فالسلوك الطبيعي أن يبحث له عن مخرج، وأن يستطلع نافذة جديدة يستنشق منها الهواء الصحي والصحيح.

٤ - التشكيك في مستقبل الأمة: إذا كان الماضي رجعيًا، والحاضر عفنًا، فكيف سيكون المستقبل؟!... لا بد أنه ظلام وبوار وخراب...

إذن فلنغض البصر عن ماضيها. ولننصرف عن حاضرنا، ولنندمج في غيرها لكي يأتي المستقبل مشرقاً زاهراً وضياءً.

فالتخلف الإسلامي لا علاج له إلاَّ بالمستقبل الغربي أو الشرقي.

٥ - تشويه شخصية الأمة: بعد التشويه، والتشكيك، تتم مرحلة التدويب بحيث تفقد الأمة الإسلامية هويتها، وتذوب فيما يغير طبيعتها، وينافر عقيدتها.

وتذويب شخصية الأمة من الممكن أن يتم بعشرات الوسائل: مباشرة وغير مباشرة، وواضحة وضمنية.

(١) راجع تفاصيل التشويه في كتاب: الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر لمؤلفه:

علي عبد الحلیم محمود، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٩هـ: ص ٣١ - ١٢٠.

وراجع عباس محمود العقاد ما يقال عن الإسلام، موسوعة العقاد الإسلامية، المجلد الخامس، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩١هـ.

٦ - إحلل عناصر ثقافة جديدة: بعد التشويه، والتشكيك، والتذويب لا يبقى غير زراعة ثقافة جديدة توجه العقول، وتحكم السياسية، وتصنع القرارات، وتحرك الشخصيات، وتشوه الضمائر. فلو ضمنت أجهزة الغزو أن المسلمين حملوا ديناً غير دينهم، أو فهموا دينهم فهماً خاطئاً، وانحرفوا عن جادة الطريق فذلك هو الانتصار الكبير، وتلعب بالقيادات.

هذه كانت أهم أهداف الغزو الفكري بلورت في ست نقاط من تشويه، إلى التشكيك، إلى تذويب، إلى إحلل لعناصر جديدة^(١).

وهناك كثير من الأدلة على طريقة إحكام السيطرة على التعليم يكفي أن نُشير إلى بعضها:

١ - فرض اللغة الأجنبية، فما من مرة وضع الاحتلال قدمه، في بلد إلا وتحولت لغة التعليم والتدريس إلى لغته الأجنبية. حدث هذا في جميع البلاد الإسلامية التي تعرضت للاستعمار، والأمثلة على ذلك كثيرة^(٢).

٢ - تغيير جميع مناهج المواد الاجتماعية والإنسانية لكي تتواءم مع أهداف الغزو ومخططاته، ومن أكبر البراهين على ذلك ما حدث للمناهج الليبية إبان الاحتلال الإيطالي، وما حدث للمناهج الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي، وما حدث للمناهج التركية بعد إعلان العلمانية سنة ١٩٢٤م، وما حدث للمناهج الأندونيسية إبان سيطرة الشيوعيين، وما حدث ويحدث في المدارس الفلسطينية تحت ضغط الاستيطان الصهيوني. إلى غير ذلك من الأمثلة، ومن يتتبع ذلك يدرك مكان الخطورة، ومواطن الدس، وقنوات السم.

٣ - إنشاء مؤسسات تعليمية لتوجيه تعليمنا الوجهة المناسبة لغزوهم..

(١) انظر: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٦٧.

(٢) انظر: التعليم باللغات الأجنبية في المدارس الرسمية العربية، تاريخه، أسبابه، آثاره القاهرة سنة ١٤٠٠هـ.

وهناك تفاصيل كثيرة عن مؤسسات التبشير والتغريب التعليمية التي أنشئت في فلسطين والشام، بدءاً من دور حضانة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت^(١) والقاهرة، واستانبول. . وتفاصيل عن كلية «غوردون» المنشأة بالسودان سنة ١٩٠٢م، وكلية «ماكريري» في يوغندا التي كان يرسل إليها أبناء جنوب السودان خاصة، لاستكمال دراستهم وفقاً للأهداف والتوجهات الإنجليزية^(٢)، وغير ذلك من المؤسسات التعليمية التي أنشأها المبشرون والمستشرقون للقضاء على الإسلام.

ولقد استطاعت المناهج التعليمية الوافدة القائمة على النظرية المادية، المنكرة للدين والأخلاق، بناء الفرد على غير قيم الإسلام، وقام المبشرون والمستشرقون بفرض مناهج الغرب على المدارس الإسلامية مما كان له أبعاد الأثر في تدمير الشخصية الإسلامية الناشئة وحرمانها من التعرف على حقيقتها ودورها وهدفها.

فإن خطة السيطرة على المناهج التعليمية التي قام بها النفوذ الأجنبي «ورثها لمن جاء به من حكومات وقيادات نشأت في إطار الإيمان بالغرب والإعجاب به والتسليم له» قد شملت مختلف الميادين من السلوك الفردي والآداب الاجتماعية إلى الآداب والفنون.

وقد تحولت الأساليب من التبشير المباشر إلى التبشير الخفي الذي يتصل بالثقافة، والصحافة حيث يقوم الكتاب التغريبيون بأداء دور خطير في تحويل الأهداف الماسونية إلى حقائق مطبقة.

(١) راجع تفاصيل ذلك في: مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية: ص ٧٦ - ١١٢ وعلي عبد الحليم محمود، الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر: ص ١٢٧ - ١٤٠.

(٢) انظر: ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث، مكتبة الحياة، بيروت الطبعة الرابعة، سنة ١٩٦٨م: ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

وقد أسهمت المنظمات الدولية في هذا المجال بما في ذلك الأمم المتحدة، واليونسكو والتربية الأساسية على وجه الخصوص، التي تعتبر امتداداً لمخططات ترمي إلى فصل الدين عن الدولة، وتخريج شباب متميع منهزم خاضع للأهواء والشهوات. ولقد أدرك قسم من المسلمين الخطر الرهيب الذي يتمثل في غزو مناهج التعليم في بلاد المسلمين من قبل المستعمرين، فعملوا على أن يحتفظوا بتراثهم الإسلامي، وذلك ببناء مدارس وجامعات تدرس فيها العلوم الإسلامية، من غير أن يكون للفكر الدخيل تأثير فيها. لكن المسلمين لم يستطيعوا التوصل إلى ما يريدون، ذلك أن الإرساليات التبشيرية كانت تتمتع بنفوذ قوي، وكانت الجامعات التبشيرية تساندها قوى مادية كبرى، فوق النفوذ الذي كان لدول الجامعات التبشيرية.

وهكذا نشأ في المجتمع الإسلامي تياران متعارضان في الثقافة والتعليم: التيار الإسلامي القديم وتيار الجامعات الأجنبية الجديدة.

أما مدارس الدولة، فكانت مناهجها قريبة جداً من مناهج الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية^(١).

فمن الوسائل الخبيثة التي سار عليها الغزو الفكري: فصل العلوم الدينية عن العلوم الأخرى فضلاً يجعل بينهما هوة سحيقة، واصطناع الخلاف والشقاق، ثم الخلاف والشقاق، ثم العداة بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وبين علماء هذين القسمين، وتيسير سبل المال والمجد الدنيوي لمتعلمي علوم الدنيا، وحجبها عن نظرائهم من متعلمي علوم الدين، ولم تقتصر عملية الفصل هذه على مستوى التعليم التخصصي العالي، ولكن المكيدة كانت شاملة، تهدف إلى عزل طلاب علم الدنيا عن الدراسات المتعلقة بعلوم الدين عزلاً تاماً في الصيغة والطريقة والمضمون، وإلى عزل طلاب علوم الدين عن الدراسات المتعلقة بعلوم الدنيا عزلاً تاماً أيضاً، لئلا تتكشف الملاءمة التامة بين الأصول الصحيحة لقسمي علوم

(١) المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري، إبراهيم النعمة، طبعة ثانية: ص ١٥.

الدين وعلوم الدنيا، فينصر الحق من كل منهما الحق من صاحبه، وينفي عنه الدخيل الدعي، وثلاثا تتكامل منهما المعرفة على صراط الله المستقيم، فيحتل المسلمون الصادقون مجد الدنيا والآخرة^(١).

ومن طبيعة هذا الفصل أن يولد مع الزمن تعصب كل فريق لنوع دراسته ولمنهج بحثه، ولطريقة تقصيه للحقائق، وإن كان فيها نقص لا يتأتى تكميله إلا بالتعاون والتآزر مع الفريق الآخر.

وبمرور الزمن يتم الفصل بين الدين والحياة، وحينئذ تجد الأمة نفسها مضطرة لأن تقتبس لنظام حياتها من الأنظمة المستوردة من صادرات أعدائها، وهي أنظمة قائمة على أسس لا صلة لها بالدين، ولا تعترف بشريعة الله.

وبذلك يحقق الغزاة هدفهم من غزو الأفكار والنفوس والقلوب، وهدفهم من غزو سلوك المسلمين، وهذا يمهد لعمليات الاحتلال الكامل، الذي تعدو به على الأمة عوادي الكفر^(٢).

٣ — آثار الغزو الفكري في الصحة :

حينما أيقن أعداء الله، أنه لا سبيل إلى الإسلام، وعقيدته حية في قلوب المسلمين فكان بداية التبشير، مع نهاية الحروب الصليبية فشلاً في مهمتها، وهو ما يصرح به «ملخص تاريخ التبشير»^(٣).

ويقول القسيس المبشر زويمر: إن جزيرة العرب التي هي مهد الإسلام

(١) انظر: بحث الأستاذ عبد الرحمن حسن جبنة الميداني: ص ٥١٠، ضمن كتاب الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، مرجع سابق.

(٢) المصدر السابق: ص ٥١١.

(٣) كتاب ملخص التبشير لأدوين بلس، أشار إليه آرل شاتليه، نقلها إلى العربية محيي الدين الخطيب ومساعد اليافي، تحت عنوان: الغارة على العالم الإسلامي.

لم تنزل نذير خطر للمسيحية^(١). ويكمل وليم جيفور بالكرف المعنى فيقول: متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه^(٢).

واتخذ التبشير لدعوة المسلمين أساليب عديدة من أوضحها ما يأتي:

(أ) المدارس المختلفة التي فتحت في أرحاب العالم الإسلامي، وتحدثت عنها بشيء من التفصيل فيما تقدم (راجع آثار الغزو الفكري في التعليم).

(ب) ومن أخطر هذه الوسائل البعثات المسيحية الغربية، وأول مثل لأثر البعثات، ما حدث لرفاعة الطهطاوي الذي أقام في باريس من سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) إلى سنة ١٢٤٧هـ (١٨٣١م) فقد عاد ذلك الشيخ، بغير العقل الذي ذهب به^(٣)، وقس على الشيخ رفاعة. . من ذهبوا بعده^(٤).

(ج) ثم تأتي سائر وسائل التبشير، فتح المستشفيات وبعث الإرساليات الطبية التي يقرر كثير من المبشرين في مؤتمراتهم وكتاباتهم. . أنها أدت إلى نتائج أسرع وأفضل من عمل القسس التبشيرية. يقول الطبيب بول هاريسون في

(١) قالها زويمر في مؤتمر لكنو بالهند سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) وكان هو رئيس المؤتمر لما له في التبشير من سجل حافل - المرجع السابق: ص ١٠٢.

(٢) قالها وليم جيفور في مؤتمر للتبشير المنعقد سنة ١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م في منزل أحمد عرابي الذي صادره الإنجليز بعد ثورته.

(٣) انظر: مزيداً من التفصيل لهذا الموضوع في: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٣١، د. علي محمد جريشة، ومحمد شريف الزبيق، دار الاعتصام.

(٤) راجع تحليلاً رائعاً للأستاذ الدكتور محمد محمد حسين - أستاذ الأدب الحديث بجامعة الاسكندرية - في كتابه الإسلام والحضارة الغربية، نشر دار الفتح، ط ٢، سنة ١٣٩٣هـ، والكتيب عبارة عن محاضرتين ألقاهما بالكويت سنة ١٣٨٥هـ، وهو يتناول أثر التغريب وله في نفس الخط مؤلف آخر تحت عنوان «حصوننا مهددة من الداخل» مجموعة مقالات نشرها في مجلة الأزهر.

كتابه (الطبيب في بلاد العرب) لقد وجدنا في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى^(١).

ويذكر الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» أن الأفغانيين الذين خلعوا ملكهم أمان الله خان لأنه سمح لزوجته أن تخرج سافرة قبلوا بعد ذلك أن يلغوا الحجاب، وتم ذلك عن طريق القابلات ودور الولادة الطبية التي أنشأها المبشرون. وقد صنف القسيس زويمر كتاباً جمع فيه بعض تقارير عن التبشير وسماه «العالم الإسلامي اليوم».

جمع هذا الكتاب ونشره القسيس «فلمينغ» الأمريكي وكتب عليه هذه الكلمة «نشرة خاصة» بمعنى أنه طبع ليتنقل في أيدي فئة خاصة من رجال التبشير لا يطلع عليه كل الناس وقد ضمنه المباحث التي دارت في مؤتمر القاهرة واختتمه بنداين استنهض بأحدهما هم رجال النصرانية ليجمعوا قواهم ويتضافروا بأعمال مشتركة وعموية فيستولوا على أهم الأماكن الإسلامية، والنداء الثاني خاص بأعمال نسائية.

أما الفصل الأول من الكتاب فيبحث في الطريقة التي ينبغي انتهاجها في التبشير، وعمّا إذا كان مفيداً ضم إرساليات تبشير المسلمين إلى إرساليات تبشير الوثنيين وفضل بقاءهما منفصلين.

وفيه البحث أيضاً عما إذا كان الإله الذي يعبده المسلمون هو إله النصراني واليهود أم لا؟ وقد صرح «الدكتور لبيوس» في مؤتمر القاهرة بأن إله الجميع واحد إلا أن القسيس زويمر خالفه في هذا الرأي فقال: إن المسلمين مهما يكونوا موحدين فإن تعريفهم لإلههم يختلف عن تعريف المسيحيين، لأن إله المسلمين ليس إله قداسة ومحبة.

وفي الفصل الثاني والثالث بحث في الصعوبات التي تحول دون تبشير

(١) إبراهيم خليل أحمد، المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي، من مكتبة الوعي العربي بالقاهرة ١٣٨٤هـ.

المسلمين العوام. وذكر الوسائل التي يمكن استجلابهم بها وتحبيب المبشرين إليهم، وأهم هذه الوسائل العزف بالموسيقى الذي يميل إليه الشرقيون كثيراً، وعرض مناظر الفانوس السحري عليهم، وتأسيس الإرساليات الطبية بينهم... إلخ، وقد بحث مؤتمر القاهرة التبشيري الذي عقد سنة ١٩٠٦م مسألة إرساليات التبشير الطبية، فقام المستر «هارير» وأبان وجوب الإكثار من الإرساليات الطبية، لأن رجالها يحتكون دائماً بالجمهور ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين، وهنا ذكر «المستر ربر» حكاية طفلة مسلمة عني المبشرون بتمريضها في مستشفى مصر القديمة ثم ألحقت بمدرسة البنات البروتستانية في باب اللوق، وكانت نهاية أمرها أن عرفت كيف تعتقد بالمسيح بالمعنى المعروف عند النصارى، إلى غير ذلك من الأمثلة.

ثم قام الدكتور أراهاس طبيب إرسالية التبشير في طرابلس الشام فقال: إنه قد مر عليه اثنان وثلاثون عاما وهو في عمله لم يفشل إلا مرتين فقط وذلك عقب منع الحكومة العثمانية أو أحد الشيوخ لاثنتين من زبائنه من الحضور إليه.

وأورد إحصاء لزبائنه فقال: إن ٦٨٪ منهم مسلمون ونصف هؤلاء من النساء... وختم كلامه قائلاً: يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينس ولا في لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء ثم هو طبيب بعد ذلك^(١).

وقام بعده الدكتور تمباني وذكر الصعوبات التي يلقاها الطبيب في التوفيق بين مهنتي التبشير والطب كما حدث معه هو، إلا أن ما بذله من المجهودات قد أعانه على النجاح حتى تمكن من تأسيس مستشفى التبشير من طريق الاكتتابات، وكان أول مكتب لهذا المستشفى التبشيري رجلاً مسلماً^(٢).

وما تزال الإرساليات الطبية التي تعتبر من أخطر أدوات الغزو الفكري منتشرة في كثير من بلاد المسلمين، وتدخل إلى هذه البلاد الإسلامية تحت أسماء وشعارات متعددة.

(١) الغارة على العالم الإسلامي: ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٤.

٤ — آثار الغزو الفكري في السياسة:

أما في عالم السياسة فلم يكن الأمر أقل سوءاً، بل ربما كان أشد خطورة.. لقد حاول نابليون من قبل تنحية الشريعة الإسلامية، ووضع «قانون نابليون» بدلاً منها. ومنذ أن تسلط الغرب الصليبي على الشرق الإسلامي.. أخذ يحدث التغيير السياسي اللازم.. لبقاء سيطرته أولاً ثم لتحقيق الهدف من هذه السيطرة ثانياً فكان:

احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠، ولتونس سنة ١٨٨١م، ومراكش سنة ١٩١٢م، وللشام سنة ١٩٢٠م، وكان احتلال بريطانيا سنة ١٨٥٧م للهند إيذاناً بزوال إحدى الدول الإسلامية الكبرى التي قامت في مستهل القرن التاسع عشر، واحتلالها لمصر سنة ١٨٨٢م، وللعراق سنة ١٩١٤م، ولفلسطين سنة ١٩٢٠م.

وقد كان هذا التوزيع نتيجة للاتفاق المبرم بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م عن جانب من سياسة تقطيع أوصال العالم الإسلامي^(١).

وصحب ذلك التقسيم إثارة القوميات المختلفة كالقومية الطورانية في تركيا، والقومية العربية في البلاد العربية، حتى اقتتل المسلمون تحت قيادة النصارى باسم القومية والتحرير.

وقد صحب ذلك دعوة خبيثة إلى العلمانية.. بمعنى فصل الدين عن الدولة تبتتها جماعات كثيرة مشبوهة الصلات والأهداف..

القومية العربية كبديل عن الإسلام:

وكان الشيء الخطير في هذه الدعوة إلى «القومية العربية» أنهم جعلوها بدلاً عن الإسلام ورسالة محمد ﷺ^(٢)، من أن العروبة بغير الإسلام، تصبح لفظاً بلا معنى، وجثة بلا روح.

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٤٥.

(٢) بهذا العنوان «القومية العربية كبديل عن دين الله ورسالة محمد» قدم الدكتور محمد البهي بحثاً إلى المؤتمر الخامس لـ «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر، هاجم فيه قومية ساطع الحصري ومشييل عفلق وجورج حبش.

وماذا يبقى في تاريخ العرب، لو أننا فرغناه من تاريخ الإسلام، وأمجاد المسلمين. وما خلفه أعلامهم وعلمائهم وأبطالهم من روائع؟ هل يبقى فيه إلاّ حرب البسوس وداحس والغبراء وغيرها من أيام العرب، وغارات بعضهم على بعض؟ مضافاً إليها بعض قصص الكرم والشجاعة والنجدة التي لا تكون تاريخاً له اعتبار^(١).

ولقد خطط أعداء الإسلام لوقف الزحف الإسلامي الذي كانت تقوده تركيا على أوروبا. ثم لما توقف المد الإسلامي، وانتقل البحث إلى كيفية تقطيع أوصال الخلافة. . ثم القضاء على الخلافة بعد ذلك.

ومهما يكن من أخطاء وقع فيها سلاطين تركيا. وفي مقدمتها التفرقة الظالمة بين بني الدين الواحد، وتميز الأتراك على غيرهم من بني الأوطان الأخرى، فبالرغم مما أخذ على هؤلاء السلاطين، فلقد كانت الخلافة تظل المسلمين وتجمع شملهم، وترهب عدو الله وعدوهم.

ولم يكنف أعداء الإسلام بتقطيع أوصال دولة الخلافة، بل جاوزوا ذلك إلى القضاء على الخلافة نفسها. . . ومنع قيامها بعد ذلك في أي بلد إسلامي.

ولقد تم لهم ما أرادوا بإلغاء مصطفى كمال - الشهير بأتاتورك - الخلافة استجابة للتخطيط اليهودي الصليبي^(٢).

ولقد ترتب على ذلك نتيجة خطيرة - أصبحت منذ ذلك الحين جزءاً من واقع هذه الأمة - هي استيراد النظم والمبادئ - للمسلمين - من عند أعداء الإسلام. فقد كانت هذه هي المرة الأولى في حياة الأمة، التي تستورد فيها «المبادئ» من خارج الإسلام، وتشتورد النظم - السياسية والاقتصادية والاجتماعية - من خارج الإسلام.

(١) الحلول المستوردة، وكيف جنت على أمتنا: ص ٣٠٢، د. يوسف القرضاوي، مكتبة

وهبة، الطبعة الثالثة، ربيع أول ١٣٩٧هـ، مارس ١٩٧٧م.

(٢) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٤٦.

وتوالى جهود أعداء الله من اليهود والنصارى لحرب الإسلام والمسلمين على ما يقرب من قرنين من الزمان، بلا هوادة ولا توقف، بل بعنف متزايد على الدوام.

وقد اتخذت هذه الجهود صورتين مختلفتين على فترتين متميزتين من الزمن، وإن كانت الفترة الثانية قد اعتمدت على الأولى اعتماداً كبيراً.

المرحلة الأولى: تمتد بصفة عامة إلى الحرب العالمية الثانية، حيث كانت السيطرة الصليبية (اليهودية) في يد بريطانيا وفرنسا، وهما اللتان تقومان — أساساً — بمحاربة الإسلام، وزحزحة الأمة الإسلامية عنه.

وتبدأ المرحلة الثانية: من بعد الحرب العالمية الثانية، حيث انتقلت السيطرة الصليبية (اليهودية) إلى أمريكا، وتولت هي — أساساً — حرب الإسلام، وإن كانت حرب الإسلام — دائماً — جهداً مشتركاً بين كل أعدائه. يقوم كل منهم بنصيبه فيه^(١).

وقد كان الشعار المرفوع في الفترة الأولى هو «الوطنية» من جهة و«الديمقراطية» من جهة أخرى، والذي يقوم باللعبة هو الأحزاب السياسية التي صنعها الغرب لتخدم أهدافه بعملية «التغريب».

ولم يكن الإسلام في هذه الفترة يحارب حرباً دموية عنيفة — وإن كانت الحرب الدموية وقعت في نهاية هذه الفترة — وإنما تسلل أعداء الله إلى المسلمين عن طريق الغزو الفكري، وعن طريق مناهج التعليم ووسائل الإعلام، وعن طريق إخراج المرأة إلى الشارع وإفساد أخلاقها وتحويلها إلى «فتنة» لنفسها وللرجل وعن طريق إيجاد مؤسسات لا تحكم بما أنزل الله، وإعطائها ثقل «الأمر الواقع» والزعم بأنها هي الصورة الوحيدة الممكنة.

في تلك الفترة عني المخططون بعدم مهاجمة الدين هجوماً صريحاً مباشراً

(١) واقعنا المعاصر: ص ٣٤٨.

— وإن هوجم تحت شعار محاربة «التقاليد» العتيقة البالية — وقد قلص الإسلام من الحياة العامة تقليصاً كبيراً، ونحيت الشريعة الإسلامية عن الحكم.

وحينما تسلمت أمريكا راية الحرب الصليبية اليهودية ضد الإسلام، تميز عهدها بتغيرات جذرية في «اللعبة» السياسية.

فقد استخدمت لحرب الإسلام في المنطقة العربية بالذات عنصرين جديدين تماماً، لا عهد للمنطقة بهما: أولهما الانقلابات العسكرية، وثانيهما الاشتراكية. والهدف من تمكين الانقلابات العسكرية يتلخص في الآتي:

١ — لأنها تلبى الأوامر الخارجية، وتلتزم بها حرفياً، وهذا راجع إلى ما تعلموه في الحياة العسكرية.

٢ — لأن سيطرتها على الحكم أقوى وتستطيع أن تقضي على أي معارضة.

٣ — وقد أعدت إعداداً خاصاً يجعلها «علمانية» و«غربية» لا تنكر الانحلال لنفسها ولا لغيرها، ومن ثم فهي أنسب الفئات لتنفيذ مخطط الإبعاد من الإسلام.

٤ — أنها تقطع الطريق على أي عناصر دينية تريد أن تصل إلى الحكم عن الطريق الشعبي العادي^(١).

... إلى غير ذلك من الوسائل التي يمكن بها السيطرة على الحكم في أي بلد ويظهر لنا من كل ما تقدم أن أعداء الإسلام قد اتفقوا على علمنة التعليم وعلمنة الإعلام، وعلمنة المجتمع كله عن طريق المرأة والشباب... ليتعد بذلك عن الإسلام. ونجد ذلك في الدول الإسلامية رغم اختلاف نظم الحكم الحاكمة.. لأن التغيير السياسي وإن اختلف أسلوبه.. فالهدف لا يختلف وهو التغيير الاجتماعي أو التغريب، أو بعبارة أوضح: الإبعاد عن الإسلام.

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٥٣.

وهو في نفس الوقت أن تتجه الأمة الإسلامية اتجاهاً علمانياً وطنياً أو قومياً، وهو في بدايته ونهايته اتجاه دخيل، يتخذ الغرب قبلة وإماماً في جل شؤون الحياة، وعلى هذا الأساس يمكن الإشارة إلى عناصر هذا الاتجاه كما طبقت في العالم الإسلامي؛ وأهم هذه العناصر والمقومات هي:

- ١ - العلمانية، بمعنى فصل الدين عن الدولة.
 - ٢ - النزعة الوطنية والقومية.
 - ٣ - الاقتصاد الرأسمالي والإقطاعي.
 - ٤ - الحرية الشخصية - بالمفهوم الغربي - وخاصة حرية في التبرج والاختلاط.
 - ٥ - التمكين للقوانين الأجنبية الوضعية.
 - ٦ - ظهور الحياة النيابية البرلمانية وإعلان أن الأمة مصدر السلطان.
- وكان لهذه العناصر أثر بارز في حياة الأمة الإسلامية، المادية والروحية، الفكرية والسلوكية، الفردية والاجتماعية^(١).

٥ - آثار الغزو الفكري في وسائل الإعلام:

إن الغزو الفكري لم يقف على مناهج التعليم فحسب، في حربه مع الإسلام، وإنما تعدى ذلك إلى أداة أخرى لا تقل خطراً إن لم تكن أخطر، تلك هي وسائل الإعلام، على تنوعها واختلافها.

لقد أدرك المستعمرون ما لهذه الوسائل الإعلامية من خطر فاستخدموها استخداماً ناجحاً في غزوهم الفكري المنظم لأمة الإسلام.

يقول مؤلفا «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»^(٢) نقلاً عن المصادر

(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا: ص ٤٦، وانظر: الإسلام والمدنية الحديثة:

ص ٢٣

(٢) التبشير والاستعمار في البلاد العربية: ص ٢١٣، الطبعة الثانية.

التبشيرية الأجنبية: «إن الصحافة لا توجه الرأي العام فقط، أو تهينه لقبول ما ينشر عليه بل هي تخلق الرأي العام».

وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتلفزيون وسينما مسخرة لإشاعة الفاحشة، والإغراء بالجريمة، والسعي بالفساد في الأرض بما يترتب على ذلك من زعزعة للعقيدة في النفوس، وتحطيم للأخلاق والقيم والمثل.. وهما – العقيدة والأخلاق – أساس لبناء الإسلام فإذا انهدم الأساس فكيف يقوم البناء؟ وأجهزة الإعلام أشد خطراً من المدارس والجامعات، فهي تخاطب جميع فئات الأمة: متعلمين وغير متعلمين، وصغاراً وكباراً، ونساءً ورجالاً، وحضرين وريفين، وأغنياء وفقراء، وقد شكلت هذه الأجهزة وفق قيم ومناظر بعيدة عن الإسلام عقيدة وشرعية^(١).

وإذا كانت السيطرة على أجهزة التعليم والتشريع متعذرة في بعض البلاد، فإن التغلغل إلى أجهزة إعلامه الداخلية، وإغراق سوقه بمنتجات إعلامية موجهة وجهة تغريبية يضمنان تطبيع أجياله تطبيعاً مدمراً.

وإذا كانت المدارس تقوم بتدريس الدروس الدينية، والمساجد ما زالت عامرة بالمصلين فإن توجيه عشرات أجهزة الإعلام توجيهاً تغريبياً يضمن حدوث خلل نفسي. وتناقض وجداني، وتمزق عقلي، وازدواج في الشخصية.

وبذلك استطاع الغزو الفكري أن يخلق أجيالاً وفق قيم معينة، تتصادم مع قيم أخرى ماثورة هنا وهناك.

وهذه من أخطر حيل التشويه في فكر المسلمين وقيمهم، فإذا كانت المدارس تضم ملايين، فإن الإذاعة والتلفاز تتعامل يومياً مع ملايين أكثر عدداً، وأقل حصانة، وإذا كانت الدول الإسلامية تستطيع فرض رقابة على مدارسها وجامعاتها، إلا أنها لا تستطيع أن تفرض سلطتها على البرامج الإذاعية التي تبث

(١) وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٧٢.

من عواصم دول أجنبية، كما لا تستطيع أن تتحكم في الأفلام السينمائية وأفلام الفيديو، وإن كثيراً من الأفلام والشرائط تهرب بطرق بعيدة عن رقابة الدولة.

والعالم اليوم أصبح أشبه بقرية صغيرة، وزالت الحدود والحواجر أمام أجهزة الإعلام المتطورة في هذا العصر.

وإن كثيراً من الإذاعات المسموعة والمرئية داخل الأقطار الإسلامية وخارجها إنما تجري على سياسة إشباع الشهوات، لا التوجيه والإرشاد، وإن كثيراً من برامجها يفسد ولا يصلح، فقصصها المسلسلة مثار للفرغ الذي يقلق النفوس ويسقم الناشئة ويجنح بطبائعهم إلى الانحراف.

وقد يكون تأثير مثل هذه البرامج والمسلسلات الملفقة والحوادث المصنوعة ضعيفاً على كبار النفوس وناضجي العقول من ذوي التجربة والمثقفين، لأنهم لا يندمجون فيما يسمعون، فهم دائماً على ذكر من أن الذي يسمعون هو مجرد أوهام لا تمت للواقع بصلة، ولكن الشباب والأطفال وضعاف العقول لا يفرقون بين ما يسمعون في الإذاعة وبين ما يشاهدونه في الحياة. ولا يميزون بين القصة التي يشاهدونها على لوحة الخيال وبين واقع الأمر في الحياة. فهم يندمجون اندماجاً كاملاً فيما يرون وما يسمعون من ذلك كله. فتجذبهم الأحداث إلى الهياج تارة وإلى البكاء تارة أخرى، وتنطبع آثارها في نفوسهم فتصبح جزءاً أصيلاً من مشاهداتهم وتجاربهم، بل إنها تصبح أجمل من كل ما شاهدوا وما جربوا لما يحيطها من عوامل الإغراء والإقناع والتأثير التي أفتن فيها مخرجوها وبلغوا في ذلك أقصى الطاقة والجهد^(١) والهدف من القصص والمسرحيات التي تنشر من خلال وسائل الإعلام - هو تحطيم القيم الإسلامية التي تمنع الاختلاط وتنفرد من الفاحشة والتحلل الخلقي. . فقد كانت هذه القيم مع ضعفها في حياة المسلمين - عقبة ضخمة في سبيل الإفساد الخلقي الهائل الذي تهدف الصليبية إلى إحداثه في المجتمع الإسلامي.

(١) حصوننا مهددة من داخلها، د. محمد محمد حسين، الطبعة الخامسة، المكتب الإسلامي.

وكذلك من وسائل الإعلام المدمرة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى لغات المسلمين فترجمت كثير من كتب القصص الغرامي والفن، وقد كان الفن الذي يترجم هو الفن الذي تخلص تماماً من القيم الدينية، وراح يدعو إلى إقامة مجتمع حرٍ «طليق» من تلك القيم، مجتمع يهبط تدريجياً حتى يصبح مجتمعاً حيوانياً في النهاية، ولم تكن هذه النهاية واضحة في القرن الماضي كما هي واضحة اليوم لكل ذي حس سليم، وقد كان هناك تشجيع خفي لنشر هذا الفن وترويجه بين الشباب خاصة. والهدف من ذلك واضح^(١).

أما الكتب التي تحمل الفكر «العلماني» فالهدف من ترجمتها يوضحه «أ. شاتيليه» في مقدمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» بقوله:

«ولا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثولوبكية، تعجز عن أن ترحح العقيدة الإسلامية في قلوب منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحثك الإسلام بصحف أوروبا، وتمهد السبيل لتقدم إسلامي مادي وتقضي إرساليات التبشير لبناتها من هدم الفكرة الدينية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها»^(٢).

أما الصحافة فشأنها أعظم في نشر الغزو الفكري، فقد استغل المبشرون الصحافة في كثير من بلاد المسلمين، وعلى الأخص في مصر، حيث قامت الصحافة بدور من أخطر الأدوار في حملة «التغريب» فإن مصر في نظر المخططين هي مركز التوجيه الروحي والثقافي بسبب موقعها الجغرافي ومكانتها التاريخية. وبسبب وجود الأزهر فيها. . فإذا أمكن إفسادها من الناحية الإسلامية كان ذلك عوناً كبيراً للذين يخططون لإفساد العالم الإسلامي كله لأن الفساد

(١) واقعنا المعاصر: ص ١٣٧.

(٢) راجع هذه المقدمة في كتاب الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة محيي الدين الخطيب.

سيصدر يومئذٍ وعليه خاتم القاهرة، فيكون أفعال في الإفساد مما لو جاء وعليه خاتم لندن أو باريس^(١).

يقول المستشرق الإنجليزي المشهور «جب» في كتابه «وجهة الإسلام» متحدثاً عن أهمية الصحافة في مجال الغزو الفكري^(٢): «والواقع أن المدارس والمعاهد العلمية لا تكفي. فليست هي في حقيقة الأمر إلا الخطوة الأولى في الطريق، لأنها لا تغني شيئاً في قيادة الاتجاهات السياسية والإدارية».

وللوصول إلى هذا التطور الأبعد – الذي بدونه تظل الأشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية – يجب ألا ينحصر الأمر في الاعتماد على التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية، بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفاً إلى خلق رأي عام، والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة. ويقرر «جب»: «أن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذاً في العالم الإسلامي». كما يقرر «أن مديري الصحف اليومية ينتمون في معظمهم إلى التقدميين» ولذلك كان معظم هذه الصحف واقعاً تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية.

ويستعرض الكاتب بعد ذلك صحافة العالم الإسلامي مشيراً إلى ما بينها من فروق فيقول: «إن الصحافة التركية هي بطبيعة الحال وطنية لا دينية، وهي لا تجرؤ على أن تكون دينية، لأنها مراقبة من الحكومة مراقبة شديدة، أما الصحافة المصرية فهي على العكس من اتجاه الأول – الثوري – تتطور في بطن وتعرض طائفة من الآراء الجديدة، وهي على كل حال لا دينية في اتجاهها».

وللأسباب التي ذكرتها وغيرها مما لم أتطرق إليه – فإن الدراسات الاجتماعية والتربوية المعاصرة تعتبر «صناعة الإعلام» من أخطر وأهم الصناعات على الصغير والكبير، المتعلم والامي، المسلم وغير المسلم.

وإذا كانت الانقلابات العسكرية تستهدف أول ما تستهدف الاستيلاء على

(١) واقفنا المعاصر: ص ٢٣٩.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: ص ٢٠٢.

الإذاعة والتلفاز، فإن أجهزة الغزو الفكري تستهدف ذلك بنفس الدرجة وبدات الأهمية، ولكن بطريقة ذكية، وبناء على خطة بعيدة المدى.

وإذا كانت المجتمعات الإسلامية تشكو من ارتفاع نسبة الأمية الأبجدية، فلتكن السيطرة الغازية إذن على المسموع والمشاهد، ولتستمر بذلك الأمية الأبجدية، ولتضاف إليها أمية دينية، وأمية ثقافية، ولتحل محلها شخصيات ممسوخة قد تحللت من الدين عقيدة وشرعية.

وقد أوصى المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة المنعقد في عام ١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧م بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام - وقد ندد هذا المؤتمر بحال الإعلام في البلاد الإسلامية: «ويندد المؤتمر بالهوة السحيقة التي تردى فيها إعلامنا ولا يزال يتردى، عن علم القائمين به أو عليه أو عن جهل منهم، فبدلاً من أن يكون الإعلام في البلاد الإسلامية منبر دعوة للخير، ومنار إشعاع للحق صار صوت إفساد وسوط عذاب.. وسكت القادة فأقروا بسكوتهم أو جاوزوا ذلك فشجعوا وحموا.. وزلزلوا الناس في إيمانهم وقيمهم ومثلهم، ولم يعد الأمر يحتمل السكوت من الدعاة إلى الحق»^(١).

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٧٣.

المحور الثاني

أساليب الغزو الفكري في التشكيك

وسوف أتناول الموضوع بشيء من التفصيل، حتى يتضح لنا مدى خطورة الغزو الفكري، وأثره في تشويه الإسلام، وزعزعة العقيدة الإسلامية عند ضعيفي الإيمان.

١ - الطعن في القرآن الكريم:

إذا كان للمسلمين تراث يعتزون به فليس هناك أعز عليهم من القرآن الكريم، ذلك أن القرآن رسالة السماء إلى الأرض حملها المسلمون ليكونوا خلفاء الله في أرضه، وقادة هذا العالم، وبناء حضارته، وهداته الراشدين.

ومنذ تلقاه الرسول ﷺ، بدأت أولى خطواته في دنيا الناس ليأخذ مسيرته، وأخذ المسلمون إذ ذاك يرصدون حركته، ولقد كان لمعاصريه جلي السيرة واضح القسمات والمعالم، فقد شاهدوا كيف تلقاه النبي وحيّاً منزلاً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، لا تغيب عنهم شاردة ولا واردة، حتى يقسم ابن مسعود رضي الله عنه - على أنه ما من آية نزلت من كتاب الله إلّا وهو يعلم فيمن نزلت: وأين نزلت.

قال ابن كثير: «قال عبد الله بن مسعود: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلّا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم

بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته»^(١) وسئل عكرمة عن آية من القرآن فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل وأشار إلى (سبح) ^(٢).

وحشد الصحابة جهدهم مع النبي ﷺ فتلقوه عنه حفظاً في الصدور وتسجيلاً في السطور، حتى غدت أعمالهم في العناية به والدفاع عنه جزءاً من تاريخ الإسلام والمسلمين.

ومحاولة تشويه القرآن الكريم قديمة ممتدة في التاريخ الإسلامي، مواكبة لحياة الرسول ﷺ، حمل لواءها أعداء الإسلام من اليهود، ومن النصارى والوثنيين أجيالاً بعد أجيال إلى يومنا هذا.

إن من أخطر ما يواجه المثقفين المسلمين اليوم أن يجدوا بين أيديهم موسوعات ومؤلفات تقدم لهم الفكر الإسلامي، من وجهة نظر «غربية نصرانية» تختلف اختلافاً أساسياً عن مفهوم الإسلام الأصيل، وقد كتبت هذه الدراسات والموسوعات من خلال هدف واضح هو «تغريب» الفكر الإسلامي وتزييف مفاهيمه وإثارة الشبهات حول حقائقه^(٣).

ومن دوائر المعارف التي عبثت بالقرآن الكريم وتعمدت تشويهه كتاب «دائرة المعارف الإسلامية» وبخاصة من كتب منهم في التعريف بكلمة «الله» سبحانه وتعالى، وهو المستشرق الحاقط الخطر «ماكدونالد» حيث أساء هذا المستشرق وأخطأ وتخبط وأضر بنفسه وبالحيقة العلمية أكثر مما أضر بالإسلام أو بالقرآن الكريم أو بالرسول محمد ﷺ.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

(٢) قارن بما جاء في كتاب مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح: ص ١٣٢.

(٣) سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، أنور الجندي: ص ١٦، دار الجيل، بيروت.

وإن المطلع على ما كتبه هذا المستشرق في دائرة المعارف^(١) يرى ما تخبط فيه هذا الكاتب من جهل بتاريخ العقائد عند الجاهلين، ولا يعرف أصول التعبير العربي الصحيح، وقد أعماه تعصبه عن الحق، فقد اتهم هذا المستشرق القرآن بأنه من عند محمد ﷺ، وليس من عند الله، وتلك هي الطعنة التي يوجهونها للقرآن ويلحون في إثباتها بقول «ماكدونالد» في حديثه ذلك: «... كما أنه من المحقق أن أهل مكة جعلوا بينه وبين الجنة نسباً. . . وجعلوهم شركاء لله. . . وقدموا لهم القرايين وكانوا يعوذون بهم، ولسنا نعلم علم اليقين: هل كانت قد وجدت لديهم فكرة عن الملائكة، أو أنهم جعلوهم شركاء لله، وربما كان هذا تفسيراً من عند محمد»^(٢).

والذي يعيننا من هذه العبارة ادعاؤه أن القرآن الكريم تفسير من عند محمد ﷺ، والعجيب أنه بينما يدعي هذه الدعوة الباطلة تجده يعتمد في كلامه أحياناً على آيات قرآنية. وممن قال بمثل رأي هذا المستشرق مستشرق آخر وهو «جب» فقد تحدث هو الآخر عن القرآن الكريم وأنه من تأليف محمد فيقول: «إن محمداً ككل شخصية مبدعة قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به من جهة، ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقاً جديداً بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه والدائرة في المكان الذي نشأ فيه».

ثم يواصل «جب» حديثه عن محمد ﷺ والقرآن فيقول: «إن مكة كانت في حياة زاخرة بالتجارة والسياسة والدين، وأنه وجدت فيها زعامة وزعماء، وأنه وجد ظلم اجتماعي بين سكانها، وأن الرسول محمداً انطبع في نفسه كل هذه الجوانب، وكان على وعي تام بها، ترى آثارها في حياته وفي قرآنه وفي كفاحه إلى أن مات»^(٣).

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ٤/٢٤٤، طبعة دار الشعب بالقاهرة.

(٢) المرجع السابق: ٤/٢٤٥.

(٣) جب: المذهب المحمدي: ٢٥ وما بعدها.

وافتراءات «جب» واضحة البطلان بينة البهتان تفقد المنطق وتجانب الصواب، وخلاصة ما يرى «جب» أن محمداً ﷺ، قد تأثر بالبيئة التي عاش فيها وشق طريقه بين الأفكار والعقائد الشائعة في بيئته، فالقرآن كما يرى «جب» من صنع محمد ﷺ ومن ملاءمات هذه البيئة التي عاش فيها.

وقمة الباطل عند «جب» ادعاؤه بأن القرآن الكريم كان أثراً من آثار إحساس الرسول ﷺ بالظلم الاجتماعي الذي ساد أهل مكة، وأن أثر هذا الإحساس وهو القرآن الكريم بدأ واضحاً في حياة الرسول ﷺ وفي كفاحه إلى أن مات^(١).

وقد ردد نفس التهم المستشرق «هـ. ج. ويلز» والهدف من ذلك واضح وهو تشويه القرآن وتشويه الإسلام، فقد ردد هذا المستشرق أن القرآن الكريم من صنع محمد ﷺ، وقد ذكر ذلك في مواضع من كتابه الذائع الصيت: «معالم تاريخ الإنسانية» الذي ترجم إلى العربية، وطوف آفاق العالم الإسلامي، وحظي بالرضا والقبول من الدارسين^(٢).

كما آثار المستشرقون — بمنهجهم الاستشراقي الذي يقوم على جمع الآراء والظنون والأوهام — شبهات أخرى حول القرآن، تحاول أن تجتث أصوله لتأتي على قواعد هذا الدين، وهم نصبوا أنفسهم للقضاء عليه.

وبحسبي أن أذكر بعض هذه الشبهات حول تاريخ القرآن الكريم، على سبيل الإجمال دون الخوض في تفاصيلها لأن ذلك يحتاج إلى بحث منفصل وهي كما يلي:

(١) قارن بما جاء في: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام: ص ٣٠، مرجع سابق.

(٢) راجع ما كتبه: هـ. ج. ويلز: معالم تاريخ الإنسانية: ٢٢٦/٣ وما بعدها ٦٤٠، ٦٥٧.

(أ) روايات وشبهات حول تدوين القرآن :

ثبت في صحيح السنة أن النبي ﷺ، جمع القرآن حفظاً، ثم ظاهر الحفظ وأكده بكتابه النص القرآني، فاتخذ كتاباً للوحي بلغت عدتهم على ما جاءت به الروايات، ثلاثة وأربعين، وكان من بينهم الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وغيرهم، وكان زيد أُلزم كتاب الوحي للنبي ﷺ^(١) وقد وردت روايات أخرى صحيحة تؤكد صحة ما دون من القرآن^(٢) كما وردت روايات أخرى تتعلق بتدوين القرآن الكريم – وهي روايات هزيلة – كتلك التي أوردتها السيوطي في الإِتقان عن زيد بن ثابت قال: (قبض رسول الله ﷺ، ولم يكن القرآن قد جمع في شيء) وروايات أخرى في الإِتقان^(٣).

وقد نقد العلماء أسانيد السيوطي وبينوا أنها تشتمل على بعض الرواة الضعفاء والمجهولين كما في كتب الرجال والطبقات^(٤).

على الرغم من ضعف رواية السيوطي فهي أرجح في نظر المستشرقين لمطابقتها ما روي من خوف عمر، وأبي بكر، رضي الله عنهما، لما استحر القتل بالقراء في موقعة اليمامة فلو كان القرآن قد كتب وجمع لما كانت هناك علة لخوفهما^(٥). كما أورد ابن أبي داود وغيره، بعض الروايات الضعيفة، التي تؤكد الروايات السابقة التي تعلق بها المستشرقون وراحوا يؤكدون من خلالها فكرة عدم تدوين الوحي في حياة النبي ﷺ^(٦).

(١) انظر: تاريخ القرآن لابن عبد الله الزنجاني: ص ٤٢.

(٢) راجع: صحيح البخاري، ١٨٣/٥؛ والترمذي: ٢٢٥/١١.

(٣) الإِتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ٥٧/١.

(٤) دراسات في القرآن: د. السيد خليل: ص ٨٨.

(٥) أثر جفري: كتاب المصاحف: ص ٥.

(٦) كتاب المصاحف: لابن أبي داود، أثر جفري: ص ٨، ٩، ٢٠، وانظر: القرآن بلاشير،

ترجمة رضا سعادة: ص ٢٩، ٣٠.

(ب) روايات وشبهات حول جمع القرآن:

وإذا انتقلنا من التدوين في عهد النبي ﷺ، إلى جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه، طالعنا روايات عدة في قضية من قضايا التسجيل في عهده تشير إلى أن زيدا رضي الله عنه، افتقد بعض آيات القرآن. ومن تلك الروايات المنسوبة إلى زيد رضي الله عنه، قوله: «دعاني أبو بكر رضي الله عنه أن أجمع القرآن. فجعلت أتبع القرآن ففقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ، لم أجدتها عند أحد فوجدتها عند رجل من الأنصار وهي قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾^(١) فألحقها في سورتها^(٢) وجاء في رواية أخرى طويلة، يقول فيها زيد: فتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري^(٣) لم أجدتها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر^(٤).

وقد يقع قارئ هذا النص في إشكال منشؤه تصريح زيد بأنه لم يجد آخر سورة التوبة إلا مع أبي خزيمة الأنصاري، ويزول هذا الإشكال سريعا إذا

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

(٢) راجع: تاريخ القرآن بين تساهل المسلمين وشبهات المستشرقين: ص ٢٧٣، د. إسماعيل الطحان: بحث ضمن حولية كلية الشريعة، بجامعة قطر، العدد الثامن، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٣) وفي رواية: «مع ابن خزيمة الأنصاري الذي جعل النبي ﷺ، شهادته بشهادة رجلين»، البرهان: ٢٣٤/١؛ لكن الذي في تهذيب التهذيب: ١٤٠/٣، أن خزيمة ابن ثابت الأنصاري هو ذو الشهادتين، فهو غير أبي خزيمة، وفي البخاري «فضائل القرآن» أن زيدا وجد عند خزيمة هذا آية من سورة الأحزاب، فهل اختلط الأمر على الرواة والمؤرخين؟

(٤) صحيح البخاري: كتاب «فضائل القرآن» الباب الثالث والباب الرابع وكتاب الأحكام، الباب السابع والثلاثون، وفي مسند أحمد: ١٣/١ (وفي طبعة شاکر: ١٨٥/١ رقم الحديث ٧٦ وقارن بما في «طبقات ابن سعد ج ٣/١ ق ١/٣٠١»).

علم القارىء أن غرض زيد أنه لم يجدها مكتوبة إلا مع أبي خزيمة^(١).

وقد كان ذلك كافياً لقبوله إياها، لأن كثيراً من الصحابة كانوا يحفظونها، ولأن زيدا نفسه كان يحفظها؛ ولكنه أراد - ورعاً منه واحتياطاً - أن يشفع الحفظ بالكتابة، وظل ناهجاً هذا المنهج في سائر القرآن الذي تتبعه في عهد أبي بكر: فكان لا بد لقبول آية أو آيات من شاهدين، هما الحفظ والكتابة^(٢).

وخلاصة القول في تلك الروايات: أن أبا بكر رضي الله عنه اتخذ الصحف المودعة في بيت النبي ﷺ، ركيزة جمعه، وطلب القرآن ممن عندهم محفوظاً أو مكتوباً، ليعارض المتفرق بالمجتمع، وليشترك الجميع في علم ما جمع فلا يغيب عن جمع القرآن أحد عنده منه شيء ولا يرتاب أحد فيما يودع المصحف، ولا يشك في أنه جمع عن ملاء منهم^(٣) وأن يشهد شاهدان من حفظ أو كتابة على ما يجيء مخالفاً لتلك الصحف أو مفقوداً منها.

أما عمل عثمان رضي الله عنه فهو لا يتعدى النسخ لمصحف أبي بكر المجمع عليه، في عدد من المصاحف لينشر النص القرآني المجموع في عهد أبي بكر المأخوذ مما كتب بين يدي النبي ﷺ بإملائه. حين دعت الضرورة إلى نص مكتوب يكون للناس إماماً ليحسم الخلاف حول ما اعتري القرآن على ألسنتهم من تحريف بالزيادة والنقص واستبدال لفظ بلفظ، وليمتاز به التنزيل عما اختلط به من التأويل في المخطوطات المتداولة، وكما جرى على ألسنة العامة توهماً أنه من الوحي المنزل، وليكون مرجع الناس في الأخذ بالمُسْتَيْقِنِ المعلوم من نصوص الوحي المنزل، وكل نص خالف عنه ترفض قرآنيته، بل وكل

(١) الإتيان: ١٠١/١، وينقل السيوطي هنا عن أبي شامة قوله: «لم أجدها مع غيره أي لم أجدها مكتوبة مع غيره»

(٢) قارن بما جاء في: مباحث علوم القرآن، د. صبحي الصالح: ص ٧٦، دار العلم للملايين، ط ١٣، ١٩٨١ م.

(٣) راجع البرهان: ٢٣٨/١.

مصحف عداه ليست له شرعية البقاء معه. ومن ثم وجب إحراقه وقاية من كل خلاف، وحماية من أي اختلاط^(١).

وقد جاء في رواية ضعف العلماء سندها أن حفصة رضي الله عنه عنها حين أرسل عثمان رضي الله عنه، يطلب منها أن ترسل إليه المصحف التي كانت عندها أبت أن تدفعها إليه حتى عاهدها ليردنها إليها فبعثت بها إليه أخيراً^(٢).

وعلل المستشرقون رواية الامتناع هذه بأن حفصة قد ورثت هذه الصحف عن أبيها ذمة مالية شخصية إذ أن المصحف الذي بدأه أبو بكر في حياته لم ينته إلا في عهد عمر لقصر حياة أبي بكر في الخلافة، ومن ثم رجحت لديهم رواية أن عمر هو أول من جمع القرآن على حد ما زعمه ابن سعد في «الطبقات».. وأن دوافع هذا الجمع لدى أبي بكر، بمشورة عمر كانت الرغبة في تملك نسخة من القرآن حتى لا يكون رئيس الجماعة في وضع أقل من بعض الصحابة الذين يملكون نسخاً منه. فكلف أحد كتاب الوحي ممن سبق أن استخدمهم محمد ﷺ في هذه الوظيفة بأن يهيئه لهما. ولم يكن في ذهن أبي بكر وعمر أمر فرض مصحف إمام على جماعة المؤمنين^(٣).

فلقد أراد المستشرقون، أن يضيفوا طابع الشخصية على هذا العمل، ليجردوا هذا المصحف من كل ما تميز به من صفة التواتر وقطعية الثبوت، ليستوي مع غيره من مخطوطات الصحابة وبالتالي فليس هو أولى منها بالالتزام والمتابعة^(٤) حتى إذا جاء عثمان ليفرض مصاحفه التي حوت ما كان في مصحف أبي بكر وعمر، مع ما ضمه إليها من مقطوعات ظلت مبعثرة أو محفوظة غيباً — لم يستطع ذلك دون مقاومة، فإن الصحابة الذين بذلوا أنفسهم في خدمة

(١) انظر تفصيلاً أكثر في كتاب: «من قضايا القرآن»، د. إسماعيل الطحان: ص ٧٧ — ٧٩.

(٢) راجع كتاب المصاحف: ص ٩.

(٣) انظر المدخل إلى القرآن: بلاشير: ص ٣٣ — ٣٦؛ وقارن بالقرآن، بلاشير: ص ٣٠.

(٤) تاريخ القرآن، د. عبد الصبور شاهين: ص ١١٠.

محمد ﷺ حتى التضحية بالنفس مثل ابن مسعود قد شعروا بالجور إذ تبينوا أن نصوصهم لم تعتمد أساساً للمصحف الرسمي^(١).

(ج) روايات وشبهات حول القراءات:

كما أورد المستشرقون بعض الشبهات حول القراءات، وقد استندت هذه الشبهات إلى روايات ضعيفة، وخلاصة هذه الشبهات: أن ما فعله عثمان بمصاحف الصحابة لم يمه فيه مشكلة الاختلاف حول النص القرآني، لأن القرآن نزل على سبعة أحرف، وأن نص القرآن بحرفه ليس مهماً، وإنما المهم هو روحه وأن القراءة التي تقوم على الترادف المحض أمر لا بأس به^(٢) فقد صور المستشرقون «قضية القراءات» على أنها اختيار محض، وتصرف غير مسؤول في ألفاظ القرآن ومعناه. وأثاروا من خلال هذا التصور شكوكاً حول النص القرآني المسجل في صحة معناه، وسلامة ألفاظه من التحريف والتبديل.

واعتمدوا في مزاعمهم هذه على روايات تصيدوها من هنا وهناك، مثل قول النبي ﷺ وسلم: «القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذاباً، أو عذاباً مغفرة». وقوله ﷺ: «اقرأوا ولا حرج ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعد عذاب، ولا ذكر عذاب برحمة»^(٣). كما رووا عن أبي شامة قوله: أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيح للعرب الآخرين أن يقرأوه بلغاتهم على اختلافهم في الألفاظ والإعراب^(٤)، ولو ذهب استقصي

(١) القرآن (بلاشير): ص ٣٤، ٣٥.

(٢) راجع المدخل إلى القرآن (بلاشير): ص ٦٩، ٧٠؛ وانظر: مقدمة المصاحف أثر جفري: ص ٧.

(٣) هذه الروايات باطلة المعنى واهية الإسناد وهي مخالفة للمعقول، وما صح من المنقول، وما أجمع عليه المسلمون من عهد الصحابة إلى يومنا هذا، وقد اعتمدت هذه الروايات على كتاب (الأغاني: ٦١/٣)، وانظر: الرد على هذه الشبهة وغيرها في كتاب: المدخل لدراسة القرآن، د. محمد محمد أبو شامة: ص ٢٠٩، ط ٢، فإن هذه الأحاديث لم تصح نسبتها إلى النبي ﷺ، ولا إلى واحد من صحابته رضي الله عنهم.

(٤) المرشد الوجيز، لأبي شامة: ص ٩٥.

شبهات المستشرقين حول القرآن الكريم لما وسعتني مئات الصفحات لأن القرآن الكريم كتاب مقلق للغربيين، ومحير لهم ومبطل لأفكارهم.

يقول «بلاشير»: «قلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتاباً بلبل بقرائه دأبنا الفكري أكثر من القرآن»^(١).

ولكن الأمر في الواقع ليس مجرد قلق أو حيرة أو بلبل فكرية، وإنما الأمر أبعد من ذلك بكثير، إنه الشعور بخطورة هذا الكتاب. وقد كان للاستشراق دوره في التحذير من خطورة القرآن على العالم الغربي، فقد تكفل بالكشف عن أخطار القرآن طائفة من المستشرقين الذين أخضعوا بحوثهم العلمية للأهواء الشخصية أو الأهداف السياسية والدينية فأعماهم ذلك عن الحق وأضلهم عن سواء السبيل.

٢ — الطعن في السنة :

السنة النبوية هي المصدر الثاني للإسلام، وقد كان لها الفضل الأكبر في إظهار المراد من الكتاب، وفي إزالة ما قد يقع في فهمه من خلاف أو شبهة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٣).

وبهذا كان الرسول ﷺ مأموراً بتبليغ ما أنزل الله عليه، ومطالباً ببيانه.

وقد فعل الرسول ما أمره الله به، فكانت سنته المتمثلة في أقواله وأفعاله وتقريراته، بالنسبة للقرآن بمثابة «تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره»^(٤)

(١) بلاشير، القرآن: ص ٤١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٤) راجع: الموافقات، للشاطبي: ١٢/٤.

وبذلك يكون الارتباط بين القرآن والسنة ارتباطاً لا يتصور أن ينفصم في يوم من الأيام، وقد أكد النبي ﷺ، على ذلك حين قال: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وستي»^(١).

ومن أجل ذلك اهتم المسلمون اهتماماً عظيماً بالسنة بوصفها الأصل الثاني للإسلام، ومصدراً للأحكام الشرعية مع القرآن، وانعقد إجماعهم على ذلك، ومضى على ذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم قولاً وفعلاً.

وكذلك استمر الصحابة ومن تبعهم بإحسان، في الرجوع إلى السنة بعد القرآن لمعرفة ما تعبد الله به عباده من الحلال والحرام، وسائر الأحكام في العبادات والمعاملات.

واستمر من بعد الصحابة والتابعين فقهاء الأمصار، وأئمة المذاهب المتبوعة وأصحابهم وتلاميذهم، وغدت السنة للجميع المصدر الغني الخصب في كل أبواب الفقه^(٢)، وقد أراد المستشرقون بعد محاولتهم الفاشلة للتشكيك في القرآن الكريم من جوانب مختلفة، وبعد أن أعياهم البحث - ولم يكن لهذه المحاولات أي أثر إيجابي لدى المسلمين المتمسكين بقرآنهم، وتبين أن هذه المحاولات لم تكن إلا كما قال الشاعر العربي:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل -

أراد المستشرقون أن يوجهوا محاولات التشكيك إلى ناحية، وهي السنة النبوية مع الاستمرار في محاولتهم السابقة الفاشلة^(٣).

(١) رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المدخل لدراسة السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي: ص ٤٥، مكتبة المدارس، الدوحة - قطر.

(٣) راجع ما كتبه، د. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: ص ١٠٠، كتاب الأمة، الطبعة الأولى، صفر الخير ١٤٠٤هـ.

ومحاولة تشويه السنة عميقة الجذور في تاريخ حربهم للإسلام، وهي محاولات تستهدف حرب القرآن الكريم، وعزل المسلمين عن دينهم بتشويه مصدريه. وهي حرب تدخل حديثاً في الغزو الفكري للمسلمين، وقد جند أعداء الإسلام لتشويه سنة النبي ﷺ أقلاماً وكتباً ومجلات، ملأوا بهذا التشويه كثيراً من الكتب والمجلات ودوائر المعارف التي تتحدث عن الإسلام، وتعتبر مراجع لفكره وثقافته عند كثير من الباحثين والدارسين الذين لا يستطيعون قراءة الكتب العربية، بل إن كثيراً من هذه المراجع ترحم إلى اللغة العربية واعتبره كثير من أبناء العربية مراجع هامة عن الإسلام فكره وتاريخه وثقافته^(١).

وأول مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة للتشكيك في الحديث النبوي كان المستشرق اليهودي «جولدتسيهر» الذي يعده المستشرقون أعمق العارفي بالحديث النبوي.

ويلخص «بفانمولر» عمل «جولدتسيهر» في هذا المجال فيقول: «لقد كان «جولدتسيهر» أعمق العارفين بعلم الحديث النبوي، وقد تناول في القسم الثاني من كتابه «دراسات محمديّة» موضوع تطور الحديث تناولاً عميقاً، وراح - بما له من علم عميق. وإطلاع يفوق كل وصف - يبحث التطور الداخلي والخارجي للحديث من كل النواحي.

وقد قاده المعاشرة العميقة لمادة الحديث الهائلة إلى الشك في الحديث، ولم يعد يثق فيه مثلما كان «دوزي» لا يزال يفعل ذلك في كتابه «مقال في تاريخ الإسلام» وبالأحرى كان «جولدتسيهر» يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرن الأول والثاني، فالحديث بالنسبة له لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول: عهد طفولته، وإنما هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصور المراحل الناضجة لتطور الإسلام، ويقدم «جولدتسيهر» مادة هائلة من الشواهد

(١) الغزو الفكري، والتيارات المعادية للإسلام: ص ٣٧.

لمسار التطور الذي قطعه الإسلام في تلك العصور التي تم فيها تشكيله من بين القوى المتناقضة والتباينات الهائلة حتى أصبح في صورته النسقية . . ويصور «جولدتسيهر» التطور التدريجي للحديث، ويبرهن بأمثلة كثيرة وقاطعة كيف كان الحديث انعكاساً لروح العصر وكيف عملت على ذلك الأجيال المختلفة، وكيف راحت كل الأحزاب والاتجاهات في الإسلام تبحث لنفسها من خلال ذلك عن إثبات لشريعتها بالاستناد إلى مؤسس الإسلام، وأجرت على لسانه الأقوال التي تعبر عن شعارتها»^(١).

وهكذا تم اختراع كم هائل من الأحاديث في العصر الأموي عندما اشتدت الخصومة بين الأمويين والعلماء الصالحين، ففي سبيل محاربة الطغيان والخروج عن الدين راح العلماء يخترعون الأحاديث التي تسعفهم في هذا الصدد، وفي الوقت نفسه راحت الحكومة الأموية تعمل في الاتجاه المضاد، وتضع أو تدعو إلى وضع أحاديث تسند وجهات نظرها، وقد استطاعت أن تجند بعض العلماء الذين ساعدوها في هذا المجال . . ولكن الأمر لم يقف عند حد وضع أحاديث تخدم أغراضاً سياسية، بل تعداه إلى النواحي الدينية في أمور العبادات التي لا تتفق مع ما يراه أهل المدينة، وقد استمر هذا الحال في وضع الأحاديث في القرن الثاني أيضاً^(٢).

هذا مجمل المزاعم التي روجها «جولدتسيهر» ليهدم بها الأصل الثاني للإسلام وهو السنة، ولسنا هنا في معرض الرد التفصيلي على هذه المزاعم، لأن ذلك يحتاج إلى بحث منفصل، وقد تكفل الرد على هذه الأباطيل كثير من أهل العلم، ومن أهم الكتب القيمة في هذا المجال كتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» للدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله تعالى - فمن أراد التفصيل فليرجع إليه .

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: ص ١٠٢ .

(٢) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ص ١٩٠، ١٩١، بيروت سنة ١٩٧٨م .

ومن المستشرقين الذين تناولوا على السنة النبوية، المستشرق «ماكدونالد» حيث جاء عنه قوله: «يجدر بنا الآن أن نتكلم على الآراء التي أسندها الحديث إلى محمد ﷺ، على أننا إذا حاولنا أن نجد في الحديث ما نستطيع أن نقطع بصحة نسبه إليه من الوجهة التاريخية، فإن عملنا هذا يكون لا غنى فيه على الإطلاق. فمن الواضح أن هناك أحاديث كثيرة لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه. كما أننا لن نستطيع أن نعرف أبداً الأحاديث التي صدرت عنه حقاً» ثم يستشهد بأقوال «جولدسيهر» السابقة في الخلط والتشكيك^(١). وقد أورد «ماكدونالد» كثيراً من الشبهات حول الحديث النبوي. ثم يختم «ماكدونالد» كلامه عن الأحاديث النبوية بقوله: «ونستخلص مما تقدم أنه لا شك في أن الأحاديث في ذاتها لا تعتبر أساساً يمكننا أن نبني عليه الحقائق التاريخية»^(٢). كما تهجّم على السنة النبوية بقصد تشويهها والتشكيك فيها عدد من أعداء الإسلام من المستشرقين والمبشرين والصهيونيين.

وخلاصة القول في الاتهامات التي وجهت إلى السنة يمكن إجمالها فيما يأتي:

(أ) الادعاء بأن هناك أحاديث كثيرة لا يمكن أن تكون قد صدرت عن النبي ﷺ.

(ب) لا يوجد حديث يقطع بصحة نسبه إلى النبي ﷺ.

(ج) الادعاء بأن الفرق الإسلامية عندما اختلفت في الآراء أخذ كل منها يضع لنفسه الأحاديث التي يؤيد بها رأيه.

(د) الأحاديث النبوية ليست إلا سجلاً للجدل الديني في القرون الأولى، الأمر الذي يجعل لها من هذه الزاوية قيمة تاريخية على الرغم من أن هذا السجل مضطرب كثير الأغلاط التاريخية، مليء بالمعلومات المضللة التي لم تؤخذ من مصادرها الأولى.

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ٢٥٥/٤، طبعة دار الشعب، القاهرة.

(٢) المصدر السابق: ٢٥٦/٤ - ٢٥٧.

هذا مجمل للاتهامات التي وجهت إلى السنة المشرفة، وجميع هذه الادعاءات لا يستند إلى دليل ولا برهان.

ومن الأمور التي لا يختلف فيها اثنان من أهل العلم المحققين أن الأمة الإسلامية هي الوحيدة من بين أمم الأرض، التي حافظت على القرآن والسنة، ويشهد بذلك التاريخ نفسه والمنصفون من المؤرخين. يقول أحد العلماء في الرد على «ماكدونالد» وغيره من أعداء الإسلام: «وقد عني المسلمون بحفظ أسانيد شريعتهم من الكتاب والسنة بما لم تعن به أمة قبلهم، فحفظوا القرآن ورووه عن رسول الله ﷺ تواتراً آية آية وكلمة كلمة وحرفاً حرفاً، حفظاً في الصدور، وإثباتاً بالكتابة في المصاحف حتى رووا أوجه نطقه بلهجات القبائل، ورووا طرق رسمه في المصحف، وألفوا في ذلك كتباً مطولة وافية. وحفظ المسلمون أيضاً عن نبيهم كل أقواله وأفعاله وأحواله، وهو المبلغ عن ربه والمبين لشرعه والمأمور بإقامة دينه، وكل أقواله وأفعاله بيان للقرآن، وهو الرسول المعصوم والأسوة الحسنة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَطُقُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) «إِنَّهُ هُوَ الْوَعْدِيُّ يُوعَىٰ» (٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣)، وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (٤)، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب كل شيء يسمعه من رسول الله ﷺ، فنهته قريش فذكر للرسول ﷺ، فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا حق» (٤). ففهم المسلمون من كل هذا أنه يجب عليهم أن يحفظوا عن رسولهم كل شيء، وقد فعلوا وأدوا الأمانة على وجهها ورووا الأحاديث عنه بعضها متواتراً إما لفظاً ومعنى وإما معنى فقط، وبعضها يعرف بالأحاديث الصحيحة الثابتة مما يسمى الحديث الصحيح

(١) سورة النجم: الآيتان ٣، ٤.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٤) رواه أبو داود بإسناد صحيح، وأحمد في مسنده.

والحديث الحسن، ولم يحتجوا في دينهم بغير هذه الأنواع التي لا يعارض فيها إلا جاحد أو مكابر»^(١).

ولعل في بعض ذلك رد على «جولدتسيهر» و «ماكدونالد» وأمثالهما من الحاقدين على الإسلام الراغبين في تشويه مصدريه الأساسيين القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وصفوة القول: إن الأحاديث النبوية لم يتجه إلى دراستها إلا عدد قليل جداً من المستشرقين والذين كان لهم نتائج في هذا الميدان لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، ومع ذلك فإن بحوثهم لم تكن ناضجة، ومناهج بحثهم لم تكن علمية، ويمثل ذروة هذه الدراسة كتابات «شاخ» التي أصبحت من المصادر الأساسية لكتاب الغرب بل ولكتييين من كتاب الشرق أيضاً. وهؤلاء قاموا بأخطر دور في تاريخ البحث العلمي فيما يتعلق بالحديث النبوي وما يتصل به من موضوعات ومن ثم وجهت سهام الطعن إلى السنة النبوية من قبل مختلف الأشخاص ومن الزوايا المتعددة وتناول كل فريق منهم جانباً من جوانبها المختلفة ويمكن إجمال ذلك في النقاط التالية:

١ - فمنهم من فسر السنة بمعنى «الأمر المجتمع عليه في الأوساط العلمية» وأنه ليس معناها سنة النبي ﷺ.

٢ - ومنهم من طعن في حجية السنة النبوية وقيمتها التشريعية.

٣ - ومنهم من ادعى أن الأحاديث النبوية لا يمكن الاعتماد عليها، لأن كتابتها تأخرت إلى قرن أو قرون، وربما تكون الذاكرة قد ضعفت في نقلها الأحاديث، وقصرت في الحفاظ عليها خلال هذه الفترة الطويلة.

٤ - ومن المستشرقين من شك في الأسانيد وقيمتها العلمية. ومنهم من أثار غير ما ذكرنا من الشبهات والأوهام^(٢).

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ٢٧٤/٤.

(٢) راجع: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: ج ١ ص (ل)، د. محمد مصطفى =

ولقد تجمع جل هذه الأفكار فتجسدت في كتابات «شاخت» الذي اكتشف بعد بحث مضمّن أنه ليس هناك حديث واحد صحيح وخاصة الأحاديث الفقهية وأنها في الواقع - على حدّ زعمه - كلام علماء المسلمين من القرن الثاني والثالث الهجريين وأقاولهم وضعت على لسان النبي ﷺ، زوراً وبهتاناً. ونظراً لما أثير حول السنة النبوية من اعتراضات، وما بذر في طريقها من تشكيكات، أصبح البحث في الأحاديث النبوية ودواوينها أمراً لازماً وواجباً محتملاً، لأن الإسلام وحضارته ومستقبله يقوم على هذا الأساس.

ونود أن نشير هنا إلى أننا لا ننكر وجود كثير من الأحاديث الموضوعية المنسوبة إلى النبي ﷺ، وأن ذلك لم يكن في يوم من الأيام خافياً على علماء المسلمين في مختلف العصور ولكن الأمر الذي لا شك فيه أيضاً أن علماء المسلمين الذين اهتموا بجمع الحديث النبوي ولم يفرطوا فيه إطلاقاً في ضرورة التدقيق الذي لا حد له في رواية الحقائق، فقد وضع القرآن أمامهم أهم قاعدة من قواعد النقد التاريخي، في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَ كُرْفَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِرِينَ﴾ (٦) (١).

وتتمثل هذه القاعدة في أن أخلاق الراوي تعد عاملاً هاماً في الحكم على روايته، وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة وطبقوها على رواية الأحاديث النبوية، وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدي على رواية الأحاديث هو الذي تطورت عنه بالتدرج قواعد النقد التاريخي (٢).

إن الجهود التي بذلها العلماء للعناية بالحديث إنما كانت امتداداً لجهود الصحابة رضوان الله عليهم في توثيق السنة والعناية بها، وحفظها من كل شائبة.

فقد تلقى الصحابة الكرام السنة على أساس أنها جزء من الدين الذي

= الأعظمي، المكتب الإسلامي، سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(١) سورة الحجرات: الآية ٦.

(٢) د. محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام: ص ١٦٠ وما بعدها.

يدينون به، ففي القرآن الكريم الحث على طاعة الرسول ﷺ، والتحذير من مخالفته، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١).

وقد أحسن الصحابة بالحاجة الملحة إلى أخذ السنة والعناية بحملها وصيانتها وحفظها وتسليمها إلى من بعدهم من الأجيال، وحرصوا على عدم الغلط في الأخذ، وفي الأداء، لأنهم أدركوا خطورة الزيادة أو النقصان على حديث رسول الله القائل: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٢). لهذا جدوا غاية الجهد وأخذوا بكافة الوسائل التي تحقق لهم أخذ السنة أخذاً صحيحاً، وأداءها أداءً سليماً، لا تبديل فيه ولا تغيير، ولا زيادة فيه ولا نقصان. ومن هذه الوسائل:

١ - الحرص على سماع الحديث.

٢ - التثبت في الرواية أخذاً أو أداءً:

وكانت لهم وسائل متعددة في التثبت من الرواية من أهمها:

(أ) المقارنة: فلقد كان أبو بكر أول من احتاط في قبول الأخبار، وخير شاهد على ذلك ميراث الجدة، وتثبت في قبول الخبر الذي ورد بشأنها^(٣). وسن عمر للمحدثين التثبت في النقل^(٤).

(ب) طلب إعادة الحديث مع الفاصل الزمني.

(ج) الرجوع إلى مصدر غائب: روى نافع قال: قيل لابن عمر: إن أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تبع جنازة فله قيراط من

(١) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٢) متفق عليه، البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ: ٣٥/١ - ٣٦؛

ومسلم، المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ: ١٠/١.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٢/١.

(٤) المصدر السابق: ٢/١.

الأجر» فقال ابن عمر: أكثر علينا أبو هريرة، فبعث إلى عائشة فسألها، فصدقت أبا هريرة. فقال ابن عمر: «لقد فرطنا في قراريط كثيرة»^(١).

(د) الرجوع إلى المصدر الأول، وهو الرسول ﷺ^(٢).

(هـ) الإقرار: عن سماك عن جابر بن سمرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بين يدي الساعة كذابين» قال فقلت له: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ^(٣) قال نعم.

(و) المواجهة: وهي أن الصحابة رضي الله عنهم كان إذا بلغهم حديث عن واحد منهم وشكوا فيه ذهبوا إليه واستيقنوا من روايته للحديث، والأمثلة على ذلك كثيرة^(٤).

فهذه الآثار معلم واضح على تحري الصحابة، وما كانوا عليه من التثبت والتدقيق في قبول الأخبار صوتاً لها من التحريف، وصيانة لها من التبديل، وليس في تمحيصهم للرواية وتشدهم في قبولها ما يفيد أنهم كانوا يكذبون ناقل الحديث بل كانوا يخشون الخطأ في النقل، والغلط في الحفظ، والوهم في الضبط، فلا يؤدي الحديث على وجهه^(٥). وتسلم الراية من بعدهم التابعون وأتباعهم، وواصلوا جهد من سبقهم، رواية وحفظاً وتوثيقاً، فسلكوا ذات السبيل واستقاموا على المنهج نفسه، وأضافوا ما توصلوا إليه من دراساتهم وبحوثهم مما

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل الجنائز: ٨٩/٢؛ ومسلم واللفظ له، كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنائز واتباعها: ٦٥٣/١.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ: ١٧٩/٨ بشرح النووي.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب القتن وأشراف الساعة: ٤٥/١٨ بشرح النووي.

(٤) راجع: ما أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الربا: ١٠/١١ بشرح النووي، والسنن الكبرى، للبيهقي، كتاب البيوع، باب تحريم التفاضل بالجنس الواحد ممن يجري فيه الربا مع تحريم النساء: ٢٧٩/٥.

(٥) أصول منهج النقد عند أهل الحديث: ص ٤٧، عصام أحمد البشير، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، سنة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

اقتضاه المقام وأوجبه الحال، فعنوا بالإسناد الذي يقوم عليه بنیان الحديث، ووقفوا على أحوال الرواة عدالة وضبطاً، وتكلموا فيهم وبينوا أمرهم، ووضعوا شروطاً للتحقق من استقامة الرواة وضبطهم، ودرسوا أحوال المروري ونظروا في ضروب التلقي والتحمل وكيفية الأداء، واتجهوا إلى معرفة علل الأحاديث الخفية والبيئة، وميزوا الأحاديث الصحيحة من السقيمة وكشفوا انتحالها وزيفها فاستقام لهم المنهج الذي حفظ من أي تبديل أو تحريف^(١). كما وضع علماء الحديث شروطاً للراوي أجملها الإمام الشافعي بقوله: «ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة (الواحد) حتى يجمع أموراً، منها: أن يكون من حدّث به ثقة في دينه، معروفاً بالصدق في حديثه، عاقلاً لما يحدث به، عالماً بما يحيل معاني الحديث من اللفظ، حافظاً إن حدث من حفظه، حافظاً لكتابه إن حدث من كتابه، إذا شرك أهل الحفظ وافق حديثهم بريئاً من أن يكون مدلساً - يحدث عن لقي ما لم يسمع منه. ويحدث عن النبي ما يحدث الثقات خلفه عن النبي - ويكون هكذا من فقه ممن حدثه حتى ينتهي بالحديث موصولاً إلى النبي ﷺ أو إلى من انتهى به إليه دونه»^(٢).

وإذا كانت الحجج قد قامت على صحة الأحاديث النبوية فإن هؤلاء المنكرين المبطلين مطالبون بأن ينقضوا هذه الحجج أولاً، ثم يؤكدوا مزاعمهم بأدلة وبراهين وما هم بمستطيعين هذا، ولا هم بقادرين على ذلك، وقد غبروا في هذه المحاولات السنين وراء السنين، وتناول زمن الحقد بهم فعجزوا وراحوا يتخبطون في غير هدى، لكنها الرغبة الملحّة في تشويه المصدر الثاني للإسلام وهو السنة النبوية المشرفة كي لا يواجهوا بجيل جديد من المسلمين يحسن التمسك بالسنة المطهرة، فينصر الله بهم دين الإسلام، ويحسن إقامة الحق والميزان، ويزرع العدل والإحسان في البشرية كلها.

وهكذا لم يصل المستشرقون إلى ما يريدون من زعزعة اعتقادات المسلمين

(١) المصدر السابق: ص ٥٦.

(٢) الرسالة: ص ٣٧٠ - ٣٧١، للإمام الشافعي.

وخلخلة تمسكهم بإيمانهم وسنة نبهم، وقد ردد بعض من المسلمين بعض الأفكار الاستشراقية^(١) ولكنها لم تجد أيضاً أذاناً صاغية من المسلمين.

٣ - اعتماد ما جاء في كتب السيرة:

يعتمد جمهرة المستشرقين من أعداء الإسلام في تحرير أبحاثهم عن الشريعة الإسلامية على ميزان غريب بالغ الغرابة في ميدان البحث العلمي، فمن المعروف أن العالم المخلص يتجرد عن كل هوى، وميل شخصي فيما يريد البحث عنه ويتابع النصوص والمراجع الموثوق بها، فما أدت إليه بعد المقارنة والتحصيص كان هو النتيجة المحتملة التي ينبغي عليه اعتقادها.

ولكن أغلب هؤلاء المستشرقين من مسيحيين ويهود يضعون في أذهانهم فكرة معينة يريدون تصيد الأدلة لإثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهتمهم صحتها بمقدار ما يهمهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية، وكثيراً ما يستنبطون الأمر الكلي من حادثة جزئية ومن هنا يقعون في مفارقات عجيبة لولا الهوى والغرض لربأوا بأنفسهم عنها، ومن الأمثلة على ذلك:

١ - ما زعمه المستشرق «جولدتسيهر» بأن الحديث في مجموعه من صنع القرون الثلاثة الأولى للهجرة وليس من قول الرسول ﷺ، وادعى أن أحكام الشريعة لم تكن معروفة لجمهور المسلمين في الصدر الأول من الإسلام، وأن الجهل بها وبتاريخ الرسول ﷺ، كان لاصقاً بكبار الأئمة، وقد حشد لذلك بعض الروايات الساقطة المتهافئة، من ذلك ما نقله عن كتاب الحيوان للدميري من أن أبا حنيفة - رحمه الله تعالى - لم يكن يعرف هل كانت معركة بدر قبل أحد أم كانت أحد قبلها^(٢).

وهذا الكلام يرده أقل الناس معرفة بالتاريخ، فأبو حنيفة وهو من أشهر

(١) د. مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ص ١٩٦.

(٢) د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم: ص ٤٤، المكتب الإسلامي.

الأئمة في الإسلام الذين تحدثوا عن أحكام الحرب في الإسلام حديثاً مستفيضاً في فقهه الذي أثر عنه، وفي كتب تلامذته الذين نشروا علمه كأبي يوسف ومحمد، ويستحيل على العقل أن يصدق بأنه كان جاهلاً بوقائع سيرة الرسول ومغازيه وهي التي استمد منها فقهه في أحكام الحرب.

ويكفي أن نشير هنا إلى كتابين في فقهه في هذا الموضوع يعتبران من أهم الكتب المؤلفة في التشريع الدولي في الإسلام.

أولهما: كتاب الرد على سير^(١) الأوزاعي لأبي يوسف رحمه الله تعالى.

ثانيهما: كتاب السير الكبير لمحمد رحمه الله، وقد شرحه السرخسي، وهو من أقدم وأهم مراجع الفقه الإسلامي، في العلاقات الدولية، وقد طبع أخيراً تحت إشراف جامعة الدول العربية.

ولا يخفى أمر هذين الكتابين على «جولدسيهر» وكان بإمكانه لو أراد الحق أن يعرف ما إذا كان أبو حنيفة جاهلاً بالسيرة أو عالماً بها من غير أن يلجأ إلى رواية «الدميري» في «الحيوان» وهو ليس مؤرخاً وكتابه ليس كتاب فقه ولا تاريخ، وإنما يحشر فيه كل ما يرى إيراده من حكايات ونوادير تتصل بموضوع كتابه من غير أن يعني نفسه البحث عن صحتها.

فقد أعرض «جولدسيهر» عن كل ما دون عن تاريخ أبي حنيفة تدويناً علمياً ثابتاً، واعتمد رواية مكذوبة يردها طالب العلم المبتدئ في الدراسة.

وقد دعم «جولدسيهر» بهذه الرواية المكذوبة ما تخيله من أن السنة النبوية من صنع المسلمين في القرون الثلاثة الأولى. . إلى غير ذلك من الأمثلة التي اعتمد فيها المستشرقون على روايات ضعيفة وردت في كتب السيرة وكتب الأدب، للتشكيك في الإسلام، وتشويه السنة النبوية، وسيرة المصطفى ﷺ^(٢).

(١) راجع مزيداً من التفصيل في كتاب السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ص ٣٨٥ وما بعدها.

(٢) الغزو الفكري للتاريخ والسيرة، سالم علي البهنساوي: ص ٧ وما بعدها، دار القلم بالكويت، ط ١، ١٤٠٦هـ.

إن كتابة السنة النبوية، وأحداث السيرة قد تأخر قليلاً، لأن النبي ﷺ، قد نهى عن هذه الكتابة حتى لا يختلط بالقرآن الكريم غيره، ولقد حاول المنافقون وأعداء الإسلام أن ينفذوا من خلال ذلك لتحقيق أحلامهم، بهدم الإسلام من داخله، فاختلقوا أقوالاً، ونسبوا إلى النبي ﷺ ففطن إلى ذلك العلماء وبدأوا يكتبون السنة النبوية ويمحصون رواياتها بدقة بالغة.

أما التاريخ الإسلامي، وأحداث السيرة فبدأ المسلمون في تدوينه في منتصف القرن الثاني للهجرة، واكتفى المؤرخون بجمع الأخبار التي يسمعونها في عصرهم بجانب ما يجدونه من المخطوطات، واعتبروا أن الأمانة العلمية تقتضي كتابة ما سمعوه، ولو كان فيه أشياء لا يصدقها الإنسان، لأنهم على يقين أن المسلمين لا يأخذون هذه الروايات دون تمحيصها، ومعرفة الصحيح من السقيم والمكذوب، طبقاً لقواعد الجرح والتعديل التي كانت سائدة، وهذا ما اعتذر عنه الطبري عما نقله من أخبار عن بعض الماجنين، حيث نبه أنه نقل ما سمع من شاعات لتخضع للتحقيق والتمحيص بمعرفته أو بمعرفة من بعده من المحققين، وهذا ما شرعه فيه ابن العربي وابن خلدون.

إن بعض أتباع الفكر الغربي قد حاولوا استغلال هذه الأكاذيب لخدمة مذاهبهم، وتقديم السيرة وأحداثها، وكذلك الأحداث التاريخية، بصورة تطوع الإسلام لهذه النظم، بل منهم من صرف الأحداث ومعاني بعض النصوص في القرآن والسنة ليخدم مذهبه^(١). كما أن بعض كتب الأدب التي تحوي هذه الشاعات قد ترجمت إلى معظم لغات العالم، ليقدم صورة سيئة عن تاريخ الإسلام، وتصور أمراء المؤمنين في مجالس الخمر، وتحت تأثير المؤامرات النسائية، وغيرها، حتى أصبحت أسماء بعضهم عنواناً للفحش والترف والانحطاط، ولقد تلقف بعض المثقفين هذه الأخبار وألفوا كتباً، وهي تسيء إلى الإسلام والمسلمين، ومنهم من يدرك ذلك ومنهم من لا يدركه.

(١) انظر: التاريخ الكبير، للبخاري: ٢٥٢/١.

إن السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي ترجمة عملية لعقيدة الإسلام، ولهذا عندما كتب هذا التاريخ بأيدي المستشرقين أو تلاميذهم، شاب هذه الدراسة أخطاء، ويرجع ذلك إلى أمرين:

الأول: أن هؤلاء لا يؤمنون بالإسلام وقيمه ومبادئه، ففسروا جهاد المسلمين وأعمالهم تفسيراً نابعاً من عقيدة هؤلاء الكتاب عن القرآن والسنة النبوية.

والثاني: أنهم اعتمدوا على ما جاء في كتب السيرة من روايات ضعيفة ومكذوبة، ومن مصادرهم كتب الأدب مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وغيره من المصادر التي لم يوثقها أهل العلم.

ولقد استفاد خصوم الإسلام من عدم تحقيق روايات كتب السيرة والتاريخ، فنقلوها كما هي، ونسبوا إلى المؤرخين، ليضعوا عليها جملة من الأكاذيب، فمثلاً ينقل الطبري عن أبي مخنف خبراً عن التحكيم، ثم نقله عنه ابن مسكون، وكذا ابن الأثير، ثم ابن كثير، وابن خلدون، ويخيل للقارئ أن الخبر قد رواه ستة من الرواة، وورد في ستة مصادر تاريخية، وهو في الحقيقة قد رواه شخص واحد وهو أبو مخنف الأزدي، ومصدر واحد هو الطبري، وهذا المصدر قد نبه صاحبه أنه نقل ماسم من صحيح وسقيم للأمانة العلمية.

وقد يخيل إلى القارئ، أن الراوي أبا مخنف الأزدي هو الصحابي الجليل مخنف بن سليم بن الحارث الأزدي^(١) الذي كان أميراً على أصبهان من قبل الإمام علي رضي الله عنه، وقد روى له أصحاب السنن الأربعة^(٢) ولكن بالبحث الدقيق والعميق يتضح غير ذلك، فأبو مخنف الأزدي يروي

(١) راجع: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١/٧٨؛ وتقريب التهذيب، لابن حجر

العسقلاني: ٢/٢٣٦.

(٢) انظر: العواصم من القواصم: ص ١٦٣، والمصادر السابقة.

عن التابعين، فهو ليس من طبقة الصحابة، واسمه لوط بن يحيى، ويكنى أبو مخنف الأزدي، وهو حفيد الصحابي الجليل سالف الذكر، وهذا الحفيد أغفله المؤلفون وعلماء الرجال، فلم يرد اسمه ضمن الرواة الثقات أو الضعفاء^(١) بل تركه أبو حاتم لأنه ليس من الثقات، فلا يجوز والحال هذه توثيق روايته.

كما اعتمد أعداء الإسلام في حربهم للقرآن والسنة والإساءة إليهما على كتب الأدب؛ لقد ألف الأدباء المعاجم والكتب خلال العصر العباسي، وذلك لينالوا العطاء من الأمراء واتخذوا من الخلافات والأخبار المتناقضة سبيلاً لتسلية الناس، ولهذا اخترعوا القصص والروايات، لتكون مادتهم في التسلية، فأساؤوا إلى أهل الفضل والتقوى من علماء المسلمين، فمثلاً تضمن كتاب البيان والتبيين للجاحظ كثيراً من الخطب المنسوبة إلى علي، وإلى معاوية، وفيها من التجريح وبذاءة اللسان ما يعف عنها السفهاء فضلاً عن كبار الصحابة رضي الله عنهم.

وفي مجال الأدب، نجد هناك من لا زال يعتبر كتاب (الأغاني) مرجعاً وكتاب (ألف ليلة وليلة) على الرغم من محاذير الاعتماد على مثل هذا النوع من التأليف أو غيرها من كتب المحاضرات، والمسلم في حاجة دائمة إلى التذكير بمصادر هذه الكتب. ومراجعة أمر الذين قاموا على كتابتها وإعدادها، فمؤلف الأغاني رجل تصفه المصادر بالإسفاف والاضطراب، وقد وصفت خلقه وصفاً يرده عن أن يكون مصدراً أميناً، وكان على غير مفهوم الإسلام الصحيح، وكان من الباطنية الذين يحقدون على الإسلام، وله جوانب حسية تبعده عن استواء الطبيعة، فضلاً عن أن مصادره أيضاً قد اتهمت^(٢).

ويأتي بعد ذلك، كتاب (ألف ليلة وليلة)، وكتاب (كليلة ودمنة) وهما

(١) سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية: ص ١٠.

(٢) شرح إحياء علوم الدين، المرتضى الزبيدي: ٤٤/١.

كتابان فارسيان هنديان في الأصل، أضيف إلى الأول إضافات كثيرة مما يرويه الرواة من أساطير وأقاويص وخرافات ليست هي عملاً محققاً، ولا عملاً موثقاً، فكيف يمكن أن تكون مصدراً يستند إليه في فهم الحقائق والتاريخ؟! .

ومن المصادر التي تحتاج إلى انتباه ويقظة: كتاب الإمامة والسياسة، وقد وصفه السيد محب الدين الخطيب، بأنه كتاب لقيط مجهول النسب، وأن مؤلفه (ابن قتيبة) برىء منه، لأن المصادر التي ترجمت له لم تشر إلى نسبة هذا الكتاب له، كما أن أسلوبه يخالف أسلوب ابن قتيبة في سائر كتبه .

وكذلك كتاب (المضمون به على غير أهله)، المنسوب إلى الإمام الغزالي، فهو مكذوب عليه، وقد صحح ذلك السيد المرتضى الزبيدي في شرح الإحياء^(١). وقد اشتمل الكتاب المكذوب على الغزالي على التصريح بقدم العالم، ونفى علم القديم بالجزئيات، وهو ما يخالف آراء الغزالي في صفوة كتبه .

ومن أخطر المصادر التي اعتمد عليها الغزو الفكري كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري، فهذا الكتاب طبع منه جزء في ألمانيا عام ١٨٨٣م، ثم تولى اليهود طبع جزء آخر عام ١٩٣٦م طبع في أورشليم، وقدم له بالعبرية، ومن هنا جاءت شبهة هذا الكتاب المضطرب الذي اعتمد عليه بعض الباحثين أمثال طه حسين، في القول بأن شخصية (عبد الله بن سبأ) شخصية وهمية، وهذا يتفق مع مخططات اليهود في إنكاره والتهوين من شأنه، وهو ما جرى على القول به مؤلف الفتنة الكبرى^(٢).

أما كتاب (رسائل إخوان الصفا) فهو جدير بوقفة مستأنية: ذلك أن هذا الكتاب قد خدع الكثيرين، وحاول دعاة التغريب إسباغ صورة من البطولة

(١) راجع: سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية: ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق: ص ١٤ .

والكرامة على موضوعه وكتابه، وهم ما زالوا يرددون القول عن أهمية هذه الرسائل هادفين إلى تصوير الفكر الإسلامي وهو مكبل بقيود الإغريق، وسلاسل اليونان، وأن هذه الرسائل كانت عصارة هذا التأثير البالغ.

وقد أكد الباحثون بأن فلسفة إخوان الصفا ليست مستمدة من المصادر الإسلامية الأصيلة، ولكنها مستمدة من فلسفات اليونان من ناحية، وفلسفات المجوس وعبدة النيران والكواكب، وجماع الزرادشتية والمانوية والمزدكية، وهم ينظرون إلى الأنبياء نظرة ملحدة فيرونهم كالحكماء، وقد ادعوا أنهم إنما يريدون إعادة الوحدة إلى المسلم والنصراني والمجوسي واليهودي والأفلاطوني والمثائي والفيثاغوري، وهم في الأغلب يمجدون المجوسية ويجعلونها أفضل الأديان، ومن هنا يبدو خطرهم وإفسادهم من حيث إن الإسلام هو الدين الخاتم دين التوحيد الخالص، المحرر من الوثنيات القائم على النص الموثق^(١).

الحق أن المستشرقين ودعاة التغريب هم الذين ألحوا على هذه الكتب وأولوها الاهتمام، وأعادوا طبعها وأذاعوا بها، وحرصوا أولياءهم من التغريبين أن يتحدثوا عنها، وأن يحرضوا الباحثين على اعتمادها مراجع وذلك لأنها تفسد الحقائق وترسم صورة غير صحيحة ولا صادقة للمجتمع الإسلامي.

٤ — النظريات لبعض الفرق الإسلامية الشاذة:

لقد اعتمد الغزو الفكري على ركائز متعددة منها ما هو ظاهر، ومنها ما يخفى أمره على كثير من المسلمين، وسوف أكتفي بذكر هذه الركائز والإشارة إليها في إجمالها، ولعل في ذكرها ما يكشف لجمهور المسلمين عن أعدائهم وينير أمامهم الطريق، طريق العمل الجاد للإسلام، حتى تعود الأمة الإسلامية إلى

(١) راجع: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام: ص ١٣١ وما بعدها، مرجع سابق.

وضعها الصحيح بين أمم الأرض قال تعالى: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(١).

وهذه الركائز منطلقات خطيرة لشن الغارات المتتالية على الإسلام فكراً وسلوكاً، وعلى المسلمين أفراداً وهيئات، وعلى بلاد المسلمين وخيراتهم في الحاضر والمستقبل؛ وهذه الركائز بدت تتلخص في الآتي:

- ١ - الصهيونية أو اليهودية .
- ٢ - التبشير بالمسيحية في المسلمين أو التنصير وتلك هي التسمية الأكثر دقة .
- ٣ - الاستعمار المتحالف مع الصهيونية والتنصير .
- ٤ - المبادئ والنظريات المعادية للإسلام مثل:
 - (أ) الديمقراطية .
 - (ب) الشيوعية .
 - (ج) القوميات بأنواعها العديدة .
- ٥ - الفلسفات الهدامة التي تحركها وتعاون معها في أغلب الأحيان ركيزة أو أكثر من تلك الركائز التي أشرنا إليها آنفاً، وهذه الفلسفات أو المذاهب هي:
 - (أ) الوجودية .
 - (ب) الفوضوية .
 - (ج) القاديانية أو الأحمدية .
 - (د) البابية والبهائية .
 - (هـ) الماسونية والروتاري وغيرهما .

ولئن بدت هذه الركائز في نظر البعض متخاصمة، فقد يكون هذا صحيحاً حيناً وباطلاً وخداعاً حيناً آخر، ولكن الأمر الذي لا تختلف فيه ركيزة مع أخرى

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠ .

هو العداء الشديد للإسلام والمسلمين، والعداء الظاهر حيناً والمستتر حيناً آخر. العداء الذي تشنه علينا أجهزة هذه الركائز ورجالها غير المسلمين حيناً، والذي تشنه علينا أجهزة ورجال مسلمون في بعض الأحيان^(١).

وقد حرص أعداء الإسلام من المستشرقين ومن تأثر بفكرهم من المسلمين على التنويه ببعض الفرق الإسلامية الشاذة، ونحاول أن نشير هنا إلى بعض هذه الفرق، فمنها على سبيل المثال:

١ - القرامطة: اهتم المستشرقون بالقرامطة وصوروهم بأنهم طلاب العدل والإصلاح، وهم الذين عجزوا عن أن يحققوا أي منهج يمكن أن يوصفوا به على أنهم دعاة حق حين امتلكوا زمام الحكم في القرن الرابع الهجري، بل انكشف باطلهم وزيفهم، وظهرت حقيقتهم أنهم صنائع لليهود وانقضوا على الدولة الإسلامية بالتآمر والتعاون مع أعداء المسلمين وخصومهم^(٢).

فقد تعددت أبحاث في هذا العصر تحاول أن تصف حركة القرامطة بأنها حركة العدل الاجتماعي في الإسلام، أشار إلى هذا الدكتور طه حسين في «مجلة الكاتب المصري» التي كان يصدرها لحساب اليهود في أواخر الأربعينيات، وقد أضاف إليها حركة الزنج أيضاً، وتحدث عن هذا الكاتب الفرنسي جارودي - قبل إسلامه - حين ربط بين نحلة القرامطة وبين العدالة الاجتماعية في الإسلام.

وقد كتب بعض أهل العلم في دحض هذه الشبهات المفتراة، في مقدمتهم الدكتور محمود قاسم، الذي قال: «إن دعوة القرامطة لم تكن تسعى في الحقيقة إلى تحقيق كرامة الإنسان وتمهد لاحترامها، بل كانت حركة انفصالية تمت في عصر تحلل الدولة العباسية إلى دويلات، فكانت حركة القرامطة استمراراً لثورة الزنج التي قامت قبل منتصف القرن الثالث الهجري، وكانت نوعاً من الأخذ بالثأر، وقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم، على إذلال العرب عن

(١) قارن بما جاء في: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٢٥، مرجع سابق.

(٢) سموم الاستشراق والمستشرقين: ص ٥٤.

طريق استرقاقهم والتنكيل بهم. أما حركة القرامطة التي قامت في الشمال الغربي لبلاد العراق، فقد اتخذت مركزاً لها في منطقة الكوفة، وفي بعض بلاد الشام وفي سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي، ثم استقرت آخر الأمر في البحرين^(١).

٢ - الباطنية: بذل المستشرقون جهوداً في إحياء التراث الباطني المجوسي، مستهدفين أصالة الفكر الإسلامي، ويبدو ذلك واضحاً في تركيزهم على إحياء كل المخطوطات التي تحمل هذه السموم. وخاصة ما يتصل بالإلحاد والإباحية، وما يتصل بوحدة الوجود والحلول والاتحاد، والمجون. . أمثال شعر بشار بن برد، وأبي نواس، وكتب ابن سبئين وغلاة الرافضة والإسماعيلية والفاطميين.

٣ - ثورة الزنج: ومن ناحية أخرى فقد استغل دعاة التفسير المادي للتاريخ، بعض المواقف الهدامة في التاريخ الإسلامي، لمحاولة وصفها بأنها حركة تقدمية أو ثورية، ويولون (ثورة الزنج) نفس الاهتمام (بحركة القرامطة) وقد جعلوا من (علي بن محمد) بطلاً، وهو الذي تجمع المصادر على عدم صحة ما ادعاه من نسب علوي، وقد خدع الناس بهذا النسب، وجعل من البصرة مركز نشاطه فجمع حوله (الزنج) في البصرة في ثورة عارمة أشعل نارها سنة ٢٥٥هـ وادعى خلال ذلك أنه المهدي المنتظر، كما ادعى بعد ذلك النبوة. ولا يمكن لمنصف ولا لمثقف أن يؤمن بأن مثل ثورة الزنج أو فئة القرامطة يمكن أن تمثل منهجاً إسلامياً أصيلاً.

وكانت لهم تفسيرات باطنية للقرآن والحديث، وقد لعب اليهود وراء هذه الحركات، وكانت الإسرائيلية مادة فكرهم. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن القرامطة وغيرها من الدعوات الباطنية يهودية الأصل والفروع^(٢).

(١) المرجع السابق: ص ٥٦.

(٢) تاريخ الفرق الإسلامية، د. محمود محمد مزروعة: ص ١٨٤، دار المنار، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٤ - رسائل إخوان الصفا ودعواهم: سبق الحديث عن إخوان الصفا ورسائلهم في الصفحات الماضية، ولكن الذي أود أن أنبه عليه هنا هو أن كثيراً من الباحثين يرددون الإشادة برسائل إخوان الصفا على نحو يوحي بأنها جزء من التاريخ الثقافي الإسلامي، وقد أولى المستشرقون والمبشرون والدكتور طه حسين، مثل هذه الأعمال المشبوهة اهتماماً، وأعادوا طبعها ونشرها، ودفَعوا كثيراً من الباحثين المسلمين الذين يسافرون إلى الغرب - على حساب بعثات التبشير والاستشراق - إلى دراستها، وإلى تبني وجهة نظرهم فيها، واستغل ذلك لخدمة أهواء الفكر الليبرالي والماركسي على السواء.

وقد كشف الباحثون المنصفون فساد هذه الدعوى وأن العلاقة بين إخوان الصفا والباطنية وثيقة الصلة، حتى قال المستشرق كازونفا: «إنني على أتم الثقة من أن آراء إخوان الصفا هي برمتها آراء الإسماعيلية» ومحور هذه الآراء يتصل بوحدة الكون (أي وحدة الوجود وما يتصل بها من الاتحاد والحلول مما يتنافى مع مفهوم الإسلام الصحيح)^(١).

ومن الأساليب التي سار عليها المستشرقون وهي أنهم كانوا يجمعون الشبهات المختلفة ويؤلفون بينها لإعطائها صورة كاملة. ومن الأمثلة على ذلك ما قام به المستشرق الألماني «ولهلم هورنباخ - الأستاذ في جامعة بون بألمانيا» من جمع قطع ونتف بعض الأقوال من كتاب (الإصابة) للحافظ ابن حجر العسقلاني ثم نشرها على أنها كتاب (الردة) لابن حجر الذي ألفه أبو زيد ابن الفرات المتوفى سنة ٢٣٧هـ وهو فارسي الأصل. وقد ضاع هذا الكتاب، فأشار ابن حجر إليه في بعض المواضع، فما كان من المستشرق (ولهلم) إلا أن جمع هذه القطع على أنها تراجم لأشخاص ارتدوا عن الإسلام، ولا يقوم بمثل

= وقارن بما جاء في الملل والنحل، للشهرستاني: ١/١٩١، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(١) راجع مزيداً من الشبهات في: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٢٥ وما بعدها.

هذا العمل إلا مغرض صاحب هوى، لأنه يخالف منهج البحث العلمي السليم إلى غير ذلك من الشبهات التي زعمها المستشرقون ولا أصل لها في الإسلام^(١).

٥ - القاديانية والبهاية: كما عمل أعداء الإسلام على تبني دعوات ضالة أخرى كالقاديانية والبهاية والادعاء بأنها حركات النهضة الإسلامية كذباً وبهتاناً واستعمالاً لضرب الإسلام من الداخل، وتعمل القوى التغريبية جميعاً ممثلة في الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي عن طريق الصحافة والثقافة والمدرسة إلى تبني هذه الحركات الهدامة واحتضانها وخداع البلاد الإسلامية. ومن يراجع هاتين الدعوتين المبطلتين البهاية والقاديانية يعرف أنهما استهدفتا ضرب حركة اليقظة الإسلامية التي كانت قد قطعت مرحلة كبيرة في طريق التماس المنابع الأصيلة وجوهر الإسلام بمفهوم التوحيد الخالص، وإن كلتا الحركتين قد نشأ في أحضان النفوذ الأجنبي، واستهدف ضرب الإسلام في أعظم قيمه الأساسية وهي فريضة الجهاد. وقد كشفت الأبحاث التاريخية عن علاقة أكيدة بين الدعوتين وبين الاستعمار والصهيونية والهندوكية^(٢).

يقول العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه (القادياني والقاديانية): «لقد ظهرت الديانة القاديانية في آخر القرن التاسع عشر المسيحي في الهند بعد استقرار الحكم الإنكليزي فيها، وهي ثورة على النبوة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - وعلى الإسلام، ومؤامرة دينية وسياسية، إن وجد لها نظير في الخطر والضرر على الإسلام ففي الحركة الإسلامية الباطنية التي تولى كبرها عبيد الله بن ميمون القداح في القرن الثالث الهجري، وأشك أنها بلغت مبلغ الأولى - القاديانية - في أصالة الفساد ودقة المؤامرة ومعاداة الإسلام.

وتبنتها الحكومة الإنكليزية واحتضنتها وساعدتها العوامل الاجتماعية والسياسية والفكرية الكثيرة التي توفرت في عصر ظهورها فانتشرت على بعدها

(١) المد الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر، أنور الجندي: ص ٣٧، دار الاعتصام.

(٢) راجع: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، محمد محمود الصواف: ص ٣٤٦ وما بعدها، دار الثقافة للطباعة، ط ١ عام ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م مكة المكرمة.

من الإسلام، وأصبحت طائفة كبيرة يحسب لها الحساب، وأصبحت (قاديان) مركز دعوة ودعاية وسياسة يدين لها، ويؤم شطرها بعض كبار المثقفين - الثقافة العصرية - ورجال الدولة، ولا يرى نشاطها إلا في المناظرات، وإثارة الشكوك والشبهات في المسلمين وتأييد السياسة الإنكليزية، ونشر الدعاية لعقيدها الخاصة في الهند وخارج الهند» ثم قال في موضع آخر: «أطبق العلماء على تضليل القاديانيين وتكفيرهم وأصبح ذلك كلمة اجتماع لم يشذ منها إلا شاذ وأفتوا وألفوا في ذلك مؤلفات كثيرة وأصدرت مراكز الفتوى فتاوى صريحة بكفرهم وارتدادهم عن دين الإسلام، وأصدرت محكمة بهاولبور سنة ١٩٣٥م، - بعد مناقشة طويلة دامت عامين كاملين واشترك فيها كبار علماء أهل السنة وكبار علماء القاديانية - حكمها بكفر القاديانيين، وعدم صحة نكاح المسلمة بالقادياني. اهـ (١).

وقد انتقلت ثمار هذه الدعوة الهامة إلى أفريقية بين المسلمين هناك، فسمي القاديانيون هناك أنفسهم «أحمدية» تمويهاً على الناس وإيهاماً لهم بأنهم منتسبون إلى النبي ﷺ، بينما الحق أنهم ينتسبون إلى غلام أحمد القادياني.

ولقد تناول القاديانيون على مقام الرسول الكريم ﷺ، وعلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وكذلك تخطبوا في فهم القرآن الكريم، مما يدل على جهلهم وضلالهم (٢). فالقاديانية - ركيزة من ركائز الغزو الفكري للإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا.

٦ - البابية والبهاية: البابية والبهاية من المذاهب الخطرة والفلسفات المعادية للإسلام، والتي كان لليهود فيها يد طولى، وإن اختيار بلاد فارس ليفرخ فيها هذان المذهبان لم يكن عبثاً من المدبرين والكائدين للإسلام.

وأثر اليهود في الحركتين الخبيثتين واضح، وذلك أن زعيم البهاية في فترة

(١) راجع: المحافظ إحسان إلهي ظهير، القاديانية: ص ٦، ٧، ٢٦، ٢٨، ٣١، ٣٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٣١، ٣٢.

ما من تاريخها كان أحد حاخامات اليهود، ومنشأً البابية – التي هي أصل البهائية – أن الميرزا علي محمد الشيرازي، أغواه يهوديان فأوهماه أنه سيكون له شأن وأدخلا في روعه أنه سيصبح منقذ الإنسانية، فنادى بما ينادي به اليهود، فأنكر البعث والجنة والنار، وقال بوحدة الوجود كما يقول اليهود، وأودع ذلك في كتابه «البيان»، وصادفت دعوة الميرزا هوى في نفوس بعض الضالين من الفرس، فاغتر ميرزا بهذا وسمى نفسه «الباب» أي الطريق الوحيد الذي يوصل الإنسان إلى الله، وسميت الفرقة التي تبعته «البابية» ثم زاد غرور هذا المخدوع فادعى أنه «النقطة» أي منبثق الحق وروح الله، وجعل الباب إليه أحد مريديه المخلصين له واسمه «حسين يسرويه» من خراسان^(١).

ولقد ألقى الباب الصلوات الخمس وصلاة الجمعة والجماعة إلا في الجنائز، وأباح نكاح الأخت من أخيها.

وفي مؤتمر برشت ١٢٦٤هـ - ١٨٤٧م أعلن البايون انسلاخهم عن الإسلام، وحاربوا الإسلام واللغة العربية، ودخلوا مع الحكومة في فارس في حروب ومنازعات أدت في النهاية إلى إصدار الحكم بإعدام الميرزا «النقطة» وخبأ صوت هذه الفلسفة الضالة والمذهب المعادي للإسلام حيناً غير طويل من الزمان، ثم أخذ أتباعه يعملون في الخفاء والسرية ودخل فيها عدد كبير من اليهود.

وفي عام ١٢٨٥هـ - ١٨٦٧م خرجت البابية من عكا باسم جديد هو البهائية نسبة إلى زعيمها الجديد ميرزا حسين علي المازندراني الذي يلقب «بهاء الله».

وقد رعى اليهود – ولا يزالون يراعون – البهائية، ودفَعوا إلى أقطار الأرض يؤيدونها بالفكر والمال، فأصبحت حركة «صهيونية أمريكية»، وظهر ذلك جلياً حينما توفي (شوقي رباني) حفيد البهاء، حيث اجتمع المجلس الأعلى للطائفة البهائية في إسرائيل، وانتخبَ صهيونياً أمريكياً اسمه «ميسو» ليكون رئيساً روحياً لجميع أفراد الطائفة في العالم كله.

(١) قارن بما جاء في الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا: ص ٣٧.

٥ — محاربة الفكر الإسلامي والدعوة إلى فصله عن جذوره :

كان للغزو الفكري الغربي المنظم المخطط، الذي تساندت فيه كل القوى الاستعمارية واستخدمت فيه كل الوسائل والأساليب، آثاره ونتائجه الخطيرة في حياة المسلمين، تلك الآثار التي بدأت تبرز وتتسع يوماً بعد يوم، ومن أخطر نتائج هذا الغزو الفكري شيوع التبعية الفكرية للغرب، والعبودية الذليلة لكل ما يصدر عن الفكر الدخيل من مبادئ وقيم ومناهج وأنظمة، وأخلاق وتقاليد، وأفكار ومفاهيم.

وكان من مظاهر هذه العبودية بروز أناس يدعون إلى اتباع الغرب في كل شأن من شؤون حياته الفردية والأسرية والاجتماعية، والمادية والروحية والثقافية.

وبرز من بين ظهراني المسلمين من يدعو — في صراحة حيناً، وبالتواء أحياناً — إلى إطراح الإسلام، وشريعة الإسلام، وحضارة الإسلام.

رأينا ذلك في الهند وأيناه في تركيا ومصر وفي غيرها من بلاد العرب والإسلام، ورأينا بعض المسلمين في هذه البلاد من يقول لأمته: انسلخي من دينك وتاريخك وشخصيتك، حتى لا تستعبدى للأجنبي. وأي استعباد أشد وأدهى من انسلاخها من ذاتيتها، واتباعها لهذا الأجنبي نفسه، وذوبانها فيه؟^(١).

ولو كان هؤلاء دعاة التغريب مؤمنين حقاً ما رضوا لأنفسهم ولا لأمتهم بالتبعية والانصهار في خصومها الطامعين فيها، ولو كانوا مسلمين حقاً لرفضوا كل منهج غير منهج الإسلام، ولم يقبلوا أن يبيعوا دينهم وملتهم ليتبعوا ملة اليهود أو النصارى، فيرضوا عنهم ويشنوا عليهم.

وما أروع القرآن وهو يجلي هذا الموقف إذ يقول: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾^(٢).

(١) المصدر السابق: ص ٣٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٥.

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ بِلْمِهِمْ قُلُوبَ هَذَىٰ اللَّهُ هُوَ
الْهُدَىٰ وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١).

لقد بذل اليهود والنصارى ومن شايعهما كثيراً من الجهود لمحاربته وفصله عن جذوره، وكان ذلك وفق مخطط بعيد المدى، جرى تنفيذه مرحلة بعد مرحلة في دقة ومتابعة خطيرة. وقد ارتبط هذا المخطط بخيوط مختلفة منها الإرساليات التي استقدمت إلى الشرق واستقرت في بيروت والقاهرة واستانبول، ومنها فئة ١٨٦٠ ومنها مناهج كرومر وليوتن ولاتيمري ودنلوب، ودراكور وزويمر وهانوتو ولورنس وجلوب من بعد (٢). وهي المناهج التي وضعت ووصفت من بعد بأنها أعمال التغريب، وأشار إليها هاملتون جب المستشرق البريطاني ومعه أربعة في بحث مستفيض ظهر تحت عنوان «وجهة الإسلام» عام ١٩٣٠ م.

ولقد اشترك الاستعمار والصهيونية والنفوذ الغربي جميعاً في مخطط واحد يستهدف وضع الفكر الإسلامي العربي تحت النفوذ التغريبي ومحاولة غزوه وتدميره والتشكيك فيه، وإثارة الشبهات من حوله من أجل القضاء على الذاتية العربية الإسلامية والتهام هذه الأمة وإذابتها في بوتقة النفوذ العالمي الذي تسيطر عليه اليهودية التلمودية بعد أن استوعبت الفكر الغربي المسيحي واحتوته. إن أخطر ما يدعوننا إليه الغزو الثقافي هو «التبعية» وإن أخطر ركائز الفكر الإسلامي هو الأصالة والتميز واستحالة الاندماج أو الذوبان أو الاحتواء في الفكر الأممي.

فالإسلام هو النموذج المتميز بالتكامل من ناحية بينما الفكر الغربي يتسم بالتجزئة والانشطار، وهو الجامع بين العقيدة والفكر في وحدة لا تفصل، وهو الذي يعتمد على الوحي والنبوة ورسالة السماء أساساً له، ثم يكون العقل وسيلة من وسائله والعلم منهجاً يجري في مجراه.

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

(٢) راجع مخططات هؤلاء الدعاة في كتاب «الإسلام والثقافات العربية في مواجهة تحديات الاستعمار» أنور الجندي.

ومن أخطر الوصايا التي تجاهلها المسلمون، والتي كانت بعيدة الأثر في حمايتهم من ضربات الغزو الفكري والتغريب، لو أنهم حرصوا على التمسك بها، هي دعوة القرآن لهم إلى «الحذر» من الأوهام والشبهات التي حفل بها التاريخ القديم، وذلك بعد أن كشف القرآن عن زيفها وأبان وجه الحق في مختلف القيم التي طرحت، وخالفت كلمة الله، وتعارضت مع الفطرة والعقل.

ولو أن المسلمين تمسكوا بهذا التحذير لكفاهم ذلك عن كثير مما وقعوا فيه من محاذير، وقد بين القرآن الكريم محاولة الاحتواء في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ تَطِيعُوهَا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكمُ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ (١).

وقال جل شأنه: ﴿وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْتَمُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْرِكُونَ بِالَّذِلَّةِ وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ (٣).

كما حذر الرسول الكريم ﷺ، من الوقوع في خطر العقائد الزائفة وأن الله قد ختم به النبوة والرسالة وأمر المسلمين بما أمرهم به القرآن الكريم من النظر في ملكوت السموات والأرض، كما حثهم على طلب العلم، وبين لهم أن أي علم نافع أوتيته المسلم فهو أحق الناس به.

لقد كان لإحياء الفكر البشري القديم آثاره البعيدة في إثارة الشبهات، وإحياء الزندقة والإباحة، غير أن علماء المسلمين وأئمتهم قد واجهوا هذه الأزمة الخطيرة، ودحضوا الشبهات وأبانوا وجه الحق في الأمور كلها.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٤٤.

وفي العصر الحديث حاول الاستعمار الذي دخل إلى بلاد المسلمين وهو يحمل معه التغريب والغزو الثقافي وأداتيهما التبشير والاستشراق، أن يعيد هذه الشبهات من جديد ويقدمها في صورة مذاهب وفلسفات.

ومن أبرز هذه المفاهيم المخالفة للفطرة المعارضة للعقل المختلفة مع رسالة الإسلام ومفهوم القرآن الكريم:

- ١ - الدعوة إلى إنكار الغيب والبعث والجزاء والجنة والنار.
- ٢ - الدعوة إلى سقوط التكليف عن كل من وصل إلى معرفة الله.
- ٣ - عبادة قوى الطبيعة.
- ٤ - نظريات الفيض والإشراق والاتحاد والحلول.
- ٥ - دعاوى الروحية الحديثة وتحضير الأرواح.
- ٦ - مذاهب البهائية والماسونية.
- ٧ - دعوات الإقليمية كالفرعونية والفينيقية.
- ٨ - فصل الدين عن المجتمع والدولة.
- ٩ - طرح المفاهيم الوافدة في القومية والعدل الاجتماعي والقانون.
- ١٠ - الدعوة إلى العالمية والأممية.
- ١١ - ادعاء التعرض بين العروبة والإسلام.
- ١٢ - طرح النظرية المادية المنكرة لوجود الخالق.
- ١٣ - الدعوة إلى التحلل والإباحة والحرية الدينية والأخلاقية^(١).

وهذه الدعوات كلها قد وجدت في غير بلاد المسلمين، ونشأت هذه

(١) راجع: شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي: ص ٥٣، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

الدعوات لا تعرف التوحيد، وأنها هي القاتل التي صرعت الأمم والحضارات، والإسلام جاء ليمحوها ويقيم للإنسانية منهجاً ربانياً في مصدره، إنسانياً في تطبيقه يقوم على العدل والحق والإيمان بالله تعالى.

كما رسم الإسلام للحياة الدنيا طريقها الواضح إلى العمران في نطاق الأخلاق وإقامة المسؤولية الفردية، والالتزام الخلقي وربط الدنيا بالآخرة.

إن هدف أعداء الله هو «ذوبان الشخصية الإسلامية» وذلك بالقضاء على مقومات كيانها وعلامات القوة فيها، واحتوائها بأخلاق الضعف والانحلال والإباحة حتى لا تقوى على مواجهة التحديات.

ذلك أخطر أهداف العدو: بناء أجيال ذليلة ضعيفة، لا تؤمن بحقها، ولا تؤمن بربها، ولا تستطيع البقاء، ولا تصمد أمام الخطر والتحدي.

إن إعادة بناء الفكر الإسلامي في إطار الإسلام وعلى قواعده الرئيسية من وحدانية الله، واستخلاف الناس في الأرض تحت حكم الله، إنما يمثل جوهر الأيديولوجية التي لم تتخلف طوال تاريخ الإسلام والتي لا يستطيع العرب والمسلمون أن ينحرفوا عنها.

لقد أثبت الفكر الإسلامي صلابته واستقلاليته وقدرته على البقاء فإنه في عديد من أزماته لم يسقط ولم يتداع، ولم تضطرب أصول مقوماته، بل بقي محتفظاً بذاتيته في مواجهة الغزو^(١).

إن محاربة الفكر الإسلامي وبذل الجهود المتتالية من أعداء الإسلام لفصله عن جذوره سوف تفشل وتتحطم على صرخة الإسلام، وذلك إذا ما تمسكنا بكتاب الله تعالى الذي رسم لنا الطريق المعبد بالأمن والاستقرار، قال تعالى:

(١) المصدر السابق: ص ٧٤.

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١).

إن الطريق الصحيح لمواجهة الغزو الفكري، هو طريق الشريعة الإسلامية والأخلاق الإسلامية، والعقيدة الإسلامية، وهو الطريق الذي يهدي إلى بناء الشخصية المؤمنة التي تبيع نفسها في سبيل الله، وتسترخص الموت والجهاد في سبيل نصره الحق.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

المحور الثالث

العلمانية والحدثة

أولاً: إتجاهاتها الخطيرة في محاربة الإسلام.
ثانياً: الطريق الأنجع في دفع تحركاتهما العدوانية
ورّد نشاطاتهما المتنوعة في المجالات الفكرية، والتعليمية والإعلامية

١ - معنى العلمانية وأثرها في فكر المسلمين:

لفظ العلمانية... قد تشعر الكلمة في اشتقاقها أنها تعني رفع شعار العلم،
ومن ثم فلا تعارض بينها وبين الإسلام... بل إنها إحدى وسائل الإسلام وبعض
أهدافه.

وهو ما نحسب أنهم قصدوا إليه حين ترجموا معنى الكلمة في لغتها
الأصلية... ليقع المسلمون، في هذا الوهم^(١). فالعلمانية ترجمة خاطئة لكلمة
(Secularism) في الإنجليزية، أو (Secularite) بالفرنسية، وهي كلمة لا صلة لها
بلفظ «العلم» ومشتقاته على الإطلاق. فالعلم في الإنجليزية والفرنسية معناه
(Science) والمذهب العلمي نطلق عليه كلمة (Scientism)^(٢) والنسبة إلى العلم
هي (Scientific) أو (Scientifique) في الفرنسية.

والترجمة الصحيحة للكلمة هي «اللا دينية» أو «الدينيوية»، لا بمعنى ما يقرب
الآخروية فحسب، بل بمعنى أخص هو: ما لا صلة له بالدين أو ما كانت علاقته
بالدين علاقة تضاد، ومن ثم كانت العلمانية تعني اللا دينية.

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٥٩، مرجع سابق.

(٢) الكنز، معجم فرنسي عربي، جزءان، بيروت - لبنان.

فالعلمانية هي أول عناصر الاتجاه الليبرالي الديمقراطي الذي ساد حياة المسلمين بتأثير الاستعمار. وكان ذلك أخطر النتائج، وأعمق الآثار التي حفرها الاستعمار، وخلفها من بعده: عزل الإسلام عن الدولة؛ وعن توجيه الحياة العامة، وعن قيادة المجتمع.

وبعبارة أخرى: العمل على سيادة المفهوم الغربي لما يسمى ديناً، وما يسمى دولة، وتأكيد الفصل بينهما، حتى لا يعود في يوم قريب إلى الدين سلطانه، فيسيطر على الدولة ويوجهها.

يقول المستشرق الفرنسي «هانوتو»: «إن الإسلام دين وسياسة، وإن شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية أو الرابطة الوطنية، فالوطن عندهم هو الإسلام، وهم يقولون: إن السلطة مستمدة من الألوهية، فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون»^(١).

ثم أشار «هانوتو» إلى نجاح فرنسا في فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، في تونس، وقال: «إنها قد استطاعت أن تحقق هذا الانقلاب العظيم بلباقة وحذق، دون أن تثير ضجيجاً أو تدمراً، فتولدت دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس، وتسربت الأفكار الأوروبية بين السكان بدون أن يتألم منها إيمان المحمدي (يعني المسلم) وبذلك انفصل الحبل بين هذا البلد والبلاد الإسلامية الأخرى، الشديدة الاتصال ببعضها ببعض» ودعا «هانوتو» في آخر كلامه إلى أن تتخذ تونس مثلاً يقاس عليها ونموذجاً ينسج على منواله.

فالعلمانية: أوجدها اليهود لتقضي على نفوذ الكنيسة في أوروبا، وأول ثورة نجح بها في هذا الموضوع هي الثورة الفرنسية، ثم جاءت — بعد ذلك ثورات أخرى في أقطار أوروبية كثيرة، تمكنت أن تقوم بفصل الدين عن الدولة، وبدأ التعليم العلماني في الدول الغربية بعد تلك الخطوات، وفقدت الكنيسة مكانتها التي كانت تنبوؤها في التربية والتعليم.

(١) راجع: «تاريخ الأستاذ الإمام»، للسيد رشيد رضا: ٤٠١/٢ — ٤١٤.

هكذا عرف الفصل بين الدين والدولة في أمم الغرب، لقد حدث هذا، لأن رجال الدين عجزوا عن تقديم الحلول الصحيحة السليمة للمشكلات التي كان يعاني منها المجتمع.

أما الإسلام فإنه لا يعرف شيئاً من هذا الفصل المزعوم، والقرآن الكريم يدعو الناس إلى الإيمان بأحكامه الدينية والدنيوية، ويعتبر الإيمان ببعض القرآن والكفر ببعضها الآخر كفراً، وأن القرآن أنزله الله تعالى ليكون الحاكم بين المسلمين، قال تعالى: ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم يَمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾^(١).

والإسلام ينظم شؤون الفرد والأسرة والدولة، بل ينظم شؤون المجتمعات: قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم يَمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا لَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَأً﴾^(٢).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وردت في هذا المعنى.

ولقد كان النبي ﷺ، يقوم بوظيفة الدعوة إلى الله تعالى، وتعليم الناس القرآن الكريم، وأحكام الإسلام، وفي الوقت نفسه كان رسول الله ﷺ، رئيس الدولة والقائد لجيوش المسلمين، ذلك أن الإسلام يمثل ثلاثة عناصر:

١ - العقيدة.

٢ - الشريعة.

٣ - الأخلاق.

وإذا كان الغرب قد بذل جهوداً جهيدة في غزو الفكر الإسلامي، فإنه أراد من ذلك إيقاع العالم الإسلامي في براثن الاحتواء الغربي، إذ عند ذلك يتخلى الفكر الإسلامي عن مكانته، وفي ذلك نجاح كبير للصهيونية وأهدافها التي عملت - ولا تزال كذلك تعمل - من أجل البقاء في فلسطين.

(١) سورة المائدة: الآية ٤٩.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

إن الحضارة الغربية تعاني اليوم آلاماً كثيرة وساعة احتضارها ليست بالبعيدة، هذه حقيقة أقرها كثير من كتاب الغرب، وفلاسفته، الذين عرفوا منه الحضارة الغربية، من الداخل لا من الخارج فقط. ومن أجل ذلك عقد في (انكلترا) في أوائل القرن التاسع عشر مؤتمر خطير، قرر المؤتمرون فيه هذه الحقيقة - حقيقة انهيار الحضارة الغربية - لكنهم تواصلوا أن يوجهوا سهامهم بعنف وقوة أشد من ذي قبل إلى هذا البديل الذي يحتمل أن يتبوأ مكان الحضارة الغربية، ويحل محلها، هذا البديل هو الأمة الإسلامية: بعقيدتها وشريعتها وقيمها وثقافتها وحضارتها، وقد عملوا منذ يومئذ إلى يومنا هذا على أن يضاعفوا من جهودهم ليفتتوا الأمة الإسلامية عن طريق الغزو الفكري ليتأخر زمن انهيار حضارتهم، وذلك بإذابة (الشخصية الإسلامية) واحتواء (الفكر الإسلامي)^(١).

٢ - آثار العلمانية في التعليم:

كانت البلاد الإسلامية في العصور الماضية، إسلامية التعليم، ولكن الاستعمار الغازي كبر عليه أن يترك للمسلمين دينهم، بعد أن سلب منهم خيرات أرضهم، وسعى بكل وسائله ليحقق فيهم جهلهم بدينهم مما كان لهذا أعظم الأثر في حياة المسلمين سلباً، ولقد تناولت هذا الموضوع بشيء من التفصيل في المحور الأول (الفقرة الثانية بعد الاقتصاد).

٣ - آثار العلمانية في الإعلام:

العلمانية في التعليم أقدم وأخطر، والعلمانية في الإعلام أعم وأشمل. ومن هنا تكمن خطورتها، فإذا كان التعليم يخاطب الآلاف بمناهجه، فإن الإعلام يخاطب الملايين ببرامجه؛ وأكثر هذه الملايين، ساذجة تؤثر فيها الكلمة، مقروءة أو مسموعة، أو متطورة، وقد بذل الاستعمار جهده في السيطرة على أجهزة الإعلام في البلاد الإسلامية، واستطاع أن يوجه الصحافة، والإذاعة المسموعة،

(١) راجع: المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري، إبراهيم النعمة، ط ٢ ص ٦ وما بعدها.

والمرئية، والمسرح، وفنون الغناء، والتصوير، والهدف من ذلك هو تشكيل أجيال وفق قيم وأسس بعيدة عن الإسلام في عقيدته وشريعته، وقد فصلت القول في هذا الموضوع في المحور الأول «الفقرة الخامسة».

أما الحداثة: إذا كان المراد منها المدنية الحديثة وما نجم عنها من أنظمة الحياة الإنسانية من مبادئ فاسدة منحرفة، جرت على العالم كثيراً من العواقب الوخيمة وويلات الثبور والدمار، وسوف تتجرع الإنسانية غصص شرورها ومآسيها وتعاني منها الكثير من الآثار السيئة، والنتائج البشعة ما دامت تسير في ركابها وتتبع خطواتها.

فإن مثل هذه الحداثة والحياة العصرية المنحرفة يرفضها الإسلام، ويدعو إلى قيام المدنية الفاضلة التي تنبثق من أسسه وقواعده، وقد أقام للإنسانية أعظم مدنية عرفها التاريخ.

ونحن المسلمين لا نعيش بمعزل عن هذا العالم، لأننا جزء منه، وقد تأثر نفر من أبناء الشرق بمظاهر تلك المدنية المنهارة، ووقع في أسرها، وأصبح من عبيدها، فلم يعد الشعور بفساد مبادئها وسوء عاقبتها كافياً لأن تكون بمنجاة منها، وصار من الضروري أن نعمل جاهدين للتخلص من نظام هذه المدنية وتحرير أنفسنا من ربة قادتها من الغربيين وأتباعهم، وإلاً واجهنا المصير السيئ بالسقوط في الهوة المرتقبة التي ينحدر إليها العالم كله يوماً بعد آخر، وسيلقى حتفه فيها إن عاجلاً أو آجلاً.

فالحياة الاجتماعية الحاضرة تقوم على مبادئ الزيف والضلال، والنظريات الخاطئة والأفكار الهدامة هي التي تسود أنحاء العالم.

وأظمة التعليم ووسائل التوجيه والإعلام تنضح بالشر، وتثير الغرائز، وتهتك الفضيلة وتقتل الأخلاق، وتدعو إلى الإباحية والتحلل، حيث سيطرت على العقول الآداب الماجنة والصحافة الفاجرة، والإذاعات اللاهية والأفلام الخليعة.

والنظام الاقتصادي الذي يتحكم في معيشة الناس نظام منحرف فاسد لا يعرف الخير من الشر، ولا يميز بين الحلال والحرام.

والسلطة القانونية التي توجه المدنية وتسخر إمكانياتها تستوحي تصوراتها،
للأخلاق والتمدن من المبادئ المادية البحتة.

ولهذا يتحتم على المسلمين مقاومة هذه النظم بعزم حديدي لا يعرف
الوهن، حتى يستبدلوا بها شرعة الله لإنقاذ العالم كله، أولاً من تلك العواقب
الوخيمة، وإنقاذ أنفسنا بالتالي منها، وهذا أمر يحتاج إلى جهاد مرير متواصل
للقضاء على أنظمة الحياة الفاسدة، وإقامة قواعد الحياة الإنسانية بشتى نظمها
على شرع الله الذي نؤمن بصلاحه، ونثق في قدرته على إعادنا وتوفير الرفاه
والسلام لنا، ونعتقد أنه الوسيلة الوحيدة لنجاة الإنسانية كلها وخلصها.

والمدنية الحديثة التي يقوم في ظلها نظام الحياة الحالي بمختلف فروع
العقائدية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية والثقافية تركز على دعائم ثلاث هي
المبادئ الرئيسية الآتية:

١ — العلمانية أو اللادينية (Secularism).

٢ — القومية (Nationalism).

٣ — الديمقراطية (Democracy).

وهذه المبادئ الثلاثة خاطئة فاسدة، وهي منبع الشرور والمصائب
والمآسي التي تعاني الإنسانية من جرائها اليوم ما تعانيه.

أما كيف نتقده هذه المبادئ؟ وما المنهج الذي نسلكه في نقدها فهذا
يحتاج إلى بحث مستفيض، لا يتسع المقام للخوض فيها. راجع مزيداً في
التفصيل — في كتاب — الإسلام والمدنية الحديثة أبو الأعلى المودودي، ص ٢٧
وما بعدها.

أسس ووسائل مقاومة الغزو الفكري

إن الغزو الفكري الذي عمت ضلالاته، وكثرت اتجاهاته، إن لم نقف
أمامه وقفة جادة، فسوف تكون العاقبة أليمة، والخطب جسيماً «ولات ساعة

مندم». ذلك أن نصر الله وتأييده يتوقف على مقدار تمسكنا بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، وإن الهزائم التي تعرضنا لها كانت نتائج طبيعية لبعثنا عن القرآن والسنة، قال جل شأنه: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾^(١).

وقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾^(٢).

فوسائل مقاومة الغزو يجب أن تشمل المباشرة وغير المباشرة، المدرسية واللامدرسية، والجماعية والفردية، والداخلية والخارجية، البشرية والمادية، التقليدية والمستحدثة، الدفاعية والهجومية. . وبذلك لا نترك وسيلة من غير استثمار، ولا أداة بغير توجيه.

ومقاومة الغزو الفكري عمل كبير لا يمكن أن يقوم على الاجتهادات الفردية، بل لا بد من تخطيط مدروس، وأسس عميقة لكي نستطيع مواجهة الغزو الفكري، مواجهة نشطة. ولا يمكن الإحاطة بكل وسائل المقاومة في مثل هذه العجالة لأن هذا موضوع يحتاج إلى بحوث متعددة، وسوف أشير إلى أهم هذه الوسائل بإيجاز كما بدا لي:

١ - إنشاء لجان علمية متخصصة لرصد الكتب والدوريات القديمة والجديدة، في مجال الأدب والتاريخ والثقافة، والتي تحمل كثيراً من السموم والشبهات حول الإسلام في جميع نواحيه والتي كتبها المبشرون والمستشرقون عن الإسلام بهدف التشكيك فيه.

٢ - إنشاء دوريات بلغات متعددة ونشرها في البلدان القريبة لتعريف الناس بالإسلام، وبيان الأخطاء التي وقعت في كتب المبشرين والمستشرقين عن الإسلام.

٣ - عقد المؤتمرات العلمية في البلدان الغربية، يشارك فيها العلماء المسلمون المهتمون بالغزو الفكري، ويدعى لها علماء الغرب المهتمون بدراسة الإسلام.

(١) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

٤ - إقامة صلوات علمية بالمبشرين والمستشرقين لبيان الجوانب التي أخطأوا في فهمها أو عرضها.

٥ - تبني إعداد الرسائل العلمية في الجامعات الإسلامية للرد على حملات الغزو الفكري، وترجم فيما بعد إلى لغات أخرى.

٦ - إدخال مادة الغزو الفكري كمقرر إجباري يدرسه جميع الطلاب في المرحلة الثانوية والجامعية لمعرفة هذا الخطر الذي يهدد كيانهم، ويقضي على الإسلام من داخله.

٧ - الشمول لكافة القطاعات والفتات: إذا كان الغزو موجهاً لجميع جوانب ونظم حياتنا، فلا بد أن يكون الدفاع كذلك عن جميعها بحيث لا تترك جبهة يمكن للغزو الفكري أن يتسلل منها، أو يتغلغل فيها، فيشمل الرد على الغزو الثقافي في مجالات التعليم والإعلام والاقتصاد، فتكون هذه المجالات معبرة عن وجهة نظر الدولة الإسلامية.

لهذا كله يبدو «الشمول» كأول أساس في استراتيجية مواجهة الغزو الفكري بحيث لا يجد الغازي - الواضح أو المستتر - جانباً يستطيع تحصناً فيه، أو جيباً يستطيع تحوصلاً في داخله^(١).

٨ - التنسيق بين الدول والهيئات: إذا كان للغزو الفكري بنوك معلومات، وغرف عمليات بين كافة دوله وهيئاته الرسمية والشعبية، العلنية والسرية، فكذلك ينبغي أن يكون الأمر في المقاومة، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك ويعلو عليه.

فمن المستحيل على بلد إسلامي بمفرده - أيأ كان حجمه، وأيأ كانت إمكاناته - أن يواجه تيارات الغزو بمفرده، أو يتغلب على الطوفان بمعزل عن زملائه وإخوانه في الإسلام.

(١) راجع: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٨٤، مرجع سابق.

وإذا كان هذا التنسيق ضرورة وجود لجميع الدول الإسلامية، فينبغي أيضاً أن يكون ضرورة حياة لجميع الهيئات الإسلامية داخل البلد الواحد، بحيث تتكامل الجهود، وتتكاتف الإمكانيات، وتتآزر القوى.

أما الفرقة والتناحر، فلا نتيحة لها إلاّ تبديد الجهود، وتمزيق الصف، وتفتيت الشمل، ومن هنا لا بد للدول الإسلامية - إن أرادت العزة والمنعة والتمكين في الأرض - أن تغلق باب الخلاف وتفتح باب الوفاق، وتوجه إمكانياتها وجهدها للعدو الأصلي. وللخطر الداهم في إطار من العقيدة والشريعة، وبذلك تصنع الحاجز الحقيقي، والسد المنيع ضد التسلل للغزو الفكري داخل ديار المسلمين، وهذا ما ندبهم إليه القرآن الكريم، ليتعاونوا على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١).

٩ - الاعتماد على الذات: من أنجع الوسائل في مقاومة الغزو الفكري، أن نعتد على أنفسنا، ويظهر هذا الاعتماد في أمور مختلفة، وجوانب متعددة، من بينها الفكر، والمعلومات، والعاملون، والميزانية، فإذا كانت مقاومة الغزو الفكري تعتمد على أفكار مستوردة، ونظريات مستعارة، يستحيل أن تكون هذه المقاومة فعالة ولها نتائج إيجابية، ومن هنا فلا بد أن نركز على الإسلام عقيدة وشريعة، نظرياً وتطبيقاً، فلنستطيع مقاومة الغزو - ينبغي أن تكون مثل الإسلام ومفاهيمه وقيمه ومضامينه واضحة في أذهان القيادات والدعاة المسؤولين والولاة، ففاقد الشيء لا يعطيه.

١٠ - تعدد وسائل الدفاع والهجوم: فالمقاومة التي يكتب لها النجاح والاستمرار يجب أن لا تقتصر على جانب دون آخر لأن البعض منا قد يتصور أحياناً أن الخطبة والعظة، والدرس والتوجيه هي أفضل وسائل الدعوة، وأقوى وسائل الرد والكشف، بيد أن الأمر يتجاوز ذلك، ومن هنا كان لا بد لوسائل

(١) سورة المائدة: الآية ٢.

الدفاع والهجوم أن تتجاوز ذلك إلى الكتاب والمجلة والصحيفة، والبرنامج الإذاعي، وبرنامج التلفاز، والمسرحية الإسلامية، والقصة والشعر، والنادي الإسلامي، والنشاط الرياضي والترويحي الموجه وجهة إسلامية، والمتحف والمعرض الإسلامي، والمكتبة والمرسم، والمختبر والمسجد فمن أخطر ما يكون أن نتصور أن مقاومة الغزو يمكن أن تكون بالكلمة وحدها، مع أن الهجوم بمختلف الأسلحة، وعلى سائر الجبهات.

١١ - دراسة نفسية المهاجمين والمقاومين: من وسائل مقاومة الغزو الفكري، الدراسة العميقة العلمية لنفسية المهاجمين من أعداء الإسلام، ومعرفة نفسية المدافعين عن الإسلام من أهل التوحيد.

فكيف لنا أن نعمل بطريقة علمية ومنظمة، ونحن لا نعرف أهداف الغزو، المعرفة الكافية، ومن المؤكد أنه لا تكفي المعرفة السطحية، أو المعرفة المبنية على سرعة حكم، كما أن المعرفة المبنية على معلومات قديمة وخبرات سالفة لا تكفي، لأن الغزو يغير من أساليبه وألوانه، كما قد يغير من أهدافه، ويبدل في ترتيب أولوياته، من هنا فلا بد من دراسة متعمقة دونما تحيز أو انفعال لهذه الغزوات لتحليل أساليبها وتطورها، وللوقوف على أسرارها ودقائقها.

ومثل هذه الدراسة تقتضي حيطة ونزاهة، وموضوعية، وأمانة، وجدلاً، ومثابرة، وطول نفس وأناة، ومعاشرة وفهم، وبذلك كله نستطيع اكتشاف الدوافع والاتجاهات والوسائل والغايات.

أما دراسة نفسية المدافعين من المسلمين، فلا بد من دراسة عميقة لنفسية الجماعات الإسلامية في مختلف بقاعها ومناطقها. وأن تكون هذه الدراسة شاملة للاحتياجات والدوافع، وللمحركات والمثيرات، وللإستجابات وردود الفعل، فقد تكون المشكلة في جماعة إسلامية، نقص خدمة طبية، أو نقص تمويل أو مياه، وقد تكون المشكلة نقص مدارس وجامعات، أو ضعف تمويل أو ادخار، وقد تكون المشكلة في عدم وجود سوق للعمل، أو سوق لتصريف المنتجات، وقد تكون في الجهل والامية بأنواعها ودرجاتها المختلفة.

من هذه الثغرات يتسلل الاستعمار، وتتغلغل الشيوعية، وتحاول الصهيونية والمؤسسات المرتبطة بها تدميراً وتخريباً لأصالتنا، وتفكيكاً لعرى ديننا ووجدتنا.

لهذا كله لا بد من الدراسة العميقة لنفسية وظروف ومتغيرات كل جماعة استهدفت أو تستهدف للغزو حتى نفهم الأرضية الثقافية، والنقص الموجود، والثغرة التي حاول الأعداء التسلل منها.

فالدعو يدرك نقطة الضعف، ومركز الاهتمام وينهال عليه^(١).

١٢ – الدفاع والتبليغ: فمن بين الأسس الراسخة التي يجب اعتمادها في مقاومة الغزو الفكري، أن المقاومة خير وسيلة للدفاع، والوقاية خير من العلاج، والتحصن المبكر أفضل من انتظار العدوى، لهذا من الطبيعي جداً أن تتحرك المقاومة في خطوط متواصلة، ودفاعات منتظمة بحيث لا تنتظر في قواعدها وخنادقها، بل تتقدم في نقاط أمامية، ومواقع تبادلية.

فبدلاً من انتظار وقوع الغزو، علينا استخدام كل الوسائل التي تحول دون وقوعه. . كما ينبغي الانتقال إلى مواقع الأحداث لأن ذلك يتيح لنا متابعة ذكية، وصدماً نشطاً واكتشافاً مبكراً، وبذلك نتابع الأحداث فور وقوعها، ونتعقب التغييرات حال قيامها مما يجعلنا باستمرار على بينة بما يدور على المسرح وخلف ستائره، بما يجري عندنا وحولنا، ومثل هذه المتابعة لا تقتصر على مجرد رصد الأحداث، بل المشاركة أيضاً في صنعها.

فالقوة اليوم ليست في انتظار ماذا سيحل بنا من هجوم، أو يطرأ علينا من غزو، بل في تداركه قبل وقوعه، واكتشافه قبل بدايته.

لهذا كانت الدعوة الإسلامية دفاعاً وتبليغاً^(٢).

١٣ – التربية الإسلامية: لا سبيل إلى تحقيق تلك الأسس والوسائل التي

(١) انظر: مزيداً من التفصيل في وسائل مقاومة الغزو الفكري: ص ١٣٢ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق: ص ١٤٨ وما بعدها.

تحدثنا عنها فيما مضى إلا بالتربية الإسلامية، والتنشئة الإسلامية، التي يمكن بها إعداد الأجيال إعداداً صالحاً وسليماً ومستقيماً، وراسخاً وعميقاً، وبهذه التربية نضمن حصانة للأجيال يعصمها من الانحراف، ويمنعها من الانزلاق.

لقد انتصر المسلمون بالتربية الصالحة، وبناء الأجيال وصياغتها على الإيمان والرجولة، ثم إعادة صياغتها كلما واجهتهم الأزمات، وفي مختلف الأحداث الضخام، ففي مواجهة حملات الصليبيين والتتار والفرنجة، أعاد المسلمون تكوين الفرد المسلم على أخلاق الإسلام، فاستطاعوا أن يحققوا النصر على نفس المستوى الذي حققه المسلمون الأوائل، أو قريباً منه.

وقد فهم المسلمون أن التربية في مفهوم الإسلام تعتبر الفرد المسلم بناءً متكاملًا قوامه الروح والعقل والجسم، وتعني به وفق فهم شامل، أساسه الإيمان بالله، والعمل في الأرض من أجل النماء والبناء والإنشاء.

وتقوم التربية الإسلامية على بناء الفرد في البيت بالقدوة، وإقامة علاقة وطيدة بين البيت والمدرسة من خلال الأب والأستاذ والمتعلم جميعاً، كما أكد علماء التربية الإسلامية على ضرورة تلقي العلم من الأساتذة لا من الكتب وحدها، وربطوا بين التعليم والتربية على أساس أن العلم وحده لا يكفي، ما لم تصحبه تربية الذوق والعقل والروح.

وقوام التربية الإسلامية أساساً: هو «الأخلاق» ولا يقر الإسلام الفصل بين التعليم والتربية أو بين التربية والأخلاق.

وفي مفهوم الإسلام: أن العلم لا بد أن تحميه وتظاهره قيمة أخلاقية واضحة، وذلك حتى لا ينحرف أو يفسد أو يتجه وجهة ضارة بالمجتمع الإنساني؛ لقد آمن المسلمون بأن العلوم الحديثة لا تنهض بالمسلمين نهوضاً حقيقياً إلا إذا حصلت ضمن دائرة لغتهم وتاريخهم ومشربهم.

ومن هنا حق عليهم أن يترجموا العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية، والتكنولوجية والطبية جميعاً إلى لغتهم، ثم ينطلقوا من خلالها إلى بناء قوتهم

الذاتية على مقتضى بناء الأجيال المسلمة القوية المحصنة بالإيمان والتقوى المفطومة عن الشهوات، المندفعة لتحقيق رسالة المرابطة في الثغور في سبيل حماية الحدود مع الإعداد بالقوة لرهاب العدو، ثم إقامة المجتمع الإسلامي على النحو الذي رسمه القرآن الكريم، ويبتته السنة المشرفة^(١).

١٤ - البعثات إلى خارج بلاد المسلمين: المسلمون كفرادى وجماعات في المجتمع الإنساني لا يمكن لهم أن يعيشوا بمعزل عن العالم من حولهم، فلا بد من الاختلاط بالناس على مختلف مستوياتهم وتباين ثقافتهم وبلدانهم، وقد تضطرنا ظروف الدراسة والعمل إلى إرسال بعثات ومهمات للخارج تستغرق شهوراً أو سنيناً.

وهذا مطلب ضروري وهام لا يمكن التراجع عنه لصالح التنمية: إنتاجاً وخدمات، كما أن وجود شركات أجنبية كثيرة في مجتمعاتنا الإسلامية قد يلزمها ابتعاث عدد من خبراتنا وفنيينا وعمالنا للتدريب في مراكزها.

وهذا مطلب حيوي ونافع يسهم في إعداد رأس مال بشري قاعدة كل تنمية، وأساس كل تطوير إداري وتقني، وهذا أمر مشروع وعادل، لا غبار عليه.

إلاً أن هذه البعثات والمهمات من غير توجيه وتحصين، واهتمام ورعاية قد ينفطر عقد بعض أصحابها: فقد لا يعودون إلى الوطن، أو يعودون وقد أصبحوا من الرافضين لكل ما هو إسلامي، ومن المنادين بكل ما هو غربي.

وهؤلاء هم قادة الغد.. وهم الذين سيضعون، وينفذون خطط التنمية التي نتعقد عليها الآمال.. وهم الذين أنفقنا في سبيلهم كل غال ورخيص من أجل تعليمهم، وانتقائهم، وابتعاثهم، وهم الذين سيحتلون المراكز الهامة في الجامعات ومراكز البحث، والوظائف العليا.. وهم الذين سيديرون المؤسسات بعد تدريبهم وإعدادهم لشهور أو سنوات.. إلخ.

(١) راجع: مزيداً من التفصيل في: شبهات التغريب في غزو الفكري الإسلامي، ص ٣٩٨ وما بعدها، أنور الجندي، مرجع سابق.

ويمثل هذا القطاع من المسلمين قلب التنمية والتقدم، لهذا كان مستهدفاً أكثر من غيره؛ وأجهزة الغزو تحاصر طلاب البعثات قبل ابتعاثهم، وبعد عودتهم إلى أوطانهم، وفي بعض الحالات تكون مسؤولة عن الانتقاء والإشراف على المبعوثين^(١).

ولاشك أنها تحاول اصطيد هؤلاء أثناء دراستهم وتدريبهم على أساس أنهم قادة المستقبل، وزعماء الغد، وهناك عشرات الأمثلة المشهورة والخفية لعملية الانتقاء، الإعداد، التجهيز، الابتعاث، الإشراف، العودة، التصعيد، والمؤازرة بالدعم.

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أنه ليس كل مبعوث يتأثر بأجهزة الغزو الفكري، بل هناك آلاف مؤلفة أثناء بعثتهم وبعد عودتهم كانوا خير مثال للإسلام والمسلمين، وبعضهم كان من الدعاة إلى الله المخلصين، وقد عادوا إلى بلادهم أكثر تمسكاً بدينهم لأنهم عرفوا قيمة الإسلام، فالقضية ليست في البعثة، بل في المبعوث؛ ومع وجود هذه العناصر الطيبة بين المبعوثين، ولكي نضمن سلامة كل المبعوثين فلا بد من مجهود إداري وبشري ومالي مضاعف لخدمة مبعوثينا بالدعوة الهادفة، والكلمة الطيبة، والمطبوعة الواضحة، واللقاء المثمر، والتوجيه الفعال، والنشاط المنتج، والإشراف الأبوي، والمشرفين الأكفاء، والتنظيم الجيد، والدعم المالي، وزيادة أقطاب الدعوة والتنسيق بين الدول، والتعاون بين المنظمات، وعدم التطاحن، وانتقاء قيادات الإشراف، فبمثل ذلك التمدد والتحصين يمكن لنا حماية بعثاتنا بقدر الطاقة والاستفادة منها بقدر الإمكان^(٢).

وختاماً: فلعل القارئ الكريم يجد فيما كتبنا المنبه الذي يلفت نظره إلى خطورة الغزو الثقافي، وكيفيه أن يفتح عينيه لكي يرى بنفسه أمارات هذا الغزو

(١) في حالات كثيرة تختار شركات وهيئات عدداً من الطلاب والمتدربين، وبناء على المنحة أو حتى البعثة الحكومية، تشرف هذه الهيئات على طلابنا وتبايعهم وتكتب عنهم تقريرها.

(٢) انظر: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ١٩٤.

قائمة حوله، وربما يستطيع أن يستخلص من الوقائع المعروضة لنظره، نتائج لم تلفت انتباهنا، أو غفلناها عمداً خلال هذا العرض، احتياطاً من التطويل ورغبة في الموضوعية.

إن المسلم في هذا العصر مدعو لأن يفهم دينه فهماً صحيحاً ويجعل من نفسه قرآناً يمشي على رجلين: يتمثل أوامر الله ونواهيه، وهو منشراح الصدر، لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى الله ورسوله، ويسلم به تسليماً، ثم يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة عن بينة وبرهان، متبعاً أسلوب القرآن الحكيم في دعوة الناس إلى الهدى.. فهل في الوجود من هدي أعظم من هدي الإسلام؟

إن العالم - كله - اليوم، يخطط البرامج، ويضع المناهج من أجل إطفاء نور الشريعة أو حجب شمسها عن العالم.. فهل يتنبه المسلمون إلى ما يراد بهم ودينهم؟

يقول الحق جل شأنه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشِئَ نُورُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

وحين تتجه البشرية إلى الإسلام، فعندئذ فقط يصبح التقدم العلمي والتكنولوجي دافعاً إلى الأمام، ومعيناً على الخلافة الراشدة، بدلاً من وضعه الحالي، الذي يدفع البشرية إلى الانحلال النفسي والخلقي، كما يدفعها إلى الدمار..

والدلالات التاريخية التي أبرزت الصحة الإسلامية إلى الوجود اليوم، في الوقت الذي تميل فيه الحضارة المادية الغربية إلى الهبوط، هي قدر الله الغالب، الذي يشير إلى المستقبل، وحين يقف العالم - كله - يحارب الإسلام الذي هو قدر الله تعالى، فمن يكون الغالب، ومن يكون المغلوب؟

قال جل شأنه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢).

(١) سورة التوبة: الآية ٣٢.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢١.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَيْهِ أَمْرُهُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

وكل ما نتمناه هو أن تقوم في البلاد الإسلامية رابطة من المثقفين لكشف هجمات الغزو الفكري على الإسلام، ورد هجماتهم على حصوننا، وبذلك نكون قد أدينا بعض ما أوجب الله علينا، وسوف يكتب لنا في النهاية النصر على أعدائنا: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور عمر يوسف حمزة

(١) سورة يوسف عليه السلام: الآية ٣١.

(٢) سورة الحج: الآية ٤٠.

أهم مراجع البحث^(١)

مرتبة على حروف المعجم

- ١ - الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، الطبعة الرابعة، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ٢ - أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د. علي محمد جريشة، ومحمد شريف الزبيق، دار الاعتصام.
- ٣ - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د. محمود حمدي زقزوق، كتاب الأمة، الطبعة الأولى، صفر ١٤٠٤هـ.
- ٤ - الاستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم، د. مصطفى السباعي، طبعة المكتب الإسلامي، بدون تاريخ.
- ٥ - الإسلام والثقافات العربية في مواجهة تحديات الاستعمار: أنور الجندي، دار الاعتصام.
- ٦ - الإسلام والحضارة الغربية: محمد محمد حسين، نشر دار الفتح، طبعة ثانية، سنة ١٣٩٣هـ.
- ٧ - البرهان في علوم القرآن: الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م، بيروت.
- ٨ - تاريخ السودان الحديث: ضرار صالح ضرار، مكتبة الحياة، بيروت، طبعة رابعة، ١٩٦٨م.

(١) هناك مراجع كثيرة في الهوامش لم أذكرها خشية التحويل.

- ٩ - تاريخ الفرق الإسلامية: د. محمود محمد مزروعة، دار المنار، طبعة أولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ١٠ - تاريخ القرآن: د. عبد الصبور شاهين، لبنان - بيروت.
- ١١ - تاريخ القرآن، لابن عبد الله الزنجاني، الكتاب العربي.
- ١٢ - التاريخ الكبير: الإمام البخاري، الدار اللبنانية.
- ١٣ - التبشير والاستعمار: مصطفى خالد وعمر فروخ، دار صادر، بيروت.
- ١٤ - تجديد التفكير الديني، الدكتور محمد إقبال، دار الكتب اللبنانية.
- ١٥ - التعليم باللغات الأجنبية في المدارس الرسمية... إلخ، القاهرة سنة ١٤٠٠هـ.
- ١٦ - تفسير القرآن العظيم، للإمام ابن كثير الدمشقي، دار الفكر، بيروت.
- ١٧ - تقريب التهذيب، للإمام ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ١٨ - تهذيب التهذيب، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية. الهند (مصورة بدار صادر، بيروت).
- ١٩ - حصوننا مهددة من داخلها: محمد محمد حسين، الطبعة الخامسة، المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ٢٠ - الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، ربيع ١٣٩٧هـ مارس ١٩٧٧م.
- ٢١ - دراسات في الحديث النبوي، وتاريخ تدوينه، د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٢٢ - دراسات في القرآن: الدكتور السيد خليل، دار الفكر، بيروت.
- ٢٣ - دائرة المعارف الإسلامية، طبعة دار الشعب بالقاهرة.
- ٢٤ - سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر.

- ٢٥ - السنن الكبرى، للإمام البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، طبعة أولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في حيدر آباد - الدكن - الهند ١٣٤٤هـ .
- ٢٦ - السنة ومكانتها في التشريع: الدكتور مصطفى السباعي المتوفى سنة ١٩٦٤م - طبعة ثانية، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٨هـ .
- ٢٧ - سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، أنور الجندي، دار الجيل، بيروت، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة. الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
- ٢٨ - شرح إحياء علوم الدين، المرتضى الزبيدي، دار الفكر، بيروت .
- ٢٩ - شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، طبعة ثانية، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ٣٠ - صحيح البخاري بحاشية السندي، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، بيروت .
- ٣١ - صحيح ابن حبان: ترتيب الأمير علاء الدين الفارسي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، مطبعة المجد، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .
- ٣٢ - صحيح مسلم، للإمام ابن الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
- ٣٣ - طبقات ابن سعد، للإمام محمد بن سعد بن منيع البصري، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .
- ٣٤ - العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي بتحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، بالقاهرة، ١٣٧١هـ .
- ٣٥ - الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، الطبعة الثانية، جدة سنة ١٣٨٧هـ .
- ٣٦ - الغزو الفكري للتاريخ والسيرة: سالم علي البهنساوي، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٦هـ .

- ٣٧ - الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (مجموعة بحوث) سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٣٨ - قضية التخلف العلمي والتقي في العالم الإسلامي المعاصر، د. زغلول راغب النجار، كتاب الأمة الطبعة الأولى، صفر ١٤٠٩هـ .
- ٣٩ - كتاب المصاحف، لابن داود: أثر جفري .
- ٤٠ - مباحث في علوم القرآن: الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين، طبعة ١٣، سنة ١٩٨١م.
- ٤١ - المدخل لدراسة السنة النبوية، د. يوسف القرضاوي، مكتبة المدارس - الدوحة - قطر ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٤٢ - المدخل لدراسة القرآن الكريم: محمد محمد أبو شهبة، الطبعة الثانية، الأزهر . ١٩٥٨.
- ٤٣ - المدخل إلى القرآن: بلاشير، ترجمة رضا سعادة.
- ٤٤ - المرشد الوجيز، لأبي شامة، دار الفكر، بيروت.
- ٤٥ - مسند الإمام أحمد، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، بتحقيق أحمد محمد شاكر، طبع دار المعارف بالقاهرة.
- ٤٦ - المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله النيسابوري (الحاكم) طبع حيدرآباد، ١٣٤١هـ .
- ٤٧ - المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري، إبراهيم النعمة، طبعة ثانية.
- ٤٨ - المستشرقون والمبشرون في العالم العربي الإسلامي، مكتبة الوعي بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ .
- ٤٩ - ما يقال عن الإسلام، موسوعة العقاد الإسلامية، المجلد الخامس، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩١هـ .
- ٥٠ - من قضايا القرآن، د. إسماعيل أحمد الطحان، المكتبة العربية، الدوحة - قطر.

- ٥١ - الموافقات في أصول الأحكام، للإمام إبراهيم بن موسى الغرناطي المعروف بالشاطبي المتوفى ٧٩٠هـ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.
- ٥٢ - وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، تأليف الدكتور حسان محمد حسان، ١٤٠١هـ.
- ٥٣ - واقعا المعاصر: الأستاذ محمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

المناقشة

الغزو الفكري

الرئيس:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب لعالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الغزو الفكري هو موضوع هذه الجلسة المسائية والعارضان هما الشيخ محمد معروف الدواليبي والشيخ محمد نبيل غنايم، وحيث إن الشيخ محمد معروف قد تضمن عرضه اليوم في الجلسة الصباحية فإننا نرجو من الشيخ محمد نبيل غنايم أن يتفضل، والمقرر هو الشيخ البيهقي.

الدكتور محمد نبيل غنايم:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن والاه.

أيها الحضور الكرام. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فالبحوث المقدمة في موضوع الغزو الفكري وبنوده تربو على العشرة، أولها ورقة مقدمة من معالي الدكتور معروف الدواليبي حول ندوة أمريكا والإسلام وتحديات التسعينات التي نظمها قبل أيام معهد دراسات الشرق الأوسط الأميركي في واشنطن، وقد تفضل معاليه بالكلام عنها في الجلسة الصباحية.

والبحث الثاني تقدم به فضيلة الشيخ محمد علي التسخيري، وقد قسم بحثه إلى خمسة فصول، تناول في الأول منها مقدمة عن الغزو الفكري وأهدافه بصفة عامة، وفي الثاني قدم نموذجاً تطبيقاً لآثار هذا الغزو في إيران، وفي الفصل الثالث تكلم عن كيفية مواجهة هذا الغزو واحباط مخططاته بالرجوع المصادر

الإسلامية والعمل بها في جميع مناحي الحياة وليس بالإعلام السطحي المعتمد على الشعارات الجوفاء، وفي الفصل الرابع تناول شبهات أعداء الإسلام في مصدره الرئيسين القرآن الكريم والسنة النبوية، من حيث التشكيك في حجة الاستدلال بالقرآن الكريم والاستدلال بالسنة النبوية، وأثبت بطلان تلك الشبهات، ثم تناول في الفصل الخامس علاقة الإسلام بالحكم والدولة وأكد التحامهما ورد على شبهات العلمانيين في ضرورة فصل الدين عن الدولة وأبطلها بأسلوب جميل وعرض طيب.

أما البحث الثالث فهو لفضيلة الحاج شيت محمد ثان، وقد جاء مختصراً وأشار فيه إشارات سريعة إلى معنى الغزو الفكري وخطورته ومنافذه، ثم أشار إلى عدد مجمل من الشبهات التي أثيرت حول القرآن الكريم والسنة النبوية ولم يقم بالرد عليها، كما تحدث إجمالاً عن كل من العلمانية والقومية والصهيونية، وفي النهاية قدم عدة مقترحات وأساليب لمقاومة هذا الغزو والقضاء عليه.

والبحث الرابع من إعداد الدكتور أبو بكر دو كوري، وقد ركزه حول الشبهات التي أثيرت ضد التشريع الإسلامي والعمل على عدم تطبيقه لعدم مرونته ولعدم صلاحيته ومناسبته للعصر وأنه من آراء الفقهاء وابتكارهم، وأحكامه تتسم بالقسوة والوحشية، ومذاهبه الكثيرة وفرق المسلمين عديدة وقام بالرد على كل منها بما أبطلها وبين جمال التشريع الإسلامي وعظمته وصلاحيته لكل زمان ومكان لما فيه من المرونة والقواعد والثواب والمتغيرات التي تناسب كل عصر وتلبي احتياجات كل أمة.

أما فضيلة الشيخ الحاج تيرنو عبد الرحمن فقد بين في مقدمة بحثه تعريفاً للغزو الفكري، ومفهومه ثم قسم بحثه إلى أربعة أبواب، تناول في الباب الأول منها الدعوة إلى القومية، وبين في فصول هذا الباب الخمسة آثارها في المجتمع العربي والإسلامي وموقف الإسلام منها، وفي الباب الثاني تحدث عن التبشير وآثاره في إفساد عقائد المسلمين وإعلامهم وثقافتهم وتربيتهم، أما الباب الثالث

فقد تحدث فيه عن أساليب الغزو الفكري في التشكيك من طعن في القرآن إلى طعن في شخصية الرسول ﷺ إلى طعن في الإسلام عقيدة وشريعة إلى طعن في المسلمين، وخصص الباب الرابع للكلام عن العلمانية ووسائل نشرها وآثارها في التعليم والقانون والإعلام.

أما الدكتور أحمد السايح فقد تحدث عن مفهوم الغزو الفكري وبين أسبابه المتمثلة في العداء الصليبي للإسلام والمسلمين والرغبة في استعمار بلادهم وعقولهم وتقدم الغرب العلمي وتخلف المسلمين فكرياً واجتماعياً في العصر الحديث، ثم تكلم عن مظاهر الغزو الفكري من حملات تشويه إلى إحياء النزاعات الجاهلية والقومية وإبعاد العلماء عن مراكز التوجيه والسلطة والتعليم والثقافة والخدمات الاجتماعية، ومثل لحملات التشويه ببعض المطاعن في القرآن الكريم والسنة النبوية وشخصية النبي ﷺ وتشويه التاريخ الإسلامي والتراث الإسلامي وغير ذلك، ثم انتقل إلى تيارات الغزو الفكري وحركاته وتناول منها بالتعريف وبصفة خاصة الاستشراق والتبشير والصهيونية والماسونية والعلمانية والقومية والتغريب والوجودية وغيرها، ثم تناول أهداف الغزو الفكري في القضاء على الإسلام وتعاون جميع التيارات والحركات في تحقيق هذا الهدف الكبير عن طريق عدة أهداف جزئية يقوم كل تيار بتحقيقها، ثم عقد القسم الأخير لنقد الغزو الفكري ومواجهته مع التركيز على الاستشراق والتبشير باعتبار الاستشراق المنجم الفكري الذي يمد المبشرين والمستعمرين بأدوات الهدم ومعاول التخريب التي يعملون بها في تخريب الإسلام وأهله، وقدم لهذه المواجهة عدة أصول ومقترحات طيبة.

وأما بحث فضيلة الشيخ القاسم البيهقي المختار فقد جعل تحت عنوان «المسلمون وتحديات الفكر المعاصر» تحدث في المدخل الرئيسي عن عظمة الإسلام وأثره وانتشاره، ثم عن المواجهة بين الإسلام والفكر الغازي منذ الحروب الصليبية وحتى وقتنا الحاضر حيث كان الغزو أولاً عسكرياً ثم أصبح فكرياً، وقد أخذ هذا الغزو الفكري طريقه إلى المسلمين عبر عدة قنوات منها:

التعليم والاقتصاد والسياسة والتشريع والإعلام والثقافة والأخلاق والحياة الاجتماعية وكل مظاهر الحياة، ثم تقدم تطبيقات لهذا الغزو فتحدث عن العلمانية وآثارها وعن حملات التشويه للقرآن الكريم واللغة العربية، وقدم نداء إلى المسلمين باليقظة والاعتزاز بالإسلام، ورسم طريقاً للخروج من المأزق بالعودة إلى العقيدة الصحيحة والشريعة الصافية في القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الإسلامي الصحيح، ودعا إلى تطبيق الإسلام في كل مجالات الحياة.

وتناول فضيلة الدكتور عمر يوسف حمزة الغزو الفكري من حيث منافذ دخوله ووسائل مقاومته فالتقى مع البحوث السابقة في منافذ الغزو الفكري في الاقتصاد والتعليم والصحة والسياسة ووسائل الإعلام، وبين آثار الغزو الفكري في كل منها، ثم انتقل إلى المحور الثاني وهو أساليب الغزو الفكري في التشكيك من طعن في القرآن الكريم إلى طعن في السنة إلى اعتماد ما جاء في بعض كتب السيرة ونظريات بعض الفرق الشاذة، وأخيراً محاربة الفكر الإسلامي والدعوة إلى فصله عن جذوره وقواعده واستشهد لكل حقل من هذه الحقول بمثال أو اثنين، ثم رد على الشبهات بما يبطلها، أما المحور الثالث فقد خصصه للحديث عن العلمانية والحداثة، فبين اتجاهاتها الخطيرة في محاربة الإسلام والطريق الأنجع في دفع تحركاتها العدوانية ورد نشاطاتها المتنوعة في مجالات الفكر والتعليم والإعلام، واختتم بحثه ببيان أسس ووسائل مقاومة الغزو الفكري.

وقدم الدكتور عويد بن عياد المطرفي بحثاً عن ورقة بن نوفل حاول فيه أن يبطل مزاعم النصارى فيما نسبوه إليه من تعليم الرسول ﷺ وسلم وتشويه صورة الإسلام ونقله من النصرانية وأكد أن ورقة بن نوفل كان من الحنفاء ولم يكن نصرانياً في يوم من الأيام.

وللأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي دراسة حول الغزو الثقافي للعالم الإسلامي، بين فيها بدايات هذا الغزو والدوافع التي كانت وراء ذلك وخطورته ووسائل مواجهته، وقد قدم فضيلته في هذا المجال عدة مقترحات طيبة.

أما فضيلة الشيخ مصطفى العلوي فقد قدم بحثاً عن الغزو الفكري وأثره في المجتمعات الإسلامية اليوم وكيف يمكن مواجهته وبين أفكاره حول المحاور السابقة التي يلتقي فيها مع الأفكار التي عرضناها من قبل، وقدم في نهاية بحثه عدة مقترحات لمواجهته هذا الغزو.

وقدم الأستاذ تيجاني صابون محمد تصوره عن خلفية الغزو الاستعماري الغربي المسلح للدول الإسلامية منذ صدور الإسلام، ثم تعرض للحملات التبشيرية الصليبية وأنواعها وأعوانها من المستشرقين، ومثل لهذه الحملات بمطاعنهم في النبي ﷺ ودعمهم للفرق الضالة المعادية للإسلام كالكاديانية والبهائية، ثم بين الوسائل الحديثة للغزو الفكري من اقتصاد وتربية وثقافة وإعلام.

أما الدكتور محمد عبد اللطيف الفرفور، فعنون بحثه «بالغزو الفكري في المعيار العلمي الموضوعي»، وقد جعل بحثه في مدخل وأربعة أبواب وخاتمة، تناول في مدخل التعريف بالغزو الفكري وبيان خطره وأهدافه، وخصص الباب الأول للتيارات المعاصرة لدى المفكرين المسلمين في مواجهة مشكلة الغزو الفكري وجعله في فصلين، وفي الباب الثاني تناول في فصلين أساليب الغزو الفكري ومدارسه، وفي الباب الثالث تناول في ثلاثة فصول ظواهر الغزو الفكري، أما الباب الرابع فجعله في فصلين أحدهما لبيان أسباب القيام الغزو الفكري في العالم الإسلامي والثاني لبيان العوامل المساعدة لقيامه، وخصص الباب الخامس لبيان الوقاية والعلاج من هذا الغزو ثم القيام بالغزو الفكري المعاكس.

أما بحثنا بعنوان «من أساليب الغزو الفكري في مجال الطعن في القرآن الكريم» فقد اتفق مع البحوث السابقة في كثير من الأمور التي تخص التعريف بالغزو الفكري وأهدافه ووسائله وأنواعه ثم انفرد بالحديث عن الغزو الفكري في مجال الطعن في القرآن الكريم، وقد جعلته في ثلاثة فصول، تناول الفصل الأول منها التعريف بالغزو الفكري بصفة عامة في ماضيه وحاضره وأهدافه ووسائله

وأنواعه، أما الفصل الثاني فجعلته لسرد مطاعن الغزاة في القرآن الكريم وقسمته طبقاً لهذه المطاعن إلى سبعة بنود تناول كل بند منها مجالاً من مجالات الطعن في القرآن، فبند عن ادعاء بشريته، وبند عن اقتباسه من الكتب السابقة، وثالث عن عدم إمعانه، ورابع عن وقوع التحريف فيه، وخامس عن الأخطاء العلمية واللغوية والتاريخية والتشريعية فيه، وسادس عن وقوع التناقض بين آياته، وسابع عن عجزه وعدم تقديمه للنظريات والمبادئ الحديثة. أما الفصل الثالث، وهو بيت القصيد، فقد خصصته لتنفيذ تلك المطاعن والرد عليها وإبطالها، وقد تناولتها بنداً بنداً وناقشتها فكرةً فكرةً، وقدمت الأدلة النقلية والعقلية على إبطالها، ففي البند أولاً قدمنا أربعة عشر دليلاً منوعاً على أن القرآن الكريم وحي من عند الله تعالى وليس بشرياً ولا من عمل محمد ﷺ، وفي البند ثانياً قدمت خمسة أدلة عامة وستة تطبيقية على أن القرآن الكريم ليس مقتبساً من التوراة ولا الإنجيل ولا غيرهما، وفي البند ثالثاً قدمت خمسة أدلة على أن القرآن الكريم معجز بل هو أكبر معجزة للنبي ﷺ، وفي البند رابعاً قدمت سبعة أدلة على أن القرآن الكريم معافى من أي تحريف أو تبديل على عكس الكتب السابقة، وفي البند خامساً ذكرت أربعة أدلة إجمالية على إبطال دعوى تناقض بين بعض آيات القرآن الكريم، ثم وضحت ذلك في اثني عشر موضعاً مما استندوا إليه وظنوه تعارضاً، وفي البند سادساً ناقشت ما أسموه أخطاء القرآن الكريم فبينت أنهم هم المخطوون وأن القرآن الكريم بريء من أي خطأ؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، وفي البند سابعاً ناقشت موضوع النظريات التي يتساءلون عنها وبينت ما قدمه القرآن الكريم في هذا المجال مما لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، ودعمت ذلك كله بأقوال العلماء والمفكرين وبعض المنصفين من غير المسلمين.

أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذه البحوث وأن يجعلها جميعها خالصة لوجهه الكريم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وشكراً.

الدكتور محمد عبد اللطيف الفرفور:

شكراً للسيد الرئيس، أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأخي العارض

حفظه الله تعالى حيث كان أميناً على البحث العلمي وأميناً على ما جاء فيه من دراسات جديدة وحديثة أو قديمة وعلى آراء الباحثين، ووددت لو أن أكثر العارضين أو كلهم مع احترامي وتقديري لهم اقتدوا بهذا الأخ الفاضل في حسن عرضه وفي حسن تقديمه لآراء زملائه.

هذه ناحية، والناحية الثانية هي أننا، في هذه الأسمية الكريمة التي خصصت للغزو الفكري، يجدر بنا أن نبحث عن الوسائل العلمية للوقوف في وجه الغزو الفكري، فالبحوث والخطب والمحاضرات والكلمات والكتب التي ألقت وصنفت وكتبت في هذا البحث تصنف مكتبة كاملة، يعني نستطيع أن نقول إننا اليوم نئن من التخمة في قضية البحث في هذه المسألة، نحن بحاجة - كما أرى والله سبحانه وتعالى الملهم الذي يشرح الصدور - إلى الأساليب العملية. مثلاً أنا أرى أن تكون هناك ندوات فعلية للغزو الفكري، يعني أن ننزل إلى الميدان وأن يشكل المجمع بأمانته الكريمة وورثسته الرشيدة منا لجاناً تنزل إلى الجامعات فتحاضر، فكلنا على مستوى أستاذ جامعة تقريباً، لماذا لا نحاول في هذا الموضوع؟ لماذا لا ننزل؟ لماذا نبقي مقطورين ضمن نطاق المجمع فقط؟ وطبعاً وهذا عمل كبير ومشرف ولكنه يكفي ولا يفي بالعرض، نحن نعد هذا المجمع منطلقاً إلى العمل كقاعدة ننطلق منها إلى العمل المنتج المثمر. إن الناس اليوم يريدون منا أن نتكلم لهم، أن نحاضر عليهم، أن نبحث معهم، أن نعقد معهم ندوات. الصحوة الإسلامية اليوم، يا سادة، تناشدنا وتهيب بنا، الشباب المسلم يغلي إيماناً وإخلاصاً، يريد من يرشده إلى الحق إلى الخير، يريد من يخلصه من شبهاته. يرى الغزو الفكري والثقافي هاجماً ولكن لا يرى ولا يستطيع ولا يجد الوسائل لدفع هذا الخطر الداهم. من الذي يوجد له هذه الوسائل، نحن خدام العلم وسدنة الشريعة المتشرفين بحمل هذه الأمانة، يجب علينا أن نذهب، لوجه الله عزَّ وجلَّ، إلى أقصى الأرض ونحاضر ونخطب في المساجد، في الجامعات، في الكليات، في المنتديات، وفي المراكز الثقافية حيثما استطعنا ونكون رسل المجمع إلى العالم الإسلامي، هذه هي الوسائل

العملية أو إحدى الوسائل العملية للوقوف في وجه الغزو الفكري. يا سادة أنا أتحرق ولا أقول هذا مجاملة، إنني أرى غيرنا من أصحاب الأديان الباطلة وأنتم تعلمون أن التبشير ماذا يصنع في إفريقيا، ماذا يصنع في الفلبين، وماذا يصنع في أندونيسيا، وماذا يصنع في أنحاء الأرض، المبشرون لا يتكلمون بالمجمع «الفاتيكان» ولكن يتكلمون في كل مكان، لقد بنوا أكبر كنيسة بالعالم حيث لا يوجد فيها في ذلك المكان أكثر من عشر آلاف نصراني، في جنوبي أفريقيا أكبر كنيسة في العالم، الإرساليات التبشيرية تغزو الأرض، تغزو شعوب العالم، فماذا صنعنا نحن؟ نحن الدعاة إلى الحق إلى الإسلام، هم على باطلهم ونحن على حقنا، نحن ضعفاء لا نتقن إلا صناعة الكلام فمتى نتقن صناعة العمل. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم، وشكراً.

الدكتور طه جابر العلواني:

بسم الله الرحمن الرحيم.

لا شك أن فترة السنوات الثلاثة الماضية قد شهدت مرحلة انهيار التوازن العالمي الذي قام في العالم بعد الحرب العالمية الثانية وأدى بدوره إلى تفرد الولايات المتحدة الأمريكية نسبياً في الشؤون الدولية، ولا شك أن انهياراً عربياً قد حدث خلال هذه الفترة عبرت عنه تلك السياسة المعروفة التي كانت كارثة الخليج الثانية التعبير المتأخر عنه بقدر ما كانت كارثة الخليج الأولى تمهيداً ضرورياً له، وقد بدأ هذا الانهيار بوضوح بتجاوز كل ما كان متعارفاً عليه في ظل نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية الدولي أو ما يسمى بفترة الخمسينيات والستينيات كالجامعة العربية ومؤتمرات القمة ومنظمة المؤتمر الإسلامي وغيرها من أطر ومحاور التفاهم والتنسيق خاصة في عالمنا الإسلامي. ومن الواضح أن النظام العالمي الجديد الذي يأخذ المسلمون فيه دور المفعول به والمفعول فيه بأجلى شك يقوم على قواعد ثلاث: الديمقراطية في المجال السياسي، الاقتصاد الحر الرأسمالي في المجال الاقتصادي، العلمانية كفلسفة فكرية وثقافية وإطار مرجعي لسائر قضايا الفكر والثقافة والنظم ومناهج الحياة.

الغزو الفكري بشكله المألوف قد تغير ليصبح الآن محاولة ذات ثلاث شعب تقوم على هذه الأسس الثلاث: الديمقراطية في النظام السياسي، الاقتصاد الحر الرأسمالي في المجال الاقتصادي، العلمانية كفلسفة فكرية وثقافية وإطار مرجعي لسائر قضايا الفكر والثقافة والنظم ومناهج الحياة.

أود أن أتجاوز المجالين الأول والثاني المجال السياسي والمجال الاقتصاد إلى المجال الثالث الذي هو المجال الفكري. العلمانية مصطلح من أكثر المصطلحات غموضاً وإبهاماً في لغتنا العربية، وقد رأيت الأخوة الباحثين الذين تناولوا هذا المصطلح ترددوا بين معانٍ مختلفة لهذا المصطلح الغامض، ذلك لأنه مصطلح منقول من نسب حضاري مختلف، فدلالته الحقيقية لا يمكن تحديدها إلاً بمعرفة ذلك النسب الحضاري بكل تفاصيله وبكل جوانبه، هذا النسب الحضاري فيه عدة تشكيلات فرعية فهناك التشكيل الفرنسي الكاثوليكي، وهناك التشكيل الإنجليزي والألماني والتشكيل الأمريكي مؤخراً وكل تشكيل له تعريفه ومصطلحه الخاص بالنسبة للعلمانية. ولقد خاضت هذه التشكيلات الحضارية تحولات مختلفة وتزايدت فيها معدلات العلمنة واختلقت مواقفها من العلمانية باختلاف المرحلة التاريخية وباختلاف الجماعة التي تقوم بعملية التعريف، ومع انتقال المصطلح إلى عالمةنا العربي والإسلامي فإن المجال الدلالي للكلمة أصبح مجالاً شديد الاضطراب وسبب اختلالاً في الفكرة المأخوذة عن هذا المجال. فمن المفكرين ومن بعض الباحثين من يرى أن أدق ترجمة للمصطلح هي العلمانية بكسر العين نسبة إلى العلم أو بفتح العين نسبة إلى العالم، ويذهب البعض إلى تسميتها بالندوية، أي: الإقبال على الحياة الدنيا وحدها والإعراض عن الآخرة وحسب هذه التسمية فالعلمانية هي الظاهرة - باعتبارها - الزمنية أي أن كل الظواهر مرتبطة بالزمان وبالحياة الدنيا ولا علاقة لها بأي غيب، وأن كل ما يحدث في هذه الحياة لا يجوز نسبته إلى أي غيب وأن هذه الحياة الدنيا هي الإطار المرجعي لكل شيء.

وأفضل تجاوز الترجمة ومصطلحات أهلها إلى النظر في المظاهر نفسها.

فأقرب المصطلحات أو أقرب تعريف عربي أراه من خلال ملاحظة الظاهرة هو الدنيوية، فهي ليست علمانية بمعنى العلم وليست علمانية بمعنى العالم لكنها دنيوية يعني التركيز على الحياة الدنيا واتخاذ الحياة الدنيا وتجارب الإنسان وخبراته إطار مرجعياً لا يجوز تجاوزه في أي شيء من الأشياء، وفي هذه الحالة لا تعني العلمانية أن يتحول معتقها إلى ملحد لكنه يكون دنيوياً له حق الإلحاد وله حق الإيمان. تلك مسألة شخصية لكن ليس له أن يحتم هذا الإيمان بأي شأن من شؤون الحياة، لا في سياسة ولا في اقتصاد ولا في تعليم ولا في اجتماع ولا في فكرة ولا في أي شيء من هذه الأشياء. هذه الدعامة التي بدأ النظام الدولي الجديد يبشر بها ويحاول أن يصوغ العالم أو يعلمنه أو يدخله مرحلة هذا الدين الجديد الذي سماه بما شاء هو الوجه الجديد لهذا الغزو الفكري الذي يمكن أن نواجهه. إن المصطلح اكتسب مجالاً دلاليّاً أوسع بكثير وأصبح مصطلحاً يصف ظاهرة اجتماعية وتحولات دنيوية ليست لها علاقة محددة بأية حركة فكرية، ولو نظرنا في قواميس هؤلاء لوجدنا مصداق ذلك، إن الدنيوية — كما نود أن نشيع هذا المصطلح فيما بيننا — حركة كونية شاملة كاسحة تغطي كل جوانب الحياة، خطأ أن ننظر إليها على أنها لا تعني إلا فصل الدين عن الحياة أو فصل الدين عن الدولة أو إعطاء مجال لحرية أو تحرك سياسي بعيد عن القيم الدينية. ليس هذا إطلاقاً هو مفهوم العلمانية ولكنها كما قلت حركة كونية شاملة كاسحة تغطي كل جوانب الحياة، وهي في وضعنا الحالي تشكل ثورة شاملة، ثورة في مجال المعرفة، وثورة في مجال النظم. فلقد تأسست على ضوء من هذه الدنيوية وعلى دعامة أساسية منها، هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تدخل عقولنا وأدمغتنا كعلوم نفس وتربية وإجتماع واقتصاد وسياسية وقانون وإدارة وإعلام وغيرها والتي من المؤسف أنها أصبحت المشكلة للعقل الإنساني كله وعلى مستوى عالمي والتي لم يستطع المسلمون حتى يومنا هذا أن يفكروا في مواجهتها واختراقها، اللهم إلا محاولات ضعيفة ضحلة لا تستطيع أن تواجه هذا التيار الكاسح.

إن هذا الغزو الجديد بأشكاله هذه يمكن أن نشير إلى أهم إنعكاساته
أو أهم المؤشرات عليه :

أولاً: إن أي مجتمع إنساني لا يمكن أن يخلو من إجراءات العلمنة إذ أن
على الإنسان مهما بلغ من التقوى والورع لا بد له أن يتعامل مع الحياة الدنيا من
خلال منطلقاته المعرفية من خلال قيمه وعقيدته، لكن التعامل مع الدنيا مهما
يبلغ من حركة وإتساع كان دائماً بالنسبة للأديان السماوية بصفة خاصة كان دائماً
يتم داخل إطار يشير إلى مرجع من خارج الإنسان مرجع نهائي ذلك هو الدين
يرجع الناس إليه ليضبطوا حركتهم ويضعوا لها الضوابط، حركة الدنيوية
أو العلمانية المعاصرة ترفض هذه المرجع تماماً وتفتيه وتستبعده استبعاداً تاماً.
هذه نقطة أساسية، وعلى الرغم من أن الحضارة الغربية في العصور الوسطى
كانت حضارة دينية إلا أن تراث الغرب الهيليني والروماني كان يحوي داخله نزعة
مادية قوية تسوي بين الجسد والروح وتوحد بينهما.

ثانياً: يذهب المؤرخون إلى أن تآكل نفوذ الكنيسة في العصور الوسطى
وتزايد هيمنة الملوك عليها سبب نفوراً شديداً من المؤسسات الدينية ونفوراً من
الدين بصفة عامة، يشير ماكس فيبر إلى أن السمة الأساسية للحضارة الغربية
المعاصرة هي نزوعها المتزايد نحو الترشيد وأنها تعبر عن هذا الترشيد بعملية
العلمنة أو الدنيوية. الترشيد في أحد جوانبه يعني أن المفهوم الغربي تحويل
الواقع إلى وسيلة، ولذلك قد صموا آذاننا بوجود الرجوع إلى الواقع وتحتيم
الواقع والنظر بالواقع والأخذ من الواقع، ولكن بهذا المفهوم، بمفهوم تحويل
إلى وسيلة بحيث يمكن توظيفه في خدمات معينة. لكن علمية الترشيد هذه
تتطلب قدراً عالياً من التجريد، إذ أن الإنسان إذا أدرك واقعه بشكله المعين فإنه
لا يمكنه توظيفه ولا يمكن التحكم فيه ولا بد أنه سيلتفت شاء أو أبى إلى ذلك
الإطار المرجعي الذي هو من خارج الإنسان وخارج الحياة، مع تزايد انتشار
ما يسمى بالاقتصاد العائلي والصناعات المرتبطة به زادت الحاجة لشراء المواد
الخام ولدفع أجور العمال والتكاليف الأخرى، ولذلك تم البحث عن مصادر

المعادن النفيسة واكتشافها لتوفير العملة اللازمة للتبادل، فابتنى الاقتصاد المعاصر كله على النقود، والنقود هي أكثر الأمور تجديداً، فهي ليست سلعة ولا خدمة، وإنما هي علامة تشير إلى قيمة مجردة، كان هذا القطاع الاقتصادي الجديد من أول القطاعات التي انسلخت من نفوذ النظام الإقطاعي والكنيسة، بحيث أصبح قطاعاً مستقلاً إلى حد كبير يتحرك حسب قيمة المادية الكامنة فيه وقوانين حركته المجردة التي ترفض أن تقيد بأية ضوابط أو قيم أخلاقية، إذا كانت النقود دالاً يشير إلى مدلول غامض، خدمات وسلع، فهو يصبح دالاً دون مدلول أو هدف، وفي هذا قمة التجريد، وحين يدخل الاقتصاد الجديد مرحلة التراكم يصبح الإنسان جزءاً من عملية لا يحكمها تماماً تمثل بذاتها الغاية والوسيلة عملية تتحرك دون هدف واضح، ساهمت حركة الاكتشاف في توسيع آفاق الإنسان وظهور تعددية في الرؤيا تولد إحساساً بنسبة الواقع مما قوى من دعائم الإيمان الديني، ولكن هذه النسبية جعلت العقل قادراً على تجاوز المعطيات المتعينة التي يشاهدها ويشعر بها الإصلاح الديني البروتستاني الذي شكل أول خطوة نحو علمنة عقل الإنسان الغربي، إذ جعل الخلاص مسألة فردية وجعل الدين أمراً فردياً خاصاً هو الذي ساعد على جعل عمليات التحول تتم من خلال قضايا سميت بقضايا التقشف والعمل المضني المستمر، وقد قضى الإصلاح الديني على أهم المؤسسات الوسيطة وهي الكنيسة بكل مؤسساتها، وظهرت الفلسفة الإنسانية التي وضعت الإنسان في مركز الكون بحيث يصبح هو الهدف النهائي لوجوده ولا هدف له بعد ذلك، وتطور العلم والفلسفات العلمية والمادية التي وضعت المادة في مركز الكون وحاولت أن تنظر لكل شيء من منظور دنيوي محض، هذه الفلسفة بكل تضاريسها، بكل أبعادها شهدت تصاعداً ملحوظاً وتنمية لتجعل منها ديناً بديلاً يمكن أن يحل أو يريد أن يحله أصحابه محل سائر الأديان وليس الإسلام وحده. وتتخذ العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية الإطار الذي تنطلق منه ومن خلاله هذه الدنيوية لفرض ذاتها على العالم الجديد، وما لم تتم عملية أسلمة مقابل علمنة لهذه العلوم الإنسانية والاجتماعية تجعل للمسلمين علوماً إنسانية واجتماعية من منطلق إسلامي تستمد من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ

وتلاحظ تراثنا واحتياجاتنا وتلاحظ هذا العالم من منظور الإسلام لا من منظور الغرب ويكون لها مرجعها لا يمكن أن تواجه هذه الهجمة الجديدة للدنيوية وشكراً.

الشيخ محمد الزباني :

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

موضوع الغزو الفكري من المواضيع التي كانت ولا تزال السمة البارزة في كتابات هذا القرن منذ بدايته، ولكثرة ما كتب فيه من كتب ومقالات ولكثرة ما عمل حوله من ندوات على مدار هذا القرن، فقد خيل للبعض أن هذا الموضوع هو نوع من الوهم، ولذلك رأينا باحثاً إسلامياً يصدر في الفترة الأخيرة كتاباً بعنوان الغزو الفكري وهم أم حقيقة، وعلى أساس ذلك كان اطلاعي على بعض البحوث وليس على كلها اطلاعاً جزئياً لعدم وجود الوقت لذلك، ولذلك أجدني أختلف مع معظم البحوث على الأقل في تحديد بدايات هذا الغزو، ومعظمها مال إلى أن هذا الغزو الفكري قد بدأ في أكثر الأحوال منذ الحروب الصليبية، وأنا أعتقد أن الغزو الفكري أمر استهدف العقيدة الإسلامية، ولذلك فهو قد بدأ منذ صدع بها رسول الله ﷺ. الغزو الفكري مرحلته الأولى تبدأ في عهد الرسول ﷺ، وكانت أدواتها تتمثل في الشرك والنفاق إلى جانب اليهود، وحتى ما تناولته هذه البحوث التي نحن بصدها اليوم من قضية الطعن بالقرآن الكريم وأن المشرقين يطعنون في القرآن الكريم بأشكال متعددة، فإن هذه أيضاً ليست جديدة، فلقد تم ذلك في الفترة المبكرة التي أشرت إليها وقد عبر عنها القرآن، ونظراً لخطورتها وأثرها في الدعوة الإسلامية فقد تكفل القرآن بالرد عليها وكان الرد قوياً لدرجة أنه لا يمكن أن يحتمل أي طعن جديد أم يقولون افتراه قل فاتوه بسورة من مثله، ليس هناك طعن أكثر من هذا الطعن في مصدرة القرآن وليس هناك رد أبلغ من هذا الرد، ولذلك كل محاولات المشرقين بعد ذلك في تناول القرآن بالطعن تعتبر ثانوية إذا ما قيست بهذه القضية، ثم بعد ذلك

توالت صور الغزو الفكري في عهد الرسول ﷺ، من تلك الفتن التي أثارها المنافقون وتلك الأسئلة التي كان يثيرها اليهود أيضاً من حين لآخر مستهدفين بها خلخلة أفكار المسلمين وخلخلة عقائدهم، وأنتم أعلم بهذا مني ولا داعي للتذكير بها، بعد ذلك جاءت المرحلة الثانية، وهي مرحلة ما بعد الخلافة الراشدة والتي توسعت بها صور الغزو الفكري وشملت تدخل اليهود في الفكر الإسلامي من خلال بعض المفاهيم التي سربت إلى هذا الفكر والتي نتج عنها كما تعلمون ما يسمى بالإسرائيليات، ونتج عنها في الإطار الآخر تجديد الطائفية والفرقة والتنازع بين المسلمين، ثم تأتي المرحلة الثالثة والتي أشارت لها بعض البحوث وهي مرحلة ما بعد الحروب الصليبية، ومرحلة ما بعد الحروب الصليبية كانت نتيجة لتاريخ مطول أو تاريخ طويل من الصراع بين الإسلام والكفر، هذا الصراع اتخذ مظهراً مسلحاً عبر كل اللقاءات التي لقي المسلمون فيها أعداءهم، وهذا النوع من الصراع كانت الغلبة فيه دائماً للمسلمين على الرغم من قلة العدد والعدة في كل المعارك الإسلامية، ولذلك جاءت ثمرة الحروب الصليبية أن تعطي مؤشراً بأن هؤلاء المسلمين لا يمكن لأي إنسان أن يتغلب عليهم لأن في دينهم شيء يسمى الجهاد، فالجهاد لا بد أن يطمس من حياتهم حتى يمكن التغلب عليهم، من هنا حصل التحول الخطير في تاريخ العلاقات الإسلامية الغربية أو اليهودية، وبدأ المشركون بجميع أشكالهم يخططون لما يمكن أن يسمى بالغزو الفكري اليوم، تعلمون أن موضوع الجهاد من أخطر المواضيع، ويوم أن ابتعد المسلمون عن الجهاد فإن الخط الحضاري الذي كان يصعد بدأ ينحدر وهذه المشكلة مشكلة الجهاد لا زالت حتى هذه اللحظة تعد من أخطر المسائل التي إذا بحث فيها المسلمون دق ناقوس الخطر عند أعدائهم، وحتى في صراعاتنا الحالية تتولى وكالات الأنباء بجميع أنواعها وصورها طمس هذا المفهوم، حتى إذا تحدثت عن قتلى المسلمين فلا تقول استشهاد من المسلمين كذا أو استشهاد في فلسطين كذا وإنما تقول قتل .

تأتي بعد ذلك المرحلة الرابعة ربما، وهي المرحلة ما بعد استعمار العالم

الثالث، تلك المرحلة التي قسم بها العالم الإسلامي، قسمت فيها دول العالم الإسلامي، هذه المرحلة استهدفت شيئاً آخر، استهدفت وضع الحدود بين دول العالم الإسلامي كما تعلمون، كان المسلمون يتواصلون وكان الإنسان المسلم يذهب من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق يدرس ويتزوج ويمتلك ويعيش ولا أحد يعترضه ولا أحد يتوجس خيفة منه، ولنا في العلماء الكبار صور كثيرة أنتم أعلم بها أيضاً فبعد استعمار العالم الثالث وضعت الحدود بين دول العالم الإسلامي وبوضع الحدود تم قطع التواصل بين أفراد العالم الإسلامي، وخاصة بين مثقفيه. والنتيجة أننا لا نعلم شيئاً عن الآخر ولولا هذه المؤتمرات التي تجمعا فإننا لا نعلم عن بعضنا شيئاً إلا ما يقال عبر إذاعات الغرب، لا أحد يعلم بما الشرق من إصدارات ثقافية ولا أحد يعلم بما في الغرب من إصدارات ثقافية أيضاً، ويقطع التواصل الثقافي تم إدخال الريبة والتوجس من المسلمين بعضهم ببعض، وبدأننا نشك في كل كلمة يقولها إنسان مسلم آخر ونحوها إلى مناح شتى نتيجة عدم علمنا بما يجري بداخل هذه الأمة، أنا أشك في جاري التونسي، وجاري التونسي يشك فيّ أنا كذلك، وهكذا بقية العالم الآخر الذي أدت هذه الحدود إلى أن يغيب نهائياً ما يدور في العالم الإسلامي بين أجزائه، ثم تأتي المرحلة المعاصرة، وهي التي دخلت فيها الصهيونية كطرف في الصراع قوي جداً والتي أدت إلى نشوء التيارات الفكرية المختلفة وأدت إلى ظهور الحركات الهدامة، ونعرف اليوم في جميع أنحاء العالم الإسلامي كثيراً من الحركات الهدامة كاليونز والرتري وشهود يهوى ما إلى ذلك، ويتم الإعلان عنها في دول العالم الإسلامي في كل مكان وبصورة واضحة، هذه هي في تصوري تاريخ هذه المرحلة مرحلة الغزو الفكري، أما جناحاه فإنني أحصرهما في شيئين اثنين الجناح الذي تعامل مع العالم الإسلامي أكاديمياً، وكما يقولون علمياً ولا أعتقد بأنه علمي، وهو الاستشراق، والاستشراق تعهد للعالم الغربي بأن يعرف الغرب بالعالم الإسلامي بأن يعرفه بكل شيء ثم يتولى بعد ذلك مهمة تسريب كل الأفكار التي يريدها الغربيون كما تحدث فضيلة الدكتور طه — حفظه الله — لكن هذا الاستشراق الآن قد أدى إلى أن يكتسب منه المسلمون حساسية معينة،

ولذلك في المؤتمرات الأخيرة للاستشراق أعلنوا عن موت الاستشراق، ولم يعد هناك كما يتصورون استشراقاً، بينما تدل الإحصاءات على أن اثني عشر في المائة من ميزانية التعليم يخصص لتكون المستشرقين الذين هم خبراء شرق أوسطيين الآن وإذا حولنا هذا الرقم اثنا عشر في المائة إلى رقم عددي فإنه ما يقرب من أربعين ألفاً كما تدل المصادر، أما الجناح الآخر وهو التنصير، وهنا أنه إلى أن مصطلح التبشير مصطلح خاطيء، ولا أعتقد أن له أصلاً لغوياً، التنصير وهو ذلك الذي تولى الدخول إلى بلدان العالم الإسلامي، في تلك المناطق التي لا يستطيع الفكر أن يدخلها، دخل بآلياته المختلفة، وأنا لا يهمني فيه الشكل القديم الذي كما تعرفون يعتمد على الخبز والدواء والعلاج، وإنما يهمني به الشكل المعاصر الآن، ومن الشكل المعاصر أذكر تلك الخطة الجهنمية التي يحاول المنصرون الآن استخدامها في مواجهة المناطق التي يسمونها مغلقة أمام العمل التنصيري، هذه المناطق التي يقصدون بهو دول العالم الإسلامي التي لا يمكن للتنصير أن يدخل فيها علناً، هذه الخطة يسمونها بالجوالون، والجوالون هم أولئك نفر من الناس الذين يدخلون إلى العالم الإسلامي تحت ستار العمل في الشركات والمؤسسات التجارية المختلفة، وهؤلاء يتم اختيارهم بصورة دقيقة، وتدلل المصادر على أن بعض الدول الإسلامية قد أخذت بعض العاملين من مصر، وكان التخطيط أن يتم أخذهم كلهم من الأقباط وبخطيط من الكنيسة، وهذه الفكرة فكرة الجوالون يستهدف منها محاولة الوصول إلى ما لم تصل إليه جحافل المنصرين علانية. إذا انتقلنا إلى نقطة أخرى، ما هو حجم الغزو الفكري؟ أعتقد أن حجم الغزو الفكري أكبر من أن يكون حجم فرد، وأكبر من أن يكون حجم كتاب أو صحيفة أو ما إلى ذلك، إنه حجم دول، دول كاملة، العالم الغربي كله وأمريكا معه، كلها تشترك في هذا الغزو الفكري المعاصر، وتخصص له من الإمكانيات المادية، ما لو استعرضناها لأصبحنا في خجل من أمرنا حين نتكلم عن الإنفاقات التي ننفقها في مجال التعليم أو حتى في مجال الدعوة الإسلامية. النقطة التي بعدها، ما هي آثاره؟ ما هي آثار هذا الغزو الفكري في عالمنا المعاصر الآن؟ أعتقد أن آثاره تبرز فيما نحن عليه الآن من وضع في

كل مناحي حياتنا على المستوى السياسي، نحن كمسلمين الآن نقبل بالديموقراطية الغربية ونقبل بالتعددية الحزبية ونصر عليها ونعتبرها مظهراً من مظاهر التقدم والحضارة، ولا أعتقد أن أحداً منكم يستطيع أو على الأقل يمكن أن يدلني على تأصيل التعددية الحزبية تأصيلاً إسلامياً. المظهر الثاني في النشاط الاقتصادي، أصبحنا نحن الآن ندعو ونتمسك وتعامل بالنظام الاقتصادي الحرّ، ولا أعتقد أن هذا له علاقة بنظامنا الاقتصادي الإسلامي الذي يدعو إلى توزيع الثروة بالعدالة ويدعو إلى كل ما يمكن أن يحقق للفرد كرامته ويبعد عنه سرقة أمواله، كان لذلك أيضاً آثاره في مظاهرنا السلوكية، أصبحنا نميل إلى أن نقلد الغرب في كل مظهر سلوكي ابتداءً من ملابسنا وبطرق أكلنا ومواصلاتنا ومسكننا وما إلى ذلك، وهذا ربما نعذر فيه لأنه يعتبر من تقليد المغلوب للغالب كما يقول بعض العلماء، من مظاهره أيضاً أننا أصبحنا نفتح على الفكر الغربي انفتاحاً كبيراً لدرجة أنه تسربت من ذلك كل القضايا التي تحدثت عنها هذه البحوث، وأصبحنا نتحرج من أن نفتح على الفكر الإسلامي، وحتى أولئك الذين درسوا في الغرب وتعلموا لغته لم يستطيعوا أن يفتحوها على فكرنا الإسلامي وأن يقدموه للعالم، وتركوا المجال للآخرين أن يقدموا الفكر الإسلامي بالصورة التي يريدونها. الذين ملكوا اللغة العربية يتحرجون حتى من تحقيق كتاب أو من نقله إلى لغة أخرى لأن ذلك يعتبر مظهراً من مظاهر التأخر كما يقولون، الأثر الكبير هو اختفاء الشعور الإسلامي، هذا هو الأثر الخاتم لهذه الآثار الذي غزانا بها الفكر الغربي. نحن نعيش اليوم في عصر يذبح فيه المسلمون في كل مكان ويقتلون بأبشع صور، ونشاهد ذلك أمام أجهزة الإعلام ولا نحرك ساكناً بل نتندر أحياناً بما نفعل، وأحسن حال أن يقول بعضنا لا حول ولا قوة إلا بالله، هذه هي في تصوري آثار الغزو الفكري الذي نحن نعيشه الآن، والسؤال المهم والخاتم، ما العمل؟ هل يمكن بكتابة كتاب حول الغزو الفكري أن نفعل شيئاً؟ هل يمكن بإقامة ندوة أن نفعل شيئاً؟ أعتقد أنه كما أن الحجم حجم دول فإن المجابهة يجب أن تكون مجابهة دول، ما لم تتبنى الحكومات الإسلامية وعدتها الشعوب الإسلامية خطة تستهدف تحسين العالم الإسلامي بتربية إسلامية نقية

تدخل كل مدارسنا ومؤسساتنا العلمية فإننا لن نستطيع أن نخلق النموذج المسلم الذي يستطيع أن يجابه هذا الفكر الغازي وشكراً.

الشيخ عبد القادر العماري :

بسم الله الرحمن الرحيم .

نشكر الإخوة الذين قدموا هذه البحوث القيمة، وإن شاء الله يكون لها أثرها في العمل، الغزو الفكري له مطايا، لم يأت إلينا بدون مطايا يركبها، من هم هؤلاء المطايا؟ إنهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا كما قال الرسول ﷺ، الغزو في المجال الثقافي وفي المجال القضائي وفي مجال الأسرة والمرأة وفي الحكم وفصل الدين عن الدولة، من يقوم بذلك هنا في العالم الإسلامي غير أناس من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا؟ أجهزة الإعلام مفتوحة أمامهم، الصحف أمامهم كل يوم نقرأها والمجلات الأنيقة الجميلة فيها المقالات التي تطعن في القرآن وتطعن في السنة، الكاتب الذي هو في موقف وفي مركز مرموق يتكلم ويطعن في القرآن ويقول إن تَبَّتْ، سورة تبت هذه وضعها الأمويون، يقوله بصراحة في مجلات تنشر بأموال الحكومات ويقول عن الحديث النبوي الشريف، ويعلق على حديث «كل بدعة ضلالة» يقول هذا الحديث لا يمكن أن يصح وليس صحيحاً لأنه يمنع الإبداع يقوله في مجلات تصدر في بلاد إسلامية وبأموال إسلامية ولا أحد ينتقده ويطعن في علماء المسلمين ويطعن في الرموز من الصحابة، حزب من الأحزاب اليسارية الذين أفلسوا وأرادوا أن يلجأوا إلى فكر يريدون أن يلبسوا على الناس بأنهم من التاريخ الإسلامي، هو فكر القرامطة، ويصدر كتاباً يسميه الثقافة الإسلامية، يطعن في سيدنا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، ويقول إنه كان يجامل ابن عمه عبد الله بن العباس ويهيء له الاستقلال، ويطعن في الخلفاء الراشدين جميعاً، في البلاد الإسلامية هذا يجري، ولكن ماذا نعمل نحن؟ الحكم في القضاء، أي دولة إسلامية تحكم بالشرعية الإسلامية؟ الحكم بالقانون الفرنسي الذي يبيح الزنا بأكثر الدول الإسلامية، وللزوج أن يتنازل في القضية أمام المحكمة إذا زنت امرأته ويعتبر

الأمر كأن لم يكن، أليس هذا مصادم لنصوص شرعية في الكتاب والسنة، ألسنا مسلمين؟ نقول نحن مسلمون ولكن بالكلام، والعمل لا شيء من ذلك، كيف يقولون الآن في جميع الجرائد وفي جميع المجلات هناك إسلام سياسي؟! هم يريدون إسلاماً سياحياً، إسلاماً يعتني بالزخرفة وبالمنائر والتراث، بالأغاني والخيام والتراث القديم والحديث، إسلام سياحي لا يريدون إسلاماً سياسياً، يقولون هؤلاء الأصوليون دعاة الإسلام السياسي، دعاة تطبيق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يقولون إنهم دعاة الإسلام السياسي، هذه في كل المجالات في كل العالم الإسلامي يقال ذلك، أين الذين يتصدون؛ أجهزة إعلامنا كلها ضحايا للغزو الفكري، هناك ممسوخون، يجب علينا أولاً - قبل أن نحارب أولئك البعيدين الذين أرسلوهم والذين يمولونهم، الدول الغربية كلها لها عملاء في عالمنا الإسلامي - أولاً علينا أن نحارب العملاء ونعريهم ثم بعد ذلك نتقوى ونكون أقوياء ونكون وحدة واحدة على أولئك البعداء. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وشكراً.

الدكتور عدنان صقال:

بسم الله الرحمن الرحيم.

إنني كطبيب أرى أن السادة الباحثين في موضوع الغزو الفكري أغفلوا ناحية مهمة جداً وهي الغزو عن طريق الناحية الصحية وأقصد بها المستشفيات والبعثات الطبية والمدربة تدريباً جيداً على التبشير، أما التركيز على الناحية الطبية فهم أصابوا قلب المشكلة، إن الأمراض التي تفتك بالعالم الثالث - إن صحّت التسمية - كثيرة، فجاءت البعثات الطبية تريد أن تمسح آلام هؤلاء الناس كما كان المسيح يمسح آلام الناس - كما هم يقولون - فأعطوهم الدواء والمريض كالغريق، فكما أن الغريق لا يهتم بالكلام عن النجاة بل يحتاج إلى من يمد له يد السلامة، فكذلك المريض. والمريض كالجائع، فكما أن الجائع لا يشبعه التكلم عن أنواع الطعام فكذلك المريض لا يرتاح إلاً لقطعة من دواء أو لمسة يمسحها الطبيب على جبينه، هناك زميل مسلم يعمل في إحدى الدول الإسلامية بشركة

بترول، وهذه الشركة كانت شركة أمريكية، حدثني هذا الزميل وهو يحمل الجنسية الأمريكية أنه حضر فريق من أمريكا إلى الشركة، وأعلن عن اجتماع مغلق للأمريكان، وأثناء الاجتماع تقدم قس وقال لهم يجب أن تعلموا أن لكم مهمتين الأولى أن تقوموا بالأعمال الفنية الموكلة إليكم، أما الثانية، فلا تنسوا أنكم مبشرون، ونعلم - والكلام للقس - أعلم أنكم لا تستطيعون أن تقولوا للمسلم أترك دينك وكن مسيحياً فإنه غباء ويجب أن لا نتصرف بمثل ذلك، ولكن عليكم أولاً بدعوتهم إلى ترك الدين بصورة عامة لأنه لا يتلائم مع هذا العصر، ثانياً إشراكهم بالحفلات الماجنة المغلقة، ثالثاً تبيان أن الخمر مفيد للجسم وخاصة بالبلاد الحارة، رابعاً أن تدخلوا إلى بيوتهم عن طريق الطب والتطبيب وإعطاؤهم الأدوية وإرسالهم على حسابنا إلى أمريكا لإجراء بعض المداخلات الجراحية إن لزم ذلك.

أخيراً هناك طبيب أفريقي كان يحضر مؤتمراً في لندن أخبرني أن في أفريقيا أرسلت إسرائيل أئمة علم وخطباء للجوامع لوعظ المسلمين الأفارقة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وشكراً.

الدكتور محمد علي الرفاعي:

بسم الله والحمد لله والسلام على رسول الله.

احتراماً لوقتكم ولفضل علمكم فإن مداخلتي أخصها بنقاط محددة إن شاء الله تعالى.

الفكرة الأولى: أحسب أن الغزو الفكري هو وسيلة من وسائل التدافع الدولي وهذه الوسيلة يسخرها البعض لإضعاف أو تغيير طرف لحساب طرف آخر يسعى للهيمنة على القرار الدولي ثقافياً وسياسياً واقتصادياً، وبعبارة أخرى إن الغزو الثقافي هو وسيلة من وسائل الصراع الحضاري بين الدول والثقافات والأديان.

الفكرة الثانية: إن قضية الغزو الفكري أو الثقافي قضية قديمة والجديد فيها

ما سخر لها من وسائل وإمكانات وما سخر لها من استراتيجيات دولية ضخمة تقف وراءها دول ومنظمات دولية ذات شأن كبير، أما عن قدمها فهو في قول الله تعالى: ﴿وَأَنْ رَّضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾؛ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾.

هذا أمر محسوم قرآنيًا وبالتالي ما ينبغي أن نطيل به الحديث إلا إذا أردنا أن نتعرف على الوسائل لنحاكيها بوسائل مكافئة إن لم تكن متفوقة.

الفكرة الثالثة: نحسب أن قضيتنا الرئيسة مع الغزو الثقافي أو الغزو الفكري هي: كيف نتعامل مع هذا الغزو ما دام أن قضية الغزو هي قضية قديمة وقد واجهها رسول الله ﷺ وواجهها النهج الإسلامي فكيف نحن نواجه هذا الغزو في تاريخنا المعاصر؟ نحسب أن هذه هي الإشكالية الكبرى التي يجب أن نبحث عن أسبابها ومقوماتها وإمكاناتها التي نواجه بها هذا الغزو، وهذا هو بتقديرى موضوع الجهاد البياني في نهجنا الإسلامي، أنا أقول أن الجهاد ذو شقين شق بياني وشق قتالي وأن الشق القتالي هو طارئ في منهجية الجهاد الإسلامي، الأصل في الجهاد هو جهاد البيان كما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَطْغَبْ أَلَكُفْرِيكَ وَيَحْذِثُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

الأصل بيننا وبينهم هو جهاد بيان وجهاد أديان وجهاد عقائد وجهاد ثقافات، ويوم نحن نرتقي بأنفسنا لأن أهل أنفسنا لمثل هذه المواجهة الثقافية الفكرية نكون نحن قد تعاملنا مع منهجنا، كيف نواجه هذا الزحف الثقافي ونحن نتمنى أن يبقى الصراع بيننا وبينهم صراعاً ثقافياً وفكرياً؟ إلا أن الإشكالية التي نواجهها هو أن هذا الغزو الثقافي عندهم هو مقدمة لغزو عسكري وغزو هيمني على الأمة، إلا أننا نحن عندما نتحدث عن تحركنا الثقافي نتكلم عن ذلك ونحن معزولون عن أي استراتيجية تكمل خطوات توجهاتنا أو خطوات ما نريد في مواجهة هذا الغزو، وهذا ما أشار إليه الإخوة بأن ذلك الغزو تدعمه قوى وتدعمه منظمات ونحن أمة لا بواكي لها، إلا أنه هذا لا يجعلنا نقف مكتوفي الأيدي ولا ينبغي أن يكون مبعثاً لليأس في نفوسنا، فلا بد أن نورث أجيالنا استراتيجية

أو منطلقات أو ثوابت أو مفاهيم محددة بين يدي استراتيجية عمل إسلامي، لعل أجيالنا المستقبلية أن تجد ما يعينها بإذن الله تعالى على مواجهة هذا الغزو الحضاري أو الثقافي أو الديني، وهنا اسمحو لي أن أحدد بعض النقاط التي تشكل أساس استراتيجيتنا أو أساس استراتيجية إسلامية مضادة لهذا الغزو الذي أطلنا عنه الحديث وعن تفصيلاته، أحسب أن أول مقوم، وأساس هذه الاستراتيجية يقوم على وحدة فهم الأمة لأساسيات وكليات الإسلام. إن غياب وحدة مفهوم الأمة حول أساسيات وكليات الإسلام هو مبعث تمزق هذه الأمة ومبعث فرقتها وبالتالي لا بد أن نركز، وهذا المجمع الطيب المبارك يعتبر القاعدة الأساسية للأمة، بأن يخرج من بين أيديكم ما يوحد مفهوم هذه الأمة ومفهوم أجيالها في أساسيات وكليات الإسلام في التعامل مع مجتمعاتنا القائمة، وبالتعامل ما بين مجتمعنا الإسلامي المنتظر والمجتمعات الغير الإسلامية القائمة، واسمحو لي كذلك أن أشير إلى بعض ثوابت فهمنا لاستراتيجيتنا الإسلامية التي لو استطاع المجلس أو هذا المجلس الفقهي المبارك أن يشكل لجنة طويلة الأمد تبحث هذه الثوابت وتجمعها وتشكل منها قاعدة لوحدة فهم إسلامي، أحسب أنه سيكون هذا العمل هو عمل مبارك سيجعلنا نتحول بأنفسنا من الأقوال إلى الأعمال. أما ثوابت فهمنا فإلخصها بالنقاط التالية:

أولاً: لا بد أن يكون واضحاً أن الدين عند الله الإسلام، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْدَرَهُمْ أَنْ يَشْتَرُوا مِنْكَ عَنَّا بَعْضَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْبَلُونَكُمْ حَتَّىٰ تَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَلَمُوا﴾؛ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؛ ﴿لَا يَتَّهِكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْبَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَكِنَّ حُرْمَةَ اللَّهِ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾؛ ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ ﴿وَلَا يُحَدِّثُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾. وهناك نصوص من السنة والسيره تشير إلى أدبيات وقيم تعاملنا مع غير الإسلام، مثل ما جاء في موقف رسول الله ﷺ من حلف الفضول ومثل ما جاء من طلب رسول الله ﷺ للصحابة بالهجرة الأولى أن يذهبوا إلى رجل لا يظلم

عنده أحد وهو نصراني، مثل كذلك ما جاء في وثيقة صلح الحديبية، وكذلك في محاور التحرك يوم الأحزاب، وكذلك ما جاء في وثيقة المدينة المنورة ثم ما جاء من أقوال على لسان أئمة من أئمة هذه الأمة، وأذكر منها مثلاً في إطار دراسات ولا سيما في ما جاء على لسان الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه، إذ يقول في السياسية الشرعية كلاماً أقف أمامه وأجد أنه قابل لأن يعتبر منطلقاً من منطلقات التعامل الدولي، يقول ابن تيمية: إن الله لينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الجائرة، وقفت عند هذا النص وقلت هل يوجد دولة كافرة عادلة؟ وهل يتحقق العدل بغير الإسلام؟ وقفت أمام هذا الكلام وأطلت النظر به ثم رجعت إلى كتب وإلى أقوال، فوجدت مع مقابلة النصوص ومقابلة الأقوال فوجدت بالفعل أنه يمكن لدولة كافرة أن تقيم عدلاً، لكن هذا العدل لا يقوم على أساس إيمان إسلامي أو عقدي، إنما يقوم هذا العدل على أساس فطرة الإنسان ونزوعه نحو الخير ونزوعه لإحقاق الحق في حياته الخاصة، فقلت إذن العدل هو قضية الإسلام الأولى، وما دام العدل هو قضية الإسلام الأولى وأن الله سبحانه وتعالى وصف الشرك بالظلم، إن الشرك لظلم عظيم، إن أكبر قضية وأساس قضية في حياتنا وهي الشرك هي موصوفة في الظلم، إذن يقابلها العدل فقضية الإسلام في الأرض هي إقامة العدل ومن هنا لا بد في الحقيقة أن تجمع هذه النصوص، وهناك قول آخر جاء كذلك بفتاوى ابن تيمية رحمة الله عليه، يقول: الشريعة جاءت لتحسين المصالح وتكميلها وإلغاء المفاسد أو تقليلها. هذا القول بالإضافة إلى أقوال كثيرة لأئمة المسلمين ولسلفهم وللتابعين أجمعين كلها تشكل موضوعاً متكاملًا لو شكلت لها لجنة من هذا المجمع الطيب المبارك لاستطاعت أن توفق بين هذه النصوص وتخرج لنا باستراتيجية نظيرية أولاً، ثم استراتيجية عملية كيف نواجه فيها هذا الغزو.

ثانياً: بعد هذا التفصيل الموجز أقول: إخواني إن الإسلام كما تعلمون عقيدة وفكرة ومنهج ونظام، وهذه الرباعية المتسقة تتمحور كلها حول قضية العقيدة، إذا صححت مفاهيم العقيدة في الأمة اتضحت فكرة الأمة ومن ثم اتضح

مساها المنهجي ومن ثم اتضحت هويتها النظامية. والسؤال الذي هنا أطره على نفسي ويطرح علينا في كثير من الملتقيات الأوروبية وفي كثير من الملتقيات الثقافية خارج البلدان الإسلامية، وهذه الأسئلة أخصها إليكم وأعتبرها هي مثار سؤال واحد ينبغي أن يكون موضع اهتمامكم، يقول لنا غير المسلمين: هل المسلمون يصرون على أن السيادة الكاملة الشاملة في الأرض ينبغي أن تكون للإسلام عقيدة وفكرة ومنهجاً ونظاماً فحسب أم أن المسلمين في إطار معاني لا إكراه في الدين يقبلون بسيادة النظام الإسلامي وهيمته دون عقيدته على حياة الناس مع قبول استمرار كيانات سياسية غير مسلمة؟ ثم يقولون سؤالاً ثالثاً هل المسلمون يخولهم إسلامهم بقبول مبدأ المشاركة الدولية لتحقيق مصالح عليا للإنسانية لتحقيق تعايش بشري على أساس من العدل والأمن والاستقرار؟ وهل المسلمون يصرون على أن لا يحقق العدل إلا بالسيادة السياسية من خلالهم أم أنهم يقبلون بكل ظاهرة تحقق العدل في الإنسانية ويصبحون هم شركاء في إقامة العدل بالأرض ويقبلون بالتعددية السيادية للكيانات السياسية من غير المسلمين؟ هذه أسئلة أيها الإخوة، أسئلة نواجهها ونحن نلتقي مع غير المسلمين بملتقياتنا وندواتنا وفي مؤتمراتنا ونجد أنفسنا، لا أقول عاجزين، ولكن مضطربين في الإجابة الدقيقة عليها؛ لأننا إذا رجعنا إلى كتبنا المرجعية نجد اختلافاً كبيراً، والبارحة سهرت سهرة طويلة مع ما قدم في قضايا العلاقات الدولية وفي قضايا الغزو الفكري، مع تقديري لكل ما قدم من جهود، لكل ما قدم وبذل من إمكانيات ودراسات موضوعية وعلمية، لكن عندما يقترب الأخ من قضية العلاقات الدولية يصبح متحفظاً ويتحدث كلاماً مقتناً صغيراً لا يستطيع أن يقول فيه شيئاً، فكأنه يرى أن هذه النقطة إما أنه غير مؤهل أو أنه محرج أدبياً أن يقول كلاماً أو يقول قناعته، فأرجو أيها الأحباب في مثل هذا المجلس أن نكون صرحاء وأن نواجه القضايا بجرأة وبجدية وبموضوعية، وأن نكون موضوعيين مع أنفسنا حتى نستطيع أن نكون موضوعيين مع غيرنا هذه قضية، قضية ثانية الحقيقة أريد أن أختم بها حديثي، عندما تحدث الأخ الدكتور طه العلواني وهو يعيش الآن في الغرب وكنت أحسب أنني سأسمع منه كلاماً يشفي غليلي إلا أنني

للأسف صدمت، صحيح أنه قال معاني كثيرة هي موضع اتفاق لا شك في ذلك إلا أنني صدمت أنه قال معاني أحسبها أنها موضع نظر وتحتاج منه إلى مراجع لأنها تشكل أساسيات في الفهم الإسلامي في مواجهاتنا الدولية مع الآخرين، وبالتالي ما ينبغي نحن أن نواجه القضايا بعاطفية وأن نواجهها باستعلاء إيماني معزول عن واقعية، نعم الاستعلاء الإيماني عندنا شيء أساسي لا شك في ذلك لكن هذا الاستعلاء الإيماني كيف تعامل من خلاله رسول الله ﷺ مع أعدائه ومع خصومه ومع غير المسلمين نجد أن السيرة في الحقيقة تكتنز لنا كثيراً من المآثر التي تجعلنا أن نعيد النظر في قضية تعاملنا مع غيرنا مع الحفاظ على الثوابت والمنطلقات ومع الحفاظ على الاستعلاء الإيماني في إطار قوله تعالى:

﴿وَكَذَرَهُمْ أُنْ يَفْتُولُكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ .

هذه مداخلة متواضعة ورؤوس أقلام ما أردت أن أفضل بها والتفصيل بها يطول وشكراً لكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الشيخ مصطفى الزرقاء :

بسم الله الرحمن الرحيم .

إخواني الأساتذة الكرام، أنا لا أريد أن أكرر أو أخوض في الموضوعات الأساسية التي عرضها الأساتذة الكرام وأوفوا فيها على الغرض، ولكنني أريد أن ألفت الأنظار إلى ناحية هي في ذاتها فرعية من مئآت فروع قاعدة الغزو الفكري وأساليبه ووسائله، ولكنها في نظري هي أهم في عصرنا هذا وحياتنا الواقعية من الجوانب الأخرى الأساسية في هذه القاعدة، تلك هي قضية التلفاز، وكنت أحب أن يركز عليها الكلام بالقدر الذي تستحقه قضية التلفاز، تعلمون ولا أريد أن أطيل فكلكم يعلم التفاصيل وكلكم أو معظمكم ومعظم المسلمين أصبح هذا الجهاز في بيته يغزو عائلته وأولاده وبناته وزوجته وما إلى ذلك، وكل هذا ينقل الحياة الغربية بما فيها من أمور تتنافى تماماً مع الإسلام ومن سلوكيات انحلالية، وتعرفون مدى هذه الكلمة ومدلولها كل هذا ينقل، كان ينقل قديماً قبل التلفاز عن طريق السينما وكان للإنسان أن يمنع أولاده أو أسرته عن السينما فلا يأذن

لهم ، ولكن لم يعد يستطيع أحد أن يخلي بيته من التلفاز الذي أصبح وسيلة معشوقة لدى أولاده ولو كانوا طلاباً بالمدارس ويلهيه عن دروسهم وكذا وكذا، وخاصة سلوك النساء الذي يراه في التلفاز، هناك غزو دخل بيوتنا يعني الكتب والأساليب والمستشفيات، وكل ما تحدث عنه الإخوان إنها في مجال خارجي ولكن هذا الجهاز وما أسس عليه في برامجه التي معظمها برامج يهودية إخراجاتها السينمائية مخططة من قبل اليهود هذا خصص خصيصاً لهذا التهديم الأخلاقي والسلوكي وما إلى ذلك مما تعلمون ونشر الانحلالية، هذه الانحلالية هي التي تسهل بعد ذلك كل وسائل الغزو الفكري الأخرى أن تنفذ بلا معارض ولا حاجز، لا أريد أن أكثر الكلام لأنكم تعلمون من واقعه مثلما أعلم ولكني أيضاً في الوقت نفسه أحب أن ألفت النظر إلى ظاهرة نأسف لها، وهي أنه في البلاد الموثرة وخاصة في بلاد الخليج أصبحت هناك وسيلة لتعميم الاطلاع على جميع محطات وقنوات التلفاز، ذلك الهوائي الراداري الذي هو شبيه برادار الأقمار الصناعية، وقد يبلغ خمسة أمتار وقديبلغ متراً واحداً وينقل إلى صاحب البيت وأسرته وأولاده وبناته وزوجته، ينقل إليهم القنوات التلفازية وبرامجها التي تعمل وخاصة في أمريكا على مدى أربع وعشرين ساعة، ينتقل فيها من برنامج إلى برنامج ومن محطة إلى محطة ويعرض فيها في منزله وفي بيته وتعرض فيها الأفلام الماجنة والخلاعية التي لا تعرض عادة في السهرات العادية وحدودها من الليل، كل هذا أصبح موجوداً ومنتشراً، وتعلمون ما وراءه من مآسي وما أنتح من سلوكيات ومن إنحلاليات، أنا أرى وأريد أن أوجز جداً أن يصدر عن هذا المجمع الكريم توصية وترسل إلى حكومات البلاد الإسلامية جميعها عربية وغير عربية، نظراً لأن هذا الجهاز وهذه الهوائيات المتطورة جداً والتي تساعد على نجاح الغزو الفكري في كل آفاقه وسلوكياته هو بيد الحكومات، يعني اليوم في العالم الإسلامي كله والعربي قضية التلفاز والبت وما يتبعها، كلها في يد وسائل الإعلام في حكومات البلاد الإسلامية .

لذلك أقول أن يتوجه هذا المجمع الكريم بتوصية إلى حكام البلاد

الإسلامية جميعاً بأن يتقوا الله في توسعة وتسهيل اقتناء هذه الرادارات على الأقل وأن يهتموا بالأفلام التي يستوردونها ويثونها من محطاتهم المحلية، أن يهتموا بتفتيتها وأن لا يسمحوا فيها لكل ما يراد، فهناك من العروض التي عرضت في التلفاز في البلاد الإسلامية والعربية في مدى الحقب الماضية ما يندى له الجبين من المناظر الانحلالية والدعوات الانحلالية، ولا أريد أن أذكر بلداً بعينه، جاء هذا الجهاز الهوائي المتطور فزاد الطينة بلة، فأرجو أن يصدر توصية بأن تتقي الحكومات الله في أخلاق رعيته وأن يراقبوا الأفلام المستوردة، فلا يسمحوا لكل فيلم وإن كانت هذه المراقبة حاصلة ولكنها ضعيفة جداً، والأفلام الانحلالية كثيرة الوقوع في كثير من البلاد دون اكتراث فأن يدعوهم إلى ذلك وأن يعطوا توصية في منع الهوائيات المتطورة هذه الرادارية، ومنعها على الأسر والعائلات وأن لا تكون في البيوت، هذه يجب أن تبقى في يد الحكومة لتلتقط ما تشاء باعتبار أنها تحتاج أن تعرف كل شيء عما يجري ولكن لا يسمح بها للبيوت فتكون مثلاً، على أن هذه الأمة كلما زاد ثراء أحدها يزداد إقبالاً وانهماكاً وشهوة عارمة في أن يستجلب إلى بيته وأسرته كل مظاهر الغرب وانحلالياته والسلام عليكم .

الشيخ عبد العزيز الخياط :

بسم الله الرحمن الرحيم .

أود يا فضيلة الرئيس بهذه الكلمة أن أنهه بأمور ربما لم يتعرض لها الإخوة الكرام، نحن نعلم أن الغزو الفكري هو أشد خطراً من غزو السلاح وأن الاتحاد السوفياتي لم يسقط بالقنبلة النووية ولا بالسلاح الذري النووي وإنما سقط بغير ذلك، ولهذا خشيتنا من هذا الغزو أن نزداد سقوطاً، لذلك أحببت أن أقول لإخوتنا الذين تناولوا الأبحاث - وهم مشكورون - لم يتناولوا الغزو الصهيوني الفكري في الإذاعات، في التلفزيونات، في الكتب، في المجلات، في الأندية، في الدعوات المشبوهة مثل شهود يهوا، مثل ثورة المسيح، مثل الماسونية، مثل كذلك النوادي التي تبث الغزو الفكري من خلال الطرق الكثيرة مثل نادي

الروتري، مثل الليونز، وأمثالها، فاستكمالاً للغزو الفكري الإسرائيلي الذي بدأ في مطلع فجر الإسلام من أيام عبد الله بن سبأ وبعد ذلك استمر في التفسير وغيره.

الأمر الثاني أن هناك غزواً فكرياً عانينا منه ومازلنا نعاني يتسلل من خلال الأحزاب سواء كانت هذه الأحزاب مسلحة أو غير مسلحة وسواء توصلت إلى الحكم أم لم تتوصل إليه، وأذكر على سبيل المثال أننا عرفنا في المنظمات المسلحة التي كانت في الأردن وفي بعض البلاد العربية أثناء ما يسمى بالنضال ضد الصهيونية دخلت علينا منظمات تحمل الفكرة الماركسية وتحمل الفكر التبشيري، واسمحوا لي أن أكون صريحاً في هذا الأمر فقد عانيت منه الكثير وحاولوا اغتيايي، وعلى سبيل المثال منظمة جورج حبش ومنظمة نايف حواتمه وأمثالهم الذين كانوا يدعون صراحة وعلانية إلى هدم الإسلام، أذكر أنه في متدى عام في مجمع النقابات في عمان مرة ومرات وقف أحدهم يخطب ويقول إن أول ثورة عربية هي ثورة مسيلمة ضد الإمبريالي أبي بكر، فهذه دخلت وأفسدت كثيراً من شبابنا، ومازلنا نذكر أن حزب البعث العربي استكمالاً للأحزاب التي تولاها القوميون النصريون مثل قسطنطين زيريف وأنطون سعادة وأمثالهم استطاعوا أن يعبثوا في بلاد عربية وأن يفسدوا شبابها، ولقد علمت مؤخراً ولا أدري إن كان هذا الخبر موثقاً أم لا، لكن في نشرة وصلت إليّ قبل ستة أيام أن ميشيل عفلق أصله يهودي من اليونان وأن زوجته هي ابنة جولدا مائير، نعم هذا علمته أخيراً فإذن هذه ينبغي أن نتبه إليها وأن نطلع عليها.

هذه الناحية لكن أيضاً هناك مؤسسات كثيرة ولعل بعض الأخوة يعرفون عن مؤسسة أريد أن أعرف بها لأننا وقعنا في مواجهة صريحة وخفية معها، هذه المؤسسة هي في نيويورك تسمى مؤسسة الأديان العالمية في نيويورك، هذه المؤسسة هي إحدى المؤسسات للحركة التوحيدية وقد تأسست في منتصف القرن الحالي على يد رجل كوري يُدعى الأب مون ويلقب بآدم الثالث والمسيح، وهذا

الرجل حسب تعبيرهم جاءه الوحي منذ ثلاثين عاماً وتركت روحه الأرض وصعدت إلى العالم الروحي وهناك التقى بسيدنا آدم وسيدنا محمد ﷺ وجميع الأنبياء وقد باركوا خطواته في نشر تعاليم الحركة التوحيدية في الأرض، ويقول مون بأن الوحي طلب منه أن يبدأ بنشر دعوته في أمريكا لأنها مركز الفساد والانحلال في العالم ومن خلال إصلاحها يصلح العالم كله، ولهذه الحركة أتباع يصل عددهم إلى خمسة ملايين يتركزون في أمريكا وكوريا واليابان، يعتقد مون أن كوريا هي إسرائيل الثالثة التي ستحقق رسالة موسى وعيسى عليهما السلام، وكلمة التوحيد لديهم تعني أن يتوحد الإنسان مع ربه وكذلك أن تتوحد جميع الأديان تحت مظلة هذه الحركة، العقيدة في هذا الدين الجديد كما يزعم مبنية على أرضية من التاريخ اليهودي النصراني المأخوذ من التوراة والإنجيل، وهذا في نظرهم هو التاريخ الأساسي أما تاريخ الأمم الأخرى بما فيها التاريخ الإسلامي فيعتبر هامشياً، هذه الحركة تحرم على أتباعها التدخين وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والزنا، وتعتبر العائلة من أهم مرتكزاتها حتى يستجلبوا الناس والمسلمين بصورة أخص، فقد حدثت عن أعضاء منهم يحفظون القرآن الكريم ويحفظون البخاري ويناقشون على أساس هذه الحركة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وعلى كل من ينضم إليها أن يتزوج وينجب أطفالاً، ومون هذا هو الذي يختار الزوجة أو الزوج، وغالباً ما يكون الزوج بين عرقين مختلفين، وهو الذي يحدد للزوجين متى ينبجان الأطفال. ويتلخص تاريخ الإنسانية في نظرهم كالآتي:

خلق الله سبحانه وتعالى آدم لأنه كان بحاجة إلى الحب وكان على آدم أن يقيم ملكوت الله بالأرض، ولكن الخطيئة التي ارتكبتها حواء بإغوائه بأكل الثمرة المحرمة ثم عندما ارتكبت الخطيئة مع الشيطان أسقطته وأفشلت مهمته وأورثت الخطيئة لذريته وحواء. عندما جاء عيسى عليه السلام أراد الله سبحانه وتعالى أن يقيم الملكوت وأن يرفع الخطيئة عن البشر، لكن عيسى عليه السلام فشل في مهمته لأنه لم يتزوج ولم يولد له ولد، فنجاح المهمة مرهون بشروط ثلاثة: أن

يبلغ الإنسان الكمال في نفسه وأن يتزوج ويتكاثر وأن يسيطر على الكون، فمون هذا حقق الشرطين الأولين وهو بصدد تحقيق الشرط الثالث كما يزعم وهو أن يسيطر على الكون، ومن ضمن معتقدات أتباع هذه الحركة أن جميع الأنبياء والأديان بما فيهم الإسلام كانوا عبارة عن تمهيد لقدم آدم الثالث والمسيح المنتظر وهو كما يسمي نفسه الأب مون الذي حلت عليه روح المسيح وأنه عاد ليكمل رسالته في تحقيق ملكوت الله في الأرض وإحلال السلام في العالم، أما عن مفهوم الثواب والعقاب لديهم فهم لا يؤمنون به، ويقولون إن الجنة والنار ما هي إلا رموز، وخاصة عندما ذكر القرآن الكريم أن الجنة هي الملكوت في الأرض والنار هي بعد الإنسان عن ربه. لهذه الحركة مشاريع اقتصادية ضخمة يستغلون عدداً كبيراً من الناس ومن المسلمين بالذات في أنحاء العالم، ولدي أسماء بعضهم في الأردن ولا أدري في البلاد الأخرى وهم من وزراء وأصحاب مشاريع، ولمؤسسة الأديان العالمية مسرح في مناهتن واستديوهات لتسجيل أغاني الروك أندرول ومزارع لتربية الخيول وإقامة مباريات القفز عن الحواجز، ولها أيضاً مؤسسات عالمية منتشرة مثل مؤسسة الأديان العالمية وتحالف الحرية الأمريكي ومنظمة كاوزا لمحاربة الشيوعية وأكاديمية السلام العالمي للأساتذة ومجلس القمة للسلام العالمي وغيرها، يؤكد مسؤولون في هذه الحركة بأن مون كان له دور كبير في إسقاط الشيوعية وتفتيت الاتحاد السوفياتي وأنه سعى جاهداً أثناء أزمة الخليج ألا تتحول الحرب إلى حرب دينية، وقد بدأ الآن اهتمام هذه الحركة ينصب على العالم العربي والإسلامي، ويؤكد بعض أعضاء هذه الحركة بأن حل القضية الفلسطينية موجود لدى مون وسوف يعرضه في الوقت المناسب وله فندق في نيويورك من عشرات الطوابق لا ينزل فيه نزلاء بالأجرة وإنما ينزل فيه الناس الذين يستضيفهم، ويستضيف مجموعات متعددة شهرياً من أنحاء العالم العربي والإسلامي وغيرهم من مجموعات من الشباب والفتيات لدعوتهم إلى هذه الدعوة الحركة الصهيونية التبشيرية الجديدة. وشكراً.

الشيخ معروف الدواليبي :

بسم الله الرحمن الرحيم .

سيدي الرئيس أحاول أن تكون كلمتي مختصرة ولكنها في جوهر القضية، وذلك حول مفهوم العلمانية. من درس الكهنوت دراسة ليتعرف على التشريع الكنسي يجد أن الكهنوت يقسم الشعب إلى طبقتين طبقة تتصل مع الله وهي طبقة الكهنوت ثم طبقة الشعب التي تأخذ الأوامر من الكهنوت وتسمى الشعب والتعبير الأصلي اليوناني: «لا يوس والله تَبوس» ولذلك نشأ عنها ما يسمى بالدول التيقراطية الذين لا تصح رئاستهم في استعمال السلطة، الملك ورئيس جمهورية ونحو ذلك، أو الأصح الملك إلا بعد أن يأخذ السلطة من الكهنوت لأن الكهنوت يمثل الله وأما الشعب فلا يمثل الله، ولذلك يخضع الشعب والملوك إلى الكهنوت لتزويدهم بالسلطة وعندئذ يكون للملك حق الملك، فاليهودية... وكان مما يؤخذ على الملوك منذ نشأت الكسلكة وحتى الآن في مختلف العقائد الفرعية عن الكسلكة عندما يتوج الملك يتوج نكاية في إسرائيل الذين يعتقدون أن إسرائيل صلبت المسيح فيتوجونه، فملك إنجلترا في الصيغة الرسمية حتى الآن يتوج ملك إسرائيل نكاية في إسرائيل التي تقول إنها صلبت المسيح، ويقولون إن الإسرائيليين أصبحوا هم إسرائيليون الروح، فمن آمن بالمسيح وأنه صلب فهو إسرائيلي وأما من لم يؤمن بالمسيح ولم يصلب فهو ليس بإسرائيلي، ولذلك يتوج الملك بملك إنكلترا حتى الآن بملك إسرائيل، ومن الغريب منذ سنتين كنت اجتمعت مع بعض الإخوان الذين كانوا في زيارة لملك إسبانيا فقال ملك إسبانيا الحاضر كارلوس مع إخوان من الفلسطينيين أنا توجت أيضاً باسم ملك إسرائيل، فالصيغة قامت اليهودية لأن يتولى عندما يتوج يطلب منه لعن اليهود، ولذلك الحركة اليهودية قامت واستطاعت أن تتوصل في معنى لأخذ السلطة من الشعب لا من الكهنوت أي لا من الله، وتوفقت إليها، غير أن النهضة الصناعية والعلمية التي ابتدأت منذ الخامس عشر حتى الثامن عشر وظهر علماء ومنهم جاليليه الذي قال بدوار الأرض فكفرته الكنيسة وحكمت عليه بالطرده ومنهم

حرقتهم، فانفصل العلم عن الدين عندئذ ووضعوا معرفة بالمعرفة العلمية فيقولون المعرفة العلمية هي كل معرفة خضعت للحس والتجربة، ولما كان القول بالله لا يخضع بالحس والتجربة فليس القول، به من العلم، ومن هنا تمكنت العلمانية من معنى آخر وتبنتها الأنظمة الدولية خاصة عن طريق اليونيسكو أنه لا يجوز أن يكون تعريف المعرفة العلمية إلا ما يسمى بالمعرفة التجريبية أي التي خضعت للحس والتجربة، وما لا يخضع للحس والتجربة لا يجوز أن يدرس في المدارس العالمية كلها، وهذا التعريف موجود في مدارسنا كليات التربية حتى في البلاد الإسلامية بأجمعها، المعرفة العلمية ما خضع للحس والتجربة وما لا يخضع للحس والتجربة ليس القول به من العلم، ولكن في التعريف الكامل في الكتب الشيوعية يقولون: ولما كان الله لا يخضع للحس والتجربة فليس القول به من العلم، فالعلمانية إذن نشأت من معنيين معنى كانت اليهودية تريد أن تقاوم السلطة حتى تتخلص من نفوذ الملوك ليتلقوا من الكهنوت اللعن وكان واجباً في كل أسبوع أن تخطب الكنيسة بلعن اليهود وبأمر الملك وإذا لم يخطبوا فإنهم يكونون ملعونين، فاليهودية تخصلت بذلك فأصدرت المعنى الأخير في المعرفة العلمية التجريبية بالاتفاق مع العلماء بإقضاء الدين كله، هذا معنى ثان وليس هو المعنى الأول لكن المعنى الثاني أصبح أخطر لأنه يمضي ليس على أساس عداء ما بين اليهود والكنيسة وإنما أصبح دستوراً في نظام اليونيسكو، ولا يجوز أن يسمح للمدارس ابتدائية وثانوية وعالية أن يدرس فيها الدين باسم العلمانية، ومن الأسف أن هذا التعريف موجود في كل كليات التربية بدون استثناء في جميع الجامعات بالعالم الإسلامي، ومن الواجب أن يتفرغ مؤتمر المجمع الفقهي للتنبيه على هذا التعريف وضرورة تعديله، كما كنت اقترحت في مجتمع دولي عام عقد في سنة تسعمائة وثمانية وسبعين في هيروشيما بطلب من مائة عالم من علماء الذرة المتطورة وأرادوا أن يعقدوا ذكرى إلغاء القنبلة الذرية في هيروشيما في نفس الموعد تحت عنوان أما أن للعلم أن يصطلح مع الدين، ودعا هؤلاء العلماء ممثلو الأديان الثلاثة دعوا البابا فأرسل كرديناً ودعوا أيضاً البوذية فأرسلت أكبر عالم عندهم ودعوا المملكة السعودية باعتبارها تمثل الإسلام

فانتدبت فكان لي شرف أن أمثل باسم الإسلام وعن طريق المملكة بأن أحضر هذه الندوة، فأنا ذهبت وليس عندي من عنوان وخلفيات غير العنوان الذي وضعوه: «أما آن للعلم أن يصطلح مع الدين» فتوليت كتابة كلمة الإسلام، وبيّنت بأن الإسلام يولي العلم أهمية قصوى حيث يعرض كل شيء على العقل والفكر والعلم، وقد جاء في غير آية من القرآن: لقوم يعقلون، لقوم يتفكرون، لقوم يعلمون... إلخ، فأما الكردينال فحضر ولم يتكلم طول الاجتماع وكذلك البوذي حضر ولم يتكلم طول الاجتماع، أما مندوب الإسلام والمتمثل في شخصي، فأنا أرسلت كلمتي مسبقاً فوجدوا أن الديانتين الأخريين ما كتبوا شيئاً ولذلك جعلوا كلمة الإسلام تلقى في الافتتاح الذي يدعى إليه عادة جمهرة من مختلف الجامعات، ولكن بعد الافتتاح يبقى المجلس مغلقاً خاصاً بمن دعي من حوار فألقيت كلمة الإسلام أمام الجميع وأنها هي المتفقة مع المفهوم الديني الإسلامي يقول كل شيء عنده حتى ذات الله سبحانه وتعالى لا يعرفه إلا العلماء إنما يخشى الله من عباده العلماء، نفصل الآيات لقوم يعقلون لقوم يعلمون فدهشوا من هذا التعريف، ولما افتتحت جلسة المناقشات مائة عالم من علماء الذرة وكان في مقابلهم الكردينال ورئيس البوذية وأنا الذي أمثل الإسلام، فالمائة عالم كانوا يحملون على الكنيسة يقولون إنكم بحرق العلماء وتكفيرهم أجبرتمونا على أن نتخذ تعريفاً للعلم هذا التعريف التجريبي وأن كل معلوم خضع للحس والتجربة، ولذلك أبعدنا الدين نكاية بكم عن العلم.

الشيخ أبو بكر دوكوري:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيد المرسلين وإمام المتقين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

شكراً يا سيدي الرئيس، أساتذتي الكرام، لا يخفى عليكم أن هذا الموضوع، أعني الغزو الفكري، موضوع هام وخطير؛ لأنه أفتك سلاح سلط على شعوبنا الإسلامية حتى الآن؛ لأنهم استطاعوا بهذا السلاح أن يحققوا ما لم يستطيعوا تحقيقه بأسلحتهم الفتاكة والمتطورة، فالصواريخ والقنابل تستطيع

أن تحرق وأن تقتل وأن تدمر الشعوب الإسلامية، ولكنها لا تستطيع أن تغير عقائد المسلمين، بل أثبتت التجارب أنه كلما حورب المسلمون بهذا السلاح كان تشبهم بعقيدتهم أكثر وتمسكهم بدينهم أقوى، وقد أدرك الأعداء هذه الحقيقة بعد تجارب عديدة وكثيرة؛ لذلك لم يعودوا يعولون كثيراً على هذا السلاح، وإنما ركزوا على الغزو الفكري الذي أعطاهم نتائج إيجابية تتمثل في تشكيك المسلمين في عقيدتهم واحتقارهم لقيمهم الدينية وحضاراتهم التاريخية، وربما انتهى الأمر بهم إلى الارتداد عن الإسلام والعياذ بالله، إذن فلو خصصت دورة بأكملها لهذا الموضوع الخطير موضوع الغزو الفكري لما كان ذلك كثيراً، وأنا وإن كان موضوع بحثي عن الشبه التي تثار حول تطبيق الشريعة الإسلامية إلا أنني أدرك أن أخطر أنواع الغزو الفكري تمكن أعداء الإسلام من الهيمنة على التعليم في عالمنا الإسلامي أسلوباً ومنهجاً، فهنا مكن الشر كله حيث فرضوا التعليم المختلط بين الرجال والنساء فأنتهى الأمر إلى وقوع بنات المسلمين في أحضان المشركين أو النصراري يفجرون بهن ويتزوجون منهن على مرأى ومسمع من أبنائهن وأقاربهن، فلا يستطيعون فعل شيء، فهذه الفتاة المسكينة فإن كانت مسلمة إلا أنها لا تعرف من الإسلام إلا اسمه، فأهلها ليس لهم الثقافة الإسلامية الكافية لتثقيفها وحمايتها وتحسينها، فإذا وقعت في غرام مع زميل لها في الدراسة وتطور الغرام إلى قرار الارتباط التزاجي بينهما وتقدم الشاب إلى أهلها بإعلان الخطبة فإن الأهل طبعاً سيرفضون لأن الإسلام لا يقر على التزاوج بينهما، ففي هذه الحالة فإما أن يكون أبو البنت قوي الشخصية أو ضعيفها فإن كان قوي الشخصية ضحكوا عليه وتظاهر الشاب بالإسلام وتسمى باسم إسلامي أمام الناس لكي يتمكن من الزواج منها وينتهي كل شيء فلا هو يصلي ولا يصوم ولا يتغير شيء من سلوكه، وإن كان ضعيف الشخصية ففي هذه الحالة إما أن يستمر التعاشر بينهما بدون زواج وينجبون من الأولاد ما شاء الله أن ينجب أو أن يرفع قضيتهما أمام محكمة مدنية لعقد الزواج بينهما، وهما أمران أحلاهما مر، والغريب في الأمر أن هذه الفتاة لا تزال تحتفظ بغيرتها الدينية، فعندما يولد لها مولود ويسميه الوالد باسم نصراني تصر أن تسمي ولدها باسم إسلامي هي

الأخرى، وكثيراً ما نرى في مجتمعاتنا من يحملون أسماء إسلامية ونصرانية مزدوجة، فإذا سألت أحدهم عن سبب ذلك قال لك إن أبويه وجميع أهله مسلمون وقد سموه بهذا الاسم الإسلامي بعد ولادته ولكنه تنصر في المدرسة وأخذ اسماً نصرانياً إضافياً إلى اسمه الإسلامي الأصلي، فهذه الظاهرة متفشية كثيراً في مجتمعاتنا الأفريقية، فالمدارس عندنا نوعان مدارس حكومية ومدارس خاصة أهلية، فالمدارس الحكومية ينتدب لها المعروفون بالكوبرا أي معاونون، يمكن كل الذين ينتمون إلى هذه الدول يعرفون هذا الاصطلاح، فهؤلاء الكوبرا الذين يرسلون من الدول الغربية ويغدق عليهم الأموال بدعوى أنهم خبراء يوكلون بوضع مناهج دراسية لهذه الدول، ولا يكتفون بذلك بل يقومون بتدريس المواد الأساسية في المدارس الحكومية، فهذا يتيح لهم فرصة نشر وبث سموهم كما يحلو لهم، والمدارس الخاصة الأهلية معظمها كما تعلمون مدارس تبشيرية، فهذه المدارس التبشيرية - مع الأسف الشديد لا يتقدم أحد إلى المدارس الحكومية إلا بعد العجز عن تسجيل اسمه بهذه المدارس لماذا؟ أولاً لأن الدراسة فيها بدون مقابل، فالوالد الذي يعاني من أعباء الحياة والمشاكل الاقتصادية الحادة عندما تتاح فرصة لولده للتعلم دون أن يدفع مليمًا واحداً فإنه لا يتردد إلا إن كان عنده إيمان أسبي بكر وعمر، وأيضاً فإن هذه المدارس تمتاز بجودة مدرسيها وكذلك باستقامة مناهجها وتفوقها على المناهج الحكومية، كل ذلك جعل الإقبال على هذه المدارس إقبالاً شديداً جداً، فهذه مشكلتنا ولعل وعسى أن نجد من مجتمعاتنا هذا الموقر حلاً لهذه المشكلة فإنها جد خطيرة، ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذنا ووالدنا الشيخ عبد العزيز الخياط الذي قدم لمحة موجزة عن حركة مون الخبيثة، فهذا المذهب الجديد بدأ يهدد هو الآخر مجتمعنا الإسلامي، وقد وصل إلى بلادنا في هذه السنة رجل ياباني جاء خصيصاً للتبشير بهذا المذهب الجديد ووجهوا دعوة إلى زعيم إسلامي بارز لحضور مؤتمرهم السنوي في نيويورك، والزعيم الكبير له ما لا يقل عن مليون من الأتباع فكان مشغولاً فأرسل أخاه الصغير الذي يدير مدرسة إسلامية، طبعاً تعلم في العالم العربي وأنا لا أشك في إيمان هذا الشاب وإخلاصه، ولكن غرر به لأن

المسلم عندما يسمع كلمة التوحيد في اصطلاحنا الإسلامي، التوحيد معروف طبعاً ولكن حركة مون يقصدون بالتوحيد توحيد الأديان الثلاثة، فهذا الشاب عندما رجع وقدم لي تقريراً عن رحلته هذه استغربت لوجود شخصيات إسلامية كثيرة في هذه الندوة أو في هذا المؤتمر السنوي، والعجيب أن وزيراً من وزراء الشؤون الدينية في دولة إسلامية شارك في هذا المؤتمر، فإن كان هو الآخر قد غرر به، كما غرر به ذاك الشاب وإلاً فلا يسعنا إلا أن نقول إنا لله وإنا إليه راجعون، وشكراً سيدي الرئيس.

الشيخ عبد الله بن بيه :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين اللهم صلِّ وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أحاول أن أعلق بجملته من النقاط وإن كان الموضوع قد يحتاج إلى كلام كثير وهو موضوع يهم جميع المسلمين في حياتهم وفي معادهم ألا وهو موضوع الغزو الفكري، هذه النقاط تتمثل أولاً بتعريف بسيط ومختصر للغزو الفكري، ثانياً في تفاوت الغزو الفكري وألوانه، ثالثاً بعض المقترحات التي تتعلق بمواجهة الغزو. أولاً الغزو الفكري هو عبارة عن أفكار واردة إلى الساحة الإسلامية عمداً تحاول أن تنافس الإسلام وأن تحل مساحة من المساحات التي يشغلها الإسلام في حياة الناس سواء في ما يتعلق بالعقيدة أو يتعلق بالتشريع والمعاملات والعلاقات بين المسلمين، وهو مرادف تقريباً للإحداث في الأمر وهذه الإحداث يكون من أصغر الأمور التي تدخل إلى الإسلام وأكبرها وهو الكفر، من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد، إذن الغزو الفكري هو إحداث في أمرنا هذا، هو أن يحدث شيء في أمرنا وليس منه، قد يكون كبيراً وقد يكون صغيراً يتفاوت طبعاً، يتفاوت انطلاقاً من هذا التعريف، فإن الغزو الفكري قد يأخذ أشكالاً وألواناً تتفاوت خطورة وإلحاحاً، ولهذا فعلياً أن نرتب الأولويات، بعض مظاهر الغزو الفكري تحاول اجتذاز، أو بعض نواحي الغزو الفكري تحاول اجتذاز شجرة الإسلام من أصلها، حيث تقدم نظاماً حياتياً متكاملًا كبديل للإسلام سواء

كان ديناً كالمسيحية أو اليهودية أو المجوسية في الهند أو نظاماً بشرياً كالعلمانية التي هي إلحاد للدين عن شؤون الحياة والماركسية كذلك التي نرجو أن تكون قد ماتت إلى غير رجعة، وتارة يأخذ شكلاً أكثر خبثاً ودهاء كتقديم النزعة القومية لتفريق المسلمين وتجميد الأقوام سواء كانوا عرباً أو فرساً أو تركاً تورانيين أو بربراً وتقديم العنصرية كبديل للدين حيث عاشت الأمة العربية تحت الديانة التي تسمى بالقومية العربية فبنوا عليها ما يسمى بالاشتراكية العربية، وفي أفريقيا أيضاً انتحلوا اسم الإسلام الأفريقي وألف عن ذلك بعض الباحثين الفرنسيين كتباً سموها «إسلام أفريقيا» يعني الإسلام الأفريقي ويريدون بذلك أن الإسلام في أفريقيا هو إسلام آخر ليس الإسلام العربي وليس الإسلام كما نعرفه وكما جاء في التعريف من الله ورسوله، ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾.

وسائل الغزو الفكري كثيرة، وأنتم تعرفونها يا سيدي الرئيس ويعرفها كل الذين درسوا هذا الموضوع، وتتمثل في مناهج التعليم، تتمثل في المساعدات الغذائية، في برامج عندنا في أفريقيا، برنامج الفاو، وهو برنامج تابع للأمم المتحدة للغذاء، وهو برنامج يقوم عليه مناصرون في شكل مساعدين يجولون كل القرى الأفريقية بما فيها تلك الواقعة في غرب أفريقيا وفي شمالها، وكذلك يكون في شكل مساعدات طبية. وأحكي لكم هنا قصة ذكرها لي بعض المسؤولين في أفريقيا أخيراً بعد مؤتمر القمة الإسلامي الذي انعقد في داكار، قام البابا بزيارة لأفريقيا كانت مبرمجة، كان يريد أن يمحو آثار هذا المؤتمر الذي أظهر انتساب أفريقيا للعالم الإسلامي، فقام البابا بزيارة لجملة من الدول في غرب أفريقيا، في إحدى هذه الدول جاء ترافقه سفينة، هذه السفينة تقدم المساعدات للناس كمساعدات بريثة ولكنها في نفس الوقت تقدم لهم كتباً مسيحية كما أخبرني أحد المسؤولين في غرب أفريقيا بعد المؤتمر الأخير للقمة الإسلامية في داكار حيث قام البابا بزيارة لجملة من الدول الأفريقية الواقعة على المحيط الأطلسي، هذا مثال لطريقة الغزو، تقديم المساعدات الغذائية، تقديم المساعدات الطبية، أهم

وسائل هذا الغزو هي الإعلام الذي أصبحت مهمته كبيرة جداً، ونعرف أن بعض الإذاعات الدولية الموجهة إلى العالم الإسلامي بجميع اللغات هذه الإذاعات تابعة، بعضها تابع لوزارة الخارجية مباشرة وأنا أعرف ذلك، في بعض الدول الغربية وزارة الخارجية هي التي توجه هذه الإذاعات، وتقدم في هذه الإذاعات تعليقات بعد النشرة يقوم بها خبراء على أعلى مستوى من المسؤولية سواء كان في وزارة الخارجية أو في معاهد الدفاع، ونحن سمعنا عن هؤلاء الخبراء كثيراً الذين يتحركون كلما برقت بارقة من ظهور الإسلام في منطقة أو إقدام المسلمين في منطقة من المناطق على قرار تطبيق شريعتهم في شؤونهم الخاصة، فإنه تقوم قيامة هذه الإذاعات وتكيل لهم السباب والشتم وتدعي أن القيامة قد قامت وأن الأصوليين قد قاموا في المكان الفلاني وأن غرقاً وطوفاناً قادمًا لا محالة في وجود هؤلاء. هذه الإذاعات موجهة إلى العالم الإسلامي تشكل أخطر سلاح في الغزو الفكري يوجهه إلى العالم الإسلامي، حيث ونحن نعلم أن العالم الإسلامي مستهدف الآن وردت تصريحات أخيراً تشير إلى هذا وتقول من ركاب المسؤولين في الغرب تقول: إن الحضارة اليهودية المسيحية مهددة من طرف العالم الإسلامي واليهود بذلك يريدون أن يقولوا للمسيحيين: حضارتنا هذه واحدة وإن العالم الإسلامي يمثل تهديداً لهذه الحضارة هذه أمور معروفة لدينا، أعتقد أنه يجب على جميع المسلمين أن يواجهوا هذا المد وهذا الغزو الفكري المتنامي، مواجهة عاقلة ذكية حكيمة لا أقول أن يحملوا السلاح طبعاً حمل السلاح هو وسيلة من الوسائل: ﴿أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوْمِعٌ وَيَبِغٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَكَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٠٠﴾ .

تلك أمور، في البوسنة يحملون السلاح، في أفغانستان حملوا السلاح، في كشمير أيضاً حملوا السلاح وهذه وسيلة من الوسائل ليست مستبعدة أبداً عندما يضطهد المسلم وعندما يفتن في أعز شيء عنده وهو دينه، ولكن نحن كعلماء أو كطلبة علم علينا أن نحاول أن نقدم صورة واضحة عن هذا الغزو الفكري،

يمكن أن نتبنى إنشاء موسوعة إسلامية حول مشكلة الغزو والانحرافات التي وقعت على هذه الأمة، يمكن أيضاً أن نقدم إلى الجهات الفكرية والمرجعية والحكومات الإسلامية تقريراً واضحاً يحدد ما يراد بالعالم الإسلامي من استلاب، حيث يفقد بالتدرج كل مناعة فيسقط بسهولة ضحية لهذا الغزو، لنحاول إلهام المسؤولين في العالم الإسلامي هذا الوضع الجديد الذي نعيشه، يمكن أيضاً وهذا اقتراح مهم جداً إنشاء مرصد فكري لدراسة تفاصيل خريطة الغزو الفكري وتضاريسها، ووضع الخطوط البيانية لهذا الغزو، هذا المرصد الفكري يمكن أن يكون تابعاً لمنظمة المؤتمر الإسلامي أو رابطة العالم الإسلامي أو أي جهة أخرى، يقدم هذا المركز استراتيجيات متكاملة تواجه هذا الغزو الفكري ويقدم النصح لمن يريد أن يستمع إليه، يجب أن نقدم كذلك للعالم كله وجهةً صحيحةً وجميلاً للإسلام الذي لا يدعو إلى الحرب ولكنه يدعو إلى السلام يدعو إلى الحوار يدعو إلى الجدل: ﴿ وَحَدِّثْهُمْ يَا بُنَيَّ إِنَّ هَٰذَا أَلْحَسَنُ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَجِدُ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ .

يجب في النهاية أن نحاول ترتيب البيت الإسلامي لتجنب المسلمين حروباً أهلية يكونون هم حطبها: ﴿ فَإِن نَّزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ، إن العالم الإسلامي يا سيدي الرئيس يقف اليوم على مفترق الطرق في كل أنحاء العالم الإسلامي أصبح الجدل أكثر حدة وإلحاحاً التيار الغربي فيه أصبح ملحاً ومحاولاً متحفزاً، وأكاد أقول أصبح عدوانياً أكثر من ذي قبل لفرض قطيعة مع الإسلام، وفي نفس الوقت أصبحت قوة الرفض في العالم الإسلامي أيضاً شديدة في مقابل هذا التيار، إن هذا الوضع يحتاج إلى ترشيد وللرجوع إلى منطق الشرع والعقل، ولا بد أن يقوم العلماء والمفكرون بدور أساسي للمصالحة مع النفس وللسير في الطريق الصحيح لبناء الحضارة الصحيحة:

فقلت أدعي وأدعو إن أنسى لصوت أن ينادي داعيان

وخلاصة القول، سيدي الرئيس، إن مدخل أي إصلاح ينطلق من المصالحة بين المسلمين والمسلمين، فيجب أن نكون لجنة لتقديم المنهج الوسط

في جميع نواحي الحياة للمسلمين حتى يتجنبوا خطورة الحروب الأهلية
والقفزات للمجهول. والسلام عليكم ورحمة الله.

الشيخ معروف الدواليبي:

بسم الله الرحمن الرحيم،

سيدي الرئيس، كما قلت: ما كنت أريد أن أتكلم، أما وقد أثير التعريف
فقلت أولاً التعريف للعلمانية، وبالنسبة للكنيسة يراد به الشعب يقسم إلى طبقتين
الكهنوت والشعب، والكهنوت هو يتصل مع الله والشعب هو تابع للكهنوت،
فالعلمانية هو إلغاء الاتصال، ولا يجوز تعيين الملك ولا يجوز أن يمارس أي
سلطة ما لم يباركه البابا عندئذ بإذن من الله، فقامت الثورة حتى تخلصوا من أن
يكون للكهنوت سلطة في الدولة، وكلمة علماني هي ترجمة لكلمة لا يوس
اليونانية بمعنى الشعب، ولذلك ليست اللفظة هي علمانية وإنما هو من العلم في
بعض اللغات العربية يراد بها الشعب، أما المعنى الثاني الذي طرأ فهو عندما
اصطدم العلماء في القرن الثامن عشر مع الكنيسة عندما حرقت بعض العلماء مثل
جاليلة وغيرهم الذين قالوا في بعض الاكتشافات، فأرادوا أن يخرجوا عن
الكنيسة ويقصوا تدريس الدين من أساسه تحت ستار العلمانية، ولذلك قالوا:
لا يجوز أن يدرس في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية إلا ما يقر به تعريف
المعرفة العلمية. أرجو من بعض الإخوان الذين ينتقدون لفظة المعرفة أن
لا يدخلوا في متهاتات، نحن نترجم الآن ما يقولون، لا يجوز أن يدرس في
المعاهد الابتدائية والثانوية والعالية إلا ما كان خاضعاً لتعريف المعرفة العلمية،
والمعرفة العلمية التي وضعوها هي ما تؤدي إلى معلوم خاضع للحس والتجربة،
ولما كان الله سبحانه وتعالى — كما يقولون — لا يرى ولا يمكن أن نحدث عليه
تجربة، ولذلك، القول به ليس من العلم.

فأولاً نحن نترجم ولما كان الكلام يتعلق بلفظ «الله» يصعب علي أن أقول
الله — ونحن كمسلمين — بدون ما نقول سبحانه وتعالى أو نحل محله الشخص
الإلهي ونقول الذات الإلهية، ولكن لسنا في مقام التجسيم، فهذا ما أردت أن

أنبه إليه، فلما دعينا من قبل العلماء الآن علماء الذرة ومائة عالم من أمريكا ومن كندا الذين يشرفون على تطوير الذرة المتطورة وقالوا نحن الآن مدركون أنا — لسنا ببعيد — سنصل إلى إحداث قبلة واحدة يكفي لأن تفجر الآن نظام الكون كله، وليست هنالك سلطة تقضي على الإنسان في استعمال هذه القبلة إذا كان لا يؤمن بالله، لذلك ندعوكم — والخلاف كان مع الكنيسة — إلى أن يصطلح العلم مع الدين، فلم يجب الكردينال وأمضوا المدة كلها لم يتكلموا لا سلباً ولا إيجاباً، ولذلك فكنت أنا المتدخل باسم الإسلام، فقلت العلم بوجود الله عندنا يخضع إلى قواعد العلم، نفس الآيات لقوم يعقلون، لقوم يعلمون، لذلك عندنا ليس هناك تناقض ما بين الإيمان بوجود الله وما بين العلم وما بين العقل، فانشرحت صدورهم، ولكنكم لا تستفيدون من هذا المؤتمر بالعودة إلى الإيمان ما لم نعدل تعريف المعرفة العلمية والتي تتكفل اليونسكو بتطبيقها في الجامعات وفي المدارس الابتدائية والثانوية، ولا تسمح أن تدرس العقائد الدينية لأنها ترجع إلى الإيمان بالله الذي لا يمكن أن يرى، فلا بد من تعديل هذا التعريف، فكان في جانبي بعض الشخصيات الإسلامية، بكل أسف، الدارس لعلم التربية، وقال: أرجوك لا تهدم لنا هذا التعريف التجريبي لأنه إذا هدمنا المعرفة العلمية التي تعرف بعلم التربية وعلم النفس بأنها المعرفة التجريبية عندئذ فقدنا الوصول إلى الحقائق، قلت له: يا أخي أريد أن أصحح، فعندما تقول المعرفة العلمية هي كل معلوم خضع للحس، معنى ذلك أن المعلوم المتفق على الإيمان به لا بد أن يكون مرثياً، فأنأ أقول عوض أن نقول: خضع المعلوم دل عليه العلم، فأنتم لماذا تدرسوننا في المدارس أن الأرض خاضعة لمسكها الجاذبية؟ فهل الجاذبية تخضع للمخبر؟ هل نراها؟ قال: لا، قلت له: لماذا غيبكم يدرس على أنه علمي؟ ونحن نقول إن مسكها لإلأ الله، أسألکم الجاذبية هل ترى؟ قال: لا، هل تبصر؟ لا، هل لها عقل؟ منطقتنا يقول الله، نصفه بجميع صفات الكمال، لذلك أعدل المعرفة العلمية المنتشرة في كتب التربية في جميع كليات التربية من قولكم: هي ما خضع المعلوم فيها إلى العلم وإلى الحس والتجربة، ونقول: هي ما دل عليه الحس والتجربة، ما دامت الأرض واقفة وليس هناك شيء يحملها،

الأفلاك واقفة، إذن هناك من يمسكها، والله سبحانه وتعالى علمنا في قرآنه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

إذن تعريفكم كان تضليلاً ويجب تعديله، لأنكم تدرسوننا الجاذبية وهي لا تخضع للحس والتجربة فيجب أن يعدل هذا التعريف ويطلب إلى اليونيسكو بتعديله وتوزيعه حتى نستطيع أن ندخل الإيمان بالله في جميع مدارس العالم، فوافق المؤتمر بإجماعه بكبار العلماء وصدر القرار وطلعت التوصية، ولكن اليهودية العالمية المسيطرة من وراء اليونيسكو تحول حتى الآن في هذا التعديل، وعلينا نحن معشر المسلمين أن نعدل في جامعاتنا المعرفة العلمية ونقول: هي كل معلوم دل عليه الحس والتجربة وليس خضع المعلوم للحس والتجربة. وشكراً سيدي.

الشيخ عجيل جاسم الشمي:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا الهادي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

ما ذكره الإخوة فيه الكفاية، لكن أنه تنويهاً إلى بعض القضايا التي لم يتطرق إليها أو أذكرها من باب تأكيدها، قبل هذا تعليق على كلمة العلمانية مجمع اللغة العربية طلب استبدال كلمة عالمانية بزيادة الألف على العين عالمانية بكلمة العلمانية يعني نستبدل كلمة العلمانية بالعالمانية، أما القضايا فأولاً: لا يمكن أن نواجه الغزو الفكري قبل توحيد جبهتنا الداخلية، وأهم ما يحتاج إلى التنبيه عليه في هذه الجبهة الداخلية أمران، أولاً: ما زال هناك فجوة فيما بين الجماعات الإسلامية، فما زالت هذه الجماعات مشغولة بالجزئيات دون الكلليات بحيث أصبحت تنميتها الفكرية تنمية إن صح التعبير تآكلية، فتنمّي كل جماعة فكرها على حساب الطعن في منهجية غيرها، ويقع على الجامعات دور كبير في هذه الإشكالات بالتوجيه والتأصيل الشرعي السليم، ثانياً: ما زال هناك فجوة فيما بين بعض الحكومات والجماعات الإسلامية، وهذه الفجوة تغذيها الدول

المعادية للإسلام، فكل من يرفع شعار الإسلام يواجه بأنه أصولي وأنه إرهابي، ولو كان أسلوب دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، ولو كان أيضاً تحقيقه لمكاسبه بطريق - كما يقولون - ديمقراطي، ومن يتكلم نصرة لإخوانه قالوا هذه قضايا داخلية، لكن إذا كان الأمر يتعلق بالمصالح الأجنبية فليس هناك شيء اسمه داخلي أو خارجي، الغزو الفكري اليوم أصبح عبارة عن هجمات منظمة ترعاها دول، وهي بالتالي تحتاج إلى جهود دول، وهذا يحمل دولنا المسؤولية، فمثلاً أهم واجهتين تحتاجان إلى جهود الدول، أولاً: الاستشراق الذي تكلم عنه الزملاء، فتريد أن تواجه الاستشراق بإنشاء المراكز لا للاستشراقية وإنما مراكز الاستغراب إن صح التعبير، وتعنى هذه المراكز بدراسة المناهج والفلسفات الغربية وتفنيدها ليكون موقفنا ليس موقف المدافع وإنما موقف الهجوم إن صح التعبير، القضية الثانية التبشير الذي تكلم عنه الإخوة بما فيه الكفاية نريد مواجهة هذا التبشير بجهود الدول، ما زالت الدعوة الإسلامية تعتمد بعد الله تبارك وتعالى على جهود الأفراد في كل أنحاء العالم بأجمعه خاصة في أفريقيا، تقوم على جهود الأفراد والجماعات، ونحن نؤمن بأن الله تبارك وتعالى يبارك هذه الجهود:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

والغرب يدرك الآن أن المستقبل للإسلام، وكل دراساته تشير إلى أن الإسلام قادم، فجهودهم الآن هي في تعطيل مجيء الإسلام وكل هذا طبعاً فتح باب الأمل، لكن لا يخلينا من المسؤولية، هذا ما أحببت أن أضيفه وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الشيخ الخليلي:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد،

فقد سمعنا الكثير عن الغزو الفكري وأساليبه ولا أريد أن أضيف شيئاً جديداً، وإنما هي خواطر خطرت بالبال تدفعني إلى أن أترجمها في هذا المقال المختصر، العالم الإسلامي في هذا الوقت بالذات كان حرياً أن يقود البشرية

ويخرجها من حيرة وقعت فيها، إذ أفلست القيم المادية في هذا الوقت، ولا أدل على ذلك من انهيار الشيوعية التي صورت للناس أنها الفردوس الذي يحملون به، وما إفلاس الشيوعية إلا إفلاس للرأسمالية في حقيقة الأمر، فإن لجوء الذين كانوا يعتنقون الشيوعية إلى الرأسمالية لتحل لهم مشكلاتهم ما هو إلا هروب من الجحيم إلى الهاوية، والعياذ بالله، وما كانت الشيوعية في يوم من الأيام إلا إفرازاً للرأسمالية، لأنها كانت كردة فعل للظلم الرأسمالي، ومن الذي يستطيع أن يخلص هؤلاء من حيرتهم التي وقعوا فيها بعدما أفلست مبادئهم، إنما هم المسلمون الذين يحملون أمانة الله تبارك وتعالى في أعناقهم، وقد تحدث قبل ما يقرب من نصف قرن أحد مفكري الأمة الإسلامية عن فشل الرأسمالية وعن فشل الشيوعية، وقال بهذا النص أو بهذه الترجمة: سيأتي بلا شك اليوم الذي تتحجر فيه الشيوعية في موسكو نفسها بدون أي ملجأ، وتتدهور فيه الرأسمالية في واشنطن نفسها بدون أي ملجأ، وتهيم فيه المادية في جامعات لندن وباريس بدون أي منقذ، وتتلاشى فيه العنصرية حتى عند البراهمة والألمان، وإنما تبقى عبرة في التاريخ قصة من يحمل عصا موسى تحت إبطه وهو يخشى من الحبال والخشب، إننا نتحدث عن واقع نعيش فيه الآن، فنحن نخشى من الحبال والخشب ونحمل عصا موسى تحت إبطنا، لأن في يدنا كتاب الله سبحانه وتعالى والله سبحانه وعد بأن يظهر هذا الدين على الدين كله ولو كره المشركون، فما أجدد هذه الأمة أن تعترز أولاً: بقيمها، فما دامت الشيوعية التي تعتمد المادية أفلست، فإن هذا الفراغ الذي تركته لا يمكن أن يملأها إلا الإسلام الذي يعطي كل شيء من جوانب الحياة البشرية حقه، فيعطي الجانب الروحي حقه ويعطي الجانب المادي حقه، والذي جاء بما يحل مشكلات الناس إلى أن تقوم الساعة، سواء من ناحية اقتصادية أو ناحية اجتماعية أو ناحية ثقافية أو ناحية إعلامية أو أي ناحية أخرى، ولكن هل المسلمون اليوم يطبقون الإسلام، إن الفراغ العظيم الذي عند المسلمين أنفسهم هو المصيبة الكبرى، فهناك فجوة كبيرة بين قيم الإسلام وواقع الأمة الإسلامية، فإذا نظر أحد إلى الناحية السياسية أو الناحية الإعلامية أو الناحية الاجتماعية أو الناحية الثقافية أو الناحية التربوية يجدها بعيداً عن

الإسلام، فالإعلام الذي في بلاد الإسلام يغزو المسلمين في عقر ديارهم، يتخطى الحدود ويقتحم السدود ليغزو المسلمين في بيوتهم، ومناهج التربية والتعليم هي أيضاً بعيدة عن قيم الإسلام، عن غرس الروح الإسلامية في نفوس المسلمين، ثم من ناحية أخرى فإن أعداء الإسلام قد توصلوا إلى زعزعة ثقة المسلمين بموارثهم الفكرية والتاريخية، وهم بذلك قد أحرزوا نصراً تحدثوا عنه بأنفسهم، فالمنصرون كانوا قبل كل شيء يهتمهم أن ينصروا المسلمين، والمجتمعات التنصيرية أو المؤتمرات التنصيرية التي انعقدت كلها ينصب همها في ذلك، فالمؤتمر التنصيري الذي انعقد في مصر برئاسة زويمر في عام ١٩٠٦، ثم تلاه بعد ذلك المؤتمر التنصيري في أندربرج، ثم المؤتمر في عام ١٩١٠، ثم المؤتمر التنصيري في لاكتيو في عام ١٩١١، كلها كانت تصب همها في هذا الإطار، وفي المؤتمر الذي انعقد في مصر وضعوا حداً لتنصير المسلمين في مدة خمسة وعشرين عاماً، وكان من كلام زويمر إننا واثقون بأن المسلمين سيتلقون التعاليم النصرانية تلقائياً ما داموا يتلقون المعارف الأوروبية، وقال بأنه يجب أن تقطع الشجرة ببعض أغصانها أي أن يحارب المسلمون بأبنائهم الذين يتلقون المعارف من الأوروبيين، إلا أن المدة التي حددوها انتهت وتحطمت آمالهم على صخرة الإسلام، فأفضى بهم الأمر أخيراً إلى محاولة إبعاد المسلمين عن الإسلام، وبهذا يرون بأنهم يحققون أعظم المكاسب، وقد تحدث زويمر عن ذلك أيضاً في مؤتمر القدس في عام ١٩٣٥، إذ قال في هذا المؤتمر: إن مهمة التبشير التي نددتكم من أجلها الدول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في تنصير المسلمين، لأن في ذلك هداية لهم وتكريماً، وإنما هي في إخراج المسلم من الإسلام وجعله مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبهذا تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهم حققوا نصراً لا يستهان به في هذا المجال، لأنهم زهدوا المسلمين في مواردهم الفكرية والتاريخية، فأصبح المسلم اليوم يرى أن مجده وعزه وشرفه في تقليد الآخرين، مع أن الدين الحنيف جاء بغرس اعتزاز المسلمين بالقيم الإسلامية وعدم تأثر المسلمين بسلوك الآخرين،

كما جاء أيضاً بما يغرس في نفوس المسلمين الثقة بالعقيدة الإسلامية، وحذر الإسلام الحنيف من أية موالاتة لأعداء الإسلام، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوْلِيَاءَ تَلْقَوُا إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

هذه أمنية كل كافر.

وقال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ءَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ ءَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فترى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْتَرِغوثُ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبَهُمْ أَوْ يَآسِرُهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ نَدِيمٌ﴾.

أي أن هذه الموالاتة لا تنجم إلا عن مرض نفساني، وفي هذا السياق نفسه حذر الله تبارك وتعالى من الارتداد إذ قال عز من قائل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ءَؤُلَآءِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أُخْرَى عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

هذا كله يدل على أن هذه الموالاتة والاسترسال فيها تؤدي والعياذ بالله إلى الردة، لأن المسلم يزهد في قيم الإسلام شيئاً فشيئاً، قد يزهده أولاً في ما يسميه في الشكليات ثم ينتهي به المطاف إلى الزهد في الجوهريات، والمسلم الواثق بالله سبحانه وتعالى عليه أن يشعر أن أي مسلم كان على ظهر هذه الأرض هو حارس أمين، أولاً: هو حارس أمين يقف على ثغرة من ثغور هذا الدين يخشى أن يؤتى الإسلام من قبله، ومن ناحية ثانية هو مبلغ لأمانة الله إلى عباد الله، مبلغ لدعوة هذا الدين، والمسلمون الذي انطلقوا من صحراء الجزيرة العربية وكانوا كما يصفهم أحد الكتّابيين كأنما جاء هذا القرآن ولفظ هذه الصحراء تحت شعاع الشمس فترقت ذرات هذه الصحراء في الأرض، ووقعت وراء كل ذرة عربية من هداية القرآن، أولئك المسلمون ساسوا الممالك التي كانت من قبل تساس من قبل أباطرة الأرض مع أنه لم يسبق للعرب قبل هذا الإسلام الذي شرفهم الله تعالى به أن ساسوا أمة من الأمم، لم يسبق لهم أن بنوا لأنفسهم دولة، اللهم إلا

بعض الدويلات في بعض الأماكن، فكيف أمكن لهؤلاء الذين خرجوا من صحراء الجزيرة العربية أن يسوسوا ممالك كسرى وممالك الروم على ضوء القرآن لولا أن الله تبارك وتعالى غرس في نفوسهم الإيمان، وكان أحدهم يقول: إن الله قد ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، والآن ونحن غزينا هذا الغزو ومع كوننا غزينا هذا الغزو نثق في وعد الله بأن ينصر هذا الدين ونثق بأن أية قوة في الأرض لا يمكنها أن تقف في وجه انتشار هذا الإسلام وظهور هذا الإسلام، كما لا يمكن لأي قوة في الأرض أن تمنع الشمس أن تطلع وأن تمنع النهار بأن يسطع، إلا أننا مع ذلك ما الذي أعدناه، إنما علينا أن نعد العدة، عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ .

أولاً: علينا أن نقوي جبهتنا الداخلية كما سمعنا من بعض الإخوة، وذلك باجتماع شمل المسلمين ورأب صدعهم وتوحيد صفهم، دين الإسلام جاء داعياً للوحدة كما جاء داعياً إلى التوحيد نهى عن التفرق كما نهى عن الإشراف بالله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ، ثم بجانب ذلك علينا أن نغرس أيضاً في نفوسنا ونفوس أبنائنا الثقة بهذا الدين وأن نغرس هذه الثقة في حكامنا، بحيث لا يتصورون الإسلام شبحاً مخيفاً وخطراً رهيباً، كما يحاول أعداء الإسلام أن يصوروه لهم، علينا أن نعرفهم بأن عزتهم إنما تكمن بهذا الإسلام، وذلتهم إنما هي في البعد عن الإسلام الحنيف، وقد حرص أعداء الإسلام — كما سمعنا — أن يصوروا كل شاب مسلم يتمسك بدين الله خطراً يهدد الأمن في البلاد، فوصموا المتمسكين بالإسلام بشتى التهم وألبسوهم أثواب الدعايات الفاجرة المختلفة، وحاولوا أن ينبزوهم بشتى الألقاب المنفرة منهم، كل ذلك لأنهم يعلمون بأن تمسك المسلم بالإسلام هو الذي سيزلزل الأرض من تحت أقدامهم ما داموا معرضين عن هدى الله تبارك وتعالى، وعلينا أن نسعى لنشر المعارف الإسلامية، ونشر المعارف الإسلامية إنما يتم بوسائله المعروفة ومن أهم هذه الوسائل نشر اللغة العربية، فاللغة العربية يجب أن تنشر في أوساط

المسلمين جميعاً من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وإذا كان المستعمر في كل البلاد يفرض لغته لأجل أن تنقل هذه اللغة إلى أبناء تلك البلدة أدبه وأفكاره فكيف بلغة الدين الحنيف لا تشر في أوساط المسلمين، مع أن هذه اللغة لم تعد لغة العرب وحدهم بعدما كانت وعاء لكلام الله سبحانه وتعالى، وقد خاطب الله تبارك وتعالى بها عباده في كتابه المبين، كما أن العباد المسلمين عندما يمثلون بين يدي الله تعالى يخاطبونه بها عندما يقولون إياك نعبد وإياك نستعين، وقد قلت غير مرة إن من العار والخزي أن يحسن المسلم – أياً كانت جنسيته وأياً كان جنسه – اللغة الأجنبية لغة المستعمر الدخيل ولا يحسن اللغة التي خاطبه الله تبارك وتعالى بها، نحن معاشر المسلمين علينا أن نسعى إلى نشر هذه اللغة حتى لا نحتاج إلى ترجمة فيما بيننا، يجب أن تزول التراجم في بلاد الإسلام من أقصاها إلى أقصاها، ولا ترشح لغة لربط المسلمين بعضهم ببعض غير لغة القرآن بعدما كانت وعاء لكلام الله وكانت أيضاً وعاء لسنة رسول الله ﷺ، وكيف يفهم المسلم الإسلام الصحيح على أصوله وهو لا يفهم هذه اللغة، وعلينا أن نردم أو نسعى إلى ردم هذه الهوية السحيقة ما بين قيم الإسلام ومبادئ الإسلام وبين واقع الأمة الإسلامية، وعلينا أن نعرف أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، بحيث نعتد بموارثنا الفكرية وتاريخنا العظيم، ولا نحاول أن نفصل عن ماضيها، ونحن فصلنا عن ماضيها في كثير من القضايا على الأقل قضية التاريخ، الآن مع الأسف الشديد تسأل المسلم عن اليوم فيجيب بالشهر الأفرنجي عن الشهر غير الإسلامي، ولا يتحدث عن الشهر الإسلامي، مع أن الله تبارك وتعالى يقول:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ .

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ ﴾ ، جعلها من الدين القيم، والتاريخ الهجري تاريخ أجمع عليه المسلمون في عهد الخلافة الراشدة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستمروا على هذا التاريخ طيلة ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن، وإنما تأثروا من بعد عندما غزوا من قبل أعداء الإسلام، هذا مثال من ضمن الأمثلة التي يجب علينا أن لا نتهاون بها

وأن لا نهون من أمرها، هذا ما أردت أن أقوله، وأسأل الله تبارك وتعالى التوفيق للجميع وشكراً. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرئيس:

بسم الله الرحمن الرحيم.

مع اعتذارنا الشديد عن كلمات بعض أصحاب الفضيلة ننهي هذه الجلسة المباركة بتأليف لجنة من أصحاب الفضيلة المشايخ: الشيخ الخليلي، الشيخ طه، الشيخ عجيل، الشيخ محمد الزيايدي، الشيخ عبد القادر العماري، الأستاذ الجناحي والعارضان والمقرر، ونرجو أن يتفضلوا بالتنسيق مع الشيخ عبد السلام قبل انصرافهم من هذه القاعة نظراً لأنه لا بد من إنهاء القرار إعداداً وصياغة قبل الصباح بإذن الله تعالى، ونرجو من الله سبحانه وتعالى التوفيق للجميع، وثمت أمران، الأمر الأول هناك الجلسة الصباحية مغلقة وتقتصر على الأعضاء ممثلي الدول والأعضاء الرسميين لهذا المجمع، وأما الجلسة الختامية إن شاء الله تعالى فهي في المساء بعد صلاة المغرب أي في الساعة السابعة والنصف تماماً، والله ولي التوفيق، وبه ترفع الجلسة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

القرار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين
وعلى آله وصحبه.

قرار رقم: ٧/٧/٧١

بشأن

الغزو الفكري

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره السابع بجدة في
المملكة العربية السعودية من ٧ إلى ١٢ ذو القعدة ١٤١٢هـ الموافق ٩ - ١٤
مايو ١٩٩٢م.

بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع: «الغزو
الفكري»، والتي بينت بداية هذا الغزو وخطورته وأبعاده وما حققه من نتائج في
بلاد العرب والمسلمين، واستعرضت صوراً مما أثار من شبه ومطاعن، ونفذ من
خطط وممارسات، استهدفت زعزعة المجتمع المسلم ووقف انتشار الدعوة
الإسلامية، كما بينت هذه البحوث الدور الذي قام به الإسلام في حفظ الأمة
وثباتها في وجه هذا الغزو وكيف أحبط كثير من خططه ومؤامراته،

وقد اهتمت هذه البحوث ببيان سبل مواجهة هذا الغزو وحماية الأمة من
كل آثاره في جميع المجالات وعلى كل الأصعدة،

وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حول هذه البحوث،

يوصي بضرورة ما يلي :

- ١ - العمل على تطبيق الشريعة الإسلامية واتخاذها منهجاً في رسم علاقاتنا السياسية المحلية منها والعالمية.
- ٢ - الحرص على تنقية مناهج التربية والتعليم والنهوض بها بهدف بناء الأجيال على أسس تربوية إسلامية معاصرة وبشكل يعدهم الإعداد المناسب الذي يبصرهم بدينهم ويحصنهم من كل مظاهر الغزو الثقافي.
- ٣ - تطوير مناهج إعداد الدعاة من أجل إدراكهم لروح الإسلام ومنهجه في بناء الحياة الإنسانية بالإضافة إلى اطلاعهم على ثقافة العصر ليكون تعاملهم مع المجتمعات المعاصرة عن وعي وبصيرة.
- ٤ - إعطاء المسجد دوره التربوي المتكامل في حياة المسلمين لمواجهة كل مظاهر الغزو الثقافي وآثاره وتعريف المسلمين بدينهم التعريف السليم الكامل.
- ٥ - رد الشبهات التي أثارها أعداء الإسلام بطرق علمية سليمة بثقة المؤمن بكمال هذا الدين دون اللجوء إلى أساليب الدفاع التبريري الضعيف.
- ٦ - الاهتمام بدراسة الأفكار الوافدة والمبادئ المستوردة والتعريف بمظاهر قصورها ونقصها بأمانة وموضوعية.
- ٧ - الاهتمام بالصحة الإسلامية ودعم المؤسسات العاملة في مجالات الدعوة والعمل الإسلامي لبناء الشخصية الإسلامية السوية التي تقدم للمجتمع الإنساني صورة مشرقة للتطبيق الإسلامي على المستوى الفردي والجماعي وفي كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.
- ٨ - الاهتمام باللغة العربية والعمل على نشرها ودعم تعليمها في جميع أنحاء العالم باعتبارها لغة القرآن الكريم واتخاذها لغة التعليم في المدارس والمعاهد والجامعات في البلاد العربية والإسلامية.

٩ – الحرص على بيان سماحة الإسلام وأنه جاء لخير الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة. وبحيث يكون ذلك على المستوى العالمي وباللغات الحية جميعها.

١٠ – الاستفادة الفاعلة والمدروسة من الأساليب المعاصرة في الإعلام مما يمكن من إيصال كلمة الحق والخبر إلى جميع أنحاء الدنيا ودون إهمال لكل وسيلة متاحة.

١١ – الاهتمام بمواجهة القضايا المعاصرة بحلول إسلامية والعمل على نقل حلول الإسلام لهذه المشكلات إلى التنفيذ والممارسة لأن التطبيق الناجح هو أفعل طرق الدعوة والبيان.

١٢ – العمل على تأكيد مظاهر وحدة المسلمين وتكاملهم على كل الأصعدة وحل خلافاتهم ومنازعتهم فيما بينهم بالطرق السليمة وفق أحكام الشريعة المعروفة إفساداً لمخططات الغزو الثقافي في تفتيت وحدة المسلمين وزرع الخلافات والمنازعات بينهم.

١٣ – العمل على بناء قوة المسلمين واكتفائهم الذاتي اقتصادياً وعسكرياً.

١٤ – مناشدة الدول العربية والإسلامية مناصرة المسلمين الذين يتعرضون للاضطهاد في شتى بقاع الأرض ودعم قضاياهم ودرء العدوان عنهم بشتى الوسائل المتاحة.

كما يوصي المجلس أيضاً الأمانة العامة للمجمع باستمرار الاهتمام بطرح أهم قضايا هذا الموضوع في لقاءات المجمع وندواته القادمة نظراً لأهمية موضوع الغزو الفكري وضرورة وضع استراتيجية متكاملة لمجابهة مظاهره ومستجداته ويمكن البدء بقضيتي التنصير والاستشراق في الدورة القادمة.

والله ولي التوفيق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

والله أعلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

والله أعلم

البيان الختامي

الصادر عن الدورة السابعة

لمؤتمر مجلس مجمع الفقه الإسلامي
بجدة - المملكة العربية السعودية

في الفترة ما بين ٧ - ١٢ ذي القعدة ١٤١٢ هـ

٩ - ١٤ من شهر مايو أيار ١٩٩٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»

في ظل كتاب الله الكريم وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَشِعْ أِهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وتحت الإشراف الملكي السامي لخدام الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود. ملك المملكة العربية السعودية - أعزه الله - وبرعاية كريمة من صاحب السمو الملكي الأمير ماجد بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة، انعقدت برحاب جامعة الملك عبد العزيز بمدينة جدة الدورة السابعة لمؤتمر مجمع الفقه الإسلامي المتفرع عن منظمة المؤتمر الإسلامي في الفترة ما بين ٧ - ١٢ من شهر ذي القعدة ١٤١٢هـ (٩ - ١٤ من شهر مايو «أيار» ١٩٩٢م).

وقد تميزت الجلسة الافتتاحية بكلمة خدام الحرمين الشريفين - أعزه الله - فهي إلى جانب ما تناولته من توجيهات سديدة، وحددته من أهداف عالية، تضبط رسالة المجمع ودوره بقوله: وإن هذا المجمع وما يضمه من صفوة علماء وحكماء الأمة الإسلامية لهو دليل تضامنها وتوحيد كلمتها وندعو إخواننا المسلمين حكاماً وشعباً أن يطرحوا ما لديهم من تساؤلات أو اختلافات على هذا المجمع الفقهي وعلينا أن نتقبل بالرضا والتأييد ما يصدر عنه، فإنه يمثل إجماع علماء الأمة الإسلامية.

وقد شارك في هذه الجلسة أصحاب المعالي والسعادة:

الدكتور حامد الغابد، الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، والدكتور التجيني الهدام، عضو المجلس الأعلى للدولة في الجزائر، وعدد من مديري

الجامعات بالمملكة العربية السعودية وبعض رؤساء المنظمات الإسلامية وممثلو المؤسسات المتفرعة عن منظمة المؤتمر الإسلامي وأعضاء السلك الدبلوماسي الإسلامي بالمملكة وأعضاء المجمع الممثلون لأكثر من اثنتين وثلاثين دولة وأغلب الأعضاء المعينين .

ثم ألقى معالي الدكتور حامد الغابيد، الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي كلمة حياً فيها الحاضرين، وتوجه فيها بالخطاب إلى المجاهدين الأفغان داعياً إياهم لتوحيد صفوفهم وبناء دولتهم .

وتناول الكلمة بعد ذلك معالي رئيس مجلس المجمع الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، وتبعه الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي وسماحة الشيخ محمد المختار السلامي بإلقائه كلمة الأعضاء .

وعقدت بعد ذلك الجلسة التنظيمية التي جرت فيها الانتخابات بين الأعضاء، وأسندت فيها من جديد رئاسة مجلس المجمع لفضيلة الشيخ العلامة بكر أبو زيد، كما تم انتخاب السادة الشيخ محمد المختار السلامي والقاضي محمد تقي العثماني والدكتور عمر جاه، نواباً للرئيس .

وتم أثر ذلك انتخاب أعضاء مكتب المجمع الممثلين للدول الست التالية : أندونيسيا – ماليزيا – الإمارات العربية المتحدة – المملكة المغربية – جمهورية تشاد وجمهورية النيجر .

ثم نظر المجلس في جدول أعمال الجلسات وأقره معيناً بالإجماع فضيلة الدكتور عبد السلام العبادي مقررأ عاماً للدورة .

وامتدت بعد ذلك على مدى ستة أيام جلسات المجمع الصباحية والمسائية وتمت مناقشة الأسواق المالية في جلسات يومي السبت والأحد واستمع إلى عروض كثيرة تتعلق بالقضايا المطروحة في هذا الباب وهي الأسهم والاختيارات والسلع وبطاقات الائتمان .

وبعد مناقشة هذه العروض تكونت لجنة لصياغة القرارات المتعلقة بها،

وصباح يوم الاثنين تمت دراسة موضوع البيع بالتقسيط، واستمع إلى العروض والمناقشات وتشكلت لجنة ثانية لصياغة القرارات المتعلقة بها. وفي عصر هذا اليوم بحث موضوع عقد الاستصناع على النحو الذي تم في بقية الموضوعات، وفي يوم الثلاثاء نوقشت العروض المتعلقة ببيع الوفاء وبعد العصر قضايا العلاج الطبي وتكونت لكل واحد من الموضوعين لجنة لصياغة القرار.

وفي يوم الأربعاء صباحاً بحث مجلس المجمع موضوع الحقوق الدولية في نظر الإسلام فاستمع إلى العروض ونوقشت البحوث وكلفت لجنة للصياغة وبعد عصر هذا اليوم طرحت قضية الغزو الفكري وجرى النقاش حول العروض وعينت لجنة أخرى للصياغة. وفي كامل يوم الخميس، استمع المجلس إلى صياغة القرارات فناقشها وأقرها في صورتها الأخيرة وتولى بعد ذلك النظر في مشاريع المجمع: المجلة - وتيسير الفقه - والموسوعة الفقهية - الاقتصادية - ومعجم مصطلحات الفقه المالكي - ومعلمة القواعد الفقهية وتقنين الشريعة، مكوناً لجاناً لمتابعة إنجاز هذه المشاريع على نحو يكفل النجاعة ويحقق الغاية من الغاية من هذه الجهود.

ثم وقع النظر في ميزان المجمع وتمت - بعد مناقشته - المصادقة عليه بالإجماع.

ومن المفيد أن نذكر هنا بأن البحوث التي قدمت في هذه الدورة للمجلس تبلغ ستين (٦٠) بحثاً وكان عدد العارضين اثني عشر (١٢) عارضاً وكذلك المقررون.

ولا يسعنا في ختام هذه الدورة إلا أن نرفع من جديد إلى خادم الحرمين الشريفين كل الشناء والشكر على ما يلقاه مجمع الفقه الإسلامي من تشجيع من لدنه ودعم ورعاية سامية، ولما لقيه المشاركون من كرم الضيافة وحسن الوفادة مما يسر انعقاد الدورة السابعة ومكنها من أسباب النجاح.

وقد عبر المشاركون عن عميق تقديرهم لمبادرة خادم الحرمين الشريفين

بتمويل مشروع ترميم قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك، أولى القبلتين، وهو ما يؤكد مرة أخرى اهتمامه بالمقدسات، الإسلامية، وحرصه المتواصل على إعمارها والحفاظ على معالم الحضارة الإسلامية وتخليدها.

وإزاء ما يتعرض له المسلمون من حملات تهدد عقيدتهم ومن ممارسات قمعية واضطهاد وتشريد في فلسطين وفي البوسنة والهرسك وكشمير، وبورما وغيرها من البلاد، دعا المجلس إلى توحيد جهود الأمة الإسلامية وتراص صفوفها وتوحيد كلمتها للقضاء على الظلم والعدوان أينما كان، وتحقيق العزة للمجتمع الإسلامي قاطبة.

كما أعرب المجلس عن عميق تقديره لمعالي الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي الدكتور حامد الغابدي، لما يلقاه المجمع لديه من دعم وتوجيه، ولإشرافه بنفسه على اجتماع مكتب المجمع ومساهمته في مداولاته.

كما أعرب المجلس عن خالص مشاعر العرفان لمعالي الدكتور رضا محمد سعيد عبيد، مدير جامعة الملك عبد العزيز ومسؤولي الجامعة لما لقيه المشاركون من ترتيبات ممتازة ساهمت مساهمة فعالة في نجاح هذه الدورة المتميزة.

ولا يسعني هنا إلا أن أتوجه بالشكر الخالص لمعالي الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رئيس المجمع، على ما قام به من جهود في إدارة الجلسات ومناقشة الموضوعات بروح علمية وأخلاق زكية تمكن المجمع من المضي قدماً في تحقيق رسالته النبيلة كما أنه بما قام به أعضاء المجلس والخبراء والعارضون والمقررون من جهود بينة واصلوا بها ليلهم بنهارهم اضطلاعاً بأشغال الدورة ووفاءً بمتطلباتها العلمية.

وأشيد بما قامت به أجهزة الإعلام في المملكة وخارجها من تغطية شاملة لهذه الدورة وللباحث التي عرضت فيها مخصصاً بالذكر أجهزة الإعلام السعودي من تلفزة وإذاعة وصحافة سهرت على تنفيذ ذلك بتوجيه كريم من معالي الأستاذ علي بن حسن الشاعر وزير الإعلام في المملكة.

ولا يفوتني كذلك أن أنوه بالجهود الكبيرة المتواصلة التي قامت بها بعزم وجد مثاليين الأمانة العامة المتابعة للدورة وكذلك المشرفون على قاعات الاجتماعات وعلى الفندق وعلى نقل المشاركين.

وفي ختام هذا البيان أدعو الله العلي القدير أن يرزقنا التوفيق والتسديد في أعمالنا ويمدنا بحسن عونه وكريم عنايته لنحقق أهداف المجمع ونبلغ بذلك خدمة ديننا ومستقبل أمتنا إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صدر في جدة في: ١٢ ذي القعدة ١٤١٢هـ

الموافق: ١٤ مايو (أيار) ١٩٩٢م

الفهرس العام

محتوى العدد السابع بأجزائه الأربعة

الصفحة

الموضوع

فهرس الجزء الأول

كلمات التقدفم:

- كلمة معالى الأملن العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى/
الدكتور حامد الغابذ ١١
- كلمة معالى رئس مجلس المجمع وأملن عام المجمع ١٧

القسم الأول: الجلسة الافتتاحفة

- كلمة صاحب السمو الملكى الأملر ماجذ بن عبد العزفز/
أملر منطقة مكة المكرمة ٢٧
- كلمة معالى الأملن العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى/
الدكتور حامد الغابذ ٣٣
- كلمة معالى رئس مجلس المجمع/
الدكتور بكر بن عبد الله أبو زفذ ٤١
- كلمة معالى الأملن العام لمجمع الفقه الإسلامى/
الدكتور محمد الحفبف بن الخوجة ٤٧
- كلمة الأعضاء ٥٩

القسم الثانى: بهوت المؤتمر وفتاواه

الأسواق الطائففة:

- بحث الدكتور على محفبى الدفن القره داغى ٧٣
- بحث الدكتور محمد على القرى بن عفذ ١٩٥

٢٢٣	مفتي الجمهورية التونسية	—
٢٤٩	بحث فضيلة الدكتور وهبة مصطفى الزحيلي	—
٢٦١	بحث فضيلة الدكتور الصديق محمد الأمين الضرير	—
٢٧٣	بحث الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان	—
٣٢٧	بحث الدكتور عبد الستار أبو غدة	—
٣٤١	بحث القاضي محمد تقي العثماني	—
٣٥٧	بحث الدكتور عبد الستار أبو غدة	—
٣٧٣	بحث الدكتور محمد علي القرني بن عيد	—
٤٠٥	بحث الدكتور رفيق يونس المصري	—
٤١٣	بحث الشيخ عبد الله الشيخ محفوظ بن بية	—
٤٢٣	بحث الشيخ عبد الله الشيخ المحفوظ بن بية	—

□ الوثائق:

٤٣٩	وثيقة رقم (١)	—
٤٨٣	وثيقة رقم (٢)	—
٥٢١	وثيقة رقم (٣ / أ)	—
٥٢٩	وثيقة رقم (٣ / ب)	—
٥٣٧	وثيقة رقم (٤)	—
٥٥١	وثيقة رقم (٥)	—
٥٦٣	المناقشة	—
٧٠٩	القرار	—

فهرست الجزء الثاني

□ البيع بالتقسيط :

٩	— بحث الدكتور نزيه كمال حمّاد
٢٩	— بحث فضيلة القاضي محمد تقي العثماني
٦٧	— بحث الدكتور رفيق يونس المصري
١٠١	— بحث الدكتور محمد عطا السيد أحمد
١١٥	— بحث الدكتور نزيه كمال حمّاد
١٦٩	— المناقشة
٢١٥	— القرار

□ مقد الاستصناع :

٢٢٣	— بحث فضيلة الشيخ مصطفى أحمد الزرقاء
٢٥٥	— بحث الدكتور علي السالوس
٣٠٣	— بحث الدكتور وهبة مصطفى الزحيلي
٣٢٣	— بحث الدكتور علي محيي الدين القره داغي
٣٧٧	— بحث الدكتور عبد الله محمد عبد الله
٤٠٣	— بحث الدكتور عبد السلام العبادي
٤٢٥	— بحث الدكتور حسن علي الشاذلي
٥٠٥	— بحث الدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرفور
٥١٩	— بحث فضيلة الشيخ كمال الدين جعيط
٥٥٥	— بحث فضيلة الشيخ مصطفى كمال التارزي
٦٢٧	— بحث الدكتور سعود بن مسعد بن مساعد الثبيتي
٦٧٩	— بحث الدكتور محمد رأفت سعيد
٧٢٩	— المناقشة
٧٧٥	— القرار

فهرست البحار الثالث

□ بيع الوفاء :

- ٩ بحث فضيلة الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء
- ٢١ بحث فضيلة لشيخ خليل محيي الدين الميس
- ٦٥ بحث حجة الإسلام الشيخ محمد علي التسخيري
- ٩٣ بحث الدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرفور
- بحث محمد الحبيب ابن الخوجة/
- ١٠٧ الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي
- ٣٢٥ بحث محيي الدين قادي
- ٣٧٥ بحث الدكتور عبد الله محمد عبد الله
- ٤٠٧ بحث الدكتور محمد عطا السيد سيد أحمد
- ٤٢١ بحث فضيلة الشيخ الشريف محمد عبد القادر
- ٤٣٣ بحث فضيلة الشيخ المفتي محمد رفيع العثماني
- ٤٦٧ بحث الأستاذ محمود شمام
- ٤٨٧ بحث الدكتور حمداتي شبيها ماء العينين
- ٥١٣ المناقشة
- ٥٥٥ القرار

□ العلاج الطبي :

- ٥٦٣ بحث الدكتور محمد علي البار
- ٥٩٧ بحث الدكتور علي محمد يوسف المحمدي
- ٦٦٣ بحث الدكتور محمد عدنان صقال
- ٦٧٣ بحث الدكتور عبد الله محمد عبد الله
- ٦٨١ المناقشة
- ٧٢٩ القرار

فهرسب السزء الرابص

□ الحقوق الدولفة:

- بلس الشفء محمد علي السسفرى ٩
- بلس سماصا الءكفور عبء العرفز الصفاط ٤٧
- بلس الءكفور محمد الءسوقى ٨٥
- بلس الءكفور محمد رأفء سعفء ١٢٩
- المناقشة ٢٥٥
- القرار ٣٠٣

□ الفزوء الفكرفى:

- بلس معالى الءكفور محمد معروف الءوالفسى ٣١١
- بلس الءكفور محمد عبء اللطف صالح الفرفور ٣١٧
- بلس الشفء محمد علي السسفرى ٣٨٥
- بلس الءكفور محمد نبفل عنافم ٥٠٥
- بلس الءكفور أحمء عبء الرءفم السافء ٦١١
- بلس الشفء القاسم البفءقى المصءار ٦٨٥
- بلس الءكفور عمر فوسف صمزة ٧٣٥
- المناقشة ٨٣١
- القرار ٨٨٣
- الببان الصءامى ٨٨٩
- الفهرس العام ٨٩٧



